

أنور اجندی

أصالة الفكر الإسلامي في مواجهة  
الغريب والعلمانية والشوئ الغربي

# قضايا الأدب والثقافة وفن

الكشف عن سموم كسب التفريب والغزو الفكري

دار الفخيلة

# دار الفضيلة

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة: القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف الساعاتي -  
كلية البنات - مصر الجديدة - ت. فاكس: ٤١٨٩٦٦٥  
المكتب: ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة - ت ٣٩٠٩٢٣١  
الإمارات، دبي - ديرة - ص.ب ١٥٧٦٥ - ت ٦٩٤٩٦٨ فاكس ٦٢١٢٧٦

وكيلنا في المملكة المغربية:

## دار الإحسان

للطباعة والنشر والتوزيع

للإحسان في نشر الكتب

35 - 33 الشارع الملكي (الأحياس) - الدار البيضاء  
الهاتف 30.42.85 - الفاكس 44.45.39

جميع الحقوق محفوظة للناس







## آفاق البحث

الصفحة	الموضوع
٩	مدخل .....
١٧	الباب الأول : مرحلة التبعية والولاء الغربى .....
١٨	أولاً : الحملة على الدولة العثمانية .....
٢٠	ثانياً : المؤامرة على المسجد الأقصى .....
٢٤	ثالثاً : إسقاط الخلافة .....
٣٨	رابعاً : حجب الشريعة وفرض القانون الوضعى .....
٤٥	- عقبات فى سبيل تطبيق الشريعة .....
٤٦	- الشبهات المثارة .....
٤٧	أولاً : قضية الحدود .....
٤٩	ثانياً : تطوير الشريعة .....
٥٢	ثالثاً : التشكيك فى قدرة الشريعة على العطاء .....
٥٥	رابعاً : المعاملات الربوية .....
٥٦	خامساً : تعديل القانون الوضعى .....
٥٩	سادساً : الحرب على اللغة العربية .....
٦٠	- لطفى السيد .....
٦٤	- سعد زغلول .....
٦٣	- سلامة موسى .....
٦٤	- عبد العزيز فهمى .....
٦٦	- لويس عوض والتشكيك فى القرآن .....
٧٠	سابعاً : الدعوة إلى الفرعونية .....
٧٤	ثامناً : الاستشراق والتبشير .....
٨٢	- تطورات خطيرة فى أساليب التبشير .....
٩٠	تاسعاً : إحلال فكرة القومية الوافدة بديلاً عن الوحدة الإسلامية .....

٩٤	عاشراً : إخراج المرأة المسلمة عن رسالتها الأصلية .....
٩٩	الباب الثاني : تحرير الثقافة الإسلامية من دخائل الفكر الوثني .....
١١٣	الباب الثالث : الحملة على القرآن الكريم تدخل مرحلة خطيرة .....
١١٤	- القرآن الكريم والمؤامرة عليه .....
١١٨	- كشف الإسلام حقيقة الدين الإلهي .....
١٢٠	- القرآن مصدر العلوم الاجتماعية .....
١٢١	- القرآن الكريم والشعر الجاهلي .....
١٢٤	- القرآن الكريم والفن القصصي .....
١٢٨	- القرآن الكريم والنثر الفني .....
١٣٢	- المفتريات على القرآن الكريم .....
١٣٤	- المعركة مع القرآن الكريم مستمرة .....
	الباب الرابع : مؤامرة الماركسية والعلمانية للتحرر من سلطة النص
١٣٧	الديني ( القرآن والسنة ) .....
١٤١	- بشرية القرآن وإنكار الوحي .....
١٤٦	- أخطاء نصر أبو زيد .....
	الباب الخامس : أخطاء المصطلحات الأربعة [ العلمانية - التنوير -
١٥٥	الحدائق - الإبداع ] .....
١٧٧	الفصل الأول : العلمانية .....
١٨٩	الفصل الثاني : ظلامية التنوير التغريبي .....
١٩٣	الفصل الثالث : الحدائق .. دعوة إلحادية .....
١٩٩	- الحدائق العربية .....
٢٠٣	الفصل الرابع : الإسلام وحرية الإبداع .....
٢١٦	- الإبداع من مفهوم إسلامي .....
٢١٩	الباب السادس : قضايا اللغة والأدب والفن في ضوء الإسلام .....

الموضوع	الصفحة
الأساطير الوثنية وأثرها على الأدب والفن	٢٢٣
فساد نظرية الجدلية	٢٣١
سقوط نظرية الحدائة	٢٣٢
هزيمة الشعر الحر	٢٣٣
الميثولوجيا دعوة مسمومة	٢٣٤
الفلكلور خطر شديد الخطر	٢٣٥
لحق .. الترابط الجذرى بين التبشير والاستشراق	٢٣٧
الباب السابع: الفن وتدمير القيم	٢٣٩
الباب الثامن : الفرنكفونية تيار تغريبي جديد	٢٤٣
الباب التاسع : مؤامرة تدمير المجتمع الإسلامى	٢٥١
الإجهاض دعوة إلى الفساد وتفشى الرذيلة	٢٥٧
ميراث المرأة فى الإسلام قمة فى العدالة	٢٦٠
الباب العاشر: سقوط مذهب الحدائة والتنوير والعلمانية	٢٦١
خاتمة	٢٦٩

\* \* \* \*

## المستدرك على الأبحاث

أولاً: اكتشاف العقل الغربى بعد إسلامه	٢٧٣
ثانياً: شهادة غربى على انهيار حضارة الغرب	٢٨٥
ثالثاً : سموم الشبهات فى كتب العلمانيين	٢٩١
١ - الفتنة الكبرى .. طه حسين	٢٩١
٢ - طه حسين ومستقبل الثقافة	٣٠٠
٣ - عثمان ، وعلى وبنوه ( رضى الله عنهم )	٣٠٧
٤ - الشيخان ومرأة الإسلام والموعود الحق	٣١٥

الموضوع	الصفحة
٥ - فلسفة ابن خلدون	٣٢٢
٦ - كتاب الإسلام وأصول الحكم	٣٣٠
٧ - نظرية ديكرت ومنهج الشك الفلسفى	٣٣٩
٨ - نظرية القومية العربية الوافدة	٣٤٦
٩ - تاريخ آداب اللغة العربية	٣٥٠
١٠ - روايات جورجى زيدان	٣٥٨
١١ - الفن القصصى فى القرآن الكريم	٣٦٤
١٢ - كتاب الفن القصصى	٣٧٣
١٣ - كتاب جبران خليل جبران	٣٧٨
١٤ - نقد كتاب النثر الفنى	٣٨٤
١٥ - أرسطو لم يكن معلماً للمسلمين	٣٨٩
١٦ - الفسارابى وابن سينا	٣٩٦
١٧ - مقدمة فى فقه اللغة العربية للدكتور لويس عوض	٤٠٣
١٨ - الأغانى وألف ليلة وليلة	٤١٠
١٩ - فجر الإسلام	٤١٦
٢٠ - تاريخ التمدن الإسلامى	٤٢٣
٢١ - رسائل إخوان الصفا	٤٣٠
٢٢ - حديث الأربعاء لطفه حسين	٤٣٧
٢٣ - حفريات الكشوف الأثرية وألواح الطين	٤٤٥
٢٤ - العقيدة والشريعة فى الإسلام	٤٤٩
٢٥ - أشعار عمر الخيام	٤٥٦
٢٦ - دارون ونظرية التطور	٤٦٢
٢٧ - اليهود فى جزيرة العرب	٤٦٩

## مدخل

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

إن أماننا اليوم موقفاً جديداً أشد حرجاً من جميع المواقف التي مرت بالدعوة الإسلامية منذ بزوغ فجرها على العموم ، ومنذ عصر اليقظة حيث نواجه موجة جديدة من أشد صور الصراع الذي يتمثل في تجمع مختلف القوى المعارضة والكراهة والمعادية للإسلام في موقف موحد في مؤامرة جديدة تضع الإسلام وأهله في مواجهة الغرب ، حيث تزحف على أطراف الأمة الإسلامية في محاولة لاحتوائها واختراق حصونها واقتحام معقلها من جميع الجوانب .

ولابد لنا لكي نواجه هذا الغزو أن نكشف زيف المحاولات التي تعمل على فرض تصور ثقافي وتاريخي يقدم وقائع التاريخ العربي الإسلامي في هذه المرحلة التي بدأت منذ الحملة الفرنسية إلى اليوم ، فإن هذه المرحلة تكتب اليوم بأسلوب مضلل ومنهج زائف وبأيدي جماعة غير أمناء على تراث هذه الأمة ولا على منهجها الأصيل . ذلك أنه لا بد لنا لكي ننطلق إلى الغاية الحقيقية التي رسمها لنا الإسلام من أن نقف على قاعدة ثابتة .

إنهم عملوا منذ اليوم الأول وحتى اليوم في محاولة لإقامة ثقافة هذه الأمة على أساس إقليمي منفصل وبعيد عن مفهوم الوحدة الإسلامية الجامعة التي تحتضن الوحدة العربية كمنطلق لها إلى غايتها في بناء الأمة الإسلامية التي قامت أساساً على ثقافة أصيلة تحتضن كل الأديان وتنصهر فيها كل الثقافات لتشكل الثقافة الجامعة التي هي للإسلام عقيدة وللأمة الأخرى منهجاً فكرياً مترابطاً .

ذلك لأن محاولة التغريب<sup>(١)</sup> ، والغزو الثقافي قد انطلقت أساساً من محاولة تخطيم الوحدة الجامعة ، وإقامة ثقافات منفصلة إقليمية مع حجب المنهج الإسلامي جملة وبناء هذه النظم على أساس القومية والاشتراكية معاً حتى لا يمكنها بعد مرور السنوات من أن تعود مرة أخرى إلى الوحدة الإسلامية الجامعة التي صنعها الإسلام وشكلها القرآن الكريم .

نحن نريد لكي نقدم الصورة الحقيقية لهذه الأزمة الخطيرة التي نمر بها اليوم وأبعادها الصحيحة أن نتعرف على حقيقة الغزوة التي رسمها الغرب بعد هزيمته في الحروب الصليبية ، وحين نتحدث المتآمرون عن رسم خطة جديدة بديلاً للحملات الحربية وهي « حرب الكلمة » التي صنعت مؤسسات التبشير والاستشراق وجعلت هدفها ( تغريب ) الأمة الإسلامية على النحو الذي صورته هاملتون جب في كتابه ( وجهة الإسلام ) حين كشف عن هذه المؤامرة في ثلاثينات القرن بعد أن قطعت شوطاً طويلاً في تمزيق وحدة الأمة الإسلامية من ناحية وحجب الإسلام عن مجاله في خدمة المجتمع وحصره في الناحية اللاهوتية من عبادة وتراويل .

ذلك أنه لا بد من رسم تصور كامل لخطة المؤامرة في حملتها ثم في مراحلها المتوالية حتى نصل إلى المرحلة القائمة التي يعيد فيها النفوذ الأجنبي إحياء تراث الثلاثينات عندما أخذت غزوة التغريب خطواتها الأولى في تدمير المقومات من خلال عدة أعمال أخطرها الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي ثم مستقبل الثقافة ثم هامش السيرة ، على عبد الرازق في الإسلام وأصول الحكم ، وجرجي زيدان ، ولويس عوض ، وسلامة موسى ، والدعوة إلى الاشتراكية ثم الفرويدية ثم هدم اللغة العربية .

فقد أعاد التغريب إحياء هذه الكتب التي صدرت ( ١٩٣٢ - ١٩٤٢ ) مرة أخرى هذه الأيام ( ١٩٩٠ - ١٩٩٣ ) .

وذلك بعد أن واجه المفكرون المسلمون هذه الدعوات المسمومة في أيامها ، وكشفوا عن زيفها وتحول كتابها عنها كما صحح كثير منهم موقفه من الإسلام كما فعل محمد حسين هيكل ، والعقاد وغيرهم وإن ظلت في بعض كتاباتهم نقاط مأخوذة من فكر

---

( ١ ) التغريب : نقل تقاليد الغرب المتعارضة مع الدين الإسلامي إلى المسلمين ليتخذها المسلمون منهجاً لهم .



التغريب . فلقد طالما وجه كتاب التغريب عبارات الدهشة والغربة لعودة الفكر الإسلامى إلى الأصالة التى يسمونها ( القديم والتخلف ) حين سقطت تلك المفاهيم المسمومة المضللة التى ظل يغرسها جيل الرواد أكثر من خمسين عاماً .

هذا الجيل الذى أطلق على قيادته : لطفى السيد ( أستاذ الجيل ) .

كانت دهشتهم صادرة من شعور كاذب بأن هذه الأمة قد حطمت قيادتها الإسلامية واحتواها الفكر المغرب الوافد المضلل ، وكانوا قد اطمئنوا إلى هذا وتفتحت أمامهم أبواب العلمانية والاشتراكية والليبرالية فى محاولة للقضاء على التصور الإسلامى الصحيح القائم على مفهوم الأصالة ومنهج المعرفة .

هنالك أحس الغرب بأنه يتجمع مرة أخرى على اقتحام الأمة الإسلامية بعد أن خرج منها بهزيمة الحروب الصليبية أولاً وبهزيمة التغريب مرة أخرى .

ولقد كان من الضرورى لمنهج التغريب أن يهدم وحدة الفكر الإسلامى الأساسية من خلال هدم الوحدة السياسية ، وذلك فى محاولته الخطيرة التى امتدت أربعة قرون من أجل إسقاط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية وإجهادها حيث خربت القوى المجاورة من كل مكان ، وخاصةً الإمبراطورية الروسية فى محاولة ممتدة لعدم تمكينها من القدرة على الصمود ، وما أن انفسحت للغرب فرصة الواقعة بين العرب والترك حتى بدأت عملية تمزيق الوحدة الإسلامية تحت اسم الحرية والوطنية وضرب القوميات بعضها ببعض ، فقد بدأت الدعوة إلى القومية الطورانية فى محاولة واسعة ( وإحياء الذئب الأغبر ) عن طريق جماعة الاتحاديين أولياء الثقافة الغربية ودعاة الثورة الفرنسية فى سبيل تسليم فلسطين ، وبيت المقدس إلى اليهود ، وكأنما كان تسليم بيت المقدس للصهيونية هو مقابل إسقاط السلطان عبد الحميد أولاً والخلافة الإسلامية بعد ذلك .

وهذا الاسترسال يستدعى أن نعود إلى الحملة الفرنسية التى هى مقدمة هذا الاتجاه حيث تبين أن الهدف الحقيقى لها إنما هو القضاء على الصحوحة التى حمل لواءها علماء الأزهر وغيرهم من علماء الإسلام فى مصر ، ونجد ، واليمن ( الزبيدى ، والجبرتى الكبير ، ومحمد بن عبد الوهاب ، والشوكانى ، والبغدادى ) .

فكانت هذه الغزوة التى دخلت بها الخيل الأزهر مقدمة لتدمير هذه القاعدة الإسلامية

لتحطيم كل ما هنالك من بناء ثقافى ، وتوالت الخطوات بعد الحملة الفرنسية مباشرة حيث تولى ( محمد على ) تحقيق أهداف الغرب خلال ثلاثين عاماً فرض فيها نفوذ الثقافة الغربية وجَمَدَ الأزهر وحجبيه ، بينما فتح الباب واسعاً أمام نظارة التعليم الوافد بما استتبع ظهور إسماعيل الذى قال إن مصر قطعة من أوروبا وانتهى إلى وصول القوات البريطانية إلى قلب القاهرة من خلال مديونية إسماعيل ودعوته الظالمية حيث تشكلت الركيزة الكبرى للغزو التغريبي من ( كرومر ، دنلوب ، زويمر ) هذه الركيزة التى امتد عملها حيث أنتجت : طه حسين ، ولطفى السيد ، وسلامة موسى .

إن ما يسمى ( المواجهة ) اليوم هو بمثابة إعادة طبع كتب ألفت فى الثلاثينات وكان لها قصة وأخذ الناس منها موقفاً مختلفاً . لقد نشأت هذه الدعوة التى حملها أصحاب هذه الكتب فى رحاب التغريب وفى خدمة الاستشراق ومن خلال مخطط رسم فى جامعات الغرب واستخدم له بعض الشباب المصرى والعربى الذى وفد على السربون وكميردرج واحتضنه المستشرقون فوضعوا لهم الأهداف وقدموا لهم المراجع واستخدموهم .

أما من رفض هذه العبودية ، وأنكر هذا الولاء وحاول أن يتقدم بأطروحات أصيلة فقد أعيد دون أن يتحقق له شئ ، ومن هؤلاء الدكتور ضياء الدين الرئيس من مصر ، والدكتور أمين المصرى من سوريا ، ومنهم من وقف فى وجه الاستشراق وهاجم رجاله كما فعل زكى مبارك مع ماسنيون بعد أن تكشف له أمره حين ذهب إلى دمشق وتحدث عن اللغة العربية فى محاولة لهدمها ، وكانت اللغة العربية فى مقدمة أهداف الغزو الفكرى ، هنالك هاجم زكى مبارك دعوة ماسنيون فسلطوا عليه عميد الأدب فحرمه من التدريس فى الجامعة ، وعندما انتهى عقده رفض أن يجده له واضطر زكى مبارك أن يعمل فى الجامعة الأمريكية وكتب عنوانه المعروف ( لوجاع أولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه ) ، وكان ذلك انتقام منه أن انحرف عن منهج السادة الذين أعطوه الجائزة ، وكان هذا موقفهم من كل من يخالف هدفهم ، وعندما كتب الدكتور محمد حسين هيكل ( حياة محمد ) هاجمه الدكتور طه حسين هجوماً شديداً بمفهوم خيانة الأمانة للاستشراق .

لقد رتب الغزو الفكرى والتغريب مع الاستشراق والتبشير خطته التى حشد لها شباب الجامعات فى البلاد العربية تحت عنوان العصر والتقدم والتجديد فكتبوا تلك الكتب التى يعاد طبعها اليوم .

نجد ذلك واضحاً في أول أطروحات الجامعة المصرية حين ألف طه حسين ( ذكرى أبي العلاء ) ، وألف فريد رفاعي ( عصر المأمون ) ، وألف زكي مبارك ( الأخلاق عند الغزالي ) .

وامتد الخطر إلى الشعر الجاهلي ومستقبل الثقافة وعلى هامش السيرة لطلح حسين على مراحل متوالية ، وإلى على عبد الرازق فألف ( الإسلام وأصول الحكم ) ، وإلى سلامة موسى فألف ( حرية الفكر ) ، وإلى قاسم أمين فكتب ( تحرير المرأة ) . وفي نفس الوقت نشأت بؤر جديدة لضرب الإسلام : من خلال ويلكوكس عن اللغة العربية ، والبروتوكولات ، والدعوة إلى الإقليمية « سعد زغلول » ، وإلى التبشير (زويمر) ، وإلى تغريب التعليم ( دنلوب ) هكذا بدأت المعركة في جميع الميادين .

وكان الشعر الجاهلي هو المنطلق الذي فرض على الثقافة والفكر في هذه المرحلة عن طريق إشاعة فلسفة الشك ، وكان الدكتور طه حسين هو حامل لواء هذه المهمة حتى آخر أيامه حين شكك في حياة « الشيخان » وحاول أن يطلق شبهة : أن الإسلام لم يستمر منهجاً للمجتمع الإسلامي ، ولم تستمر شريعته في التطبيق إلا في عهد أبي بكر ، وعمر ، وكانت تلك محاولة لضرب الدعوة الإسلامية التي كانت تنادي بتطبيق الشريعة وتؤكد أن الإسلام لم يتخلف عن المجتمع إلا بعد أن حجب النفوذ الاستعماري .

وفي هذه المرحلة كانت بروتوكولات صهيون منطلقاً للحركة الأدبية والفكرية وقد وضع أن الذين كانوا يتصدرونها كانوا يقومون بتطبيق عملي للخطة التي رسمتها البروتوكولات من خلال الصحافة حتى أنها تبدو اليوم بعد هذا الوقت الطويل وكأنها تنطلق إلى غايتها التي رسمتها بعد مرور مائة عام على مؤتمر بال ( ١٨٩٧ - ١٩٩٥ ) .

فالمصطلحات التي تستعمل اليوم : كالتنوير ، والإبداع ، والعلمانية ؛ إنما يراد بها أن ترسم صورة لواقع جديد منفصل تماماً عن الحلقات المتصلة للفكر الإسلامي والأدب العربي منذ أربعة عشر قرناً .

هذه الأقلام الماركسية والعلمانية التي أعطيت الفرصة الواسعة لضرب كل القيم تحت اسم القديم والرجعية والسلفية إنما تريد أن تقول كلمة واحدة : هي عزل المجتمعات الإسلامية عن عقيدة التوحيد والالتزام الأخلاقي الذي هو جزء من ثوابت الإسلام لتمضي سائرة تضرب في الأرض بغير هدى .

ولقد كان هدف الاستعمار والنفوذ الغربى الفصل بين حياة الإسلام منذ فجره عن حياة المسلمين بعد الاحتلال فى محاولة لإقامة منهج فكرى مستقل .

ومن هنا جاءت تلك الدعوة الباطلة التى كانت تردد أن المسلمين لم يكن لديهم شىء وأن كل ما لديهم اليوم إنما جاء من الفكر الغربى وتلك مغالطة واضحة ، فقد عمد النفوذ الأجنبى إلى إقامة حاجز بين الفكر الإسلامى ( القائم حتى مرحلة الاستعمار ) وبين المسلمين بدعوى تأخره ورجعيته وبدأ صفحة جديدة قوامها مفاهيم الفكر الغربى سواء فى مجال الأدب أو التربية أو التعليم أو الثقافة .

ثم جعل بدء هذه المرحلة من الإقليمية فأصبح يقال أدب مصرى ، وأدب سورى بدلاً لمفهوم الفكر الإسلامى المعاصر ، والأدب الإسلامى وجعلوا بدء هذه المرحلة الحملة الفرنسية طاوئين كل ما كان قبل ذلك .

وجاء كُتّاب يكتبون عن المعرى ، والمتنبى ، وابن الرومى ، يقدمون هذه الشخصيات منفصلة عن منطلقها المتصل بتطور الأدب العربى ، وتأثير المفاهيم التى أدخلها تراجمة الفكر الإغريقى والفارسى ونظرياتها ومحاكمة هذه الشخصيات إلى منهج الغرب فى النقد . واتصل بهذا ذلك التحول الخطير الذى بدأ فى نظم الشعر فقد تأثر الشعراء الجدد ( المدرسة الحديثة ) بالشعر الفرنسى متمثلاً فى خليل مطران ، ومدرسته ( نحو الاتجاه الفرنسى ) وممثلاً فى عبد الرحمن شكرى ، والعقاد ، والمازنى ، ومدرستهما نحو اتجاه الأدب الإنجليزى ، ودار ما سُمى معركة ( لاتينيون وسكسونيون ) على النحو الذى انحرف بالشعر العربى من طريقه كأداة لتحرير الأوطان والدعوة إلى الحرية إلى أداة للتصور النفسى للشاعر ووجدانه .

وكان هذا هو التحول الذى بدأ بالشعر حتى وصل به إلى قصيدة النثر وإلى شعر أدونيس ، والسياب ، وصلاح عبد الصبور ، وهى المدرسة التى قادها القس يوسف الخال ، وشكلها لويس عوض وجماعته ، وكان هذا أخطر تحول من الأصالة إلى التبعية ، حتى بالنسبة للأزهر جرت المحاولات لتغيير مناهجه أولاً بصرفه عن كتب الأمهات إلى كتب المختصرات ، ثم جاءت المرحلة التالية بنقل مناهج التعليم العلمانى إلى الأزهر بدلاً لأصوله الإسلامية الأساسية .

وكان هذا هو منطلق الصيحة التي يطلقها البعض عن عجز المسلمين عن تطوير مناهجهم ووصفها بالجمود والتخلف واستبدالها بمناهج الغرب ، هذه الصيحة الظالمة أساساً لأن المسلمين كانوا قد قاموا فعلاً بهذا التطوير والتحديث عن طريق مجموعة العلماء والتي ظهرت قبل أن تأتيها الحملة الفرنسية (\*) .

وهي التي أخذت في تجديد الفكر ، والقصائد ، واللغة ، والأدب ( الجبرتي الكبير ، ومحمد بن عبد الوهاب ، والزبيدي ) .

فقد جاءت الحملة الفرنسية أساساً لهدم هذه النهضة وتدميرها وفرض مناهج الغرب لاحتواء الفكر الإسلامي وتقديم الفكر الوافد الصادر عن ( منهج الغرب الرومانتيكية سلبية الفكر الإغريقي الوثني والإباحي ربيبة الفكر المسيحي الغربي ) .

وذلك على طريق فصل الأدب العربي والفكر الإسلامي عن تاريخه الطويل المتصل الذي لم ينفصل يوماً واحداً .

وهكذا أخذ العلمانيون والتغريبيون<sup>(١)</sup> يقايسون تراث الأدب العربي ، والفكر الإسلامي بمناهج الغرب وينظرون إليها باحتقار ويصفونها بالجمود والتخلف من خلال المحاولة الخطيرة التي لجأوا إليها في حجب المناهج الإسلامية التي كانت تدرس في المدارس في هذه المرحلة ، ومن يراجع فهارس دار الكتب المصرية مثلاً يجد فجوة كبيرة بين عصر إسماعيل والاحتلال البريطاني ، فقد قضى ( دنلوب ) على كل الكتب التي كانت مقررة قبل الاحتلال سواء في الأدب أو غيره من العلوم تماماً ورفعت من الرصيد وذلك حتى لا يتمكن أى باحث من إجراء مقارنة تكشف مؤامرة النفوذ الأجنبي .

\* \* \* \*

( \* ) يراجع المستدرك على الأبحاث عن مؤلفات التغريب والغزو الثقافي في الفصل الأخير من الجزء الثاني من هذا الكتاب حيث يقدم المؤلف سبعة وعشرين كتاباً من كتب التغريب .  
( ١ ) التغريبيون : هم الذين ينقلون تقاليد الغرب المناهضة للدين الإسلامي إلى المسلمين .



## الباب الأول

### مرحلة التبعية والولاء الفرقي

وهكذا بدأت مرحلة التبعية التي قادها النفوذ الأجنبي ممثلاً في فرنسا وإنجلترا ( من مصر والسودان إلى سوريا ولبنان إلى الجزائر والمغرب ) بإعلاء شأن اللغتين الإنجليزية والفرنسية وأدبهما وفرضه على مناهج التعليم التي قادها ( دنلوب ) في مصر ( والكرديتال لافيغري ) في تونس ، وكانت قيادة المهمة كلها ومنهجها قد رسمه ( لورد كرومر ) الذي أمضى في مصر خمسة وعشرين عاماً كحاكم فعلى لها ، وكان يعلن دائماً أنه لن يخرج من مصر إلا بعد أن يشكل جماعة التغريب التي كان يسميها ( المتفرجون أولياء الثقافة الأوربية ) ، وكان على رأس هذه الجماعة :

- ١ - لطفي السيد ( جريدة الجريدة قائدة المسيرة ) .
- ٢ - سعد زغلول ( وزير المعارف ) .
- ٣ - عبد العزيز فهمي ( المشرع القانوني ) .

ومن خلالهم نشأت تلك المدرسة التي عملت على حجب الشريعة الإسلامية والتاريخ الإسلامي والطابع الإسلامي كله تحت عنوان مصر الفرعونية ( وهو نفس الاتجاه الذي تجدد لإعلاء الفرعونية مرة أخرى ) .

وكانت الحملة الفرنسية قد أعدت الخطة للتغريب بقيادة ( رفاعة الطهطاوي ) الذي شكله المستشرق ( جومار ) ليحمل لواء الدعوة إلى القومية المصرية ، فلما جاء الاحتلال البريطاني كان كل شيء مهيباً لتغريب الأمة ، فقد جاء التبشير ، والاستشراق وبدأت الحرب على اللغة العربية بقيادة ( ولكوكس ) ثم حملها بعد ذلك ( لطفي السيد ) ثم سلامة موسى .

وكان التركيز قائماً على الدعوة إلى القومية المصرية يحمل لواءها صحفيو لبنان الذين هاجروا إلى مصر والذين كانوا يحملون الخصومة والكراهية للسلطان عبد الحميد والدولة العثمانية والإسلام أساساً في مخطط طويل المدى يرمى إلى تقسيم الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة وإقامة نظام غربي علماني في دولة الخلافة نفسها بقيادة ( مصطفى كمال أتاتورك )

أما البروتوكولات فقد كانت تنفذ دون أن يعرف العرب عنها شيئاً حتى بدأت ترجمتها في إبان الحرب العالمية الثانية ولكن مخططها كان يجرى تنفيذه منذ اليوم الأول لموقف السلطان عبد الحميد ( ١٩٠٠ - ١٩٠٩ ) حين جرى اتصال الصهيونية العالمية معه عن طريق سفيرهم ( تيودور هرتزل ) الذي طلب إلى السلطان السماح لهم بالإقامة في فلسطين في مقابل أن يقدموا للدولة العثمانية خمسة ملايين دينار ذهباً .

وقد وقف منهم السلطان الموقف المشرف الذي عرف به وهو يعلم أنهم سيحطمون وجوده ، وقد جاء ذلك عام ١٩٠٨ عندما تولى الاتحاديون الحكم في الدولة العثمانية وبدءوا في تقسيمها فأعطوا فلسطين لليهود ، وطرابلس والمغرب لإيطاليا ، وأدخلوا الدولة العثمانية الحرب في صف الألمان لتصفيتها وإسقاط الدولة والخلافة .

وقد عمل النفوذ الاستعماري على وضع خطة للتغريب على طريق احتواء عالم الإسلام .

#### أولاً : الحملة على الدولة العثمانية :

كانت أخطر أحداث هذه المرحلة ، فقد عمل صحفيو المارون المهاجرون إلى مصر في العمل على حرب الإسلام من خلال الحملة على الدولة العثمانية وكانت الدولة العثمانية التي استطاعت أن تقتحم القسطنطينية وتقيم التضامن الإسلامي الجامع للعرب والترك خلال أكثر من خمسة قرون ( ١٥١٧ - ١٩١٧ ) والذي امتد إلى تونس والجزائر والذي أفضى إلى قيام الخلافة الإسلامية التي استطاعت أن تقتحم أوروبا وتسيطر باسم الإسلام وتصل إلى أسوار فينا مرتين ثم جاءت المؤامرة التي احتشدت لها البابوية وملوك أوروبا من أجل إلغاء الخلافة وتقسيم الدولة العثمانية محقة الهدف الذي وصل إليه مؤتمر ( كامبل بنرمان ) سنة ١٩٠٧ بإقامة رأس جسر في قلب الوطن الإسلامي من خلال الصهيونية العالمية حيث تحقق للنفوذ الأجنبي منذ الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ إلى الاحتلال السيطرة على الشريعة الإسلامية وإقامة النظام الغربي وتطبيق القانون الوضعي ونظام الربا والعلمانية وتدمير مقومات الأمة الإسلامية للحيلولة بينها وبين إقامة مجتمعها الإسلامي وتبليغ رسالة الإسلام للعالمين وما اتصل بذلك في المرحلة التالية من اتصالها بالماركسية ، والصهيونية ،



واحتلال فلسطين ، وكانت مقررات لجنة كاميل بنرمان سنة ١٩٠٧ مقدمة لعزل السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ وإسقاط الخلافة وإقامة الكيان الصهيوني في قلب فلسطين .

تقول أوراق العمل التي قدمت إلى اللجنة المشكلة من كبار المؤرخين والخبراء العسكريين والاقتصاديين لأوروبا ما يأتي :

إن الإمبراطوريات تتكون وتوسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما ثم تنحلّ رويداً رويداً وتزول ، والتاريخ مليء بمثل هذه الأمثلة وهي لا تتغير بالنسبة لأي إمبراطورية أو أمة ، فهناك إمبراطوريات روما ، وأثينا ، والهند ، والصين ، وقبلها بابل ، وأشور ، والفراعنة ، وغيرها فهل يمكن الحصول على أسباب أو وسائل تحول دون سقوط الاستعمار الأوربي وانهياره ، أو تؤخر مصيره المظلم بعد أن بلغ الآن الذروة ، وبعد أن أصبحت أوروبا قارة قديمة استنفدت مواردها وشاخت معالمها بينما العالم الآخر ( يقصد العالم الإسلامي ) لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية ، وكانت الإجابة كالآتي :

١ - يكمن الخطر على الاستعمار في شواطئ البحر الأبيض جنوبه وشرقه حيث توجد أمة تتوافر لها وحدة الدين والتاريخ واللسان ( يقصد الأمة الإسلامية ) ، وكل مقومات التجمع والترابط فضلاً عما لها من ثروات طبيعية ونزعات ثورية ستكون خطراً ماحقاً على الغرب إذا استخدمت الوسائل الحديثة وإمكانات الصناعة الأوربية وانتشر بها التعليم ستكون خطراً تحل به الضربة القاضية على الاستعمار الغربي .

٢ - فعلى الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة وتأخرها وبقاء شعبيها على ما هو عليه من تخلف وتفكك .

٣ - ضرورة فصل الجزء الأفريقي بتلك المنطقة عن الآسيوي بإقامة : ( حاجز بشري قوى وغريب ) يحتل الجسر الرابط بين آسيا بإفريقيا وعلى مقربة من قناة السويس لتكون قوة صديقة للاستعمار ومعادية لسكان المنطقة .

٤ - تحويل الثروات الطبيعية البكر الغنية للعالم الثالث لتصب في الغرب وليعيش غرب أوروبا بالذات في رفاهية لا مثيل لها ، أ هـ .

ويمكن القول بأن هذا المخطط هو قاعدة بناء إسرائيل في قلب الوطن العربي بعد تمزق وحدة الدولة العثمانية أو انهيارها ونحن نحسن النظر إلى خطوات المؤامرة مع الدولة العثمانية نجد الآتي :

١ - مؤامرات دول أوروبا والكنيسة والبابا المتوالية خلال ثلاثمائة سنة .

٢ - اجتياحات روسيا القيصرية وحروبها .

٣ - مخططات البلقان ودولها للخروج من الدولة العثمانية .

٤ - التحرك الأسباني والبرتغالي إلى شرق إفريقيا والخليج .

٥ - السيطرة الأوروبية على الجزائر وتونس والمغرب .

٦ - السيطرة الأوروبية على دول إفريقيا المسلمة .

وقد عمد النفوذ الاستعماري على إدخال هذه المؤامرة إلى مناهج التاريخ حيث تحولت الكتابات إلى وجهة تحميل الدولة العثمانية تبعة أخطاء لم يرتكبوها ، تدرس لأبناء المسلمين بوجهة نظر أوروبا المتعصبة وكان أشد هذه الحملات على الخلافة ، وعلى السلطان عبد الحميد بهدف تنشئة أجيال تكره الوحدة الإسلامية وتعارضها ، وقد أولت الكنيسة ودوائر الاستعمار اهتماماً واسعاً بتزييف التاريخ الإسلامي وتجنيد عدد كبير من المبشرين ( الذين يلبسون ثياب المستشرقين ) لإثارة الشبهات ، وقد تتلمذ على أيديهم بعض النصارى العرب أمثال سلامة موسى ، وجرجي زيدان ، وفيليب حتى ، ولويس عوض ، وكذلك بعض المسلمين اللامعين ، وقد حفلت الكتب المقررة على المدارس في البلاد العربية بهذه الصورة الحاقدة على الدولة العثمانية والخلافة .

#### ثانياً : المؤامرة على المسجد الأقصى :

وكان لليهود والماسونية الدور الأكبر في تخطيط الدولة العثمانية وكان السلطان عبد الحميد قد أبدى اهتماماً كبيراً بمستقبل فلسطين والولايات العربية ونبه إلى الخطر اليهودي والهجرة اليهودية إلى الأراضي المقدسة وفي عام ١٨٨٧ وجه أوامر جديدة إلى متصرفي القدس ويافا بشأن الهجرة اليهودية يعلمهم بأنه سمح لليهود بالدخول كحجاج أو زوار فحسب وأصدر قوانين تفرض على اليهود حمل جوازات سفر توضح عقيدتهم اليهودية ولمدة ثلاثة شهور فقط .

وقد جاء تيودور هرتزل إلى إستانبول للقاء السلطان والتوسط للسماح بهجرة يهودية واسعة وقانونية إلى فلسطين وبعث السلطان له أنه لا يستطيع أن يبيع ولو قدماً واحداً من البلاد لأنها ليست لى بل لشعبي وقال : « سوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد

باغتصابها منا وقال : ليحتفظ اليهود ببلايينهم فإذا قسمت الإمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل ، إنها لن تقسم إلا على جثثنا ولن أقبل بتشريحنا لأى عرض كان » .

وتوالى محاولات هززل دون جدوى .

وفى هذه الفترة كانت القوات الدولية الأوربية تسعى بدورها لإنهاء الخلافة وتقسيم الدولة العثمانية وتعاونت هذه القوى مع الحركة الصهيونية ومع الحركات القومية المنتشرة فى ولايات الدولة بالإضافة إلى العناصر التركية المعارضة للحكم .

وبدأت الصهيونية تستميل بعض الأتراك الموجودين فى العواصم الأوربية بمساعدة يهود ودونمة سلانيك فى الثورة على السلطان وخلعه من العرش .

وقال السلطان عبد الحميد فى مذكراته :

( إن الشئ الوحيد الذى استطاع الماسون القيام به فى الدولة العثمانية هو نشر الثقافة والتمرد فى البلد وبين صفوف الجيش دون أن يعلموا أنهم يعملون لحساب إنجلترا التى تدعى نشر الأفكار المنحرفة فى إمبراطوريتها ) .

ولقد كان من أكبر ثمار الماسونية فى الدولة العثمانية إنشاء جمعية تركيا الفتاة ( الاتحاد والترقى ) التى كانت تضم بين أعضائها مجموعات من اليهود والدونمة والماسونيين لا سيما فى مراكزهم فى سلانيك التى كانت ذات ولاء للدول الأوربية وقد كان لهم أثر فى ثورة ١٩٠٨ وخلع السلطان ١٩٠٩ ولم يظهر من قادتها وزعمائها عضو واحد من أصل تركى أمثال جاويد ، وقارصوه ، وكان جمال باشا ، ومصطفى كمال من الماسونيين الدونمة .

وقد أجمعت المصادر والمعاصرون للفترة من ثورة ١٩٠٨ ضد السلطان عبد الحميد أنها ثورة قام بها اليهود والدونمة والماسون والقوى الدولية التى استغلت تركيا الفتاة وبعض العناصر التركية ، ومن يطلع على شعارات الأتراك الاتحاديين يجدها من ابتكار جمعية ( الاتحاد والترقى ) ويتأكد من أنها هى نفس شعارات الثورة الفرنسية مما يؤكد أن الثورة كانت ثورة يهودية أكبر منها ثورة تركية .

وقد كانت الخطة هى أن تكون الماسونية مدخلاً إلى فلسطين من خلال يهود الدونمة

الذين هاجروا من الأندلس إلى الدولة العثمانية بعد انهيار الحكم الإسلامي في خطة معدة لدخول بيت المقدس وقد شكلوا جمعية تركيا الفتاة ( الاتحاديين ) لهذا الغرض حتى كان موقفهم من السلطان عبد الحميد .

ولقد أشعلوها ناراً في أوروبا كلها على الدولة العثمانية التي أعلنوا أنها العدو أكبر للمسيحيين وكابوساً يجثم على التطور التاريخي للبشرية وقد حفلت كتب التاريخ في الغرب كما نقلت إلى مناهج الدراسة في بلاد العرب حول هذه النظرة المتحيزة .

وأنكروا دور الدولة العثمانية التي حمت الأمة الإسلامية أربعة قرون والذي يمثل رد الفعل الإسلامي ضد الخطر الصليبي والتي اعترضت كل المشروعات الاستعمارية الأوربية . وجاء مخطط بنرمان بإدخال عنصر غريب إلى الأمة الإسلامية متمشياً مع مطامع الصهيونية في العودة إلى فلسطين من خلال المخطط الماسوني في استخدام زعماء وأعلام لخدمة هدفهم هنا وهناك وفي السيطرة على الاتحاديين وقد عملت كل القوى : اليهود والصهيونية والدونمة والماسون والقوى الدولية الكارهة للإسلام وللدولة العثمانية واحتشدت في هدف واحد .

وهذا ما جهلته أمتنا فترة طويلة حيث حفلت كتاباتها بمفاهيم المستبد الأحمر وصفاً للسلطان عبد الحميد البطل الذي وقف في وجه القوى العالمية كلها ، واحتمل كل المؤامرات التي دبرت له وقد نفى إلى سالونيك مع بعض أفراد عائلته وبعض خدمه وعانى السلطان وجماعته ما عانوا من الحياة الشاقة واستيلاء الحكومة على أموال السلطان الخاصة .

وما يزال السلطان عبد الحميد في كتاب التاريخ المقرر على الصف الثالث الثانوي يقدم في صورة مشوهة للغاية إذ يظهره سلطاناً مستبداً يميل إلى الحكم المطلق والرجعية ويجري خلف ملذاته وشهوته في حين أن الرجل كان يقف جليداً شامخاً كالطود متصدياً لمؤامرات خصوم الإسلام الذين كانوا يسعون إلى اقتسام ممتلكات الرجل المريض وحاولوا إغراءه دون جدوى .

ولم تقف المؤامرة عند هذا الحد بل امتدت إلى إثارة العنصرية وتعميقها بين العرب والبربر وبين الأتراك والفرس بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامي وإبراز دور الأقليات غير المسلمة وإبراز كلمات العروبة والحضارة العربية والفكر العربي والفتح العربي لإخفاء دور الإسلام .

كما امتدت إلى مهاجمة المماليك والأيوبيين ومحاولة إرجاع النهضة إلى ترجمة مناهجهم وإلى الحملة الفرنسية وتمجيد أعداء الإسلام القدامى والمعاصرين والتنكر لطولة صلاح الدين ، وبيبرس ، ومحمد الفاتح ومحاولة تصوير تاريخ المسلمين بالصورة التي رسمتها ألف ليلة وكتاب الأغاني .

كما تنكرت للوجود الإسلامي التركي الذي حمى الشاطئ المغربي كله وصدد الغزو الأسباني الزاحف بعد سقوط غرناطة .

ولقد كانت الخلافة العثمانية على الرغم من ضعفها وعلاقتها الكثيرة هي الربة التي اجتمع عليها المسلمون والتفوا حولها وهي الرباط الوحيد الذي كان يجمع المسلمين في العالم والذي انقطع بعد إلغاء الخلافة فتمزقت الأمة الإسلامية الواحدة إلى أكثر من خمس وأربعين دولة وبعد أن هزمت تركيا في الحرب العالمية الأولى اندفعت جيوش أوروبا المسيحية إلى احتلال العراق وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن وليبيا ، وأقاموا دولة إسرائيل في أرض فلسطين وما كانوا يصنعون ذلك قبل إلغاء الخلافة ( كمال المنبجي ) .

وقد أدى تنفيذ المخطط إلى إثارة الخلافات العرقية والعنصرية بين أجزاء الدولة العثمانية أى بين عنصرى العرب والترك على النحو الذى أعلى من شأن القومية التركية ( الطورانية ) كما دعا إلى إعلاء شأن القومية العربية من ناحية أخرى مما أحدث ذلك الصراع الذى أطلق عليه الثورة العربية ، حيث كان الإنجليز يعتبرون العرب عاملاً مساعداً لإلحاق الهزيمة بتركيا الحليفة الصغرى لألمانيا ، وهنا جاء دور لورنس الذى قاد هذه الثورة لضرب الوحدة الإسلامية وإغراء العرب بدولة كبرى بعد الحرب مما لم يحدث وقسمت البلاد العربية بين فرنسا وإنجلترا وإيطاليا .

وفى نفس الوقت الذى تم فيه التقسيم : أعلن وعد بلفور الذى يعطى الصهيونية وطناً قومياً فى فلسطين .

وقد كتب لورنس ١٩١٦ برقية إلى جهاز المخابرات البريطانية عن ثورة الشريف حسين ضد الأتراك يقول :

« إن ثورة الحسين فى الحجاز ستكون مفيدة لبريطانيا لأنها تتمشى مع الأهداف الحالية وهى تحطيم الكتلة الإسلامية والتغلب على الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها ، أما

الدول التي ستقام لتخلفها فستكون غير ضارة بنا ، بل إن العرب أقل استقراراً من الأتراك فإذا أحسنت معاملتهم ظلوا في حالة تفرق سياسي ، ولايات صغيرة متحاسدة عاجزة عن الاتحاد .

### ثالثاً : إسقاط الخلافة :

كان إسقاط الخلافة الإسلامية من أكبر أهداف النفوذ الأجنبي الراحف على العالم الإسلامي وكان المخطط يرمى إلى تفكيك وحدة المسلمين وتمزيق المجتمع الإسلامي إلى وحدات متفرقة وقد عملت بريطانيا التي كانت تقود الحرب ضد الإسلام والأمة الإسلامية على رسم خطوات هذه المؤامرة التي بدأت بعزل السلطان عبد الحميد وتولي الحكم في الدولة العثمانية أعدى أعداء الإسلام : الاتحاديون الذين رسموا الخطة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك الذي لم يكن في أغلب كتابات المؤرخين المنصفين مسلماً ، بل كان من الدونمة ، ووقفت بريطانيا وراء الخطة وعندما تحرك مسلمو الهند كلفت المستشرق « مرجليوث » كتابة دراسة يدعى فيها أن الخلافة ليست من الإسلام ولما ذهب الشيخ على عبد الرازق ليدرس في بريطانيا أهداه هذا الكتاب الذي أصدره باسمه تحت عنوان ( الإسلام وأصول الحكم ) .

كان هدف الكتاب ضرب الإسلام في عقيدة من أكبر عقائده وفريضة من أعظم فرائضه وهو أنه دين ودولة ونظام ومجتمع ومن ثم فقد عبّر الكتاب عن وجهة نظر الاستشراق اليهودي التلمودي<sup>(١)</sup> الهدام وقد واجه الكتاب ومؤلفه حرباً شديدة وكشف عن الزيف الذي ذهب إليه على عبد الرازق ، حين ادعى أن الإسلام ليس دين شريعة ونظام مجتمع وحكم ولكنه منهج عبادي شأنه شأن المسيحية وغيرها ، ولقد كذب كتاب الإسلام دعوى على عبد الرازق وتكشف من بعد أن هذا الكتاب لم يكن إلا ترجمة لكتاب مرجليوث ، ولقد واجهت حركة اليقظة الإسلامية كتاب على عبد الرازق المنحول وفندت فساد وجهته وأخطائه ولكن قوى التغريب ما تزال تعيد نشره وطبعه مع مقدمات إضافية يكتبها مضللون شعوبيون<sup>(٢)</sup> يخدعون الناس بألقابهم وأسمائهم .

( ١ ) التلمودي : نسبة إلى التلمود ، وهو كتاب مقدس عند اليهود يحتوي على شروح لنصوص التوراة .

( ٢ ) شعوبيون : نسبة إلى عامة الشعب ، الذي يغلب عليه قلة المعرفة .

ولقد كانت مؤامرة إسقاط الخلافة هي أكبر أحداث القرن الرابع عشر الهجرى فإن المؤامرة قد فتحت باب الغزو الفكرى وحاولت :

- ١ - ضرب الشريعة الإسلامية فى مقتل .
  - ٢ - القضاء على الوحدة الإسلامية الجامعة فى نظام الخلافة وفتح الباب واسعاً أمام الدعوة الإقليمية وفكرة القومية العربية الوافدة .
  - ٣ - التحول الذى أحدثه مصطفى كمال أتاتورك بإدخال العلمانية إلى العالم الإسلامى وفتح الباب أمام الأحزاب السياسية فى مصر وتونس وغيرها .
  - ٤ - غرس الصهيونية فى قلب الأمة الإسلامية .
- وكانت القوى الاستعمارية قد شنت حملة خطيرة للنيل من الخلافة الإسلامية والتشكيك فيها وصرف همّ المسلمين عن المطالبة بها بعد أن عاشوا تحت لوائها أربعة عشر قرناً من الزمان .
- وكيف كلفت الحكومة الإنجليزية مستشرقاً كبيراً بالكتابة عن الخلافة وإسقاطها هو اليهودى مرجليوث وهو الكتاب الذى وضع عليه اسمه الشيخ على عبد الرازق وقد صدرت إبان إسقاط الخلافة فى تركيا كتباً لتأييد وجهة نظر أتاتورك ، وكتب الشيخ مصطفى صبرى كتابه فى هذا ، كذلك فقد كتب الدكتور عبد الرازق السنهورى أطروحة الدكتوراة عن إعادة الخلافة وتقدم بها إلى جامعة السربون ١٩٢٦ ، ونشرت بالعربية فى وقت قريب كما كتب عبد العزيز جاويز عدة مقالات نارية بمناسبة سقوط الخلافة .
- وكان الدكتور السنهورى قد قدم فى رسالته مشروعاً يرمى إلى تطوير الخلافة كما عرضها الفقهاء المسلمون لتصبح منظمة دولية سماها ( عصبة أم شرقية ) .
- وقد استوفى الباحثون المسلمون ( وفى مقدمتهم رشيد رضا ) تأكيد هذا الكيان الإسلامى بحسبان أن الخلافة هي الإمامة العظمى وإمارة المؤمنين ورئاسة الحكومة الإسلامية الجامعة لمصالح الدين والدنيا ، وأنه قد قامت لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا كما يقول الإمام الماوردى فى كتابه ( الأحكام السلطانية ) .
- وأجمعت الآراء على ضرورة السعى للعمل بهذه الأحكام وإعادة تكوين الأمة ووحدتها واختيار الإمام الحق لها .

ولقد حاولت قوى التبشير والتغريب أن تتخذ من كتاب على عبد الرازق نكأة لضرب مفهوم الإسلام الصحيح في نفس الوقت الذي يتأكد لدى أهل الرأي أن مقولة على عبد الرازق هي الأولى من نوعها فلم يحدث قبل ذلك من قال إن الإسلام دين روجي كما تأكد أن ما ذهب إليه على عبد الرازق عام ١٩٢٥ لم يكن من الإسلام في شيء ولم يكن على عبد الرازق نفسه إماماً مجتهداً وإنما كان قاضياً شرعياً تلقفته قوى التغريب فاصطنعته تحت اسم التجديد ، ودعى إلى لندن لحضور حلقات الاستشراق التي تزوج للأفكار المعارضة لحقيقة الإسلام وهدم مقوماته وأهدى إليه هذا الكتاب الذي وضع عليه اسمه مترجماً إلى اللغة العربية وطلب إليه أن يضيف إلى مادته بعض النصوص العربية التي يستطيع اقتباسها من كتب الأدب العربي .

أما الكتاب فقد تأكد ( كما يقول الدكتور ضياء الدين الرئيس ) في كتابه ( الإسلام والخلافة في العصر الحديث ) من تأليف قزم من أقزام الاستشراق وداعية من دعاة الصهيونية واليهودية العالمية هو المستشرق مرجليوث الذي قضت الصدفة أن يكون صاحب الأصل الذي أخذ به طه حسين في انتحال الشعر والذي أطلق عليه الأستاذ محمود شاكر ( حاشية طه حسين على بحث مرجليوث ) ، ويمكن بالتالي أن نطلق الآن اسم ( حاشية على عبد الرازق على بحث مرجليوث ) .

ومع أن حركة اليقظة الإسلامية واجهت كتاب على عبد الرازق المنحول<sup>(١)</sup> وفُتدّت فساد وجهته وأخطائه ( راجع كتابنا المعارك الأدبية ) ، فإن موجتين جاءتا في الأخير ليقتذف به مرة أخرى إلى أيدي أجيال جديدة من القراء لا تعرف هذه الخلفية وتظن أنه بحث علمي أصيل ، أما الموجة الأولى فهي موجة سيطرة الماركسيين على الإعلام والصحافة (١٩٦٠ - ١٩٧٠) ، وأما الموجة الثانية فهي موجة العلمانيين القائمة (١٩٨٥ - ١٩٩٤) .

وقد كان ذلك كله في المرتين يرمى إلى إخفات صوت الشريعة الإسلامية والصحوة الإسلامية والدعوة إلى الوحدة الجامعة .

ولقد كان الشيخ محمد بخيت عالم الأزهر الشهير هو أول من كشف حقيقة الصلة بين على عبد الرازق والمستشرق اليهودي مرجليوث حيث قال في كتابه الذي هاجم فيه أفكار على عبد الرازق قوله :

( ١ ) المنحول : لأن الكتاب نسب إليه وليس هو مؤلفه .



[ لأنه علمنا من كثيرين يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له منه إلا وضع اسمه عليه فقط فهو منسوب إليه فقط ليضعه واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار والبسوة ثوب الخزي إلى يوم القيامة ] .

ولقد علق الشيخ على عبد الرازق على هذا المعنى حين قال للماركسيين الذين اتصلوا به عام ١٩٦٤ لإعادة طبع كتابه : إن هذا الكتاب كان شؤماً عليه فقد ألصق به كثيراً من المتاعب والشبهات ، والحقيقة أنه بعد أن طرده الأزهيون من هيئة كبار العلماء ظل منفياً ومهجوراً وعاش بقية حياته منقطعاً عن الحياة العامة ، بالرغم من أن محاولات جرت لإعادته إلى زمرة العلماء وإلى مجمع اللغة ، فقد كان الكتاب أشبه باللعنة على حياته كلها .

ومن هذا الخيط الرفيع بدأت محاولة الدكتور ضياء الدين الرئيس فاستطاع أن يصل إلى الحقيقة بأن كاتب الكتاب في الحقيقة هو مستشرق إنجليزي يهودى الأصل شن الهجوم على الخلافة لأن بلاده كانت في حرب مع تركيا وقد أعلن الخليفة العثماني الجهاد الديني ضدها ، والنصوص في الكتاب قاطعة بأنه كان موجهاً ضد الخلافة العثمانية فإنه يذكر الاسم ( السلطان محمد الخامس ) الخليفة في ذلك الوقت الذي كان يسكن ( قصر يلدز ) وهناك نص على ( جماعة الاتحاد والترقي ) وهي التي كانت تحكم تركيا ، أى دولة الخلافة طوال أعوام الحرب العالمية الأولى ويقول : إن الاتحاديين تلاميذ الماسون وقد تربوا في محافلهم واعتنقوا شعاراتهم ومفاهيمهم وقاموا بدور مسموم وهو فتح باب فلسطين أمام اليهود المهاجرين ، وكان السلطان عبد الحميد قد رفض ذلك وكانوا هم : أى الاتحاديون أداة الصهيونية العالمية في إسقاط هذا السلطان الشهيد ورجح الدكتور الرئيس : إن مرجليوث اليهودى الذى كان أستاذاً للغة العربية فى إكسفورد ببريطانيا هو كاتب الكتاب لأن آراء الكتاب هى آراؤه التى كتبها من قبل عن الدولة الإسلامية وقدّها الدكتور الرئيس فى كتابه ( النظريات السياسية فى الإسلام ) وأثبت خطأها وبطلانها بالأدلة العلمية وأنه يكتب عن الإسلام بنزعة حقد شديدة ويتسم أسلوبه بالمغالطات والمعلومات المضللة ، والقدرة على التلمويه ، كما يتصف بالالتواء وهذه الصفات كلها تظهر فى هذا الكتاب المنسوب إلى الشيخ على عبد الرازق .

ومعروف أن الشيخ على عبد الرازق ذهب إلى بريطانيا وأقام فيها عامين ، فلا بد أنه

كان متصلاً بالمستر مرجليوث أو تتلمذ عليه وكذلك توماس أرنولد الذى يشير إليه الشيخ ويصفه بالعلامة فقد ألف كتاباً عن الخلافة بوجه عام والعثمانية بوجه خاص ، وقد نقدناه ( يقول الدكتور الرئيس ) فى كتابنا ( النظرية السياسية الإسلامية ) .

والقصة تتلخص فى أنه إبان الحرب العالمية الأولى والحرب دائرة بين الخليفة العثمانى وبريطانيا أعلن الخليفة الجهاد الدينى ضد بريطانيا ودعا المسلمين أن يهبطوا ليحاربوها أو يقاوموها ، وكانت بريطانيا تخشى غضب المسلمين الهنود بالذات ، أو ثورتهم عليها ، فى هذه الفترة كلفت المخابرات البريطانية أحد المستشرقين الإنجليز أن يضع كتاباً يهاجم فيه الخلافة وعلاقتها بالإسلام ويشوه تاريخها ليهدم وجودها ومقامها ونفوذها بين المسلمين ، وقد استخدمت السلطات البريطانية هذا الكتاب فى الهند وفى غيرها ، وبعد أن انتهت الحرب كان الشيخ على عبد الرازق قد اطلع على هذا الكتاب أو عثر عليه ، هذا إن لم نفترض أن هذا كان باتفاق بينه وبين هذا المستشرق الذى اتصل به حينما كان فى إنجلترا أو فى بعض الجهات البريطانية التى كانت تعمل فى الخفاء للقضاء على فكرة الخلافة أو التى تخارب الإسلام فأخذ الكتاب فترجمه إلى اللغة العربية أو أصلح لغته إن كان بالعربية وأضاف بعض الأشعار أو الآيات القرآنية التى تبدو أنها لم تكن فى أصل الكتاب وبعض الهوامش والفقرات وأخرجه للناس على أنه كتاب من تأليفه ظناً منه أنه يكسبه شهرة ويظهره باحثاً علمياً ومتفلسفاً ذا نظريات جديدة غير مدرك ما فى آرائه أو فى ثناياه من خطورة ولا يستغرب هذا لأنه لم يدرك أن إنكار القضاء الشرعى هو إنكار لوظيفته نفسها وعمله وإلغاء لوجوده ، وكانت هذه هى البدعة السائدة فى ذلك الوقت بين كتاب ( السياسة ) : جريدة من سمو أنفسهم ( حزب الأحرار الدستوريين ) وهذا هو الذى فهمه ( أمين الرافعى ) فكتب فى جريدة الأخبار أنه لم يستغرب أن يقدم الشيخ على عبد الرازق على إصدار هذا الكتاب لما عرفه عنه من الضعف فى تحصيل العلوم والإلحاد فى العقيدة ثم قال : هذا إلى أنه انغمز منذ سنين فى بيئة ليس لها من أسباب الظهور سوى الافتئات على الدين وتقمص أثواب الفلاسفة والملاحدين وصار خليقاً باسم ( الأستاذ المحقق ) والعلامة الكبير ولم يعرف الأستاذ الرافعى أن المؤلف الحقيقى ربما كان غير الشيخ على عبد الرازق ولكن كلامه يكاد يكون إثباتاً لذلك وهناك قرائن أخرى :

أولاً : ذكر اسم كتاب مترجم عن التركية طبعة ١٩٢٤ بينما هناك فقرة تنص على أن

تاريخ التأليف قبل عام ١٩١٨ وأنها ذكرت اسم السلطان محمد الخامس وقيل في الهامش أنه كتب في عهده ، وأقرب تفسير لذلك أن الكتاب ليس من تأليف شخص واحد .

**ثانياً :** يتحدث المؤلف عن المسلمين كأنه أجنبي عنهم وهم منفصلون عنه فيذكرهم بضمير الغائب ولا يقول عندنا أو العرب أو نحو ذلك كما يقول المسلم عادة .

**ثالثاً :** يكرر الشيخ على عبد الرازق ( عيسى وقيصير مرتين ) ويكرر هذه الجملة التي يسميها الكلمة البالغة ( دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ) مع أن أى مسلم صحيح الإسلام لا يمكن أن يؤمن بهذا التعبير ، وأن قيصر وما لقيصر لله رب العالمين .

**رابعاً :** يتعاطف مع المرتدين الذين خرجوا على الإسلام وشنوا الحرب على المسلمين ، فيدافع عنهم في نفس الوقت الذى يحمل على أبى بكر الصديق المسلم الأول بعد رسول الله ﷺ فينكر خلافته ويقول إن محاربتهم لهؤلاء المرتدين لم تكن حرباً من أجل الدين ، ولكنها نزاع فى ملوكية ملك ولأنهم ( رفضوا أن ينضموا لوحدة أبى بكر ) وما هى وحدة أبى بكر يا عدو أبى بكر والإسلام ؟

أليست هى وحدة الإسلام ؟ ويقول : ( حكومة أبى بكر ) أوليست هى حكومة الإسلام والمسلمين ؟ ويتكلم عن أبى بكر هكذا بغير احترام أو تجميل ، كأنه رجل عادى ، أو كما يتكلم عن عدو .

هل هذا هو أسلوب المسلم ، فضلاً عن الشيخ ، فى الكلام عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وعن أفضل الناس وأحبهم إلى رسول الله ﷺ وخير من دافعوا عن الإسلام وجاهدوا فى سبيل الله عز وجل .

**خامساً :** إن الأسلوب الذى كتب به الكتاب أسلوب غريب ، ليس مألوفاً فى الكتب العربية فهو أسلوب مناورات ومراوغات ويتصف بالالتواء واللف والدوران فهو يوجه الطعنة أو يلقي بالشبهة ثم يعود فيتظاهر بأنه ينكرها ولا يوافق عليها ويفلت منها ثم ينتقل ليقذف بشبهة أو طعنة أخرى على طريق ( اضرب واهرب ) ، وحين يهاجم يصوغ عباراته فى غموض ، وهذا يدل على أسلوب رجل سياسى متمرن على المحاوره والمخادعة وهو أشبه بالأسلوب الأفرنجي وأسلوب الدعايات السياسية أو الدينية التبشيرية وليس هو أبداً الأسلوب العربى الصريح فضلاً عن أسلوب أحد الشيوخ المتعلمين فى الأزهر وهذا مما يغلب الرأى بأنه كتاب مترجم .

**سادساً :** لم يعرف عن الشيخ على عبد الرازق من قبل أنه كان كاتباً تمارس في الكتابة ومرن على التأليف فيكتب بهذا الأسلوب ويتعمد الطعن في الإسلام وتاريخه وعظماء رجاله .

ولم يعرف للشيخ كتاب أو مقالات قبل هذا الكتاب ( أى في السياسة والتاريخ ) بل كل ما كتب من قبل كان ( كتيباً ) في اللغة أو في علم البيان ، وهذا كل إنتاجه في أربعة عشر عاماً بعد تخرجه في الأزهر ثم بعد أن كتب هذا الكتاب ظل أربعين عاماً لم يكتب كتاباً آخر في نفس موضوعه أو مثله ولم يحاول أو لم يستطع حتى أن يدافع عن نفسه ويرد على خصومه بكتاب آخر .

**سابعاً :** هناك من القرائن والأدلة العديدة ما يدعو العقل إلى أن يرجح صحة الخبر الذي رواه فضيلة المفتي الشيخ محمد بخيت نقلاً عن كثيرين من أصحاب الشيخ على عبد الرازق المترددين عليه من أن مؤلف الكتاب شخص آخر من غير المسلمين وقد غلبنا أنه أحد المستشرقين ولكننا نقيده هذا الخبر بأن الشيخ قد أضاف بعض فقرات وتعليقات وأنه هو الذي أورد الآيات من القرآن ، والظاهر أنها محشورة حشراً بمجموعات في مكان واحد ، وأبيات الشعر التي استشهد بها ، كما كتب المقدمة التي يزعم فيها أنه بدأ البحث في تاريخ القضاء منذ سنة ١٩١٥ ، وذلك ليغطي المفارقة الظاهرة من وضع الكتاب ووقت صدوره فإنه من غير المعقول أن يستغرق تأليف كتيب لا يزيد على مائة صفحة عشر سنوات .

**ثامناً :** كانت هناك أسباب ودوافع مختلفة دفعت الشيخ إلى إصدار هذا الكتاب ولكن كان أقواها في نهاية الأمر حب الظهور والرغبة في الشهرة وأن يوصف بأنه باحث أو محقق أو مجدد ، كما فعل غيره من قبل ونحن نعرف أن مسألة انتحال الكتب أو عدم الأمانة في نسبة الأمور والمعلقات مسألة مألوفة في الشرق ولا سيما في النقل من الكتب الأجنبية .

وفي مثل هذه المسائل بالذات فإن هذه الحالة أسهل ، لأن النقل أو الترجمة من كتيب مجهول ، أو كانت المسألة بتصريح أو اتفاق لخدمة غرضين فالطرف الأول يريد نشر آرائه لغايات سياسية ودينية والطرف الثاني له مآرب سياسي ولكن الدافع الذاتي أنه يريد الشهرة أو الظهور أو الغرور ، ( انتهى ما أورده الدكتور الرئيس ) .

ويتصل بهذا ما أورده تقرير هيئة كبار العلماء في كتاب الإسلام وأصول الحكم من حيث هدف الكتاب الحقيقي وجدناه يتمثل في الحقائق التالية :

أولاً : جعل المؤلف الشريعة الإسلامية روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ في أمور الدنيا مع أن الدين الإسلامي على ما جاء به النبي ﷺ من عقائد وعبادات ومعاملات لإصلاح أمور الدنيا والآخرة ، وأن كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسوله ﷺ كلاهما مشتمل على أحكام كثيرة في أمور الدنيا وأحكام خطيرة في أمور الآخرة .

ثانياً : زعم أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبي ﷺ كان في سبيل الملك - لا في سبيل الدين ، ولا لإبلاغ الدعوة إلى العالمين .

ثالثاً : زعم أن نظام الحكم في عهد النبي ﷺ كان موضع غموض وإبهام أو اضطراب أو نقص موجباً للحيرة .

رابعاً : زعم أن مهمة النبي ﷺ كانت بلاغاً للشريعة ، مجردة عن الحكم والتنفيذ .  
خامساً : أنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام وعلى أنه لا بد للأمة ممن يقوم بأمرها في الدين والدنيا .

سادساً : أنكر أن القضاء وظيفة شرعية وقال : إن الذين ذهبوا إلى أن القضاء وظيفة شرعية جعلوه متفرعاً من الخلافة .

سابعاً : زعم أن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده « رضى الله عنهم » كانت لا دينية ، وهذه جرأة لا دينية .

وهكذا تكشف تلك المؤامرة الخطيرة التي استغلها الاستشراق وبعض التغريبيين خصوم الشريعة الإسلامية للقول بأن هناك رأيين : بينما لا يوجد غير مفهوم واحد ، هو أن الإسلام دين ومنهج حياة ونظام مجتمع وأن ما قال به على عبد الرزاق هو وجهة نظر الاستشراق والتغريب وأنه ليس رأى أى مجتهد أو عالم أو إمام في الإسلام وأن على عبد الرزاق لم يكن إلا مضللاً أو مخدوعاً .

\*\*\*

هذا ما ووجه به على عبد الرزاق خلال صدور كتابه وبعده حتى جاءت مرحلة تسلط الشيوعيين واليساريين على الصحافة ، وبدأ الكلام مرة أخرى حول إعادة طبع هذا الكتاب ووقف الشيخ على معتدراً عن ذلك أما أمر الخلافة فقد عملت بريطانيا بعد سقوط الخلافة على ألا تعود وأغلقت الأبواب وحرضت من يقول إنها ليست من الإسلام في كل مكان

فيه مسلمين ، وحاولت أن تطرح بديلاً للخلافة هو الفكر القومي في كل مكان : قوميات تركية وعربية وفارسية وهندية . . . إلخ .

ولكن لم تغفل هيئة إسلامية ما - من الهيئات التي تشكلت بعد سقوط الخلافة - من إيراد هذه الدعوة في مقدمة أعمالها ، كما عملت على التركيز على العلمانية والفصل بين الدين والدولة ولكن ذلك لم يمتد إلا إلى مرحلة قصيرة ، فقد اشتعلت اليقظة الإسلامية وكشفت للمسلمين عن الحقائق والأهداف وكان مما ترتب على إلغاء الخلافة في تركيا ظهور حكومة أتاتورك العلمانية وبناء الدولة اللادينية ، وعملت الدولة الإسلامية بعد تركيا على أن تجنب نفسها الوقوع في المنزلق الذي وقعت فيه تركيا وقد كشفت اليقظة الإسلامية خطة أتاتورك وخطة سعد زغلول ولطفى السيد من قبل في هذا الاتجاه .

وبالرغم من التمهيد الماكر لجعل سقوط الخلافة أمراً واقعاً وتشويه الخلافة في أذهان المسلمين وإظهار الأوربيين بمظهر المنقذ المتحضر فإن سقوط الخلافة كان له رد فعل بعيد المدى في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

وقد هبّ الغرب والصهيونية وأعوانهم لامتصاص آثار ذلك السقوط : بعد بحث القوميات والطائفيات وبالرغم من عقد عدة مؤتمرات فإنها كلها أخفقت ولم تحقق شيئاً ولكن قامت على هذا الأثر حركات جديدة استوعبت الموقف وحالت دون استمرار السقوط وعملت على إيقاف نتائجه وكان في مقدمتها :

١ - الدعوة إلى الحكم بكتاب الله والجهاد في سبيله .

٢ - الالتفاف حول مفاهيم الإسلام في دائرة الوحدة الإسلامية .

٣ - العمل على التجمع تحت لواء التضامن الإسلامي .

ويقول الأستاذ حسن البنا : إن الخلافة هي رمز الوحدة الإسلامية ومظهر الارتباط بين أم الإسلام وإنها شعيرة إسلامية يجب على المسلمين التفكير في أمرها والاهتمام بشأنها والخليفة مناط كثير من الأحكام في دين الله ولهذا قدم الصحابة رضوان الله عليهم النظر في شأنها على النظر في تجهيز النبي ﷺ ودفنه حتى فرغوا من تلك المهمة واطمأنوا على إنجازها والأحاديث التي وردت في وجوب نصب الإمام وبيان أحكام الإمامة وتفصيل ما يتعلق بها لا تدع مجالاً للشك في أن من واجب المسلمين أن يهتموا بالتفكير في أمر خلافتهم منذ حورت عن مناهجها ثم ألغيت بتأنا حتى الآن .

والعمل لإعادة الخلافة يحتاج إلى كثير من التمهيدات وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لا بد أن تسبقها خطوات :

لا بد من تعاون تام ثقافي واجتماعي واقتصادي بين الشعوب الإسلامية كلها ، يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات وعقد المجمع والمؤتمرات بين هذه البلاد ، أ هـ .

وقد صدرت في الفترة الأخيرة مذكرات منها رسالة السلطان عبد الحميد إلى الشيخ محمود أبو الشامات في دمشق تناول فيها موضوع الخلافة حيث قال : « إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أنني بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد والترقي المعروفة باسم ( جون تورك ) وتهديدهم اضطرت وأجبرت على ترك الخلافة » .

ولقد أصر هؤلاء الاتحاديون بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأراضي المقدسة ( فلسطين ) ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيراً وعدوا بتقديم ١٥٠ مليون ليرة إنجليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية وأجبتهم بالجواب القطعي الآتي :

**إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً فضلاً عن مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهباً فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي .**

ولقد خدمت الأمة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آباءى وأجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين ، وبعد جوابى القطعي اتفقوا على خلعي وأبلغوني أنهم سيعيدوني إلى سالونيك فقبلت بهذا التكليف الأخير هذا وقد حمدت الله وأحمده أنني لم أقبل بأن أُلطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدى الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة في فلسطين وقد كان بعد ذلك ما كان .

وكذلك قال السلطان لهرتزل والحاخام موسى ليفي :

« إن أراضي الوطن لا تباع وإن البلاد التي امتلكت بالدماء لا تباع إلا بالثمن نفسه » .

وقد امتدت المؤامرة من تركيا إلى مصر فبعد سقوط الخلافة صدر كتاب على عبد الرازق الذي قال إن الخلافة لا أصل لها من الدين ودعا إلى الفصل بين الدين والدولة .

ويقول صلاح الدين عبد المقصود : « مع ما نعرف من مساوىء الخلافة العثمانية إلا أننا نعتزف بأنها استطاعت أن تمكث أكثر من خمسمائة عام تحمى ديار الإسلام وتذود عن المقدسات وتحارب الاستعمار وترد غاراته وقد كان ذهابها منطلقا للاحتلال اليهودى ، فلم تستطع إسرائيل احتلال فلسطين وإقامة وطن لليهود إلا بعد سقوط الخلافة » ، وقال اليهودى نيلوس ( لايد أن تسقط الخلافة الإسلامية قبل أن تقوم دولة إسرائيل ) .

ويقول ضياء الدين الرئيس : إن علماء المسلمين قد أجمعوا على أن الخلافة أو الإمامة فرض أساسى من فروض الدين بل هو الفرض الأول أو الأهم لأنه يتوقف على تنفيذ سائر الفروض وتحقيق المصالح العامة للمسلمين ولهذا سموها هذا المنصب : الإمامة العظمى فى مقابل إمامة الصلاة التى سميت الإمامة الصغرى .

وقال الدكتور مصطفى حلمى : كانت الأمة الإسلامية فى ظل الخلافة تحس أنها كيان واحد متماسك لها خليفة يسوسها بشريعة الله تبارك وتعالى والغرب يحملون للخلافة العثمانية الكراهية والحقده بسبب الحروب العديدة التى خاضتها معها وكان من آثارها تلك الحملة المنظمة المدروسة المستهدفة للإساءة إليها مستغلة بعض الأخطاء لتشويه سمعتها وطمس دورها فى أذهان الأجيال الحديثة المسلمة .

ونحن نعتزف بكثير من المبادئ التى ترددت ولكن من جهة أخرى ينبغى الاعتراف بدورها فى صد الحملات العسكرية الأوروبية وحمايتها الأمة الإسلامية من الدول الاستعمارية الغريبة التى ظلت تكيل الضربات للخلافة .

إن بقاء الخلافة يعنى وجود نظام سياسى يجمع شمل المسلمين مهما بلغ واقع حال هذا النظام إلى مستوى محزن من الضعف بسبب الدساتير الاستعمارية .

وفى الفترة الأخيرة ومن خلال موجة العلمانية الجديدة التى قامت فى وجه الصحوة الإسلامية والتى كانت تستغرب عودة المسلمين إلى الأصالة بعد هذه الموجة الطويلة من عملية التغريب والغزو الثقافى فى مختلف جوانب الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية ، هنالك بدأت بعض القوى تعيد إحياء الكتب التى كتبت فى ظل نفوذ الاستشراق والتبشير وكان من أهمها كتاب الشيخ على عبد الرازق ( الإسلام وأصول الحكم ) الذى حاولت قوى الماركسيين فى الستينات إعادة طبعه وأحجم المؤلف عن ذلك ، فجعلوا على رأس



قائمة كتب التنوير هذا الكتاب الذى لحقه كتاب آخر عن الخلافة من تأليف المستشار محمد سعيد العشماوى الذى واجهته حملة قوية من التصحيح والأدانة لما لحق من تحريف وخطأ فى التفسير والتصور بأقلام رجال جمعوا بين الشريعة الإسلامية والقانون الغربى على نحو جارف لم يكن يتصور المستشار العشماوى وجوده أو ظهوره ، إذ خيل إليه أن الأمر أهون من ذلك .

ولم يتوقف المستشار العشماوى عند الخلافة ، بل لقد تعرض للنظام الإسلامى كله والشريعة الإسلامية والاقتصاد الإسلامى على نحو خطير ولكنه لم يستطع أن يقنع أحداً بما ذهب إليه فقد دحض المفكرون الإسلاميون كل مقولاته وأغلاطه ( راجع كتابنا : تحفظات على كتابات العلمانيين ) .

وفى نفس الوقت الذى كان العلمانيون يحاورون فى هذا المجال ، عقد مؤتمر الخلافة فى لندن ١٩٨٨ ، أى بعد سقوط الخلافة بأكثر من ستين عاما وضم كل الفئات الإسلامية من الناطقين بالعربية والإنجليزية من غير العرب ، وكان عددهم أكثر من ثلاثة آلاف واسمهم الغرباء ، وكان عنوان المؤتمر ( الخلافة الإسلامية حضارة ومنهاجاً ) قال الأستاذ عبد الستار فتح الله سعيد الذى حضر المؤتمر : ( هى ذروة الأمل الإسلامى فلا عجب ، فهم أبناء محمد ﷺ يرادهم نفس الأمر الذى كان ﷺ يشر به المستضعفين من أصحابه بوراة كسرى وقبصر والتمكين فى الأرض إن حسبوا الإسلام لله رب العالمين ، يراه ضرباً من الأحلام ويراه المؤمنون دائماً حقائق الحق ومصدق الوعد الإلهى ، لقد سقطت الخلافة بتخطيط حقود وتدبير طويل ولا تقوم إلا بطول العمل وجميل الصبر والتوكل على الله والتزام الإسلام بشموله وتماحه وكماله ) .

ومن المفارقات أن يعقد هذا المؤتمر عن الخلافة على الأرض الإنجليزية التى تولت كبر هذه الحرب الضروس ضد الخلافة والكيد الدائب لها والتحريض الحثيث عليها ، حتى انتهت إلى إسقاطها على يد عدو الترك والإسلام سنة ١٩٢٣ بعد أن تقاسمت هى وفرنسا وروسيا أملاكها بعد الحرب العالمية الأولى ، بل إن المستشرقين الإنجليز هم الذين لقنوا الفكر المعاصر كل الدعايات الكاذبة والتلفيقات المشوهة لتاريخ الخلافة وخاصة للسلطان عبد الحميد رحمه الله الذى وقف موقفاً صارماً ضد أطماع اليهود فى فلسطين وغيرها .

ولا تزال البيغاوات في بلادنا تردد هذه الأكاذيب وهذا أبشع ألوان الغزو الفكري .  
وأشار إلى ما كتبه مرجليوث عن الخلافة ونقله على عبد الرازق باسمه .

\*\*\*

وإذا كان الدكتور على عبد الرازق السنهوري قد قدم عام ١٩٢٦ أطروحته عن الخلافة إلى جامعة ليون بفرنسا وجعل عنوانها ( الخلافة وتطورها نحو عصبة أمم شرقية ) .  
فقد كان ذلك عملاً من أعمال التوجه الإسلامي نحو إرساء قيم ومفاهيم أصيلة تحمل لواء هذه الفكرة وتمضي به إلى هذه الأيام لتدفع محاذير وأخطار كتابات المستشرقين والمبشرين وأتباعهم حيث بحث في رسالته أمرين :

**الأول :** عرض الخلافة كما عرفها الفقه الإسلامي من حيث أحكامها وتاريخها .

**الثاني :** تقديم فكرة جديدة وهي ضرورة تطوير الخلافة لتصبح منظمة دولية سماها ( عصبة أمم شرقية ) .

وقد قرر السنهوري أن قيام حكومة إسلامية ( الخلافة ) مبدأ قرره جميع المذاهب الإسلامية لأنها مجمعة على وجوب الخلافة ولم يشذ عن ذلك إلا الخوارج الذين دعوا إلى عدم إقامة حكومة ما - إسلامية أو غير إسلامية - وبعد أن انتقد آراء الخوارج ووصفها بأنها فوضوية رد على ما ورد في كتاب الشيخ على عبد الرازق وناقش جميع حججه وفندها مؤكداً مبدأ إقامة الحكومة الإسلامية ولم يتوقف عند هذا الحد بل إنه عندما عاد إلى مصر نشر مقالاً في العدد الأول من مجلة المحاماة الشرعية عام ١٩٢٩ أكد فيه رفضه لكل ما ورد في كتاب الشيخ على عبد الرازق وخاصة ما زعمه من أن الإسلام ليس فيه أصول نظام الحكم ولا يوجب علينا إقامة حكومة إسلامية .

وقال : يمتاز الإسلام بأنه « دين ودولة » وقد أرسل النبي ﷺ لا لتأسيس دين فحسب بل لبناء قواعد دولة تتناول شئون الدنيا فهو بهذا الاعتبار مؤسس الحكومة الإسلامية كما أنه نبي المسلمين .

وإذا تقرر أن الإسلام دين ودولة ، فقول بعض الكتاب بأن رسالة النبي ﷺ مقصورة على أمور الدين فقط وأن شئون الدنيا ليست مندرجة في تلك الرسالة وأن محمداً ﷺ كان نبياً لا ملكاً ، القول بهذا التأويل غير صحيح للرسالة المحمدية وإنكار دون دليل .

إن الحكومة الإسلامية ككل حكومة تشتمل على ثلاث سلطات :  
السلطة التشريعية ، والسلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية .

ولقد اهتم السنهوى بعرض ما يسمى بالصلاحيات الخاصة بالشئون الدينية لكى يؤكد أنها لا تعنى سلطة روحية أو دينية مثل تلك التى تملكها الكنيسة فى الديانة المسيحية وقال : يجب الاحتراز عند الخلط بين الفكرة الكاثوليكية المسيحية الخاصة بالسلطات الروحية للبابوات والاختصاصات المتعلقة بالشئون الدينية للخليفة فى الإسلام .

صحيح أن الخليفة يمارس صلاحيات دينية ولكن ليس له سلطة دينية تماثل السلطات التى يمارسها البابا المسيحى فهو لا يملك حق الغفران ولا سلطة الإبعاد عن الدين ، وهو لا يتلقى الاعترافات ولا يعطى البركات كما يفعل البابا .

وفى المجال الدينى كما هو فى المجال السياسى يكون للخليفة سلطة تنفيذية ، إنه يسهر على أن يقوم المسلمون ببعض الواجبات الدينية التى يغلب عليها الطابع الاجتماعى مثل الزكاة والخراج<sup>(١)</sup> .

أما الواجبات التى تتصل بالضمير مثل الإيمان والصلاة فليس على الخليفة أن يتدخل فى ذلك ، ذلك لأن المسلم على صلة مباشرة وقوية مع الله ( تبارك وتعالى ) دون وسيط فى كل ما يتعلق بنجاة روحه والاعتقاد بوجود وسيط فى هذه الشئون يعتبر إلحاداً .

وقال إن مبدأ الفصل بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية مقرر فى الإسلام منذ البداية وليس هناك داع لانتظار إصلاح دينى لتقرير هذا المبدأ كما حدث فى المسيحية .

ولقد عنى السنهوى بالتفرقة بين ما يسميه الأوروبيون بالسلطة الروحية وما يعرفه الماوردى باسم ( اختصاصات الحكومة فى الشئون الدينية ) ليثبت تفوق الشريعة الإسلامية فى أنها سبقت الإصلاح الدينى فى أوربا الذى أدى إلى الفصل بين الكنيسة والدولة أو بالأصح بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية ( دكتور توفيق الشاوى ) .

\* \* \*

( ١ ) الخراج : نصيب الدولة فيما تخرجه الأرض الخراجية ( الموقوفة ) .

#### رابعاً : حجب الشريعة وفرض القانون الوضعى :

كان حجب الشريعة الإسلامية وفرض القانون الوضعى على الأمة الإسلامية هدفاً أساسياً من أهداف تركيز النفوذ الأجنبى واحتواء المسلمين وتدمير القوة الذاتية القادرة على المقاومة ، وقد تشكل هذا المفهوم عند الغرب بعد هزيمتهم فى الحروب الصليبية ودعوة بعضهم إلى ما يسمى بحرب الكلمة وكان هذا الهدف محققاً لأهواء ومطامع وزارات الاستعمار والكنيسة وقوى التبشير الزاحفة وإعلاء نفوذ الاستشراق .

وكانت الشريعة والتعليم واللغة العربية هى كبرى أهداف النفوذ الأجنبى التى حرص النفوذ الأجنبى على تحقيقها ليتمكن من السيطرة الممتدة على الأمة الإسلامية والحيلولة بين المسلمين وبين القدرة على مقاومة أو استرداد إرادتهم على ما يملكون .

وكانت الشريعة الإسلامية هى القانون السائد فى البلاد الإسلامية منذ دخلت فى الإسلام قبل أربعة عشر قرناً ؛ حتى جاء الغزو الاستعمارى الغربى الذى كان حريصاً على حجب القوة المعنوية من خلال فرض القانون الوضعى ، وقد بدأ ذلك فى مصر قبل الاحتلال البريطانى وتشكل على النحو الذى أعد لتمكين السلطة الاستعمارية من السيطرة والاستمرار وهذه هى المرة الأولى فى تاريخ الإسلام كله أن تحجب الشريعة الإسلامية وتفرض على المسلمين قوانين وضعية وافدة تسيطر على القضاء والمنزل والمدرسة والحكم وتتحكم فى مسائل الأسرة والمجتمع فأحدث ذلك اضطراباً شديداً كان يرمى فى الأساس إلى هدم القوة الأخلاقية الاجتماعية ويفتح الباب واسعاً أمام الربا والزنا والخمر والفاحشة ويوحى بشرعية التمرد وخاصة قانون العقوبات الذى كان من أخطر هذه القوانين التى أباحت جرائم الزنا وهتك الأعراض وأخرجت المجتمع من ضوابطه وقيمه ، وكان ذلك فى دائرة المعاملات حيث فرضت القوانين التى تبيح الربا وتجعله أساس جميع وجوه التعامل فى البيع والشراء والإجارة وغيرها .

وهكذا دخلت القوانين الوضعية بلاد المسلمين مع الامتيازات الأجنبية لتحكم بها المحاكم القنصلية بين التجار المسلمين فى الثغور الإسلامية ، ولم تكن أول أمرها لتطبق على المسلمين فلما اشتد ضعف الدولة العثمانية وطغيان دول الغرب اعتدوا بها على سيادة الإسلام فحكموا بين المسلمين والنصارى ثم جاء عهد الاستعمار ففرض قوانينه ومحاكمه وقضائه فى دار الإسلام على المسلمين وأمرائهم ووزرائهم بالقوة والقهر أو بالكيد والمكر ، وهذا ما حدث فى الجزائر ومصر .

وكانت مصر المدخل الرئيسى للقوانين الأجنبية ومنها تسربت إلى باقى البلاد العربية . ولم يتوقف الأمر بعد الاحتلال عند حجب الشريعة الإسلامية عن العمل فى ميادين الاجتماع والاقتصاد ، بل كانت هناك محاولة للقضاء على جذورها فى الأحوال الشخصية والمحاكم الشرعية وقد هاجم اللورد كرومر المحاكم الشرعية والشريعة الإسلامية ووصفها بأنها شريعة صحراوية بدوية ، ووضعت حكومة بطرس غالى قانوناً لإلغاء المحاكم الشرعية وهدم هذه البقية الباقية من التشريع الإسلامى وقد وجد ذلك معارضة شديدة وتقدم عدد من الباحثين لدحض ما ادعاه كرومر ونقضه ثم جاءت فرصة أخرى لمعارضة الشريعة الإسلامية إبان وضع الدستور بعد ثورة ١٩١٩ عندما بدأت مصر تدخل مرحلة الاستقلال إذ انطلق دعاة التغريب إلى ما أسموه : الدعوة إلى توحيد التشريع فى مصر ودعا محمود عزمى صاحب جريدة السفور إلى تطبيق القانون الوضعى على جميع المصريين مهما تكن أديانهم ومعتقداتهم وأطلق على هذا الاتجاه مدينة القوانين وهاجم رشيد رضا هذه الفكرة وأشار إلى أن دين الدولة فى الدستور هو الإسلام .

ومنذ أن جرى تطبيق القانون الوضعى تبين عجزه عن تحقيق الأمن فى المجتمع الإسلامى ، وعدم قدرته على استيعاب مطالب المسلمين ومشاكلهم وبدا قصوره واضحاً فى هذا الميدان ، وارتفعت الأصوات بالدعوة إلى تعديله وكان ذلك طبيعياً فى مجتمع عاش حياته فى نطاق الشريعة الإسلامية وقد حقق النفوذ الأجنبى بحجها وتطبيق القانون الوضعى الغاية المرجأة والهدف الذى قصد إليه وهو القضاء على مقومات مجتمعنا العربى الإسلامى وتغيير العرف الإسلامى والعربى القائم على القيم الأخلاقية المستمدة من أديان السماء .

ومنذ اليوم الأول عمد كُتّاب الإسلام الأصلاء إلى مهاجمة القوانين الغربية والكشف عن عجزها عن العطاء فى بيئة الإسلام وأنها وضعت لمجتمع غير مجتمعنا الإسلامى العربى الذى يقدر العرض ويكرم العلاقة بين الرجل والمرأة ، ويضعها فى أعلى مكان ويرسم لها أرقى النظم وأكملها وأقدرها على حماية الأسرة والمجتمع ولما كانت القيم فى أى أمة من الأمم هى مصدر قوانينها ولما كانت القيم والأعراف فى المجتمع الإسلامى راعية للفضيلة ، فقد عجزت هذه القوانين أن تستجيب لمجتمعنا وآية ذلك أنه منذ ذلك اليوم وقد مضى عليها قرابة قرن فإن النفسية الإسلامية لا تستسيغها ولا تقبلها ولا تجدّها متصلة بها أو مستجيبة

لها. وأبرز وجوه النقص إنما تتمثل في القانون الجنائي حيث يقضى القانون الوضعي بعدم توقيع عقوبة على جريمة الزنا أو هتك العرض وتتخذ الوسائل لتبرير هذه الجريمة ويرى القانون الوضعي أن رضا الطرفين وارتفاع السن عن ثمانية عشر عاماً ووقوع الجريمة في غير منزل الزوجية كل هذه تعليقات لعدم توقيع العقوبة ، وهذه الحالات التي يُعفى فيها الزاني والزانية وهاتك العرض من العقوبة بحسب القانون الوضعي تشمل في الواقع معظم الحالات التي تحدث فيها هذه الجرائم ، لأنه من النادر أن تحدث هذه الجرائم بغير رضا الطرفين ، فقانون العقوبات المصري قد أعفى إذن من العقوبة جرائم الزنا وهتك العرض والشذوذ الجنسي هذه المواد مقتبسة مع تغيير يسير من قانون العقوبات الفرنسي وعن هذا القانون استمرت معظم القوانين الأوروبية والأمريكية .

يقول الدكتور على عبد الواحد وافي : « إن القوانين تستمد موادها الخاصة بهذا النوع من تقاليد الشعب ، وعرفه الخلق ومقاييسه للفضيلة والرذيلة . فإلى أى مدى تتفق قوانين الغرب في هذا الصدد مع تقاليد أهله وإلى أى مدى تتفق مع قوانيننا ، إن هذه القوانين تعبر عن أهل الغرب وعرفهم الخلق ومقاييسهم للفضيلة والرذيلة ونظرتهم إلى الأمور .

أما نحن المسلمين فما تزال مسائل « العرض » عندنا من أهم المسائل التي نحافظ عليها ، ولا يزال الناس يقاتلون ويقتلون في سبيل المحافظة على العرض والذود عنه ، ولا يزال ننظر إلى الزنا على أنه من أكبر الفواحش وأعظم الآثام ولا يقبل عرفنا الخلق أن تعفى الزوجة الزانية من العقوبة .

فإذا جاءت القوانين الوضعية مع ذلك وقررت أن الزنا واللواط لا عقوبة لهما ؛ فإنها بذلك تنحرف عن ديننا الإسلامي وعن تقاليدنا وعرفنا الخلق ومقاييسنا للفضيلة والرذيلة . ولا شك أن سيرنا وفق القوانين الأوروبية في معظم قضايا المدني والجنائي زهاء قرن ونصف قرن ودراستنا لهذه القوانين في كليتنا ومعاهدنا واستشارها بأكبر قسط جعله يظن أنها أفضل طريقة في التشريع والقضاء ويظن أن قوانين الإسلام قد أصبحت غير ملائمة للعصر الحاضر ، ذلك أن ما استوردناه من قوانين الغرب لا يتعارض مع أحكام الإسلام فحسب بل يتنافر كذلك مع طبائعنا وتقاليدنا وعرفنا الخلق ومقاييسنا للفضيلة والرذيلة ونظرتنا لما ينبغي

أن تستقر عليه العدالة وتكون عليه العلاقات بين الناس وأنه لا تستقيم لنا حياة اجتماعية ، ولا يتحقق لنا استقرار حضارى مع وجود هذا النوع من القوانين : إن المستعمر لم يدخل هذه القوانين فى بلادنا إلا ليشيع فيها الفاحشة ويشيع فيها الفجور والانحلال ونشجر من أهم نواحي المناعة الخلقية التى نستمد منها عرفنا وتقاليدها حتى ييسر له ذلك كل وسائل إذلالنا والسيطرة علينا ، ولا غرابة مطلقاً فى توقيع عقوبة الجلد والرجم على الزانى والزانية بعقوبة الإعدام ، وعقوبة الجلد ، وهما عقوبتان مقررتان فى مختلف الشرائع ومختلف الشعوب ومطبقتان فى جرائم تقل كثيراً أضرارها الاجتماعية والعمرانية عن جريمة الزنا واللواط ، وهتك العرض ، والشرعية الإسلامية لا توقع حدودها إلا إذا توافر شروط يندر فى الواقع توافرها بل يكاد يكون من المتعذر توافرها « أ هـ .

\*\*\*

هذه المعانى كشفها كثير من دعاة اليقظة الإسلامية ولم يتوقفوا عن الإذاعة بها وترديدها فى سبيل المطالبة بعودة الشرعية الإسلامية ولم يتوقف علماء المسلمين منذ فرضت القوانين الوضعية عن المطالبة بتعديلها ولم تتوقف الحملة على استنكار أحكامها وقد تكتشفت هذه المرحلة عن شعور عارم قلق لم يستقر أبداً بقبول القانون الوضعى وأحكام القضاء ويرجع ذلك إلى مدى الفوارق البعيدة بين طبائع المسلمين وفطرتهم وبين هذه القوانين التى لم توضع لهم أساساً والتى وضعت لمجتمعات تختلف اختلافاً كثيراً من حيث العواطف والمشاعر ومن حيث مفاهيمها للحلال والحرام ولما ترضاه وتنكره . وقد ارتفعت الدعوة بالمطالبة بمراجعة هذه القوانين وتغييرها بقوانين مطابقة للشرعية الإسلامية .

وفى هذه الفترة دخلت الشرعية الإسلامية طوراً جديداً ، فقد ظهرت حركة اليقظة الإسلامية تحمل فى مقدمة مشروعاتها تطبيق الشرعية الإسلامية بعد أن أعلنت ضرورة تصحيح مفهوم الإسلام إلى أصالته الجامعة بوصفه منهج حياة ، ونظام مجتمع بعد أن عمد النفوذ الاستعمارى بعد حجب الشرعية إلى الدعوة إلى مفهوم مضلل قائم على أن الإسلام دين عبادة ، وفق ما دعا إليه على عبد الرازق الذى أخذه من مرجليوث ممثل المفهوم الاستعمارى والاستشراقى الذى صلب النفوذ الاستعمارى . كذلك فقد تعالت الصيحة فى نفس الوقت حين أخذت المجامع الدولية للقانون تعترف

بالشريعة الإسلامية وتقرر أنها أصبح الشرائع لحكم البشرية فمنذ سنة ١٩٣٥ دوت صيحة عميد كلية الحقوق الفرنسية في المجمع الذي عقد في أثينا حين قال :

إن البشرية لتفخر بانتساب رجل مثل محمد ﷺ إليها فقد استطاع برغم أميته أن يأتي العالم بتشريع سنكون نحن الغربيين أسعد ما يكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة ، وفي مؤتمر القانون الدولي في لاهاي ١٩٣٧ قرر رجال القانون العالميين : اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من أهم مصادر التشريع العام ، وأعلنوا أنها شريعة حية صالحة للتطور وأنها قائمة بذاتها وليست مأخوذة من غيرها .

وتولت اعترافات رجال القانون العالميين بمكانة الشريعة الإسلامية حتى أوصى مؤتمر القانون المقارن في لندن ١٩٥٠ بعقد دورة خاصة لدراسة أبحاث الفقه الإسلامي فعقدت في باريس ١٩٥١ ، وتناولت أبحاث إثبات الملكية ونزع الملكية للمنفعة العامة والمسؤولية الجنائية وأعلن المؤتمر في ختام دورته شهادة صادقة للشريعة الإسلامية فقال : إن المبادئ الإسلامية قد سمحت للحقوق بأن للرغبات التي تتطلبها الحياة الحديثة وأن المناقشات أوضحت بجلاء مبادئ القانون الإسلامي من قيمة لا تقبل الجدل وأنها تضم أشرف النظريات القانونية والفن البديع .

وكل هذا يمكنها من ناحية تلبية مجموع حاجات الحياة العصرية .

وقال نقيب المحامين السابق في باريس تعليقا على البحوث : لست أدري كيف أوفق بين ما كان يحكى لنا عن جمود الفقه الإسلامي وعدم صلاحيته أساساً تشريعاً يفى بحاجات المجتمع العصري المتطور وبين ما نسمعه الآن ، فقد ثبت بجلاء أن الفقه الإسلامي يقوم على مبادئ ذات قيمة كبيرة لا مرية في نفعها وأن اختلاف المذاهب الفقهية ينطوي على ثروة ومجموعة من الأصول تتيح لهذا الفقه أن يستجيب بمرونته لجميع مطالب الحياة الحديثة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تبين أن القوانين الأوروبية قد حوت كثيراً مما جاء في الفقه الإسلامي من مبادئ مثل مبدأ حرية التعاقد ، ومبدأ تقرير قيمة الشهادات وعدم تجزئة الإقرار ، وفسخ عقود الديون المضرة ، ومبدأ تغير الأحكام بتغير الزمان والأمكنة والأحوال ، وأمثال هذا من القوانين الجديدة التي عرفها الغرب في السنوات المائة الأخيرة ، تبين أنها استمدت عناصره من دراسات ابن القيم التي كتبها قبل خمسمائة عام .



وعندما تقدم عمر لطفى بأطروحة عن حرمة المنازل التي استمدتها من القرآن الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ . . . ﴾ [ سورة النور : الآية ٢٧ ] كان الفرنسيون قد استمدوا قانون حرمة المساكن من التشريع الإسلامى ، فقال المسيو فريان راجين : يكاد يكون الاعتقاد السائد فى فرنسا أن احترام المسكن لا يشغل فى تقنين العالم الإسلامى إلا مكاناً قليلاً فقد ثبت أن الشريعة الإسلامية تحرم مثل هذا الانتهاك تحريماً مطلقاً فقد ذكر عمر لطفى أن القرآن مفسراً يحرم على كل شخص أن يدخل بيت الآخر بغير رضاه إلا فى أربع حالات :

١ - إذا كان مرخصاً له فى الدخول فيه عادة .

٢ - إذا دعى إليه ، فإن الدعوة تساوى الإذن بالدخول .

٣ - إذا دعى فى حالة حريق أو فيضان أو ارتكاب جناية .

٤ - إذا كان البيت مفتوحاً للأفراد كالحانات والحمام .

وكل من ينتهك حرمة مسكن استحق التعزير . . . إلخ .

كذلك تبين أن نظرية التعسف فى استعمال الحقوق التى عرفتها القوانين الحديثة قد أخذت من الإمام الشاطبى الذى أثبت فى تحليل دقيق أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعاً إذا لم يقصد منه فاعله إلا الإضرار بالغير وفى هذا الموضوع قدم الدكتور محمد فتحى أطروحة الدكتوراة فى فرنسا عن مذهب الاعتساف فى استعمال الحق وقد علق العلامة كيهلر القانونى الألمانى على هذه الرسالة فقال :

لقد كان العلماء الألمان يتيهون عجباً على غيرهم فى ابتكار نظرية الاعتساف والتشريع لها فى القانون المدنى عام ١٧٨٧ م ، أما وقد ظهر بحث الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا المذهب عند رجال التشريع الإسلامى وأبان بأن رجال الفقه الإسلامى تكلموا فى هذا ابتداء من القرن الثامن الميلادى فإنه يجدر بالعالم القانونى الألمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الإسلامية .

ومع هذا الاعتراف العالمى بالشريعة الإسلامية وعظمتها فقد ظلت القوى الاستعمارية تعارض تطبيق الشريعة الإسلامية فى بلادها وتفرض عليها القوانين الوضعية وتركت أغنى الأمم فى مجال التشريع فى حالة عالة على القوانين الوضعية .

وقد تطورت محاولة العودة إلى الشريعة الإسلامية على مراحل منها جعل الشريعة الإسلامية مصدراً تشريعياً من الدرجة الثالثة نقيضاً بعد نصوص القوانين وبعد العرف . وكانت الخطوة التالية أن اشتملت دساتير بعض الدول العربية على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام وفي السنوات الأخيرة أضيفت مادة جديدة هي أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي لقوانين الدولة ( في مصر مثلاً ) .

وكانت الخطوة التي جاءت بعد ، هي وضع الشريعة الإسلامية والفقهاء الإسلامى فى قوانين عصرية تحت اسم ( تقنين الشريعة ) وقد قطع العلماء فى هذا العمل شوطاً طويلاً وخاصة القانون المدنى وقانون العقوبات .

وبعد عام ١٩٧١ من الأعوام الحاسمة فى مواجهة القانون الوضعى فقد أعلن الرأى العام ضرورة إضافة هذه المادة إلى الدستور المصرى ، وقد تم هذا فعلاً وتعديل إلى ( المصدر الرئيسى للتشريع ) بعد ذلك .

وهكذا يمكن القول أن حركة اليقظة الإسلامية قد جعلت من هدف العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية أسمى الغايات التى عملت لها وقد حشدت لذلك كل قواها وقدراتها وجندت لذلك عدداً ضخماً من الباحثين الذين كشفوا عن كنوز الشريعة الإسلامية وقارنوا بينها وبين القانون الوضعى وأوضحوا تلك الفوارق العميقة وكان مبحث الدكتور عبد القادر عودة أوفى هذه البحوث وعمل الأستاذ المستشار على على منصور على تقنين قانون الجنايات فى ليبيا وفى دولة الإمارات ، واستطاع أن يحقق صياغة إسلامية للقانون ، كما عمل الأستاذ عبد الحليم الجندى مع هيئة إسلامية على إعداد القانون المدنى ، وقد انطلق العمل الجاد من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية فى جميع الأقطار الإسلامية سواء فى المعاملات أو العقوبات أو أى فرع من فروع هذه الشريعة ، وأعلنت حركة اليقظة أنه قد جاء الوقت الذى ينبغى أن يتحرر فيه المسلمون من التشريعات الوضعية التى لا تلائم ما جاءت به شريعة الإسلام ، وقد تبين أنه لا سبيل إلى إنقاذ المجتمعات الإسلامية من هذه المفاسد إلا بالاعتصام بالشريعة الإسلامية ووضعها موضع التنفيذ بكل أجزائها .

وقد اتسع مجال البحث إلى الفوارق العميقة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى وبينها وبين القانون الرومانى ، وكشفت الأبحاث كثيراً من عيوب القانون الوضعى ، وأكدت سلامة التطبيق الإسلامى وضرورته للمجتمع الإسلامى اليوم بعد أن تبين فداحة الأخطار التى أحدثها القانون الوضعى للمجتمع الإسلامى .

وكان من ذلك ضرورة دراسة العقبات التى تقف فى سبيل تطبيق الشريعة الإسلامية .

## عقبات فى سبيل تطبيق الشريعة الإسلامية

ما تزال قضية إعادة المجتمع الإسلامى إلى منهجه الأصل من حيث تطبيق شريعة الله فى معاملاته وحركته العامة ، بحيث تكون منطلقة فى مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية ، فقد سيطر النفوذ الاستعماري على بلاد المسلمين وفرض قانونه الوضعى وحجب النظام الإسلامى عن المدرسة والمصرف والمحكمة ، ما تزال من القضايا المعقدة التى تواجه من خصوم الإسلام أولياء النفوذ الأجنبى بالجدل الشديد وإثارة الشبهات وبمعوقات بالرغم من تنامى الشعور الشعبى الغامر الطامع إلى العودة إلى منابع ، إيماناً بأن الشريعة الإسلامية وتطبيقها هو وحده القادر على حماية هذا المجتمع من الأضرار والأسوء والمقايح التى تعرض لها منذ حجب تطبيق الشريعة فى بلاد المسلمين وأفسحت القوانين الوضعية المجال أمام تجاوزات كثيرة كان لها أثرها البعيد فى تهديم كثير من القيم الأساسية وانفساح الطريق أمام ضياع الأعراض وتجاوز الحدود وانهيار الأسر .

ولقد تعالت منذ حلت الهزائم بالمسلمين أصوات كريمة مدوية ، تدعو إلى التحرر من التبعية والتماس منهج الله تبارك وتعالى الأصل كمنطلق حقيقى لإعادة بناء هذا المجتمع الذى شكله القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً .

وقد مرت هذه الظاهرة الكريمة بمراحل متعددة :

**أولاً :** مرحلة التغطية لحاجة الأمة الإسلامية إلى التماس منهجها الربانى الأصل كمنطلق حقيقى لإقامة المجتمع الإسلامى ، والكشف عن فساد القانون الوضعى وأثاره الخطيرة فى تهديم تبعة المجتمع وإشاعة روح الفساد والتحلل .

**ثانياً :** مرحلة تعرف رجال القانون الغربى على عظمة الشريعة الإسلامية وكمالها واستقلاليتها ، حيث عقدت مؤتمرات عالمية حضرها أساطين<sup>(١)</sup> القانون فى الغرب الذين اعترفوا منصفين بمدى عطاء هذه الشريعة وفقهها .

**ثالثاً :** مرحلة تكشف أبعاد المعطيات التى أفاد منها الفكر الغربى من الفقه الإسلامى فى إنشاء قوانين مختلفة ، فقد تبين أن مبدأ حرية التعاقد ، ومبدأ تقرير قيمة الشهادات وعدم تجزئة الإقرار ونسخ عقود الديون المضرة ، ومبدأ تغير الأحكام بتغير الزمان والأمكنة

( ١ ) أساطين : أعمدة .

والأحوال ، هذه القوانين الجديدة التي عرفها الغرب في السنوات المائة الأخيرة إنما استمدتها من دراسات ابن القيم التي كتبت قبل خمسة قرون ومنها أيضا قانون حرية المنازل الذي أثبتته ( سورة النور ) ونظرية التعسف في استعمال الحقوق التي عرفتها القوانين الحديثة وأخذتها من الإمام الشاطبي ( اقرأ البحث في كتابنا من التبعية إلى الأصالة ) .

**رابعاً :** تنامي وعي الرأي العام في البلاد الإسلامية في المطالبة بالعودة إلى الشريعة وما تحقق من ذلك من دخول مادة الشريعة إلى بعض الدساتير وقيام بعض الهيئات بإعداد قوانين إسلامية في مجالاتها المختلفة .

**خامساً :** قيام عدد من الدول الإسلامية بالتطبيق الجزئي أو الكامل للشريعة الإسلامية ووجود بعض العيوب والنواقص التي لا بد أن تقع ويمكن ملامتها وإصلاحها .

ولا ريب أن النفوذ الأجنبي الذي ظل يعمل بوسائله وأدواته دون توقف وعن طريق مؤسساته المختلفة ذات التأثير البالغ في مجال التعليم والثقافة والصحافة - قد حاول في السنوات الأخيرة طرح عدد من المعوقات في صورة شبهات ترمي إلى تأخير تطبيق الشريعة، أو الحيلولة دون وصول الأمة الإسلامية إلى النقطة التي توقفت عندها وذلك لتبدأ مسيرتها من جديد مستأنفة الوضع الطبيعي الذي عاشه المجتمع الإسلامي منذ فجر الإسلام ومنذ قيام نظام الإسلام كمنهج أصيل يرسم الطريق لهذه الأمة في مختلف مجالاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية ويضع الخطوط العامة والضوابط والحدود التي تحقق وجوده المتميز المختلف عن مجتمعات الغرب أو المجتمعات غير الإسلامية .

### الشبهات المثارة

إن أخطر ما يثار حول تطبيق الشريعة الإسلامية من شبهات وما يعدّ من أخطر معوقات تطبيقها ، هو ذلك التصور العلماني الذي ما تزال تبثه وسائل التعليم والثقافة والصحافة من أن الإسلام ليس إلا ديناً لاهوتياً يقوم على العبادات والاحتفال بالمولد النبوي مع التجاهل الكامل لجوانبه المتصل بعلاقات المجتمع ونظمه في مجال الاقتصاد والاجتماع ونظمه في مجال الاقتصاد والاجتماع والسياسة ، وقد قصرت المناهج التعليمية عن إبراز هذا الجانب ، في محاولة لفرض تصور بأن هذه الأمور لا تدخل في نطاق الإسلام وأنها تجري عن طريق ما يحفل به المجتمع من قوانين وضعية وأنظمة غربية تتصل بالديمقراطية في السياسة والمعاملات الربوية وتجاوز حدود الله في العلاقات الاجتماعية وخاصة فيما يتعلق بالزنا

والسرقة والخمر ، فقد أجازت القوانين الوضعية كل هذا وتراخت فى عقوبته وبذلك وضعت المجتمع الإسلامى أمام أوضاع خطيرة .

ولقد جرت المحاولات المختلفة لتعديل القوانين على النحو الذى يصحح هذه الأوضاع ولكن ما تزال هناك عقوبات كثيرة تقف دون ذلك حيث تثار الشبهات حول الحدود وقطع يد السارق ورجم الزانى واتهام الشريعة بالغلظة والجهامة .

### أولاً : قضية الحدود

وقد أثار خصوم الإسلام قضية الحدود وأحدثوا حولها غباراً كثيفاً وجدلاً شديداً ، من حيث هى المخافة الخطيرة التى ترتعد لها فرائص<sup>(١)</sup> الظالمين الذين يخافون تطبيق شريعة الإسلام وقد نسوا أن الحدود ليست إلا جزءاً صغيراً من الشريعة ، وقد أحاطها الشارع بضوابط شديدة ، وهى لم توضع لتكون عقوبة على عمل بقدر ما وضعت لتكون زاجراً عن الوقوع فى الخطأ .

وليست الشريعة الإسلامية هى الحدود ، وليست الحدود هى لب الشريعة ولكن الحدود وسائل لحماية المجتمع من التحلل والفساد ، والشريعة الإسلامية هى النظام الذى يقوم عليه المجتمع الإسلامى لحماية شخصية الفرد وتكوينه على أنه جزء من المجتمع يعمل للسعى والكسب فى حدود الحلال الذى أحله الله تبارك وتعالى ، ولكل من الذكر والأنثى مهمته الخاصة التى حددها له النظام الإسلامى .

ومن شأن هذا النظام أن يتيح الفرصة المتكافئة للجميع بحيث لا يظلم أحد ، وعن طريق الزكاة ( لا الصدقة ) يقوم التوازن بين الأغنياء والفقراء ، وأن ما يأخذه من الأغنياء هو حق له وليس صدقة ليوزع على الفقراء ، فإذا استوى المجتمع وتوازن ، وتحققت فيه العدالة أصبح قابلاً لتطبيق أحكام الله وتطبيق العقوبة لمن يتجاوز سواء فى الزنا أو السرقة أو الفساد الاجتماعى .

هذا ما يقرره علماء الفقه الإسلامى وما استقر الرأى عليه ومن هنا فإنه أصبح من الضرورى أن يبدأ المجتمع خطوته إلى إعداد وجوده الحقيقى الذى يستعيد فيه منهج الله تعالى .

( ١ ) فرائص : جمع فريضة ، وهى اللحم التى بين الجنب والكتف ، وترتعد الفرائص : كناية عن الفرع .

ولابد من إعداد عدة أمور :

**أولاً :** رد المرأة إلى مسئوليتها الحقيقية فى حماية الأسرة وبناء الأجيال إيماناً بأن الدعوة إلى تحريرها كان يراد بها هدم الأسرة وإفساد هذه الأمانة .

**ثانياً :** تحرير وسائل التسلية والإعلام من تقديم المسلسلات والأفلام والمسرحيات التى تشير الغرائز ، أو تدعو إلى الفساد الخلقى أو تحرض على الجريمة ، وسد الطريق على الإغراء والإباحية .

**ثالثاً :** إقرار نظام الزكاة وإلغاء نظام الربا تطهيراً للمجتمع وتحريراً له من الفساد ومن الطبقات التى تحصل على المال عن طريق الحرام ، والتى تفسد المجتمع بإنفاقه فى الفساد وسد الطريق إلى الكسب الحرام والغنى الفاحش .

**رابعاً :** فتح أبواب التيسير للشباب للزواج عن طريق تقديم المساكن اللازمة وتخفيض المهور وتيسير وسائل الحلال وتشجيع الجنسين على الزواج .

**خامساً :** تحريم السرقة من أموال الشعب وأداء حق الله الذى هو حق المجتمع فيما سوى الزكاة بما يمكن الدولة من الموارد اللازمة لها وإقامة حدود الله على أساس كفاية المجتمع .

ومعنى هذا فى تقدير أئمة الفقه الإسلامى المعاصر ، أن النظام الإسلامى والشرعية الإسلامية ليست هى قطع يد السارق أو رجم الزانى ، ولكن هذه الحدود هى بمثابة وسائل الردع التى تحول دون وقوع الجريمة وليس عقاباً عليها .

ذلك أن تطبيق النظام الإسلامى من شأنه أن يحل جميع مشاكل الأمة الإسلامية ويحميها من الاستدانة واستنزاف الموارد ويحفظها من روح التحلل واللذات والاستعلاء والخطف والكسب الحرام وهذا كله ينتهى تماماً إذا ما طبق النظام الإسلامى .

ونحن نرى اليوم نتائج ما أصاب المجتمعات الإسلامية نتيجة القوانين الوضعية من انحلال خلقى واضطراب فى مجال التعامل الاقتصادى والعلاقات الاجتماعية فى الأسرة والزواج والمرأة ، وقد وقع هذا نتيجة اختفاء الشريعة الإسلامية بضوابطها المحكمة وحدودها ، خاصة فى مجال الربا والزنا والخمر فقد قامت الحدود فى مواجهة فساد المجتمع وتحرير الربا فى مواجهة فساد التعامل الاقتصادى .

لقد فتح عدم تطبيق الشريعة الباب واسعاً أمام التحلل والتترف الرخيص والاندفاع وراء المادة ومحاولة الكسب عن طريق الحرام والجري وراء الشهوات والرغبات .

### ثانياً : تطوير الشريعة

كذلك أثار خصوم الشريعة الإسلامية ما يسمى قضية تطوير الشريعة من منطلق علماني خالص حيث تحتاج المناهج والأيدولوجيات إلى التطوير ، فهم يرون أن الدين المنزل بالوحي يمكن أن يخضع لهذا الأمر .

والحقيقة أن علاقة الشريعة الإسلامية بفلسفة التطوير بمفهومها الشامل هي علاقة تضاد ، فقد جاءت الشريعة الإسلامية لتبقى إلى الأبد في حين تصر فلسفة التطوير الشامل نبد كل ما يمت إلى الماضي وإلغاء كل الحقائق الثابتة ، من هنا يصبح من واجب الباحث الإسلامي أن يناقش هذه الفلسفة بوصفها قلب الهجوم على الدين بعامة وعلى الإسلام بخاصة ، وكما يقول الدكتور أحمد عبد الرحمن : إنه ليس من هدف المناقشة رفض كل تطور وإنما تحديد الدائرة المشروعة لها ، وهذا التحديد يستحق العناية بحق ؛ لأنه كفيل بإسقاط دعاوى عديدة حول ما يسمى ( إصلاح الدين ، تجديد الدين ، تعديل الشريعة ، تطوير العقيدة ) . . إلخ ، وقد كشف لنا المنهج الإسلامي عن طابقين :

الأول : « التشريع » وجوهره العدل ( خذ ثمرة جهدي وتحمل تبعه أخطائك ) .

الثاني : « الأخلاق » وجوهره الإيثار ، وشعاره ( اعط غيرك من ثمرة جهدي ) .

قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ [ الجاثية : ١٥ ] وقال تعالى : ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴿ [ النجم : ٣٨ ، ٣٩ ] .

يقول ابن القيم : إن الأصل في العقود كلها إنما هو العدل الذي بعثت به الرسل : ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ [ سورة الحديد : الآية ٢٥ ] والشارع جل شأنه نهى عن الربا لما فيه من ظلم ، وعن الميسر لما فيه من فساد ، وكلاهما أكل أموال الناس بالباطل ، وكل معاملة نهى عنها الإسلام فهي ظلم واغتصاب لثمرة جهود أخرى ، وكل معاملة أجازها فهي عدل : هذا هو المبدأ الذي يراد تطويره لكي يوافق الفلسفة النسبية .

ثم ( الإيثار ) كيف يمكن تطويره ؟ فالإسلام يقدم فلسفة اجتماعية متكاملة وضعت لإقامة حياة إنسانية كريمة فضلاً عن حقوق الشيوخ والمُعَدِّمين وجميع الفئات التي لا

تستطيع أن تعمل حيث يتوجب على الحاكم المسلم أن يأخذ لهم حقوقهم ، إذا لم يبادر أهلها إلى تقديمها عن طوعية ورضاً ، ولا يقف الإسلام عند حدود الزكاة بل يمد يديه بقوة إلى مزيد من الفضل والعطاء ، إلى حيث البذل مع الخصاصة<sup>(١)</sup> أو العطاء مع الحاجة .

هذا هو المبدأ المطلوب تطويره بغية إفساح المجال للأخلاق النفعية الفردية والأناية التي تسود المجتمعات الأوربية اليوم .

وهكذا نرى كما يقول الدكتور أحمد عبد الرحمن : أن صيحة تطوير الشريعة ترمى إلى تغيير الأخلاقيات وتطوير العقائد وإلغاء الثوابت وهي ليست بالفلسفة الحديثة أو المعاصرة فقد كانت تمثل<sup>(٢)</sup> لباب الفلسفة السوفسطائية التي ظهرت قبل سقراط والتي أنكرت وجود الحقيقة القيمية كما أنكرت القيم الخلقية الثابتة الدائمة المطلقة .

ويقول الدكتور يوسف القرضاوى : إن القوانين الشرعية أساسها الدين ، والدين ثابت لا يتغير ( الزواج والطلاق والميراث ) وعدم التغير فيه ضرورة من ضروراته ، وليس الأمر كذلك بالنسبة للحياة فهي معرضة لتحولات مستمرة ولهذا يرى الغربيون أن يبقى الدين (وجدانياً) أى علاقة بين ضمير الإنسان وربه لا صلة له بالحياة والمجتمع والدولة ، وأن تكون نظم الحياة مستلهمة من معطياتها فى التحول والتطور وليست قائمة على أسس دينية جامدة تحول دون ترقى الأمة وتطورها وتمشيها مع مقتضيات المدنية المعاصرة ، فهل هذا التبرير صحيح من وجهة نظر العقل والعلم الخض ؟ نقول : لا ، ومنطق العقل والعلم والواقع يؤيدنا .

فالواقع أن أحكام الدين ليست كلها ثابتة لا مجال فيها لتغير أو تطور كما أن الحياة ليست متغيرة متحولة لا مجال فيها للثبات .

فأحكام الدين ليست ثابتة دائمة فإن الاجتهاد يدخل عليها فى كثير من التفاصيل .  
وأحكام الحياة الاجتماعية مثل نظام الأسرة والموارث ونظام المعاملات والمبادلات المالية ونظام الجرائم والعقوبات ذات مستويين :

( ١ ) الخصاصة : الفاقة والحاجة .

( ٢ ) تمثل : تخضع .



**الأول :** يمثل الثبات والدوام وهو ما يتعلق بالأسس والمبادئ والأحكام التي لها صفة العموم ، وهو ما جاءت به النصوص القطعية الثبوت القطعية الدلالة التي لا تختلف فيها الأفهام ولا تتعدد الاجتهادات ولا يؤثر فيها تغير الزمان والمكان والحال .

**الثاني :** مستوى يمثل المرونة والتغيير وهو ما يتعلق بتفصيل الأحكام فى شئون الحياة المختلفة وخصوصاً ما يتصل فيها بالكيفيات والإجراءات ، وهذه قلما تأتى فيها نصوص قطعية .

والفقه الإسلامى الذى هو ثمرة لخصائص الإسلام نفسه يجمع بين الثبات والمرونة معاً فى توازن محكم وتناسق فريد ، فلم يقل مع القائلين بالثبات المطلق أو التغيير المطلق ، فالأصول الكلية ثابتة خالدة ، شأنها شأن القوانين الكونية التى تمسك السموات والأرض أن تزولا ، والفروع الجزئية مرنة متغيرة فيها قابلية التطور شأن ما فى الكون والحياة من متغيرات لازمة لحركة الإنسان والحياة .

هذا وبالجملة فإن فكرة تطوير الشريعة فكرة باطلة ومضللة وطرحها يوحى بالقصور فى فهم الفارق الدقيق بين الشريعة والفقه .

فالشريعة هى نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، وهى نصوص بلغت كمالها واكتمالها منذ صعد الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، والتطور معناه : الانتقال من طور إلى طور فلا محل للقول بذلك مطلقاً بالنسبة لهذه النصوص ومصدرها الإلهى كما نعلم ، أما القول بتطوير الفقه الإسلامى فهو وارد إذا صح القصد ؛ إذ أنه عمل إنسانى ، وهو مجهود علماء المسلمين لفهم نصوص الشريعة واستنباط الأحكام منها سواء كانت تتعلق بالجزئيات أو القواعد الكلية التى تتفق مع أهداف هذه النصوص العامة فى القرآن والسنة .

\* \* \* \*

### ثالثاً : التشكيك فى قدرة الشريعة على العطاء

#### والادعاء بأنها لم تطبق بعد عصر الراشدين

لا ريب أن هذه المحاولة من خصوم الشريعة والإسلام باءت بالفشل الذريع ، فقد كشفت صفحات التاريخ الإسلامى عن صور رائعة وكريمة لم تعرفها البشرية فى تاريخها كله ، من العدل والرحمة والسماحة خلال حكم الإسلام بما أغرى كثيراً من الوثنيين وأصحاب الأديان الأخرى للدخول فى دين الله أفواجاً ؛ وبما أقامت من نظم وفتحت الطريق أمام كل عناصر المجتمع لتتقدم وتتولى المناصب الكبرى وتشارك فى النهضة الحضارية دون قيد أو شرط وقد شهد بذلك خصوم الإسلام من المستشرقين . وكتاب الغرب تحدثوا عن ظلال الأمان التى عاشها أصحاب الأديان فى المجتمع الإسلامى الذى حمى وجودهم ومعابدهم وأشركهم فى كل أعماله ، وهو اتجاه امتد خلال أربعة عشر قرناً كانت بلاد الإسلام تضيء العالم بنور الحضارة بينما كانت أوروبا تعيش ظلمات العصور الوسطى ، حتى جاء النفوذ الأجنبى فأوقف عمل الشريعة وحجبها وفرض قوانينه الوضعية فغرقت المجتمعات الإسلامية فى الشرور والآثام .

ومن هنا كان القول بأن الشريعة الإسلامية لم تكن مطبقة إلا فى عهد الخلافة الراشدة ، قول فريق من العلمانيين الداعين إلى هجر الشريعة الإسلامية كمصدر لنظام الحياة والمجتمع .

ويرى المستشار طارق البشري أن هذه الفترة الأولى هى الفترة التى أرست قواعد التشريع ورسمت حدود النصوص والأحكام التى اهتدى بها المجتمع الإسلامى فى المراحل التالية ، وأن أهم ما تتميز به هذه الفترة هو كونها تشريعاً وأصلاً وليس تطبيقاً ، وأنها وعاء ( النص ) والنص<sup>(١)</sup> دائماً ( مثال ) يستمد مثاليته من ذاته وليس من غيره .

والقول بأن الإسلام لم يطبق بجوهره إلا فى هذه الفترة فيه نوع مصادرة على المطلوب ، كالقول بأن التشريع لا يجد كماله التطبيقى إلا فى عملية صدوره . وهنا يرد أصل المسألة المراد مناقشتها ، وهو أن التشريع دائماً مثال ووضع أمثل والتطبيق دائماً ناقص ونسبى ومن عمل البشر وهو قابل للنقد والتغيير وخاضع للتجربة التاريخية والاجتماعية .

( ١ ) النص : القرآنى أو النبوى .

ونحن ندرك أن التطبيق لن يبلغ الكمال قط لأنه سيكون من فعل البشر وخاضعاً لظروف الزمان والمكان ، أى خاضع للتاريخ ، ولكن ليس معنى هذا أن الشريعة لم تطبق ، وأمامنا مصدران هامين يؤكدان أن الشريعة كانت تطبق إلى وقت دخول الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ ، بما سجله رجال الحملة في كتابهم ( وصف مصر ) ، وما سجله الشيخ الجبرتي في تاريخه من أن الحدود كانت مطبقة في عصر محمد علي ويقول المستشار طارق البشري :

إن من ينكرون أن الشريعة طبقت في أى وقت بعد عصر الرسالة والراشدين نراهم يتنزلون بالنكران على درجتين :

فبيدءون بالنكران النسبي : أن الشريعة لم تطبق كاملة ثم يتدرجون إلى النكران المطلق وأنها لم تطبق أصلاً ، وهم يسوقون في التدليل على ذلك حكايات عن مظالم أو حمق أو سفك دم ، ولو اتبعنا هذا الأسلوب في تقديم النظم الوضعية لما بقى منها حجر على حجر سيما تلك التطبيقات التي شاهدها بلادنا .

فبالنسبة لأصول الشريعة التي يحاكم على أساسها الحاكم ففى ظنى أنه على مدى القرون السابقة وعلى رغم ما عرف من نفوذ الحكومات وتجاربها أحياناً ، فقد ظل الشعور بالانتماء للجماعة السياسية المتصفة بالإسلام قائماً ، ولا أظن حاكماً لبلد إسلامي في القرن التاسع عشر لم يكن يستمد من الشريعة أساس قيام حكمه ، صلح هذا الحاكم أم لم يصلح .

وإذا كان المقصود أن الشريعة لم تكن مطبقة بالإشارة إلى حكومات سلاطين تلك العهود وأنهم لم يكونوا ملتزمين بما فرض الله من عدل وإحسان فإن الشريعة ليست نظام حكم فقط ، والعلاقات القانونية المستمدة من الشريعة والتي كان الفقه الإسلامي يضع التفاريع<sup>(١)</sup> على أصولها ، هذه العلاقات تغطي كل أنواع الأنشطة البشرية في المجتمع سواءً وبيعاً وإيجاراً ورهنأ ومضاربة وهي تنظم المراكز القانونية كافة وتنظم وسائل عقاب المجرمين والشذوذ بالحدود والقصاص والتعازير وتنظم علاقات الأسر ودرجات القرابة زواجاً وطلاقاً ونسباً وبنوة ، وما يترتب عليها من آثار كالولاية والميراث والنفقة إلى غير ذلك من هذه الأوضاع والعلاقات غير المتناهية في تعددها وتنوعها وتغيرها .

( ١ ) التفاريع : هي ما ينفرع عن الأصول من مسائل فقهية .

وإذا أنكرنا وجود الشريعة بعد الراشدين فللمرء أن يسأل أية أحكام كانت تطبق على معاملات الناس في هذا الامتداد الجغرافي وعبر الأزمان الممتدة ؟ هل كان هناك نظام قانوني آخر ؟ فإن لم يكن فماذا كان يحدث عندما يتنازع شخص ولو قدحاً من شعير أو يفتح نافذة على جاره أو يروى زرعه عبر أرض الغير ؟ وأية أحكام كانت تطبق في الزواج والطلاق والميراث ؟

لقد كانت الهيمنة للشريعة الإسلامية التي امتدت إلى أقصى النجوع والكفور يتحاكمون إليها في تعاملهم ومع بعضهم البعض ، هذه الهيمنة لم تكن تجرى عن فراغ فقهي أو فكري فقد كانت هناك على الدوام جهود فكرية وفقهية وتعليمية تواكب العمل وتغنيه .

وأيما كان ما يتحمل الحكام من أوزار فهل يجوز أن ننسى أنه في تلك القرون ظهر شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وتلميذه ابن كثير كما ظهر ابن الصلاح والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد ؟

كذلك فإن ما أوردته كتب التاريخ عن الخلافات بين الأمراء والحكام قصد به إيجاد دليل كاذب على تقسيم المجتمع الإسلامي ، فإن هذه الخلافات لم تكن بهذه الصورة ، ثم إن المجتمع نفسه في مجموعته كان سليماً قوياً متماسكاً ، كذلك فإن محاولة تحميل المماليك والدولة العثمانية اتهاماً في هذا الصدد نتيجة التقاط بعض الأخبار التي وردت في ابن يباس والجبرتي ، مرفوض تماماً فإن هذه حوادث منفردة حيث سكنت هذه الكتب عن الأخبار التي تمثل سلامة المجتمع وتناميته .

\*\*\*\*

#### رابعاً : المعاملات الربوية

لا ريب أن الصورة الواقعية للعالم الإسلامى اليوم وهو محاصر من النظام الربوى المسيطر على اقتصاده ، ومعاملاته من أكبر معوقات تطبيق الشريعة ، وتتمثل أزمة العالم المعاصر فى نظام الفائدة الربوية ، وآثاره المترتبة على زيادة التضخم وإذا كان المسلمون قد اتجهوا إلى تحرير أنفسهم من المعاملات الربوية عن طريق البنوك والمصارف الإسلامية فإن هناك عقبات كبيرة فى طريق هذا الاتجاه .

وقد كشفت الأبحاث والدراسات عن مدى الأخطار التى تواجه الاقتصاد الإسلامى نتيجة تبعيته للنظام الربوى ، ومن الضرورى أن يأخذ المسلمون مقادتهم إلى تحرير أنفسهم من المعاملات الربوية وفتح الأبواب أمام الوسائل الإسلامية من المضاربة والمشاركة ، وغيرها ، واستثمار الأموال بالطرق التى تكفل تنمية المال دون استغلال أو أكل أموال الناس بالباطل ، ومن الضرورى اتباع منهج الإسلام فى تحقيق التنمية الاقتصادية فى المجتمع المسلم . التى تتركز فى وضع مجموعة من القواعد الأساسية التى تضبط التنمية ، كتحريم الربا والاحتكار والتركيز على الربح الحلال ووضع التنمية فى إطار أخلاقى .

ومن الأمور التى تعين على التحرر من المعاملات الربوية تلك الأبحاث التى قدمها الغرب بفشل النظامين الرأسمالى والشيوعى فى تحقيق المجتمع الأمثل وحاجة البشرية إلى نظام أكثر عدلاً وسماحة وهو الإسلام .

\* \* \* \*

## خامساً : تعديل القانون الوضعي

لا ريب أن محاولة العمل على تنقية القوانين هي محاولة قليلة الجدوى ، ويرى كثير من الباحثين القانونيين الإسلاميين أن القول بتنقية القوانين أو ترقية أحكام من الشريعة الإسلامية هي محاولة فاشلة من الناحية القانونية العملية ، فإنه لا يمكن فرنسة<sup>(١)</sup> الشريعة أو أسلمة<sup>(٢)</sup> القانون الفرنسي .

فالإسلام ليس العبادات والأخلاق فحسب ، بل هو كُـلُّ متكامل بعقائده التي تخدم أهدافاً ، وبأخلاقياته التي تعالج سلوكاً ، والمجتمع الإسلامي لن يقوم إلا بتطبيق المعاملات الإسلامية وهذا لن يتحقق إلا بقيام القانون أساساً على مفهوم الإسلام الذي يقوم على تكامل القيم بخلاف القانون الغربي الذي يقوم على الفصل بين القيم .

فالإسلام يحمل مفهوماً جامعاً بين الروح والمادة تترايط فيه القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ويربط بين العلم والدين .

ومما يتعلل به خصوم تطبيق الشريعة دعويان<sup>(٣)</sup> :

### الأولى : التدرج في التطبيق :

ولا شك أن دعوى التدرج في تطبيق التشريع الإسلامي يخالف كمال الشريعة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾<sup>(٤)</sup> وقد مضى على الشريعة أربعة عشر قرناً فكيف يقال بالتدرج ؟ مع أن دساتير العالم تحدد مياعداً لتنفيذها فور إكمالها وإعلانها ويسرى حكمها على الكافة دون تدرج ، هذا ولم يعرف الإسلام التدرج في التشريع إلا في الخمر وثبت في الأخير حرمتها بالنص وأن دعوى تهئية المجتمع هي دعوى مرجئة ومثبطة ولا يوجد مجتمع يخلو من الجرائم ولا بد من حماية الجريمة بالقانون أساساً .

### الثانية : توفر حد الكفاية :

كذلك فإن القول بأن المجتمع الإسلامي فقير ، هي دعوى مرفوضة لأن التشريع جعل

( ١ ) فرنسة : جعلها مجارية للتقاليد الفرنسية .

( ٢ ) أسلمة : جعله موافقاً للشريعة الإسلامية لأنه مخالف لها .

( ٣ ) دعويان : مثني دعوى ، وهي مطلق ما يدعيه المرء سواء كان صحيحاً أو خطأ .

( ٤ ) سورة المائدة : الآية ٣

ضوابط محددة فى توقيع العقوبة ، فالسارق لا تقطع يده إلا بشرط توفر المطعم والمشرب والملبس وأن يكون المال محرراً وغيرها من شروط ، إذا تخلف منها شرط سقط الحد بالشبهة ووجب له عقوبة تعزيرية .

والاحتجاج بتوفر حد الكفاية لكل فرد حتى يمكن تطبيق الشريعة الإسلامية ، هى حجة ضد خصوم الشريعة لأننا يجب علينا أولاً أن نضع النص بالتشريع ، وعندئذ نترك الأمر للقاضى الذى يقدر كل حالة على حدة ، فالسارق الذى سرق ليدفع عن نفسه غائلة الجوع لا يخضع للعقاب ولكن الذى سرق لينفق على الأهواء هل تقول له إنك على حد الكفاية ؟ فالقضية إذن هى أن القاضى الآن ممنوع من أن يقطع فى مثل هذا مع أنه يستحق القطع لأن حد الكفاية متوفر له .

\* \* \*

وهكذا نجد أن كل ما يثيره خصوم تطبيق الشريعة الإسلامية من شبهات لا تثبت أمام التحليل العلمى والبحث الصحيح وأنها كلها محاولات يراود بها تأخير تطبيق الشريعة أو وضع عقبات أمام خطوات التطبيق .

إن هناك اليوم أرضية أساسية لتطبيق الشريعة فى البلاد العربية ( ومعظم دساتير هذه الدول قد نصت على الشريعة بصورة أو بأخرى ) غير أن هناك عملية حصار خطير من القوى الأجنبية تحول دون تحقيق هذا المطلب الشعبى الكاسح .

لقد كانت القوانين الوضعية عاملاً خطيراً فى زيادة معدلات الجريمة وفتحت الباب واسعاً أمام الإباحيات .

إن الذين يريدون أن يفهموا الإسلام وكأنه دين لاهوتى ، هم الذين يثيرون هذه الشبهات فى إبعاد الإسلام عن مجال الحياة وقصره على دور العبادة والمخارب .

وكل هذا يستدعى إيجاد ركائز جديدة من شأنها أن تمهد لتطبيق الشريعة وإعداد القائمين عليها ، ومداومة طرح المفاهيم الصحيحة والكشف دائماً عن الأخطاء ، وإذا كانت القاعدة والمنطلق هى من التعليم فليس هناك أهم فى هذا المجال من تدريس مادة الثقافة الإسلامية فى مدارسنا وجامعاتنا حتى تعرف الأجيال الجديدة أن النظام الإسلامى قادر على العطاء فى هذا العصر وفى كل عصر ، بل إنه قادر على حل مشاكل البشرية

المعقدة التي كان مصدرها هذه القوانين الوضعية (\*) .

وعلى الدول الإسلامية أن تحرر نفسها من كل أسباب التبعية ، وأن لا تجعل للمساعدات المشروطة سبيلاً إلى فرض منهج وافد أو تأخير الخطوة الحاسمة نحو إقامة المجتمع الإسلامي والعودة إلى المنابع والتحرر من كل نفوذ سياسى أو اجتماعى مفروض من الخارج ، هذا فضلاً عن إنشاء الكليات المتخصصة والمجامع الفقهية ومعاهد الاقتصاد المقارن على نحو يجمع بين رجال الفقه ورجال القانون والاقتصاد وإنشاء معاهد ومراكز متخصصة لتدريب القضاة والمحامين وعلينا أن ننتفع بالتجربة التي تحققت في بلاد الإسلام كالسعودية وباكستان والسودان والتعرف على نواقصها وإيجابياتها لتستفيد بها الدول الأخرى .

ولا ريب أن ما قام به رجال القانون والقضاة والمستشارون من إصدار أحكام إسلامية ورفض القانون الوضعى والطعن فى دستورية عقوبة الزنا وغيرها ، هى بمثابة خطوات إيجابية نحو التطبيق الكامل وكذلك ما وجهوه من نداءات إلى المسؤولين وإلى زملائهم ، كل هذا جدير بالتقدير والتنويه ونحن نأمل فى رجال القانون أن يفسحوا صدورهم لقوانين الشريعة وأن يتقبلوها ولا يقفوا فى وجه تطبيقها بحجة أنها تختلف عن دراساتهم وليكن واضحاً لنا جميعاً أننا إنما نعمل على العودة إلى الطريق الأصيل الذى سارت عليه الأمة الإسلامية أربعة عشر قرناً ولم تخالفه إلا يوم فرض عليها النفوذ الأجنبى قانونه الوضعى فى سبيل حماية وجوده وبقائه .

\* \* \* \*

---

( \* ) راجع كتابنا ( فى مواجهة الحملة على الإسلام ) .



## سادساً : الحرب على اللغة العربية

ولقد كانت المؤامرة على اللغة العربية الفصحى من أبرز خطوات الغزو الاستعماري الذي شمل العالم الإسلامي خلال القرنين الماضيين ( إلى جوار المؤامرة على الشريعة الإسلامية وعلى التعليم والتربية ) فقد استهدفت السيطرة الأجنبية : حصر اللغة العربية والحيلولة بينها وبين التمدد والانتساع ، وضربها في عقر دارها ، واتهامها بالقصور والضعف والتخلف ، وتمكين العاميات واللهجات واللغات الأجنبية من السيطرة عليها ، ذلك أن انطلاق الدعوى التغريبية إلى حرب اللغة العربية إنما كانت تستهدفها بوصفها لغة القرآن ، هذا القرآن الذي أعطاها هذا الصمود في مواجهة الأحداث وهذا الثبات والتمكين على الزمن دون أى لغة أخرى من لغات العالم ، وكانت المؤامرة تطمع في أن تفصل بين المسلمين وبين بيان القرآن ومن ثم يصبح بيان القرآن من تراث المتاحف حيث تجرى اللغة العربية في مجال العاميات فلا يلتقيان أبداً ومن أجل هذه الغاية برزت دعوى مضللة تقول : إن العامية المصرية هي لغة منفصلة عن اللغة العربية وسابقة لها ، ومن هنا جاء ويلكوكس ليعلن للمصريين أنه لا سبيل إلى نهضتهم إلا إذا التمسوا العامية وأكد دوفرين في تقريره ضرورة تجاوز الفصحى إلى العامية وعمل الاستعمار البريطاني على إحلال اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية في دراسة جميع المواد في المدارس الابتدائية والثانوية والعالية وفي هذه المرحلة ظهرت زعامات العامية ممثلة في المهندس ويلكوكس صاحب محاضرة ( لماذا لا توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ) قال فيها : إن الأمم التي استطاعت أن ترتقي هي الأمم التي تركت اللغة الفصحى إلى لغتها الشائعة بين فلاحها كما فعلت إنجلترا ، وإن اللغة الدارجة هي مصدر الترقى .

وقد ووجهت هذه الحملة بردود فعل واسعة وتصدى لها كثير من الباحثين ثم تجددت الحملة حين دعا مستر ويلمور أحد قضاة محكمة الاستئناف إلى استعمال العامية بدلا من الفصحى إلى ما أسماه ( لغة القاهرة ) ووضع لها قواعد واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية وكشف الكتاب زيف دعوى ويلمور ونقضوا فكرته وأظهروا أن العامية ليست لغة مستقلة وإنما هي تشويه محلي يعتبرى كل لغة في العالم ، وهو ما يسمونه لهجة واللهجات متفاوتة في كل أمة فأى لهجة يستعملون ؟ وقال أحدهم

إن ما حدث في اللغة اللاتينية لا يمكن حدوثه في اللغة العربية لاختلاف الشبه بين اللغتين ، وتصدى ماسينون للدعوة إلى العامية في سوريا والمغرب وإلى المغاربة في باريس ودعاهم إلى العامية وإلى الحروف اللاتينية .  
وفي المغرب دعا المستشرق الفرنسي كولان إلى العامية المغربية وانتقلت الحركة إلى المصريين والعرب فظهرت كتابات لطفى السيد وسلامة موسى والخوري مارون غصن .  
ثم دعا عبد العزيز فهمي في مجمع اللغة العربية إلى استعمال الحروف اللاتينية في رسم الأبجدية العربية .

\* \* \* \*

#### ١ - لطفى السيد

كانت حملة لطفى السيد على اللغة العربية الفصحى هي أخطر الأعمال التي قام بها والتي دفعته بالتبعية لأن يواصل الخطة التي بدأها الاستعمار البريطاني بقيادة ويلكوكس ، وقد كانت محاولته مأكرة خبيثة بدأها عام ١٨٦٩ في مجلة الموسوعات حيث ادعى أن اللغة العربية أصبحت تعلمها أبعد مثلاً من تعلم اللغات الأجنبية ، ودعا إلى تسكين حروف الهجاء وفك الإدغام وإهمال الشكل وسخر من هذه الضوابط كلها ، ثم وسع نطاق الدعوة عام ١٩١٣ في جريدة الجريدة ، فكتب أكثر من سبعة مقالات وفي هذه الحملة كان خادعاً فهو لم يفاجئ القارئ بالحملة على اللغة العربية وهو لم يدع إلى ترك الكتابة بالفصحى إلى العامية بل تسلل إلى ذلك بطريقة فيها كثير من المكر والمناورة ، وكانت دعوته إلى إدخال الكلمات الأجنبية ( الأتومبيل والبسكلت والجاكتة والبنطلون وغيرها ) إلى اللغة العربية ، وقال إنها دخلت اللغة فعلاً وإننا لا نستطيع أن نضع لها ولا لغيرها من المسميات الجديدة أسماء جديدة ، وقال إن اللغة ملك للأمة وللكتاب الحرية في الزيادة عليها بأساليب جديدة بألفاظ جديدة وأنه لا حرج على الكاتب أو المترجم أن يستعمل من الألفاظ ما شاء لما شاء من المعاني ويقول : نريد ألا نذر ( اللغة العامية ) أو لغة الشعب تموت بإبعاد عربيتها وفصحيتها عن عالم الكتابة والعلم .

ونريد أن نرفع لغة العامة إلى الاستعمال الكتابي وننزل بالضرورة من اللغة المكتوبة إلى ميدان التخاطب والتعامل وقال : إن العامية ( وأسمائها لغة ) لها من خصائص ثابتة تحدها من جميع الجهات وتجعلها مميزة تمييزاً تاماً ودعا إلى استعمال العامية في الكتابة ، وقال : إن

الحروف تكون ساكنة ولا تتحرك إلا بحروف العلة ، هذه هي المؤامرة التي حمل لواءها لطفي السيد الذي اختير بعد ذلك رئيساً لمجمع اللغة العربية وقد عاشت هذه الأفكار قائمة في حياته وفكره بل وعمل المجمع على تحقيقها بعد أن ضم إليه عدداً من خصوم اللغة أمثال طه حسين ، وعبد العزيز فهمي الذي دعا إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، ومن بعد ذلك عدد كبير من هؤلاء التغريبيين .

وقد وقف عبد الرحمن البرقوقي ومصطفى صادق الرافعي في مجلة البيان موقفًا حاسماً جريئاً في الدفاع عن اللغة العربية ، وقد حملوا لواء الاتهام للطفى السيد مؤمنين بأن القضاء على اللغة العربية هو قضاء على أقدس مقدسات الأمة الإسلامية .

\* \* \*

## ٢ - سعد زغلول

وقد شارك سعد زغلول في الحملة على اللغة العربية عندما عين ناظرًا للمعارف ( أكتوبر ١٩٠٦ ) فقد نفذ توصيات دورفرين في تقريره الذي وضعه لتنظيم الاحتلال وأشار فيه إلى خطر اللغة العربية في مصر وقال :

إن الأمل في نجاح تهذيب العلم في مصر لا يزال ضعيفاً ما دام الصبيان لا يتعلمون اللغة العامية بدلاً من تعلمهم لغة القرآن الشريف كما يفعلون الآن ، فإن نسبة العامية إلى الفصحى في اللغة العربية هي كنسبة اللغة الإيطالية الحديثة إلى اللغة اللاتينية القديمة . وقد عمدت بريطانيا إلى تعليم المواد الأساسية باللغة الإنجليزية على أن تصبح اللغة العربية لغة ثانوية .

ولما فارت الأمة كلها على هذه المحاولة ، حمل لواء هذه الحملة الشيخ على يوسف في جريدة المؤيد - غير أن سعد زغلول - وقف في الجمعية العمومية ورد على أصحاب وجهة النظر هذه معارضاً إياها فقال :

إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية بمحض رغبته أو اتباعاً لشهوتها ، ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة ، إن مركز الأمة من الأمم الأخرى واحتلالها بالأجانب واشتباك المصالح الأجنبية بالمصالح الوطنية ، كل ذلك أوجب تعلم العلوم باللغة الإنجليزية لكي يتقوى بها التلاميذ كما ينبغي ويمكنهم أن يستفيدوا من المدنية الأوروبية ويفيدوا

بلادهم بها ويقووا على الدخول مع الأجانب في مُعْتَرَك الحياة ، حياة العلم والعمل ، شعرت الأمة بهذه الضرورة قبل شعور الحكومة بها فأرسلت كثيراً من أبنائها إلى المدارس الأجنبية كمدارس الفرير والجزويت والأمريكان التي تعلم فيها بلغات أجنبية ، وفي الحقيقة إننا إذا فرضنا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية فإننا نكون قد أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبيرة لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبريد والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة التابعة للحكومات والشركات والبنوك ، وإذا قطعت النظر عن هذا كله ؛ صادفتنا صعوبة مادية هي قلة المعلمين الأكفاء الذين يمكنهم تعلم الفنون المختلفة باللغة الوافدة ، ويستحيل مع وجود هذه الصعوبة الشروع الآن في التعليم باللغة العربية ، وإذا كنتم مع ذلك توافقون على الاقتراح المقدم لكم عن ( تعلم العلوم باللغة العربية ) كنتم كمن يحاول الصعود إلى السماء بغير سلم ، أهـ .

هذه هي وجهة نظر زعيم الأمة في اللغة العربية فهو يرفض تعلمها ويصر على اتخاذ اللغة الإنجليزية لغة التعليم في مختلف العلوم ( ما عدا اللغة العربية نفسها ) .

وقد رد الشيخ على يوسف صاحب المؤيد على رأى سعد زغلول فقال : إن ما فعلته نظارة<sup>(١)</sup> المعارف من نسخ التعليم باللغة العربية وجعله باللغات الأجنبية لم يكن لحاجة البلاد وليس سببه إقبال الأمة على المدارس التي كانت تعلم باللغات الأجنبية كما يقول ناظر المعارف ، بل الأولى أن نعلل أن إقبالها على مثل مدارس الجزويت والفرير كان منشؤه ضعف التعليم من حيث هو في مدارس الحكومة وقد قال ناظر المعارف إن التعليم في مدارس الحكومة صعب إلى حد أننا نلتجئ إلى إرسال أبنائنا إلى المدارس الأجنبية .

هذا وقد وافق المجلس على التعليم باللغة العربية ، ولكن سعد زغلول وضع عبارة مألها : أنه لا يمكن تنفيذ المشروع الآن للصعوبات الموجودة ، ومتى زالت الصعوبات أمكن تنفيذه .

هذا ويمكن أن يضاف إلى تاريخ سعد تبيعيته لدنلوب الذي كان مستشاراً لديه في الوزارة ، حتى قالت بعض الكتابات إن دنلوب كان هو الوزير الحقيقي للتعليم وقد اختير سعد لهذا المنصب لولائه للإنجليز .

---

(١) النظارة : الوزارة .

### ٣ - سلامة موسى

عمد سلامة موسى في كتابه : ( البلاغة العصرية واللغة العربية ) إلى جمع سمومه كلها ضد القرآن واللغة والإسلام جميعاً :

- بالهجوم على الأسلوب البياني والدعوة إلى الأسلوب التلغرافي .
- بالدعوة إلى إلغاء كلمات المحرم والعرض من اللغة .
- بالدعوة إلى إدخال الكلمات الأعجمية دون قيد .
- بالدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية .

قال الدكتور أحمد الحوفي : إن هدف سلامة موسى من الأسلوب التلغرافي أن يكون الأسلوب خالياً من الروعة والبراعة والجمال والموسيقى ، فلا تمتاز عن أسلوب الخطاب المعتاد المتداول في الشؤون اليومية وهو يتجافى ما تقرره البلاغة وعلم النفس من أن الأسلوب صدى لما في نفس منشئه ، فالانفعال القوي لا يميز عنه إلا أسلوب يلائمه قوة ، والانفعال الهادئ لا يوائمه إلا أسلوب يشاكلة دقة ، وإذا كان هذا رأي الذي طالما دعا إليه فلماذا لم يأخذ نفسه به ؟ ما له لا يلزم الأسلوب التلغرافي الذي يدين به ؟

على أننا إذا آثرنا الأسلوب التلغرافي فقد جحدنا ما خلّفه<sup>(١)</sup> أدباء العالم كله من تراث فني .

أما اتهام سلامة موسى اللغة العربية بأنها وليدة مجتمع أرستقراطي حربي ديني ، فلم تعد صالحة لحياتنا ، فجراً ودعوى باطلة فلم تكن الأمة الإسلامية في العصر العباسي الذي يقصده المؤلف أرستقراطية حربية دينية فحسب وإلا فيأية لغة ترجم المسلمون تراث اليونان والفرس والهنود والنبط ؟

بعد أن اتسع نطاق اللغة العربية للتعبير عن فلسفة أفلاطون وأرسطو والتعليق عليها وشرحها ثم هي تتهم بأنها لغة مجتمع أرستقراطي حربي ديني فحسب فليست صالحة لنا ، وبأى لغة ألف المسلمون في الفلسفة والجغرافيا والفلك والرياضيات والمنطق والأخلاق والكيمياء والبلاغة . . . إلخ .

وإذا كانت دعوته إلى الاختلاط والعريّ مستورة بستار شفيف فإن دعوته إلى إلغاء

( ١ ) خلّفه : تركه .

كلمات الثأر والعرض مكشوفة مفضوحة تطل بقرنيها من خلال كلماته أنه يريدنا أن نمحو من لغتنا كلمة ( العرض ) فلا نثار - وكلمة الثأر فتنازل ولا نتقم وكلمة ( الدم ) فنهدر حياتنا وحياة أعزائنا فلا نثار .

إننى لا أكاد أؤمن أن دعوته لهدم اللغة وتقويض<sup>(١)</sup> الأخلاق وازدراء<sup>(٢)</sup> الماضى المجيد إلا دعوة استعمارية ؛ لتبديد شمل الأمة العربية أو هى دعوة تبشيرية لقطع ما بين المسلمين ودينهم من صلة لغوية وخلقية ، ولكن لن تكون لدعواتهم صدى ما دامت هناك أقلام فى أيدي أحرار .

\* \* \* \*

#### ٤ - عبد العزيز فهمى

وكانت دعوة عبد العزيز فهمى إلى استعمال الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية محاولة خطيرة فقد ألقاها فى مجمع اللغة العربية وواجهتها معارضة شديدة من المفكرين والكتّاب وقد حاول عبد العزيز فهمى أكثر من مرة أن يواجه العاصفة ولكنه عجز عن المقاومة ، فقد اشترك فى معارضته عبد الوهاب عزام ، وإسعاف النشاشينى ، وعباس العقاد ، ومحمد كرد على ، ومحمود محمد شاكر ، وغيرهم .

وقال الأستاذ محمد كرد على : إن عبد العزيز فهمى أراد أن نتشبه بالأتراك فى حين أن الأتراك لما أخذوا الحروف اللاتينية قطعوا كل صلة بينهم وبين ماضيهم ، وعمر هذا الماضى لا يقل عن ستمائة سنة وشأن العربية غير شأن التركية ، لأن العربية تمثل تراث العالم الإسلامى كله وإذا عملنا عمل الأتراك نقضى على كل تراث علمى وأدبى ودينى دام مطرداً خمسة عشر قرناً بما لم يعهد لأمة مثله ، ومعنى ذلك الزهد فيما خلفه العرب من آثار والقضاء على مشخصاتنا وهو ما لا يرضى بذلك عربى أو مسلم ، لقد خسر الأتراك أى خسارة بما أتوا من العبث بلغتهم فلا نريد أن نتقبل مقالهم ولا يجوز لأنفسنا الاقتداء بأهل لغة من اللغات ، فَمَنْحَانَا<sup>(٣)</sup> غير منجّاهم ولغتنا تتسامى مع جميع لغات الشرق .

وهكذا وجد كل خصوم اللغة العربية وأعداؤها مواجهة قوية ، فإن الذين كتبوا فى الرد

( ١ ) تقويض : التقويض النقض .

( ٢ ) ازدراء : احتقار .

( ٣ ) المنحى : المقصد .

على عبد العزيز فهمي كثيرون ليس في مصر وحدها بل في كل عواصم العرب مدحضين هذه الدعوة الباطلة ، وكذلك وجد كل خصوم العربية من يردهم عن محاولتهم .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل كانت الصحافة باباً خطيراً من أبواب الحملة على اللغة العربية وما حاولته بعض أجهزة وزارة التربية والتعليم وما حملته الدعوة التي قادها المبشرون والمستشرقون والشيوعيون حين حملوا لواء العامية وكتابة الشعر المنشور في محاولة خطيرة ترمى إلى تغريب اللغة العربية وإعلاء شأن العاميات .

وكانت الدعوة إلى تطوير اللغة أشد هذه الحملات خطراً ، فقد عملت على التسهيل في بعض قواعد الإعراب وعدم التشدد في قبول المستحدث من الألفاظ والأساليب التي تجرى على كل لسان ليسهل تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية وكان العكس هو الأصح .

وكان لبعض مجامع اللغة العربية دوراً واضحاً في هذه المحاولة ، وبالرغم من أن حركة اليقظة واجهت الحملة على اللغة العربية مواجهة حاسمة ، فقد جاءت مرحلة سيطرة الشيوعيين على الإعلام والصحافة في عقد الستينات لتفتج الباب واسعاً أمام حملة جديدة ، ولكن ردود الأفعال امتدت إلى غير قطر من البلاد العربية وكانت المواجهة واضحة في الجزائر بالذات في مقاومة ( الأمازيغية ) ومقاومة ( الفرנקفونية ) ويهاجم مولود قاسم القائلين بأن اللغة مجرد أداة أو وسيلة محايدة لنقل المعرفة فيقول : ليست اللغة مجرد كلمات ، بل هي ( وعاء حضارى ) ومن هنا توصف اللغة بأنها : القوة الطبيعية الأولى في الأمة ، إذ أن أركان شخصية الأمة هي ثلاثة ( اللغة والدين والتاريخ ) ولغرس حب الوطن نحن نؤمن بأن للإسلام المكانة الأولى .

ويسفه مولود قاسم القائلين : بأن اللغة مجرد أداة أو وسيلة محايدة لنقل المعرفة فيقول : إن هذا كلام غير دقيق ، وإن العلاقة بين اللغة والفكر أعقد من أن تكون مجرد علاقة بين وسيلة وغاية ، فاللغة تؤثر في الفكر كما يؤثر الفكر في اللغة . وفي شمال إفريقيا كانت الحرب عنيفة متصلة في مراكش وتونس والجزائر وليبيا وقد تقدم المستشرقون فألفوا في اللهجات البربرية وقواعدها كتباً مقررة لإحلالها محل العربية الفصحى .

وكان الهدف من إحياء العاميات أن لا يفهم المسلمون قرآنهم وقال المستشرق كامفاير إن قراءة القرآن وكتب الشريعة الإسلامية أصبحت في تركيا مستحيلة بعد استبدال الحروف

اللاتينية بالحروف العربية في محاولة للوصول إلى قلب القرآن نفسه .  
كذلك فإن مراكز تعليم العربية لغير العرب في جامعات الغرب ( بريطانيا ، وفرنسا ،  
وبرلين ) قصد بها تنفير أبناء الإسلام غير العرب من تعلم العربية وترديد أقوال المستشرقين  
في اتهامها بالجمود والعقم وبأنها لغة لا تصلح للحياة إلا في مجتمع بدوي وأنها لا تساير  
الحياة العصرية .

ولم يكتفِ النفوذ الأجنبي المسيطر على الأفطار العربية في إشاعة الاتهامات نحو اللغة  
العربية وانتقاصها ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، إذ عمل على إحياء اللهجات وتمكين  
اللغات الأجنبية من السيطرة ، كما عمد إلى لغات الأفطار العربية التي كانت تكتب  
بالحروف العربية فغيرها كما فعل في لغتي الهوسا والسواحلية في إفريقيا وفي اللغات  
الأندونيسية والماليزية وغيرها .

وكان لقوى التبشير العالمية دورها في فرض نفسها على مناهج التعليم في كثير من  
البلاد التي تحررت في إفريقيا .

وكذلك الأمر في معاهد الألسن التي لا تقوم برامجها على اعتبار أن اللغة العربية هي  
الأساس وأن كل اللغات التي يتعلمها العربي والمسلم هي خادمة للفكر الإسلامي وإنما  
تقوم هذه المعاهد على فلسفة مغرقة في التبعية والولاء الأجنبي ، ويطمع المشتركون فيها أن  
تحتضنهم الدول الأجنبية في مناصب وأوضاع متميزة يخدمون فيها خصوم أمتهم .

\* \* \* \*

## ٥ - لويس عوض والتشكيك في القرآن

يقول الدكتور إبراهيم عوضين في نقد كتاب الدكتور لويس عوض : في كتابه  
( مقدمة في اللغة العربية ) حمل لواء تجهيل اللغة العربية والافتراء على التاريخ ومهاجمة  
الفكر الإسلامي وقلب الحقائق باسم العلم ، فقد تناول القيم الإسلامية صراحة ومن خلف  
ستار بالتشويه وهو يتخفى ثم يهجم على غرضه في جرأة ، ولقد أبرز الخلط الذي ملئت  
به صفحات الكتاب ( ٦٠٠ صفحة ) ذلك الكشف الجديد في نطاق البحث عن كلمة  
( صمد ) حيث قرر الكاتب أن العدد ( ٣ ) العربية مأخوذ من جذر هندي أوربي وهو في  
المصرية القديمة من جذر غير هندي وأن ثلاثة المصرية القديمة هي (خمت) وخمت



المصرية وصمد العربية ، وإذا كان الأمر كذلك في نظره كان معنى الصمدية بناء التوحيد على قبول نظرية الانبثاق ورفض مساواة المسيح لله في الجوهر ثم يصل إلى أن كلمة (صمد) في العربية وهي من الأسماء الحسنى كلمة محيرة لأنها مادة جامدة لم تشتق من فعل ولم يشتق منها فعل وهي غامضة المعنى نادرة الاستعمال وأشهر استعمال لها في الصمدية ولهذا ربط المفسرون معناها دائماً بتوكيد التوحيد وإنكار الثلاث في مفهوم الصمدانية .

وهكذا حكم الدكتور على كلمة ( صمد ) بأنها تساوى كلمة ( خمت ) المصرية التي تعنى (٣) ثم يتساءل كيف يصف القرآن الكريم بها الله سبحانه وتعالى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ \* الله الصمد ﴿ إذ كيف تكون الكلمة تعنى ثلاثة أو ثلوث ويقول الله سبحانه إنها تعنى التوحيد المؤكد .

وخطأ الدكتور هو في الربط بين كلمة ( خمت ) المصرية وكلمة ( صمد ) حيث لا يوجد بينهما أى تشابه وهي وسيلة من وسائل المستشرقين في الاستنتاج يخالف الأسس العلمية من أجل الأهواء والأحقاد والظعن في القرآن الكريم وما يتضمن ، والقضاء على ما يقرره كل دارس للعربية من أن القرآن دستور العربية الحافظ لها .

هذا إلى ما ينشئه استنتاجه ذلك من تشكيلك في وحدانية الله الخالصة من شوائب الشرك ولم يقدم لويس عوض أى دليل مقنع للارتباط بين كلمة ( خمت ) المصرية وكلمة ( صمد ) العربية يقوم على سند صحيح ، وإنما سنده تحت الكلمات والتعمية خلف غريب المصطلحات ليفرق القارئ في متاهات .

وإذا كان التاريخ لا يوافق الدكتور فيما قال فإن علم اللغة يبرأ من كل ما حاوله باسمه ، فليس التشابه بين الكلمتين داعياً لأن يكون مدلولهما واحداً ، ولو كان بين مخارج حروف الكلمتين تشابهاً أو تقارباً لقلنا توهم أو أخطأ أما أن يربط بين حرف الخاء الحلقى<sup>(١)</sup> وحرف الصاد الصغرى<sup>(٢)</sup> فهذا لا يعنى إلا العبث والإفساد المقصود .

ومن تضليله تعمده إلى قطع الكلمة عن اللغة العربية بعد أن جعل اللغة العربية فرعاً ضئيلاً من اللغات الأخرى فقرر أن الكلمة محيرة لأنها عادة جامدة لم تشتق من فعل ولم

( ١ ) الحروف الحلقية : هي التي تخرج من الحلق وهي الهمزة والهاء والعين والحاء والغين والخاء .

( ٢ ) الحروف الصغرى : وهي الحروف التي يصدر عن النطق بها صغير وهي الصاد والسين والزاي ،

فالصغير صفة من صفات الحروف .

يشتق منها فعل ، فعزل الكلمة عن الكلمات المتشابهة وجمدها ليقول فيها ما شاء له الافتراء والهوى كأنها شاة افترسها ذئب بعد أن تخايل فعزلها عن زميلاتها وهو في سبيل ذلك يضرب بمفاهيم اللغة العربية عرض الحائط ويتجاهل الشعر الذي تضمن الكلمة في هيئاتها المختلفة .

إن الدكتور لو نظر في معاجم اللغة لما قامت لفريته<sup>(١)</sup> قائمة فكيف يقرر أن الكلمة جامدة ومعجم متوسط من معاجم اللغة مثل ( لسان العرب ) يصرح بأن صمده ويصمده صمداً وصمد إليه كلاهما قصده وصمد صمداً لأمر قصده واعتمده وأصمده له بالعصا قصد وصمد رأسه تصميذاً إذا لف رأسه بخيعة أو ثوب أو منديل وأصمده إليه الأمر أسنده والصمد بالتحريك السيد المطاع الذي لا يقضى دونه أمر ، أو الذي يصمد إليه في الجوائح أى يقصد والصمد من صفاته ( تعالى وتقدس ) لأنه أصمدهت إليه الأمور فلم يقص فيها غيره .

والدكتور تجاهل سياق سورة الإخلاص فلا يعرف أن السياق يؤكد هذا المعنى إذ تقول السورة : ﴿ قل هو الله أحد \* الله الصمد \* لم يلد ولم يولد \* ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فوصف الله تعالى بالأحدية بمعنى أنه غير متجزئ وليس كما يتوهم عدد متعدد ، والوصف بالأحدية يعنى عدم التجزء .

أما إذا كان الدكتور يعلم ذلك فإننا نكون في صراحة أمام طاعن في القرآن الكريم وأحكامه لأنه والحال هكذا يعنى أن الآية الأولى من السورة تناقض الآية الثانية منها . والمعروف أن الهجوم على لغة القرآن امتد في محاور ثلاثة :

**المحور الأول :** قاده سلامة موسى وأمثاله من التغريبيين وقد دعوا إلى طرح الحروف العربية جانباً واتخاذ الحروف اللاتينية بدلاً وروج أصحاب هذا الاتجاه للزعم القائل بأن اللغة العربية جامدة وجمودها سبب من أسباب تخلف العرب ونسوا أن أصحاب الحروف اللاتينية لم تشفع لهم حروفهم اللاتينية يوم أن كانوا متخلفين .

**المحور الثانى :** فقد حمل ألويته ( جمع لواء ) بعض تلامذة الغرب الذين رباهم على فكره وسؤل<sup>(٢)</sup> لهم الباطل فرأوه حسناً ولهذا فقد شجعوا العامية لغة خطاب ولغة كتابة ، وساعدهم على ذلك تقدم وسائل الإعلام التى تبنت هذه القضية .

( ١ ) لفريته : الفرية : الكذب .

( ٢ ) سؤل : زين .

المحور الثالث : نجده يظهر في حملة التشكيك في أصل اللغة العربية وفي القرآن ثم في أصل العرب ذاتهم وهذا ما نجده في كتاب الدكتور لويس عوض ( مقدمة في فقه اللغة العربية ) .

وأهم أباطيله أن العرب بصفة خاصة والساميين بصفة عامة منذ فجر التاريخ كانوا يقطنون مكاناً آخر غير الجزيرة العربية وأن الجزيرة العربية لم تكن مهدهم الأول بل قدموا لها من مكان آخر وهو مكان مشترك نزل به الساميون الأولون جميعاً ، وأنه لا يوجد جنس يسمى بالساميين إلا في إطار الشجرة العامة الهندية الأوربية .

٢ - لم يهاجر السكان العرب من داخل الجزيرة بل على العكس كانت الهجرة من خارج الجزيرة إلى داخلها .

وهو في كلتا الدعوتين لا يعتمد على مصادر موثقة ، ويخالف ما يؤكد التاريخ من أن الهجرات السابقة خرجت من الجزيرة العربية لأسباب اقتصادية ومناخية ، ودلائل التاريخ كلها تشير إلى أن بابل وآشور وكنعان ومصر والحيثية كانت كلها هدفاً لغارات من أقوام قدموا إليها من الجزيرة العربية ومع هذه الأدلة القاطعة نجد لويس عوض يصير على تجاهل الحقيقة ليجعل من العرب ولغتهم كمّاً مهملاً في عرف التاريخ .

ولا ريب أن كل ما نقله لويس عوض في كتابه عن مصادر المستشرقين واليهود وغيرهم من أعداء الإسلام كان يراد به طرح التصور المسموم في أفق الإسلام للتأثير على الحقائق الواضحة .

\* \* \* \*

## سابعاً : الدعوة إلى الفرعونية

كانت محاولة النفوذ الأجنبي في السيطرة على الأمة الإسلامية بعد إسقاط وحدتها . التي كانت متمثلة في الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية الدعوة إلى الإقليمية ، وقد تركزت الدعوة إلى الإقليمية في أنواب المصرية والسورية والعراقية والسودانية وغيرها .

وقد حاولت أن تعتمد في كل قطر على بعض ملامح تاريخه القديم فاتخذت من اكتشاف توت عنخ آمون في مصر مثلاً منطلقاً للدعوة إلى الفرعونية ومضت الكشف الأثرية في كل بلد في محاولة لرده إلى ماضيه السابق للإسلام ، فأصبحت هناك الدعوة إلى الفينيقية في لبنان ، والآشورية في العراق ، والزنجية في السودان .

وفي مصر ارتبطت بحجر رشيد والكشف عن اللغة الهيروغليفية وقصص البردى والحديث عن الماضى الوثنى القديم فيما يتصل بإيزيس وأوزوريس وحورس وما يتصل بالفراعنة وعبادة الأصنام .

وحمل لواء هذه الدعوة عدد من الباحثين وفي مقدمتهم الدكتور محمد حسين هيكل ، وعبد الله عنان ، وحسن صبحي ، وغيرهم في حملة صاخبة مواجهة للإسلام والعروبة ( وقد رجع الدكتور هيكل في الآخر ) .

وقد واجه كُتّاب مصر والعرب الأصلاء هذه الحملة بالرد عليها والكشف عن زيفها وكان في مقدمة هؤلاء : أحمد زكي باشا شيخ العروبة ، ومصطفى صادق الرافعي وظهرت كتابات كثيرة تحاول إحياء الأدب الفرعوني القديم على أنه تراث فكري ، ودعا هيكل كل قطر بالبحث عن تاريخه القديم وذلك بإحياء البابلية والآشورية ، وكان في مقدمة من كشفوا زيف هذه الدعوة الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة حيث قال :

عفا الله عن كُتّابنا الصحفيين ، ما أقدرهم على أن يثيروا عاصفة من غير ريح ويمعشوا حرباً من غير جند ، أفرعونيون نحن أم عرب ، أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟ نعم : قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من أعطى أزمة النفوس وأعنة الأهواء ثم اشتهر بالرأى الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام فبسطوه في المقالات وأيدوه بالمنظرات حتى خال بنو الأعمام في العراق والشام أن الأمر جد ، وأن الفكرة عقيدة

وأن ثلاثة من الكتّاب أمة وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات والمساجد معابد والكنائس هياكل والعلماء كهنة .

وبعد : هذه مصر تقوم على ثلاثة عشر قرناً وثلاثاً من التاريخ العربى فنسخت ما قبلها كما تنسخ الشمس الصاخبة سوايح الظلال .

أزهقوا إن استطعتم هذه الروح وامحوا ولو بالفرض هذا الماضى ثم انظروا ماذا يبقى فى يد الزمان من مصر ، وهل يبقى إلا أشلاء من بقايا السوط وأفناء من ضحايا الجور وأشباح طائفة ترتل ( كتاب الأموات ) وحياة ضارعة تسجد للصخور وفنون خرافية شكلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة .

لا تستطيع مصر الإسلامية إلا أن تكون فصلاً فى كتاب المجد العربى لأنها لا تجد مدداً لحيويتها ولا سنداً لقوتها ولا أساساً لثقافتها إلا فى رسالة العرب .

وهكذا سقطت دعوة الفرعونية وتكشف عجزها عن العطاء لأنها لم تجد جذوراً باقية تبنى عليها ، فقد طغى الإسلام على كل هذه المعالم فأزالها وقطع العلاقة بين ماضى الأمة وحاضرها ، ولقد جرت الدعوة شوطاً بعيداً ولكنها لم تلبث أن فشلت فى أن تجد أرضية لها ، كما أنها لم تجد تراثاً أو قيماً دينية أو أخلاقية أو اجتماعية أو عملاً أدبياً مكتوباً .

أما حضارتها فقد تحجرت فى الأهرام والتماثيل والمعابد وقد عبر الزمن بالمصريين أربعة عشر قرناً فى مجال التوجه العقدى الربانى حتى أصبحت ترى فى هذه الأحجار المنحوتة علامة على ماضٍ قد انتهى .

ولقد كان هدف دعاة الفرعونية إدخال مفاهيم الوثنية الفرعونية المرتبطة بالوثنية اليونانية وغيرها وتجديد عبادة البشر والأبطال بعد أن صرف عنها المسلمون القرآن الذى أعلى من شأن الله تبارك وتعالى وحده ، وكرم البطولة فى معانيها وقيمها وليس فى أفرادها ودعاتها . وقال مؤلف ( قناع الفرعونية ) إن فرعون هنا ليس إلا رمزاً لنوع من الحكومات الاستبدادية البائدة .

وقد تحررت الثقافة العربية فى سرعة عجيبة من أخطاء الدعوة الفرعونية وسقطت كلمات طه حسين الذى حمل لواء هذه الدعوة حين قال إن الفرعونية متأصلة فى نفوس

المصريين ولا يطلب منها أن تتخلى عن فرعونيتهما ثم كذبت الأحداث والوقائع حين قال من بعد مخالفاً نفسه إن مصر لن تدخل وحدة عربية .

وقد قام العصر الفرعوني على أساس الوثنية فى العقيدة والعبودية فى العلاقات الاجتماعية وجاء الإسلام ليقضى على الوثنية والعبودية معاً فى مختلف الحضارات الرومانية واليونانية والفارسية المصرية جميعاً وأحل محلها حضارة جديدة هى حضارة التوحيد والرحمة والإخاء الإنسانى .

ولقد تبين مدى ( الانقطاع الحضارى ) بين مصر الفرعونية ومصر الإسلامية فقد توقف العصر الفرعوني قبل ألف عام قبل الإسلام ، حيث تعرضت مصر خلالها لغزوات مختلفة من الشمال والشرق .

ويقدر الباحثون أن دور الاحتضار للتاريخ الفرعوني لمصر امتد أكثر من ألف سنة مما يؤكد توقف الامتداد التاريخى للحضارة الفرعونية .

ولقد قال أرنولد توينبى : عبثاً بحثت عن الحضارة الفرعونية فى كيان مصر الحديثة . وأعلن أن الحضارة الفرعونية قد ماتت من قديم .

وهكذا كشفت الأبحاث التى تعرضت للدعوة الفرعونية عن فسادها وسقوطها وقد توالى الأحداث فظهرت الدعوة إلى العروبة وأخذت مداها وكانت أيضاً مستمدة من مفهوم القومية الغربى وفى السنوات الأخيرة بعد أن اتسع نطاق الصحوة الإسلامية أخذت بعض القوى تعيد الحديث عن الفرعونية فى الصحف وفى المسرح وفى الدعوة إلى السياحة وفى كشف قبور الفراعنة القديمة فى محاولة للنيل من المفهوم الإسلامى الجامع الأصيل الذى استطاع أن يكشف زيف كل محاولات التغريب ولقد تراجعت الفرعونية تراجعاً كبيراً وسبقتها فكرة الوحدة العربية التى دخل عليها مفهوم القومية الغربى .

وفى السنوات الأخيرة ( ١٩٨٠ - ١٩٩٠ ) ومع تنامى تيار الصحوة الإسلامية عادت القوى الخارجية إلى استغلال المناهج الدراسية فى البلاد العربية لإعلاء شأن النزعات القبلية والعنصرية وإحياء الدعوات القديمة السابقة للإسلام على نحو جديد يرتبط بالسياحة والاقتصاد ، وقد جرى تضيق منهج الإسلام وتاريخه مع توسيع مرحلة الفرعونية السابقة واستغلال كتابات قديمة مثل كتابات سليم حسن وغيره ، وحاول كثير من الباحثين فى مجال الآثار أن يصوروا الفرعون على أنه كان عادلاً .

وجرى كمال الملاح وغيره على تغذية هذه المحاولة على صفحات كبرى الصحف العربية لجعل من فكرة وثنية قديمة جاءت المسيحية المنزلة بعدها لدحضها وكشف زيفها ، ثم جاء القرآن الكريم ليكشف زيف فرعون واستعلائه فى الأرض وادعائه الألوهية وتكذيبه لنبو موسى عليه السلام وتدمير هذه المحاولة التى كانت ترمى إلى تأليه الحاكم المستبد .

إن الفكر الإسلامى لا يرد ( تاريخ مصر الفرعونية ) ولكنه يضعه فى مكانه الصحيح فى عصور ما قبل الإسلام ، إيماناً بالدور الذى قام به الأنبياء عليهم السلام جميعاً قبل بعثة محمد ﷺ ، وتذكيراً أقوامهم بالتوحيد والبعث والحساب ، وهو يعتبر هذه المرحلة جزءاً من تاريخ مصر اختلطت فيه ملامح الإيمان بالبعث والجزاء بالوثنية على النحو الذى صورته نبي الله يوسف عليه السلام حين قال : ﴿ أَرَأَيْتَ مَتَفَرِّقُونَ خَيْرَ أُمِّ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ . [ سورة يوسف : الآية ٣٩ ] .

ولكن الفكر الإسلامى يقف موقفاً واضحاً من المؤامرة التى قام بها النفوذ الأجنبى فى ثلاثينات القرن العشرين الميلادى من أجل إعادة لون مصر الفرعونى بإحياء تراث الفرعونية الوثنية وإحلال الصبغة الفرعونية على المباني والملابس والفن ( وخاصة فى رموز الجامعة وبنك مصر من كليوباتره إلى الكاتب الجالس القرفصاء ) محل الطابع الإسلامى وهى محاولة لم يستطع المتصدرون لها أن يعلنوا هزيمتهم المنكرة وفشلهم السريع بعد أن فتحت لها أبواب الصحف وقامت جماعات تدعو لها لأمر بسيط ، هو أن الفرعونية لم تخلف تراثاً ( تاريخياً أو ثقافياً من فلكلور أو شعر أو أغاني ) يمكن أن يمثل أدباً أو تراثاً أو شيئاً من ذلك ، ومع سقوط المحاولة فإن هناك من كان حريصاً على إشاعة هذه الروح الفرعونية وإحياء هذا التصور ، والإذاعة به فى ظل تشجيع السياحة تعالت الصيحة فى هذا الاتجاه وجرت محاولات كثيرة لجعله مقابلاً للإسلام أو بديلاً عنه فى أخلاقيات المجتمع وتقاليدته . ومن ذلك تسمية إحدى منظمات الشباب باسم حورس على ما حملت الصحف عنه من أخطاء وضلالات وما تحمل من معارضة لمفهوم الولاء الإسلامى وتشيت الشخصية المصرية العربية عن أصلاتها .

ولا ننسى هنا ما قاله الدكتور محمد حسين هيكل فى مقدمة كتابه ( منزل الوحي ) أنه دعا إلى نقل الفكر الغربى ، ولكنه وجد أن بذوره لا تنبت وأيقن بعد ذلك أن الأمة الإسلامية لا يصلح لها إلا منهج الإسلام الأصل الذى هو منطلق نهضتها .

## ثامناً : الاستشراق والتبشير

كانت خطة النفوذ الأجنبي في السيطرة على عالم الإسلام قد تحولت بعد هزيمة الغرب في الحروب الصليبية التي شنّها على المسلمين خلال قرنين كاملين . تحولت الخطة إلى « حرب الكلمة » التي دعا إليها لويس التاسع والتي تبلورت في مؤسستين هما :

مؤسسة الاستشراق ومؤسسة التبشير .

ولعل أبسط تصور للاستشراق وأعماله هو أنه ( استخدام العلم في خدمة السياسة ) ففسد عمدة رجال الاستشراق في خدمة هيئتين أساسيتين هما : وزارة المستعمرات والكنيسة الغربية .

ومن هنا فقد كانت مادته في الأغلب تستهدف تغذية حركة التبشير وكانت آراؤه ومنطلقاته إنما تمثل ( مادة ) خاماً يستطيع التبشير استعمالها في دعم خطته وفي إثارة عوامل الخلاف وتأريث الشبهات بما يحقق مخططه ، فكان الاستشراق يدرس القضايا بوجهة نظر مسبقة وأحكام مقررة وبأهداف واضحة : أساسها خدمة النفوذ الاستعماري وقوامها التعصب والانتهاك للشرق والإسلام والعروبة في محاولة خادعة لصياغة كلماته في أسلوب له طابع علمي .

وبذلك كانت كتابات الاستشراق وقوداً حارقاً في أيدي المبشرين ، ومن هؤلاء : مرجليوث ، ماسينيون ، وهنري لامنس ، ولويس شيخو ، وفنسك ، وجولد زيهير ، وهم أشد المستشرقين تعصباً على الإسلام واللغة العربية .

وأخطر ما في تطور الاستشراق أن عشرات من المبشرين وقادة الإرساليات قد خلعوا أثوابهم في السنوات الأخيرة بعد أن انكشف أمرهم وتخفوا وراء أستاره كما أن هناك كثيرين تحولوا من الاستشراق إلى التبشير وفي مقدمة هؤلاء : لويس ماسينيون ، ولقد ركز التبشير على أن يحمل سموم الاستشراق إلى معاهد وجامعات المسلمين وتقديسها على أنها علوم أو حقائق علمية لخداع المسلمين .

كما عمل المستشرقون في الجامعات الأوروبية على استقطاب الشباب المسلم الوافد من البلاد العربية والإسلامية وإغرائه بفرض آرائهم ومفاهيمهم ، ومن تماسك عن هذه المحاولة رفضوا وفادته وأعادوه إلى أهله .



كذلك فقد عملوا على إحياء نوع معين من كتب التراث الإسلامى وهى الكتب التى كتبتها الفرق الضالة والمنحرفة من أتباع الباطنية والتصوف الفلسفى والقرامطة ومن القاديانية والبهاية فى العصور الأخيرة .

كذلك فقد ركز الاستشراق على الأفكار الدخيلة فى الإسلام والفلسفات الوافدة فى محاولة لتصويرها بأنها من جوهر الإسلام مع الإغضاء المتعمد عن القيم الأساسية والدور الذى قسام به أمثال : ابن حزم ، والغزالي ، وابن تيمية ، والقاضى ابن العربى ، وابن الجوزى ، وغيرهم فى تحرير الفكر الإسلامى من هذه الدخائل .

ويولى المستشرقون عناية كبرى لفكرتى وحدة الوجود والحلول وهناك ذلك الاهتمام الدائم بالعاميات والفلكلور والأمثال الشعبية والأغاني والمواويل وكلها محاولات لخلق تصور وجود لغة عامية قائمة بذاتها وقد قاوم المفكرون المسلمون هذه الاتجاهات وكشفوا عنها وحالوا بين هؤلاء المستشرقين وبين تحقيق أهدافهم ، وكان عبد العزيز جاويز ، وأحمد زكى ، وأحمد تيمور ، وغيرهم فى مقدمة هذا الرعيل .

ولا شك كان أخطر أعمال الاستشراق هو وضع موسوعات كاملة لهذه الشبهات أمام الباحثين العرب والمسلمين تمكنهم من اعتماد آرائهم فى سرعة واسعة فيلجأون إليها دون أن يكتفوا أنفسهم مؤنة البحث عما تتضمنه من حقائق أو أباطيل ، وذلك اعتماداً على طبيعة بعض المؤلفين والباحثين والعلماء من الثقة بالكلمة المطبوعة ومن الاعتماد على شهرة الأسماء التى وضعت على صدر هذه الأبحاث ، ولذلك فقد تأكد تركيز الباحثين بالحيطة والحذر من تقبل كل ما يرد فى ( المنجد والموسوعة العربية وبروكلمان ) فى الأدب العربى بالإضافة إلى دائرة المعارف الإسلامية ، وفى نفس الوقت الحرص على اتخاذ كتب مثل : ألف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، ورسائل إخوان الصفا ، والأغاني مراجع أساسية للبحث لما يتصل بمادتها وكتابها من شبهات .

وقد أشار العلامة مالك بن نبي إلى أنه فى أى قضية أو مسألة أو معضلة تواجه المسلمين فإن الاستعمار والتبشير والاستشراق والتغريب قادر على طرح إجابات مستمدة من محاولته المستمرة لتغيير مجرى الفكر الإسلامى .

وقد جرت فى العقود الأخيرة محاولات لإعطاء المستشرقين صفة العلماء المنصفين وأن كتاباتهم قد اعتدلت وأنهم يحاولون الإنصاف للعرب والإسلام ، ولكن الواقع أن ذلك لم

يحدث وكان كل ما قيل في هذا الصدد مجرد مراوغة .  
وفى السنوات الأخيرة كشف عن أعمال المستشرقين الدكتور إدوار سعيد في بحثه  
المستفيض عن الاستشراق والذي يعد أخطر كتاب صدر عن الاستشراق في العقدين  
الأخيرين .

الذي قال : ( إن دراسة التاريخ تدلنا على أن الإسلام كان يمثل على الدوام إزعاجاً  
خطيراً للغرب وليس هناك حديث عن أى دين آخر غير الإسلام على أنه يمثل تهديداً  
للحضارة الغربية ، وهناك مئات من الكتب موضوعها الرئيسى الحديث عن الهمجية  
الإسلامية وهم يتحدثون عن التناقض في الإسلام فهو مؤيد للرأسمالية وللإشتراكية على  
السواء وللنضال والغيرية والشمولية العالمية والانتقائية الضعيفة وللعنف والسلام ويرجع هذا  
الخلط الشديد في الفهم إلى أن الإسلام أصبح كبش الفداء لكل ما يرد للمفكرين  
المغربيين من أنماط أساسية واجتماعية .

فهو بالنسبة لمفكرى اليمين في الغرب يمثل الهمجية وبالنسبة لمفكرى اليسار يمثل  
الشيوعية في العصر الوسيط ، أما بالنسبة لمفكرى الوسط فإنه يمثل نوعاً من المواقف  
والأفكار العربية . وما هو معروف عن الإسلام حتى الآن يتعارض مع قيم الحضارة الغربية  
وما يعتبر ذا قيمة في الإسلام فهو أساساً عدواً للشيوعية مما يعنى أن هذه القيمة قد انتهت  
بانهيار الشيوعية .

ويقول الدكتور إدوار سعيد : إن الدارسين للإسلام في الغرب منذ البداية ينتمون إلى  
الإدارات المسؤولة عن المستعمرات وكان التعاون وثيقاً بين البحث العلمى للإسلام وبلاده  
وشعوبه والفتح الاستعماري والعسكري المباشر .

وأشار إلى المستشرق الهولندى ( سنوك هيرجرونج ) الذى استغل الثقة التى أعطاها له  
المسلمون لتخطيط وتنفيذ الحرب الهولندية الوحشية ضد المسلمين الأندونيسيين  
في سومطرة .

ويقول الدكتور إدوار سعيد : إن أكثر ما يكتب عن الإسلام في الغرب تجده مشوباً  
بسوء الفهم ، أو سوء القصد وإذا لم يكن باطلاً كله أو بعضه فهو على الأقل متأثر  
بالأوضاع السياسية والاقتصادية التى ينشأ فيها ، وهى أوضاع لا تسعى إلى الدفاع عن

الإسلام ، أو إنصافه وليس في أهدافها تنقية الفكر الإسلامى مما علق به من شوائب ليست من طبيعته .

ويقول الدكتور إدوار سعيد : إن الاهتمام بالإسلام هناك يتركز فى الجماعات التى يكون لها من النفوذ والتأثير فى العالم الإسلامى نفسه ما يساعد على تصدير أفكار ومفاهيم غريبة عن الإسلام

إن فكرة غزو الإسلام المحتمل للغرب يصور العالم الإسلامى على أنه ليس من فائدة للغرب إلا أن يورد النفط والإرهاب ، كذلك فإن البيانات الكثيرة فى الغرب عن الإسلام تحاول المبالغة فى الحديث عن قوة الإسلام وخطورته التى تتجه إلى إزعاج الغرب وأن هدف المسلمين أن يعيدوا سابق انتصاراتهم وغزوهم للغرب إذا امتلكوا القوة لتحقيق ذلك .

ومنذ القرن الثامن عشر وكتاب الغرب ينظرون إلى الإسلام على أنه كتلة واحدة ولا يستطيعون إدراك ما فى هذه الكتلة من تمايز وتعدد واختلافات فإذا كان فى العالم الإسلامى جماعات من الإرهابيين فليس كل المسلمين إرهابيين ، وكثير من مفكرى الغرب لا يدركون الفوارق بين السنة والشيعة ، أو بين المذاهب وبين المدارس الفكرية السوية والمدارس المنحرفة ولا بين الاتجاهات المعتدلة والحركات السرية والباطنية وينشرون أفكارها على أنها جميعها معبرة عن الفكر الإسلامى . أ هـ .

فإذا جئنا إلى التبشير أدهشنا تلك الإنفاقات التى تقدمها ميزانيات الدول الغربية الكبرى من أجل إدخال المسلمين فى المسيحية أو فى إخراجهم من الإسلام ، فقد تعددت المؤتمرات وبناء المراكز التبشيرية والإرساليات التى تحاول احتضان أبناء المسلمين وتحويلهم عن الإسلام ، وقد وصل ذلك إلى أنه فى العامين الآخرين جرى عقد أخطر مؤتمر تحت عنوان ( تنصير البشرية ) فى كولورادو .

ولقد كانت خطة التبشير شاملة وموحدة وذات مراحل وحلقات وقد أشرف عليها رجال ذووا خبرة وثقافة واتصال كامل بمخططات الاستعمار وقد تكشف أن وزارات المستعمرات تستخدم المبشرين فى العمل داخل البلاد العربية والإسلامية وتؤكد أهمية عملها وخطورة دورهم كأداة لتحويل الأفكار على النحو الذى تريد ، وتبدو هذه الأهمية فى إشراف الساسة الكبار على مؤتمرات التبشير من أمثال : لورد بلفور الذى أعلن أهمية توسعات التبشير فى خدمة أهداف السياسة فى قوله :

( والمبشرون هم فى نظر الاستعمار عيونهم التى تقوم بإطلاع الدول الغربية بالنواحي التى يهتمهم معرفتها عن عقائد المسلمين وأدابهم والثقافات التى يتأثرون بها ) .

وقد جاءت توصيات مؤتمرات التبشير بتوصية واحدة هامة هى أن تقاوم حكومات الاستعمار كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام وإزالة العراقيل عن طريق انتشار التبشير وتمثل خطة التبشير التى رسمها ( شاتليه، زويمر ، ماسنيون ) وغيرهم ، فى أن يكون عمل التبشير مبنياً على قواعد التربية العقلية والتأثير على عقول المسلمين وقلوبهم ، فإن عجزت إرساليات التبشير فى زحزحة العقيدة الإسلامية فى نفوس معتنقيها فإنها تستطيع أن تحقق هدفها من هدم الفكرة الإسلامية ببث الأفكار التى تنسرب مع اللغات الأوربية ، وذلك عن طريق نشر اللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية مما يمهد إلى إدخال الأفكار الغربية الهدامة للفكر الإسلامى عن طريق هذه اللغات ومن هنا تسقط الأوضاع والخصائص الاجتماعية الإسلامية وتحل بدلاً منها الخصائص الغربية ، ويرى زويمر شيخ المبشرين أن القضاء على الإسلام فى مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وأن المسلم لا يكون مسيحياً وهذه أسمى الغايات الاستعمارية .

ولا ريب أن أقوى القوى العاملة هى ( المدرسة ) الأجنبية فى مجال التعليم والتربية وتكوين النشء والأجيال الجديدة ، و ( الصحيفة ) فى مجال الثقافة وقد أكدت تقارير المبشرين على الدور الخطير الذى قامت به المدرسة والصحيفة وما تزال تقوم به فى سبيل تحقيق غاية أساسية قوامها :

أولاً : تمزيق وحدة العرب والمسلمين والحيولة دون التثامها .

ثانياً : تدمير القيم الأساسية العربية والإسلامية الفكرية والحيولة دون سيطرتها ومحاولة فرض قيم أخرى ( غربية ) المصدر على الثقافة والتربية الإسلاميين والفكر الإسلامى جملة رغبة فى :

١ - هدم الرابطة بين الدين والمجتمع .

٢ - القضاء على أخلاقية التعليم والمدرسة والمجتمع والسياسة .

٣ - إذاعة أسلوب من التحرير فى مجال الفكر يصل إلى الإلحاد وأسلوب من التحرير فى مجال الحياة يصل إلى الإباحية .

وللتبشير دور هام فى تحقيق الهدف الأساسى للمهمة كلها وهو :

إخراج المسلمين والعرب من القيم التى تدفعهم إلى الحرية ومقاومة النفوذ الأجنبى مع العمل على صهرهم فى الأمية أو العالمية والحيولة دون إقامتهم لمجتمعهم الخاص المستمد من قيمهم وتاريخهم ولغتهم وأديانهم .

وقد جمعت جميع خطط المبشرين فى مؤتمراتهم العديدة التى عقدت من سنة ١٩٠٧ إلى اليوم على أن الهدف من التبشير هو :

( إنشاء عقلية عامة تحتقر كل مقومات الفكر الإسلامى وإبعاد العناصر التى تمثل الإسلام عن مراكز التوجيه ، فإذا لم تنجح مهمة التبشير فى إدخال المسلمين فى دين جديد فلا أقل من أن تكون قد أخرجتهم من الإسلام ) .

ومن هنا يتكشف مدى عمق الترابط الجذرى بين التبشير والاستشراق الذى يجب أن يكون واضحاً أمامنا اليوم حيث تعمل قوى التبشير فى مجالات ثلاثة هى : المدرسة والمستشفى والملجأ .

وتحاول أن تجتذب المرضى والفقراء وأن كثيراً من المسلمين فى مناطق متعددة من أفريقيا وآسيا يتعرضون تحت تأثير الفقر والحاجة إلى الخضوع لضغوط الكنيسة ، ومن هنا فإن ظاهرة إغراء بعض المسلمين بالعودة إلى المسيحية إنما يجرى نتيجة لعجز المسلمين عن حمايتهم ومعونتهم ، ولما تفرضه بعض الدول من توزيع المعونات التى تصلها إلى غير المسلمين ( كما يحدث فى إفريقيا الآن ) وحرمان المناطق الأهلة بالمسلمين إغراء لهم بالتخلي عن الإسلام .

ونحن الآن فى هذه المرحلة التى يتعالى فيها زحف الصحوة الإسلامية وصعودها نجد عدداً من المؤتمرات التى تعقد هنا وهناك ، والتى تركز على تنصير المسلمين ، ففى مؤتمر أمريكا الشمالية الذى عقد فى أكتوبر ١٩٧٨ جرى وضع استراتيجية ، ومجموعة من القرارات السرية بهدف تنصير المسلمين وتخريب عقيدتهم وتغيير الأنظمة الاجتماعية والسياسية فى بلدانهم وقد تم رصد ألف مليون دولار لتنفيذ هذه الاستراتيجية السرية مع نشر إحصائيات مزورة عن ضعف إمكانات هذه الهيئات التبشيرية وفشل خططها لخداع المسلمين ، وشل حركتهم عن العمل وتقول التقارير إن ٢٢٣٢٤ كاهناً خلعوا الزى

الكهنوتى وطلبوا إعفاءهم من العمل بالكنيسة وهبط عدد القسس خلال عشر سنوات إلى ٤٩٩٨ ، بنسبة ٦٧٪ ونقص عدد الراهبات ٥٠ ألف راهبة نشكو العانس عن انعدام رغبة الشباب ، وقد جاوز التبشير نطاق الكلمة إلى ميدان العمل فى جنوب السودان أو نيجيريا وزنجبار حيث كان الفاتيكان وراء حركات التمرد فى أوغندا وقد أسقط عيذى أمين بتمويل من كهنة المعبد .

وما يزال الغرب يحفظ للمسلمين وخاصة الأتراك والدولة العثمانية أنهم فى يوم من الأيام طرّقوا أبواب فيينا واستولوا على القسطنطينية وما زال باقياً فى هذا التصور الغربى عما جرى بين الغرب والإسلام فى الحروب الصليبية .  
وتتجدد لديهم مقولة البارون دى كارافو :

إن علينا أن نعمل جاهدين على تمزيق العالم الإسلامى وتخطيم وحدته الروحية ، دعونا نمزق الإسلام لنجعله عاجزاً إلى الأبد عن صحوة كبرى .

ومن هنا كانت الدعوة إلى خطة جديدة طويلة النفس تقوم على دراسة العالم الإسلامى للتعرف على أسباب قوته ونقاط الضعف فى بنيانه وكان الاستشراق والتبشير هما الأداة الفعالة التى هبأت لأوروبا المعلومات وقدمت المشورة لهجمة جديدة عمادها الكيد والفس والتسرب إلى مصادر الثورة والوحدة والصمود والأسوة والأخلاق والقيم ونحوها لتخريبها من الداخل واستغلالها والنفخ فيها لإثارة القلاقل وتحريك الفتن بين بلدان العالم الإسلامى .

ويقرر بعض الباحثين أن الغرب قد وضع خططاً تعتمد على أساليب غير تقليدية لضرب العالم الإسلامى وأن أوروبا تعلمت من تجربة الحروب الصليبية ومن تجربة التتار أيضاً وهى فى هذا تصدر عن خلفية صليبية أصيلة .

وقد عمد الغرب على إقامة العديد من التيارات والاتجاهات الشيوعية والعلمانية داخل عالم الإسلام ودعت الداعين إلى هذه المذاهب الإلحادية ، وذلك لتكون بديلاً محلياً للماء الفراغ المذهبى (الإيديولوجى) فى المنطقة الإسلامية خوفاً من أن يملأه الإسلام الحقيقى .  
ولا شك فالغرب يريد من عملية التبشير والتغريب فرض مفاهيم وثنية ومادية غربية على شعوب العالم الإسلامى بهدف التأثير على النسيج الاجتماعى والثقافى .

وقد استطاع التبشير في أندونيسيا أن يؤثر على ٦٠ في المائة من المؤسسات التعليمية وأن يسقط ٤ ملايين مسلم في شباكه . وواضح أن الهدف هو القضاء على الإسلام ، أو السيطرة على معاقلة الرئيسية وأن التركيز على منطقة الخليج الحادث الآن هدفه الزحف إلى مكة ( جاء ذلك في تقرير خطير صدر عن مؤتمر تبشيري عقد ١٩٦٩ ) في لندن أن المنظمات التبشيرية العالمية قررت جعل ( دبي ) إحدى الإمارات السبع مركزاً وقاعدة للانطلاق والهجوم على مكة المكرمة ولتأكيد ذلك أقيمت أكبر كنيسة وأكبر مدرسة للتبشير في المنطقة .

وتؤكد تقارير كثيرة على أن المدارس هي القوة لوضع الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحي أكثر من أى قوة أخرى ، ثم إن هذا التأثير سيمتد حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً قادة لأوطانهم .

ويقول بول هاديسون في كتابه ( الطبيب في بلاد العرب ) : إن الطبيب المبشر وجد في بلاد العرب ليجعل رجالها ونساءها نصارى ومن وسائل التبشير دفع الشباب المسلم إلى الفجور والمعصية حيث يقول س . م من دعاة التبشير : إن من علامات التحضر أن يعرف الرجل المرأة وأن تعرف المرأة الرقص الغربى وأن يمارسها بالفعل وأن العفة والبكارة إنما هي من علامات التأخر ، وقد دخل التبشير مجالات أخرى تساعد على التوغل في قلب الجماعة الإسلامية يقلبها من الداخل وهو مجال الخدمة الاجتماعية ، ومجال الفن ، والصحافة ، ومجال الرياضة ، وفي بيوت الشباب ، وفي الرحلات الجماعية ، والحفلات التي تقام في المدارس ، وتحديد النسل مخطط تبشيري حيث تجرى الدعوة إليه في محاولة لمنع المسلم من القدوم إلى الحياة كلية وأن كل ما يجرى في الدولة الإسلامية من هذا كله إنما يجرى بناء على خطة مرسومة وبأموال أجنبية .

الهدف إنقاص عدد المسلمين حتى يصبح في خلال ٤٠ سنة أقلية بعد أن كانت ٩٠% والكنيسة تعتبر أن تحديد النسل بالنسبة لغير المسلم حرية وأن المسلمين وحدهم يجب أن يتوقفوا عن الإنجاب ، وعلى المسلمين الذين يملكون ٧٥% من احتياطي النفط وأكثر من ٢٥% من الغاز الطبيعي ويملكون معادن هائلة ولديهم أكثر من ٤٠٠ مليون فدان مزروعة تمثل ١١% من مساحة الأرض المزروعة في العالم ولديهم ٢٩٤ مليون فدان غابات ، هم هدف النفوذ الغربى لتدميرهم وإنقاصهم عن طريق التبشير الغربى بمخططاته المتوالية .

### تطورات خطيرة فى أساليب التبشير لمواجهة الصحوة الإسلامية :

أسفرت المؤتمرات التى عقدتها جماعات التبشير الغربية فى السنوات الأخيرة عن تطورات خطيرة فى الأساليب والمفاهيم فى محاولة زاحفة لاحتواء الصحوة الإسلامية واختراقها وتدميرها من الداخل .

وتمثل هذه الخطوة خطراً جديداً يواجه الأمة الإسلامية التى ما تزال لم تستوعب بعد الأخطار السابقة أو تسقطها أو تكشف زيفها ، بل إن الناظر إلى محاولات التغريب التى يجرى التحرك فى دائرتها فى العقود الأخيرة من علمانية ومادية وإباحية ودعوة إلى تدمير ثوابت الإسلام تحت اسم القديم والتراث والغيبيات والسلفية ليحس أن هذه المحاولات الجديدة كلها ترمى إلى فتح الطريق أمام الأساليب الجديدة فى التبشير التى تحاول أن تحتوى طبقة العامة من المسلمين وإدخالهم فيما يطلقون عليه اسم ( الإسلام المسيحى ) أو ( المسلم العيسوى ) حيث تركز هيئات التبشير الحديث على الدعوة إلى ألوهية المسيح وليس إلى النصرانية كدين بما يسمونه ( إقامة علاقة شخصية مع المسيح ) كجزء أساسى للتنصير ، أى بمعنى أن الهدف لم يكن هو المسيحية كدين ، بل الدعوة إلى تقديم السيد المسيح رسول الله إلى المسلمين على أنه إله وهو ما لا يقبله أقل المسلمين ثقافة وأضعفهم إيماناً ، لأن مفهوم ( التوحيد ) الذى قدمه الإسلام يمثل حقيقة الألوهية الخالصة البعيدة عن كل عوامل الشرك ، أو الثنائية أو التثليث .

ومن العجيب أنه فى الوقت الذى يتحدث فيه الغرب عن الحوار المسيحى مع الإسلام ، وتقام من أجل ذلك المؤتمرات التى عقدت فى عواصم مختلفة من بلاد الإسلام خلال عقدين من الزمن ، وفى الوقت الذى يؤكد فيه الغرب رغبته فى اللقاء مع المسلمين فى مواقف كثيرة تتوالى تلك المواقف الصادمة للمشاعر من حيث الدعوة إلى ما يسمى (أنجلة) (من الإنجيل) العالم الإسلامى أو تنصير الأمة الإسلامية ( من جاكارتا إلى الدار البيضاء ) وتوضع الخطط لهذا العمل حيث تدرس خطط جديدة إلى احتواء المسلمين فى فكرهم وعقيدتهم ويبدو فى الوضع الأخير المكر الفائق الذى يرمى إلى عدم مصادقة المسلمين بإخراجهم من الإسلام ، ولكن بالعمل على إيجاد المسلم المنتصر ، وإقامة كنائس خاصة لهذا النوع فى محاولة خطيرة لاستغلال علاقات قليلة فى المجتمعات الإسلامية توحى



بالضعف والتفرق والفقر ، ليكون عاملاً في إدخال المسلمين إلى النصرانية أو بعبارتهم الحاسمة ( كسب المسلمين إلى يسوع ) وواضح تماماً من قراءة النصوص المنشورة أن هناك هجمة على المسلمين في ظرف من أشد الظروف ضعفاً وحاجة وفاقراً حتى تجد أحد العناوين يقول :

( ما هي الاحتياجات الملحة التي يمكن تلمسها للناس الذين نسعى لتنصيرهم )  
والعجيب أن يدعى المسلمون للإيمان بالسيد المسيح إلهاً اليوم وهم مؤمنون به نبياً منذ أربعة عشر قرناً على مفهومه الحقيقي وصورته الصحيحة : إنه رسول الله وكلمته وليس على أنه إله أو ابن الإله ، وهل يمكن أن تخدع هذه الوسائل والإغراءات المسلمين مهما بلغت ؛ لتخرجهم من مفهومهم الأصيل للإسلام ؟ حيث كان الإسلام منذ نزوله مسيحياً وزيادة وخاصة بعد أن كشفت في عديد من بلاد العالم تلك المحاورات التي دارت بين علماء المسلمين وبين الرهبان حول مفاهيم المسيحية الغربية المستمدة من مفاهيم الوثنية القديمة .  
وإذا كان الغربيون اليوم يعلنون في كل مكان أنهم لا يفهمون المسيحية بعقولهم لأنها تستعصى على الحل فيما قدمته من مفاهيم ( الصلب والتثليث والخطيئة ) بينما يجد الإسلام وهو يقدم مفهوماً سمحاً سهلاً مبسطاً مستمداً من الفطرة ليس في حاجة إلى مراجعة ، لأن الطبيعة الإنسانية تقبله وتطمئن إليه فكيف يمكن لهذا الذي ذاق حلاوة الإيمان أن يخدعه الرهبان ببياناتهم مهما بلغ من الذكاء أو الخداع ؟

إذن فليس هناك من قبول لهذه الدعوة الجديدة التي تتطامن إلى هدف باطل ومطمع خادع وهو إدخال كل مسلمي العالم في المسيحية اليوم ، إن ملايين النسخ التي تطبع من الإنجيل وتوزع ، وعشرات الإذاعات الموجهة التي تنطلق فيها كلمات ( المسيح هو رب الجميع ) لن تخدع أحداً عن عقيدته الصحيحة ، ومع الأسف فهم ﴿ ينفقون أموالهم ليصدقوا عن سبيل الله فيسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ﴾ [ سورة الأنفال : الآية ٣٦ ] .

والواضح تماماً أن مؤامرة التبشير ومخططاته لم تتوقف منذ بدأ هذا العمل واستشرى في قلب العالم الإسلامي وكانت مؤتمراتهم جميعها تؤكد عجزهم عن تنصير المسلمين وكان قائدهم ( زويمر ) يعزى أصحابه ويقول لهم :

( نحن لا نريد إدخال المسلمين في المسيحية ولكن نريد إخراجهم من الإسلام ) ، وإن كل الذين دخلوا المسيحية كانوا أحد رجلين : رجل يريد أن يطلق زوجته ، أو يلتمس مصدراً من الرزق .

وقد انتهز التبشير ومؤسساته أحياناً كثيرة ليقترحم المجتمع الإسلامى وخاصة فى مناطق التصحر والمجاعات ، حيث فرض توزيع معوناته عن طريق الادعاء بأنها ليست من عند الله تبارك وتعالى ولكنها من الكنيسة وأن بعض السذج الفقراء المحتاجين اضطروا لقبول ذلك وهو موقف مؤقت ، ولكن التبشير استطاع أيضاً أن يحتضن بعض الأطفال سواء فى معارك لبنان أو الفلبين أو البوسنة فى القريب وينقلهم إلى حيث ينصرون ، فهى الضرورة إذن ، والموقف المتأزم فى بعض البلاد العربية ، الإسلامية نتيجة الفقر وسوء توزيع الثروة وسيطرة النفوذ الأجنبى هى العامل الحقيقى لانتشار التبشير والتنصير .

ولقد جاءت الصحوة الإسلامية فى العقود الأخيرة لتنهز قوائم التبشير والاستشراق جميعاً ولتدفعهم فى عنف شديد إلى تجديد الحملات على الإسلام والبحث عن وسائل جديدة لخداع أهله وإخراجهم من دينهم بوسائل الإغراء وليس بالإقناع ، فى محاولة قوامها الخداع والتأمر الخفى وظاهرها محاولة الإغراء المادى ( وكذلك كانت كل وسائل الدعوات الهدامة التى سلطت على المسلمين منذ ظهور الماسونية والبهائية والشيوعية وغيرها ) ، فقد قامت كلها على الإغراء بالمال والمرأة فى أفخاخ براقة زائفة سقط فيها الكثيرون .

لقد أذهلت الصحوة الإسلامية العاملين فى حقل الفكر العالمى حتى أنهم تخلوا مرة واحدة عن كل الخطط التى كانوا يبشرون بها ومنها : المصالحة بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية ، ومنها خطة الالتقاء بين شمال البحر الأبيض وجنوبه ، ومنها خطة أن عالم الإسلام جزء من العالم اللاتينى ، ومنها خطة تراث إسلامى ومعاصرة غربية ، كل هذه دعوات طالما تشدق بها التغريبيون وكان أخطر ذلك ما يسمى بالحوار الإسلامى المسيحى أو العربى الغربى وقد دعاهم المسلمون أن يوقفوا عمليات التبشير فى سبيل إيجاد مدخل إلى المصالحة بين الفكر الغربى والفكر الإسلامى ، ولكن الصحوة أذهلت عقول هؤلاء الدعاة فحطموا كل مشاريعهم وأقبلوا يدعون إلى عملية إزالة كاملة للوجود الإسلامى ولن يستطيعوا ، ولن يتحقق لهم ما يطمنون ولن يستطيعوا أن يصلوا إلى ذلك مهما بذلوا من أموالهم وجهودهم فالعالم كله اليوم يتجه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد على النحو الذى قدمه منهج الإسلام ، وأن فكرة التثليث التى يدعو إليها الغرب هى فكرة معقدة بإقرار أهل الغرب أنفسهم ، وأن تنامى المنهج العلمى فى العالم يباعد بين العقول والقلوب وبين هذه المفاهيم الوثنية التى تبناها مسيحيو الغرب ( ولم تكن من أصول المسيحية المنزلة ) أبداً .

ولا ريب أن دراسة وثائق مؤتمر كولورادو الذى جعل شعاره : العمل ليس فقط على خلقِ فَهْمٍ أفضل للإسلام والتعامل النصرانى مع الإسلام ، وإنما لتوصيل ذلك الفهم إلى المنصرين من أجل اختراق الإسلام ، وهكذا يتضح منذ الكلمة الأولى أن الهدف وهو محاولة اختراق الإسلام واقتحام الثقافة الإسلامية وهو الذى تتمثل خطته فى كثير مما يواجهه المسلمون اليوم .

إن الذين يدعوننا إلى أن نتساهل فى تقبل مفاهيم الغرب ظناً منهم أننا نستوعبها ، وأنها لن تؤثر فى أصالة موقفنا ، إذاً نكون قد وقعنا فى خطر الآثار التى تترتب عليها وهى التى يعلق عليها المشترون اليوم أهمية كبرى فى أن تكون مدخلاً للتنصير المتمثل فى خداع المسلمين بالكلمة المفسولة والصدقة والمتابعة والتكرار فى محاولة لإيقاع المسلم فى المصيدة ( بإخفاء المخالب الدامية فى قفازات من حرير ) .

ومن ذلك فإن دعوتهم إلى تجاوز أسلوب القرآن والسنة النبوية تحت اسم التطور والتغيير وحكم العصر هى إحدى وسائلهم لخداعنا ونحن قد انخدعنا فعلاً بها .

ولقد فتحوا مدخل كثيرة للغزو ، تتمثل فى التعليم والفن والثقافة مما يستدعى الحيلة وأن نقف من معطيات الثقافة الغربية الوافدة التى تغمر مناهجنا الفكرية والتعليمية موقف الحذر ، ذلك أن هذه النظريات كلها منذ دعا إليها هيكل وديكارت ونيتش ، إنما تصدر عن مفاهيم لاهوتية كنسية نقلها الغربيون من الثقافات اليهودية والمسيحية والإغريقية والرومانية وكلها اختلطت بالتعدد والتثليث وبالأساطير القديمة التى عرفتها بابل وعرفها الفراعنة فى مذهبية ( إيزيس ، أزوريس ، حورس ) التى تحولت من بعد إلى التثليث المسيحى ، إن مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية ( من التطور إلى التحليل النفسى إلى الأخلاق إلى الاجتماع ) كلها مستمدة من الفلسفة المادية .

ويجب أن نكون على وعى بموقف رجال الكنيسة من الإسلام حسبما ورد فى مؤتمر كولورادو من أن الإسلام منذ ظهوره فى القرن السابع إنما يمثل تحدياً للكنيسة ، وأن الإسلام قد أحرز تقدماً فى قرونه الأولى ، وأن محاولات قد تمت لوقف المد الإسلامى بالقوة العسكرية وعجزت الحملات التنصيرية عن استعادة مناطق إسلامية إلى المسيحية بينما استمر الإسلام فى الانتشار على طول آسيا وإفريقيا ، وينتشر اليوم فى العالم الغربى .

ويتحدث خبراء المؤتمر عن الصحوة الإسلامية ويقولون دون ماكرى : « إن الصحوة الإسلامية بلغت شأواً لم تبلغه لعدة قرون مضت وهو الفعل الذى جعل النصرانية تقرر تصعيد المواجهة مع الإسلام من مستوى التنصير بين المسلمين إلى مستوى تنصير كل المسلمين ؛ ولما كان المسلمون يمثلون أكبر كتلة فى العالم بأسره لم تشملها الدعوة النصرانية حتى الآن وتشكل هذه الكتلة نسبة ٢٤ ٪ من ثلاثة بلايين نسمة فى العالم ، وهذا يمثل واحداً من بين كل ستة أشخاص فى العالم » .

وقد تحدث قادة مؤتمر كولورادو عن ما أسموه تحقيق حلم قديم : هو تنصير كل المسلمين واقتلاع الإسلام من جذوره وطى صفحاته من الوجود ، وذلك باستحداث أساليب جديدة للتنصير ، ذلك أن نجاحات التبشير التى تحققت إنما تمت فى بيئات كان أهلها على هامش الإسلام الحقيقى ، ولما يدخل الإسلام فى قلوبهم بعد ، حالات هامشية لنماذج منحلة أو ضحايا لمشكلات أوقعتهم فى حائل المنصرين .

وهم يعترفون بأنهم لم يكونوا حكماء حين اتجهوا إلى تقليل قيمة المنزلة الخلقية والدينية لمحمد ﷺ والقرآن .

والخطة المدبرة الآن والتى وصل إليها المؤتمر : هى تقديم النصرانية مقرونة بالثقافة الغربية ، الأمر الذى يعمل على وضع المضمون النصرانى فى أوعية الدين الإسلامى ، وذلك من خلال عدة أعمال :

١ - تفريغ القرآن من المحتوى الإسلامى لتضع المحتوى النصرانى فى قوالبه ومصطلحاته بواسطة التأويل .

٢ - إحباط مفهوم التوحيد الإسلامى وإقامة ألوهية يسوع المسيح .

٣ - استعمال أسلوب الاعتقادات الخرافية والولوج إلى المسلمين من باب الشعوذة والخرافة ( يلاحظ كثرة الكتب والدراسات عن الجن والأرواح ) .

٤ - يجب إلbas الإنجيل ثياب قرآنية باستغلال قواعد الإملاء القرآنية وشكل الحروف فى اللغات الإسلامية .

٥ - إقامة صلاة نصرانية بقيام وركوع وسجود إسلامى .

- ٦ - محاولة استخدام القرآن لخدمة هدفهم من خلال كتابات تحاول أن تصور القرآن مؤيداً للمسيحية المعاصرة التي تختلف عن مسيحية عيسى عليه السلام .
- ٧ - محاولة البحث عن المفاتيح والحلول التي يمكن أن يقدمها القرآن لزرع الثقة بالإنجيل<sup>(١)</sup> .
- ٨ - العمل من خلال الفرق المنحرفة في الهند وباكستان وبنى عيسى في نيجيريا ووضع المضامين النصرانية في الأوعية الإسلامية .
- ٩ - خداع المسلم بالتعاطف مع الإنجيل واستعمال الدراما والموسيقى والشعر وعمل ترانيم قريبة من طريقة الإسلام .
- ١٠ - كسر شوكة الإسلام بالعلمانية وإلحاق أمتة وعالمه بالمركز الغربي .
- ١١ - تخالف نصرانية الغرب مع اليهودية ضد المسلمين ( أنه في خلال العشر سنوات الأخيرة أصبح آلاف من اليهود يهوداً مسيحيين ) .
- وهم يتحدثون عن واقع المسيحية في الغرب فيقول أحدهم : لم يبق من المسيحية شيء في المجتمع الغربي اليوم إلا زيارة الكنيسة ساعة يوم الأحد ، وملت الكنائس ، واستطاع الرهبان الدعوة إلى حلقات الرقص الغربي ليجلبوا الناس للكنيسة ويتحدثون عن ارتباط التبشير المسيحي في إفريقيا بالاستعمار ، فهو مبعوض بينما ارتبط الإسلام بالتحجر فضلاً عن أن الكنيسة دعت إلى الربا وإلى الرق كما تحدثوا عن فساد المبشرين وسوء تصرفهم ويتسائل أحدهم : هل يستطيع الكتاب المقدس أن يخدع المسلمين ويحل محل القرآن ؟ هذا الكتاب المعقد الذي كتبه كثيرون ، وعندما ترجم حرص مترجموه على إبقاء عاميته ، أين هو من بلاغة القرآن ؟ وهم يدعون إلى تغيير لغة الإنجيل بحيث تستطيع أن تكسب من المسلمين قراء .
- ومن خلال هذه الموسوعة التي تجمع أبحاث مؤتمر كولورادو تبدو الظاهرة الواضحة القوية والتي هي قاسم مشترك على مختلف أبحاثه ودراساته وهي الصحو الإسلامية القائمة الآن في العالم الإسلامي والتي هزت مؤسسة التبشير هذا شديداً ، نجد ذلك واضحاً في توصياته التي ترمي إلى كسر شوكة الإسلام بالعلمانية لإحكام قبضة الغرب حيث تدعو

( ١ ) الإنجيل : أى الإنجيل المخرف .

كنائس الغرب ومنصروه العمل على اقتلاع الإسلام من الجذور وطى صفحته من الوجود .  
وأحدهم يقول دون مواربة : لقد بلغت الصحوة الإسلامية التي تعيش في أعماق  
ألف ومائتي مليون مسلم شأواً لم تبلغه لعدة قرون مضت من كازيلانكا ( الدار البيضاء )  
حتى مضيق خيبر ( أفغانستان ) .

يقول دون ماكرى : إن الصحوة الإسلامية هي التي جعلت الغرب يستدعى نصرانيته  
المنبوذة في بلاده والمعزولة عن عمراته ليوظفها في مواجهة مع هذه الصحوة التي تهدد بقطة  
عالم الإسلام وتحريره من أسر الغرب واستغلاله .

وهم ينسون الاختلاف الواسع بين المسيحية كدين لاهوتى وبين الإسلام كدين  
جامع ، والفوارق العميقة بين الفردية والجماعية ، وبين اللاهوت ومنهج الحياة ولكن أخطر  
ماتدعو إليه حركة التبشير الجديدة : الدعوة إلى ألوهية المسيح ، وليس إلى النصرانية نفسها ،  
وتقول إن التنصير يجب أن يتم من أجل الاعتراف بألوهية المسيح وليس بالإيمان  
بالمسيحية نفسها .

كما أنهم ينسون أن رفض المسلمين لحركة العلمنة وما يصاحبها من تغييرات أحدثتها  
النمط الاستهلاكي في مجتمعات الثروة النفطية ، هو رفض حاسم وينسون أنهم يواجهون  
سقوطاً شديداً للفلسفة المادية مع سقوط الماركسية والأيدولوجيات الغربية التي ثبت  
عجزها وفشلها .

وبصور المؤتمر صعوبة الهدف الذي ترمى إليه عمليات التبشير إلى :

١ - الإحساس بأن النصرانية جسم غريب ينبغي مقاومته .

٢ - المسلم الذي يتحول إلى النصرانية يشعر بالحرج والإهانة اللذين يفقدان الدعم  
والانتماء العائلي وبالنزاع الاجتماعي ، ويصبح عالة على المجتمع النصراني المدعوم  
من الخارج .

٣ - ارتباط النصرانية في ذهن المسلم بالتاريخ الدموي للغرب مع عالم الإسلام من  
الحروب الصليبية إلى إقامة إسرائيل .

ويرون أن هناك خلفية خطيرة تتمثل في الحروب الصليبية والاستعمار والحملة  
الصهيونية ، وكلها حلقات مترابطة ضد الإسلام وهي تحجب كل محاولة لكسب المسلمين

إلى صف النصرانية ويتحدثون عن احتواء اليهودية للمسيحيين في خدمة هدفهم ، ويرون أنه إذا كان بولس قد وضع مضامين النصرانية في وثنية إغريقية تامة فلن يستطيع المنصرون وضع مضامين الإسلام اليوم في أوعية نصرانية وفارق بين هذا وذاك ، فارق كبير . ويتحدثون عن صمود الإسلام أكثر من سبعين عاماً تحت قهر المادية والإلحاد الماركسي ، وكيف صمد الإسلام في الصين بالرغم مما صنعتته الشيوعية من إلغاء أوقاف المساجد والمعاهد ومنع التعليم الإسلامي بل والختان وفرض زواج المسلمات من غيرهم . وهو اليوم أشد صموداً أمام الأنشطة الاجتماعية والثقافية كما تمارسها الكنائس في المحيط الإسلامي لتنفيذ مخطط اختراق الإسلام في دائرة قوامها التبشير وأطرافها ، الاستشراق ، الماركسية ، والاستعمار ، والعلمانية ، والفلسفة المادية ، والماسونية ، والصهيونية ، وعلوم الغرب ، وفلسفاته .

\* \* \* \*

## تاسعاً : إحلال فكرة القومية الوافدة بديلا عن الوحدة الإسلامية الجامعة

حرص النفوذ الأجنبي على تمزيق وحدة الأمة الإسلامية بإعلاء شأن الإقليميات والعنصريات والقوميات وكانت دعوته أساساً إلى الإقليمية فلما تنبه المسلمون إلى المؤامرة ؛ بدأت الدعوة إلى القومية من خلال الدعوة إلى العروبة وقد جاءت الوحدة العربية بعد سقوط الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية كمحاولة للتجمع تحت لواء الأمة أو القوم وكانت الخطوات الأولى في هذا المنطلق لا تفصل العروبة عن الإسلام على النحو الذي دعا إليه شكيب أرسلان ورشيد رضا ومحج الدين الخطيب ، ولكن العناصر غير الإسلامية حرصت على أن تكون الدعوة إلى القومية مجردة من القيم الإسلامية والعربية على النحو الذي ظهرت به الدعوة القومية في البلقان حين انفصلت عن الدولة العثمانية وكان لطفى السيد قد حمل لواء المصرية المجردة ثم جاء ساطع الحصري في سنوات ما بعد الحرب الثانية بروج لنظرية حجب العروبة الأصلية المرتبطة بالإسلام فكراً وعقيدة وبالعالم الإسلامى تكاملاً وإنشاءً .

حيث كان دعاة حركة اليقظة في الأقطار العربية يرون أن الجامعة الإسلامية قائمة بين العرب والمسلمين ( فرساً وتركاً ) بعد زوال الدولة العثمانية ، ولكن سرعان ما سيطر مفهوم القومية الغربية الوافدة الذي طرحه ساطع الحصري وتوسع فيه ميشيل عفلق ( مؤسس حزب البعث ) .

ويرجع ذلك إلى أن ساطع الحصري كان ثمرة من أنضج ثمار المدرسة الاتحادية التركية وأكبر الدعاة الذين نقلوا مفهوم القومية الطورانية التركية إلى أفق العروبة التي كانت ترتبط بمفهوم الإسلام في العلاقة بين الشعوب التي جمعها التوحيد والقرآن ونبوة محمد ﷺ والفكر الإسلامى الأصيل .

وهكذا أصيب مفهوم ( الوحدة العربية ) بعطب كبير من حيث فصله عن الإسلام بوصفه منهج حياة ، ومن حيث الارتباط الجغرافى والتاريخى بين العرب والمسلمين . وقد جاءت بعد ذلك محاولة النظم العسكرية التي حكمت البلاد العربية لتحمل لواء



القومية العربية بمفهوم الغرب المجرد من قيم الإسلام ودون النظر إلى منهج البقطة الإسلامية الذى كان قد قرر ترابط الحلقات الثلاث ( الوطن - القومية - الإسلام ) كما دعا إليه الشهيد حسن البنا .

ومضى تيار ساطع الحصرى يسير جنباً إلى جنب مع تيار القومية الوافد الذى استقطبته الناصرية والبعث والدعوات القومية المختلفة فى مرحلة امتدت أكثر من سبعة عشر عاماً فى محاولة لتكريز هذا الاتجاه وفرضه غير أنه عجز تماماً عن تحقيق الغاية المقصودة .

وعلى الجملة فقد كانت الدعوة إلى القومية بمختلف عناصرها تستمد مفهوماً من الفكر الغربى وتهتدى بالنظرية القومية التى ظهرت فى البلقان والتى تختلف تماماً مع أرضية الفكر الإسلامى فى الأقطار العربية .

وكان أخطر ما يحول دون تقبل العرب للفكرة القومية مفهوم الدين الذى يقوم على مفهوم الغرب اللاهوتى حيث يقدم الدين بمفهوم غربى لا يكتفى يختلف عن مفهوم الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع .

ولقد كانت محاولة القومية بمفهومها الغربى تستهدف الإفصاح لمشروع خطير هو القومية الصهيونية التى كانت تحاول السيطرة على فلسطين وقد كان تركيز هذا التيار كله يرمى إلى صرف النظر عن حسن النوايا التى كانت عند بعض القادة، خدمة بدعوته ومفاهيمه، وفكره لمفاهيم الماسونية واستمراراً لمحاولة حجب التصور الإسلامى الأصيل للعروبة.

وقد أشار وليام كيفلاند فى كتابه ( ساطع الحصرى من الفكرة العثمانية إلى العروبة ) إلى ما لترتبه الحصرى ( غير الإسلامية ) من أثر فى توجيه القومى فيما بعد مؤيداً فى ذلك فلسفة الحصرى التى نسبت إلى التربية خطراً عظيماً فى تكوين الآراء والأهواء والاتجاهات ، فالحصرى تعلم فى المدرسة الملكية فى إستانبول ولم يستظهر القرآن مثلاً كان يفعل معظم تلاميذ السلطنة العثمانية فى عصره ، ويركز كيفلاند على هذا الفعل فى حياة الحصرى ويرى أنه هو السبب فى أن ظهر فى كتاباته بصورة المعادى للإسلام ، لا لسبب واضح ، إلا أنه النمط القومى الأوروبى معاد للكتلة<sup>(١)</sup> لسبب تاريخى أوروبى خاص ، فالدين فى أوروبا أحقق فعلاً فى منع اتحاد أولئك الذين قدر لهم الارتباط بأسباب تتعدى الدين كما يقول

( ١ ) الكتلة : التمهيد بالكاتوليكية ( مذهب نصرانى ) .

كيففلاند ، لكن الإسلام استطاع أن يوحد شعوباً لم تكن العوامل الأخرى قادرة على توحيدها وقد أشار كيففلاند إلى تأثير الحصرى بموقفه المتناقض الحاد بين القومية والكثلكة فى أوربا وهو ما ليس له مثيل فى المجتمعات الإسلامية ، بل إن كيففلاند يرى أن موقف الإسلام من القوميات يختلف عن موقف المسيحية فى الغرب ويرى أن الإسلام كان قادراً على التوحيد الحضارى الذى يقوى على الزمن حيث ينزع الباحثون إلى اتخاذ عروبة القرآن نموذجاً على عوامل التوحيد الحضارى ، وإن كان الإسلام أحدث نتاجات حضارية أخرى فأنشأ تراثاً غنياً ، استطاع أن يوجد مجتمعات لم تكن جميعها مسلمة بالضرورة ، فالفتوحات الإسلامية دفعت المسلمين إلى دراسة الجغرافيا ، والعلوم العسكرية ، وتدوين الوقائع ، والتاريخ ، وتنظيم الإدارة ، وتطوير النظم الضريبية ، والرياضيات ، والموسيقى ، والعمارة وهذه جميعاً شكلت حضارة إسلامية ذات سمة خاصة وهى سمة الإنسان المنتمى إليها أياً كان مذهبه أو دينه ، أ هـ .

ولقد تبلور مفهوم الفكر القومى العربى على النحو الذى تشكل به تجميعاً وربطاً بين الفكر القومى الغربى والماركسية والعلمانية جميعاً ، فانتهى به إلى أن يكون معارضاً للتصور الإسلامى الصحيح .

أولاً : التصور الغربى للدين بمفهوم اللاهوت بعيداً عن مفهوم التصور الإسلامى للدين بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع وكان هذا حاجزاً خطيراً دون وصوله إلى القلوب والعقول ، وبقي قائماً فى دائرة النظريات العلمانية والمادية .

ثانياً : دعوى الفكر القومى بسبق العروبة للإسلام والاستعلاء بها بمفهوم قريب من المفهوم القديم : مفهوم العنصرية والدم ذلك المفهوم الذى عارضه الإسلام واستبدله بمفهوم الوحدة الإسلامية .

ثالثاً : الاعتماد على المصادر الغربية فى مفاهيم الاجتماع والتربية والأخلاق والسياسة على النحو الذى نقلته جماعة الاتحاد والترقى من الثورة الفرنسية ( حرية - إنحاء - مساواة ) فقامت نظرية ( اشتراكية - حرية - وحدة ) مما أسلمها إلى تصور غريب عن الفكر الإسلامى قريب إلى الفكر الغربى والمسيحى ، وكان له أثره على بيان القرآن والسنة الذى يختلف تماماً عن التصور الذى قامت عليه مفاهيم الكتب القديمة .

رابعاً : قدم ميشيل عفلق عدداً من الكتابات عن النبي ﷺ وعن الإسلام على نحو يجعل للفكر البعثي قبولاً لدى المسلمين غير أن التصورات وحدها لم تكن تكفى لإزاء الواقع الفعلي الذى جعل بابا روما يستقبل ميشيل عفلق وينعم عليه : ويقول إنك أدبت للكنيسة ما لم يؤده الآباء الأوائل .

**خامساً :** كان التصور السياسى الماركسى الشيوعى مسيطراً سيطرة تامة على المفاهيم بالإضافة إلى الأرضية المسيحية لميشيل عفلق ومصاهرته لابنة سيدة من قادة الكيان اليهودى الصهيونى .

ولقد تأثرت كل محاولات القومية العربية فى هذه المرحلة بهذا التصور مع تغيير مواضع الكلمات الثلاث ( حرية - وحدة - اشتراكية ) مما يؤكد على أن الدعوة القومية لم تكن لحساب المسلمين أو العرب بل كانت حاجزا جديداً من حواجز النفوذ الاستعمارى التى اصطنعها للحيلولة بين العرب والمسلمين دون إقامة مجتمعهم الرئاسى .

ولقد كانت التجربة القومية بالغة الخطر والأهمية وقد حشدت لها قوى كثيرة فى أقطار عربية كثيرة ولكنها مع ذلك لم تحقق أهدافها ، لأنها كانت متعارضة مع طبيعة الأمة الإسلامية التى شكلها الإسلام منذ خمسة عشر قرناً بعيداً عن مفهوم الدم والعرق والعنصر ، إلى جامعة تقوم على التوحيد الخالص .

ولقد حفظ التاريخ السياسى للوطن العربى نتائج الصراع الخطير بين الفكر القومى والرابطة الإسلامية وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية ، وبين العراق وإيران نتيجة للغلو فى علاقات المفهوم القومى المرتبط بالماركسية من ناحية وبالذكتاتورية من ناحية أخرى .

ولقد كان لهذه المفاهيم أثرها العميق فيما بعد فى الخلاف بين المسلمين عرباً وفرنساً مما استبعد الوحدة العقائدية وأعلى من شأن الصراع القومى .

\* \* \* \*

## عاشراً : إخراج المرأة المسلمة عن رسالتها الأصيلة

كان من أخطر محاولات النفوذ الأجنبي التي ما تزال قائمة إلى اليوم محاولة إخراج المرأة المسلمة عن مسئوليتها بدعوتها إلى ما أطلق عليه ( تحرير المرأة ) وهى الدعوة التي حملها معه الاستعمار تحت اسم التحضر والمدنية ، وكان مرقص فهمى الخامى أول من كتب عن ( المرأة فى الشرق ) ودعا إلى أربعة أهداف :

- ١ - القضاء على الحجاب الإسلامى .
- ٢ - إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها .
- ٣ - تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضى .
- ٤ - منع الزواج بأكثر من واحدة .
- ٥ - إباحة الزواج بين المسلمات وغير المسلمين .

وكان هذا المخطط هو النواة الأساسية للنفوذ الأجنبي الذى تدرس على ضوئه حركة قاسم أمين وما تلاها من حملات تستهدف إخراج المرأة المسلمة عن منهج الله تبارك وتعالى .

وقد تراجع قاسم أمين فى سنواته الأخيرة عن دعوته حين كتب يقول : « لقد كنت أدعو المصريين قبل الآن إلى اقتفاء أثر الترك بل الإفريخ فى تحرير نسايتهم وغاليت فى هذا المعنى حتى دعوتهم إلى تمزيق ذلك الحجاب وإلى إشراك النساء فى كل أعمالهم ومآدبهم وولائمهم ، ولكنى أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس ، فقد تتبعته خطوات النساء فى كثير من أحياء العاصمة والإسكندرية لأعرف درجة احترام الناس لهن وماذا يكون شأنهم معهن إذا خرجن حاسرات فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف ما حمدت الله على ماخذل من دعوتى واستنفر الناس إلى معارضتى ، رأيتهم ما مرت بهم امرأة أو فتاة إلا تطاولوا إليها باللسنة البذاء ثم ما وجدت زحاما فى طريق مرت به امرأة إلا تناولتها الأيدى والألسن جميعاً ، إنى أرى الوقت ليس مناسباً للدعوة إلى تحرير المرأة بالمعنى الذى قصدته من قبل » .

ومعنى كلام قاسم أمين الذى نشره قبل وفاته بعام ونصف عام : أن قاسم قد اكتشف بعد سبع سنوات من دعوته ( التى جاءت استدراجاً ومرضاة لنفوذ نازلى هانم فاضل ولم

تكن خالصة لوجه الله تعالى ) ، أنها لم تكن قائمة على أسسها الصحيحة وهى الدعوة إلى تربية الخلق والإيمان بالله وأنها لم تكن على طريق الحق .

أو ربما رأى قاسم بعد أن تغيرت الظروف بزوال كرومر ووفاء محمد عبده وانطفاء نفوذ نازلى فاضل ( ربيبة كرومر ) أن يتخفف من هذه التبعة .

ومما يذكر أن زوجة قاسم أمين كتبت منذ سنوات تعلن أن دعوة قاسم أمين كانت خطيرة وأنها لم تكن قائمة على أساس صحيح ، وقد عارضها رجلان هامين هما : فريد وجدى ، وطلعت حرب ، بكتابين معروفين وقال فريد وجدى :

إن دعوة قاسم أمين قد أحدثت تدهوراً مروعاً فى الآداب العامة وأحدثت انتشاراً مفرغاً لمبدأ العزوبة وأصبحت ساحات المحاكم غاصّة بقضايا هتك الأعراض وهرب الشباب من دور أهلهم وقالت الدكتورة بنت الشاطىء :

إن المرأة دفعت ضريبة فادحة ثمناً للتطور ، ويكفى أن أشير فى إيجاز إلى الخطأ الذى شوه نهضتنا وأعنى به انحراف المرأة الجديدة عن طريقها الطبيعى عن التفرغ لما تسميه : « خدمة البيوت وتربية الأولاد » ونحن نرى البيوت أصبحت مقفرة منهن ، أما الأبناء فتركوا للخدم وقد نشأ هذا الانحراف الضال نتيجة أن نادى مناديات بحذف نون النسوة فى اللغة كأنما الأنوثة نقص ومذلة وعار ، وأهدر الاعتراف بالأمومة كعمل من الأعمال الأصلية لنا حتى سمعنا من يسأل : كيف تعيش أمة برثة معطلة ؟ يقصد بالرثة المعطلة هؤلاء الباقيات فى بيوتهن يرعين الأولاد ، وزعموا أن المرأة تستطيع أن تجمع بين عملها فى البيت ووظيفتها فى الخارج .

تقول السيدة صافى ناز كاظم : « فى مولد هذا الشعار البراق ( تحرير المرأة ) انفسح المجال أمام الرواد العظام من تجار الثقافة القادمين من أوروبا ومن أمريكا أخيراً ليصولوا ويجولوا محلّين بأشكال وأنواع بضاعة الثقافة الغربية بموروثاتها الجاهلية اليونانية الإغريقية ومعها نماذج المرأة الأوروبية والأمريكية التى كانت قد نالت حريتها حديثاً متشككة من رصيد فكرى واجتماعى ودينى خاص بها ، كانوا يعرفون الكلمة التى تقال فتبهر وتجتذب ، والبضاعة التى تدس لتسكت وتندesh ، الآن ( من صهيانية وصلبيين وماسون ) دعوتهم إلى هجر التأصيل من الذات لحساب التبعية الفكرية لغرب يمقتنا ديناً وجنساً وتاريخاً ، ويمارس علينا تفوقاً وغطرسة واحتقاراً ، وهو يقذف الأنشطة وراء الأنشطة لتلتف حول أعناقنا جاذبة جباهنا عند أقدامه .

جباهنا نحن المسلمين : أصحاب العزة من الله : ﴿ والله العزة لرسوله وللمؤمنين ﴾ [ سورة المنافقون : الآية ٨ ] كان مطلبهم أن ننظر بإكبار لإنجازات أوروبا بسبب ما وصلت إليه من قوة البخار والكهرباء ونضعها أمامنا قدوة ومثلاً أعلى نسعى للوصول إليه وتشكل بتشكله ، ومن ثم يصير كل شيء ينتسب إلينا أو ننتسب إليه يتعلق بنا أو تتعلق به من أصولنا يصير سلفياً جامداً مرفوضاً » .

لقد مضت حركة تحرير المرأة بمراحل مختلفة ولكنها منذ أن كشفت حركة اليقظة عن خلفياتها وتبين هدف المؤامرة التي أريد للمرأة المسلمة أن تسقط فيها ، بدأت حركة تصحيح المفاهيم ، وأعطت الفكرة الإسلامية تصوراً صحيحاً دفع المرأة إلى الإسلام مرة أخرى ، وإلى فهم مهمتها الحقيقية ، وعرفت أن البيت هو عرشها الحقيقي وأن مسئولية إنشاء الأجيال الجديدة هي مهمتها الحقيقية .

ولقد جاءت حركة اليقظة بالمنطلق الصحيح ، ومن ثم دخلت المرأة عصر الأصالة الحقيقية وقبلت العودة إلى الحجاب وخاصمت في سبيل الدفاع عن عقيدتها . ولقد عرفت المرأة المسلمة حقيقة الدعوة إلى تحرير المرأة ، وكيف أنها كانت مؤامرة خطيرة ، وكيف أن حقوق المرأة في الإسلام تعلو على كل ما تحاول هذه القوى أن تدعو إليه .

فقد أوجب لها الإسلام حقوقاً تتمتع بها سواء من ناحية حقها في تزويج نفسها أو في ما تملك من بيع وشراء وهو ما زالت المرأة الغربية لم تصل إليه بعد ، بينما نالت المرأة المسلمة هذه الحقوق كاملة غير منقوصة .

وقد تأكد للمرأة المسلمة أنها لن تجد ذلك في غير الإسلام مهما ذهب شرقاً وغرباً ، فقد حمل الإسلام لها لواء الحماية والرعاية .

ولكى تعرف المرأة المسلمة حقيقة موقف دعاة التحرير الزائف فإن عليها :

أولاً : أن تعد نفسها لتكون مؤمنة بربها محبة لنبينا ﷺ متعلقة بقرآنها ، ساعية لفهم دينها ومنهج العبادة وفقه الطهارة في وسطية إسلامية مطلوبة في كل الأمور بعيداً عن المغالاة .

ثانياً : أن تعد نفسها لفهم مهمتها في الحياة ودورها الذي أعدها له الله تبارك وتعالى لأدائه في بناء البيت المسلم والطفل المسلم .

ثالثاً : أن تعدّ نفسها لفهم ما حولها وفهم مسؤوليتها إزاء دينها وإزاء أمتها وإزاء وطنها .

رابعاً : أن تعرف الحقيقة الإسلامية الأساسية بأن هذه الصورة التي قدمت لها عن تحرير المرأة هي خدعة كبيرة ، وأنها محاولة لإخراج الفتاة المسلمة والمرأة عن مسؤوليتها الربانية التي أعدها لها الله تبارك وتعالى .

خامساً : إن قوامة الرجال للنساء ليست سلطة تحكمية ولكنها رعاية وحماية وتفهم ، فالحقوق والواجبات من المنظور الإسلامى للأسرة أساسها المودة والرحمة وحسن المعاشرة .

وتحاول بعض الجهات الخارجية فى العقود الأخيرة أن تدفع المرأة لمحاولة تقديم تصور مختلف عن المرأة : سواء من الناحية العقلية أو الروحية أو الجبرية ، ولعل خير إجابة لهذا التصور ما قدمه مؤلف ( الإنسان ذلك المجهول ) الكاتب الغربى ألكس كاريل ، حين يتحدث عن الفوارق القائمة بين الرجل والمرأة حيث يقول إن هذه الفوارق القائمة بين الرجل والمرأة لا ترجع إلى اختلاف شكل الأعضاء التناسلية عند كل منهما كشكل الرحم ونوع الحمل ونمط التربية فحسب ، وإنما ترجع إلى سبب أعمق كثيراً وهو عمر الكيان العضوى كله بمواد كيميائية أنتجتها الغدد التناسلية ، وأن الجهل بهذه الحقائق الأساسية هو الذى قاد زعماء الحركة النسوية الأولين إلى الفكرة القائلة بإمكان التسوية بين الجنسين فى التربية والتعليم والعمل والأعباء .

وقال : الواقع أن المرأة تختلف عن الرجل جدّ الاختلاف ، فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها وهذا أيضاً شأن الأجهزة العضوية وعلى الأخص جهازها العصبى .

وأن القوانين الفسيولوجية صارمة صرامة قوانين عالم النجوم ، ومن المحال الاستعاضة عنها بالرغائب البشرية ونحن مضطرون أن نقبلها كما هى ، حيث ينبغى للمرأة إنماء كفاياتها فى اتجاه طبيعتها الخاصة دون أن تحاول تقييد الرجل ، وأن دورها فى ازدهار الحضارة أسمى من دور الرجل ، وعليها ألا تتخلى عن ذلك الدور ، وليست أهمية الجنسين فى انتشار النوع الإنسانى متساوية ، فخلايا الخصية لا تتوقف طوال الحياة عن تكوين حيوانات صغيرة جدّاً ذات حركة بالغة النشاط ، وتلك هى الحيوانات المنوية وتسرى هذه الحيوانات المنوية فى الإفراز المخاطى الذى يبطن المهبل والرحم ويحتوى مبيض المرأة

الشابة على ٣٠٠ ألف بويضة تقريباً ، ولا يبلغ منها حالة النضج غير ٤٠٠ فقط ، وفي زمن الحيض تقذف البويضة بعد انفجار الكيس الذى يحتويها إلى الغشاء المغطى بالأهداب الاهتزازية التى تحمل البويضة إلى الرحم ، فى هذا الوقت يكون قد طرأ على نواتها تغير هام ، إذ تكون قد تخلصت من نصف مادتها ، أى نصف كل كروموزوم ، وحينئذ ينفذ حيوان منوى واحد إلى داخل البويضة ، وبالجمللة فإن الأم تلعب دوراً أهم من دور الأب فى تكوين الجنين ، أما دور الرجل فهو قصير الأجل فى حين يدوم دور الأم تسعة أشهر ، ويأخذ الابن من أمه العناصر الكيميائية التى تبنى بها أنسجته وتخصم المرأة طوال مدة الحمل لتأثير هذا الكائن الأجنبى .

ونحن نفضل بوجه عام أهمية وظيفة الإنجاب للمرأة فلا غنى عن هذه الوظيفة لاكتتمال نموها ، ومن الحمق إذن صرفها عن الأمومة ، ينبغى ألا تنشأ الفتيات نفس التنشئة الفكرية التى ينشأ عليها الفتيان ولا أن يكون لها نفس نمط الحياة ولا نفس الهدف ، على المربين أن يراعوا الفوارق العضوية والعقلية فى الذكر والأنثى ، والدور الطبيعى الخاص لكل منهما ، فبين الجنسين اختلافات لا سبيل إلى إنكارها وينبغى أن يكون لها وزنها واعتبارها فى بناء العالم المتحضر .

وهكذا يكشف لنا الدكتور كاريل حقائق يعرفها المسلمون منذ أربعة عشر قرناً وهو الاختلاف العميق فى التركيب والوظيفة بين الرجل والمرأة مما يستتبع تربية خاصة لكل منهما تختلف تماماً بحيث تؤدي إلى الرسالة الخاصة .

ومعنى هذا الذى يقوله البعض اليوم من مساواة كاملة ومن إلغاء الفوارق ومن استطاعة المرأة تولى عمل الرجل : كل هذا يجب أن يوضع موضع المراجعة ويجب رده إلى أصوله الحقيقية .

وهذا هو ما يعتقد أن قضية المرأة تتطور إليه اليوم بفضل تفهم مسئوليتها التى جاء بها الإسلام وحمايته لها من الأهواء التى يراد أن تعبت بها أو تضعها فى مجال الشهوات والفساد .

\* \* \* \*



## الباب الثاني

### تحرير الثقافة الإسلامية من زخائل الفكر الوثني والمادى والإباحي

كان هدف الدعوة الإسلامية في مراحلها الثلاث : تحرير الثقافة الإسلامية من دخائل الفكر الوثني والمادى والإباحي ، وهو ما عملت على تحقيقه وكشفت به محاذير الغزو الفكرى ، والتغريب ومواجهة الحملة الأخيرة التى جرت تحت اسم : العلمانية والتنوير والجدافة .

أما « المرحلة الأولى » فقد تكشفت عن الرواد الحقيقيين الذين قاوموا المحاولات التى جرت فى مواجهة اللغة العربية ، والدعوة إلى العامة من ناحية وإحياء تراث اليونان وكتابات الباطنية والشعوبيين حيث جرى إحياء تراث التصوف الفلسفى . وحدة الوجود والغنوصية<sup>(١)</sup> .

وكتب بعض المغربين فى هذه الفترة : القصة المكشوفة ، وأدب الفراش ، وأدب الجنس ( إحسان عبد القدوس ، وأمين يوسف غراب ، ويوسف السباعى ) ودعا سلامة موسى إلى التغريب الكامل رجاء المرحلة التالية تحمل سموم الفكر الماركسى ومذهب الواقعية ، وجاء الشعر الحر ( أدونيس ، والبياتى ، وصلاح عبد الصبور ) وأمل دنقل وحجازى وجاء القس يوسف الخال قائداً لهذا التيار وناصره فى مصر لويس عوض وأحيا الماركسيون فكر القرامطة والزنج والبابكية .

وجاء زكى نجيب محمود بعد طه حسين بدعوته إلى الربط بين التراث الإسلامى والفكر الغربى .

وجرت محاولة إحياء ابن سينا ، والفارابى وابن رشد ، وعلى رأس هؤلاء جرت الدعوة إلى اتخاذ « أرسطو » معلماً للمسلمين وسقطت كل هذه الدعوات الباطلة وبقيت ريادة الإمام الغزالى ، وابن حنبل ، وابن تيمية فى مواجهة الفلسفة اليونانية والفكر المادى .

---

( ١ ) الغنوصية : الغنوص كلمة يونانية تعنى المعرفة الحدسية المباشرة التى لا تعتمد على وسائل العقل المستدل أو النقل .

وجاءت أطروحات الهجوم على الإسلام متمثلة في كتاب خلف الله بإشراف أمين الخولي عن القصص الفني في القرآن .

وقد استطاعت حركة اليقظة الإسلامية مواجهة هذه الحملة الضخمة وكتب فيها :  
محب الدين الخطيب ، وشكيب أرسلان ، والخضر حسين ، وحسن البنا ، وضياء الريس  
ومصطفى صادق الرافعي ، ورشيد رضا ، ومحمد أحمد الغمراوي ، وفريد وجدي ،  
ولطفي جمعة .

وكانت المواجهة في الأساس بقيادة : علي عبد الرازق بكتابه ( الإسلام وأصول  
الحكم ) وطه حسين بكتابه ( الشعر الجاهلي ) أولاً ثم ( مستقبل الثقافة ) فقد كانت  
هذه الكتب من قواعد الأساس للتغريب والعلمانية - اقرأ المارك الأدبية لأنور البندى - .

وهؤلاء هم الرواد الأصلاء الذين تتجاهلهم الأجيال الجديدة اليوم ، بينما يحاول  
البعض أن يقدم أسماء أحمد أمين أو غيره ممن كانوا في مكانة العميد أو أستاذ الجيل .  
وتلك هي المحاولة الخطيرة التي جرى اليساريون في حمل لوائها بالدعوة إلى رفاعة  
الطهطاوي ، ولطفي السيد ، وطه حسين ، وكل هؤلاء جرى نقد وجهتهم وكشفوا عن  
تبعيتهم مهما حاول بعض الإخوة اليوم الدفاع عنهم .

وكان أخطر الدعاوات الدعوة إلى إحياء الفكر اليوناني ومن ورائه كل سموم الغنوصية  
والفكر المادى وإحياء الفكر الوثني وإحياء مفاهيم القرامطة والزنج والبابكية .

وإحياء التراث الإباضي بالشعراء الضالين : أبو نواس والضحاك وكان أخطر ما وصلت  
إليه هذه المرحلة : إحياء الأساطير حول سيرة رسول الله ﷺ في محاولة لخلق ( ميثولوجيا )  
إسلامية بعد أن صحح علماء الإسلام هذا التاريخ وكشفوا عن الخرافات التي عرفتها الأديان  
الأخرى وهو ما حرص طه حسين على إشاعته مع إحياء الفكر الباطني والتصوف الفلسفي  
بإدعائه أن طلب العدل هو ما أطلق على القرامطة ، وكان أخطر ما تركزت عليه المحاولات :  
مواجهة القرآن الكريم بإشاعة الشبهات حول مفاهيمه ومقولاته المقدسة ، وكان أخطر هذه  
الأعمال « القصص الفني » في القرآن للدكتور خلف الله والذي توالى من بعد ، حتى  
وصل في المرحلة الأخيرة إلى نصر حامد أبو زيد في دعواه المضللة عن ( مفهوم النص )  
إلى دراسة النص القرآني على طريق الماركسيين .

إن خطة احتواء الإسلام ومحاولة تزييف الفكر الإسلامي وإخراجه من مفهومه الأصيل

الجامع ( بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع ) قد تواصلت مؤامراتها على مدى هذا التاريخ الطويل ولم تتوقف منذ ترجمت الفلسفة اليونانية وتجددت في العصر الحديث بإحياء المذاهب الهدامة والفلسفات المادية وطرحها في أفق الفكر الإسلامي من أجل إخراجها عن جوهره وذاتيته وطابعه المميز بوصفه الدين الخاتم للبشرية وكلمة الله تبارك وتعالى الباقية للإنسانية إلى يوم الدين .

ولقد عمد قادة الفكر الغربي ( من باحثين ومستشرقين ومبشرين ) سواء كانوا أولياء للكنيسة أو وزارات الاستعمار ( ما عدا القلة القليلة ) إلى دعم هذا المخطط الخطير والانتقال به من مرحلة إلى مرحلة ، وكلما استطاع المسلمون كشف الزيف ودحض<sup>(١)</sup> الشبهات تحولت القضايا إلى صور جديدة لمحاولة خداع أجيال جديدة وذلك حتى يتركوا المسلمين دائماً في موقف الدفاع عن النفس ، ولكن المسلمين تجاوزوا هذه المرحلة في مطلع القرن الخامس عشر الهجري وأخذوا في إعداد البدائل الإسلامية وعملوا في مجال التأصيل الإسلامي وأسلمة المناهج والعلوم والمصطلحات وخطوا في ذلك خطوات واسعة .

لذلك كان علينا أن نرصد هذه القضية ونحررها تماماً

\*\*\* \*\*

لقد واجهت أقطار الوطن الإسلامي بعد الحرب العالمية الثانية تياراً جديداً يتمثل في النظم العسكرية التي قدمت بعض رجال الجيش إلى سدة الحكم في سوريا ومصر والسودان وليبيا واليمن والعراق وإندونيسيا .

وكانت أرضية الحكم ممثلة في النظام الفردي العسكري الذي يعتمد منهجاً يربط بين القومية والاشتراكية ويقوم على أساس العلمانية في السياسة والمجتمع .

وينظر هذا الفكر الوافد المختلط إلى الإسلام بوصفه ديناً لاهوتياً ، وينكر عليه مفهوم الحكم والتطبيق في مجال الاقتصاد والسياسة والتربية ، وقد أعلى هذا النظام من شأن الفكر القومي على المفهوم الغربي المفرغ من الأصالة الإسلامية والقائم على أساس الترابط بين مفهوم الاشتراكية ، والماركسية ، والعلمانية فقد كان المذهب في أساسه من صناعة الغرب

---

( ١ ) دحض : دفع .

وقامت به جماعات ليست مسلمة أساساً ولكنها تجمع بين المسيحية واليهودية ومفاهيم المذاهب الباطنية القديمة . وكأنما كان هذا الكادر السياسي مفروضاً على الوطن الإسلامي للحيلولة بينها وبين الإسلام القادر على حل مشاكلها الاجتماعية ، وتحريرها من السيطرة الغربية واليهودية في فلسطين ، وعاملاً على تثبيت وجودها حيث أخذ الغرب يتحدث عن أسلوب للمواجهة يختلف عن أسلوب لاسلام ، ويجعل قضية فلسطين قضية عربية قومية خالصة لا صلة لها بالأمة الإسلامية ولا بالإسلام نفسه في محاولة خطيرة لحث مفهوم الجهاد الاسلامي القادر على تمكين المسلمين من تحرير أرضهم .

ومن هنا اختفى الصوت الإسلامي القائم على تحرير فلسطين ع أن حرب النكسة سنة ١٩٦٧ غيرت هذا المفهوم تغييراً كبيراً حيث سقطت القدس نفسها في هذا العام بأيدي الصهيونية كما سيطرت الصهيونية على الجولان وصحراء سيناء

لقد كانت تجربة الصهيونية مع عالم الإسلام عملاً خطيراً لما يستوعب المسلمون بعد الطريق إلى مواجهته ، ثم جاءت تجربة الماركسية لتمثل حدثاً خطيراً أخذ أول الأمر صورة الخداع بإعطاء صورة ( العدل الاجتماعي ) ومحاولة الحصول على بعض النصوص التي تجعله مقبولاً بالنسبة للرأي العام ، وكانت هناك خدعة بالنسبة لعلماء الدين عندما كشفت الماركسية عن ماديتها ومعارضتها التامة للدين وحربها العميقة للالهوية والمنهج الرباني والدين المنزل ، من هنا بدأت تسقط اجتماعياً وداخلياً ، ولم يبق منها إلا ظروف السلطات في فرضها وتجربتها ولكن سرعان ما انهارت بعد أن تبين فشلها وفسادها على نفس الأسلوب الذي سقطت به الليبرالية<sup>(١)</sup> والقومية ، فقد استطاع الوجدان الإسلامي أن يستعيد قدرته على الأصالة وأن يؤكد أن هذه الأطروحات كلها عاجزة عن العطاء .

ومن هنا فقد سقطت الماركسية في بلاد الإسلام قبل أن تسقط الشيوعية في بلادها .

لقد عملت الشيوعية خلال سبعين عاماً على أن تفرض على المجتمعات البشرية هذا النظام الزائف وبالرغم مما حشدت لذلك وكتبت وتحدث محدثوها وأتباعها ، ذلك أنها

( ١ ) الليبرالية : نسبة إلى العمال ، وهي الطبقة الكادحة .

( ٢ ) الماركسية : نسبة إلى كارل ماركس ، مؤسس الشيوعية .

كانت تتطلع إلى منهج عالمي أشبه بالدين فقد أعلنت أنها دين جديد بديل للمسيحية والإسلام ولكن هذا الغرور سرعان ما حطمها .

ولقد كان سقوط الشيوعية مدوياً وإن كانت خدعة الفكر الغربي ما زالت تحاول أن تؤكد وجودها وحدها في العالم وتدعى أن نفوذها هو المسيطر ولكن الحقيقة غير ذلك تماماً .

فإن انهيار الشيوعية لا يعنى انتصار الرأسمالية ولكنه يعنى أن سقوط الجزء يؤكد أن الكل معرض لخطر عظيم ، ولقد تحدث المؤرخون والباحثون طويلاً عن أزمات الرأسمالية والتحديات التي تواجهها ولطالما طالبت أمم الغرب بنظام جديد بديل وأن المستقبل للإسلام بوصفه الدين الحق والتجربة الباقية والمتعلقة بها آمال قادة الفكر العالمي كله .

وإن سقوط النظام الشيوعي في الحقيقة هو جزء من أزمة الحضارة الغربية ككل ، ولا يعنى انتصار الكتلة الرأسمالية وبالتالي أصبح البحث عن رؤية إسلامية حضارية وعالمية أمراً واجباً خاصة وأن المتغيرات الجديدة أخذت تطرح بدائل وعناصر يستطيع الإسلام «السلام» أن يعملوا فيها لخدمة البشرية ، فعلى المستوى الثقافى من الذى يدافع عن حقوق الفقراء ، وهنا تبرز العدالة الاجتماعية في الإسلام ، وعلى المستوى الاقتصادي ، لم يعد الإشباع المادى وحده هو الكفيل بتحقيق سعادة البشرية وإنما أصبحت هناك حاجة للإشباع الروحى والأخطار التي تبحث عن إطلاق الحرية الفردية بلا قيود مثل تزايد معدلات الإجهاض ، والإصابة بالإيدز أعادت مرة أخرى الاهتمام بالضوابط الدينية والأخلاقية في الغرب .

إن سقوط النظام الشيوعي هو جزء من أزمة النظام الغربى وليس سقوط النظام الشيوعي في الكتلة الشرقية يعد انتصاراً للكتلة الأخرى .

إن هناك أزمة بالطبع ملازمة لهذا النظام وللحضارة التي أنجزته ، ولقد كان النظام السوفيتى إفراراً للحضارة الأوربية وليس الحل الأمثل مع سقوط الاتحاد السوفيتى أن يكون البديل هو النظام المماثل له ، فلو استطاع المسلمون أن يقدموا بديلاً يصلح لأنفسهم أولاً وللعالم فإن العالم فى حاجة إلى بديل ينقذه من أزمته ( فؤاد أبو حطب ) ، هذا ولقد كان سقوط الاتحاد السوفيتى باعتباره أبرز المتغيرات لم يكن مفاجأة ، لأن النظرية اختطت لها طريقاً لم تسر فيه بالشكل الذى تصورته ، وسقطت دون نفع للإنسان عموماً ولن تستطيع

الشيوعية أن تقوم بما يقوم به الإسلام الذى بعث لحماية الفقراء والطبقات الدنيا ولن تستطيع الشيوعية أن تنهض بهذه الرسالة التى يتشاغل العالم كله عنها الآن .

\*\*\*

لقد ظن النفوذ الأجنبى يوم بدأ عملية الغزو الغربى أنه سيستطيع أن يحاصر الثقافة الإسلامية ويحتويها فى دائرة فكره الغربى المسيحى اليونانى الوثنى والإباحى ، ولكن التجربة بعد سنوات طويلة أكدت له عجزه وقصوره إزاء دين واسع الأثر من الجوانب طابعه الإنسانى والعالمى يجعل أى أيديولوجية مطروحة فى أفقه لا تستطيع أن تحقق أى نجاح ، وهكذا أحست الليبرالية الغربية بالفشل إزاء منهج الإسلام الجامع ، فلما جاءت الماركسية ظنت أنها تستطيع أن تحقق شيئاً فى هذا الصدد ولكنها عجزت أيضاً وأكدت التجريبتان أن المناهج الوضعية والأيدولوجيات البشرية بطبيعتها عاجزة عن العطاء الحقيقى وأنها سرعان ما ينتابها الصدع والتمزق مع مرور الزمن وتوالى الأيام ، إزاء منهج الإسلام الجامع . فلما انهزمت الشيوعية فى السنوات الأخيرة ظن البعض أن الفكر الغربى قد يستطيع أن يملأ الفراغ أو يحقق هدفاً بالنسبة لرصانة الإسلام وتكامله .

وسوف تثبت الأيام مع توالى الأحداث أن البشرية فى حاجة إلى منهج الله تبارك وتعالى لإنقاذها من الاضطراب والصدع الذى تواجهه خلال أكثر من خمسة قرون استعلى فيها الفكر المادى والوثنى حيث ذهب علماء الغرب يبحثون عن مخرج ويتطلعون إلى منقذ ، ووصل بعضهم إلى الحقيقة وهى أن الإسلام وحده هو القادر على هذا العطاء ، ولقد قدم الإسلام الأدلة الحاسمة على صدق هذا المنطلق .

ولما جاءت الصحوة تأكدت هذه الحقيقة وأصبح يوجد الآن إحساس عميق لدى عدد كبير من المثقفين بأهمية المنهج الإسلامى فى التعامل الاجتماعى والاقتصادى كأفضل طريق إلى النهضة .

وأصبح المنضمون للصحوة أعلى صوتاً وأكثر نشاطاً من أى وقت مضى فى القرنين الأخيرين ، وتأكد أن على العناصر المؤمنة أن تثبت أقدامها وأن لا تستعجل التغيير ولا تلجأ فى سبيل تحقيقه إلى المواجهة العنيفة وأن تؤمن بسنن الله تبارك وتعالى فى التغيير وأن تعتمد على الإيجابيات والصبر والمرونة .

ولا ريب أن هزيمة ١٩٦٧ قد أقنعت الشباب المسلم بأن الطريق الجديد يتمثل في العودة إلى منابع والتماس منهج الله تبارك وتعالى بعد أن سقطت المناهج الوافدة وانهارت وعجزت عن العطاء ، فقد جربت الليبرالية الغربية والاشتراكية وغيرها وتبين لنا أنها لم تستطع أن تحقق أشواق النفس المسلمة .

وقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الداعين إلى البديل الإسلامى هم قوة اجتماعية أصيلة من رحم هذه الأمة كما وصفها الباحثون المنصفون .

وقد تأكد أن مؤسسة الدولة الحديثة - كما يقول سعد الدين إبراهيم - فى الوطن العربى قد ولدت مشوهة وما زالت ، فقد خلقت هذه المدرسة بواسطة قوة أجنبية سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ولم تخرج من رحم المجتمع المدنى عن طريق ولادة طبيعية ، بل كانت ولادتها قيصرية وفى الغالب غير مكتملة النمو وهذا أصل المشكلة .

وفى استطاعة الإسلام طمأنة غير المسلمين على أن نظرية فصل الدين عن الدولة لا تحقق الأمن للمجتمع كما تحققه نظرية الإسلام دين ودولة خاصة فيما يتعلق بتحقيق المواطنة المتساوية وحرية الاعتقاد .

\* \* \* \*

ولقد كان ضرورياً أن ندرس كيف يمكننا تغيير ما بأنفسنا حتى يغير الله تبارك وتعالى أحوالنا ونسترد دورنا الحضارى بين الأمم .

نعم : نحن فى حاجة إلى معرفة سنن الله تبارك وتعالى فى الكون وتسخيرها لتغيير أحوالنا ، وأول هذه السنن : السنن التى أودعها الله فى النفس البشرية ومعرفة قوانين السلوك الإنسانى تنفيذاً لأمره تبارك وتعالى فى قوله :

﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [ سورة الروم : الآية ٨ ]

إن لله تبارك وتعالى آيات فى النفس ، وإننا فى حاجة ماسة لاكتشاف تلك الآيات واستغلالها .

يقول جودت سعادة ( صاحب كتاب : حتى يغيروا ما بأنفسهم ) : إن تغيير ما فى النفس يعنى استبدال الأفكار والمعتقدات الفاسدة وإحلال الأفكار والمعتقدات الإسلامية

الصحيحة مكانها لتغيير السلوك وتغيير تبعاً لذلك الواقع الاجتماعي والاقتصادي ويخرج المسلمون من دائرة التخلف .

ونقد ذهب الغرب إلى معرفة اتجاهات المسلمين ودراسة الروح القتالية في القرآن الكريم وإعداد الخطط والسياسات التي تهدف إلى اقتلاع الروح الجهادية من نفوس المسلمين . وكذلك عمد اليهود إلى اكتشاف تكوين الهوية الفلسطينية وكيف يمكن فصلها عن جذورها الإسلامية والعمل على إضعاف الروح الإسلامية .

ولا ريب أن هذه المحاولة الخطيرة التي تقوم على دراسة أفكار المسلم ، اتجاهاتهم ( كما يقول دكتور عبد الحليم محمود السيد ) ليست مقصورة على أمريكا وإسرائيل والشيوعيين ، ولكن فرنسا وإنجلترا ودول عديدة تهتم بوضع خريطة نفس الاتجاهات المسلمين ومعتقداتهم في مخطط واسع لغزو العقل الإسلامي وإفراغه من المعتقدات الإسلامية خوفاً من عود الروح إلى المارد الإسلامي .

وقد وضعت سياسات ومخططات يجرى تنفيذها بخفاء ودقة تهدد إلى احتواء المثقفين المسلمين وعزلهم عن الثقافة الإسلامية ، ومنها محاولات لضرب الثقافة الإسلامية واللغة العربية : لغة القرآن .

ولذلك فإنه يتحتم على المسلمين كشف قوانين السلوك البشري المتمثل في ( سنن الله تبارك وتعالى في النفس البشرية ) بما يؤدي إلى توجيه الشباب المسلم إلى حمل القيم الظاهرة بدلاً من إهدارها في مجال اللهو والترف والتحليل .

وبدون تأكيد قوة هذه القوانين والسنن فلن يتمكن المسلمون من النجاح في عملية التنشئة الاجتماعية السليمة لأطفال المسلمين وتجديد أساليب التوجيه التربوي والعقلي القادرة على ضبط أجيالنا الناشئة بتعليم حقائق الإسلام وتحصينهم ضد عمست الغزو الفكري الوافدة من المجتمعات غير الإسلامية .

وهذا العمل الأساسي لدعم الصحة الإسلامية وتركيز قيمها وتحصينها من محاولات اختراقها واحتوائها يتطلب منها نقد المفاهيم الغربية المطروحة في أفق الفكر الإسلامي مما يسمى علم النفس وعلم الاجتماع ومراجعة ذلك على مفاهيمنا القرآنية على النحو الذي بدأ به الدكتور أحمد شوقي إبراهيم في شرائع مقولاته في برنامج إذاعة القرن الكريم وأهم ذلك كله :



أولاً . التفرقة بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية ، ووضع الضوابط للاستفادة من الحقائق العلمية التي توصل إليها الباحثون ، وأن تفصل الحقائق العلمية عن النظريات التي تقدمها الفلسفة المادية ، وأن نفرق بين ما هو حقيقة علمية وما هو نظرية قابلة للخطأ والصواب .

ولنذكر أن كثيراً مما طرح في الفكر الغربي ونقل إلينا في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية ( هو بمثابة فروض نظرية ) تشوبها مشوبة الأهواء الطامعة في أن تفرض على الناس مفاهيم تلمودية ووثنية وإباحية ترمى إلى تدمير الطاقات الشابة في المجتمع الإسلامي . ولقد تأكد عن طريق تحذات العلماء الغربيين المنصفين والمتجردين للحقائق العلمية أن كل ما قال به فرويد من تفسير السلوك البشري تفسيراً جنسياً محضاً لم يعد علماً . وأن معطيات دارون عن الحيوان والإنسان كذبتها الحفريات والعلماء ، ومقولات ماركس كان نصيبها الكشف عن أهواء عالية وهذا كله ينطبق على مقولات دوركايم ، وسارتر ، وغيرهم .

ثانياً . التفرقة بين علم النفس والطب النفسي ، وعلى علماء النفس المسلمين استبعاد أية تطبيقات لقوانين هذا العلم تتنافى مع تعاليم وآداب الإسلام ، وعليهم الاعتقاد بأن الأفكار والمعتقدات التي يؤمن بها الإنسان لها دور هام في تغيير البيئة الخارجية المحيطة به .

﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [ سورة الرعد : الآية ١١ ]

ويقور دكتور صلاح عبد المتعال : إن الغرب يراجع اليوم عن القيم المادية وإن علينا أن ننظر إلى العلوم النفسية والاجتماعية بمنظور نقدي بعد أن فرضت علينا تلك العلوم ونقلناها بحبرها وشرها ، وأن نقوم بتنقية تلك العلوم من آثار الثقافة المادية الملحدة خاصة وأن الغرب بدأ يعود إلى الحديث عن القيم الأخلاقية ، وتأكّدوا من أن إغفال هذه القيم يؤدي إلى شقاء الإنسان ، وإلحاق التشوه بالتكوين النفسي .

وأن على المسلمين الانتقال من دائرة التبعية لعلوم النفس والاجتماع إلى توظيف العلم لصالح المسلمين واستحداث رسالة جديدة لعلم الاجتماع والنفس تهدف إلى تغيير الوضع الكائن لتحقيق أسلمة كل فروع العلم والمعرفة .

والمعروف أن المسلمين لهم السبق في مجال علم النفس .

وأن الكشف عما يشوب هذه العلوم من بعض ما يخالف الإسلام ويتناقض مع الحقائق العلمية يعد خطوة هامة على الطريق الصحيح نحو صيغ المعارف العامة بالصيغة الإسلامية .  
وقد تحدث كثير من الباحثين المعاصرين عن ضرورة إقامة عملية التغيير الإسلامية حتى يمكن للأمة الإسلامية أن تتحول من حالة الوهن إلى حالة الشهود الحضارى وأن تسهم فى إنتاج الحضارة لا تكتفى بمجرد استهلاكها إيماناً منهم بأن هذا النهوض لن يأتى بمعجزة ولن يحققه الأمانى ، وإنما للتقدم الحضارى قوانين وسنن إلهية عبرت عنها العديد من الآيات القرآنية .

ومع الأسف فإن غالبية المسلمين يتعاملون بشكل سلبى مع هذه السنن إما يجهلونها أو يغفلون عن آثارها أو يزيفونها .

ويقول الباحثون : إنه يجب التفريق بين أمرين هما : إنتاج الحضارة ، واستهلاك الحضارة فإن إنتاج الحضارة يعنى أن لكل أمة مفهوماً للعباء الحضارى خاصاً بها ، يستند إلى مصدرها فى النظرة إلى الإنسان والكون والحياة : هذا المفهوم يشمل عدة جوانب :

- منها ما ينصرف إلى عالم الفكر .
- ومنها ما يرتبط بالنظم .
- ومنها ما يتلازم مع الحركة .

ويتساءل الدكتور سيف عبد الفتاح : ما هو المفهوم الإسلامى للحضارة ؟ وكيف يتحقق الحضور فى الكون وفقاً للمنظور الإسلامى ؟ إن الحضارة وفقاً للمنظور الإسلامى هى شهادة على العالمين ، وهى ليست بالقول فقط ولكن بالفعل والإنجاز .

ويرتبط هذا المفهوم للحضارة بمجموعة من المفاهيم الإسلامية الأخرى ومن أهمها :

- التكريم الإسلامى للإنسان .
- التسخير الإلهى للنعم والمخلوقات .
- التدافع البشرى .

كما يرتبط المفهوم الإسلامى للحضارة بالسنن الإلهية التى عبر عنها القرآن الكريم ، والتى تحكم العقل الإنسانى حيث ترتبط كل حركة إنسانية بهذه السنن .

ومن هذه السنن : سنة الاستخلاف ، سنة الابتلاء ، سنة التغيير ، فضلاً عن السنن

التي تحكم عملية بناء النظم والمؤسسات ، فلا شك أن كل هذه المفاهيم توصل المعنى الإسلامى للحضارة .

ففى حالة العودة فالإنسان المسلم يستطيع أن يتفاعل مع هذه السنن فيستثمر كل مكوناتها بحيث يحدث فعلاً حضارياً إيجابياً ، أما المسلم الواهن فيقف من هذه السنن موقفاً سلبياً لا يحقق التفاعل الحضارى الإيجابى .

والمهم هو معرفة المسلم للتعامل مع السنن الإلهية ، فقد يجهل المسلم هذه السنن أو يغفل عنها أو يتعامل معها بضعف فلا تعطى له ، أو تزيف هذه السنن ( يأتى تزيف السنن عندما يزيف الإنسان فهمه لها ) وقد يتبنى فهماً للسنن يؤدي به إلى الركون إلى استهلاك منتجات الحضارة لا إنتاجها ، فالغرب ينتج ونحن نستهلك ، هذا الفهم لا يمت بأى صلة لسنة « التسخير » التى تعبر عن التفاعل الخلاق مع الطبيعة لإنتاج الحضارة ، أو التفاعل مع الجانب الحى منها ، أما مجرد تكديس عالم أشتائها فهو تزيف لسنة التسخير من جانب بعض الذين يفهمون السنن على غير معناها الحقيقى .

فالحضارة فى جوهرها هى عمارة الأرض فالإنسان مستخلف فيها والله تعالى أعطاه القدرة على العمل والإنجاز لتحقيق هذا العمران .

\*\*\*

س : كيف يمكن للأمة الإسلامية أن تخرج من حالة الوهن أو الغياب الحضارى إلى حالة الشهود الحضارى ؟

ج : لقد تسرب الوهن إلى جسد الأمة وتراكم على مر التاريخ إلى الحد الذى جعله متغلغلاً فى شخصية الإنسان المسلم وتكوينه الداخلى ، ومن ثم علينا أن نعيد تشكيل العقل المسلم وإعادة وصله بمفاهيمه الأصلية حتى يتجه إلى الفعل الحضارى والحركة الإيجابية .

علينا أن نستهدى بسنة التغيير التى يعبر عنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِىَ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] .

إن عملية التغيير تبدأ أولاً بتغيير ما فى النفس ، لأن ذلك يحدث أمراً كيفياً وكمياً ونوعياً فى عملية تغيير الفرد والجماعة ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الإجراءات والوسائل من خلال اتباع سنن النهوض الحضارى فى إطار المنهج الإسلامى الشامل للحضارة ، وبعد

ذلك يأتي التغيير الإلهي مسانداً للفعل الإنساني فيوأتيه تعالى بالمنن ( النعم ) بعد أن يعمل في السنن .

ويقرر الباحثون أن التغيير يبدأ من مستوى الفرد الذي هو لبنة أساسية في أى منهج تغييرى .

هذا المنهج يعمل على تعميق إيماننا بالله تبارك وتعالى وبالإسلام وخلق وعى ممتد يعيد لنا الالتزام الكامل بالإسلام شرعة ومنهاجاً وبحاجة إلى زرع وتثبيت القيم الإسلامية الخالصة التى تشمل سلوك الفرد ونظرية الآخرين لوظيفته فى محيطه ويحتاج المنهج التغييرى إلى عدة أمور :

١ - وعى كامل بالذات .

٢ - انتماء كامل للإسلام .

٣ - نشر العلم الشرعى الصحيح وتعميق أصوله .

ولا بد من الوعى بالذاتية الخاصة للإسلام والمسلمين .

وأن الكثير من الباحثين يخلطون بين النظرة الغربية للحياة ونظرة الإسلام لها مما يدفعهم إلى تطبيق مناهج الغرب على المجتمع المسلم ، ويغفلون عن خصوصية المجتمع المسلم ، ذلك أن المجتمع المسلم يرى أن الحياة ابتلاء من الله تبارك وتعالى واختبار للناس ليكشف عن مدى إيمانهم بالله وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وأنها ليست معروشة بالورد ، وأنها أساساً مزرعة للآخرة ، فالمرء فيها ليس إلا كراكب قال<sup>(١)</sup> تحت ظل شجرة ثم مضى وتركها . ( إنه مفهوم مستمد من حديث النبى ﷺ ) .

وأنه لا بد أن يتأكد مفهوم فريضة الاستخلاف التى كلف الله بها الإنسان فى عمارة الأرض مع وضع نصب عينيه الهدف الأسمى الذى يحمل فى سبيله كل المصاعب والمشاق .

ولما كانت المهمة الإسلامية للثقافة الإسلامية هى تحرير العقل المسلم من هيمنة الثقافة الوافدة وأن أكبر الأخطاء التى تواجه المسلمين اليوم هى تعبد المناهج الغربية والعلوم

---

( ١ ) قال : نام فى وقت القيلولة ( الظهيرة ) .

الإنسانية والاجتماعية الغربية على أنها علوم أو حقائق ثابتة ، بينما هي ليست إلا نظريات وفروض بشرية مرنة بعصر وظروف مجتمع معين ، ولذلك فهي تخطئ وتصيب .  
وأنها حين زحفت على آفاق العلوم الإنسانية والاجتماعية الإسلامية فإنها قد حجبتهما ، وإذا كان علماء الغرب قد ألبسوها ثوب العلم والموضوعية زوراً فهي في حقيقتها اليوم أصبحت وسيلة من وسائل الغزو الثقافي في سبيل تركيز التبعية للغرب كثقافة وفلسفة في الحياة بما يتبع ذلك من تبعية سياسية واقتصادية تحقق للغرب أهدافه ومصالحه ، فالتبعية الثقافية والفكرية هي في النهاية تخدم الأهداف السياسية والاقتصادية للغرب .  
ومن هنا فإننا نردُّ مقولة عالمية الفكر الغربي ، فهي تعنى دعوة إلى انصهار ثقافة الإسلام فيها وهو ما لن يحدث مطلقاً لعدة عوامل أساسية :  
ذلك أن الفكر الغربي في مجموعه إقليمي وليس عالمياً ونسبياً وليس مطلقاً ومنحازاً وليس متحرراً .

والقول بأن العلم لا وطن له ولا دين ، وأن العلم للعلم والفن للفن نظرية باطلة ، وهي في مجموعها شعارات روجها الغرب لتتنازل الشعوب غير الغربية عن ثقافتها وحضارتها الخاصة بها وتنصهر في حضارة الغرب المادية الوثنية الإباحية .  
ولقد كشفت الأبحاث أن الغرب يجعل لكل قيمة وجهين :

وجه حين تطبق في الغرب ووجه حين تطبق على غير الغرب ، إيماناً باستعلاء الدم والعنصر واللون الأبيض ، وهذا في حقيقته امتداد لفكرة ( روما سادة وما حولها عبيد ) مع تغيير طفيف ، فالشريعة الدولية - كما يقول أحد الباحثين - ذات وجهين . تطبق على سادة ولا تطبق على العبيد ، فقد كانت الديمقراطية تطبق في اليونان على السادة لحاكمين ولا تطبق على غيرهم من الطبقات ، كل هذا يدعونا إلى الدعوة إلى ضرورة التحرر من المفاهيم الاقتصادية والاجتماعية الغربية وتميزاتها ، وما تفضي إليه من نظريات وسياسات كان لها أسوأ الأثر في مجتمعنا .

\*\*\*



## الباب الثالث

### المحلمة على القرآن الكريم مدخل مرملة فطيرة

منذ بدأت حركة الغزو الفكرى والتغريب ( من خلال مؤسسات التبشير والاستشراق ) لم تتوقف المؤامرة على القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم هو حجر الأساس فى بناء الإسلام : عقيدته وفكره وشرائعه وآدابه وثقافته ، فكل محاولة لاحتواء القرآن والتشكيك فيه هى من أهم مخططات السيطرة على الأمة الإسلامية ، ليس فكرها وعقيدتها فحسب ، بل وجودها كله .

واليوم تتجدد المؤامرة على القرآن الكريم من خلال مؤتمر كولورادو الذى كشفت وثائقه وأهدافه منذ شهور قليلة حتى وصلت إلى أيدنا الخطة التى رسمتها حركة التبشير فى محاولة أطلق عليها : خطة لتنصير العالم الإسلامى واجتثاث الإسلام من جذوره ، يحدث هذا اليوم عام ١٩٩٣ وكان القس زويمر قد بدأ عمله هذا فى قلب العالم الإسلامى وفى منطقة الخليج عام ١٩٠٩ ( فى العالم التالى لإسقاط السلطان عبد الحميد وافتتاح العالم الإسلامى أمام التبشير ) ، وقد تنقل المخطط خلال تسعة عقود ونصف من أسلوب إلى أسلوب ، وكلها أساليب ناعمة أو غامضة ترمى إلى إخفاء الهدف الحقيقى ، فلما جاءت الصحوه الإسلامية فيما بعد نكسة ١٩٦٧ وتعالى وامتدت إلى أكثر من قطر إسلامى بدأ الغرب فى التخطيط إلى عمل جديد هو ما استقر عليه مؤتمر كولورادو عام ١٩٧٨ فيما سمي (والعبارة لهم) : محاولة وضع المضمون النصرانى فى أوعية الثقافة الإسلامية وأوعية الدين الإسلامى .

ومن يطالع ألف صفحة ( تضم مقررات هذا المؤتمر ) يجد أن القرآن الكريم هو الهدف الأول والأكبر فى محاولات ( تلبيس إبليس ) فى محاولة لتفسيره تفسيراً مسيحياً أو نقل نصوص منه وتوجيهها فى خدمة مفهوم التبشير أو تزيف وجهة مفاهيمه أو أهدافه والتعمية على كشفه لزيغهم ولإنكار تنابع رسالات السماء إلى الرسالة الخاتمة ، ومن ذلك العمل على دراسة فنون اللغة العربية وآدابها لمعرفة أفكار المسلمين وللتوصل إلى قلوبهم وعقولهم .

ولو أننا تابعنا مخطط التغريب في السنوات العشر الأخيرة ١٩٧٩ مثلاً إلى اليوم لوجدنا أن كل ما طرح من مفاهيم ونظريات كان يراد به إعداد الأرضية الصلبة للهدف الذي كشف عنه هذا المؤتمر وهو ( اختراق الإسلام وثقافته لتقويضه بالنصرانية من داخل البناء مع استخدام كل السبل في هذا الصدد ) أى استعمال الوسائل غير الأخلاقية والميكافيلية<sup>(١)</sup> .

كذلك فقد ظهر في هذه الفترة بعض ترجمات للقرآن الكريم كان آخرها ترجمة جاك بيرك وجارودى وغيرها وكلها تحاول أن تشير إلى ( ثوابت الإسلام ) على أنها من الجمود والتخلف الذى يحول بين المسلمين وبين الوصول إلى العصرية والتقدم كأنما يراد دعوة المسلمين إلى التحول عن ثوابت الإسلام إلى مفاهيم التطور المطلقة والنسبية والخضوع للعصر ولقبول مفاهيم العلمانية والفلسفة المادية على النحو الذى تقدم به فى مناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية .

وكلها فلسفات ونظريات أريد بها النيل أساساً من ( ثوابت الإسلام ) ومن أصالته ومن مفهومه الجامع بين العقل والقلب وبين الميراث والعصر وبين مفاهيمه الأساسية فى الربط بين الروح والمادة فى كل قضايا التقدم والحداثة والعصرية وإنكار مفهوم العلمانية الضال .

## القرآن الكريم والمؤامرة عليه

### القرآن هو الهدف ،

وإذا كان قد تأكد لنا من خلال الخطة التى رسمها القديس لويس بعد هزيمته فى الحروب الصليبية وهو مبدأ ( حرب الكلمة ) على الإسلام وما تلا ذلك من إنشاء المؤسسات التبشيرية والاستشراقية لدراسة القرآن الكريم بهدف النيل منه والتشكيك فى ربانيته وتزييف الحقائق بقطع النصوص ، والإيهام بالباطل والمراوغة على النحو الذى عرف من مستشرقى الغرب طوال القرون الماضية وظهور الدعوة الخفية إلى حرب من خلال مؤسسة ( الماسونية ) وما تحقق على أيدى هؤلاء من سقوط الخلافة وتمزق جبهة الأمة الإسلامية واقتحام الميشرين للعمل خلال حكم محمد على فى مصر ولبنان واتخاذ لبنان

(١) مذهب ميكافيلى فى الوصول إلى الغاية بأسوأ الوسائل .



مركزاً أساسياً للاستشراق والتبشير لكلا الطائفتين الكاثوليكية والبروتستانتية .

ثم استحدثوا الدعوة إلى ( الحوار ) الذى لم يكن يقصد أكثر من الحصول على وثائق من علماء الإسلام يعترفون فيها بأن المسيحية دين منزل وذلك ليواجهوا بها الذين يبحثون عن الحق قائلين لهم إنه بشهادة علماء المسلمين : ليس هناك فارق بين المسيحية والإسلام ، منكرين ( الصلب والتثليث والخطيئة ) ولكن دعاة الإسلام رفضوا الحوار حتى يوقف الغرب حملة التنصير فى إفريقيا وجنوب شرق آسيا .

فلما جاءت الصحوة واتسع نطاقها استعلى الغرب بالباطل واندفع إلى تنفيذ مخطط فاشل .

كل هذا يدعوننا نحن المسلمين إلى أن نواجه الخطر ونحاصره وأن نبدأ الاتصال بكتاب الله تبارك وتعالى بمفهوم مختلف عن مفهومنا التقليدى وأن يكون ذلك فى ضوء التحديات الخطيرة والسحب المعقدة فى آفاق العالم كله من أجل حجب نور هذا الكتاب المقدس أو التشكيك فيه أو إثارة الشبهات حوله أو تأويله وتزييف معانيه ومفاهيمه .

ولنعلم أن هذه التحديات لن تتوقف أبداً ، وهى ليست جديدة ولكنها قديمة ممتدة منذ أنزل على قلب رسول الله ﷺ حين قال قوم : ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغفلون ﴾ [ سورة فصلت : الآية ٢٦ ] مما يقصه علينا ربنا تبارك وتعالى فى القرآن من مؤامرات كانت ترمى إلى القول بأنه يعلمه بشر ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ [ سورة النحل : الآية ١٠٣ ] أو إن هو إلا : ﴿ أساطير الأولين اكتتبها فهى تُملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ [ سورة الفرقان : الآية ٥ ] .

ولقد تحدى القرآن البشرية كلها فى عصر نزوله وفى كل عصر أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ولا يزالون عاجزين : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ [ سورة البقرة : الآية ٢٤ ] « فاعلموا أنه إنما أنزل بعلم الله » [ هود : ١٤ ] ، لقد أعلن الحق تبارك وتعالى أنه : ﴿ لنن اجتماعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ [ سورة الإسراء : الآية ٨٨ ] .

ولكن هل ارعوى<sup>(١)</sup> خصوم الإسلام : لقد ذهبوا إلى خلق دعاوى باطلة لا أول لها ولا آخر ، لقد عمدوا إلى الادعاء بأنه ناقص وأنه أضيف إليه بعد نزوله وتحذوا عن ما نسخ

( ١ ) ارعوى : ارتدع .

منه وشككوا في حافظيه وجامعيه ، وحاولوا تصويره بصورة الكتب السابقة التي اختلف فيها أصحابها ، ونسوا أن الله تبارك وتعالى قد حفظه وصانه عن أن يُبدل أو يغير أو يضاف إليه أو ينقص منه حيث قال تبارك وتعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون﴾ . (سورة الحجر : الآية ٩) .

وجاء العصر الحديث بعد أن غلب الاستعمار الغربي على بلاد المسلمين وسيطر عليهم سياسياً واقتصادياً وفرض نفوذه على الفكر والتعليم والثقافة وانطلق المستشرقون بنطحوں الصخر في سبيل التشكيك فيه والفصل بينه وبين السنة وإثارة دعاوى مختلفة منها : أن كلمات القرآن ليست عربية ، وذهبوا مذاهب متعددة في تحميل النصوص ما لا تختتم ، وكان هدفهم الأكبر هو الادعاء بأن القرآن دليل دين عبادة وأن كل ما فيه من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية إنما هي من باب الأخلاق والآداب العامة ، أما إنها ( شريعة عالمية ) لتنظيم المجتمع الإسلامي فهذه وجهة جرى العمل على انتقاصها ، والتقليل من شأنها وإثارة الشكوك حولها .

كذلك فقد جرى استغلال بعض آى القرآن الكريم فى الدفاع عن دعاوى أهل الكتاب الباطلة ، أو إعلاء شأن الأديان السابقة على غير النحو الصحيح .

ولقد كانت الحملة على القرآن ضارية ولا تزال ، وأخطر ما تجد صورة لها فى دوائر المعارف العالمية ( الفرنسية والإنجليزية والأمريكية ) وأهم ذلك ( دائرة المعارف الإسلامية ) التى وضعها عتاة المستشرقين ( وترجمت إلى اللغة العربية مع تعليقات بسيطة لا تغنى ) وقد حملت فى مادنها ما يحاول أن يجعل القرآن الكريم كتاب بشرى كتبه النبى ﷺ ، وهناك التشكيكات الخطيرة حول الوحى والنبوة والغيب والجزاء الأخرى .

ومن خلال التشكيك فى القرآن الكريم ( بوصفه نبراس الإسلام وفكره : النص الخالد الموثق الذى لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ) وضعت عدة نظريات مضللة طرحت فى أفق الفكر الإسلامى من أجل التشكيك فى العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامى ومنها :

١ - نظرية العلمانية التى تفصل بين الدين والدولة والتى تحجب الشريعة الإسلامية فى المجتمع الإسلامى وتخل بدلاً منه القانون الوضعى .

- ٢ - نظرية « دارون » التى تقول بأن الإنسان والقرد من أصل واحد والثى تحاول أن تمتهن الإنسان الذى كرمه خالقه تبارك وتعالى وأسجد له ملائكته .
- ٣ - نظرية التطور التى لا تقر منهج الإسلام الجامع القائم على ( الثوابت والمتغيرات ) داعين إلى التحول الكامل على النحو الذى دعا إليه هيجل والذى جاء بعد نظرية الثبات الكامل التى قال بها أرسطو .
- ٤ - نظرية العلمانية والعقلانية والإيمان بالمحسوس وإنكار ما سواه .
- ٥ - الفلسفة المادية بكل مفاهيمها والثى تنكر وجود الخالق تبارك وتعالى .
- ٦ - نظريات العلوم الاجتماعية والإنسانية التى تستند أساساً على أن الإنسان حيوان .

\* \* \* \*

كل هذه النظريات وغيرها إنما وضعها الغرب فى مواجهة القرآن والمنهج الربانى الذى جاء به الإسلام والذى جاء كاشفاً لزيغهم ، ومعارضاً لفلسفاتهم ومخالفاً لمفاهيم الفكر البشرى الضالة المستمدة من نظرية ( الأصنام ) اليونانية والمنكرة للوحى والنبوة والمستمدة من مفاهيم الباطنية والوثنية والتعدد والتثليث ووحدة الوجود والحلول والاتحاد والتناسخ<sup>(١)</sup> والرفانا<sup>(٢)</sup> وسائر مفاهيم الغنوص الوثنى ومفاهيم الأفلاطونية القائمة على فكرة العقول العشرة ومفاهيم الإشراق المجوسية .

كل هذا الحشد الذى قدمه الفكر الغربى سواء مما أحياه من الفكر الوثنى اليونانى الفارسى القديم أو مما وضعه فى ظل مفهوم الفلسفة المادية والتنوير الغربى الملحد الذى وضعه أصحاب الموسوعة وقامت على أساسه الثورة الفرنسية ثم الماركسية امتداداً لمفهوم الماسونية الذى أنشأ الفكر الغربى أساساً بعد انحرافه عن المسيحية المنزلة .

( ١ ) تناسخ الأرواح : هى عقيدة الجزاء عند الهندوس ( المجوس ) والبوذيين : تنتقل روح الإنسان الخير بعد موته إلى جسد إنسان طيب لثاب وتسد بحياتها فى هذا الجسد ، والإنسان الشرير تنتقل روحه بعد موته إلى جسد إنسان شرير أو حيوان لتتعذب ، وتشقى بوجودها فى هذا الجسد ، وتظل تنتقل من جسد إلى جسد آخر حتى تظهر تماماً من جميع شروها وأقائها حتى تصفو وتصبح أصلاً للاتصال ببراهما ( إله الآلهة عندهم ) والفناء فيه حيث أنها كانت متصلة به فى أول الأمر ، كما يعتقدون .

( ٢ ) الرفانا : تعنى - عند بوذا - النجاة والخلاص وهى تتمثل فى القضاء على الأنانية ، والتحرر من الميول والشهوات ، وقد ادعى بوذا أنه قد وصل إليها .

## كشف الإسلام حقيقة الدين الإلهي

كشف القرآن الكريم للبشرية مجموعة من الحقائق لتكون على بينة من أمرها وحتى لا يخدعها الفكر البشري بوثنياته وسمومه .

**أولاً :** إنه حدث تحول عن ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً إلى مفاهيم أخرى وأن الإسلام الذى نزل على محمد ﷺ هو بمثابة العودة إلى الطريق الأصيل .

﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ [سورة النحل : الآية ١٢٣] .

وأن الذين أحدثوا هذا التحول حرقوا الكتب السماوية المنزلة عليهم ، وقد أورد القرآن الكريم هذا المعنى فى أكثر من موضع من سورة البقرة وآل عمران والنساء وغيرها .

وأن الله تبارك وتعالى أخذ العهد على الأمم السابقة أن تؤمن بالنبي ﷺ الخاتم إذا ما ظهر ، وأن رجالاً من أهل الكتاب فى عصر النبوة شهدوا بالنص الصحيح الذى ورد فى كتبهم عن بعثة محمد ﷺ ، وأن هذا النبي مكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل .

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ [سورة الأعراف : الآية ١٥٧]

**ثانياً :** قدم القرآن الكريم منهجاً كاملاً لعالم الغيب ( الميتافيزيقا ) حتى يكون المسلم واعياً للمفاهيم الصحيحة بشأن الخلق والكون والبعث الآخرة وكل هذه العوالم ، وعلاقة الإنسان بها ، وبهذا لم يعد هناك أى قيمة للمقولات التى تمثلها الأساطير والخرافات وقصص الخيال التى وضعها الإنسان ليسد الفراغ الذى كان يجهله بالنسبة للعوالم .

وقد قدم القرآن هذا للمسلم ليعرف طريقه وليعمل فى المجال الذى أوجد من أجله وهو عمارة الأرض والسعى فيها بوصفها عبادة لله تبارك وتعالى وإقامة منهج الله تبارك وتعالى فى الأرض .

**ثالثاً :** قدم القرآن إلى البشرية عدة مناهج هى أساس بناء العلم والحضارة الإنسانية :

**أولاً :** المنهج التجريبي في مواجهة منهج القياس اليوناني ، ولم يكن العالم يعرف شيئاً عن المنهج التجريبي قبل القرآن ، وعلى أساس التجريب الإسلامى ، نشأت علوم الحضارة الحديثة .

**ثانياً :** منهج تحرير الإنسان من العبودية اليونانية والفارسية ، وقد كان الإنسان قبل الإسلام بمثابة رقيق : الحكم للسادة والعمل للعبيد ، وقد سجل أفلاطون وأرسطو أن الرق شئ أساسى وضرورى فى الحضارات ، وأن الرقيق لا يمكن أن يكون سيداً وأن السيد لا يمكن أن يكون رقيقاً حتى ولو استرق .

**ثالثاً :** منهج بناء الأمم والحضارات وسنن الله فى قيامها وسقوطها ، وقد كشف القرآن الكريم عن الأمم التى خرجت عن منهج الله تبارك وتعالى وكيف دمرت نتيجة الفساد والتفرف والاستعلاء على الحق وكيف كان الإيمان بالله مصدر النجاة فى الدنيا والآخرة : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمُ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غِظَابَ الْغَرْزِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَتَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [ سورة يونس : الآية ٩٨ ] .

**رابعاً :** قدم القرآن منهج المعرفة ذى الجناحين فى مواجهة انشطارية الفكر البشرى ، فقد جمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة ، وكانت البشرية قبل ذلك إما خاضعة لمنهج الروح وحده على مفهوم الهندوكية والبوذية أو منهج المادة وحدها على مفهوم اليونان والرومان .

**خامساً :** قدم القرآن الكريم منهج التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى على نحو يسمو ويختلف عن مفاهيم التوحيد التى تقول بها بعض الديانات وما يقال عن توحيد إخناتون وغيره .

**سادساً :** سجل القرآن انحرافات الفرق والأديان السابقة للإسلام وكشف زيف دعاة الوثنية عبادة الأصنام والصابئة والدةرية والمجوسية كما كشف ما أدخله اليهود والنصارى والنساطرة واليعاقبة ، والملكانية وعبد الكواكب والنجوم ودعاهم إلى العودة إلى عبادة الإله الواحد الأحد .

\*\*\*\*\*

## القرآن مصدر العلوم الاجتماعية

أكدت دراسات الباحثين المنصفين أن منابع جميع العلوم الاجتماعية جاءت من القرآن الكريم ، وقال الدكتور حسن الساعاتي : « إن القرآن الكريم هو المنبع الأساسي لنظريات ابن خلدون وأن أصول علم الاجتماع الذى شاد عمده وأنشأ بنيانه العلامة ابن خلدون منذ أكثر من ستة قرون نابعة من القرآن الكريم وبحيث يمكننا أن نسمى علم الاجتماع الخلدوني : علم الاجتماع القرآني وعلم الاجتماع الإسلامي .

وبالرغم من أن ابن خلدون لم يقرر أنه اعتمد على القرآن الكريم في كثير من نظرياته الاجتماعية التي بلورت ابتكاره لعلم الاجتماع الإنساني والعمراني البشري ، إلا أنه درج على ذكر آيات قرآنية كثيرة تدفقت ينبوعاً لأفكار وقوانين اجتماعية ومصدراً لاستدلال وتعليل وبرهان .

وذلك لفرض دعم النظرية التي يجهد في بلورتها أو لتوضيح الفكرة التي حاول صياغتها في إطار اجتماعي سليم أو لبيان كون الظاهرة التي يتناولها بالتحليل والتفسير من السنن الاجتماعية التي لا تتبدل .

كذلك فإن الباحث المتعمق يستطيع أن يحكم بأن ابن خلدون قد اهتدى إلى وضع علمه الاجتماعي الجديد بتدبيره الاجتماعي للقرآن الكريم من جهة وباقتدائه بمنهج علم الحديث وأصول الفقه من ناحية أخرى .

وبناءً على ذلك يمكن أن نقرر أن علم الاجتماع الخلدوني هو نتاج التفكير العلمي الإسلامي الذي ينشد التوصل إلى اليقين ، وعلى هذا الأساس يمكن القول بصدق : أن علم الاجتماع القرآني يعتمد في استقراء نظرياته على وقائع الأمة الإسلامية وأحوالها في عصور مختلفة .

كذلك فإن الآيات القرآنية التي استند إليها ابن خلدون في بلورة علمه المحدث جاءت كالآتي :

١ - الآية : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [ سورة البقرة : الآية ٢٥١ ] .

وقد أوردها ابن خلدون مرة لبيان فائدة « العصبية » ومرة أخرى لبيان أثر الأحكام .

٢ - الآية : ﴿ قالوا لن أكله الذنب ونحن عصبية إنا إذا لخاسرون ﴾

[ سورة يوسف : الآية ١٤ ]

بيان أثر العصبية أى الرابطة الاجتماعية والألفة الجامعة فى قوة الجماعة واشتداد شوكتها لتصبح أكثر إرهاباً للعدو وأشد قوة على دحره .

٣ - الآية : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾

[ سورة الإسراء : الآية ١٦ ]

استند عليها مرة لبيان أثر الفساد فى زوال الملك ومرة أخرى لبيان أثر الفساد فى خراب المدن .

٤ - الآية : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾

[ سورة الأنبياء : الآية ٢٢ ]

استدل على انفراد الله تبارك وتعالى بالمجد .

٥ - الآية : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾

[ سورة الأحقاف : الآية ١٥ ]

أفاد منها تحديد الجيل بعمر شخص واحد فى العمر المتوسط وهو تمام الأربعين ، فهو ( انتهاء النمو والنشوء إلى غايته ) فمن كان تكوينه إسلامياً بحثاً كابن خلدون فإن المعارف الإسلامية وعلى رأسها القرآن الكريم تكون حاضرة فى ذهنه حضوراً كاملاً ، يجول فيها فكره محلاً ومؤلفاً ويخرج من هذه العملية المركزة بنظرات سليمة وأحكام صائبة وصادقة ، أضيف إلى ذلك أسلوب الكتابة وتسلسل الأفكار .

وجملة الأمر أن ابن خلدون وضع فى اعتباره القرآن الكريم مصدراً أساسياً ورئيسياً يقتبس منه ما يعينه على فهم الظواهر الاجتماعية وصياغة نظريات وإقامة أدلة ودعم حجج وبناء براهين ، أ هـ .

### القرآن الكريم والشعر الجاهلى

تعددت محاولات الاستشراق لاختراق الإسلام والقرآن فعمل على التشكيك فى الإعجاز القرآنى وأثار الشك حول الشعر الجاهلى .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ( رضى الله عنه ) : عليكم بديوان أشعاركم ففيه

فقه قرآنكم . ولذلك فقد تصدى للتشكيك في هذا الشعر عدد من المستشرقين من أبرزهم ( مرجليوث اليهودي ) وهناك رينان الذي تخفى وراءه الدكتور طه حسين عندما طرح هذه الفكرة وكان تلاميذه يظنون أنه أخذها من مرجليوث .

لقد كان الشعر بالنسبة للعرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم . به يأخذون وإليه يصيرون . بل إن ( ابن قتيبة ) يذهب إلى أن الله سبحانه وتعالى أقامه مقام الكتاب لغيرها وجعله لعلومها مستودعا ولآدابها حافظاً ولأسابها مقيداً ولأخبارها ديواناً لا يربث على الدهر ولا يبيد على مر الزمان ( طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي ) وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .

والقرآن الكريم يسجل هذه الظاهرة على أساس أنها كانت نوعاً من السلاح المسلول في وجه الإسلام ، والرسول الكريم ﷺ في تسجيله هذا أوضح مدى تأثير العربي بالشعر ومدى استجابته له حتى أصبح هذا الجنس الأول حالة نفسية ووجودية لانفراق العرب ولا يفارقها وتنسب إلى رسول الله ﷺ قوله : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » .

وقد عرف الصحابة رضوان الله عليهم قيمة الشعر في تفسير القرآن .

قال عمر ( رضى الله عنه ) : عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم .

قال ابن عباس ( رضى الله عنه ) : إذا تعاجم<sup>(١)</sup> شئ من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربى ( تفسير الطبرى ) .

وقال : إذا سألتموني عن غريب<sup>(٢)</sup> القرآن فالتمسوها في الشعر فإنه ديوان العرب .

وقال : الشعر ديوان العرب فإذا خفى عليهم الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب فارجعوا إلى ديوانها فمعرفة ذلك منه .

ولذلك عرف ابن عباس ( رضى الله عنه ) بكثرة استشهاده بالشعر في تفسير القرآن ، وفى مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس رضى الله عنهما فى معنى كلمة من القرآن ،

( ١ ) تعاجم : خفى مراده .

( ٢ ) غريب القرآن : كلماته التى خفى معناها .



واستشهد ابن عباس رضي الله عنهما على كل جوابه ببيت من الشعر .  
ويعد الطبري من المفسرين البارزين الذين عُنوا بلغة العرب وشعرهم في تفسير القرآن الكريم .

قال ابن خلدون : إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه من مفرداته وتراكيبه وأورد صاحب الموافقات : أن سائلا سأل عن معنى قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ [ سورة النحل : الآية ٤٧ ] ، فقام شيخ من هذيل فقال : إن هذه لغته وأن معنى التخويف : التنقص فسأله عمر عن شاهد من قول العرب في ذلك فأنشد الهذلي قول القائل :

تخوف الرجل منها تامكا قرداً كما تخوف عود النبعة السفن

وقد عرف أن الشعر لا يستند إليه في تفسير القرآن وإنما في فهم اللفظ وحده .

وقد أثبتت هذه المسألة من بين المسائل التي عمل الاستشراق على إثارتها في مجال التشكيك وكان مرجليوث من المستشرقين الغلاة وقد تفرغ لها على مدى ربع قرن وأثبتها في كتابه : ( أصول الشعر العربي ) الذي نشره عام ١٩٢٥ في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية .

وهو يفترض أن القرآن جاء بلغة جديدة لا صلة لها بالشعر الجاهلي وكأن القرآن لم يكن من بيئة العرب ولم يتحدث بلغتهم .

فإذا ذكر شاعر جاهلي عادات العرب في الحج أو الصوم أو ذكر الأفكار السائدة في الأديان وجاء القرآن بهذه الألفاظ ، فإن مرجليوث سرعان ما يحمل ذلك على أن هذا الشعر قيل بعد نزول القرآن وعلى نسقه وهذا معنى الانتحال ، وقد مضى يثير الطعن في القرآن وفي الشعر الجاهلي ، ويهدم كل شيء ، فشكك في بداية الشعر وفي تدوينه وفي لغته وفي روايته وطعن في الإسلام وفي وحيه وعقائده وإعجازه .

وجرى على هذا النهج الدكتور طه حسين حين أصدر كتابه في الشعر الجاهلي وفي الأدب الجاهلي وحاول أن ينسب هذا الاتجاه لنفسه غير أن الباحثين المسلمين كشفوا زيفه .

وكان الهدف عند المستشرق اليهودي والكاتب العربي : هو إنكار فضل القرآن على

العرب وعلى العالم بأسره وبالتالي النيل من مكانة العربية التي حملت أسرار الإعجاز ، ولا ريب أن الهدف الأول هو إنكار إعجاز القرآن ، ومن هنا كان إثبات إعجاز القرآن هو البرهان الساطع على صحة النبوة الإسلامية وإقامة الدليل على الإعجاز القرآني ( بشقيه الكلامي والبلاغي ) كان بهدف ترسيخ النص القرآني في كل بيئة حضارية جديدة .

يقول عباس أرحيله : إن دراسة النص القرآني تنتهي إلى قطبين أساسيين هما اللغة والفكر ، فالقرآن كتاب أدبي وعقيدى في نفس الوقت ، وقد أخذ القرآن مكان الصدارة بوصفه النص الأدبي الأول لهذه الأمة ومن ثم فإن فهم الرسالة السماوية بعقيدتها وشرعتها يقدم على فهم هذه الوسيلة الحاملة لفحوى مقاصد الرسالة واستيعابها ، فالقرآن خطاب لغوى توصل بالضمير اللغوى لترسيخ الضمير الدينى ، ومن هنا تحركت الدراسات القرآنية إلى إثبات عربية القرآن مع مقابلة ذلك بما تعارف عليه العرب .

ففى مجاز القرآن لأبى عبيدة يقول : نزل القرآن بلسان عربى مبين فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول .

وفى معانى القرآن لأبى زكريا يحيى بن زياد الفراء : إن القرآن لا يخرج عن أساليب العرب وما تعارفت عليه من فنون القول وإن كانت له خصائصه التى تفرده عن غيره من ضروب الكلام .

ومن هنا يتضح أن الذهنية العربية تعاملت مع النص القرآني على أساس لغوى أصيل يتمثل فى مادة الشعر الجاهلى : ذلك الشعر الذى يمثل شاهد إثبات على محاذاة أساليب العرب لأنماط التعبير القرآني .

### القرآن الكريم والفن القصصى

لم تتوقف المؤامرة على القرآن الكريم عند خط الاستشراق والتبشير بمخططاتهما الواسعة المتجددة التى لا تتوقف عن الخداع والتضليل وإغراء الشباب الذى ليست له خلفية إسلامية أصيلة ، بل امتدت إلى أولياء التغريب من كتاب الغرب على النحو الذى حدث مع طه حسين ، وزكى مبارك ، ومحمد أحمد خلف الله ، ولويس عوض ، وعشرات غيرهم . أما خلف الله فقد أعد أطروحته تحت إشراف الشيخ أمين الخولى وقال : إن مفهوم

القصة فى القرآن الكريم لا يلتزم بالصدق التاريخى ، ويقول إن بالقرآن أساطير وإن هذه الأساطير من عند الله ( تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ) وإن القرآن تميز بهذه الأساطير ليمتلك القلوب ولأنها هى التى كانت مألوفاً لدى العرب مطابقة لمعارفهم ومطابقة لما فى أيدى أهل الكتاب من اليهود ، وبذلك جمع خلف الله كل شبهات المستشرقين التى أثاروها حول القرآن الكريم منذ عشرات السنين .

وقال الأستاذ أحمد أمين فى تقريره عن الرسالة التى قدمت كأطروحة بكلية الآداب تحت عنوان ( القصص الفنى فى القرآن ) قال : إن صاحب هذه الرسالة يرى أن القصة فى القرآن لا تلتزم بالصدق التاريخى ، وإنما تنجس كما ينتجها الأديب فى تصوير الحادثة تصويراً فنياً بدليل التناقض فى رواية الخبر الواحد .

وإن القصص فى القرآن عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام لصدق التاريخ والواقع .

وإن الإجابة عن الأسئلة التى كان يوجهها المشككون للنبي ﷺ ، ليست تاريخية ولا واقعية وإنما هو تصوير لواقع نفسى عن أحداث مضت أو أغرقت فى القدم ، وإن القرآن كان يغير بعض العناصر لجعلها ملائمة للبيئة ولطبيعة الدعوة ، وإن عمل محمد ﷺ هو عمل الفنان الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ولا الحرص على الصدق العقلى .

وجملة القول فقد ذهب الدكتور خلف الله إلى أن القصص فى القرآن ما هو إلا أساطير الأولين وأنه مستمد من التوراة ومن أدب فارس ويونان .

وقد تصدى للرد على هذه المفتريات كثير من الباحثين الإسلاميين فقال : السيد محب الدين الخطيب : إنه مما ذهب إليه صاحب الرسالة تكذيب النبى ﷺ فى أن القرآن موحى من عند الله تبارك وتعالى موهماً أنه من تأليف محمد ﷺ وأن ما فيه من القصص عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار من غير التزام بصدق التاريخ والواقع ، وأن محمداً ﷺ ( فنان ) بهذا المعنى ، وأن الأنبياء أبطال ولدوا فى البيئة وتأدبوا بأدابها وخالفوا الأهل والعشيرة وقلدوهم فى كل ما يقال ويفعل وآمنوا بما تؤمن به البيعة من عقيدة ودانوا بما تدين به من رأى وعبدوا ما تعبد من إله .

وزعم أن القرآن متناقض فكان يقرر أولاً أن الجن تعلم بعض الشئ ثم لما تقدم الزمن

قرر أنهم لا يعلمون شيئاً ، وأن قصة موسى في سورة الكهف لم تعتمد على أصل من واقع الحياة ، بل ابتدعت على غير أساس من التاريخ ، ويمن محمد خلف الله على الإسلام بأنه دافع عنه بقوله : إن ما تمسك به الباحثون من المستشرقين ليس سببه جهل محمد ﷺ بالتاريخ ، بل قد يكون ذلك من عمل الفنان الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ولا الحرص على الصدق العقلى .

ولاشك أن هذه الروح الإلحادية فى كلية الآداب ليست بالشىء الجديد ، وقد سبق أن ترددت تحت قبة البرلمان أصوات مدوية بالشكوى من هذه الكلية ومن تأصل جرائم هذا اللواء الخبيث فيها وأن تلاميذ علم من أعلام هذا الباطل ( يقصد طه حسين ) كانوا يكتبون فى كراريسهم تعليقاً على بعض الآيات والسور : إن القرآن هنا بليغ وعلى بعض آخر : إن القرآن هنا ركيك أو سخييف .

وعلة ذلك أن التعليم عدنا فاسد من أساسه وأن طلبة المدارس الثانوية لما دخلوا الجامعة ولا سيما كلية الآداب تلقفتهم أجواء مسمومة من الذين تعهدوا الكلية فى أول نشأتها أو أشياعهم ، وأن المؤلف ضحية من ضحايا الشعوبية وأن أمثاله كثير فى كلية الآداب وما دام أساس المعارف فى مصر : النظام الدولوى الراسخ فى مدارسها فلن يكون فى كلية الآداب إلا أمثال هؤلاء .

وقال الشيخ محمود شلتوت عن هذا البحث ما يلى :

إن هذه الرسالة تقيس القصص القرآنى بمقاييس ليست وثيقة ولا مقرر ، فإن خالف القرآن تلك المقاييس كان عند أصحابها كذباً وافتراء على التاريخ أو كان نوعاً من ذلك العن الأدبى الذى لا يلتزم الواقع التاريخى ولا الصدق العقلى ، وإنما يخضع فى تأليفه لهذه الحرية الفنية التى يخضع لها كل فنان موهوب ، وطبقاً لهذه القاعدة صار القرآن فى هذه الرسالة يتقول على اليهود وينطقهم بما لم ينطقوا به ويقول أموراً لم تحدث ويقرر أمراً خرافياً أو أسطورياً ثم يعود فيقرر نفيضه ويغير الواقع ويبدل ويزيد وينقص بحكم هذه الحرية الفنية .

وهكذا كانت قصة موسى فى سورة الكهف ليس لها أصل تاريخى ولا أسطورى ، وقصة إيليس مع آدم من الخلق الفنى الذى لم ينتشبت فيه القرآن بالواقع .

وهكذا جرى كاتبنا خلف الله خلف قساوسة المستشرقين مثل ردويل ، ومرجليوث ،

ولم يدرك ما هنالك من تناقض بين نسبة القرآن إلى الحق فكان الحكم على قصص القرآن بأن أكثره غير صحيح .

وكانت دعواه الباطلة الادعاء بأن الرمخشري ، والفخر الرازي ، ومحمد عبده قالوا بما يؤيد هذا الهراء .

وقال الدكتور عبد الرازق السنهوري : إن كاتب هذه الرسالة افترى على العلماء وأنه جاهل لا يفهم النصوص .

ويربط بعض الباحثين بين رسالة طه حسين ( فى الشعر الجاهلى ) وبين رسالة خلف الله ( القصص الفنى فى القرآن ) .

فقد قال طه حسين : إن التوراة والقرآن قد تحدثا عن شخص إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ولكن لا يوجد دليل كاف لإثبات وجودهما التاريخي وإن خلف الله نفى الصديق التاريخي عن القرآن وادعى إمكانية تطبيق معايير النقد الأدبي الحديث للقصص الفنى الأدبي على القصص القرآنى .

وإن خلف الله يناقض نفسه ويناقض المنهج العلمى عندما يعترف بأن القرآن الكريم كتاب الله ( تبارك وتعالى ) ثم يحاول فى الوقت نفسه تطبيق معايير النقد الأدبي ( وهى من وضع البشر ) على القصص القرآنى المنزل من الحق تبارك وتعالى .

وقال عبد الجواد محمد عبد الحميد : إن مفهوم القصة فى القرآن الكريم يخالف مفهوم القصة فى النقد الأدبي الحديث وإنه يجب الالتزام بالألفاظ والنعوت التى خلعتها القرآن الكريم على قصصه وإلى حتمية اليقين التام بأن القصص الفنى شئء والقصص القرآنى شئء آخر يختلف عنه مفهوماً وأسلوباً وغايةً .

وإن القصص القرآنى قصص ديني وأدبي وتاريخي معاً وإن القصص القرآنى يعتبر وثيقة تاريخية هى أوثق ما يكون بين يدي التاريخ من وثائق .

ويكفى فى هذا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ [ سورة الكهف : الآية ١٣ ] تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

\* \* \* \*

## القرآن الكريم والنثر الفني

خرج مؤلف كتاب النثر الفني على إجماع العلماء في أمر القرآن ، فعلماء العربية والأئمة المجتهدون مجتمعون طوال تلك القرون على أن القرآن معجز وأول شرائط الإعجاز التنزه عن كل ما يمكن أن يعد عيباً في الكلام وإلا لأمكن لبليغ أن يستدرك على القرآن . وقد عارضه كثير من الباحثين في عصره وكشفوا تبعيته ، يقول أحدهم :

ويرى زكي مبارك أن علماء العربية حين تعرضوا لنقد القرآن لم يذكروا إلا المحاسن ، فنقدتهم من أجل ذلك ليس في رأيه بالنقد الصحيح .

والنقد عنده : أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبي موقف الممتحن للمحاسن والعيوب ، وهذا صحيح ولكنه في نقد كلام الناس لا كلام الله تعالى ، ولو كان القرآن كلام بشر لكان أثراً أدبياً ومجازاً أن يكون بإزاء المحاسن عيوب يبحث عنها النقد ، أما وهو كلام خالق البشر أنزله سبحانه معجزة لرسوله ﷺ وتحدى به كل شك من العرب وغير العرب ، بل تحدى به الجن والإنس على اختلاف العصور ، فكيف يمكن أن يقف الناقد أمامه إلا كما يقف العالم أمام آية من آيات الله في الأرض أو في السماء ؟ حتى إذا درسوا آيات الله في القرآن العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلم يتوقعوا نقصاً ولم يجدوا إلا كمالاً وجلالاً وإعجازاً للمزهم وهمزهم وقال : لم تذكروا إلا المحاسن كأن هناك بجانب المحاسن عيوب كان عليهم أن يذكروها وإلا كانوا غير نقاد .

إن العهد الذي كان ينظر فيه في القرآن نظر تطلب العيوب قد مر بالفعل ، مر إلى غير رجعة ، والذين نظروا في القرآن تلك النظرة التي يدعو إليها الدكتور زكي مبارك كانوا أقدر منه ألف مرة على إدراك عيب واحد لو وجدوه وهم أبصر بنقد الكلام لأنهم كانوا أهل العربية الفصحى وضعوها ودرجوا عليها فكانوا يصدرون عنها عن بصيرة ومنطق .

ولقد عد الدكتور زكي مبارك القرآن أثراً جاهلياً إذ جاء بلغة تصوراته وتعاييره يعطى صورة النثر الجاهلي ، ويقول ذلك في تقصى مقولة للمستشرقين الذين يرون أن العرب لم يكن لهم ذاتية أدبية وإنما أخذوا طرائف النثر الفني من الفرس واليونان .

ويجب الباحث المحاور : هل رأيت الذي يريد أن ينفي عن العرب تهمة أخذ النثر الفني من الفرس واليونان فلا يرى سبيلاً إلى هذا إلا أن يسلبهم القرآن كتاباً من عند الله ليرده أثراً جاهلياً يثبت لهم ذاتية أدبية ، أفترى هذا الرجل يرى القرآن من عند الله أم من عند العرب ، فإذا كان من عند الله ( تبارك وتعالى ) فكيف يمكن أن يثبت به للعرب ذاتية أدبية كالأذى أراد وليس فيه لعربي منهم حرفاً ، وإن كان أثراً جاهلياً يثبت قدم النثر الفني ( أى نثر الرسائل والكتب عند العرب ) فكيف يمكن أن يكون من عند الله تبارك وتعالى . ويقول زكى مبارك : إن القرآن شاهد من شواهد النثر الفني ولو كره المكابرون ، فأين نضعه من عهود النثر فى اللغة العربية ، أنضعه فى العهد الإسلامى ؟ وكيف والإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن حتى يغير أوضاع التعابير والأساليب ؟

ويرد الباحث عليه بقوله : أرأيت استدلال الدكتور على وجوب وضع القرآن فى العهد الجاهلى ، الإسلام لم يكن موجوداً قبل القرآن حتى يمكن أن ينسب القرآن إلى العهد الإسلامى .

وإذن فالقرآن كان موجوداً قبل الإسلام ما دامت نسبة القرآن إلى العهد الإسلامى غير ممكنة ، هذه نتيجة منطق الدكتور .

ويقول زكى مبارك : فى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل إلا بلسان قومه ليبين لهم ، وإلا فكيف يعقل أن يحدث النبى قومه بما تنبؤ عنه أذواقهم وأفهامهم .

ألا تلاحظ أن ذلك القول أقرب ما يكون إلى التصريح بأن القرآن من كلام النبى حدث به قومه وتجنب فيه الإغراب عليهم فى الألفاظ والتعابير ، ولم يخرجهم عما يألفون ويمضى الرجل فى فرضه الذى افترضه من أن القرآن ( أثر جاهلى ) فيزعم للعرب فى الجاهلية ( نهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية ) كان الإسلام تاجاً لها ( النثر الفني ج ١ ص ٤٨ ) .

أى أن الإسلام كان نتيجة وتاماً لتلك النهضة لا سبباً لها .

ويعلل ذلك بقوله : ( لأنه لا يمكن لرجل فرد مثل النبى محمد ﷺ أن ينقل أمة كاملة من العدم إلى الوجود ، كل هذا لا يمكن أن يقوم به دون أن تكون تلك الأمة قد استعدت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى عقولها بحيث يستطيع رجل واحد أن يكون منها .

أمة متحدة وكانت قبائل متفرقة وأن ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها على أجزاء مهمة من آسيا وإفريقيا وأوروبا في زمن وجيز ، ولو كان يكفي أن يكون الإنسان نبياً ليفعل ما فعله النبي محمد لما رأينا أنبياء أخفقوا أو لم يصلوا لأن أهمهم لم تكن صالحة للبعث والنهوض » .

فانظر إلى صاحب هذا الكلام كيف يسوى بين الأنبياء في كل شيء وبين الأديان ، وكيف يرد نهضة العرب بعد الإسلام لا إلى النبوة والرسالة وما أنزل الله ( تبارك وتعالى ) على الرسول ﷺ من دين ، ولكنه إلى علوم وآداب وتجارب كانت عند العرب ، وكل ما فعله النبي ﷺ هو أنه نظمها حتى استطاع أهلها أن يسودوا .

وتاريخ نشأة العلوم والآداب في الأمة العربية بعد الإسلام معروف كما أن مقاومة العرب للنبي ﷺ ودعوته ومحاربتهم له ولها معروفة ، لكن الرجل ينكر التاريخ ويفترض تاريخاً آخر ، ويزعم زعماً لا يجوز ولا يستقيم من منطق أو لفكر إلا إذا كان القرآن كلام النبي ، كلام محمد العربي لا كلام الله .

عندئذ فقط يعقل أن يكون العرب على ما وصف زكي مبارك من نهضة وعلم وأدب لأن القرآن كان أكبر من نهضة وعلم وأدب ولا يعقل إن كان كلام بشر أن يأتي به صاحبه في أمة جاهلة كالتى أجمع على وجودها قبل الإسلام مؤرخو اللغة العربية من شريطين ومستشرقين ومؤرخو الإسلام .

كما أنه يزعم أن نشأة علوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض<sup>(١)</sup> قديمة أى أنها نشأت قبل الإسلام لا بعده وهو في هذا الزعم أيضاً على ما افترض من أن القرآن أثر جاهلى .

ويردد زكي مبارك مرة أخرى من النصوص ما لا يقبل شكاً ولا يحتمل تأويله فى أنه يرى القرآن من كلام العرب متأثراً بما تأثروا به وأن ما امتلأ به فى زعمه من الزخرف والصنعة المحكمة ليس طبيعياً كالذى نراه فى الزهر والشجر ولكنه مكتسب مجلوب من الخارج .

ونسى أنه لم يقل بأن القرآن أثر جاهلى إلا لينفى عن العرب أن يكونوا ( أخذوا طرائق النشر الفنى عن الفرس واليونان ) فهو يسلبهم كل ما أعطاهم حتى يشكك فى عبقرية القرآن ، ولو كان من صنع عربى ووضعه .

( ١ ) العروض : بفتح العين المهملة ، وهى علم بقوانين يعرف بها صحيح وزن الشعر العربى من مكسوره .



كما نرى من قوله ( هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية ) والتقليد هنا ليس هو تقليد عربى لعربى ولكن تقليد عربى لأعجمى كأن الصلوات الخارجية التى يتساءل عنها هى صلوات بين العرب ومن حولهم من الأعاجم ، فتشكيكه فى العبقرية وتجويزه التقليد على القرآن قاطع فى أنه لا يرى القرآن من كلام واهب العبقرية وفاطر الإنسان ولكن من كلام بشر مشكوك حتى فى عبقريته .

ويقول ( يمكن الحكم بأن اللغة الأدبية التى سبقت القرآن لم تكن تخالف كثيراً لغة القرآن ، لأن المنظور الكبير الذى ينقل اللغة من أسلوب إلى أسلوب ومن روح إلى روح لا يتم فى خمسين سنة مثلاً ، وإنما يتطلب مدة طويلة ) .

اقرأ هذا واحكم ، ما رأى صاحبه فى القرآن ؟

أنزله الخالق ( تبارك وتعالى ) معجزة على الدهر أم هو كلام الناس تتطور روحه وأسلوبه كما تتطور الروح والأسلوب فى كلام البشر .

ويقول : والقرآن نشر جاهلى والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية حين يخاطب العقل والوجدان ولا ينكر متعنت أن القرآن وضع للصلوات والدعوات ومواقف العناء والخوف والرجاء سوراً مسجوعة تماثل ما يردده المتدينون من النصارى واليهود والوثنيين والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب فى صيغتها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات .

والفرق بين الملتين يرجع إلى المعانى ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال ، ذلك لأن مهده الديانات الثلاثة :

الإسلام والنصرانية واليهودية ، يرجع إلى مهده واحد هو الجزيرة العربية .

وهكذا صار حرك صاحب النثر الفنى بذات نفسه لا عن القرآن فقط وتقليده حتى الوثنيين فى الصورة والشكل ولكن عن الأديان الثلاثة كيف أنها كلها نبتت فى نفس بيئة الجزيرة العربية .

والرجل بقوله هذا قد وضع بين أيدي الناس المفتاح إلى مذهبه فى القرآن والدين

وليس النص السابق فلتة فانت الرجل ، فقد ذكر رأيه فى الدين وفى القرآن ، إنه يدعو إلى نقد القرآن وإنه ينكر إعجاز القرآن وإنه يكاد يصرح بأن القرآن من كلام البشر » .  
هذه هى خطوط عامة لمعرفة النشر الفنى وقد قادها عديد من علماء الإسلام ، فى مقدمتهم العلامة محمد فريد وجدى والدكتور محمد أحمد الغمراوى ودرينى خشبة .  
اللهم هل بلغت ، اللهم فاشهد .

### المفتريات على القرآن الكريم

ما زال القرآن الكريم هدفاً لكل محاولات التغريب والاستشراق والتبشير والغزو الفكرى طوال القرنين الأخيرين ، بدءاً من رئيس وزراء إنجلترا ( جيلادستون ) الذى وقف فى مجلس العموم البريطانى وهو يحمل المصحف فى يده ويقول : « ما دام هذا الكتاب باقياً فى الأرض فلن يقر لنا وجود فى الشرق بل نخشى من خطر على وجودنا فى بلادنا لذلك لا مناص لنا من أن نزيله من الوجود أو نقطع صلة المسلمين به » .  
ويقول ونستون تشرشل فى كتابه ( حرب النهر ) :  
لقد عرفنا مدى اهتمام المسلمين بكتابهم القرآن على نحو من الضعف صرفهم عنه ، لذلك عملنا على تغيير ذلك باحتضان أمثال غلام الدين القاديانى ودعوته إلى إلغاء الجهاد .

وفى مؤتمر عقد فى الهند ١٩٦٤ تحدث الدكتور هاشم أمير على عن فوائح السور وشكك فى مفهومها وقد ردت عليه الدكتورة بنت الشاطىء وكشفت زيف دعاواه ونشرت الأهرام ١٩٥٠/٢/١٥ تحت عنوان مفتريات على القرآن الكريم أن هناك من يقدم نظرية جديدة حول القرآن قد تسبب عاصفة من النقد فى العالم الإسلامى فقد ادعى أنه حلّ الغموض الذى يكتنف الحروف الهجائية التى تبدأ بها كثير من سور القرآن .  
ويرى أن هناك إضافات من صنع الإنسان أدخلت على الآيات القرآنية وأن القرآن بحالته الراهنة يحتاج إلى إعادة جمع آياته وترتيبها من جديد .

وقد رد عليه الشيخ حسنين مخلوف وكشف زيف دعاواه ، وقال : إن القرآن كله منزل من رب العالمين وإن آيات القرآن وإن كان نزل منجماً آيات آيات ، وسوراً سوراً بحسب

الوقائع والحوادث وعلى مقتضى الحكمة التي أرادها الله تبارك وتعالى وهو الشارع لدينه ، قد نزلت بمكة والمدينة واستمر نزولها على مدى ثلاثة وعشرين سنة إلا أن النبي ﷺ كان يأمر أصحابه حين تنزل الآية ويقرؤها عليهم ويحفظونها عن ظهر قلب أن يضعوها بعد آية كذا من سورة كذا .

ونشرت جريدة المورننج بوست ( مارس ١٩٢٣ ) مقالا نعي فيه على القرآن عدم وجود قاعدة فيه كقاعدة ( أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ) وأن أحكام القرآن بنيت على ما كان وقت نزوله من حالات قومية ساذجة وأن هذه الأحكام لم تتناولها يد التأويل لتلائم بينها وبين مقتضيات الظروف العصرية وأن القرآن يميز في أحكامه بين المسلمين وغيرهم . وقد رد عليه الشيخ عبد العزيز جاديش فقال : يقول عن القرآن ذلك لأن هذا الكتاب الحكيم ليس مما ولدته عقول مرتكبي القسوة في دنشواى ولا هو من نوع قوانين (راولات) في الهند ولا يمت بصلة إلى مذبحة الباغ المشهورة التي ذهب فيها ألفان من الأنفس بين شيوخ وأطفال .

وقال : ألقى نظرة شاملة على القرآن الحكيم ثم قل لى هل تجد فى ظاهره أو فى غرضونه شيئا مما جاء فى قانون ( راولات ) الذى وضعه صفوة المشرعين من الكونيين فى القرن العشرين .

لقد أنزل الله هذا الكتاب هداية للبشر يوم كانوا فى الشرق والغرب عبيداً ودواباً يسخرها القياصرة والأكاسرة لحاجاتهم ويستعملها الكهنة والقساوسة والأمراء والفوارس والنبلاء لأغراضهم ، ولم ينزل بالمسلمين ما نزل بهم إلا بعد ما تناولوا قرآنهم بمختلف التأويل وبعد أن حشوا شرعهم بحشو الأفاويل ، وبعد أن دسوا فيه ما يرضى أغراضهم من الأضاليل . ولو كان الكاتب على علم بالموضوع الذى تصدى لكتابه لعرف ما تكرر فى الكتاب الحكيم من الآيات الخاصة على إقامة موازين العدل وحقق الدماء وتخريم العدوان والبغى . هل يستطيع الكاتب أن يدلنا فى أى قانون من القوانين المدنية ما يضارع ما جاءت به هذه الآية من حرمة النفس البشرية .

﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ [ سورة المائدة : الآية ٣٢ ] .

ولم تتوقف الحملات على القرآن من الغرب بل امتدت إلى روسيا فصدر كتاب

( القرآن عقيدته وتعاليمه ) تأليف محي الدينوف حيث يقود الكتاب حملة ضد القرآن الكريم والإسلام كلها انتقام من هذا الدين حيث يرى أن الدين معوق لحركة التاريخ ، وأن مهمة الشيوعى القضاء على الدين حتى يدفع حركة التاريخ إلى الأمام ، وهكذا منذ قامت الحركة الشيوعية فى روسيا ١٩١٧ والحملة على الإسلام قائمة ومستمرة حيث التقت الشيوعية واليهودية والفاتيكان فى حرب القرآن والإسلام .

### المعركة مع القرآن الكريم مستمرة

لم يتوقف الفكر الغربى بكل مؤسساته ( التبشير والاستشراق ) عن الحملة على القرآن الكريم ، وكان يوحنا الدمشقى الذى عاش فى كنف البلاط الأموى أول من بدأ الحرب الفكرية ضد الإسلام وأثار قضايا التشكيك وادعى أن الرسول ﷺ كان يستعين براهب مسيحى أبى فى نقل ديانته عن المهددين القديم والجديد ، وأن الوحي القرآنى كان يصاغ وفقاً لرغبات الرسول الجنسية ( يشير بذلك إلى زواج الرسول بزینب بنت جحش ) رضى الله عنها ) ، وقد تلفت هذه الآراء المسيحيون من أهل الأندلس وأضافوا إليها ما نشرته الكنيسة وترجموه إلى اللاتينية .

وقد وقف علماء المسلمين موقفاً حاسماً إزاء ما كتبه خصوم الإسلام فكتب أبو الوليد الباجى ٤٧٤ هـ فى الرد على أحد أكاذيب الرهبان الفرنسيسيين وكتب ابن حزم ٤٥٦ هـ ( الفصل فى الملل والنحل ) وتناول فيه هذه الشبهات .

وفى منتصف القرن السادس الهجرى نشر راهب أسبائى رسالة حمل فيها على الإسلام ، وقد رد عليه أحمد بن عبد الصمد الخزرجى ٥٨٣ هـ فى كتابه : ( مقام الصليبان ) .

ثم جاء بعده القرطبى ٦٧١ هـ ، وابن تيمية ٧٢٨ هـ فى موسوعته ( الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ) .

وكان الاستشراق قد ظهر فى أوروبا بعد الحروب الصليبية وقام بتسميم جميع الآداب الغربية بأفكار مضادة للإسلام وكان هذا فى الحقيقة استخداماً للطريقة القديمة التى بدأها يوحنا الدمشقى .

وقد ملؤوا كتب التاريخ والكتب الدينية بالأفكار المضادة للإسلام ، بل وكتب المعاجم والأدب ولم تنج من هذا التيار مسرحيات شكسبير أو أشعار ملتون .

ولم تحقق هذه الحملة أى هدف من أهدافها وتخطى القرآن الكريم مرحلة محاكمته من قبل المستشرقين وإثارة الشبهات والانتهاكات حوله وتقدم إلى مرحلة العطاء لذوى العقول والنوايغ والمفكرين الغربيين الذين وجدوا فيه الطمأنينة النفسية التى كانوا يفتقدونها وتحرروا من ريقه<sup>(١)</sup> التقليد والتبعية للفكر اللاهوتى بعد أن تكشف لهم مجافاته لحقائق الكون وللقطرة وتبين لهم تعارضه مع معطيات العلم الحديث نفسها .

وجاء أمثال بوكاى وألسون ، يقدمون جوانب جديدة مما يذخر به القرآن ويتكشف على مدى الأزمان فقد حصر بوكاى أكثر من مائتى آية قرآنية تتحدث فى المجالات العلمية المختلفة وكيف أنها توافق نظريات العلم العصورى ، كشف عن تناقض الكتاب المقدس مع حقائق العلم وما يحمله من ألفاظ وقصص غير مهيبة مما يستحق اللسان البشرى من ترديدها .

وظهرت مجلة ( استيقظوا ) ومجلة برج المراقبة وكتبت عن ما يسمى ( خمسين ألف خطأ فى الكتاب المقدس ) وطبعت هذه المجلات منذ ثلاثة وعشرين عاماً ، وقال البعض إن معظم هذه الأخطاء قد أزيلت ، وهل يمكن نسبة هذه الأخطاء إلى الله ( تبارك وتعالى ) ؟ وفى السنوات الأخيرة كشفت المؤتمرات الطبية العالمية عن شىء جديد هو الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، سواء فى خلق الإنسان والظلمات الثلاث أو بالنسبة لشفاء القرآن لعلاج الأمراض وفقاً للآية الكريمة : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ [ سورة الإسراء : الآية ٨٢ ] ، وقدمت أكبر عيادة بمدينة بنما فى فلوريدا فى الولايات المتحدة تقريراً تتحدث فيه عن الأثر العلاجى لتلاوة القرآن على المريض وقد أثبتت انخفاض مدى الضغط النفسى بالقرآن ، وقد يحقق هذا الأثر العلاجى من خلال معنى وجرس الكلمات القرآنية وأمكن أن تؤثر على المسلمين وغير المسلمين والناطقين بغير العربية أيضاً .

وكان من أبرز معطيات القرآن أنه نقل البشرية إلى مرحلة جديدة فى الإنسانية وذلك بتحريرها من التجسيم الذى كان ولا يزال مسيطراً على بعض الديانات العالمية ، فقد قدم

( ١ ) ريقه : واحدة الرى ، أى عروة التقليد .

القرآن قدراً كبيراً من المعاني المجردة وقدراً من المعاني المحسوسة ، وأهم ذلك أن المسلمين لا يرون في الإله تبارك وتعالى شخص مجسم وإنما الله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .  
[ سورة الشورى : الآية ١١ ] .

ومن هنا فإن الفنان المسلم لا يرسم المجسمات .  
كذلك فقد تأكد أن القرآن الكريم خالٍ من كل لفظ أعجمي قال الإمام الشافعي :  
إن الله ( تبارك وتعالى ) أقام حجته بأنه كتاب عربي في كل آية ، ثم أكد ذلك بأن نفى عنه - جل ثناؤه - كل لسان غير لسان العرب في آيتين من كتابه فقال تبارك وتعالى :  
﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ [ سورة النحل : الآية ١٠٣ ] .

وقال تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته لأعجمي وعربي ﴾  
[ سورة فصلت : الآية ٤٤ ]

ومن هنا فإن المستشرقين والمبشرين الذين يخوضون في دعاوهم يعجزون عن الوصول إلى شيء ؛ لأنه يستحيل على الأعجمي أن يدرك إعجاز القرآن لأنه لم يتح له من الثقافة اللغوية العربية أي قدر يمكنه من الإحاطة بهذا الإعجاز .

وهم يعلمون ذلك ويعلمون خطر اللغة العربية في هذا المجال ولذلك فهم يحاربونها حرباً لا هوادة فيها ، ويدعون إلى العاميات ومن مقولاتهم ( إذا قطع اللسان العربي انقطعت الصلة بينهم وبين القرآن فأصبح المصحف مجرد أثر مقدس بلغة غير مفهومة ) ، ويتصل بهذا الدعوة إلى تخطيط عمود الشعر وإلى الكتابة العربية بالحروف اللاتينية .

ومن دعاوهم الباطلة ( دعوى المترادفات ) في القرآن وهي دعوى فندها البلغاء في مختلف العصور وكشفوا عن اختلاف الدلالات باختلاف الألفاظ المقول بترادفها ، أنكر المترادف الثعالبي في ( فقه اللغة ) وابن فارس في كتابه ( الصحاح ) وأبو هلال العسكري في كتابه الفروق اللفظية ، وأجمعوا على أن لكل لفظ دلالة محددة لا يمكن معها أن يقوم لفظ آخر مكانه .

\* \* \* \*

## الباب الرابع

### مؤامرة الماركسيّة والعلمانيّة

#### للتحرّص من سُلطة النصّ الدينيّ (القرآن والسنة)

كان للماركسية مخططها في تزييف الإسلام والفكر الإسلامي على نحو عرف خلال السنوات السبعين الماضية ، كما كان للعلمانية والفكر الغربي الليبرالي القائم على الفكر الوثني اليوناني والروماني مخططة في تهديم الإسلام والفكر الإسلامي عن طريق أطروحاته الخاصة ومن خلال رافد ثالث خفي أشد خطورة وهو الفكر اليهودي الصهيوني الذي سيطر على الفكرين الغربي والماركسي جميعاً ، والذي ظهر واضحاً ومؤثراً تحت عناوين :

١ - الدارونية .

٢ - العلوم الاجتماعية والإنسانية .

٣ - الماركسية .

٤ - الوجودية .

وهي أطروحات قد أُعطيَت طابع العلوم وفرضت على مناهج الدرس في المدرسة والجامعة ، وكان مصدرها الأول الرسائل التبشيرية ، وقد اتصل هذا الرافد الثالث بالاستشراق على نحو عمل على تسميم الفكر الإسلامي من خلال إحياء الفكر اليوناني القديم الذي أُدخل إلى الإسلام مفاهيم خطيرة حول خلق القرآن ، ووحدة الوجود ، والحلول ، ودعوات القرامطة ، والبابكية ، والمزدكية ، التصوف الفلسفي ، ومن هنا فقد كانت الخطة الجديدة التي تعاون فيها الماركسيون والعلمانيون قائمة على هدف أساسي هو ضرب حقيقة باهرة هي « إعجاز القرآن » عن طريق استغلال كتابات قديمة إبان المرحلة التي حدث فيها الصراع بين أصول الفكر الإسلامي وبين مقولات الفكر اليوناني المترجمة إلى اللغة العربية وانتقال قضايا الأديان الأولى إلى أفق الإسلام ومن ذلك مقولة خلق القرآن التي جاءت من الفكر اليهودي .

وكانت المحاولة المرسومة هي استغلال نصوص ( التراث الزائف ) الذى شكلته نصوص كتب بعض غلاة الباطنية والمعتزلة والتصوف الفلسفى وهى شبهات أثارها مسلمون وعرب ، ولكنها سقطت جميعها عندما رد عليها وكشف زيفها علماء الإسلام الأصلاء ، أمثال : ( الشافعى ، وابن تيمية ، وابن حنبل ، والغزالي ) .

فلما جاء الخلطاء تركوا الصحيح وأعادوا إثارة المختلط الذى تبين فسادہ وتكشف هدفه ومصدره ، وخاصة الدور الذى قام به ( حنين بن إسحق ) وجماعته فى ترجمة كتب اليونان لخدمة مذهبهم المسيحى أساساً وليس ليكون عملاً مجرداً للعلم .

والمعروف أن كل ما نقل فى هذا الصدد هو من مقولات الجدل والمناظرة بين أعلام الفكر الإسلامى وبين أتباع الفكر اليونانى بما حمل من نظريات يهودية ومسيحية ويونانية وغنوصية .

وكان أبرز مظاهر هذه الحملة طابع التفسير المادى للتاريخ الذى قامت عليه النظرية الماركسية بالإضافة إلى العلمانية وهى طابع الفكر الغربى .

لم تكن خطة المؤامرة جديدة تماماً ، ولكنها كانت حلقة من مخطط قريب منذ ثلاثينيات هذا القرن الميلادى ، بدأه الدكتور طه حسين وأمين الخولى ، وجاء تلاميذهم من بعدهم وفى مقدمتهم خلف الله ، وكان القرآن هو الهدف المتخفى وراء كل الكلمات البراقة : الجديد والنهضة ثم التقدم .

وقد عملت هذه الخطة باسم الإسلام خداعاً وتزييفاً ، فقد كانت تحاول أن تكسب ما لم يكسبه المعسكر التغريبى ( خارج الجامعة ) سلامة موسى ، وتلاميذه فى جمعية الشبان المسيحيين مما عرفوا من أمثال نعمان عاشور وحمروش .

ومن هنا تفرع مخطط القس يوسف الخال المارونى الذى احتضن شاكر السياب وأدونيس وصلاح عبد الصبور ، والذين دافع عنهم لويس عوض دفاعاً شديداً حين أعطى صلاح عبد الصبور إمارة الشعر .

ففى فرع مخطط استغلال التراث فى تدمير القيم الإسلامية كان عمل أمين الخولى وتلاميذه ، وفى مقدمتهم خلف الله وتغريد عنبر وكانت أخطر هذه الشمار سموم نصر أبو زيد .



وهناك أيضا قضية النصوص التاريخية واستغلالها على النحو الذى عمد إليه فرج فودة وحسين أحمد أمين ورفعت السعيد .

وقد اعتمد هؤلاء فى مقولاتهم المضطربة على بعض كتب الباطنية وغلاة الشيعة الذين حاولوا أن يصوروا المجتمع الإسلامى والخلافة الإسلامية بصورة مضطربة ، وكان طه حسين قد قال : إن الشريعة الإسلامية لم تطبق إلا فى عهد أبى بكر وعمر ثم انتهت ، ومن ذلك استغلال بعض المقولات التى جاء بها القرامطة والمزديكية والمناوية بدعى أن عملهم كان يرمى إلى إشاعة روح العدل الاجتماعى .

وقد بلغ طه حسين فى ذلك مبلغا وافرا إذ تحدث فى محاضرة فى كلية التربية أو فى دار العلوم وفى كتاباته فى مجلة الكاتب المصرى عن العدل الاجتماعى عند القرامطة ، وسار على هذا النمط أتباع الماركسية والبعث فى بعض الأفكار العربية لإعداد أطروحات فى هذه السموم الناقعات وما تزال الجامعة مصدرا للفكر الاستشراقى فى مرحلتين : غربية وماركسية ، ولقد سيطر الشيوعيون على قسم التاريخ والأدب وجمعت جريدة الأهرام قادة التبعية للاستشراق الماركسى وعلى رأسهم لطفى الخولى ، ونجيب محفوظ ، وأحمد بهاء ولويس عوض ، وحجازى ، وغالى شكرى .

وإذا أردنا حصر هذه المؤامرة ، استطعنا أن نقول : إن كثيرا من الأفكار المسمومة التى انتشرت فى أفق الفكر الإسلامى مأخوذة من المستشرقين :

١ - نقل عن المستشرقين كثير من ، وفى مقدمتهم ( نصر أبو زيد ) فى كتابه ( مدخل إلى القرآن ) .

٢ - جولد زيهل الذى نقل عنه كل من كتب ضد الشريعة الإسلامية .

٣ - مرجليوث الذى نقل عنه طه حسين ( فكرة الشعر الجاهلى وانتحاله ) وعلى عبد الرازق فكرة ( الخلافة ) التى أوردتها كتابه ( الإسلام ونظام الحكم ) .

٤ - مفاهيم عن المسيحية الغربية عن المسيح عليه السلام ، على نحو ما صورته ابن عربى ونقله تلاميذ ابن عربى اليوم .

٥ - كل مفاهيم خلق القرآن مأخوذة من الفكر اليهودى .

٦ - مفاهيم الفرقة الضالة الباطنية التى حمل لواءها العلمانيون أمثال زكى نجيب

محمود ( خرافة الميتافيزيقا ) ( أى خرافة الغيب ) وجمال صادق العظم ( نقد الفكر الدينى ) .

ويمكننا أن نصور خريطة كاملة للغزوة التى ابتعتها القوى الغربية والماركسية واليهودية للإسلام وللقرآن بالذات على الوجه الآتى فى القضايا التالية :

أولاً : سوء فهم الإسلام كدين وتطبيق مفهوم الدين الغربى عليه ، ومن هنا يأتى الخلاف فى أكثر المسائل وخاصة فى الفصل بين الدين والدولة أو بين الدين والمجتمع التى قام بها الفكر الغربى بعد اختلافه مع الدين المسيحى .

وتقوم على أساس إنكار الغيب والوحى وهدم قداسة القرآن والسنة وإنكار الغيب ووصفه بالخرافة والأسطورة .

ثانياً : السيطرة على التراث القديم ( التراث الزائف ) ومخلفات الفلسفات القديمة التى طرحت من جديد فى أفق الإسلام فى العصر العباسى وتخصيص جماعات مختلفة لها :

١ - أولاً : لهدم النظم الشعرى وإحلال قصيدة النثر على النحو الذى يقوم به أدونيس بعد القس يوسف الخال .

٢ - إحياء فكر الفرق الهدامة وخاصة القرامطة .

٣ - التشكيك فى الوحى القرآنى والسنة النبوية ( عمل نصر أبو زيد ) .

٤ - تزيف القصة والادعاء بأن قصص القرآن خيالى ( خلف الله ) وتغريد عنبر .

٥ - تدمير التاريخ الإسلامى ( فرج فودة - حسين أحمد أمين - رفعت السعيد ) .

٦ - هدم اللغة العربية ومقولة انفجار اللغة ( ابن عربى ) .

٧ - إحياء المعتزلة وخلق القرآن ووحدة الوجود وإحياء ابن عربى والحلاج .

ولقد كانت ( الفلسفة ) هى أخطر هذه المنطلقات جميعاً ، فقد حاول بعض التابعين للفكر الوثنى والإغريقى إيجاد بعض الركائز من علم الأصنام ( الفكر اليونانى ) حتى جاء الإمام الغزالى فكشف عن هذا الخطر وأعلن أن العقل والنقل يجتمعان فى إطار واحد ، وأن العقل يجرى فى ضوء النقل ( القرآن والسنة ) وأن العقل زاده الوحى أساساً وأنه من الخطأ

أن يُعْلَى العقل على الوحي وهى الفكرة التى صحت منطلق الباحثين المسلمين وهدمت المعبد على أصحابه ، والتى ما زالت تجدها صدور حاكمة فى محاولة جديدة للانتفاع بمقولات مسمومة نسبت إلى ابن رشد الذى جاء بعد الغزالي بمائة عام والذى يحاولون استخدامه لتبرير عملية « التأويل » وإعلاء العقل على الوحي .

## بشرية القرآن وإنكار الوحي

تتلخص الحملة الماركسية والعلمانية فى كلمة واحدة هى إنكار الوحي والادعاء أن القرآن من كلام محمد ﷺ .

ولما كانت المقولة الصريحة بهذين الأمرين الباطلين بمثابة جرم شديد الانفجار ، ولما كان خصوم الإسلام يرغبون فى نقل هذه الكذبة الضالة إلى الناس ، ولكنهم يعجزون عن ذلك فإنهم يستعملون أساليب غامضة فى مقدمتها : التأويل واصطناع أساليب الزنادقة القدامى والفلاسفة الماديين ودعاة التصوف الفلسفى فما عليهم إلا أن يعيدوا ترديد ما ورد فى كتب ابن عربى والحلاج ورسائل إخوان الصفا، وما أورده كتابات الباطنية وغلاة الصوفية وإدخال مصطلحات غريبة وماركسية كعبارة ( تاريخية النص القرآنى ) ومعنى التاريخية أى أنها من داخل التاريخ ، أى من صنع البشر .

فهم يضعون القرآن الكريم المنزل من الله تبارك وتعالى على نبيه محمد ﷺ بالوحي فى صف التراث ويجعلونه جزءاً منه ، وإذا كان التراث ( الذى كتبه علماء المسلمين ) يمكن أن يسمى تاريخاً لأنه وقع فعله داخل التاريخ فإن القرآن والسنة وهما من عند الله ومن خارج نطاق الأرض ونطاق التاريخ أيضاً ، لا يمكن أن يسميا هكذا أبداً ، وهو يعرض من يدعى دعواه إلى خطر شديد يتمثل فى إنكار معلوم من الدين بالضرورة ، كذلك فإن وصف القرآن الكريم بعبارة غامضة مثل كلمة ( النص ) فالنص والتاريخية عبارات مضللة مارقة ، دخيلة على الفكر الإسلامى حتى لقد أصبح الإلحاد اليوم اسمه ( تاريخية النص القرآنى ) مع أن القرآن خارج التاريخ فى الحقيقة لأنه جاء من خارج الزمن والمكان أيضاً . ولما كان المصدر الأساسى لهذا الفكر هو كتابات المعتزلة ( دعاة خلق القرآن ) فقد تحدد الموقف منه خاصة إذا استعمل عبارتين مسمومتين ، عبارة المجاز عند المعتزلة والتأويل عند محبى الدين بن عربى .

فهذه فى حقيقة الأمر كلمات غامضة نقلت نقلاً من التراث الوثنى والإلحادى والباطنى القديم ولم يتحرر منها إلا الذين التمسوا الحق عند الغزالى ، وابن تيمية والشافعى ، وابن حنبل ، وخرجوا من دائرة المؤامرة التى رتبها عملية ترجمة الفكر اليونانى والفارسى فى القرن الثالث الهجرى بقيادة حنين بن إسحق وأولاده ، وما ثبت فى حقيقة أهداف ابن سينا والفارابى من ولاء للباطنية والقرامطة .

فنحن الآن أمام مؤامرة كاملة تمتد آفاقها إلى كل جوانب الفكر الإسلامى ، وتشمل كل الجوانب سواء أكانت إحياء التراث الزائف ومفاهيم وحدة الوجود والحلاج وابن عربى ، أو هدم اللغة العربية أو تدمير التاريخ الإسلامى ، أو تزيف القصة ، أو إحياء فكر الفرق الهدامة وخاصة القرامطة ، أو إنكار الوحى القرآنى والسنة النبوية .

وتجرى المؤامرة الجديدة على نحو أشد خطورة من كل مراحل الغزو الفكرى والتغريب وتزييفات الاستشراق والتبشير حتى يمكن القول بأنها قمة الخطوات التى عملت العلمانية والماركسية معا على حفرها خلال العقود الماضية لتوهين<sup>(١)</sup> العلاقات الثابتة وهدمها عن طريق التأويل للنص الدينى والتحرر من سلطته .

ومصطلح ( النص ) يشمل الكتاب والسنة فى محاولة للقول بأن الجانب الغيبى خرافة وأسطورة ، مع أنه لدى المسلمين أساس راسخ ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين \* الذين يؤمنون بالغيب ﴾ [ سورة البقرة : الآيتان ٢ ، ٣ ] .

ولما كان الهدف أساساً من كل المحاولات فى الدوائر المختلفة هو القرآن فقد تركزت المحاولات حول التشكيك فى رسالة القرآن وأسلوبه ومنهجه وعطائه لبناء الإنسان والمجتمع ، ومن هنا كانت القضية الأولى هى : حقيقة الدين ، وما الخلاف بين الدين فى مفهوم العلمانيين وبين الإسلام ، إلا أن الدين عندهم هو عنصر من عناصر الأخلاق والوعظ والتراثيل ، بينما هو فى الإسلام ( إقامة منهج حياة ونظام مجتمع ) لا يقف عند الإنسان وحده - كما يفعل مصطلح الدين - وإنما يقيم منهجاً كاملاً لبناء الإنسان فرداً وداخلاً للمجتمع ، وهذه هى النقطة الأولى والكبرى : « سوء فهم الإسلام » .

( ١ ) توهين : إضعاف .

وتطبيق مفهوم الدين ( بمفهوم الغرب ) أو ( اللاهوت ) عليه ، ومن هنا يأتي الخلاف فى أكثر المسائل وخاصة :

القاعدة الراسخة للإسلام : وهى الربط بين الدين والدولة ، وبين الدين والمجتمع ، بينما يقف الدين فى مفهوم الغرب عند الفرد وعند الوصايا الأخلاقية .

أما النقطة الثانية : فهى إنكار الوحى والغيب وهدم قداسة القرآن والسنة .

وتأتى مسألة التأويل ، وهى من الخطط المضللة التى أخذها العلمانيون والماديون من محاولات الفلاسفة وعلماء الكلام ( ويركزون على مفهوم ابن رشد ) .

وقد حاول البعض توسيع نطاق قضية ( المجاز ) على النحو الذى دعا إليه المعتزلة ، وكذلك تأويل القرآن على النحو الذى دعا إليه محبى الدين بن عربى .

ويركز دعاة النص إلى الوصول إلى القول بأن القرآن كتاب بشرى وذلك باستغلال بعض مقولات واهنة فى بعض كتب التراث ترمى إلى ( التأويل ) .

وترمى كل هذه المحاولات إلى العبث بالنصوص وتعطيلها ، ويقول بعضهم بما يسمى ( تاريخية النص القرآنى ) وهى فكرة تتعارض فى منطقتها مع مقتضى الإيمان الدينى ، والخطأ هنا هو أن الغرب يرى أن كتابه المقدس جزء من التراث لأنه يعرف أنه من صنع البشر ، ولكن إذا جاء الأمر إلى القرآن فإن الموقف يختلف ، لأن القرآن والسنة من وحى الله تبارك وتعالى ، أما التراث فهو من عمل العلماء والباحثين فالقرآن عند المسلمين ليس جزءاً من التراث التاريخى الذى هو من صنع البشر ، والقرآن إلهى المصدر والمنبع وهو الميراث وليس التراث .

والواقع أن مقولة المضللين بأن الإسلام دين بمعنى اللاهوت ، أو أنه تراث ، هذه المقولة من دعاوى طه حسين وعلى عبد الرازق ، فقد حاول طه حسين فى كتبه الأخيرة أن يدعى أن الشريعة الإسلامية لم تطبق إلا خلال عهد أبى بكر وعمر ( رضى الله عنهما ) ، أما على عبد الرازق فقد ادعى أن الإسلام ليس له نظام حكم وأنه مجموعة من الوصايا كالمسيحية .

وفى كتاب الإسلام وأصول الحكم فصل تحت عنوان : ( الإسلام رسالة لا حكم ودين لا دولة ) .

قال : إن محمداً ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين لا تشوبها نزعة ملك ولا حكومة وأنه ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذى يفهم سياسياً من هذه الكلمة ومفرداتها .

فهو ما كان إلا رسولا كإخوانه السابقين من الرسل وما كان ملكاً ولا مؤسس دولة ولا داعياً إلى ملك ، وأن ظواهر القرآن المجيد تؤيد القول بأن النبي ﷺ لم يكن له شأن فى الملك السياسى ، وآياته متضافرة<sup>(١)</sup> على أن عمله السماوى لم يتجاوز حدود البلاغ المجرد من كل معانى السلطان : ولاية الرسول على قومه ولاية روحية ، لا ولاية الحاكم ولا ولاية مادية ، تلك ولاية هداية إلى الله وإرشاد إليه وهذه ولاية تبرير لمصالح الحياة وعمارة الأرض وتلك للدين وهذه للدنيا وتلك زعامة دينية ، وهذه رعاية سياسية ، وبما بعد ما بين السياسة والدين !! ( الإسلام وأصول الحكم ص ٤٨ ) طبعة ١٩٢٥

وهكذا تتركز القضية الكبرى فى الخلاف بين العلمانيين والإسلاميين حول مفهوم كلمتى دين وإسلام .

ولقد كان الاستشراق والشيوعية والفلسفة المادية كلهم جميعاً حريصين على وصف الإسلام بالدين اللاهوتى فضلاً للدين عن السياسة ، كما فعل الغرب بالمسيحية بعد صراع علمائه مع كنيستهم .

ومن هنا فإن الخطأ الأول هو الإصرار على وصف الإسلام بأنه دين عبادة بمفهوم اللاهوت فى الغرب على النحو الذى عرفتة المسيحية الغربية أو وصلت إليه بعد الصراع الطويل بين الكنيسة والملوك أو بين الكنيسة والعلماء ، حيث فصل ما بين السلطة الدينية والسلطة السياسية ، وحيث قصرت الكنيسة على السلطة الدينية وتركت لرجال السياسة أمر السلطة السياسية ، ومع الأسف فإن كل مفكرينا المعاصرين وكتابنا من العلمانيين والماركسيين الذين تكونت ثقافتهم فى ظل التصور الانشطارى للفكر الغربى على هذا الفهم الخاطيء ، ومن هنا كان إصرارهم على تصور الإسلام على هذا النحو .

والحقيقة أنهم يعلمون أن الإسلام دين ومنهج حياة ، وأنه نظام جامع ، ولكنهم

( ١ ) متضافرة : يؤيد بعضها بعضاً .

يريدون أن يقدموا تصوراً لاهوتياً قاصراً ، وذلك حتى يعطوا أنفسهم الفرصة للقول بأن نظام المجتمع يمكن أن يكون ليبرالياً أو ماركسياً أو علمانياً .

أما مفهوم أن الدين ( أى الإسلام ) مكانه القلب والوجدان وأنه قائم على الترانيل ، والأدعية وطلب الآخرة وأنه لا صلة له بالحكم والنظام السياسى والاجتماعى وتشريعات الاقتصاد والمال وغيرها ، هذا مفهوم وافد مضلل ، ولقد جاء الإسلام ليصحح هذا المفهوم ، ويقدم حقيقة الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع ، والإسلام لا يجمع القلب والعقل فحسب ولكنه يجمع بين الروح والمادة والدنيا والآخرة .

### نظرية ( تاريخية النص ) :

هذه النظرية باطلة أساساً لأنها تحاول أن تصور القرآن وكأنه من عمل البشر فيتدخل فى التاريخ الإنسانى بينما هو وحى منزل من السماء ومن خارج الزمان .

يقول المستشار طارق البشرى : إن القرآن نص تاريخى أت من خارج الزمان ، ومعنى ذلك أن الإسلام يقصد به من الناحية الأصولية : الأحكام المنزلة من الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد بن عبد الله ﷺ ، والتي وردت فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وهذه الأحكام ذات وضع إلهى لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل ، وهى مُجْمَلَةٌ<sup>(١)</sup> لما يتضمنه الإسلام من أصول حاكمة للعقيدة الإسلامية وللعبادات ومعاملات البشر وللقِيم ومعايير الشرعية والاحتكام .

وهذه الأحكام مُنَزَّلَةٌ ومُفَادٌ أنها منزلة ، أنها وردت على البشر ومجتمعاتهم من خارج التاريخ ونصوصها ليست تاريخية ، ويمكن القول بأن القرآن تنزيل ربانى خالص أت من خارج الزمان ، هذا وبالله التوفيق .

\* \* \* \*

---

( ١ ) مجملة : اسم فاعل من أجمل ، أى ملخصة .

## أخطاء نصر أبو زيد

### التحرر من سلطة النص الدينى

### وتجاوز الوحي فى التشريع

#### نظرة عامة :

رفض إذعان الإنسان لله تبارك وتعالى حيث ينظر لعلاقة الله بالإنسان وبالعالم من منظور علاقة السيد بالعبد الذى لا يتوقع منه سوى الإذعان .

أولاً : التحرر من سلطة النصوص ، بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان فى عالمنا ، وأول هذه النصوص التى تؤكد ضرورة التحرر منها هى القرآن والسنة ونقول : ماذا يريد للأمة بعد أن تلقى بالقرآن والسنة جانباً .

ثانياً : التهجم على الغيب وجعل النقل الغيبى غارقاً فى الخرافة والأسطورة مع أن الغيب أساس الإيمان .

ثالثاً : خطأ الفهم فى القول بأن العلمانية ليست فى جوهرها سوى التأويل الحقيقى والفهم العلمى للدين .

رابعاً : نقد الخطاب الدينى ، لأنه يخلط بين فصل الدولة عن الكنيسة ، أى فصل السلطة السياسية عن الدين وبين فصل الدين عن المجتمع والحياة .

خامساً : الانتصار لرواية سلمان رشدى ، ( وما حفلت به من متن لا أدبى وعفونة خرجت من أحشاء كافر مرتد ) .

سادساً : ينبغى على الخطاب الدينى أن يرد كل شىء فى العالم إلى علة أولى هو الله تبارك وتعالى ، ويرى أن ذلك إحلال لله فى الواقع ونفى للإنسان ، ويميل إلى مقولة الفكر اليونانى بأن الله ( تبارك وتعالى ) خلق العالم ثم تركه يدور قال تعالى : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ [ سورة المؤمنون : الآية ١٧ ] .

سابعاً : تبرئة الماركسية من الإلحاد والمادية .



**ثامنا :** النقل من مقولات المستشرقين وخاصة فى اتهام ( سيدنا عثمان ) بأنه كان يعمل لحساب قريش حين قضى على تعدد النص ( منقولة من كتاب بلاشير : مدخل إلى القرآن ) .

**تاسعا :** يعنى بكلمة النص : ما يتصل بالقرآن والسنة يريد بها نفى العلاقة بين العقل والنص القرآنى بخاصة مع أن النصوص الصحيحة لا تتصادم مع العقل بحال .

**عاشرا :** اتهام القرآن بأنه لم ينج من آثار عمليات الحو والإثبات ( ويبنى ذلك على ادعاء بعض فرق الباطنية وغلاة الشيعة بأن القرآن محيت منه عمداً النصوص الدالة على إمامة على ( رضى الله عنه ) ) .

وهذا القول لم يقل به إلا الشيعة الغلاة ، أما الإمامية فإن موقفهم هو موقف أهل السنة تماماً من تبرئة القرآن عن الحو والإثبات .

**حادى عشر :** ادعاؤه أن القرآن منذ نزل على محمد ﷺ أصبح وجوداً بشرياً منفصلاً عن الوجود الإلهى ، فإعجاز القرآن فى نظره بهذا الشكل أسطورة وكونه كلام الله أسطورة وانتماؤه إلى المصدر الغيبى أسطورة .

**ثانى عشر :** تهجمه على الصديق أبى بكر وذى النورين عثمان والإمام الشافعى واضع علم أصول الفقه .

**ثالث عشر :** فساد مقولته فى أن للأدباء والفنانين حق السخرية والاستهزاء بالأنبياء والملائكة وبالله تبارك وتعالى ، لأنهم يصبون أفكارهم الإلحادية فى روايات ومسرحيات وأفلام ورسوم متحركة أو ملصقة على الجدران .

**رابع عشر :** فساد مقولته فى أن الدين ليس بمرجعية شاملة وأن العلمانية حركة فكرية متطورة .

ويقرر الدكتور شكرى عياد أن ( نصر أبو زيد ) اعتمد على منهج يسمى التفسير الأدبى : هذا المنهج الذى يرتبط باسم أمين الخولى وقد شرحه فى رسالة ( مناهج تجديد ) .

وقد اعتمد - كما يقول شكرى عياد - ( الهلال فبراير ١٩٩١ ) على مبادئ أرساها الشيخ محمد عبده ويمكن إرجاعها إلى أساس واحد هو النظر إلى القرآن الكريم على أنه - كما وصف نفسه - كتاب عربى مبين أنزل إلى العرب وإلى الناس كافة ليديروا آياته ، ومن ثم يجب أن تفهمه كما تفهم أى نص أدبى آخر وتدرس ما أحاط به من ملابسات .

ومن رأى أمين الخولى الذى اعتمد عليه خلف الله فى كتاب ( الفن القصصى فى القرآن ) وما كتبه فى ضوءه السيدة تغريد عنبر فى رسالتها فى جامعة الإسكندرية والتي رفضها مجلس الجامعة وطبعها الاستشراق فى إيطاليا .  
وجاء خلف الله فى الأخير فقال : إن القرآن كتاب منزل للعرب وحدهم وليس للمسلمين .

ونصر حامد أبو زيد ينتمى إلى جيل ثالث بعد أمين الخولى ولكنه تلميذ بالواسطة لأمين الخولى .

وهو لم يستطع وهو يكتب عن موقف معين فى نقطة معينة من الزمان والمكان ، لم يستطع أن يتخلص من انحيازه إلى فكر المعتزلة بالذات ، وقد دفعه ذلك إلى تشديد النكير على الأشاعرة وعلى المتصوفة متمثلين فى الإمام الغزالي .

وهذه هى النقطة التى أعجبت غالى شكرى فأشاد بالكتاب أنه نسب التخلف فى المجتمعات الإسلامية إلى الأشعرية والتصوف ، وادعى أن المذهبين أخفيا الصراعات داخل المجتمعات الإسلامية .

والمستشرقون وأتباعهم يتلقون كل هذه الملاحظات ويشيدون بأصحابها ويرون أنها خطوة إلى الأمام .

إن خلف الله قد جمع خيوطاً مغلوطة فى سبيل الوصول إلى غاية مسمومة .

وإن هؤلاء يريدون أن يحققوا ما قام به أدياء أوربا للتوراة ، وقد أعلن ذلك طه حسين منذ وقت بعيد ودفع أمين الخولى إلى هذا الطريق ، وقد أشار أحد الباحثين إلى أن مقولة نصر عن النص القرآنى وتفسيراته وهى صورة لمقولة ماركس عن المذاهب والفلسفات أنها أيديولوجيات تعكس فكراً زائفاً تبريراً من الطبقة البرجوازية فى تعبيرها عن الأوضاع الاجتماعية .

وقد وصف الدكتور مصطفى الشكعة كتابات نصر حامد أبو زيد بأن الصفحة الواحدة كثيراً ما تحوى عدداً من التجاوزات التى لا تسمى أخطاء من باب التسامح ، وإنما هى فى حقيقتها انحراف عن الجادة ، وزيف فى سلامة العقيدة ومجمل هذه الانحرافات فى الكلام عن القرآن ( النص ) الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن التجاوزات ما يتصل بالعقيدة نفسها وبالإسلام نفسه .

تجاوزات في الحديث عن الصحابة مع طعن في التابعين ، بل لا يكاد يذكر أهل السنة إلا بسوء ، وذلك في عديد من المواضع ، فهو أولاً يصف أحكام الإسلام وعلوم القرآن بأنها تراث ، ويتبين من كلام الباحثين أن المقصود بالتراث الرجعي الذي حفظوه هو علوم القرآن ، ومن هنا جاءت الحملة الشديدة على التراث والشرعية « ماركسية الفكر والمنهج » ويتجلى الفكر الماركسي في أكثر صفحات الكتاب ، وإن منهج الباحث في عرض أفكاره وفي إصدار أحكامه نابع من ( فكر ماركسي ) ملك على الباحث كل جوارحه وطريقة تناوله لقضاياها ، وأبرز مظاهر ذلك تخطئته للغزالي حين يعرض له نصاً مقتطفاً من ( إحياء علوم الدين ) .

ومن أكبر أخطائه محاولة إخضاع أسلوب القرآن لمعايير نقدية أوروبية علمانية معاصرة ، والقرآن الكريم طبقاً لما هو معلوم منزه عن أن يخضع لمعايير نقدية جاءت بها براباراجونسون أو بينتر تسالرت ، بينما نجد أن المسلمين جعلوا القرآن معلماً لهم في معايير البلاغة والأسلوب كما هو معلم لهم في شئون الدنيا والآخرة .

ولا ريب أن إصرار الباحث على ( بشرية القرآن ) يمثل إقراراً غير محمود ، وأن تجريد طبيعة ( النص ) بأنه منتج ثقافي هو إبعاد له عن طبيعة ( الإلهي ) وتنحيته عن صفته القدسية ، وطعن في صدق منزلته واستهتار بقيمته .

وهو في كل عباراته يحاول الوصول بأسلوب ملتو مضلل إلى كلمة غامضة يحتسى فيها : هي أن القرآن من عند محمد ﷺ وهو لا يرى أن الله ( تبارك وتعالى ) هو الذي سمى القرآن قرآناً مع وفرة الآيات وكثرتها .

ومن خطئه مقولة أن القرآن هو الذي اختار لنفسه اسم القرآن ، بل البديهي أن الله تبارك وتعالى هو الذي نزل القرآن وهو الذي أطلق عليه هذه التسمية .

فالباحث يهز قدسية القرآن ويجرده من طبيعته السماوية وينزل به إلى بيئة أرضية . وهو يلج على تجريد القرآن من قدسيته وصرف المسلمين عنه حين يرى أن دراسته في الجانب الأدبي دون غيره هي الكفيلة بتحقيق هدفه وعلى أن تجاوز به موقف التوجيه . وهو يصغر شأن القرآن ويفرغه من محتواه الأسمى ككتاب للعقيدة الإسلامية حدد وجودها وحكم محتواها .

أما اتهام القرآن بالبشرية وقوله : ( أنه تشكل في عشرين عاما ) ففيه إنكار سابقة وجوده في اللوح المحفوظ وهي الحقيقة التي يقرها القرآن الكريم ، ومقولة : أن القرآن ينتمي إلى ثقافة البشر تعنى أنه ليس إلهي المصدر .

هذا فضلاً عن أخطائه المختلفة في التاريخ وفي مفهوم الوحي وفي تفسيره لبعض آيات القرآن ، هذا فضلاً عن معارضته تطبيق الشريعة الإسلامية .

وبالجملة فإن الفكر الماركسي يستولى على منهجه بشدة وإلحاح بتصرف ، أهـ .

وواضح تماماً حقيقة الدور الذي قامت به الماركسية في العبث بالتراث الإسلامي وإحياء التراث الزائف مما كتبه الباطنية والفلاسفة والذي يتمثل في فكر القرامطة ومزدك وماني وكتب الباطنية وفي مقدمتها ابن عربي والحلاج ورسائل إخوان الصفا وقضايا خلق القرآن ووحدانية الوجود والحلول ( التصوف الفلسفي ) .

وذلك في محاولة لتشويه المفهوم الصحيح الذي دافع عنه الإمام الغزالي في الجمع بين العقل والنقل على أساس أن النقل مقدم على العقل ، وأن العقل يخطئ ويصيب وأن المعرفة العقلية شرط لفهم الشرع ، وأن العقل جهاز ضوء الوحي .

ولقد تبين أن الكتب التي اعتمد عليها حتى ما كان للمعتزلة القائلين بخلق القرآن لا توافقه على حرف واحد مما قال من إنكار نسبة القرآن الكريم إلى الله تبارك وتعالى وإنكار إعجاز القرآن لأنه لغة محمد ﷺ وخلاصة مفاهيم ( نصر أبو زيد ) في كتبه الثلاثة ( مفهوم النص ، الخطاب الديني المعاصر ، الإمام الشافعي ) .

١ - إنكار نسبة القرآن الكريم إلى الله تبارك وتعالى .

٢ - إنكار رسالة محمد ﷺ الذي جاء هذا القرآن ليرسم منهج رسالته .

٣ - إنكار إعجاز القرآن الكريم لأنه لغة محمد ﷺ ، وما محمد إلا رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب .

وفي المنهج يلجأ إلى نصوص مشكوك في صحتها أو مشكوك في نسبتها أو هي إفرازات الشعوب التي تجمع بين الميتافيزيقا والميثولوجيا وبين الغيبيات والتفسيرات الخرافية . والتركيز على أن مقولة المعتزلة في أن العجز البشري عن الإتيان بمثل هذا القرآن ،

يرجع إلى ما يسمى مذهب الصرفة ( قدرة الله تبارك وتعالى في منع الإنسان من الإتيان بمثله ) وهي مقولة زائفة وباطلة من مقولات غلاة المعتزلة .

وهكذا نستطيع أن نقول بكل الوضوح أن الفكر الماركسي قد أدخل على الفكر الإسلامي مقولات جديدة لتزييف المفهوم الأصلي للإسلام بدأت بمقولة ( طه حسين ) أنه يكتب ( ميثولوجيا إسلامية ) أى أنه يكتب أساطير الإسلام ، وقد استمد هذا الاتجاه من كتاب لفرنسى ماركسى عن ( أساطير المسيحية ) أو غير ذلك وهذا الاتجاه الماركسي يختلف عن الاتجاه الغربى في مفاهيم أهمها : « التفسير المادى للتاريخ » ، ولكنها تجتمع مع الفكر الغربى ( المسيحي اليهودى المستمد من الفكر اليونانى ) في قضية العلمانية ، وهو ما حدث تماماً من قبل من المتصدين للفكر الغربى وقد حاولت كل السموم المطروحة أن تدور حول التشكك في ( إلهية ) النص القرآنى .

والمعروف أن كل هذه الأطروحات جاءت من مصدر واحد هو « التبعية » للفكر غير المسلم وهي قائمة على المفهوم المادى الخالص الذى يتنكر للألوهية والنبوة والبعث والغيب .

ولقد سبقت هذه المحاولة في التشكك في النص القرآنى محاولات عديدة ، منها ما ورد مغلفاً في كتاب الشعر الجاهلى وما ورد في كتاب النثر الفنى ، وما ورد على نحو أوضح في كتاب القصص القرآنى للدكتور خلف الله .

هذا بالإضافة إلى ما يتردد في كتابات الكثير من العلمانيين واليساريين في العصر الحاضر : أحمد منصور ، حسن حنفى ، عابد الجابرى ، جابر عصفور ، غالى شكرى ، عبد المعطى حجازى ، ودائماً نجد وراء هؤلاء قوى تساندتهم وتقدم لهم الجوائز الكبرى . القضية الواحدة التى تخذع الناس ما يسمونه تحرير العقل ، وإطلاقه لكي يتحرك بحرية كاملة وأن أى قيد على حرية العقل يهدد عملية الاكتساب ويعيق طرح أى جديد لمعرفة قوانين الطبيعة والمجتمع .

والواقع أن الإسلام بشموله ومرونته وتوازنه الربانى الذى تعجز عنه الأيدلوجيات البشرية قادر على الجمع بين العنصرين والذين يظن الفكر الغربى المادى أنه لا سبيل إلى الجمع بينهما ، فالحرية في مفهوم الإسلام أساس طبيعى ثابت ، ولكنها حرية منضبطة ، والعقل موجود في الإسلام ، ولكن بمفهوم يختلف عن مقولة العقلانيين الماديين ومفتاح هذا هو

التكامل الذى جمع بين المادة والروح والعقل والقلب والدنيا والآخرة ، والفرد والمجتمع . والإذعان لله تبارك وتعالى ليس عبودية بمفهوم البشرية ، ولقد أعطى الله تبارك وتعالى الإنسان تلك الإرادة الحرة الفردية التى يستطيع بها أن يقبل ويرفض تحت مسؤوليته الخاصة . فالمسئولية الفردية موجودة وجوداً حقيقياً ليس فيه عبودية ولا إذعان أو ظلم أو سيطرة وإنما هى من منطلق الإيمان بالله تبارك وتعالى ومعرفة مهمة الإنسان ومسئوليته وحدود حركته وضوابطها ، بحيث لا يقع فى دائرة المحرم والمحظور ويجعل أمره كله وحركته كلها وسعيه فى الحياة داخل دائرة الإيمان بالله .

وقد جعل الإسلام حركة الإنسان حرة طليقة لا تقيدها إلا الضوابط التى تحمى الإنسان نفسه من الانهيار والتمزق النفسى ، فالذين يتحدثون عن تحرير العقل وإطلاقه لا يعلمون مدى المخاطر التى يحاولون خوضها ولا الآثار التى تترتب على كيانهم الخاص منها ، وأن ضوابط الإسلام سواء على العقل أو الجسم أو الحياة لا تعيق حركة الإنسان للمعرفة وللعمل وللنفس ولكن تحميها وتحفظها من الانهيارات التى عرفتها الحضارة الغربية نتيجة اندفاعها وراء الأهواء والمطامع والشهوات التى جاءت بآثار ضارة من التحلل الخلقي والفساد الاجتماعى .

أما الحديث عن الاجتهاد المقبول فى النص الدينى والمشروع ، هو كما يقول فهمى هويدى الذى ينطلق من الالتزام به ويعمد إلى وضعه فى إطاره الصحيح ليستخلص منه أقصى طاقة ممكنة تسهم فى إنقاذ<sup>(١)</sup> المجتمع وتقدمه وصالح أمر الخلق فى الدنيا والآخرة وكل اجتهاد معاكس يستهدف ضرب النصوص الشرعية وتقويض بنيانها لا يدخل يقيناً فى حرية البحث وإنما يقع فى المحظور الذى يتعين على المجتمع أن يمنعه ويحرمه ، خصوصاً إذا كان الدستور ينص على أن : الإسلام هو دين الدولة وأن الشريعة هى المصدر الأساسى لقوانينها .

ومن الملاحظ أنه لا يتوقف أمر هذه المخططات عند كاتب واحد ولكنها تكاد تكون عقيدة الماركسيين والعلمانيين وكتاب اليسار جميعاً فهم يدافعون عن أحد القائلين على أساس أنه يمثلهم جميعاً .

فتكاد تتشابه كتابات الجميع ( جابر عصفور ، حسين أحمد أمين ، فرج فوده ،

( ١ ) إنهاء : رفع مستواه .

العشماوى ، محمود أمين العالم ) فى الدعوة إلى طرح الثوابت والقيم وخاصة المسلمات الدينية والأخلاق ومهاجمتها والدعوة إلى التخلص منها ، وإثارة الشبهات حولها . وأخطر دعواهم : إنكار الألوهية والنبوة والبعث والجزاء والبعد الربانى للمجتمع والبعد الأخلاقى للحضارة .

فالمفهوم الإسلامى يقرر قاعدة الثوابت والمتغيرات ويتحرك فى إطار الإيمان بالله تبارك وتعالى والنبوة والغيب ويقرر منهج المعرفة الجامع بين الوحي والعقل والعلم وقيام قاعدة ثوابت الأخلاق قاسماً مشتركاً على المعاملات والعلاقات بين عناصر المجتمع ( الرجل والمرأة ) .

\* \* \* \*





## الباب الخامس

### أخطاء المطابع الأربعة

العلمانية - التنوير - الحديثة - الإلحاد

### مدخل إلى البحث

طرحنا الفلسفات المادية في أفق الفكر الإسلامي مصطلحات غريبة مستمدة من معطيات الفكر الغربي في عناصره المختلفة وتحولاته مع العصور والبيئات في محاولة لفرضها على الإسلام وهي في حقيقتها قد وضعت لأوضاع خاصة لم يعرف الإسلام شيئاً عنها ويتمثل ذلك في نتائج التحول الذي أصاب الفكر الغربي بعد أن تحرر من الطابع المسيحي الكنسي على أثر الصراع الذي احتدم مع مفاهيم العلم المادي والعقل الذي أقام ذلك الحاجز العريض بين معطيات الدين للإنسان الفرد وبين معاملات المجتمع ومعطياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهو ما أطلق عليه مصطلح ( العلمانية ) استمداداً من العالم لا من العلم ، وما أطلق عليه ( التنوير ) باعتبار أن الخروج إلى الفكر العلمي المادي هو خروج من ظلمات الفكر الديني الكنسي ، حيث بلغ هذا المصطلح غايته في الادعاء بأنه ( لا سلطان على العقل إلا العقل وأنه لا سلطان للدين ) ويتصل بهذا إزاحة القداسة على كل النصوص وإعلان نظرية الشك الفلسفي وتحكيم العقل في كل المقررات التي تتصل بالغييب أو المعجزة وفرض مفهوم الحس المادي عليها .

وبالجملة الوصول إلى تقديس العقل تقديساً مطلقاً وحجب الجانب الروحي والمعنوي والديني حجاً تاماً عن الفكر الحديث وتغليب ظاهرة ( الفلسفة المادية ) .

#### الدارونية والشك الفلسفي :

أولاً : ولقد وصل هذا التيار إلى أفق الفكر الإسلامي في محاولة لفرضه عليه عن طريق عديد من الأطروحات في مقدمتها :

« الشك الفلسفى » على النحو الذى دعا إليه طه حسين بالنظر إلى الشعر الجاهلى والتراث الإسلامى وما يسمى (خرافة الميتافيزيقا) للدكتور زكى نجيب محمود (الميتافيزيقا هنا هى عالم ما وراء المادة) .

وقد صحب هذا التيار أو سيقه محاولة فرض ( نظرية دارون ) على المناهج الدراسية فى الوطن الإسلامى والتي تصارعت مع حقائق الإسلام بالنسبة لخلق الكون والإنسان ، وأحدثت اضطراباً شديداً وثنائياً خطيرة بين مفهوم الدين ومفهوم نظريات العلم التى لم تؤكد الحقائق ، وقد عاشت نظرية دارون أكثر من مائة عام وهى تخاصم الفكر الإسلامى وتحدث حرجاً شديداً عندما تكشف أنها لم تكن أكثر من فرضية افترضها دارون بدعواه أن الإنسان والقرود من أصل واحد ، وقد كذبت الحفريات التى ظهرت فى كينيا وتنجانيقا وغيرها من الأقطار عن عظام إنسان مستقيم الظهر كان يمشى واقفاً كما يمشى الإنسان اليوم قبل خمسة آلاف سنة ظهرت هذه الحفريات لتؤكد أن الإنسان منذ خلق فقد خلق قائماً وخلق مستقلاً عن المخلوقات الأخرى ، وبذلك كذبت الوقائع مقولة مضللة عرفت فى إبانها بأنها نظرية غير كاملة حيث أكد دارون أن هناك حلقة ناقصة فى نظريته .

وقد تعاونت هذه الأطروحات المضللة على خلق تصور ناقص مخالف لمعطيات الدين الحق فى أفق الفكر الغربى الذى كان يعتمد على مفهوم المسيحية المنزلة والمتغيرة والتي لم تكن إلا بمثابة وصايا لتهذيب حياة الفرد ، فهى دعوة فردية منفصلة عن المجتمع ، وهى فى نفس الوقت تمثل عطاء المسيحية التى كانت حلقة من حلقات رسالة موسى عليه السلام ولم تكن ديناً مستقلاً ، إنما جاءت لإصلاح المجتمع اليهودى فى عصر نزولها ثم تحولت على أيدى ( بولس ) إلى دين مستقل منفصل عن اليهودية وكان انتقالها لأوروبا وللدولة الرومانية بالذات بعيد الأثر فى التغيرات التى أصابته بتحويله إلى التثليث والصلب وظهور نظرية المسيح ابن الله التى كانت قد دخلت عليها من الفكر الفرعونى الوثنى القديم حيث يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَصْهَنُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ [ سورة التوبة : الآية ٣٠ ] . ويؤكد كثير من المؤرخين والباحثين أن النصارى أخذوا التثليث من نظرية الفراعنة ( إيزيس - أوزيريس - حورس ) .

ولقد كانت نظرية الشك الفلسفى التى طرحها الدكتور طه حسين وعمل بها خلال حياته الفكرية كلها من أخطر المحاولات التى كان لها أثرها البعيد فى الأخطار التى أصابت

مجريات الفكر الإسلامى ولقد اتصلت نظرية الشك عنده بكافة ما اتصل به من شئون الفكر وخاصة ما يتعلق بالقرآن واللغة العربية والتاريخ ، ويثير فى نفس القارئ الشك فى أن القرآن من عند الله تبارك وتعالى ، وخاصة نظرية ( نقد الكتب المقدسة ) التى نقلها من الفكر الغربى وطبقها على كتاب هامش السيرة فى محاولته لخلق ما أسموه ( ميثولوجيا إسلامية ) وذلك بجمع وتزوير كل الأساطير التى أثبتت حول سيرة الرسول ﷺ وإعادة كتابتها من جديد على نحو الترائيل .

وقد تأكد أن كتاب ( الشيخان ) للكتور طه حسين يعتمد أساساً على الشك والتشكيك فى روايات تاريخية ثابتة من أول صفحة إلى آخر صفحة فيه على نحو ما ذكرت السيدة مایسة عبد الرحمن الأهرام ١٩٩٣/٣/٢٣ - حتى ملأ أنفسهم الغصة الصغيرة فى أعمارهم الحرجة تلك شكاً وحيرة ، يقول : قد يكون عملاً أدبياً ولكنه فى نفس الوقت كارثة محققة أمام عقول ووجدان أبنائنا التلاميذ ، فهذا الفكر يثير الشك فى نفوسهم حول رموز دينية عزيزة لديهم ولدينا مثل السيدة فاطمة ، وخالد بن الوليد ، وأبى بكر الصديق ، والفاروق عمر ، والإمام البخارى الذى يعتبر كتابه أصبح كتاب بعد كتاب الله عز وجل وغيرهم .

ولا شك أن هذا العرض القائم على التشكيك فى تاريخ الإسلام وفى سنة رسول الله ﷺ التى وصلتنا عن طريقهم لابد أن يؤدى إلى التشكيك فى شريعتنا نفسها .

وأخطر ما فى ذلك أن يشكك فى الروايات التى رواها البخارى وغيره ، بقوله : لست أقبل هذه القصة بحال ، إن صح هذا الحديث أو إن صحت هذه الرواية ، والكاتب ( أبى طه حسين ) لا يقابل بين الروايات بأسلوب علمى وإنما هو يرفض روايات أئمة ثقات تحروا الدقة البالغة فى تحقيق رواياتهم مجرد أنه لا يقبلها بعقله .

ويقول دكتور محمد زيتون : إن طه حسين أطلق الشك على كل الروايات مهما بلغت درجة صحتها بقوله ( لست أطمئن إلى أكثر ما يرويه الرواة من نصوص الحوار الذى كان بين أبى بكر وصاحبيه من جهة ، وبين الأنصار أو سهم وخزرجهم من جهة أخرى يوم السقيفة ) .

ومن يرد أن يبحث عن الشبهات والشكوك سيجد لها ، إلا إذا خلصت النوايا ، فالعرب كانوا يشتهرون فى ذلك الوقت بقوة الذاكرة وحفظ الآيات ، وكأنما عوضهم الله تبارك

وتعالى عن الكتابة بالحفظ فقد كانت الواقعة يرويه أكثر من شخص لا يختلف إلا في طريقة التعبير أو اللفظ .

ويزعم الكاتب ( طه حسين ) أن السيدة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ طلبت من سيدنا أبي بكر ( رضى الله عنه ) ميراث أبيها فلم يجبهها إذ سمع النبي ﷺ يقول : ( لا نورث ، ما تركناه صدقة ) فهجرته فاطمة ولم تكلمه حتى ماتت بل يزعم أيضاً أن علياً خاصم أبا بكر فلم يكلمه من أجل ذلك ، أورد طه حسين هذه العبارة دون أن يذكر لنا مصدرها أو روايتها ودون أن يشكك فيها كعادته من التشكيك في كل الروايات المعروفة المصدر والنسب ، بل إن حديث رسول الله ﷺ مبتور فالحديث يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » .

فهل كانت السيدة فاطمة تعلم بحديث لأبيها رسول الله ﷺ ثم تصر على مخالفته وعدم طاعته من أجل المال .

وهل يمكن أن يقاطع عليّ أبا بكر من أجل المال ، وهل مثل فاطمة تبكى على مال وهى تعلم من أبيها عندما أخبرها يوم وفاته أنها أول من يلحق به من أهل بيته . لماذا لم يستعمل طه حسين أسلوبه العقلى ومنهجه التشكيكى فى هذه الرواية المجهولة النسب .

هذه الرواية ملفقة غير صحيحة على الأقل فيما يختص بالجزء الأخير منها .

وقد اختص الدكتور طه حسين ( خالد بن الوليد : سيف الله المسلول ) بالجرعة الكبرى من التشكيك فيه وهو البطل الذى ظلت الكتب والروايات تقص علينا قصص هؤلاء حتى تحول فى أذهان الناس إلى حلم البطولة ، فإذا بالدكتور طه حسين يمزق الصورة إرباً ويحوّله إلى صورة أخرى تهتز بشدة .

فهو يقتل رجلاً مسلماً ( مالك بن نويرة ) من أجل أن يتزوج من امرأته يقول طه حسين : ( قد يكون الرواة قد أسرفوا فى المبالغة ولكن المحقق أن خالداً أَمْعَنُ ) أى بالغ ) فى القتل ، وهذه صورة أخرى من صور العنف فى أخلاق خالد فى سفك الدماء حتى جعل منها نهراً ) .

وكان عمر بن الخطاب يراه قد قتل مالكا بغير حق ويريد عزله ولكن سيدنا أبا بكر

يقيه ، لأنه يبالغ في طاعته ويحقق له الانتصارات ، أى أن أبا بكر يقبل أن يفرض في حدود الله من أجل مصالحه الشخصية .

ماذا يبقى لشبابنا المسكين في هذه السن غير نجوم إستاذ الكرة ، والمعروف أن هذا الكتاب تقرره إسرائيل في مدارسها في الأراضي المحتلة ليشكك أبناءنا في رموزهم الإسلامية فلماذا نقرره نحن على أبنائنا .

ومن ذلك أن طه حسين رفض نصاً صحيحاً أورده الإمام البخارى في صحيحه عن وصية سيدنا أبى بكر لقادة جيشه فيقول : إن أبا بكر أوصى قاداته بأن يمضى كل واحد منهم حتى يصل إلى القبيلة التى وجه لقيادتها ، فإذا بلغها دعاها إلى الإسلام والدخول فيه ، وإن أبت قائلها من غير هوادة ولا رفق حتى تفىء إلى الإسلام ، فإن فاءت فهى آمنة تأخذ حقها وتعطى ما عليها ، ولم يذكر لنا لماذا لا يطمئن إلى هذا النص الذى أورده الرواة الثقة الذين يعرفهم ؟

وفي الوقت الذى يشكك في حديث صحيح رواه الإمام البخارى كان يرفض سلسلة الرواة كلها إذا اشتبه في عدم دقتهم ، وليس كذب أحدهم .

هذا النوع من البحث الذى يعتمد على التشكيك في معظم الأحداث لا يصلح لتلميذ الثانوية العامة ، لأنه في سن لا تسمح باستيعابه خاصة وأنه لم يستند إلى أدلة كافية في تشكيكه أو حتى في تأكيده وهو منهج قريب من المنهج الاستشراقى حيث يطبق مبدأ ( النقد التاريخى ) ، فهو ينظر إلى التاريخ والشخصيات الإسلامية وكذلك القرآن الكريم والسنة والشرعة فينقدها نقداً مجرداً بصرف النظر عن قداستها بما يتعارض مع معتقداتنا .

ويقول الدكتور عبد العزيز غنيم : إن طه حسين ليس مؤرخاً ، وكتابات أقرب إلى الكتابة الأدبية منها إلى التاريخ ، فالأحداث الأدبية خالية من التوثيق والمراجع بعكس الكتابة التاريخية التى تعتمد على الوثائق والنص التاريخى .

إن هذه الكتب التى تتعرض للتاريخ لا يمكن الاطمئنان إلى ما ورد فيها من ترجيحات بين الأحداث وأى كتاب فى التاريخ الإسلامى وأحاديث الرسول ﷺ والصحابة ، وينبغى ألا يدرس للتلاميذ الصغار مطلقاً ، لأنهم فى هذا السن أقرب إلى العواطف من التحكيم العقلى وليس لديهم القدرة العقلية التى تعينهم على التحرى والتمحيص وتوثيق الأحداث .

وإن أى كتاب يشكك فى تاريخ الإسلام أو أحاديث الرسول ﷺ والصحابه ( رضوان الله عليهم ) ينبغي ألا يدرس للتلاميذ الصغار .

ولا شك أن ظروف طه حسين أثرت فى تقييمه للأحداث ، فلقد قضى باكورة شبابه فى فرنسا وتأثر بما كتبه المستشرقون ، والمراجع ليست متوافرة أمامه ، فهو يسمع ما يقرأ عليه لتسجيل ما يعجبه ويترك ما ينكره دون توثيق وقد يكون ما أعجبه لا دليل عليه أو ما أنكره .

ويقرر الدكتور عبد الرحمن طيل : أن هذا الكتاب « الشيخان » من الخطورة بمكان للدراسة فى هذه المرحلة من الشك لأنه يشكك فى مسائل خطيرة وينهج نهج المستشرقين ، فهو يشكك فى الموقف ويتركه بلا توضيح .

وإن كتاب الشيخان به كثير من الترادف والتكرار والتداخل مما يؤدى إلى سرعة النسيان وعدم التركيز أو استيعاب المعلومة ، كما أنه يشكك فى شخصيات إسلامية فى وقت يفتقر فيه إلى المدرس المتمكن الذى يوضح الأحداث بما لا يؤدى إلى زعزعة العقيدة نفسها . وإن هذا اللون من الكتابة يدعم فى نفوس الشباب عنصر الشك فى كل تاريخ الإسلام وخاصة تاريخ أبى بكر وعمر ( رضى الله عنهما ) ، ويضع بين أيديهم صورة مشوهة لرجال الإسلام .

والكتاب ملئ بالأخطاء التاريخية وبالمقاييس الفكرية التى تسيء إلى ثقافة الشباب أكثر مما تحسن ، أهـ .

والواقع أن طه حسين فى سنواته الأخيرة ( أى بعد أكثر من أربعين عاماً من كتاب ( فى الشعر الجاهلى ) يعاود هدفه الأول بأسلوب جديد كما عبر عن ذلك الدكتور محمد حسين هيكلى حيث انتقل من أسلوب النقد إلى أسلوب القصة وفى كل منهما يصطنع أسلوب الشك الفلسفى الذى ينتظم فى كل ما كتبه فى حياته كلها ، وهو العمل الذى فرغ نفسه إليه وحقق فيه مؤامراته الثلاث :

- ١ - الشك الفلسفى .
- ٢ - السخرية والتهكم بكل القيم .
- ٣ - إحياء الفكر اليونانى .

وما كادت الدعوة الإسلامية فى الثلاثينات تتحدث عن الشريعة الإسلامية حتى حشد طه حسين كل جهوده ليذيع أكذوبة مضللة ، هى أن الأمة الإسلامية لم تحكم بكتاب الله إلا فى عهد أبى بكر وعمر ، والسؤال هو : لماذا كتب طه حسين ( على هامش السيرة ) ؟ قالوا : إنه كتب هامش السيرة لأن أخاه كان قد ترك عنده مجموعة من كتب السيرة ، وليس هذا صحيحاً على إطلاقه فقد كان الاتجاه أمراً موجهاً متفقاً عليه مع مخططات الاستشراق وهو تقديم سيرة الرسول ﷺ تدخل فيها أساطير الأولين إلى السيرة بعد أن نقاها منها العلماء على مدى العصور وذلك استجابة لهدف الاستشراق فى إنشاء فكر مثيولوجى ( أساطيرى ) فى الأدب العربى ولم يكن هامش السيرة كما يظن البعض عودة من طه حسين إلى الإسلام بعد أن وصف بعد كتاب ( الشعر الجاهلى ) بالزندقة ، ولكنه كان فى الحقيقة متفقاً مع خطته التغريبية مع تغيير أسلوب العرض من الأسلوب الإنشائى إلى الأسلوب القصصى .

وذلك ما ظهر فى كتبه : هامش السيرة ، الوعد الحق ، الفتنة الكبرى ، مرآة الإسلام ، الشيخان .

وهكذا وضع طه حسين أصول نظرية الشك الفلسفى التى سار عليها أغلب المتخصصين فى الأدب العربى : على عبد الرازق ، أمين الخولى ، محمد خلف الله أحمد ، ثم جاء جيل جديد نراه اليوم يتمثل فى بعض الأقزام الضالين الذين واجهتهم الصحوة الإسلامية ، وبالجمله فإن مهمة طه حسين الحقيقية كانت ترمى إلى إزاحة القداسة عن حقائق الدين والتاريخ .

#### ثانيا : الفلسفة المادية وأثر الاستشراق :

كانت الفلسفة المادية أكثر سموم الفكر الغربى الوافد أثراً وتأثيراً ، وقد كانت الفلسفة العامة من أكبر العوامل التى حققت للتغريب والغزو الفكرى تأثيره الشديد فى طمس معالم الأصالة الإسلامية الحققة ، فقد فتحت الباب واسعاً أمام الفكر الباطنى والوثنى والمادى القديم والحديث وأعادت طرح معطيات الفكر الإغريقى والفارسى ، هذه المعطيات التى كان لها أبعد الأثر فى الأزمة الخطيرة التى لحقت بالأصالة الإسلامية عندما ترجمت الفلسفات فقدمت تصوراً ساذجاً لما وراء المادة يختلف اختلافاً واسعاً وعميقاً عن مفهوم الإسلام ،

ذلك أن هذه الفلسفات قد وضعت في عصور اختلفت عن عصور النبوات التي جاءت بحقائق المعرفة والكون فكانت عبارة عن تصورات الفلاسفة وفروضهم ، فلما جاء الإسلام قدم التصور الحقيقي للخلق والكون وحقائق الخلق الإنساني وكل ما يتصل بعالم الغيب في تصور رباني حقيقي لمن يعرف وحدة حقائق ما وراء المادة ، ومن هنا كان التصور الفلسفي قائما على فروض عقل إنساني قاصر يحاول أن يخلق في الخيال وينشئ الأساطير ليكمل الصورة التي تخيلها .

ولذلك فإنه ما إن ترجمت الفلسفة اليونانية في العصر العباسي حتى وجدت ما يرددها من حقائق الوحي والقرآن لعالم الغيب مما أسقط كل هذه الأساطير وأودى بها .

فقد كان هدف الفلسفة تقديم المعرفة للمجهول من العوالم وما وراء الطبيعة حيث التمس الفلاسفة الأساطير القديمة وأعادوا صياغتها فعجزوا في الحقيقة أن يصلوا إلى شيء مما استأثر به علم الله تبارك وتعالى وحده وهو ما قدمه القرآن الكريم في تصور كامل صحيح عن ما يسمونه ( الميتافيزيقا ) .

ولقد واجه علماء المسلمين هذه المترجمات التي لم تخل من دخائل كنسية على ما عرف من عمل ( حنين بن إسحق ) واستمرت المعركة مرحلة طويلة حتى قضى على هذا الفكر الوثني ، غير أن الاستشراق والتغريب في العصر الحديث أعاد إحياء هذا الفكر اليوناني القديم واعتبره أساساً للفكر الغربي الحديث ، فأعاد إثارة الشبهات وخاصة بعد أن استقل عن التصور الديني المسيحي وأقام تصوراته على الفلسفة المادية التي لا تعترف بالألوهية أو النبوة أو الغيب .

وكان هذا هو الخطر الذي يتمثل الآن في دراسة الفلسفة في المدارس العربية والإسلامية .

يقول الدكتور أبو الوفا التفتازاني : إن الفلسفات الأوروبية المعاصرة منذ أواخر القرن التاسع عشر ترينا أنه غلب عليها الإلحاد الصريح نتيجة الغرور بتقدم العلوم الطبيعية والتكنولوجيا ونتيجة التناقض الذي ساد المجتمعات الأوروبية في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وقد قامت الفلسفة الأوروبية المادية على أساس تقديس العقل والإيمان بمنهج العلم التجريبي ( حيث معيار الحقيقة هو التجربة الحسية وحدها ) .

وعنه صدر التفسير المادي للتاريخ « فليس ثمة في العالم إلا المادة وقوانين تطورها وما



العقل إلا أسمى نتاج للمادة ولا يمكن فصل الفكر عن المادة ، واعتبار الصراع بين الطبقات هو الذى يتحكم فى سير التاريخ ، أما الأخلاق فهى نسبية ، فهى أخلاق طبقة حيث ليس هناك قيم عامة مطلقة ولا يمكن أن ترد القيم إلى الدين ، والعالم لم يوجد إلا اتفاقاً أو مصادفة فلا خلق ولا خالق » .

هذا هو مفهوم الفلسفة المادية بعمامة وهو الذى يحاول الغرب والغزو الفكرى فرضه على العقل الإسلامى .

٢- وهناك نظرية التحليل المنطقى لألفاظ اللغة وعباراتها على أساس أن كل لفظ ليس له ما صدق فى عالم الحس فهو لفظ زائف ، وبالتالي فإن القصة التى يستخدم فيها هذا اللفظ فارغة المعنى .

والفلسفة فى نظر هؤلاء تحليل منطقى لعبارات اللغة وألفاظها ، ولو امتد منهج هذه الفلسفة إلى نطاق الدين وقيمه لأصبحت بعض قضايا الدين التى تتحدث عنها غيبيات لا معنى لها .

٣- وتأتى بعد ذلك الفلسفة العلمية : « مذهب المنفعة » ، التى اعتبر أصحابها صدق فكرة ما معناه التحقق من منفعتها بالتجربة ، ومقياس الصواب والخطأ فى الأفكار والمعتقدات هى القيمة المتصرف بها فى دنيا الواقع .

### ثالثاً : فلسفة العبثية والعدم :

٤- وتأتى بعد ذلك « فلسفة الإنسان » ، التى تنطلق من القول بأن حياة الإنسان لا معنى لها ولا هدف إلا ( الإلحاد ) ويرى أصحابها أن وجود الإنسان على الأرض مجرد مأساة وأمر غير مفهوم أو معقول .

ويرى بعضهم حرية الإنسان بإطلاق فى تحقيق ماهيته إذ لا إله يخلق وفق ماهية سابقة ، ولذلك يكون الوجود الإنسانى سابقاً على الماهية وأن مآل الإنسان إلى العدم فلا بعث ولا نواب ولا عقاب ومنهم من يؤكد على أن الإنسان هو صانع قيمه ومعايره .

ومنهم من يؤكد على عدم الإيمان بأى قيمة أخلاقية أو حقيقة مؤكدة ويتجهون بعنف إلى الهدم فتوصف فلسفاتهم بالعدمية ويقرر الدكتور أبو الوفا التفتازانى : أنها جميعها فلسفات عبثية ترى أن وجود الإنسان مجرد عبث ، وهى تشاؤمية الطابع ، وهى

فلسفة شاعت بوضوح في أعقاب الحرب الثانية خاصة في فرنسا كرد فعل للمحن التي عانت منها المجتمعات الأوروبية .

هذه المذاهب الفلسفية المادية التي عرفها الغرب في مرحلة تطوره من الفلسفة المدرسية المرتبطة بالمسيحية إلى الفلسفة المادية الإلحادية التي تقوم على العيشة والعدم والإلحاد .

وقد قام عدد من المثقفين العرب باعتناق مذاهب هذه الفلسفات وجندوا أنفسهم وأقلامهم للدعوة إليها والدفاع عنها ، كان في مقدمتهم :

( زكي نجيب محمود ، ولويس عوض ، وعابد الجابري ، وعاطف العراقي ، وأدونيس ) .

وقد انتشرت هذه المفاهيم في الأدب والقصة والمسرح ، وحمل لواءها القس يوسف الخال وصلاح عبد الصبور ، والسياب ، وغالي شكرى ، وكل دعاة الإلحاد والإباحية الذين اتخذوا منها حماية ومنطلقاً ، ومن خلالها نشأت نظريات العلمانية والحدأة والإبداع والتنوير ، ويرى العلماء المتجدون من الأهواء والانحراف والتحليل الشخصي أن هذه الفلسفة منذ زحفت إلينا فهي خطر شديد وهي في مختلف مواقعها كفيلة ( بالقضاء على أعظم ما أنتجته البشرية من حضارة ، لأنها تقتل في الإنسان طموحه ولا تجعل له هدفاً يسعى إليه وأثرها واضح في حركة الشباب الرافض لكل الأوضاع في المجتمعات الأوروبية والأمريكية .

وتحاول قوى الماسونية والصهيونية والغزو الفكرى والتغريب حشد هذه السموم في أفق الفكر الإسلامى بهدف تدمير شباب الأمة الإسلامية خاصة في هذه المرحلة التي تصاعدت فيها علامات الصحو لتندك كل حصون التبعية والتحلل .

وفى هذا المجال يجب أن يذكر أن مفهوم التحليل النفسى لفرويد ومفاهيم العلوم الاجتماعية ونظرية الوجودية لسارتر وكلها نظريات تقوم على التصور المادى البحت وتنكر للحقيقة الجامعة بين المادة والروح كما يقرها الإسلام ، ومن هنا يكون خطرها على العقل الإسلامى الذى تقوم مفاهيمه على أساس الغيب والوحى والإيمان بالبعث والجزاء والذى يجعل من الأخلاق أساساً ثابتاً للمعاملات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

وقد جرت محاولة إعادة طرح قضية ترجمة الفلسفة في العصر العباسى اليوم مرة أخرى لإثارة ما تحمل هذه المترجمات من وثنيات ومن علم الأصنام ومن معارضات واضحة للتوحيد الخالص .

ويجرى اليوم إعلاء شأن من هزمهم علماء المسلمين في معركة الأمس وعلى رأسهم ابن سينا والفارابي وابن رشد أساساً والحملة على الذين حملوا لواء تحرير الفكر الإسلامي من الوثنيات ، وفي مقدمتهم الإمام الغزالي ، فما يزال كتاب الفلسفة المعارضين والمستشرقين وفي مقدمتهم زكي نجيب محمود وعاطف العراقي وغيرهم يحملون على هذا الإمام الجليل الذي أقفل الباب أمام شبهاتهم تماماً ، وأسقط الفلسفة اليونانية إلى الأبد وبذلك قضى على هذا التيار المسموم ، وما يزال أمثال هؤلاء يغمزون الغزالي ويتهمونه بالجمود ، وتشمل الحملة كل الأعلام الأبرار الذين قاوموا هذه الحملة الخطيرة : ( الشافعي ، وابن حنبل ، وابن تيمية ، وابن القيم ) .

كل هذا من أجل أن يوسدوا للفلسفة المادية الغربية بدعوى كاذبة هي أن المسلمين قبلوا الفكر اليوناني الذي هو مصدر الفكر الغربي المعاصر ، ومن ثم فعلهم أن قبلوا الفكر الغربي الحديث بكل سمومه وماديته ، والواقع أن العصر الحديث قد استطاع أن يكتشف حقائق جديدة في هذا السبيل وهي تبعية ابن سينا والفارابي لفكر القرامطة والولاء لرسائل إخوان الصفا وكل ما يتصل بهذه المؤامرة الخطيرة وكان الدكتور محمود قاسم في مقدمة من كشفوا هذه المؤامرة الخطيرة .

أما ابن رشد فقد ركز المستشرقون المعاصرون عليه وأغروا أتباعهم به من أجل إحيائه لأنه هو الذي حاور الإمام الغزالي وحاول أن يشكك في كتاباته ( ولو أن كتابه جاء في الرد على الغزالي بعد مائة عام : تهافت التهافت ) ولكنها محاولة لاستعادة عرض نظرية التأويل التي حمل لواءها ابن رشد وفي محاولة لموازرة الفكر الغربي في دعوته المسمومة إلى تقديس العقل وتقديم العلم على الوحي وهو ما لا يقره الإسلام ، ويرى عاطف العراقي أن الفلسفة الإسلامية الأصيلة ( التي حمل لواءها الإمام الغزالي ) تحمل لواء الفكر اللاعقلاني ( كذا ) ويرون أن هذا الاتجاه يسخر منه المستشرقون الأوروبيون ، كأنما علينا أن نقبل انحرافاتهم ودعواهم وخاصة ما يسميه هو ( فكر ابن تيمية الذي يعد عدواً لكل فكر ناضج متفتح وأنه هو الفكر المسيطر على أذهان المشتغلين ببعض الأقسام الفلسفية في مصر والعالم العربي ، على الرغم من ( لاعقلانية ) هذا الرجل وسذاجة بعض آرائه - الأهرام ١٩٨٦/٨/٢٩

وهكذا يكشف العلمانيون خططهم الرامية إلى محاربة الأصالة والمفاهيم الأساسية

لمفهوم التوحيد الخالص ومذهب أهل السنة والجماعة الذى دافع عنه ابن تيمية طوال حياته وحمل لواءه أتباعه من بعده ومازالوا حتى اليوم ، ولا ريب أن هذه المحاولة التى لجأ إليها طه حسين أمس ويلجأ إليها عاطف العراقى اليوم بتخويننا من معارضة المستشرقين مما يسميه ( ضحكوا أو سخروا ) من الأصالة الإسلامية فهى لا تخيفنا بل تؤكد لنا سلامة منطلقنا وأنها نرفض الفكر الذى يسمونه بالعقلانى الذى يقدمه المستشرقون أو يقدمه عاطف العراقى وعصابته .

ذلك أن الفكر الإسلامى هو الفكر المتوازن القائم على الوحى والعقلانية معاً ، أما الفكر العقلانى المفرد فهو ثمرة الفلسفة المادية ولا يقره الإسلام ، إنها أحقاد الاستشراق القديم نحو الذين حطموا خططهم وهدموا وجهتهم حين حاولوا فرض الفكر الفلسفى المادى علينا اليوم كما فعلوا بالأمس ، وكانت كتابات الغزالى وابن تيمية التى دحضت سمومهم وفسادهم بالأمس لا تزال قادرة على أداء دورها اليوم وبعد اليوم .

والواقع أن تنقية الفكر الإسلامى من التبعية للفكر الغربى المادى الوثنى هى ضرورة أساسية لتحقيق الأصالة ، فإنه بتأثير الفلسفات الغربية ما زالت دول عربية عديدة تمجد عهدها القديم السابق للإسلام وحضارته وتقاليده وهى تخذع البسطاء فتزينة بأشكال شتى وتحرص على إحياء شعائره وتخليد أبطاله وملوكه وأمجاده كأنه عصرها الذهبى وفردوسها المفقود وكأنه نعمة جاء الإسلام فحرمهم إياها ، كذلك فإن هناك من يشكل فكرة العربى المعاصر من جزئيات متناثرة من العلمانية والاشتراكية والفكر القومى الغربى ومفاهيم الإقليمية والعنصرية والمذاهب التاريخية القديمة التى ترتبط بالفرعونية والفينيقية والأشورية والبابلية والزنجية والفرق الباطنية الغالية ، كل ذلك لضرب الإسلام وتزييف مفهومه الأصيل القائم على التوحيد الخالص .

ولقد كان للفكر اليونانى ولأرسطو بالذات تأثيراً فى كتاب عصر الترجمة عند الجاحظ وابن المعتز وقدامة وتفاعل مع هذا التيار أبى هلال العسكري وعبد القاهر الجرجانى وحازم القرطاجى كما كان له أثره على البلاغة والشعر العربيين حتى أبى تمام والمتنبنى .

ويتصل بهذا الأثر الفارسى على الأدب العربى .

وكان من نتيجته التحول الخطير للأدب العربى من سماحة الطابع القرآنى النبوى إلى أسلوب الوثنية الفارسية ( حدث ذلك فى العصر العباسى فى مرحلة ترجمة الفلسفة اليونانية

وظهور المقلدين من المعجم ، حيث ظهر أسلوب لكتابة الإنشاء هو بالصناعة الأدبية والوشى والتطريز أشبه منه بالبيان العربى السلس وكلام العرب الأولين المرسل الجارى مع الطبع وغلب عليهم السجع والبديع وغلوا فى ذلك غلواً أذهب ببهاء اللغة ورواءها .  
وتزعم هؤلاء الصابى والفضل بن العميد والصاحب بن عباد وأبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمداني وخضع العالم الإسلامى فترة لهذا الاتجاه حتى تخلص منه بعد ذلك عندما ظهر الغزالي وابن تيمية وابن القيم .

ومن هنا حرص المستشرقون على التركيز على هذا الطابع الوافد فى دراسة الأدب العربى لإخراجه من طابعه الإسلامى الأصيل ولينفتح الطريق أمام دخوله مرحلة التبعية .  
وهكذا خسر الأدب العربى أصالته من الجانبين :

ما أهده عصر ترجمة الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية من مفاهيم علم الأصنام ، وما دخله من الأدب الفارسى الوثنى المتصل بالمجوسية والغنوصية مما كان له تأثير على أمثال أبى نواس والحطيئة يضاف إلى هذا تأثير فترات الانحلال وأهمها فترة الانحلال فى الأندلس وكان من أثرها شعر المقامات وغيرها .

ولإلى هذه المحاور الخارجية الثلاثة يرد كل ما وصل إلى الأدب العربى من فحش وهجاء وغلو ووصف للعورات وغزل بالمذكر مما ظهر بعد ذلك فى ألف ليلة وليلة وكتاب الأغاني .  
وهو ما أحياء الدكتور طه حسين فى أحاديث الأرباء التى كان ينشرها فى السياسة اليومية ثم جمعها فى كتاب حديث الأرباء بالإضافة إلى مترجمات قصص الأدب اليونانى والفرنسى المكشوفة الإباحية .

وكان أخطر ما هنالك عملية الانتفاء التى تمت على أيدي المستشرقين وأعوانهم فى إعداد مناهج الأدب العربى على يد دنلوب وجماعته ، وذلك باختيار الأدباء المتحللين وأصحاب أسلوب السجع وقصص الخرافات والأساطير القديمة والتركيز على مجموعة من الشعراء المنحلين الذين كانوا مرفوضين فى عهدهم وترك أصحاب الأصالة فى عصور الأدب العربى خلال العصر الأموى والعباسى وخاصة أصحاب الاتجاه الأصيل أمثال : الغزالي ، وابن تيمية ، وابن خلدون ، وابن القيم ، وغيرهم ، فقد استبعدوا تماماً بدعوى أنهم فقهاء وليسوا أدباء مع أن هؤلاء الذين غفلوا عنهم هم الذين حفظوا للأسلوب العربى الأدبى مكانته الحقة ( راجع كتابنا خصائص الأدب العربى ) .

#### رابعاً : نقد المنطق اليونانى :

ولقد كان لابن تيمية أثره القوى فى محاربة المنطق اليونانى الوافد وكان الغزالى قد سبقه بأن ألف فى المنطق ثلاث كتب :

القسطنطس المستقيم ، معيار العلم ، محك النظر .

وقرر أن المنطق لا تعلق له بالدين نفيًا وإثباتًا شأنه فى ذلك شأن الرياضيات .

وقال ابن تيمية : إن المنطق لا يخالف صحيح المنقول فقط بل يخالف صريح المعقول ومعنى هذا أن عمل ابن تيمية يجاوز الهدم والنقد إلى الإنشاء وقد صحب محاولته جانب إنشائى تجسد فى منطق إسلامى .

وقد ألف فى الرد على المنطق الأرسطى عدة كتب من أشهرها كتاب الرد على المنطقيين فى ثلاثة أقسام :

١ - قسم انتقد فيه الحد .

٢ - وقسم انتقد فيه القضية .

٣ - وقسم انتقد فيه القياس .

وتبين أن السبب فى فساد المنطق هو بناؤه على الإلهيات التى فسدت أقوالهم فيها ، ويوجه ابن تيمية نقده للتصور والتصديق فيشير إلى أن لسان حال المناطقة يقرر أن التصورات لا تنال إلا بالحد ، وهذا مقال سالب وهم لم يقدموا دليلاً على صحة هذا القول لأنه ليس بدهياً حتى لا نطالبهم بتقديم الدليل ، وإذا بنوا أقوالهم على غير علم بالدليل فيكونون قد وضعوا أساساً للقول بلا علم ، ولم يكن ابن تيمية مبتكراً نظراً لتأثره بأبى البركات البغدادى وغيره إلا أنه يكفيه أن كل ما جاء بعده لم يفعل شيئاً أكثر من ترديد عباراته أو شرح بعض أقواله فى نقد المنطق وفى معارضة المنطق اليونانى قال الإمام الشافعى :

ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو طاليس .

وكان ابن الصلاح قد وقف من المنطق الأرسطى موقفاً عدائياً ، وذلك حين أطلق فتواه الشهيرة ضده بعد أن وجه إليه سؤال عن الاشتغال بالمنطق والفلسفة تعليماً وتعلماً ،

قال ابن الصلاح : الفلسفة رأس السفه والانحلال والمنطق هو مدخل الفلسفة وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشرع ولا استباحه أحد من الصحابة والتابعين .  
لقد تمت الشريعة وعلومها وخاضت في بحار الحقائق حيث لا منطق ولا فلسفة ولا فلاسفة .

وقال ابن القيم : واعجباً لمنطق اليونان كم فيه من إفك ومن بهتان وقد أكد كثير من علماء الإسلام أن السلف لم يتكلموا في المنطق وقال بعضهم : إن المنطق خطر على العقيدة .

ولما وجد الإمام الشافعي أن المنطق قد راج في عصره خشي على المسلمين من اتخاذه منهجاً للبحث ، ولأجل هذا ألف ( الرسالة ) التي تعد مقدمة لأعماله الفكرية عموماً ويوضعه لعلم أصول الفقه .

وفي الرسالة وضع الحدود والتعاريف وأخذ في التقسيم مع التمثيل والاستشهاد لكل قسم والأسلوب القائم على الجدل المشبع بالتفكير الدقيق .

أما موقف ابن تيمية من المنطق فقد بين أن السبب في فساد المنطق هو بناؤه على الإلهيات التي كانت أقوالهم فيها فاسدة ، وقال أبو البركات البغدادي : إن المنطق لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به البليد .

وكانت كتب المنطق قد ترجمت من الفارسية إلى العربية على يد ابن المقفع في عصر أبي جعفر المنصور وعمل به الكندي والفارابي وابن سينا ، نجوم الفكر الهليني اليوناني المسمى ( علم الأصنام ) هم : ( طه حسين ، صقر خفاجي ، محمد مندور ، غنيمي هلال ، لويس عوض ) .

ما سراً اهتمام التغريب بابن رشد وأن يقود هذه المعركة الدكتور مراد وهبة ، يرجع ذلك إلى عملية الثأر التي يحمل لواءها التغريب والغزو الفكري إزاء كل الذين هاجموا الفكر اليوناني إبان ترجمته وفي مقدمة من شملتهم الحملة الشرسة الغزالي وابن تيمية والأشاعرة الذين يعبر فكرهم عن الرجوع إلى الأصالة وفهم الإسلام فهماً صحيحاً وجعل الوحي مقدماً على العقل .

أما ابن رشد ، فأخطر دعواه هي تأويل<sup>(١)</sup> النص الديني وهي دعوة تدخل في دائرة الفكر التنويري الذي يقدس العقل بحيث يجعله معياراً وأساساً لحياتنا الفكرية والاجتماعية حتى يصبح عالمنا الإسلامي وكأنه قطعة من أوربا .

إن مراد وهبة والأب قنوائى وعاطف العراقي يقولون بلسان أحدهم فلننقل لأفكار الغزالي والأشاعرة وابن تيمية وداعاً : تلك الأفكار التقليدية الجامدة التي لا نحتاج إليها .

إن واجبنا المقدس هو الدفاع عن التنوير والتمسك بالعقل كما يقول ذلك عاطف العراقي .

والحقيقة أن ما أخذ في الغرب باسم عقلانية ابن رشد هو في الحقيقة من عقلانية أرسطو وإن كل ما يعلى أمر ابن رشد في نظر المستشرقين والعلمانيين هو تبعيته للفكر اليوناني ودعوته إلى التأويل ، إن الغرب يرحب بابن رشد لأنه قال بقدوم العالم ، ويتحدث الشيوعيون عن ماديته التاريخية ويرى رينان أن ابن رشد لم يكن مؤمناً تماماً وإنما احتال لكي يحفظ رأسه وأكدته في ذلك طيب بتريني وحسين مروه .

وإن خطة تأويل النص الديني التي حمل لواءها ابن رشد لم تكن إلا محاولة لإعلاء العقل على النص القرآني وتقديسه .

والدليل على ذلك أن رينان اعتبر ابن رشد فيلسوفاً حر الفكر خارجاً على تقاليد الإسلام وشرائعه .

المعروف أن مصطلح التأويل لم يعرف بصورته الحالية إلا منذ ظهور المعتزلة والفلاسفة وفي مقدمتهم ابن رشد الذي قال : إن التأويل هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بشبهه أو سببه أو لاحقه أو مقارنه أو غير ذلك من الأشياء التي عرفت في تعريف أصناف الكلام المجازي ( فصل المقال ) ويرى علماء أهل السنة والجماعة من الأشعرية وغيرهم أن الإسلام لا يوجد فيه تأويل .

( ١ ) التأويل : للتأويل ثلاثة معان :

١ - التفسير .

٢ - ما يؤول إليه الشيء أى ينتهى إليه .

٣ - صرف معنى اللفظ من المعنى الراجع إلى المعنى المرجوح ، وهو المراد هنا .



#### خامساً : سقوط الفلسفات :

يؤكد الكاتب الفرنسي المسلم جارودي : أن الفلسفة قد أدت دورها وانتهت رسالتها ، يقول : فالفلسفة لها قضاء خاص يلغى الإيمان ولكن الإسلام إيمان أولاً ثم فكر ثانياً بعكس الفلسفات ، واليوم يواجه المسلمون العالم بعد سقوط الأيدولوجيات والقوميات وقد رفض الإسلام الأيدولوجيات المفلسفة والقومية ، وكانت القوميات نعمة استعمارية من أجل إضعاف الأمة الإسلامية والإسلام قرآن وكفى لا يمين ولا يسار .

وتتحدث الدكتورة زينب عبد العزيز أستاذ الحضارة بجامعة المنوفية : عن الأخطار التي تخيط بأمتنا والتي تمثل هجمة لا سابقة لها في التاريخ هدفها إبادة أمة الإسلام وضرب عموده الفقري أو دعامته الأخيرة الباقية وهي القرآن .

وأخطر ما يواجه أمتنا ، تلك التعريفات الوافدة للعبارة سواء فيما بيننا أو فيما بيننا وبين الآخرين وذلك لاختلاف معناها ووفقاً لتناولها من جهة نظر الغرب أو من جهة نظر الشرق ومنها التغريب والحدأة والأصولية والتبشير .

أما الحوار الذي يجرى بين الشمال والجنوب أو بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي فليس حواراً ولكنه استبداد من جانب واحد ، استبداد لفرض سياسة النظام العالمي الجديد بعيداً عن أى وجود للقانون الدولي وحقوق الإنسان واستبداد لغرض اقتصادي هو استمرار للاستعمار المباشر والتبعية للغرب واستبداد لفرض التعصب الكاثوليكي بإيقاع وسائل لا تمت بصلة إلى مبدأ احترام عقائد الآخرين ، فما من مرجع اليوم يغفل ما بين الاستعمار والتبشير من تضافر على مر الزمن ولا ما بين التبشير والمنظمات غير الحكومية ( O N B ) من مجال عمل مشترك وهدف واحد وتضافر هذه المجالات الثلاث في مخطط رهيب بات مكشوفاً لتغريب العالم الثالث بعمامة واقتلاع الإسلام بخاصة ، وتسرد الباحثة لهذا التضافر منذ القرن الثامن الميلادي مروراً بعصر النهضة حتى ضرب القوى الإسلامية محمد عبيد في الصومال مروراً بغرس الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة وكل ما يدور بها وحولها من محاصرة وإبادة للمسلمين لا في البوسنة وحدها وإنما على الصعيد العالمي .

وتشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى الاتفاقية القائمة بين المخابرات المركزية والبابا يوحنا بولس الثاني والمخابرات الإسرائيلية والتي أشار إليها كل من جوردون توماس وماكس

مورجات ويب فى كتابهما عن ( كواليس الفاتيكان ) الذى صدر عام ١٩٨٣ وتتضمن هذه الاتفاقية ثلاث مراحل :

\* عقد الثمانينات لضرب الشيوعية .

\* عقد التسعينات لضرب الإسلام .

\* مطلع القرن الواحد والعشرين لتوحيد كافة الكنائس تحت لواء كاثوليكية روما .

وتوضح الوقائع هذا الهدف من افتعال الأحداث واختلاف الثورات أو حتى المجاعات ومواكبتها بالمبشرين والعاملين فى المنظمات غير الحكومية ( O N B ) بأنها من أجديات قاموس السياسة الخارجية الأمريكية والأوروبية ، فالمطلوب حالياً هو الإجهاز على الإسلام قبل نهاية ١٩٩٩ كذلك فإن مصطلحات التغريب والحدائق والأصولية والتبشير لها دورها فى محاصرة وضرب العالم الإسلامى مما يحتاج معه إلى سلطة تنفيذية لوضع رؤية شاملة لاستراتيجية إسلامية تتصدى لهجمة الغرب بكافة مستوياتها والعمل على توحيد صفوف المسلمين .

ويؤكد الدكتور يحيى هويدى أنه ليس أمام المسلمين بعد انهيار فكرة القومية العربية إلا الإسلام فلا منجا لنا إلا بالدين وذلك يفتح باب الاجتهاد ، وتقديم فلسفة إسلامية جديدة تلك الفلسفة التى لن تكون إلا قرآنية ، فلن يقدر على تحمل مسئولية التجديد سوى الدين ، فالدين عنصر أساسى فى التكوين الثقافى للمصرى والعربى مسلماً ومسيحياً .

وأخشى أن يظن الذين يرفعون شعار التنوير فى مواجهة التشدد أنهم يعودون إلى أن يستقر فى وعى الآخر أن دعوة التنوير ضد الدين ، فى حين أن الإسلام حركة تنويرية متكاملة من الألف إلى الياء ، ودعوة التوحيد الإسلامى ليست توليفة نظرية أو ميتافيزيقية ، فالتوحيد الإسلامى جاء ليخلصنا من الاحتكار والقيود والانحلال والوثنية التى طوقت الأغلال ، وأتينا أبناء حضارة النص القرآنى نقولها بلا خجل ، فقد وفقت الحضارة الإسلامية بين النص والعقل توفيقاً عبقرياً » .

كل هذه الحقائق تكشف لنا مدى التحول الخطير الذى وصل إليه الفكر الإسلامى فى عصر الصحوة وفى مواجهة التغريب والعلمانية والتنوير الغربى ، ولكى تكتمل الصورة علينا أن نعرف مدى أثر المخطط الماسونى الذى يقف وراء كل هذه المؤامرة والذى يؤكد

الباحثون أنه يتمثل في ستة ملايين ماسوني ينتشرون في كل أنحاء العالم ويسيطرون على الأندية والجمعيات الخيرية والشبابية والتي تخفي هدفها الحقيقي ، وهو القضاء على الأديان جملة وعلى الإسلام أساساً .

ويرى العقيد كامل الشرفاوي أن الماسونية سعت إلى مد جذورها في المجتمع المصري في الفترة الأخيرة من خلال عدد من أندية الروتاري والأيزويل والليونز والليونيس والصور وشهود يهوه والروتراكت والانتراكت والإخاء الديني والأحمدية والإبراهيمية والفرعونية والبهاية واللكموتو والبهرة وأن هذه الأندية استخدمتها الماسونية لتحقيق أهدافها في ضرب الدين وتشكيك المواطن في عقيدته وتعاليمه من أجل نشر الإلحاد مستخدمين العديد من الوسائل المساعدة من خلال هذه الأندية مثل الانحلال الخلقي ، عبر وسائل الإعلام والسينما والصحافة والقضاء على كل الشخصيات الإسلامية وتشجيع تجارة الخمر والمخدرات وإثارة الغرائز الجنسية لتطبيق ما نادى به هرتزل لنشر الفساد الخلقي في العالم الإسلامي وقد قامت هذه الأندية ( الروتاري ) بالدور الأكبر في تنشيط الماسونية في مصر . ويؤكد الباحثون أن هدف الماسونية الحقيقي هو محو جميع الأديان السماوية ، لأنها تنظر إلى الأديان السماوية على أنها خرافة وبصفة خاصة الكاثوليكية .

وقد انكشف عام ١٩٨٨ أمر العلاقة السرية بين المحافل الماسونية والمخابرات الأمريكية ( CIA ) والإسرائيلية ( الموساد ) والغريب أن هذه الجماعات تضم بين أعضائها الفنانين والوزراء والسفراء وذوى المراكز القيادية ولا يمضى يوم دون القيام باحتفالات أو مؤتمرات ، وهدفهم في النهاية تخريبى ( الوطن - ١٤ فبراير ١٩٩٥ ) .

كل هذه الصفحات تكشف لنا عن أبعاد المؤامرة التي ترمى إلى اختراق الإسلام بأبعادها المختلفة فلم يبق إلا أن نعرف طريقنا إلى حماية وجودنا الحقيقي وحماية أصالتنا والتحرر الكامل من التبعية .

\* \* \* \*

## ملحق :

كان من الضروري أن نشير إلى المحاولة الخطيرة التي تجرى لإعادة طرح قصة ترجمة الفلسفة في العصر العباسي لإثارة ما تحمل هذه المترجمات من وثنيات ومن علم الأصنام ومن معارضات واضحة للتوجيه الخالص حيث يجرى إعلاء شأن من هزمهم الإسلام في معركة الأمس ( الفارابي - ابن سينا - وابن رشد ) أساساً والحملة على الذين حملوا لواء تحرير الفكر الإسلامي من الوثنيات وفي مقدمتهم الإمام الغزالي ، فما يزال الكتاب المعاصرون العلمانيون من أمثال : عاطف العراقي يحملون على هذا الإمام الجليل حملات مضللة يستمدونها من حملات التبشير التي يرى قاداتها أن الغزالي قد أقفل أمام شبهاتهم الباب تماماً وبذلك قضى على هذا التيار المسموم ، وما يزال أمثال هؤلاء يغمزون للغزالي ويتهمونه بالجمود وتشمل الحملة كل الأعلام الأبرار الذين قاوموا هذه الحملة الخطيرة ( الشافعي وابن حنبل وابن تيمية وابن القيم ) .

كل هذا من أجل أن يوسدوا للفلسفة المادية الغربية دعوى كاذبة مرماها أن المسلمين قبلوا الفكر اليوناني الذي هو تراث الفكر الغربي المعاصر ، فعليهم أن يقبلوا الفكر الغربي الحديث بكل سمومه ، والواقع أن العصر الحديث قد استطاع أن يكتشف حقائق جديدة في هذا السبيل وهي تبعية ابن سينا والفارابي لفكر القرامطة ، والولاء لرسائل إخوان الصفا وكل ما يتصل بهذه المؤامرة الخطيرة ، وكان الدكتور محمود قاسم في مقدمة من كشف النقاب عن هذا الخطر ، أما ابن رشد فقد ركز المستشرقون المعاصرون عليه وأغروا أتباعهم من أجل إحيائه لأنه هو الذي حاور الإمام الغزالي وحاول أن يشكك في كتاباته ( ولو أن كتابه جاء بعد مائة عام ) ، ولكنها محاولة لاستعادة نظرية التأويل التي حمل لواءها ابن رشد وفي محاولة ثانية لموازرة الفكر الغربي في دعوته المسمومة إلى تقديس العقل وتقديم العلم على الوحي وهو ما لا يقره الإسلام .

ويرى عاطف العراقي أن الفلسفة الإسلامية ( التي حمل لواءها الإمام الغزالي ) تحمل بذور الفكر اللاعقلاني ( كذا ) ويرون أن هذا الاتجاه يسخر منه المستشرقون الأوروبيون كأنما يجب علينا أن نقبل انحرافاتهم أو دعاواهم وبخاصة ما يسميه هو ( فكر ابن تيمية الذي يعد عدواً لكل فكر ناضج متفتح ) وأنه هو الفكر المسيطر على أذهان المشتغلين ببعض الأقسام

الفلسفة في مصر والعالم العربي على الرغم من ( لاعتقالية ) هذا الرجل وسذاجة بعض آرائه ، الأهرام ١٩٨٦/٨/٢٩ ، وهكذا يكشف العلمانيون خططهم الرامية إلى محاربة الأصالة والمفاهيم الأساسية لمفهوم التوحيد الخالص والسنة والجماعة التي دافع عنها ابن تيمية طوال حياته وحمل الواءها أتباعه وما زالوا حتى اليوم ، ولا ريب أن هذه المحاولة التي لجأ إليها طه حسين أمس ويلجأ إليها عاطف العراقي اليوم بتخويفنا من معارضة المستشرقين مما يسميه ( يضحكوا أو يسخروا ) من الأصالة الإسلامية فهي لا تخيفنا بل تؤكد لنا سلامة منطلقنا وأنها نرفض الفكر العقلاني بالمفهوم الذي يقدمه المستشرقون أو يقدمه عاطف العراقي وجماعته .

إنها أحقاد الاستشراق القديمة نحو الذين هدموا وجهتهم حين حاولوا فرض الفكر الفلسفي اليوناني الوثني علينا اليوم كما فعلوا بالأمس ، وكانت كتابات الغزالي وابن تيمية التي دحضت سمومهم وكشفت فساد وجهتهم بالأمس وما تزال قادرة على أداء دورها اليوم .

\* \* \* \*



## الفصل الأول

### العلمانية

لقد جاء الإسلام ليصحح للبشرية طريقها ويفتح لها المنطلق إلى الحقيقة الكبرى : حقيقة الإيمان بالله تبارك وتعالى والدين الذى أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور متمثلاً فى الدين الخاتم ، جاء الإسلام ليقضى على العبودية : عبودية الإنسان للإنسان وعبودية الإنسان للأوثان وتحرير البشرية من التبعية وإقامة منهج الحياة على المفهوم الأصيل لمهمة الإنسان فى الحياة والمجتمع بوصفه مستخلفاً لله تبارك وتعالى فى الأرض لإقامة المجتمع الربانى ، على أن يجعل سعيه خالصاً لوجهه تعالى فى إطار المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقى ، وقد جاء الإسلام ليبنى هذا المجتمع الربانى بعد أن سقطت حضارات الظلم والعبودية المتمثلة فى الوثنية اليونانية والرومانية والفارسية والفرعونية .

وسرعان ما فرض وجوده بالحق على هذا الكوكب الذى كان يقاسى من ظلم الظالمين وطغيان الطغاة فاستطاع فى ثمانين عاماً أن يمد جناحه إلى نهر اللوار فى قلب أوروبا إلى حدود الصين على نحو أذهل المؤرخين وسرعان ما قدم للبشرية ثمراته .

فقدم المنهج التجريبي الذى لم تكن تعرفه البشرية ، كما قدم منهج المعرفة دى الجناحين وحرر البشرية من الرق والعبودية بعد ألف سنة من قوانين أرسطو وأفلاطون الذين قرروا أن البشرية لا تستطيع أن تعيش بدون سادة فى الأعلى ورقيق فى الأسفل .

كذلك حطم القرآن الوثنية التى عاشت فيها البشرية وهاجم التجسيد والتعدد وفتح باب العلم والبرهان لإقامة حضارة إنسانية على مفهوم ربانى ، ونقل الإسلام علومه ومناهجه إلى قلب أوروبا حين دخل الأندلس ، ومنها امتد إلى بلاد أوروبا ، ولكن الغرب سرعان ما استعمل العلوم التى قدمها له الإسلام ليدخل معركة لإخراجه من قلب أوروبا من الأندلس فى جولة ومن البلقان فى جولة أخرى .

وسرعان ما استطاع الغرب أن يسابق المسلمين بأدواتهم التى قدموها إليه حتى استطاع أن يتفوق فى عالم البحار واستطاع أن يخرج من البحر إلى المحيط .

ولكن المسلمين واجهوا هذه المعركة فى قوة كما واجهوا من بعد معركة الحروب الصليبية والتتار التى امتدت ثلاثة قرون تقريباً .

أما هذه المعركة فإنها أشد خطورة وأوسع ساحة حيث يواصل النفوذ الغربى ، ليس فرض سلطانه الاقتصادى وحده وإنما فرض نفوذه الفكرى والثقافى فى محاولة لصهر الأمة واحتواء أهلها وتزييف منهجها فى جولة ضخمة وفى محاولة ممتدة تتجدد فيها أساليب المؤامرة وأدواتها وحيث يجرى كسب الأنصار لها ، بل والعمل على تجميع قوى أعداء الإسلام ومحاربتة فى جبهة واحدة ، ماركسية غربية ، هندوكية ، حيث تواجه الأقليات الإسلامية فى العالم كله حملة ضخمة من الاضطهاد والتدمير .

هذا فضلاً عن محاولة هدم قيم المجتمع الإسلامى نفسه بتدمير شبابه بالفساد والانحلال والمخدرات حتى يستسلم تماماً للتبعية وهذا ما يسمى بصراع القيم وأول ضحاياه هم المسلمون .

وليس أمام المسلمين إلا الصمود والتماسك وكشف الزيف المتجدد ، وبعد ألف سنة من العطاء قضت سنة الله تبارك وتعالى أن يصاب المسلمون بالتفكك وذلك عندما خرجوا عن منهج الله تبارك وتعالى وتلك سنة الله التى لا تتخلف فإذا عادوا إلى الله أعاد لهم أسباب النصر والسلطان .

جاء هذا الدرس خلال خمسة قرون ممتدة حتى الآن ليتأكد المسلمون من أنه ليس أمامهم إلا طريق واحد لا سبيل إلى الوصول إلى امتلاك إرادتهم إلا به وحده ، وهو أن يلتمسوا ( منهج الله ) وأن يعودوا إلى الأصالة والمنابع وأن يقدموا أنفسهم رخيصة فى سبيل حماية البيضة وتحقيق الهدف وأن يتعلموا صناعة الموت فى سبيل الله .

ولينظروا فى تاريخ الإسلام فيجدوا العبرة واضحة ، فقد واجه المسلمون حملات الصليبيين والتتار والفرنجية والاحتلال الغربى الحديث ، والحملة الصهيونية بالمقاومة وليس أمامهم إلا بيع النفوس لله خالصة فى سبيل حماية الوجود الإسلامى وفى سبيل تبليغ رسالة الله إلى العالمين .

لقد نقل الله تبارك وتعالى قيادة الحضارة العالمية إلى الغرب بعد أن تراجع المسلمون وعجزوا عن حمل الأمانة ، بل لقد تولى الغرب السيطرة على المسلمين وفرض منهجه



الفكرى والاجتماعى والسياسى على بلاد المسلمين ولأول مرة فى تاريخ الإسلام يتوقف تطبيق النظام الإسلامى ويفرض القانون الوضعى بديلاً للشرعة التى حجبتها النفوذ الغربى .

وتراجع المسلمون وسيطر الغرب ، وكان عام ١٤٩٢ منطلق التحول وامتد هذا الموقف الآن خمسمائة سنة كاملة دار فيها الاستعمار دورة كاملة بالسيطرة على مقدرات الأمة الإسلامية حيث فرض حضارته وقوانينه ونظريته فى الاقتصاد والاجتماع ، وعلى رأس ذلك نظريته فى العلمانية التى تفرق بين الدين والدولة وبين الدين والمجتمع ومفاهيمها فى الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية ، فرضها على هذه المنطقة الإسلامية الواسعة من رباط الفتح إلى أرخبيل الملايو .

وجرت المحاولة فى تغريب هذه الأمة المنزوعة السلاح بعد احتلالها من النفوذ البريطانى والفرنسى والهولندى والإيطالى جميعاً ، وعملت هذه القوة على استنزاف ثروات هذه الأمة وأن لا تبقى لأهلها إلا الفتات .

وظن فى وقت من الأوقات أن الإسلام قد طويت صفحاته ، وأن هذه الأمة التى بناها الإسلام فى أربعة عشر قرناً يمكن أن تنطوى وتستسلم وتفقد ذاتيتها وخصوصيتها ، وهى التى ابتعتها الحق تبارك وتعالى ليقدم الإسلام إلى العالم كله ويقدم للبشرية المجتمع الربانى الأصيل بعد أن سقطت فى أوحال التحلل والفساد والتمزق النفسى والاجتماعى .

ولم يستسلم المسلمون بل قاوموا النفوذ الأجنبى والاحتلال الغربى بالإسلام ، وفى أشد مراحل الضعف والتخلف والحصار أعلنوا أن الإسلام دين ونظام ومجتمع ومنهج حياة ولم يستسلموا أبداً .

وإن استطاعت الموجة الغربية أن تأخذهم ثمة إلى التبعية إلا أنهم سرعان ما كانوا يحطمون القيود ويعودون إلى المقاومة ويقدمون الشهداء .

ولقد حاول النفوذ الغربى احتواءهم واحتواء الإسلام نفسه على نحو من التغريب والغزو الثقافى وتقديم الإسلام على أنه دين عبادة ولاهوت وطن التغريبى والعلمانيون أنهم سيقومون الدولة العلمانية بديلاً عن الدولة الإسلامية .

ومضت الموجة تحمّل أتباع الغرب والليبرالية والماركسية جميعاً فى جولة طويلة ثم كشف الإسلام عجزهم وجاءت جولة الماركسية وانهارت وتبين أن الإسلام قادر على

حماية وجوده وأن البذرة الغربية التى طرحت فى أرضه لا تنمو أبداً .  
وجاءت الصحوة بعد اليقظة تصحح الإسلام وترده إلى حقيقته : منهج حياة ونظام  
مجتمع وتكشف عن جوهر الشريعة الإسلامية وعظمة المنهج الإسلامى وقدرته على العطاء  
فى الوقت الذى عجزت فيه الحضارة الغربية عن العطاء واضطربت مذاهبها السياسية  
والاقتصادية .

إن الغرب يعرف هذه الحقيقة تماماً ولا تغيب عنه لحظة أن الإسلام هو وارث الحضارة  
الإنسانية بالحق فى هذه المنطقة التى قالت لا إله إلا الله ، ولكنهم يعملون منذ ١٩٠٧ على  
تأخير هذا الواقع وذلك بإقامة هذه المحاولات الماكرة الممتدة المختلفة الأدوار والأوضاع فى سبيل  
تحقيق هدف لن يتحقق أبداً وهو :

صهر المسلمين فى بوتقة الحضارة الغربية الغارية أيديولوجياتها ، التى تكشفت عن  
فسادها وانهارت مذاهبها وعجزت أيديولوجياتها عن العطاء سواء فى منهجها الليبرالى أو  
الماركسى أو فلسفاتها الفرويدية والعلمانية والداروينية والوجودية أو مذاهب العبث والإباحة  
والتحلل .

لقد عرف الغرب أن مقاليد الأمة الإسلامية فى يد الوحدة الجامعة فعمل على هدمها  
وقدم فى ذلك أيديولوجيات خطيرة .

**قدم أولاً :** الديمقراطية والقومية والماركسية ثم قدم فى الأخير أخطر سمومه :  
العلمانية .

#### ١ - سقوط العلمانية :

تقوم العلمانية على الفصل التام بين العالم الأرضى وبين السماء وبمعنى الفصل بين  
شئون الحياة وبين الدين ، والفصل بين الدنيا والآخرة .

وقد نشأ الغرب فى ظروف تاريخية خاصة بهم تتعلق بالكنيسة وظلمها ومحاكم  
التفتيش ومحاربة حرية الفكر والعلم .

وأبرز صور العلمانية فى الغرب هى تقسيم العالم إلى دائرتين :

دائرة شئون الدنيا ( الحكم والقضاء والتشريع والاجتماع والاقتصاد والتعليم ) .

والدائرة الثانية: دائرة شئون الدين من عادات وشعائر وهكذا بدأت العلمانية فى الغرب ،  
ولكنها لم تلبث أن تطورت إلى علمانية أخرى تعمل على القضاء على الدين ذاته فى

العالم كله ( وهذا واضح فى الماركسية قبل سقوطها والفلسفة الوجودية وغيرها ) .

وفى العالم الإسلامى تتخذ العلمانية اتجاهين أساسيين :

**الأول :** يقرر ضرورة إلغاء تطبيق الشريعة الإسلامية فى الحياة الدنيا .

**الثانى :** العمل للقضاء على الدين الإسلامى ذاته ( كالماركسيين والماديين ) وهم يزعمون بأن ( الإسلام ) عقيدة وشريعة تتغير بتغير الظروف ، وهم يدعون ( كذباً وبهتاناً ) بأن الثوابت الإسلامية المتعلقة بالشريعة أو العقيدة عرضة للتغير من وقت لآخر ومن زمن لآخر .

وكل هذه محاولات للتضليل عن حقائق الإسلام الأساسية ، التى تقوم على أن الدين يجمع بين العقيدة والمعاملات والأخلاق ويقرر لها قواعد أساسية ثابتة وجوانب تتغير مع تغير الأزمنة والبيئات وهى المتغيرات .

أما مفهوم الغرب بأن الدين عقيدة وعبادات وليس له نظام اجتماعى واقتصادى وسياسى فهذا غير مقبول فى الإسلام ، كذلك فإن نظرية التطور المطلق التى يقول بها الفكر الغربى فليس لها فى الإسلام مكان ، فالإسلام يقرر وجود قيم ثابتة وقيم متغيرة ، أما الأخلاق فهو يقرر أنها من الثوابت ، ولا يرى تطور الأخلاق أو تغييرها على النحو الذى تدعو إليه نظرية النسبية الغربية .

كذلك فإن الإسلام يجمع بين عاملى الروح والمادة ، والعقل والقلب ، ولا يقر أن الحياة مادة أو أن المادة لا تفنى .

ومن هنا فالإسلام يربط بين الدين والحياة فى التربية وفى توجيه شعوب الحياة الاجتماعية والاقتصادية ولا يفصل بينهما كما يربط الإسلام بين الفرد والجماعة ، وضوابط الأخلاق لا تعيق التقدم .

ولا يقر الإسلام العقلانية والعلم كعامل أساسى للمعرفة ، ولكنه يجمع بين العلم والعقل والوحى الإلهى ويرى أن الوحى هو ضياء العقل ، وأن العقل نور الشرع وأن الشرع عصمة العقل من الخطأ حيث لا تناقض بين العقل والشرع أو بين العلم والدين أو بين الدين والدولة .

غير أن مفتاح هذا كله شىء واحد هو : ما هو الإسلام ؟

هل هو دين بمعنى الدين اللاهوتى فى قواميس الغرب وفلسفاته وكتابات مفكره ذلك أن كل الذين يتكلمون عن الدين اليوم فى البلاد الإسلامية يريدون أن يردونا إلى مصطلح الدين الغربى فهم يتحدثون عن الدين باعتباره مجموعة من الأخلاق والعبادات والتراثل وأنه هو الذى يحقق السلام النفسى والطمأنينة القلبية الحقيقية ، إن هذا التصور ناقص وإن رسم مهمة الإسلام على ضوء التصور لا يصل إلى المفهوم الصحيح للإسلام بل إنه يجعل من الإسلام ديناً عبادياً على نحو ما يفهم أهل الغرب دينهم وهو نفس التصور الذى قدمه الشيخ على عبد الرازق وكل العلمانيين الذين تخدثوا عن الإسلام ، وهو مأخوذ من النظام الغربى المسيحى الموجود فى الأنجيل ، وربما تشترك فيه مذاهب أم أخرى كالهندوس فى الهند . والبوذية فى اليابان وهو نفس النظام الذى رسمته تركيا لنفسها بعد سقوط الخلافة ، وهو ما يحاول الكثيرون فى البلاد الإسلامية الدعوة إليه بينما تقدم الدعوة إلى الإسلام بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع على أساس العودة إلى طبيعة النظام الذى كان يعيشه المجتمع الإسلامى خلال أربعة عشر قرناً ، والذى لم يتغير إلا منذ عمَد الاستعمار والنفوذ الأجنبى إلى حجب الشريعة الإسلامية عن المدرسة والمحكمة والمصرف ومن نظام الحكم نفسه منذ قرنين من الزمان وفرض القانون الوضعى الذى أثبت تطبيقه وجود كثير من المخالفات والتجاوزات فضلاً عن الأثر الذى أصاب المجتمع الإسلامى نفسه بالتحلل والاضطراب .

ولقد تبين منذ أن خضعت الأقطار الإسلامية للنظم السياسية الغربية والاقتصادية والاجتماعية أن هناك أخطاراً كثيرة أصبحت تحيق بالمجتمع وخاصة تزييف فهم الإسلام ومحاولة تصويره كدين لاهوتى عبادى وتجاهل جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية .

إن أخطر ما يواجهه العلمانيون إلى الإسلام من شبهات :

أولاً : مقولة الدولة الثيوقراطية (١) :

فهم يرون أن الإسلام يريد إقامة ثيوقراطية ( على نمط الحكومات التى قامت فى أوروبا

(١) الثيوقراطية : النظام الثيوقراطى هو النظام الذى كان الحاكم يتلقى فيه سلطته إما من رجال الدين وإما من الحق الإلهى بوصفه ظل الله فى الأرض ، انظر ( نحو مجتمع إسلامى ) ص ١٥٢ .

أيام سيطرة الكنيسة وهذه مقولة باطلة لأن الإسلام أساساً لا يعرف رجل الدين ( وإنما يعرف ( عالم الدين ) الذى يوجه القادة والحكام ولا يشترك فى الحكم .  
فحكومة الإسلام التى تطبق مبادئه ليست إلهية بل هى بشرية تخضع للنقد وتقبل الشورى والمطالبة بها .  
فالمعرفة عندهم مصدرها الحواس والعقل وبينما يقرر الإسلام أن المعرفة مصدرها العقل والوحى .

#### ثانياً : نظرية نسبية الأخلاق :

فهم يرون أن الأخلاق مرتبطة بالمجتمع ، فهى نسبية وليست ثابتة بينما يقرر الإسلام أن الأخلاق من الثوابت المرتبطة بالعقيدة .

#### ثالثاً : نظرية حرية الفكر :

فهم يرون حرية الفكر وإطلاقه من كل ضوابطه وقيوده بينما يقرر حرية الفكر المنضبطة .

#### رابعاً : نظرية التطور :

يرون أن كل شئ يتطور ولا يوجد ثبات أبداً ، وهى نظرية مضللة ، ذلك لأن الإسلام يضع ضوابط الثوابت والمتغيرات ويقر مفهوم التطور المنضبط الذى يتحرك فى إطار المتغيرات ، بينما يقرر ثوابت العقيدة التى لا تتغير مع تغير الظروف والأزمان ، ويطبق هذا على مفهوم الأخلاق تماماً .  
وبعد فإن العلمانية فى الفكر المسيحي والغربي حقيقة واقعة بينما هى فى الإسلام انحراف .

يقول الدكتور عبد الحميد مذكور : لقد نشأت العلمانية فى أوروبا نتيجة الصراع الذى وقع بين الكنيسة الغربية التى ازدادت هيمنتها على أمور خرجت بها عن شئونها الدينية وبدأت تتسلط على مقاليد البلاد حتى أصبحت تمثل القوى الكبرى والرئيسية بين الحكام وبين الدولة وعصر النهضة الذى بدأت تظهر بوادره آنذاك ، ومن هنا نجد أن نشأة العلمانية فى الغرب أمر طبيعى ، وذلك لسببين :

**الأول :** سبب ديني وهذا أمر يعدّ من طبيعة المسيحية فالمسيح عليه السلام نفسه يقول :  
دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وبولس الذي نادى بضرورة الخضوع للحكام والنظر إليهم  
على أنهم يمثلون قدرة الله عز وجل ، إذن فالمسيحي حينما يفصل بين الدين والدولة فإنه  
لا يكون عاصياً للدين وإنما يكون مطبقاً لهذا الدين في علاقة الدين بالحياة .

**الثاني :** تاريخي ، لما ازداد تسلط الكنيسة وزادت هيمنتها على الحياة وأدى ذلك إلى  
تسلط رجال الدين على المجتمع وعلى الفكر وعلى العلم وعلى السياسة وعلى الاجتماع  
وعلى كل شئون الحياة عن طريق قرارات الحرمان من السير في الحياة الطبيعية كمواطن  
عادي وكذلك محاكم التفتيش .

ومن هنا يأتي السؤال : هل ينطبق هذا على الإسلام ؟ والإجابة بالطبع : لا ، لا ينطبق  
هذا على الإسلام لهذين السببين :

**الأول :** ديني ، لأن الإسلام ليس ديناً روحياً خالصاً وليس ديناً للمسجد فقط وليس  
ديناً للعلاقة الشخصية بين الإنسان وبين الله فحسب ، ولكنه دين جامع شامل كامل عام  
لكل شيء يتعلق بالفرد والجماعة والدولة والنظم والإدارة والاقتصاد والسياسة والتربية  
والتعليم وهو ما يتضمنه من التشريعات ، يقدم شريعة مفروضة من الله تبارك وتعالى لشئون  
الفرد والأسرة والجماعة والدولة ، والمسلم يمكن أن ينظر إليه على أنه يقف ومن حوله دائرة  
الإسلام ينهل منها كل ما يخطر على باله فهو يجد الإسلام حكماً وتوجيهاً أو من مبدأ أو  
قاعدة أو تشريعات بحيث لا يستطيع الفكك من هذه الدائرة إذا أراد أن يكون مسلماً كامل  
الإسلام .

فالنظام الإسلامي يشرع لوجود الفرد قبل أن يوجد ، بمعنى أن تشريعات الإسلام  
تسبق وجود الفرد المسلم وخروجه للحياة تتنفس عبر الحياة ، وعند الولادة يجد تشريعات  
الإسلام تنتظره ، وكذلك عندما يكبر في عمله وفي سوقه وفي تجارته وفي سره وعلايته في  
كل شيء .

وهذا التشريع إما أن يكون منصوباً عليه بطريقة تفصيلية لا تدع لأحد اجتهاداً في  
القرآن الكريم والسنة المطهرة فمثلاً قوانين الميراث أحكم الله تبارك وتعالى تشريعها ، ولم

يدع لأحد حتى الرسول ﷺ شأناً فيها ، وفى بعض الأحيان لا يأتي الإسلام بهذا التفصيل بل يأتي بمبادئ عامة صالحة للتطبيق على ضوء القواعد التى أرسى الإسلام أصولها ، فالأصول العامة موجودة ، أما الاجتهاد فمترك للناس حسب ظروف حياتهم المتغيرة ، لأن الإسلام لم يأت ليكون فترة واحدة ، وهذا من خصائص الإسلام فهو صالح للتطبيق لكل الأزمان ولكل مكان إلى يوم القيامة وأن الإسلام شامل فى تشريعاته وليس مقصوراً على جزء من أجزاء الحياة ، وقد جعل الله فى القرآن نبياً لكل شئ : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [ سورة الأنعام : الآية ٣٨ ] ، ومعنى ذلك أن الإسلام ليس ناقصاً ولا منسوخاً ولا لفترة معينة ولا لمكان محدد بل هو دين شامل وعام وتام .

ومعنى هذا أننا إذا أردنا أن ننحى ونبعد الإسلام عن الحياة كما - ينادى العلمانيون - فمعنى ذلك أن ننحى نصوص الإسلام وأكثر تطبيقاته من القرآن الكريم كلام الله والسنة المطهرة ، ومعنى ذلك أننا نحول الإسلام إلى مجموعة من العقائد البسيطة وبعض القضايا فى الأخلاق العامة .

ذلك أن الإسلام ليس عقيدة فحسب ولكنه عقيدة وشريعة وعمل وأخلاق ، وبخلاصة القول أن الإسلام دين شامل عام كامل يشمل الطهارة والعبادات والمعاملات الحياتية وأحوال الأسرة فرداً فرداً فى رابطة عجيبة لم يشهدها التاريخ من قبل .

أما الذى يجعل الإسلام بعيداً عن أوهام العلمانيين من الناحية التاريخية فيرجع إلى أن الإسلام لم يشهد التسلط الذى فعلته الكنيسة الغربية فى أوروبا ، فليس فى الإسلام كهنوت وليس فيه واسطة بين العبد وربّه وليس لدينا تلك الطبقة التى احتكرت فكر الناس وعلم الناس وأذلت الناس باسم الدين .

وإذا كانت العلمانية هى إحدى تحولات الفكر الغربى فإن مصدرها الحقيقى هو الفكر اليهودى الذى كان له أبعد الأثر فى تحويل المسيحية المنزلة وإخراجها من مفاهيم الدين المنزل إلى دين بشرى متحرر من القيم والضوابط ، وكان هدف العلمانية هو إطلاق حرية الفكر فى الغرب بدون ضوابط أو قيود ، وأخطرها تحرر الإنسان من القيم الضابطة لحركته

فى الحياة وأهمها الأخلاق وفتح الباب أمامه لإنكار الأديان المنزلة ، ووجود الله تبارك وتعالى والغيب والوحى والبعث والجزاء .

ولما كان الفكر اليهودى يعمل على السيطرة على المجتمع الغربى فقد كان عليه أن يخلص هذا المجتمع من كل التوابع والضوابط الخاصة بالتعليم والأوضاع والقيم الأخلاقية فى الحياة السياسية والاجتماعية .

ومن هنا جاء الفارق الواسع والعميق بين الدول الغربية التى اعتنقت العلمانية وفصلت بين الكنيسة وبين المجتمع وبين الإسلام الذى حدد العلاقات الثلاث :

١ - بين الله تبارك وتعالى والعباد .

٢ - بين العباد بعضهم بعضاً .

٣ - علاقة الإنسان بجميع مخلوقات الله فى نظام محكم فى الدين والأخلاق والعلاقات المدنية حيث لا مبرر مطلقاً لوجود العلمانية فى هذا المجتمع .

يقول الدكتور سعيد سليمان : إن علمانيين اليهود من المؤرخين وعلمانيين ما قبل المسيحية وما بعد المسيحية اتفقوا ضد الأديان وسعوا لهدمها ، بل نكران الموحى إليهم من رسلها وأنبيائها ، زد على ذلك أن المؤرخين العلمانيين من اليهود يحذق ودهاء دفعوا غيرهم من مؤرخى الديانات الأخرى من العلمانيين ، ومنهم من ينتمون إلى العرب والمسلمين إلى نكران أديانهم والتشكيك فيها وأبقوا القداسة للعهد القديم ، وهى ما عرفت بالشرعية : شريعة موسى ، فهم ينزلون هدماً فى عقائد غيرهم ويوم أن يتكلموا عن اليهودية لا يختلفون عن الحاخامات ورجال الدين اليهود حتى وإن جاروا المنهج الحر فى النقد .

ولقد كانت العلمانية وسيلة لليهود ، بل كانت المظهر والآلية الخادعة لأتباع التوراة وأخيراً أتباع الإنجيل فى حربهم ضد الإسلام ، فالعلمانية كآلية بطش وخداع دفعوا بها إلى أذهان ووجدان الخصم لهم من المحسوبين على الإسلام اسماً .

إن الجيل الحالى من شباب الصحوة محظوظ مقارنة بجيل شبابتنا ، لأنه يعيش عصر وضوح العداوة والخصومة .



لقد عمل الفكر الأوربي بأهدافه وغاياته التوراتية والصليبية التي أخفأها خلف الستار واستخدم العلمانية التاريخية والواقعية ونصيب الأسد من ثمراتها لليهودية النفعية كممثل مشترك لهما نظراً لعقم الفكر الديني الذي جاء تحريفه ، ومتى حرف فقد صلاحه ، والذين حرفوه مغرضون فاسدون جمدوا به عن مسيرة الحياة واتخذوه لمصالحهم فظلت الأجيال في صراع بين الولاء للعقيدة والالتزام بمتطلبات الهوية وبين إعمار الكون وخلافة الإله في الأرض ومتطلبات الواقع فانتهوا إلى أن يعودوا إلى علمانية الرومان ووثنتهم .

ويرى كثير من الباحثين أن الثورة الفرنسية هي التي مهدت الطريق للإباحية والفلسفات غير الدينية : دارون وفرويد وهيغل وفورباخ وماركس وفلسفاتهم الإلحادية .

ويقرر المؤرخون أن اليهود ساهموا في نشر العلمانية بجدية وتفانوا في بذل الغالي والرخيص لدعم كل هذه الأفكار الإباحية وغير الدينية في العالم ، وكان ذلك رداً طبيعياً للممارسات الكنسية ضد اليهود باسم الدين ، فقد كان اليهود يتعرضون في أوروبا لأبشع ألوان التعذيب مما دفعهم إلى دعم ظهور العلمانية وانتشارها .

وإن العلمانية تسربت إلى العالم الإسلامي عمداً وبتخطيط محكم من الغرب ولم تكن مطلباً للشعوب الإسلامية أبداً وساعد على تسربها إرسال البعثات الاستشرافية والمبشرين والحملات الاستعمارية والغزو الفكري والثقافي للعالم الإسلامي ، ولتتمكن من تبديل الدين قامت القوى المعادية للأمة بالتحالف والتآمر على الخلافة الإسلامية وإسقاطها بالتعاون مع فريق من المستعربين من أبناء الأمة ، وبعد ذلك عملوا على فصل الدين عن السياسة والتعليم والإعلام والقانون إلا أن البذرة زرعت في غير أرضها ولذلك فهي تموت يوماً بعد يوم ، وها هي الشريعة الإسلامية العادلة تعود من حيث كونها مطلب وأمل يعيش في نفوس الأمة تنتظر في كل لحظة ضوء فجره ( سامي أنور ) .

وبالجملة فإن العلمانية نبات غريب عن بلادنا لا يمثل موقفاً حيادياً من الدين كما يقولون بل يمثل موقفاً معادياً فهي تضع المسلم في تناقض حاد مع قاعدة وتكامل الإسلام ، وتنظيمه الواضح لأمر المجتمع من خلال توازنه ووسطيته وارتباطه بالمنابع وقيامه

على الفطرة ، كذلك فقد كانت الأخلاق فى الإسلام قيمة أساسية مرتبطة بالعقيدة وليست من منطلق القيم النسبية المتغيرة ، لقد أعطى الإسلام الإنسان منظومة جامعة قوامها الإيمان بالله تبارك وتعالى من خلال التوحيد الخالص والاستفادة من قوة العقل ومن قوة كل ما هو مادى ، فالإسلام يدفع إلى العمل بكل ما هو دنيوى والأخذ بكل ما هو دنيوى وأخروى فى نفس الوقت .

\* \* \*

#### ملحق (١) إخوان الصفا والفلسفة :

ظهرت هذه الحركة فى أواسط القرن الرابع الهجرى ٣٣٤ واستخدمت الفلسفة لتقويض أساس جميع الأديان . ووضع إخوان الصفا رسائل فى العلوم وتخفظوا فى إظهار آرائهم جهاراً فاستعملوا الرموز وحشروا آراءهم بين السطور وأكثروا الوصية لأتباعهم فى صياغة رسائلهم وتعاليمهم وهم زيد بن رفاعه ، ومحمد بن نصر المقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون ، وكان لفكرة الباطن والظاهر أثر واضح فى مذهبهم حيث وجدوا فيه مدخلاً للتأويل وأسلوباً للكتابة جعلوا ظاهرها غير باطنها فخرجت عن معانى الإسلام ، ولكى تنتشر أفكارهم غلفوها بالعلم وصبغوها بصبغة المعرفة وقالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات ولذلك يجب مرجعها بالفلسفة ، وقد كرس إخوان الصفا جهودهم لنسف بنيان الإسلام وتقويضه من الداخل .

#### (٢) الشك المذهبى :

أكد كثير من الباحثين أن أصحاب الشك الفلسفى ( وهم السفسطائيون ) أنهم يستطيعون أن يقولوا أى شئ ونقيضه وأنهم شككوا الناس فى كل حقيقة فى العلم وفى الدين ، ووسيلة المعرفة عندهم هى الحواس وكانوا يعملون على أن يجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً وكان الشك المذهبى عندهم دائماً ومستمرأ وغاية فى ذاته وقد ارتبط الشك المنهجي بالانهايار الحضارى ، وهذا هو المذهب الذى حرص التغريب والغزو الثقافى على غرسه فى أرض الفكر الإسلامى عن طريق رجل كفيف يحمل أطروحة الدكتوراه من باريس وتوكل إليه كلية الآداب وجامعة القاهرة ووزارة التعليم فيما بعد وهو : ( طه حسين ) .

## الفصل الثاني

### ظلامية التنوير التغريبي

ما تزال كلمة الدكتور مراد وهبة ترن في الآذان فلا تنسى أبداً وذلك قوله : ( لا سلطان على العقل إلا للعقل وأنه لا سلطان للدين ) .

يقول الدكتور مراد وهبة عن التنوير : هو الخروج من الأسطورة إلى الدين إلى العقل وهو يقصد الدين الإسلامي بكلمة ( أسطورة ) والذين كتبوا عن التنوير من التغريبيين يقولون إن جذور التنوير تعود إلى القرن السابع عشر وبالتحديد إلى فرنسيس بيكون الذي رفض تدخل الدين في المعرفة لأن الدين يحد من كل أنواع المعرفة .

تلك مقولة الغرب المسيحي حين يرى أن التنوير عن طريق علوم الإلحاد والأصنام والفكر الوثني والإباحي اليوناني والروماني هو النور الذي يتطلعون إليه ولذلك يقول قائلهم : ( إن التنوير يحل آلهة التنوير محل الله والدين ) ، وإن الآلهة هي العقل والعلم والفلسفة .

وتجىء قضية التنوير - بعد قضية العلمانية - قضية غربية محضة لا صلة للإسلام بها . وعندما يقال التنوير ( في الغرب ) يراد به القرن الثامن عشر في تسلسل حقبة الفكر الغربي وعندما يقال هذا عن فكر التنوير يراد به لون محدد من ألوان الفكر في إطار الحضارة الغربية ، والتنوير كمصطلح شائع أوربي النشأة والمضمون والإحياءات وهو عنوان على نسق فكري محدد يسمى فكر التنوير وعلى مرحلة بعينها يسمى عصر التنوير وعلى مفكرين بذاتهم هم فلاسفة التنوير .

وقد جاء التنوير في الحقيقة حرباً على اللاهوت والمسيحية والكنيسة والتراث الغربي الوثني الأسطوري ودعوة إلى التحرر من السلطة والتقاليد والكهنوت والدين واللاهوت الكنسي .

ويتقرر أن فلسفة التنوير التي أطلقها الفيلسوف البافاري ( آدم وبيشوت ) لهدم قلعة الإيمان وهي الكنيسة واستبدالها بالعلم وقد رد الكاثوليك بأن هناك مؤامرة يقودها ( آدم وبيشوت ) والمشاركون فيها اليهود والشيوعيون ورجال المعارف والبروتستانت الجدد وهدف

المؤامرة هو الاستيلاء على الفاتيكان وتأسيس الحكومة العالمية العلمانية التي بشر بها الإنجيل  
إبذناً بنهاية العالم .

ويجىء دور مصر حين يتحدث العلمانيون والماركسيون عن تنوير المائة عام ، ذلك  
الذى قام به جرجى زيدان وبشارة تقلا وصروف ونمر ومكاريوس والأهرام والمقطم والهلل .  
ولماذا لا يذكرون أول صحيفة عن الماسونية أنشأها مكاريوس وأول كتاب عن تاريخ  
الماسونية كتبه جرجى زيدان .

أما الهلال الذى قصده جرجى زيدان بالتسمية الخادعة فهو الهلال العثمانى فى  
محاولة لخداع السلطات عن نحلته .

ولقد كانت خدمة المقتطف للفلسفات الغربية وخدمة الهلال للتاريخ والسياسة واضحة  
فقد جاء خريجوا إرسالية القديس يوسف ( أول إرسالية للتبشير الغربى ) إلى مصر وتصدروا  
الصحافة فى البلاد العربية ، فظلت صحفهم : المقطم ، الأهرام ، الهلال تنمو بينما  
سقطت الصحف المصرية الوطنية : البلاغ ، كوكب الشرق ، الجهاد ، المؤيد ، اللواء ،  
لأنها كانت تجاهد فى سبيل تحرير الوطن وليس خدمة كرومر وجماعته ولقد قسم المارون  
أنفسهم بين النفوذين : المقطم للنفوذ البريطانى والأهرام للنفوذ الفرنسى .

وخلال عصرين : كان الهلال خادماً للنفوذ الأجنبى والتغريب خلال عمل جرجى  
زيدان وأبنائه ومعهم سلامة موسى ، وطه حسين ، وكان العصر الثانى فى خدمة الجيش  
وتولى الصدارة فيها الماركسيون (أحمد بهاء الدين ، محمود أمين العالم ، كامل زهيرى) .  
وفى فترة قليلة مصطفى أمين وعلى أمين ، ومقولة الدكتور مراد وهبة باطلة وزائفة .

ولقد كان الاحتفال بمائة عام من التنوير خطة مأكرة يراد بها إدخال مفاهيم زائفة  
حول النهضة الإسلامية والصحو التى أرقت جفون الظالمين .

ولقد حاول كتاب التنوير أن يدعوا أن مصر كانت فى ظلام حتى جاء بونابرت فأثار  
الشرق كله ، والحقيقة أن النهضة كانت موجودة قبل أن يأتى نابليون ليدهمها ، أما تنوير  
قادة الإرساليات الأجنبية فى مصر والشام فهى تصوير مزيف لتاريخ أمتنا .

وكان هذا الاتجاه الخطر يرمى إلى أن يمحوا من ذاكرة الأمة أصحاب الفضل فى  
اليقظة والصحو بإخفاء أسماء هؤلاء الرواد الأبرار أصحاب الفكر الأصيل والمجددين  
الحقيقيين ، قادها علماء أعلام فى مقدمتهم عمر مكرم ، والجبرتى ، ومحمد بن

عبد الوهاب ، والزبيدي ، وجمال الدين ، ومحمد عبده ، وعبد العزيز جاويش ، وأحمد زكي باشا شيخ العروبة .

أما تنوير المائة عام فلم يكن تنويراً إلا بمعنى التعتيم والتحول من الأصالة إلى التبعية ومن القيم الإسلامية إلى التغريب .

فماذا أضافت المائة عام إلى الفكر الإسلامى ؟

لم يكن ذلك أكثر من العلوم الغربية الإنسانية والاجتماعية ونظرية دارون التى تختلف تماماً مع فكرنا الإسلامى الأصيل .

لم يكن أكثر من الدولة القومية والإقليميات لحجب الأفكار عن وحدتها والعربية لغة وقوما وإسلامية فكراً وعقيدة وفرض مفاهيم القومية والديمقراطية والاشتراكية والعلمانية بديلاً عن مفاهيم الإسلام ولم يكن ذلك أكثر من حجب الشريعة الإسلامية والأخلاق الإسلامية وفرض القانون الوضعى .

لم يكن ذلك أكثر من إشاعة روح التحلل والفساد تحت اسم الحرية ودعوة المرأة إلى الخروج عن عقيدة الأمة والأسرة وبناء المجتمع .

لم يكن ذلك أكثر من فرض النظام الربوى على الاقتصاد .

لم يكن ذلك أكثر من حجب القرآن والسنة والتراث الإسلامى والتشكيك فيه وإثارة الشبهات حولها لإحلال مفاهيم غربية كنسية وماركسية بدلاً منها .

وإشاعة فنون جديدة مليئة بأسباب الانحراف والسقوط أمثال المسرح والقصة والرقص والأغاني الخليعة .

والدعوة إلى عالمية الثقافة وعالمية الحضارة وتقبل القيم الغربية أساساً والدعوة إلى خلط التراث الإسلامى بالعلوم الإنسانية الغربية وإزالة ظاهرة التمييز الخاص للفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى بدعوى التقاء الثقافات بعد أن عجزت عن فرض ثقافة الغرب كاملة كما حاول طه حسين ، ومعنى هذا أن هذا لم يكن تنويراً إلا بمعنى التعتيم والتحول من الأصالة إلى التبعية ، ومن القيم الإسلامية إلى التغريب وقد عاشت المقتطف والهلل فى ظل كفالة الصحافة السياسية ، فقد سئل فارس نمر عن المقتطف ( المجلة الثقافية التى كانت تصدرها دار المقطم ) فقال إنها تعيش فى كفالة المقطم ولولا المقطم لما استمرت وكذلك ( الهلال ) عاشت فى كفالة المصور والمجلات الأخرى التى أصدرتها دار الهلال وكان إميل وشكرى

زيدان حريصان على بقائهما مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات احتفاظاً باسم والدهم الذى ارتبط بالهلال ولولا ذلك ما عاشت الهلال يوماً واحداً .

وقد جاء مصطلح التنوير من أسماء الأضداد ومن حصيلة التطور الخطير الذى أحدثته العلمانية فى الفكر الغربى الحديث ، حين خرج من إطار النصرانية إلى الفلسفة المادية على أثر الصراع المعروف بين علماء الغرب والكنيسة ولم يكن فى حاجة إلى البحث فى القواميس للوصول إلى التعريف الحقيقى .

ويكفى أن واحداً من العلمانيين قادة الفلسفة المادية هو الدكتور مراد وهبة قال بالنص :  
( التنوير يعنى فى عبارات بسيطة أنه لا سلطان على العقل البشرى إلا العقل نفسه وهذا عمل مردود ومعناه : إعمال العقل فى النص بحيث يمكن أن تتعدد الرؤية فهم يهدفون إلى إعلاء العقل وحجب الوحي والغيب ) .

والإسلام لا يقر هذا الفصل بين القيم ويعتبر أن قاعدة المعرفة الإنسانية الحقيقية تقوم على ( الوحي والعقل معاً ) ، أى الجمع بين ( النقل<sup>(١)</sup> والعقل ) بتعريف جهابذة الفكر الإسلامى .

فالتنوير الغربى يقصد به إظلام الفكر الإسلامى وحجب أصالته حين يقوم على أساس الوحي والغيب ، ويكون العقل أداة لذلك الأساس ، والهدف هو تزيف مفهوم الأصالة الحقيقية فى بناء التصور الإسلامى للكون والحياة والمجتمع والحضارة وضرب المسلمين فى القاعدة الأساسية التى تجمع بين الثوابت والمتغيرات وبين الأصالة والمعاصرة وبين الميراث والتراث ( الميراث هو القرآن والسنة ) والتراث هو العمل الإنسانى لفقهاء الإسلام ومفكره .

إنهم يقصدون بذلك ربط نهضتنا بما يسمونه ( عصر التنوير ) فى أوروبا وهو العصر الذى بدأت فيه حملة الفلسفة المادية على الدين بصفة عامة وبذلك يربطون تاريخنا بتاريخ أوروبا ويصورونها على أنها وافدة من الخارج ولا فضل لأصالتنا وثقافتنا وعقيدتنا بل يدعى البعض أن الحملة الفرنسية التى وجهت إلى المسلمين والعرب فى عهد نابليون ثم الجزائر بعد ذلك أنها بداية ما يسمونه عصر التنوير ويسعى دعاة العلمانية إلى توظيف هذا الادعاء الخاطيء لمهاجمة الثقافة العربية الإسلامية والسخرية من تاريخنا وحضارتنا .

( ١ ) النقل : ما ورد فى القرآن والسنة .

## الفصل الثالث

### الحداثة دعوة إلحادية

يمثل مصطلح الحداثة مفهوما مختلفا عن مفهوم ( التحديث ) الذى هو بمعنى التجديد ، وقد استعمل مصطلح الحداثة لتصوير ذلك الاتجاه الذى اتخذه الماركسيون والعلمانيون لخلق تصور فى مجال الشعر والقصة ( أو الفن جملة ) متعارض مع المفهوم الإسلامى العربى الأصيل ، وهو الاتجاه الذى حمل لواءه القس يوسف الخال وتبناه لويس عوض ، وأدونيس لهدم قاعدة الثوابت الإسلامية وقاعدة البلاغة والبيان القرآنى وإحياء تراث الوثنية والباطنية القديمة التى عملت على تفريغ اللغة العربية والفكر الإسلامى من الأصالة وتجميع المصادر الموثوق بها على أن ( الحداثة ) دعوة إلحادية صدرت فى أوربا فى نهاية القرن الماضى وهى لا تتناول الأدب وحده ولكنها تتناول جوانب السياسة والاقتصاد والاجتماع وتطالب بتدمير المجتمع تدميرا كاملا وإعادة بنائه لأنها تؤمن بأن الماضى شئ لابد من تدميره وعندما يختلف فإنه يحمل معه الميراث والتراث ويحمل أكرم ما ورثته الإنسانية ، ولذلك فهى لا تؤمن بالتراث أو الحاضر ، فهو فى نظرها بشع وكريه والمستقبل حلم جنين لا شكل له ولكن يتعلقون به .

ومن هنا فهى دعوى صهيونية وماركسية وإلحادية لأنها تركزت على نفى الدين أساساً وهى تعتبر الخطيئة مساوية للتوبة .

وأخطر مفاهيم الحداثة : أنها تضع الدين فى صف الثبات والجمود والتخلف والماضى بينما تضع مفاهيم العلم والعقل فى صف التغيير والتجديد والتقدم .

ومن ثم<sup>(١)</sup> فهى ترى أن الدين والقيم من علامات الجمود والتخلف بينما تمثل السخرية فى الدين رمزاً من التغيير الذى يؤدى .

وقد تركزت ( الحداثة ) بوصفها ( الباطنية الجديدة ) على الفن أساساً وقدمت مفهومها الخطير فى هذا الشأن حيث ترى الحداثة أن مهمة الفن هو هدم القيم والدعوة إلى الانطلاق ثم الانقلاب ، وقد دعت أساساً إلى ما يسمى بتجاوز الواقع والتغيير المستمر .

---

( ١ ) ومن ثم : ومن هنا .

أما الإسلام فقد وضع منهاجاً جامعاً متكاملًا من الثوابت والمتغيرات ، وفي عرف الحدائث أن الفنان لا يكون فناناً حقاً إلا إذا شن هجوماً مدمراً كاملاً على كل ما هو (ثابت) ولن يتحقق ذلك إلا إذا كانت لدينا طاقة إنشائية ( ويسمونها إبداعية ) متطورة تبلغ حد الهوس لتقوى على التخلص من كل شيء على طريق المعاصرة وارتداد المجهول .

وذلك بزعمهم حتى تفتح الأفاق أمام الإنسان ليمارس حريته دون قيد أو شرط ، وقاعدة ذلك التغيير الدائم من أجل التحرر الكامل ، ومن هنا يأتي الهجوم على القيم والهجوم على الأخلاق التي هي جزء لا ينفصل عن العقيدة الدينية ثم الهجوم على كل ما يسمى ( الخوف من الله تبارك وتعالى ) والجرأة على اللغة العربية لهدم أسلوب القرآن وتأسيس الجملة التوراتية (١) .

ولا ريب أن هذه مرحلة جديدة من مراحل هدم الدين والقيم أشد خطراً من المرحلة السابقة التي قادها المهجريون (٢) ( جبران وميخائيل نعيمة ) الذين دعوا إلى ما يسمى - كذباً وتضليلاً - موت الإله وولادة إله جديد ، سبحانه الله عما يقولون علواً كبيراً .

وهي في مفاهيم الفكر الغربي وتطور الآداب الأوربية مرحلة تأليه وأشد عنفاً من السريالية والدادية والعبثية واللامعقول وهي بفلسفتها الملحدة والمستمرة في الطغيان والعلو أشد خطورة من الليبرالية وكل ما عرفته البشرية من مذاهب واتجاهات هدامة وهي لا تخص العطاء الفني أو النقد الأدبي ، ولكنها تعم الحياة الإنسانية في كل مجالاتها المادية والفكرية على السواء وهي تمثل رأى أصحابها في تدمير القداسة وارتكاب الخطيئة وتقديس المذنب .

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ [ سورة فاطر : الآية ٨ ] ﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ﴾ [ سورة إبراهيم : الآية ٢٦ ] .

ومن هنا فإن كل الدعوات التي :

١ - تعلى من شأن الفلسفة الصوفية ( الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ) هي من الحدائث .

( ١ ) التوراتية : نسبة إلى التوراة .

( ٢ ) المهجريون : شعراء المهجر .



٢ - والتي تهاجم اللغة العربية وتتحدث عن تفجير اللغة فى كتابات ابن عربى والحلاج وغيرهما هى من الحداثة .

٣ - والتي تقدم مسرحيات ومسلسلات تحمل الإثم والفاحشة وتتنكب طريق القيم والأصالة والأخلاق هى الحداثة نفسها .

تتمثل الحداثة أساساً فيما يلى :

إعادة صياغة الفكر الباطنى القرمطى الذى وضعه إخوان الصفا وتشكلت عليه دعاوى المردكية والبابكية والقرامطة والمعتزلة الذى انتشر فى تلك الفترة المعروفة فى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى والذى كان من نتيجته ترجمة الفلسفات اليونانية والمجوسية والغنوصية ، وكان علماء المسلمين قد كشفوا زيفه وتضافروا على معارضته وفى مقدمة هؤلاء الشافعى وابن حنبل والغزالى وابن تيمية رحمهم الله فى جولة طويلة امتدت أكثر من قرن من الزمان .

وفى العصر الحديث عمد النفوذ الأجنبى عن طريق الاستشراق إلى إعادة إحياء هذا الفكر وإعادة ترجمة هذه الفلسفات المختلطة بعد أن تأثرت باليهودية والمسيحية وكان من وراء ذلك تقديم معطيات جديدة ذات بريق خادع لإغراء الشباب المسلم وخداعه عن عقيدة التوحيد الخالص وتزييف مفاهيمه وكسبه إلى هذا الدائرة المسمومة عن طريق الإغراء الجنى والإباحيات .

وجاء المدخل لتدمير الشخصية الإسلامية عن طريق الأدب والشعر فحشنت من ذلك أشعار أبى نواس والحياب والحطيعة التى احتفل بها الدكتور طه حسين فى كلية آداب القاهرة وجعل شعاره الكاذب :

( إن القرن الثانى الهجرى كان عصر شك ومجون ) .

وضمت إلى ذلك مصادر مسمومة كالأغاني وألف ليلة وضم شعر فى الخمر منسوب إلى عمر الخيام ومكانه من شعر الباطنية الذى تجاوز أصول العقيدة الإسلامية وامتد إلى كتابات ابن عربى والحلاج وابن سبعين وضم حصيلة ضخمة من مصطلحات التصوف الفلسفى التى لم يعرفها العصر الأول ولم ترد فى القرآن والسنة .

وتولى قيادة هذا الركب جماعة من ملاحدة لبنان والمارونية الذين خرجتهم لإرساليات التبشير وسافروا إلى المهجر بهدف تدمير اللغة العربية ومفاهيم التوحيد فكتبوا عن اللاأدرية والإباحيات وكان في مقدمتهم جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي ثم تولى قيادة هذا العمل القس يوسف الخال الذي احتضن أدونيس ( على أحمد سعيد ) وعبر به من القومية إلى الشعبوية ومن الإسلام إلى المسيحية وإلى الباطنية وقدمه لجامعة القديس لويس التي أعطته أرفع درجات الدكتوراة تكريماً لما قام به من ربط بين الفكر الباطني القديم والفكر الشعبي الحديث وكانت من حوله جماعة مساعدة في مقدمتها لويس عوض والسياب وصلاح عبد الصبور والبياتي وغيرهم .

وكان الهدف من هذا كله تدمير البيان العربي القرآني المتمثل في الأسلوب الذي شكله القرآن الكريم والسنة النبوية فأقام ذلك الصرح الشامخ من الأدب القائم على الإيمان بالله تبارك وتعالى ، المتمثل في الخلق الرفيع والمثل الأعلى والسمو فوق حالات الضعف الإنساني والبعيد عن الإباحية والكشف والانحلال .

ثم كانت هذه الحملة الضخمة التي تريد هدم أصالة اللغة العربية وبيانها هدم القرآن نفسه وذلك بعد أن عجزت الحملات المختلفة المتعددة المستمرة خلال أكثر من قرن من النيل من بيان القرآن فكان لابد من استحداث مدخل مثير وخطير يتمثل فيما أطلق عليه ( الحداثة ) وحرية الإبداع بهدف قلع جذور الثوابت الأصيلة في مجتمعنا وفكرنا الإسلامي الذي قام أساساً على قاعدته من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

يقول الدكتور شكرى عياد : الحداثة هي استخدام الحيل اللفظية والعبث لذات العبث من حيث يسمونه الحداثة بتقديم نظرية غريبة للنقد الأدبي تقوم أساساً على عنصر التدوق ومحاولتهم تحليل التدوق والوصول به إلى درجة العلمية ، ترى هل يكفى التدوق وحده لإنشاء نظرية نقدية .

اعرف ما تقوله المدارس النقدية الحديثة من البنيوية إلى التفكيكية عن نشاط القارئ الذي يعبرون عنه بإنتاج النص وقد غلوا في ذلك غلواً شديداً .

إن النصوص غير المفهومة تقصد العبث لذات العبث وأحياناً توهم بمعنى متين في سطر لتنفذه في السطر الثاني والرسالة التي يريدون توصيلها إلينا هي أن الكلام كله عبث

والحياة خالية من المعنى وهذا هو المرض في الغرب حيث تطورت الحضارة إلى أن وصلت إلى درجة الشك في جميع القيم حتى في معنى كلمة ( قيمة ) ذاتها وآخر هذه القيم وأفدحها هي قيمة الحقيقة التي أعلن دريدا زعيم التفكيكيين أنها شيء غير موجود ، فضلاً عن ارتباط الغموض بالحدثة .

فكثيراً من الممارسات الرديئة تتخفى تحت أسماء محترمة ممن يسمون أنفسهم حداثيين يسترون الفوضى الفكرية والانفعالية واللغوية التي يتخبطون فيها تحت مقولة محترمة ومعترف بها في النقد وهي أن الشعر الذي يحتاج إلى تأمل وأن القارئ لا يشعر بمتعة حقيقية في قراءة النص المكشوف الجامد مثلما يشعر بهذه المتعة أمام نص حي قابل لأنواع متعددة من التأويل .

إن موقف الفكر الإسلامي من هذه الأطروحات واضح وموقفه من العلمانية والحدثة والتنوير أنها نبات غريب لا يمكن أن ينمو في البيئة الإسلامية مهما حاول أصحابه ومن وراءهم طرحه في أفق الفكر الإسلامي ولكن قبل أن نعرض لذلك فإن علينا أن نتعرف على رأى الفكر الغربى نفسه في هذه المقولات :

إن هناك شبه إجماع على أن الحدثة ظاهرة رافضة للحضارة وتجميل للقيبح ، فقد أكد جورج لوكاتش على الطبيعة المادية والتاريخية لبنية المجتمع الغربى ويقول سولجنتش إنه لا يوجد عمل جديد بدون ارتباط عضوى مع ما سبقه من أعمال ، وكلما قلت القيود التي يضعها الكاتب على نفسه قلت أيضاً معها الفرصة في تحقيق نجاح فنى ، فهناك قوة منظمة مسئولة تضعف أو قد تدمر بناء ومبنى القيم النهائية للعمل الفنى ، ذلك أن التوازن بين التقاليد الأدبية وبين البحث عن الجديد قد هدم ما يسمى بالفن الطبيعى الذى يفترض إلى الصبر .

فإذا رجعنا إلى الحرب الأولى فقد أخذت الحركة الطليعية على عاتقها مسئولية هدم الفن الشائع والمقبول : هدم أشكاله ولغته وملامحه وميزاته وهي مدفوعة بالرغبة في خلق فن خارق وقد قامت حركة الإحياء بالإحياء بأن على الفن أن يبدأ من جديد ويبدأ على صفحة جديدة بيضاء وأصبح الهدم هو شعار هذه الحركة المقاتلة وقد صاحب الحركة دعوات تتخلى عن الدين وعن ميثاق القيم والتخلى عن التقاليد الثقافية ورغم عنف الحركة إلا أنها لم تنتج كاتباً أو عملاً ناجحاً وقد أطلقوا على أنفسهم اسم : « المستقبليون » .

وكأنهم قد وطأت أقدامهم الحاضر وأنهم قادمون من المستقبل والنتيجة الوحيدة التى تحققت حدوث غيبوبة للتراث بكل أنواعه والآن وبعد سبعين سنة من القهر فإن الفوضى هى السمة الرئيسية ، أما الجيل الحالى فإنه يعانى من الصدمة والذل ومن فقدان الذاكرة ، ويقدر نقص الباحثين فى الغرب فإن الحداثة بأشكالها الحالية تسيء توجيه أولئك الذين يعيشونها بحيث يدون غير متأكدين من هويتهم وفاقدين للمعالم الموجهة .

ويمكن ملاحظة تيارين كبيرين عرفهما التاريخ المعاصر أولاً : هناك معجزات العلم والتقنية والإنتاج ، ومن جهة أخرى هناك عملية نزع السمة السحرية عن العالم الخاص بما بعد الحداثة التى جعلت من هذا القرآن زمن التفككات التى ترك مكانها للفراغ والظلال وتنمى هجمة لا تحققها جيداً النجاحات التى حققها العلم البقيني ، أ هـ .

هكذا هو أمر الحداثة فى الفكر الغربى ، أما فى أفق الفكر الإسلامى فالأمر أشد خطورة .

\* \* \* \*

## الحداثة العربية

ما موقف الفكر الإسلامى من ( الحداثة ) بميراثها القديم والخطوات التى توالى بين يدى العلمانيين والماركسيين وأعداء القرآن فى محاولة لتحطيم البيان العربى الأصيل وتزييفه وعلى الأقل عزل الفكر الإسلامى عن تراثه وماضيه ؟ والحداثة واحدة من تلك الأشواك الخطيرة التى وضعت فى طريق الفكر الإسلامى لتعيقه عن النمو والامتداد وهى تعنى هدم القيم على نحو ما يراه ذلك الفريق من الشيوعيين والعلمانيين الذين أتيحت لهم الفرصة لطرح هذه السموم .

يقول الدكتور حلمى القاعود : إن الحداثة كما طرحت فى العالم العربى إنما هى مصطلح مراوغ يضم تحت رذائه نخبة من أصحاب الفكر ومحدثى الأدب الذين يتفقون فيما بينهم على قطع صلة العربى بماضيه تماماً ، سواء كان هذا الماضى ( العقيدة الإسلامية أو التاريخ أو التراث ) اللهم إلا ما اتفق من هذا التراث مع مناهجهم سواء تمثل فى النزعات الشعبية أو الباطنية أو الإلحادية ( الزنادقة ) أو غير ذلك مما يتناقض مع الإسلام وتصوره الصحيح .

وفى الغرب اتفقوا على أن الحداثة تعنى عدم التواصل والانقطاع عن الماضى تاريخياً وجمالياً أو رفض كل القيم المرتبطة بالماضى وهو ما ألح عليه أدونيس فى كتاباته .

فالحداثيون ينطلقون من نقطة واحدة ، هى ( الانقطاع عن الماضى وإن تنوعت بهم الوسائل بعد ذلك فى التعبير عن هذا الانقطاع ) .

وتتحرك الحداثة العربية فى إطار معاد للإسلام والأدب العربى بتقاليده الفنية الموروثة بهدف إحلال بديل آخر يعبر عن هوية جديدة وعالم جديد ليس لنا ولنسنا له .

وهم يحتفلون بالأقلام الحداثية التى تعصف بقيود الخليل بن أحمد أو تجاوز المدى العروضى الخليلى .

وقد تم لهذا التيار فى الستينات السيطرة على معظم الصحف والدوريات وأجهزة الإعلام المسموعة والمنظورة ودور النشر الكبرى مما أتاح لرموزه التجذر فى أعماق الحياة الثقافية الأدبية واحتضان المذهب الجديد .

إن كل أفكار وتنظيرات الحدائين ترجع إلى أصولها الماركسية والإلحادية التغريبية مما يؤكد أن الإسلام على وجه الخصوص هو جوهر هجوم أدونيس وجماعته ويقارن بين أقواله النظرية وقول كارل ماركس : ( إن مهمتنا هى أن نعرى العالم القديم تعرية تامة ، وأن نعطي العالم الجديد معنى إيجابياً ) .

ويركز الحدائيون على التراث فيقرر أدونيس أن الجذر الحقيقي لمنهج هو نفس الثوابت نفسها كاملاً لتأسيس عصر جديد يقوم بادیء ذى بدء بالانفصال كلياً عن الماضي ، إن نقطة البداية فى هذا الانفصال هو نقد الموروث ونقد كل ما هو سائر وشائع .

إن الحدائنة فى وعى الحدائين وفى مقدمتهم أدونيس ترتبط بالموقف من الدين أو بنفى الدين من واقع الأمة وتصورها مهما كانت نتائج هذا النفى ، والدين هنا يقصد به الإسلام وحده ، لأن الأمة العربية لا تملك إلا ديناً واحداً تؤمن به الأغلبية الساحقة التى تمثل ٩٣ فى المائة من أبنائها ولا تقصد به النصرانية أو اليهودية ، لأن أدونيس قد تعاطف مع النصرانية وحدها دون الإسلام ولم يهاجم اليهودية .

فالهدف الأول للحدائنة العربية المعاصرة هو نفى الدين الإسلامى أو إسقاطه من معاملة الوجود العربى ويستتبع ذلك إسقاط كل ما يتعلق بالإسلام من مقومات حضارية ولغوية وتصورية ، وهو ما عبر عنه بالانفصال كلية من الماضي ، ومن هنا يتابع الحدائيون الجوانب النافرة والمتمردة من الشعر العربى القديم والظواهر المتمردة والشاذة مثل بشار بن برد وأبى نواس وابن بابك ولم يرضوا إلا بالنماذج التى خالفت القيم الدينية والفنية .

ويقرر الدكتور عدنان قاسم أن الحدائنة تقوم على مبدأ النقض وهو ذروة الحدائنة ، النقض بمعنى الهدم ، وفى الحقيقة إن الحدائنة بنيت على مجموعة أسس منها القلق والوحدة والموت الفاجع والضياع والجنس باعتبار أن كل هذه المبادئ تدعو إلى الحرية ، ومن هنا فإن هؤلاء يعتقدون أن ما يحقق حرية الإنسان هو قمة الحدائنة ، وحتى لو اقتضى ذلك أن يظل الإنسان هادماً كل ما يبنيه .

أستطيع أن أجزم أن الحداثة ليست إشكالية عربية بقدر ما هي إشكالية غربية ، حتى وإن كان أدونيس قد ذهب إلى أنها إشكالية عربية .  
إن ثقافة أدونيس وإطلاعه على الحداثة الغربية نَّهَّه إلى القيم الحداثية فى التراث العربى القديم .

لقد حاول أدونيس أن يتحسس جذور هذا المفهوم الحداثى القائم على أساس من الجنس والحلم والجنون وعاد إلى صاحب الزمرة ، عاد إلى بشار بن برد ، عاد إلى محبى الدين بن عربى ، والنفرى وقال إن النفرى وضع أسس الحداثة .  
هذا النمط من البحث يتوافر فيه عملية الإسقاط ، يعنى كأنه يسقط من نفسه على ذلك التراث ولولا أنه قرأ الحداثة فى مصادرها وبنابيعها الغربية لما استطاع أن ينتبه إلى هذه القيم .

والمشكلة أن جميع التيارات الفكرية والفلسفية والجمالية بصفة عامة نابعة من مجتمعات معينة لها ظروفها الحيائية ، هذه الظروف أثمرت هذه الفلسفات التى يصدر عنها حاملوها من الغربيين ، والظروف الغربية ليست مؤهلة أو قادرة وليست فيها هذه المواد التى تنتج مثل هذه الفلسفات لأن للمجتمع العربى ظروفه الخاصة وإمكاناته وطاقاته جزء أساسى منه ، وإذا كانت الحداثة قد لفظت فى مجتمعاتها الغربية فكيف يمكننا أن نقبلها فى مجتمعاتنا العربية ؟ فنحن قد اتفقنا على أن المجتمع الغربى هو الذى أفرز مصطلحات الحداثة : ناس عاشوا القلق والوحدة والضياح فكما كان يذهب الوجوديون ، هذا النمط من الحياة القلقة التى تنعدم فيها الصلات بين أفراد المجتمع : صلة المحبة والمودة ، فإن مجتمعنا العربى على الأقل تسيطر عليه جذور العقيدة الإسلامية ، وبظل هذا المجتمع يحتفظ بكثير من القيم التى تتناقض مع مبادئ القلق والوحدة والتشتت والموت الفاجع .

نحن نستورد هذه المدارس كما يستورد التاجر بضاعته ، ولهذا ظلت الحداثة تقاطعه ولا تتناسب مع القيم المضمونية التى دعت إليها ، ولا من حيث القيم الجمالية التى تتركز مع ذلك الأسلوب المعقد والمستوى الذى يحتاج قارئاً معيناً وخاصاً .

\*\*\*





## الفصل الرابع

### الإسلام وحرية الإبداع

الظاهرة البارزة في أسلوب الحرب التي يشنها الفكر المادى العلمانى على الثقافة والفكر الإسلامى والأدب العربى هى ظاهرة ( المزاوغة ) القائمة على الخداع والتضليل والتخفى للوصول إلى الغايات من دس السم وتزييف الحقائق والقضاء على طوابع السماحة والصدق والنقاء والخير ، فى مجال الفن والأدب كمدخل خطير لتدمير القيم الأخلاقية التى هى الظاهرة الأساسية فى الإسلام لبناء مناهج الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية .

ولما كان الهجوم الصريح على القرآن الكريم والسنة والسيرة والفقہ الإسلامى من شأنه أن يكشف وجهة نظر دعاة التغريب والغزو الثقافى ويرد الناس عن سمومهم ، فإنهم فى هذه المرحلة يغلفون هذه السموم بصورة براقة من الأدب والفن ومن خلال المسرح والقصة ومشتقاتهما تحمل كل طوابع الإباحية والكشف والتحلل لإدخال هذه المفاهيم إلى المشاعر والعقول فى محاولة لتدمير قيم الاستقامة والصدق والوفاء والإيمان والإخلاص والرحمة .

ويرى دعاة التغريب والعلمانية والاستشراق والغزو الثقافى والتبشير أن هذا المجال ( مجال الفن ) مجال مفتوح يستطاع عن طريقه استعمال أدق أساليب الإيحاء النفسى والخداع والوهم فى إنفاذ مفاهيم معارضة تمام التعارض للقيم التى دعا إليها الإسلام والتى عايشت أجيال المسلمين فى شرق الأرض وغربها أربعة عشر قرناً ، وكانت عاملاً من عوامل تماسك المجتمع وصمود الفرد والقسدة على مواجهة التحديات والوقوف فى وجه الأزمات والأحداث .

وبعد أن كان ( الفن ) فى أول أمره كما يقال عاملاً من عوامل إصلاح المجتمعات والكشف عن أزماتها ومحاولة إعادتها إلى الجادة استطاعت الأيدي الملوثة أن تجعل منه مدخلاً للتدمير ، تدمير النفس الإنسانية والوجود الفردى والكيان الأسرى والجماعى من خلال مفهوم تدمير ( الجويم ) الذى هو ليس يهودياً ( الجويم هم الأميون ) .

ويشهد لذلك عدد من كُتّاب الغرب من أمثال الناقد الفنى جان كلير الذى يؤكد أنه

منذ الحرب العالمية الثانية ( ١٩٤٦ ) قد حدثت تحولات جذرية فى المجال الفنى حيث يتدفق سيل من الاتجاهات الغربية المبتذلة ، ولا أدل على مدى هذا التخطيط من محاولات الهدم الفنى والرغبة الجامحة إلى التدمير ، وذلك الطموح الذى لفت الأنظار اعتماداً على التخويف والتزييف من أمثلة : فن الطبيعة ، الشرايية ، النفعية ، الفن النظرى ، البدائى ، اللاشكلى ، الكهربائى ، إلى أكثر من مائتى تصنيف للفن الحديث لهذه التسميات التى داهمت هذا العصر لتصيب قارئها بالغثيان ويقول : إن هذه التسميات تنم عادة عن عمليات تزييف واسعة للواقع والكلمات والأفكار والأساليب لإخفاء ( اللعبة المستترة ) التى كانت تتم خفية .

ويرد الباحثون ذلك إلى الماسونية وبروتوكولات صهيون ومن فروعها : نزعات نيتشة ويودلير والسادية وكيف تتحرك الآن تحت اسم الفن الحديث ويرون أن أدب المهجر كان منطلقها فى بلادنا .

ولما كنا نحن فى الوطن العربى نقف فى مواجهة هذه الأخطار المتمثلة فى العروض المسرحية والسينمائية الوافدة فإننا يجب أن نكون على وعى بهذه المخاطر والتحديات التى كتب عنها الكثيرون تحت عنوان ( لعبة الفن الحديثة بين الصهيونية والماسونية ) .

فإذا حاولنا أن نسأل أو نراجع قيل لنا : إنها حرية الإبداع فما هى حرية الإبداع ؟ يقول فؤاد زكريا ومراد وهبه : إنها القدرة على اقتحام المحرمات الثلاث : ( الدين والسياسة ، والجنس ) .

فهى المجال الحيوى الذى يتحرك فيه الإبداع ، ومعنى هذا أن حرية الفنان فى الإبداع هى التى تتيح له تجاوز الضوابط والحدود والمحرمات وإهانة المقدسات والاستهانة برموز الإسلام وتخريب الأخلاق وهى التى أدخلت فى بيوت المسلمين كل معانى الفحش والرذيلة بدعوة الضرورة الفنية وحل مشاكل المجتمع .

والواقع أن الفن فى مفهوم الغرب قد أدخل خطرين محظورين إلى فكرنا العربى الإسلامى :

**الأول :** أنه أعطى كاتب القصة التاريخية حرية التصرف فى الواقع بما يتفق مع هواه بحيث أنه يتجاوز كثيراً الصحيح والمعروف .

الثاني : أنه أعطى الحرية فى اقتحام المحرمات تحت اسم الإبداع وحرية الإبداع ، والفن للفن ، وهذا يختلف تماماً عن مفهوم ( أمانة القلم ) إزاء الأعراس والحقوق وقيم البشر فهو يفتح الطريق واسعاً أمام إشاعة الفاحشة التى حرمها الله تبارك وتعالى على أهل القلم والفكر ، وفى هذا المنطلق ظهر المذهب الوجودى لسارتر ، والمذهب السريالى الذى يهدف إلى هدم جميع الحركات الذاتية النفسية .

ومن أهدافه الأساسية : هدم كل معتقد وهو فى ذلك يخضع لسلطة فرويد فى إعلاء الجنس وفى تفسير كل شىء به حتى رضاعة الطفل من ثدى أمه .

والمذهب العبثى : الذى يدعو إلى التمرد من قيود أى مسلك أخلاقى ومذهب الدادية الذى يدعو إلى تدمير منابع الفكر واللغة معاً ، وعلى هدى هذه المذاهب الفنية الفلسفية المنتشرة الآن فى بلادنا ومعاهدنا والتى ترمى إلى ثلاثة أهداف :

أولاً : تخطيط النظام الاجتماعى .

ثانياً : توهين العزائم فى كل مكان .

ثالثاً : إحياء النزوات .

وتكاد هذه الدعوات الهدامة كلها أن تركز على حرب اللغة العربية بدعوى أنه فى قواعد اللغة العربية ( ثوابت ) لا تخضع لأى تغيير وذلك إنكاراً للثوابت التى يقيمها الإسلام فى مختلف مجالات اللغة والفن جميعاً ويدعو محمد أركون فى كتابه (الإسلام : الأمس والغد ) ويلج فى إلحاحه إلى وجود لغة جديدة بصورة جذرية والتخلى عن السبل المألوفة التى اتبعت منذ أمد بعيد ، بقول شىء آخر لا يقول نفس الشىء .

نقول : فإذا تقرر هذا الفكر المسموم أمكن أن يدخل الدين فى دائرة التغيير ، نقول وكأنما الشىء الآخر الذى لا يمكن قبوله : هو الإلحاد والزندقة وهم يضعون تجربة اللغة اللاتينية التى تفرعت عنها اللغات الأوروبية الحديثة كمثال يحتذى غافلين عن الفوارق العميقة بين اللغة اللاتينية واللغة العربية التى نزل بها القرآن ومنذ أربعة عشر قرناً فحفظها من الانهيار الذى أصاب لغات العالم أجمع ووضعها فى موضع مختلف تماماً ، يعجز عن أن يناله خصوصيتها وهم يقولون : إن الفكر الأوروبى قادم بلغة ذات مضمون محرفى

النصرانية ولغتها ذات المضمون الطائفي والمذهبي ، أما الفكر الإسلامي فهو في نظرهم عاجز عن ذلك .

وهم يبحثون عن هذا العجز وهذا القصور من أجل تحديد شرط إمكانية قيام ( فكر إسلامي متحرر ) على حد قولهم ، هكذا تجرى الأمور في دائرة التغريب وهي في كل يوم تزداد اقتحاماً للقيم والمقدسات ، والهدف اليوم أمام دعاة التغريب ودعاة الحداثة هو التركيز على الفصحى لغة القرآن وهدم مقوماتها ، وفي مقدمة العاملين في هذا الميدان : القس يوسف الخال ، ومحمد أركون ، وأدونيس ويتبعهم عدد من المُعَرِّين بهم في بلادنا .

يقول الأستاذ ملباري في بحثه المستفيض عن الحداثة :

لما كانت اللغة هي الواقع المهيمن على فكرنا الإسلامي فقد بدأت ( الحداثة ) رحلتها التأثيرية بتحديث اللغة ، ولما كان الإبداع الشعري هو المظهر الأكبر بروزاً في فضاء اللغة العربية فقد سلكت الحداثة إليه بل وضعت كل ثقلها فيه فكان هناك تجمع شعر ، مجلة شعر ، الفصول ، يوسف الخال ، أدونيس ، المعري ، الجابري ) ويتبعهم أذنان لهم لم يتورع أحدهم أن يقول إن الإنسان كائن لغوي ومن هنا يكون متحولاً ومتغيراً .

ونسى هؤلاء حقيقة تصك وجوههم جميعاً وهي : أن اللغة العربية من الثوابت التي لا تتغير أسسها والتي تحمل معها القرآن والسنة وتراث ألف سنة من الفكر والفقه والعلوم ولم يدرك الحداثيون ضوابط الحداثة مع الفكر والعقيدة الإسلامية .

والواقع أن الحرب المعلنة على القرآن الكريم وميراث الإسلام ولكنها ما تزال خفية وراء هذه المظاهر ، وعلينا أن نكشف أمرها ونفضح مخططاتها .

إن الهدف الخطير وراء كل هذه الافتحامات هو العمل على الانفصال عن الماضي كله ( ويراد بالماضي القرآن والإسلام ) والعمل على تأسيس مداخل من التوراة على النحو الذي تدعو إليه مقولة البيوت : ( العودة إلى أدب الإنجيل ) .

لقد كان أولى بنا أن ندعو - ونكون أكثر صدقاً وأصالة - إلى أدب القرآن الكريم فهو وحده النص الخالد الباقي الذي لم يصل إليه أي تزيف أو تغيير أو تحريف .

يقول أدونيس : لست هداماً رافضياً وحسب بين هدامين رافضين ، إنني أطمع أيضاً إلى أن أكون الهدام الرافض وأن يكون شعري تجسيدا للرفض والهدم .

وسوف تسقط دعوة أدونيس ومن معه كما سقطت السريالية والدادية والوجودية ،  
ولكن على وعى ويقظة فإن هؤلاء الذين يدعون إلى رفض التراث الإسلامى الأصيل هم  
فى نفس الوقت ينبشون تراث الباطنية والفساق والفجرة القدامى من أمثال أبى نواس وبشار  
وغيرهما ويتخذون منه أرضية لهم ويذيعون به .

إن حركة الإبداع عند دعاة الحداثة والبنوية وغيرهم : هى اقتحام حمى<sup>(١)</sup> الدين  
وفرض مفاهيم فرويد فى الجنس ودوركايم فى هدم الأسرة وماركس فى الصراع الطبقي  
ودارون فى أن الإنسان من سلالة القرد وبالرغم من أن هذه السموم كلها قد تكشف زيفها  
فى كتابات علمية رصينة ومؤتمرات عالمية على مدى قرن كامل فإن أصحاب الأحقاد  
العميقة ضد الإسلام ما يزالون يرددونها من جديد بصيغ مستحدثة .

لقد سقطت الماركسية ولكن التنظير المادى من خلال العلمانية ما يزال يتحكم فى  
كثير من القضايا بل لقد أخذ الفكر العلماني الغربى يحتضن كثيراً من مفاهيم الماركسية  
كالتفسير المادى للتاريخ وبشرية القرآن وإنكار الغيب والبعث والنبوة .

كما أخذ الماركسيون يحاربون الإسلام فى خندق العلمانيين والملاحدة ، ومن هنا  
فإننا ملتزمون بالآية الكريمة : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله  
بغير علم ﴾ [ سورة لقمان : الآية ٦ ] .

قال الإمام الزمخشري : إن الأحاديث مثل : السحر والأساطير والخرافات والمضاحيك  
وما يفعله الزنادقة وأصحاب الفاحشة والفساد والمحرمات ، ولهو الحديث كل كلام يشغل  
القلب عن جادة الصدق والخير والعمل الصالح .

ومن هنا فإن ( مؤامرة حرية الإبداع ) وما يتصل بها تدخل فى هذا المخطور ومن هنا  
فإن الذين يتعرضون باسم الإبداع إلى أصول الدين وعقيدته المستقرة إنما يخالفون نصوص  
القرآن الكريم الذى ضرب مثلاً فرق فيه بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ليعلم الناس أن  
يكونوا مع الأولى ويتعدوا عن الأخرى ، وكل ما يتصل بالسخرية والتهكم بقمم العقيدة أو  
فى ذات الله تعالى ، ورسوله ﷺ وعقيدته وتاريخه يدخل فى هذا الإطار .

كذلك فإن دعوى الاحتكام إلى ( العقلانية ) فى المسائل المقررة فى الإسلام والتى

( ١ ) الحمى : الحارم .

هى من الغيبيات لا تقبل ، لأن العقل وحده ليس كافياً ولو كان كافياً لقيادة الحياة لما كانت هناك حاجة إلى الرسل الذين أرسلهم الحق تبارك وتعالى للناس ، فالذى يقول إن العقل يحيط بكل شئ ينقص من كمال الإسلام الجامع بين جوانب العقل والقلب ، والروح والمادة ، وعالمى الغيب والشهادة ، وفى الإسلام تأتى ( حرية الفكر ) موسومة دائماً بالانضباط والتوازن والتكامل مع قيم أخرى وليست أمراً مطلقاً ، كذلك يكون أمر القيم الأخرى التى يشترط أن تكون جامعة بين الروح والمادة كالتقدم والتجديد وهنا تبرز قاعدة الإسلام القائمة على الثوابت والمتغيرات التى لا مجال فيها للاجتهاد والتغيير ، والمتغيرات التى تستجيب للتطور وتغير البيئات والأزمان .

وقاعدة الإسلام أنها تقبل تجارب الحضارات والأمم فى الوسائل وأساليب العمل ، ولا تقبلها فى الأصول العامة . أى المضامين .

وكل ما ينقله المسلمون من حضارات الأمم وتجارب الآخرين ، إنما يكون بمثابة مادة خام يصهرها المسلمون فى دائرة فكرهم ولا تكون مؤثرة تغير جوهر الثوابت أو تخطوها .

ومن هنا فإن حرية الفكر أو دائرة المعطيات التى يطلق عليها خطأ كلمة الإبداع يمكن أن تجرى فى جانب المتغيرات .

أما الثوابت فهى لا تخضع لحرية أو لاجتهاد أو تجديد ( ما عدا الوسائل ) أما الغايات فلا .

ولقد كان الإسلام دائماً حكماً على الحضارات والأمم ولم يكن فى يوم من الأيام خادماً لأهواء أهلها أو مبرراً لانحرافها أو خاضعاً لمطامعها ، ومن هنا فإن الإسلام يقف موقفاً واضحاً أمام مؤامرة الفن الحديثة فى محاولته السيطرة عن طريق الحداثة أو مسرح العبث أو اللامعقول أو المسرح التجريبي واستعماله كأداة لتدمير حضارات الأمم وتراثها وخاصة تراث وحضارة الأمة الإسلامية ، وسوف لا نستطيع رباح المحرمات والحداثة والبنوية والعبيثة أن تقتل حصوننا الراسخة .

هذه حقيقة خطيرة استعلنت عام ١٩٩٢ بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وهزيمة الشيوعية وهى تمكن الماركسين المصريين من الوصول إلى السيطرة على منابر ثقافية أساسية وأتيح لهم فرصة الهجوم على الإسلام وقيمه وشرعيته من خلال الدعوة إلى ما يسمى بالتنوير

والحادثة ، وقد كشف هذه الحقيقة الدكتور محمد مصطفى هداره حين هاجم ما أسماه « سيطرة الماركسية العلمانية » على الصحف والمجلات المصرية وتولى الشيوعيين للمناصب الحساسة في دوائر الثقافة والإعلام والجامعة في مصر .

**قال الدكتور هداره :** لقد أصيبت الماركسية في الصميم بتفكك الاتحاد السوفيتي وانكشف آثار تطبيق هذه الأيديولوجية ذات الشعارات الجوفاء ولكنها لا تزال تواصل سمومها في مصر وتطالعا وسائل الإعلام كل يوم في إلحاح بأقلام المروجين لها الذين أظهر بعضهم توبة كاملة من أمثال أحمد عبد المعطي حجازي ، وغالى شكرى ، ولكن العجب أن المواقع الثقافية الآن تخلو من القائلين عليها ويتولى أمرها الماركسيون منذ تولى أحمد عبد المعطي حجازي رئاسة تحرير ( إبداع ) والدكتور رجاء عصفور رئاسة تحرير مجلة ( فصول ) ولم يتورع عن الكتابة لأصحاب الفكر في مصر يدعوهم إلى المشاركة في تحرير عدد من المجلة في أول عهده بها عن ( الأدب والحرية ) ويحفزهم إلى تناول ( أوجه القمع التي تتعرض لها الكتابة الأدبية الحديثة في العالم العربي ) ويوضح في تبجح أن العدد سوف يركز على ( المحرمات التي يصطدم بها الإبداع ) والمحرمات ليست إلا دين الدولة الرسمي ودستورها ونظامها ، ويدعو إلى الكشف عن التقنيات المروعة التي تلجأ إليها الكتابة تعبيراً عن أهدافها وتجسيدا لمراميها عند غياب الحرية .

ويقول : إنى لأسائل كيف يمكن أن تشارك الدولة بأموال شعبها في التحريض على الدين والأخلاق والقيم والنظام تحت شعار الماركسية الأجوف ( الحرية ) التي لم تكن في تطبيقها عندهم غير السجن والتعذيب والتفكيك والقتل مع الترحيب باستباحة الأديان والأخلاق .

ويقول الدكتور هداره : إن النسبة الكبيرة من المثقفين كان يؤذيهم تسلط ( اليسار المصرى ) على منابر الثقافة ، ومن الغريب أن نجد اثنين مثل أحمد عبد المعطي حجازي وغالى شكرى وكلاهما كان هاربا من مصر ويهاجم مصر وكلاهما يعود من منفاه ويتولى الصفحة الثقافية في الأهرام ، هذا المشهد أثار الانتباه إلى أن اليسار بدأ في العودة مرة أخرى للتسلط على الحياة الثقافية .

لقد زحف اليسار على الثقافة المصرية عندما عين جابر عصفور رئيساً لمجلة الفصول وحجازي لمجلة إبداع وغالى شكرى لمجلة القاهرة فتجد أن الصفحات التي يشرفون عليها ٢٠٩

عبارة عن ( كلام فارغ ) ولا نجد فكراً واضحاً إنما نجد سموماً تنشر ، وتحمل صحفهم الشعارات المعروفة مثل ( الحرية والإبداع والتقدمية والتنوير ) وهي مصطلحات فى منتهى الخطورة لأنها لا تحمل إلا تصورات شخصية يريدون من خلالها التسلل إلى عقول الناس .

عصفور يكتب عن الحرية والأدب ، وحجازى يكتب عن الحرية والإبداع ، ومعنى هذا أن هناك اتفاقاً ومدلولاً لهذا اللفظ الحرية ، عليه اتفاق بينهما ، والمقصود منه هو «الحرية» فى هدم الدين والمقدسات والدعوة إلى ارتكاب المحرمات .

يقول الدكتور هدارة : أما المحاور التى يريدوننى أن أكتب فيها فإنها تصدم الحرية وتعوقها وأن أنكر المحرمات التى تعوق هذا والمحرمات التى يتكلمون عنها دائماً فى ( فقدان الحرية ) فى بلاد عربية أخرى وعن معوقات الإبداع فيها .

إن الحداثة التى يدعون إليها مذهب أيديولوجى خطير وليست مذهباً أدبياً ، وما هى إلا قناع للماركسية وكلها محاور خفية تضرب الدين والمقدسات .

ولذلك كان لا بد أن أجد من طغيان الفكر الماركسى على الساحة الثقافية .

( الحقيقة أنه ليس الفكر الماركسى وحده ولكن الفرنكفونية أيضاً حيث يراد أن توجد لها ركائز فى منابر الصحافة والأدب بعد أن أصبح لها جامعة سنجور ) .

إن المجال الذى يتحرك فيه الماركسيون هو ( الدين ) وهم يسمونه اليسار حتى لا يكونوا معارضين ، إنهم ينشرون ويحجرون على من يرد عليهم ويمنعونهم إذا لم يكن على هواهم ، وإذا كانت منابر الفكر تفتح لكل التيارات الفكرية فلا يمكن أن يصل تسلط الماركسية إلى هذه الدرجة ، إن مصطلحات الإرهاب والتطرف الدينى مسميات أطلقها أعداء الإسلام فهم يتكلمون عن الإرهاب الإسلامى وهم سبب هذا الإرهاب وسبب التطرف ، فوجود مثل هؤلاء الذين يكتبون باستمرار كلاماً يسيء إلى المسلمين هو الذى يصنع المتطرفين فهؤلاء الماركسيون يتكلمون كأن هذه المجالات التى يرأسونها قطاع خاص على الرغم من أن الأموال التى تصرف عليها هى أموال الدولة وملك مصر المسلمة . أ هـ .

اختلف معنى مصطلح ( الإبداع ) فى المفاهيم التى يرددها العلمانيون والحدائيون والإباحيون عن معناه الصحيح فى اللغة العربية كما عرفها العرب واستعملوها على مدى عمرها الطويل فقد أريد به ما يمكن الخروج به عن الواقع الأصيل وعن الأصل المعروف .



فى علوم اللغة وقواميسها فى محاولة لإيجاد مفهوم آخر غريب ومختلف عن الاستعمال الصحيح للمصطلح من خلال تلك المحاولة التى بدأها المهجرون اللبنانىون منذ أكثر من سبعين عاماً لضرب أصالة اللغة العربية ، وتفرغها من مضمونها .  
وقد جاءت محاولة تزييف المصطلحات واضحة فى كلمات : ( استعمار - قومية - اشتراكية - إبداع - خلق . . . إلخ ) .  
ولقد كان معنى الإبداع فى اللغة تقديم تصور جديد لم يسبق إليه سابق فى الأداء أو المضمون .

وقد سحب هذا المعنى إلى تقديم تصور خارج عن دائرة الأصالة ، وقد ركز فيه على المتحرر فى عرض المحرمات والإباحيات وكل ما يتصل بالجنس والشهوة والكشف حيث يستمد هذا التطور الزائف وجوده من مذاهب : الدارونية والوجودية والفرويدية والعلوم الاجتماعية التى تعتمد كلها فى مصادرها الأولى على الفلسفة المادية باعتبار الإنسان حيوان ناطق أو حيوان اجتماعى ، ومع حجب كل ما يتصل بكيانه الروحى والمعنوى بوصفه جامع ( قبضة الطين ونفخة الروح ) ، ومن هنا فإن مصطلح ( الإبداع ) المادى يدخل تماماً فى إطار الابتداء ويبعد تماماً عن مفهوم التصور الفنى المتحرر من الإباحية والفكرة المادية وهو ما يراد به إخراج اللغة العربية عن نطاقها البلاغى والفنى وتدميره .

ولقد وضح مفهوم الإبداع عند جماعة العلمانيين فى ذلك التصور الذى قدمه أدونيس وغيره ، وهو الذى يرمى إلى إحياء ( شعر وفلسفة ومفاهيم الفكر الباطنى والإباحى من أبى نواس إلى الحلاج إلى ابن عربى متصلاً ) وتقديمه مرة أخرى إلى الشباب المسلم واعتبار هذا الحصاد من الهشيم تراثاً للفكر الوثنى الإباحى الجديد الذى قامت عليه جماعة المهجريين ومن تبعهم من أمثال يوسف الخال ، ومن عمل معهم أمثال : صلاح عبد الصبور ، والبياتى ، والسياب ، وأمل دنقل وكل من دافع عنهم وظاهرهم أمثال لويس عوض وجابر عصفور وغالى شكرى ، وأن يكون هذا ( الإبداع ) الجديد المسموم الملحد الإباحى الوثنى الباطنى هو ( الحداثة ) الجديدة التى يراد زرعها فى تربة الفكر الإسلامى والتى أثبتت الأرض الطاهرة رفضها لأن تنمى هذه الجذور فى تربتها .

فالفكر الإسلامى فى أصلته ومصادره القرآنية والنبوية يرفض نظرية الإبداع بمعنى تقديم المحرمات والإباحيات ودنس الجنس وتحسين فترات الضعف البشرى وتبريرها .

## حرية الإبداع : ماذا تعنى ؟

ليس هناك فى الحقيقة ما يسمى حرية كاملة ولا بد من وجود ضوابط حماية للأخلاق العامة والتقاليد ومراقبة الحفاظ على الجوانب الاجتماعية والأخلاقية والدينية .  
إنه قيد على حرية المبدع لحساب حماية المجتمع عندما يحاول النيل من القيم الأساسية ، بل إن الحرية المطلقة بدون ضوابط غير موجودة فى أى مجتمع على الإطلاق .  
وليس هناك مجال للتضحية بالذوق العام وقيم المجتمع من أجل تجار الفن .  
ولا يقر مجتمعنا المسلم حرية الإبداع التى تصل إلى انتهاك حرمان الله وإهانة المقدسات والاستهزاء برموز الإسلام وتخريب الأخلاق وإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا .  
لقد أدخلت هذه الفنون إلى بيوت المسلمين كل معانى الفحش والرذيلة ونشرت العرى والخلاعة والعلاقات المحرمة والشاذة .  
نحن فى حاجة إلى تحديد مصطلح الإبداع من مفهوم الفلسفة المادية وفق قيمنا الأساسية بعيداً عن التبعية .

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير﴾  
[ سورة البقرة : الآية ١٢٠ ]

فالإبداع هو العطاء الربانى للمفكر فى إطار الإيمان بالله تبارك وتعالى ومن خلال إضاءة الطريق أمام الانتماء الإسلامى ، والهوية الإسلامية ، والقيم الإسلامية والأصالة والتوازن على نحو ما قدم علماء المسلمين على مدى العصور على أن يكون هذا العطاء فى خدمة الأمة وفيما يرضى الله تبارك وتعالى .

ولن يقبل المسلمون تغيير العرف الأصيل الذى رسمه القرآن الكريم من أربعة عشر قرناً .

وتأتى حرية الإبداع جزءاً من حرية التعبير ، إذ الإبداع ليس أكثر من صورة راقية للتعبير ، ولما كانت حرية التعبير هى الكل فإن حرية الإبداع هى جزء منه .  
يجب أن يكون بين أيدينا محاذير الخطر الذى يتهدد الفكر الإسلامى سواء عن طريق العلمانية أو التنوير أو الإبداع ، ذلك هو نص أحد البروتوكولات الذى يقول :

( يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب مقدس ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه ) .

لقد عملت الماسونية على نشر الإباحية الجنسية كأساس لمنهجها في تدمير المجتمعات وخاصة المجتمع الإسلامي .

ولما كان الإبداع جزء من الحداثة التي تعمل على تحقيق الأهداف الماسونية والتي تقوم على إنكار الله تبارك وتعالى والتشكيك فيه عن طريق مذهب الحلول ووحدانية الوجود وتحقيق الإباحية الجنسية ، التي تنص تعاليم الماسونية على تقديس الجنس والحرية التامة لنشر الإباحية فالحياة عندهم كلها جنس ومنشقة من خلال الجنس .

فالحلول هو مذهب حركة الإبداع الإلحادية المرتبطة بالتصوف الفلسفي والحركة الماسونية وقد ركز على هذا الاتجاه ( أدونيس ) وجماعته بتقديمه وابتعائه تصورات البسطامي والحلاج باعتبار أن حركة الإبداع الإلحادية في القرن الثالث الهجري قدمها الحلاج والبسطامي ، وهو مذهب يقوم على حلول الله ( جلا وعلا شأنه تبارك وتعالى ) في الإنسان أو اتصاف الله ببعض صفات البشر .

وفكرة الحلول فكرة يهودية أساساً من قبل البروتوكولات تتجلى في تصورهم لله تبارك وتعالى على نحو بشرى .

ويقرر أدونيس أن القيم الجديدة التي يحاول أن يغرستها قد استمدتها من التراث الصوفي العربي في الدرجة الأولى ، وهو هنا يقصد التراث الباطني المرتبط بالتصوف الفلسفي حيث يجري قطع الصلة بين الكلمة ومعناها من ناحية والعمل على تغيير معاني الألفاظ عامة حتى لا يبقى لفظ يدل على معنى ثابت ، ولكن هذا التيار مرفوض ومردود ولم يستطع خلال أكثر من ثلاثة عقود أن يكون له مكاناً في الفكر الإسلامي والأدب العربي ، لأن المجتمع المسلم يأنف من العري ومن الإباحية ولا يستسيغهما ويراهما خدشاً لحياته مهما كانت المبررات .

إن زعماء الدعوة إلى حرية الإبداع هم في نفس الوقت دعاة مصادرة الأفكار ، فهم

لا يقبلون حرية فى إطارها الصحيح فإذا كانت الحرية هى الاختيار فقد لزمتهم الحجة وبطلت دعوتهم إلى نشر ما يחדش الحياء ، ويشكك فى العقائد .

إن الكتب والمجلات التى يقدمونها مرفوضة ، لأنها تثير الغرائز وتدعو إلى الانحلال والتسفل<sup>(١)</sup> وتستعمل لغة الجوارى المبتذلة فضلاً عن الآراء الهدامة التى تسخر من قيم المجتمع والدولة والوطن .

إن الإبداع الأصيل يختلف عن الإبداع الزائف ، إن الإبداع الأصيل يستمد من المنهج الربانى والتراث والتاريخ ، أما الزائف فإنه يستمد من حثالات الأمم .

إن أمثال فؤاد زكريا ، ومراد وهبة ، وغيرهم يدعون إلى حرية الإبداع فى المحرمات الثلاث : الدين والجنس والسياسة ، قال عنها فؤاد زكريا : إنها المجال الحيوى الذى يتحرك فيه الإبداع الذى يدعون إليه .

لقد سقطت الماركسية ولكن التنظير المادى القائم على وضع المجتمع فى مواجهة الفرد ما زال يحكم كثيراً من القضايا وليس معنى قبول الشيوعيين للاقتصاد الحر مما يؤثر فى نظرتهم إلى التفسير المادى للتاريخ .

يقول الدكتور محمد عمارة : ليس الإبداع أن ينحرف كاتب عن جادة الصواب حين يتحدث أو يكتب عما يتصل بالثوابت ، وفى مقدمتها العقيدة والأخلاق ، فإن هذا يسىء إلى مشاعر المسلمين ، وكان الأولى أن يحترم القيم ويحافظ عليها وكل هذا من المسلمات فى كل الأديان .

ولما كان القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للإسلام فإن الاعتداء على واحد منهما يعد اعتداء على ركن عظيم من أركان هذا الدين ينبغى رفضه دون أن يعتبر ذلك مصادرة لحرية الرأى أو التعبير ، لأن الحرية المنضبطة هى التى تسود دائماً وتقود المجتمع إلى الانضباط الفكرى والاجتماعى .

---

( ١ ) التسفل : الانحطاط .

إن الذين يتعرضون باسم الإبداع إلى أصول الدين وعقيدته المستقرة إنما يخالفون نصوص القرآن الذى ضرب مثلاً فرق فيه بين الكلمة الطيبة وبين الكلمة الخبيثة ليعلم الناس أن يكونوا مع الأولى ويتعدوا عن الثانية .

إن الفلسفة لها واقعها ومواطنها وينبغي لمن يكتب فيها أن يكون متخصصاً ولا ينزل لعامة الناس ، أما أن ينشر هذه المفاهيم المنحرفة على الناس باسم الفلسفة فإن ذلك يؤدى إلى خطر كبير .

لقد كانت حلقات الفلاسفة تتم بين العلماء والمتخصصين ولا تخرج إلى عامة الناس .

أما دعوى الاحتكام إلى العقلانية فى المسائل الدينية باعتبار أن الإسلام نفسه يمجّد العقل ، فإن الإسلام قد خاطب عقل الإنسان فعلاً كما أنه طلب منه أن يفكر فى هذا الكون وصولاً إلى هدف سام وليس نزولاً إلى هوة سحيقة تكتسح المجتمع الإنسانى وتفسد عليه حياته الاجتماعية والعقائدية والسلوكية .

فالأديان السماوية وخاتمها الإسلام جاءت لتقوم عوج فكر الإنسان وسلوكه ، ولو كان العقل وحده كافياً لقيادة الحياة بشكل رشيد لما كانت هناك حاجة للرسل الذين أرسلهم الخالق تبارك وتعالى للناس كافة ، فالذى يقول إن العقل كل شيء هو مخطئ .

إن الذين يتحدثون عن الإبداع وحرية الفكر والاجتهاد عليهم أن يعرفوا الدائرة التى تخضع لهذه الحرية وهذا الاجتهاد والدائرة التى هى من الثوابت التى لا تخضع لحرية أو اجتهاد أو تجديد .

وليس فى هذا القول انتقاص من حرية العقل والفكر ، إن الإبداع والتطور والاجتهاد والتجديد فى الأمور الدينية مثله كمثّل الإبداع والتجديد فى أى علم من العلوم الأخرى ، يجب أن يكون من اختصاص أصحاب المؤهلات والكفاءات والدراسة فى علوم الدين ولا نقول هذا حجراً على أحد من أن يجتهد فى الدين ولا نقول ذلك إيماناً بوجود كهانة أو وظيفة رجال دين ، فالإسلام لا يعرف ذلك ولكنه يعرف أن لكل علم أهله وعلماءه .

\* \* \* \*

## الإبداع من مفهوم إسلامي

يقول الأستاذ محمد علي وهبة : الإبداع في اللغة إيجاد شيء غير مسبوق ولا مثال مسبوق وفرق بين الإبداع والبدعة ، أما البدعة فهي الحديث في الدين بعد الإكمال ، في حين أن الإبداع هو إيجاد شيء غير مسبوق بمادة ولا زمان .

كان يتم تعريف الإبداع قديماً وبالنظر إلى مصدره بأنه طاقة أو قدرة غامضة تأتي من خارج الكيان الإنساني وليس من داخله وكان ذلك بالأخص لدى فلاسفة الإغريق حيث كان التصور الشائع لديهم أن العبقرية الفنية ما هي إلا ترجمة لحالة غريبة يتلبس الإنسان فيها روحاً شيطانياً هي التي تسبب الإلهام ، فالمبدع عند المفسرين القدامى إنسان لا يستطيع أن يعرف ما يفعله وكيف يفعله لأنه مدفوع بقوة خارقة للطبيعة وبعيدة عن مجال الحس .

وتفسير الإغريق لتفسير مادي ناتج عن عدم فهم معطيات الوحي والنبوة والإلهام .

والوضع يختلف عند علماء المسلمين حيث تناول علماء المسلمين الإبداع نظرياً وعملياً وفقاً للمنهج العلمي الإسلامي المتقدم وبمفهوم يتفوق كثيراً على ما توصل إليه علماء النفس المحدثون .

وتعريف الشريف الجرجاني للإبداع ومقارنته بالخلق والإحداث ، إن الإبداع هو إيجاد الشيء من لا شيء ، والخلق إيجاد شيء من لا شيء وهناك فرق بين الإبداع والخلق فالإبداع إيجاد شيء غير مسبوق بمادة ولا زمان وهو يقابل التكوين لكونه مسبوقاً بالزمان والتعامل بينهما تقابل التضاد فيكون الإبداع عبارة عن الخلو من المسبوقية بمادة ، والتكوين عبارة عن المسبوقية بمادة ، والإبداع بمعناه هذا في التراث الإسلامي لا ينصرف إلى الإبداع الأدبي أو النظري فقط ، بل تتسع دائرته فتشمل الإبداع الأدبي والفني والعلمي .

وإبداعات الأدب العربي متمثلة في القصيدة والخاطرة والحكاية والمقامة والقصص والخبر والطرفة وغيرها من الأشكال الإبداعية الأدبية والفنية وتجذ في نفس الوقت ما لا يندرج تحت حصر من الإبداعات العلمية والتجريبية ممثلة في صياغة النظريات والقوانين العلمية التي لم تكن موجودة من قبل ، كنظريات ابن الهيثم والفارسي وغيرهما في الضوء ،

والنظرية الذرية عند العَلاف وابن حَيَّان وغيرهما ، وقوانين الجاذبية عند الحسن بن أحمد الهمزاني وغيرها ، وقوانين الحركة ( الميكانيكا ) عند ابن ملكا البغدادي وابن سينا وغير ذلك من النظريات والقوانين العلمية فى مختلف العلوم الكونية ، بل إن علماء المسلمين قد ابتكروا علوماً جديدة كاملة لم تكن موجودة من قبل ، كعلم الجبر الذى ظهر على يد محمد بن موسى الخوارزمى ، وعمر الخيام ، وكذلك علم الكيمياء الذى ظهر على يد كوكبة من علماء المسلمين منهم الإمام جعفر الصادق ، وجابر بن حيان ، والرازى ، وعلم المعادن وطبقات الأرض ( الجيولوجيا ) عند نصر النيسابورى والكندى والبيرونى .

يقول الكاتب الفرنسى رينيه ميليه فى كتابه ( الإسلام والحضارة الحديثة ) : هذا وإن كانت هناك حقيقة يجب أن نتبينها فهى أن فى هذه الفترة التى تعارف فيها المسلمون والمسيحيون منذ انتهاء الحروب الصليبية إلى فتح القسطنطينية هو العنصر المتأثر ، ومن جهة العلوم والآداب فإن أوروبا لبثت ثلاثمائة سنة تقتنيها من المسلمين وكأن أوروبا تجتنى ثمارها البانعة .

ثم جاء علماء الحضارة الحديثة ووضعوا تعريفاً علمياً متقدماً للإبداع ومارسوه بشكل علمى متقدم ليس بوصفه طاقة غيبية كما كان الإغريق ، وإنما بوصفه نوعاً من القدرات الإنسانية والفكرية والسلوكية والروحية والوجدانية القابلة للنمو والتطور من خلال أعمال العقل والدراسة المتعمقة للعلوم المختلفة ومن خلال التفكير والتأمل والممارسة الدائمة للعملية الإبداعية ذاتها .

ولا غرابة فى ذلك حيث أن القرآن الكريم يحض على استعمال العقل ويحض على الأخذ بالعلوم والأخذ بالتفكير والتأمل العميق الذى يساعده كثيراً على تنمية القدرات الإبداعية ، كما يحض على الانفتاح على الشعوب الأخرى لتحقيق التواصل الارتقائى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾

[ سورة الحجرات : الآية ١٣ ] .

ويرتبط لفظ التعارف فى الآية الكريمة بمعنى المعرفة على إطلاقها التى ترتبط بالحكمة وجماع العلوم والثقافات .

ويمكن تعريف الإبداع بأنه مجموعة من القدرات العقلية العامة تمنح الشخص القدرة على البحث عن الجديد وإنتاجه .

والإبداع فى قواميس اللغة الإنجليزية هو ( الإيجاد - الاختراع - الابتكار - الخلق ) ، وكلمة الخلق فى قواميس اللغة الإنجليزية تحمل أكثر من معنى حيث تعنى الخلق والتكوين والإحداث والابداع .

وفى الفكر الإسلامى هناك بون شاسع بين الإبداع والخلق من ناحية ، وبين الإبداع والتكوين والإحداث من ناحية أخرى .

\* \* \* \*



## الباب السادس

### وضايا اللغة والأدب والفن في ضوء الإسلام

كشف المفهوم الإسلامي للأدب مدى أهمية اللغة العربية الفصحى وضرورة المحافظة على ارتباطها بمستوى القرآن الكريم من حيث البيان والبلاغة وذلك :

**أولاً :** في مواجهة المحاولات الخطيرة التي ترمى إلى إعلاء العاميات والفلكلور وما يسمى التراث الشعبي كمحاولة لخلق لغة وسطى تتباعد المسافة بينها وبين بيان القرآن ولغته وبذلك يتحقق هدف خطير للتغريب ، هو إدخال العربية الفصحى إلى المتحف على النحو الذي حدث للغة اللاتينية في الغرب .

**ثانياً :** لقد كانت الدعوة إلى تفكيك البيان العربي واللغة العربية وخلق تصور فكري لا يقيم اعتباراً للضوابط اللغوية والنحوية من خلال هدم قوانين النظم والكتابة ، محاولة فاشلة .

**ثالثاً :** كما تؤكد أن الدعوة إلى الحداثة إنما ترمى إلى إحياء فكر الباطنية والإباحية وإدخال مصطلحات تختلف عن الأصول التي قدمها القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ .

وقد تركز الفكر الباطني على كتابات الحلاج وابن عربي وابن سبعين وأخيراً (النفري) الذي عرف من كتابات ابن عربي حيث طبع له المستشرق (آرثر أربري) كتاب (المواقف والمخاطبات) وجمع له الأب توما نصوص صوفية غير منشورة وعرف عنه : أن أسلوبه شديد الانفعال في الرمزية والغموض وهو من أكثر المتصوفة احتفالاً بالرمز وأكثرهم تكتفاً لأسلوبه .

وقد وصفه أحد الباحثين المعاصرين بالجرأة في البحث والمغامرة في الاشتقاق الذي يصل إلى حد الإغراب وقد أدى ذلك إلى انتشار طابع الغموض وتفجير اللغة وإشاعة مذهب الفناء .

ولقد كان المستشرقون في المرحلة السابقة يعكفون<sup>(١)</sup> على دراسة المخطوطات ليختاروا منها صورة مشوهة عن الإسلام .

( ١ ) يعكفون على كذا : يتفرغون لكذا .

وأكثرها من اختيار النماذج الأدبية في العصر العباسي التي تؤدي إلى الانحراف ، مثل الغزل الفاحش والهجاء<sup>(١)</sup> والتكسب بالشعر والتسول والتكلف في النثر ( المقامات ) والاتجاهات المنحرفة في التصوف ومظاهر التأثير بالفلسفة اليونانية .

وقد قدمت هذه النماذج للمدارس المختلفة في البلاد العربية لدراساتها على أنها نماذج تمثل الاتجاه الغالب في التراث الإسلامي كله ، وقد تابع التغريبيون في البلاد العربية هذا الاتجاه إلى حد أن اتخذ كل منهم زعامة خاصة لأحد الفلاسفة ، فاتخذ الأب قنوائى وتلميذه عاطف العراقي الاهتمام بابن رشد كما وجه الدكتور إبراهيم مذكور اهتمامه لابن سينا .

ويمكن القول بأن المؤامرة على اللغة العربية الفصحى إنما تمضى في خط ممتد يرمى إلى التمرد على اللغة على النحو الذي بدأه المهجريون وتولاه بعد ذلك سعيد عقل وأدونيس وأنس الحاج ويوسف الخال على خطأ ميخائيل نعيمة الذي كان يقول : إن اللغة مجرد رموز تستخدم للإفصاح عن مكنونات النفس البشرية .

وجاء التمرد على أصالة اللغة حين بدأت مع الاتجاه الرمزي حيث انتقل الشعر من تصوير مشاعر الجماعة ومشاكل الوطن وأزمات الأمة وحركة تحريرها السياسية والتحول إلى مشاعر الفرد مهما كانت ساذجة أو تافهة أو مرتبطة بالأهواء ، وصاحبت هذا محاولات للخروج من مفهوم الأدب العربي في البلاغة والبيان حيث أطلق على البلاغة اسم ( فن القول ) .

وجرى العمل نحو تفجير اللغة على النحو الذي قام به الشعوبيون عن طريق التصوف الفلسفي ووجدوا في الرمزية ما يحقق لهم طموحاتهم من منطلق المجاز والرمز والأسطورة والقناع والصورة وتبنى العامية ومخالفة القواعد اللغوية وهدم منطق النحو على حساب منطق الشعر .

وجاء على أثر ذلك ما أطلق عليه قصيدة النثر .

وقصيدة النثر هي خلاصة ما وصل إليه الشعوبيون والعلمانيون من محاولة لكسر البيان العربي القرآني من حيث ما تحمل من غموض ومن تحلل ومن أساطير .

يقول الدكتور أحمد درويش : إن قصيدة النثر هي قصيدة الرفض وهي خيمة يحتمي

( ١ ) الهجاء : الذم .

بها كثير من الراضين لقيود التغيير التي عرفت لها اللغة خلال الخمسة عشر قرناً الأخيرة ودخل هذه الخيمة يجري تناول إشارات ورموز خاصة تتفق على الرضا ولا تهتم كثيراً بالبديل الذي تحاور به الواقفين خارج الخيمة والذين لا يعينها شأنهم غالباً ، ولابد من الاعتراف بأن الفكر النقدي في عصرنا لم يقف أمام هذه الحركة بالقدر الملائم ولم يطرح قضايا للنقاش الهادئ المحايد .

إن أهل هذا الاتجاه لا يترددون في الإعلان عن الرضا بكل أشكاله الميتافيزيقية<sup>(١)</sup> والخلقي والتعبيري لما اتفق عليه الجميع أو ساد في قروننا طويلة .

وتكشف قضية الشكل عن مدى ملاءمته للذوق الفني بصفة عامة والعربي بصفة خاصة ومدى قدرته على حمل رسالة من نوع معين ومخاطبة شريحة من شرائح الفكر أو الوجدان أو النفس ، وفي سبيل ظهور هذا النوع الثالث تم كثير من التشويه والمسخ والتدمير ، فإن كثيراً من النقاد الأوربيين الحاضرين يرونه مصطلحاً متناقضاً لأن نصفه الأول قصيدة ويعني ما ليس بنثر على حين أن نصفه الثاني النثر يعني ما ليس بشعر ، ومن هنا مفهوم كل جزء يتعارض مع منطوق الجزء الشريك في بناء المصطلح .

إنهم أمام قصيدة تشترك من ناحية مع آلاف الوحدات التي تندرج تحت هذا المصطلح من أيام أمراء القيس ويختلف من ناحية ثانية على أجناس أخرى مثل النثر والقصيدة والمقالة والأقصوصة والخاطرة .

نحن أمام شكل هلامي لا تفترق فيه القصيدة عن القصة ولا الشعر عن النثر ولا يحمل أي خاصية جامعة مانعة فهم يطلقون عن قصيدة الشعر عبارة ( المضاد للشاعرية ) ويعني هذا أن الخلايا الداخلية للشعر تطرد النثرية عنه وأن الخلايا الداخلية للنثر تقلل من الشاعرية فيه .

ويرى بعض النقاد أن قصيدة النثر هي نوع ثالث ، يختلف عن القصيدة العمودية وقصيدة الشعر الحر .

يقول الدكتور حسن فتح الباب : [ إن هناك معركة منذ أواخر الثمانينات بين شعراء قصيدة التفعيلة<sup>(٢)</sup> ونقادها وبين دعاة قصيدة النثر وهي معركة غير ذات موضوع - حسب

( ١ ) الميتافيزيقى : ما وراء الطبيعة ( المادة ) .

( ٢ ) قصيدة التفعيلة : ذات الوزن والقافية .

التعبير القانوني - لأنه لا وجه للمقارنة أو المفاضلة بين نوعين أدبيين لكل منهما خاصية أو خواص تميزه عن الآخر وقد بلغ من الشطط أو الخطأ<sup>(١)</sup> أن من بين كتاب قصيدة النثر ونقاده المولعين بهذا النوع الإبداعي من يجهر بالقول أن تلك القصيدة هي الذروة التي بلغها الشعر العربي ، بمعنى أنها تنسخ القصيدة ( العمودية ) وقصيدة الشعر الحر وكأنما لا تقوم للقصيدة النثرية قائمة ولا تتأكد مكانتها إلا بنفى هذا الشعر كى تنبؤاً<sup>(٢)</sup> وحدها الساحة وتصبح هي البديل وعفاء على إبداع أمة قطع في مسيرته أكثر من ألف وخمسمائة عام وما زال يثرى وجدان هذه الأمة وترجم روائعه غرباً وشرقاً .

إن مكن الخطأ في هذا الزعم أنه ليس ثمة ما يسمى بقانون الإحلال والإبدال أو الإلغاء والنسخ في الفنون القولية وغيرها فقصيدة النثر جنس أدبي قائم بذاته ، وهو مواز لقصيدة الشعر وإن كان بينهما بعض وجه شبه وهو الخيال أو الصور المركبة وقد يكون من هذه الأوجه تناغم التركيب واتساق الجمل والألفاظ وموسيقيتها أو توائم المعاني والرؤى بمختلف أشكال هذا التوائم أو التآلف ولكن هذه الملامح المشتركة لا تنفي اختلاف واستقلال كل منهما عن الآخر وتفرد ، فقصيدة النثر تفتقد ركناً أساسياً من أركان الشعر وهو الوحدة الإيقاعية أو الوزن أياً كان نظامه ، فقد تكون هذه الوحدة على النسق الذى قننه الخليل بن أحمد الفراهيدى سواء توحدت القافية إذ تكونت القصيدة من مقاطع لكل منها قافيته المختلفة عن قوافي المقطوعات الأخرى ، وقد تكون التفعيلة هي الوحدة العروضية حسبما تعرف في الشعر الحر .

وليس هذا الشرط المفرق بين الشعر والنثر وفقاً على الشعر العربي وحده ، بل هو قسمة مشتركة بينه وبين الشعر الأجنبي ونقصد بها الإنجليزية والفرنسية إذ بتأسيس كلاهما على نظام ( النثر ) ذلك الجرس الذى يقترب من وزن المتدارك أو الخيب في ترائنا الإيقاعى وقد يحتاج أصحاب قصيدة النثر من مبدعين ومنظرين بأن لهذه القصيدة إيقاعاً داخلياً يغنيها عن الإيقاع الخارجى أى الوزن ، وهذه الحجة مردود عليها بأن القصيدة الموزونة على اختلاف قوالبها لها إيقاعها الداخلى أيضاً بالإضافة إلى الإيقاع الخارجى .

( ١ ) الخطأ : الخطأ .

( ٢ ) تنبؤاً : تسكين وتستقر .

وهكذا نجد أن هناك فنوناً دخيلة نحاول أن تسيطر على البيان العربي ، وتتخذ من الأشكال الغربية وسيلة لتبديد الغطاء البلاغي الذي عرفته اللغة العربية ، ومن العجيب أن يذهب بعض أصحاب الأصالة مثل دكتور حسن فتح الباب وراء هذا الاتجاه وتقنيته دون التأكد من سقوط هذه الفنون الدخيلة جميعاً سواء أكانت قصيدة النثر أم قصيدة التفعيلة وسوف لا تستطيع في الأخير أن تحل محل قصيدة الشعر ذات الأصالة والتاريخ الممتد .

### الأساطير الوثنية وأثرها على الأدب والفن

أكد عشرات الباحثين المنصفين في الفكر الإسلامي بالمقارنة مع الفكر الغربي أن النظريات المطروحة الآن في مناهج البحث أو الدراسة أو التعليم أو الثقافة وفي مجالات الأدب أو دراسة علم النفس أو دراسة علم الاجتماع أو في دراسة اللغة ، هي نظريات غربية وافدة شكلها الفلاسفة والمفكرون المحدثون مستعدين أساسها ووجهتها ومصدرها من الفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية ومن النصرانية ( الغربية ) الوافدة المختلطة بالمذاهب والأديان القديمة وليست النصرانية الشرقية المنزلة .

ومن هنا كان تأثير الوثنية القديمة والإباحية الكاشفة والتحرر المطلق من القواعد الأخلاقية والقيم الاجتماعية واضحاً في هذه النظريات والمذاهب على نحو خطير بحيث لا يمكن القول أن هناك منزعاً للاستفادة من هذه المذاهب دون الوقوع في محاذيرها وأخطارها التي تتركز في :

أولاً : الإلحاد وإنكار وجود الله تبارك وتعالى أو رسم صورة له تختلف اختلافاً تاماً عن صفاته تبارك وتعالى التي قدمتها الأديان المنزلة سواء بالإثنية أو التثنية أو مقولة أنه ( سبحانه ) لا يعلم إلا الأمور الكلية العامة .

وقد سجل القرآن الكريم عليهم مقولتهم في سورة فصلت قال تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ \* وذلك ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴿ [ سورة فصلت : الآية ٢٢ ، ٢٣ ] .

ثانياً : تأثير مفهوم النصرانية في فطرة الإنسان للكون والحياة ، وذلك من خلال

مقولة : التثليث ، والصلب ، والخطيئة ، وهى مفاهيم لا يعرفها الإسلام وتعارض مفهوم التوحيد وحقائق القرآن والمسئولية الفردية التى لا تزر معها وازرة وزر أخرى ، وذلك بالنسبة لخطيئة آدم التى غفرها الله تبارك وتعالى له والتى لا ترجع بالأثر على أى أحد من أبنائه .

ثالثاً : قيام النظريات الغربية فى العصر الحديث على الفلسفة المادية التى لا تعترف بالغيب وتنكر الوحي وتنظر إلى الإنسان من خلال نظرية التطور بوصفه حيواناً ناطقاً .

ويقرر الباحثون الغربيون المنصفون : أن حرية الإحياء الغربى ( الرينسانس ) قامت فى أوروبا من خلال الصراع مع مفاهيم النصرانية الغربية وعلاقات الكنيسة وإنكارها لحقائق العلم ومعطياته ، ومن هنا كانت تدميراً للطابع النصرانى والكنسى وعودة فزعة إلى تراث الرومان واليونان ، فكان أكبر أهدافها إحياء التراث الوثنى وإبرازه لقطع الصلة بالحاضر والماضى النصرانى ، ومن ثم أخذت الآداب الغربية تستوحى الآداب القديمة القائمة على الأساطير اللاتينية واليونانية وتستمد منها ماديتهما ، ومن ثم ظهرت الكلاسيكية والرومانتيكية وقادها ديدرو وفولتير وروسو ، وتغلب عليها التحلل من الدين والتقاليد ثم سيطرت ( العبثية ) وفقد اليقين الدينى تماماً ، ونجحت حركة الإحياء الأوربية فى عزل الأجيال الصاعدة عن الدين جملة ، وظهرت مسرحيات اللامعقول وتجددت الأساطير الوثنية التى عملت على فقدان اليقين وأثر المسرح الغربى كثيراً فى مجال نقد القيم الدينية حيث جعل كتاب المسرح منه ( مركز تجمع لصراع الخيال البشرى الدائم ضد القناعة الدينية وعدم الاكتراث الخلقى والأهمية الاجتماعية ) فلا غرابة إذا ما عانت حضارة الغرب من الخواء الروحى والإفلاس القيمى مما عرضها للسقوط كما عبرت عنه كتابات شبنجلر وكولن ولسون .

وقد ظهر أثر الأساطير اليونانية فى الأعمال التى قدمها سارتر وكامى وفرويد ، بل لقد اتخذ فرويد من الأساطير قاعدة لنظرياته فى علم النفس ، وقد نقلت الأساطير اليونانية إلى الفكر الغربى عوامل الصراع وحب القسوة والانغماس فى الترف والإباحية حتى أصبح ذلك سمناً<sup>(١)</sup> للحضارة الغربية المعاصرة ولم تعد النصرانية بسماحتها ورحمتها تمثل أكثر من صبغة باهتة .

( ١ ) السمى : العلامة .

ولما ترجمت الآثار الغربية فى القصة ، والمذاهب الاجتماعية إلى العربية انتقلت إلى الفكر الإسلامى أصداء ذلك فأحدثت آثاراً واضحة فى الأدب والثقافة ، نأت (١) بهما عن الأصالة الإسلامية والتي عرفها الفكر الإسلامى ( والأدب جزء منه ) بمفاهيم القرآن الكريم والسنة المطهرة .

فقد كانت ( الكلاسيكية ) فى الآداب الغربية ترمى إلى تأليسه الإنسان أما ( الرومانسية ) فقد عملت على إغراقه فى حب التراث وجاءت ( الواقعية ) تمجيداً للحظات الضعف الإنسانى .

وكانت دعوى ( الفن للفن ) منطلقاً للنظر إلى جمال الشكل سواء أكان هذا المنطلق للبناء أو للهدم وعملت هذه المذاهب أساساً إلى عزل الأدب عن الدين والأخلاق وكان أخطر ما واجه الأدب العربى هو التبعية والاحتواء دون تقدير للفوارق البعيدة والعميقة بين مفاهيم الغرب ومفاهيم الإسلام .

وقد فتح النفوذ الأجنبى عن طريق ( نظرية دارون ) نظرية التطور باباً خطيراً لاحتواء شباب الإسلام ، وكان ذلك واضحاً فى كتابات شبلى شميل ومجلة المقتطف لإذاعة النظرية المادية ، ويتصل بهذا ما كتبه جمال الدين الأفغانى فى الهند تحت عنوان ( الرد على الدهريين ) كمحاولة لمواجهة ما أذاعه الفكر المادى الذى لم يتوقف عند نظرية دارون فى مجال ( البيولوجيا ) وإنما امتد ليشمل كل مظاهر الاجتماع ، فكانت الدعوة إلى تعميم نتائج نظرية دارون على الظواهر الأخرى ، فامتد القول إلى ما يسمى (مادية الكون) وجرت الدعوة إلى أن العلم سوف يحقق للبشرية ما عجز عنه الدين وأن مفتاح أسرار الكون قد أصبح فى يد العلم وأن كل ما سوى العلم هو أساطير وكانت تلك أكبر حملة قصد بها تدمير مقولة ( الدين والوحى والغيب ) وقد انطلق مفكرو الإسلام لمواجهة هذا التيار المسموم ودحض هذه المقولة المبطله .

وظهرت كتابات فريد وحدى ومصطفى الغلاينى ومحمد عبده ورشيد رضا فى مواجهة هذا التيار الخطير .

---

( ١ ) نأت : بعد .

وفى نفس الوقت أخذت تُدرس العلوم الحديثة فى المعاهد والجامعات بمفهومها المادى والوثنى حيث تتحدث عن الطبيعة ولا تتحدث مطلقاً عن الخالق الكريم الذى أنشأ هذه العلوم والذى علمها للإنسان .

وامتد تيار الفكر المادى فى سلامة موسى وإسماعيل مظهر ، وهُوجم الإسلام وهوجمت الأديان والكتب المقدسة ، وتحدث المصريون عن جمهورية أفلاطون وكتابات روسو وتولستوى ، وجمع بعض الكتاب بين الأنبياء والفلاسفة ، ونعى كثير على المسلمين أن بلادهم عرفت الأنبياء بينما عرف الغرب الفلاسفة .

ولكن هذه الثورة الفكرية التى مهد لها ( دارون ) بنظريته المعطوبة لم تلبث أن خمدت بالسرعة ذاتها ( كما يقول جابر الأنصارى ) ولم يكن استقرارها إلا ومضة<sup>(١)</sup> خاطفة لم تمر بأدوار نضج أو استقرار ، ومرد ذلك فى نظر الكثيرين إلى عامل الرأى العام الذى كان قويا مسلحاً بمفهوم الإسلام ، بوصفه الدين الحق ، الذى لم يفرق بين العلم والدين ، كما فرقت أوربا بينهما ، وتبين أن هذه الموجة لم تحقق شيئاً ذا بال ، فقد كشفت الأبحاث عن فساد نظرية دارون أساساً كما كشفت الأحافير<sup>(٢)</sup> عن كذب ادعائهم بأن الإنسان جاء فى مرحلة تأليه للقرود أو الحيوان ، وكانت العظام التى كشفت فى كينيا وغيرها تنم عن إنسان تام الخلقة مستقيم البناء يمشى على ساقيه منذ خمسة عشر ألف سنة ، وكان ذلك إقراراً لمفهوم القرآن بأن الإنسان خلق خلقاً مستقلاً عن كل الخلائق .

ثم جاء المسرح الغربى ليصب مفاهيمه وسمومه فى أفق المجتمع الإسلامى فقد استمد المسرح مفاهيمه من أن الصراع كان أولاً بين الآلهة نفسها ثم بينها وبين الإنسان ، وهذه المفاهيم تتعارض مع مفهوم الإيمان فى الإسلام بالخالق الواحد وإكباره وتعالى عن مثل ما توصف به آلهة اليونان من صراع وشهوات .

ومن أكبر وجوه الخلاف والتباين بين الأدب العربى والدراما الغربية ، يتمثل فى ذلك الصراع المأسوى الذى هو حياة الحدث فى المسرح مما لا يجد بيئة طبيعية فى إيمان العرب وعقيدتهم ، ذلك أن البطل المأسوى هو دائماً فى صراع مع الآلهة والقدر .

( ١ ) ومضة : لمعة خفيفة .

( ٢ ) الأحافير : علم الحفريات .



أما الإنسان العربى فهو فى سلام مع الله الواحد الأكبر ومع إيمان بالقدر لا يحول دونه السعى وإن كان يحول دون المصارعة والصراع ، يقول الأستاذ زكى طليمات : إن الإسلام دين التوحيد فلا بد أن يناهض الوثنية التى تقوم على تعدد الأرباب فلا غرابة فى أن يعمل على محو آثارها المادية المجسمة واستئصال جذورها المعنوية فى نفوس العرب ..

إن العقيدة الإسلامية فى وقفها الأولى لمحاربة الوثنية أحدثت فى النفوس التشكيلية حدثاً ليس له مثيل ، إذ حولت مواضع الإلهام فيها من الطبيعة وصورها إلى الذهن وأخيلته .

سبب آخر يصرف الذهنية العربية عن الأخذ بأساليب التعبير عن طريق المسرحية واتخاذ المسرح وسيلة للدعاية والتفسير .

ذلك أن العقيدة الإسلامية على وضوح أركانها وجلاء تعاليمها ومنطق أحكامها : عقيدة لا يشوبها ليس ولا غموض يتطلبان تحليلاً فى التفسير ، فالوحدانية لا تقبل التأويل ولا تحتل الشريك ، ليس هناك أرباب أو أنصاف أرباب كما هى الحال فى الوثنية ، كذلك لا توجد عقدة تتعذر فهمها ، إذ لا يوجد أب ولا ابن ولا روح قدس ، كما هو الحال فى العقيدة النصرانية .

وشعائر الإسلام على بساطته غنية على تقشف ظاهر ، فليست فى حاجة إلى عازف يعزف على آلة موسيقية أو منشد ينشد نداءات كهنوتية أو راقص يدور على نفسه ، مثل هذه العقيدة القوية فى معنوياتها البسيطة فى شعائرها القائمة على مناهضة كل مظهر من مظاهر تعدد الأرباب وما يتصل به من فنون السحر لإحياء طقوسه ومناسكه لا يمكن أن تتمخض عن فن تمثيلى ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن العرب بطبيعة عقولهم ينظرون إلى الكليات عرفنا إلى أى مدى تجسد التباين الضخم بين الأدب العربى والأدب الغربية فى مجالى القصة والمسرح .

ومن ناحية أخرى فإن الصراع المأسوى أو الدرامى الذى هو عقدة المسرحية والقصة لا يجد بيئة طبيعية فى إيمان العرب ومعتقداتهم ، ذلك أن البطل المأسوى هو فى صراع دائم مع الآلهة والقدر .

أما المسلم بحكم وحدانيته فإنه لا يستطيع أن يتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو ما كان يتصوره اليونان الذين يؤمنون بقوى متعددة ويؤمنون بأن الحرب مع القدر وإن

كانت آخرتها الهزيمة المأساوية ، فإنها حرب تدل على تجبر الإنسان .

إن الصراع مع الآلهة لا يفهم أصلاً مع التوحيد ، أما الإنسان العربي فهو في سلام مع الله الواحد الأكبر لا يستطيع أن يتصور الصراع مع القدر والآلهة على نحو ما كان يتصوره اليونان .

ولا ريب أن رؤية العربي واضحة غير مضنية<sup>(١)</sup> ولا يشوبها سحب من الغمام وليست ( بين بين )<sup>(٢)</sup> وليست في صراع مع الطبيعة وكل هذه الرؤى تنعكس في الأدب العربي وهي مضادة لرؤية الغربي .

هذا وتقوم المأساة الغربية على ( الخطيئة ) والقصص والغفران وترى أن الإنسان مرتبط بخطيئة أولية : هي خطيئة آدم ، وهناك مفهوم الصراع بين الآلهة والقدر وبين الإنسان والخطيئة .

ويبدو البطل في صورة المتحدى لإرادة الله ( تبارك وتعالى وعلا ) وهذا التصور غريب على الذوق العربي وعلى مزاج النفس المسلمة .

وهي في مجموعها مفاهيم وثنية غربية ، نصرانية ، تقوم على فلسفة أساسها وقوامها ( الخطيئة ) التي لا يعترف بها الإسلام ولا يقرها وليس لها أى صدى في الأدب العربي فضلاً عن صراع القدر أو صراع الآلهة ( وليس في الإسلام آلهة بل هو إله واحد ) سبحانه وتعالى عما يصفون ( وكلا الصراعين غريب على النفس العربية المسلمة .

ومصدر هذا : أن التراث اليوناني الغربي كله يرى أن الإنسان ثمرة الخطيئة وأن حياته تكفير عن هذه الخطيئة .

بينما يرى الأدب العربي أن الإنسان كائن حي وحياته لها قيمتها الخاصة وأنه غير مسئول عن خطيئة غيره وأن خطيئة آدم قد غفرها الله تبارك وتعالى له .

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [ سورة المؤمنون : الآية ١١٥ ]

هذا كلام عام عن المسرح والفن وجاء مسرح « العبث » ممثلاً لعدم التوافق بين العقل البشري وطبيعة الكون .

( ١ ) مضنية : يحيط بها الضباب ، وهي كناية عن عدم الوضوح .

( ٢ ) بين بين : المراد مضطربة ومتردة .

فالعيب شكل من أشكال اللامعقول وهناك عنصر سرىالى سعى مسرحهم : مسرح الحلم ، جاء هذا من المسرح الغربى الذى قدمه يونسكو وصمويل بيكيت ، وكلاهما يهودى صهيونى يؤمن بأن اللغة لم تعد وسيلة للاتصال ويستغنى عنها بالرمز والرقص وهى كلها تحاول أن تصور ما يسمى ( عيب الوجود ) .

بينما نحن المسلمين نرى أن الإنسان مسئول وأن الحياة حقيقة ومسئولية وليس هناك عيب .

ويتحدثون اليوم عن نشأة المسرح الاستهلاكى الذى يقدم أسوأ ما ينتجه حيث تكشف عناوين المسرحيات المعروضة حجم الإهانات التى يوجهها المسرح للجمهور من خلال عناوينه فما بالك بمضامينه .

لقد انحطت المسرحية إلى درجة فاضحة سعيًا وراء السائحين العرب ، لم يعد المسرح يسرى عن الناس ويمسح همومهم ، بل هو يقدم الآن الإسفاف والإثارة الجنسية .

كل هذا طلباً للكسب المادى على حساب المتاجرة بغريزة الإنسان وإشاعة الفاحشة وتخريض الشباب على الفجور تحت اسم الفن ( وهذا ما تكتبه الصحف ) .

ويمكن فى إطار هذه الدعوات المسمومة والنظريات المادية أن نقول :

أولاً : إن الأدب الذى يعبر عن المفهوم الإسلامى الشامل للكون والوجود والحياة هو الذى يقوم على أساس الأخلاق ويستمد مفاهيمه من وجهة نظر الإسلام القائمة على القرآن والسنة .

ثانياً : الالتزام الأخلاقى هو منطلق لحياة الإنسان ومن ثم فهو يستطيع أن يتحدث فى أى موضوع حتى الجنس بمفهوم الإسلام ، والالتزام لا يعفى الأدب من مقاييس الجمال ، والأخلاقية ليست قيداً على الإلهام وإنما تتمثل فى العلاقة الوثيقة بين الفن والأخلاق وتقديمه الأخلاقى على الجمالى .

ثالثاً : يرفض الإسلام مدرسة اللاوعى والسريالية وما فوق الواقع ، لأنها تغادر الواقع وترد الإنسان إلى غرائزه .

رابعاً : إن الأدب ليس إلا قطاعاً من الفكر يجب ألا ينفصل عنه ، ومعنى ذلك أن

الأدب العربي ( الإسلامى المصدر ) يستمد مقوماته عن الفكر الإسلامى ومفهوم الإنسان فى الإسلام .

خامساً : إن الأدب يجب أن يتحرر من الخضوع للمفاهيم الوافدة أو فى كتابة تاريخ الأدب فإن للأدب العربى تاريخاً عريضاً .

سادساً : يستمد الأدب العربى مفهومه من التصور الإسلامى القائم على وحدة الأمة الإسلامية وليس الوقوف عند الدولة القومية أو الإقليمية أو العروبة ، هذا مع تقدير أثر الإقليم والعنصر فى الأدب وهو تأثير مقبول ما لم يكن هناك تصور عنصري أو إعلاء للدم أو للجنس .

سابعاً : غاية الفن فى الإسلام أن لا يخدش الفطرة ولا يناقض منهج الفكر الإسلامى .  
ثامناً : على الأديب المسلم ألا يستسلم أمام الضعف البشرى فى كتابة القصة أو الشعر .

تاسعاً : الالتزام فى المضمون وفى الشكل أيضاً ، وقاعدة الالتزام أن ننطلق من مفهومنا الإسلامى وأصولنا الإسلامية مع الاستفادة من كل ما لا يتعارض مع الالتزام الإسلامى .

عاشراً : نقرأ المذاهب الأدبية الغربية ونحن وعاء للذى بين أيدينا وكل ما يتصادم مع الفكر الإسلامى فهو ليس بأدب إسلامى .

شكل الإسلام الأمة التى اعتنقته على مجموعة من المفاهيم الأساسية تجعله فى حصانة كاملة من موجات التغريب والشعوبية والغزو الثقافى ، وقد كانت هذه القيم قادرة على حماية المسلمين طالما ظلوا قائمين بها متمسكين : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ [ الأعراف : ١٧١ ] فلما وهنت قواهم عن الصمود أخذتهم سنة الله النافذة بالهزيمة والتخلف ، فإن عادوا إلى التماس منهج الله تبارك وتعالى مكن لهم فى الأرض وابتعثهم مرة أخرى .  
ولقد كان الإسلام قادراً على إعادة المؤمنين إلى منهجه متى التمسوا مرضاة الله وتطبيق منهجه .

ولقد جاء الإسلام بمنهج ربانى أصيل قادر على العطاء فى كل زمان ومكان قائم على الفطرة والعلم يقرر المسئولية والالتزام الأخلاقى والإيمان بالغيب والسوى والبعث والجزاء .

ويقدم تصوراً كاملاً للإنسان وحركته في الحياة بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع ومن هنا كانت ذاتيته الخاصة وطابعه المميز الذي يحول بينه وبين الانصهار في المذاهب والأيدولوجيات وحيث لا يخضع للمفاهيم المادية التي تدعو إلى الحرية الأخلاقية أو الفن الهابط أو الخضوع للمضعف البشري أو يقبل الانحراف والشذوذ والجنس والعري ، فالإسلام يقرر أن الأدب والفنون جميعاً ملتزمة بالعمل في خدمة الدعوة ولحمايتها والدفاع عنها وتحريرها من التبعية .

#### فساد نظرية الجدلية :

والإسلام يقدم الأخلاقى على الجمالى فى الأدب والفن ويقرر مفهوم التقدم الجامع بين الروح والمادة ، ذلك لأن الإسلام قد تميز على كل المناهج الوضعية بالتكامل الجامع فحيث ذهبت الفلسفات إلى الفردية تحت اسم ( الليبرالية ) أو إلى الجماعية تحت اسم ( الاشتراكية ) فإن الإسلام منذ أربعة عشر قرناً قدم منهج الثوابت والمتغيرات وجمع بين الفردية والجماعية وبين الثبات والتغيير .

فالمنطق الإسلامى يقوم على أساس الجمع بين الثبات والتطور من حيث الأصول الإسلامية أو الأحكام الشرعية التي لا ترتبط بمرحلة تاريخية معينة أو بتغير وسائل أو أشكال الإنتاج والتطور من حيث إعمال هذه الأحكام الأصولية واختلاف تطبيقاتها باختلاف الزمان والمكان ( على حد تعبير الدكتور شوقي الفنجري ) .

ومن هنا فنحن نجد أن المفهوم الإسلامى يرفض نظرية الجدلية التي أقامها هيغل باسم الحركة المستمرة بديلاً لنظرية أرسطو القائمة على الثبات الدائم .

ومن هنا فإن الإسلام يرفض الفكر الوضعى الحديث القائل بالتطور فى مجالى العقائد والأخلاق ، ويلفظه كلية فيما يذهب إليه من اختلاف القيم باختلاف الزمان والمكان وبالتالي ينبذ الإسلام فلسفة ( البرجماتية ) التي تدّين بها الحضارة المعاصرة والتي تجعل المنفعة هدفها الأساسى بصرف النظر عن المثل والقيم ولا تفهم التقدم أو السعادة إلا بمعناها المادى المجرد ، غافلة عن البعد الروحى أو الدينى ، وذلك لأن الإنسان ليس مادة فحسب وإنما هو روح أيضاً وإن هدفه الأخير الله تبارك وتعالى ، إذ يؤكد واقع الإنسان أنه بدون الإحساس بالله تبارك وتعالى وخشيته والاطمئنان إليه لا تستقيم له حياة وصدق الله العظيم

إذ يقول : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾

[ سورة طه : الآية ١٢٤ ] .

والإسلام إذ يؤكد ثبات الهدف والجوهر مما جاء به منذ أربعة عشر قرناً ونيف كأصول الإيمان والعبادة والأخلاق الحميدة والقيم السامية ومبادئ الشورى والحرية والإخاء والمساواة وضمان حد الكفاية لكل فرد ، نراه فى مجال المعاملات والمتغيرات يسلم باختلاف الأساليب وتعدد صور التطبيق .

كذلك فإن الإسلام ينفرد بالتنبيه إلى أن العقل أو العلم غير كاف بالنسبة للغيب والروح والقيم ولا بد إلى جانب ذلك من الوحي والدين : ﴿ السم \* ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين \* الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾

[ سورة البقرة : الآيات ١ - ٣ ] .

ومن ثم يقدم منهج المعرفة الإسلامية على ثنائية الحياة ( عالم الشهادة وعالم الغيب ) أو زوجية التركيب وأولهما العقل والعلم ( لإدراك المحسوسات والمتغيرات ) وثانيهما : ( القلب أو الدين ) ، لإدراك الغيبات والثوابت .

حيث لا يعرف الإسلام ذلك الانفصام الذى شقى به الفكر الوضعى .

#### سقوط نظرية الحداثة :

كذلك فإن الإسلام والفكر الإسلامى لا يقبل نظرية الحداثة والحداثة دعوة إلحادية صدرت فى أوروبا فى نهاية القرن الماضى ولا تتناول الأدب وحده ، ولكن تتناول الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية وتطالب بتدمير المجتمع تدميراً كاملاً وإعادة بنائه ، لأنها تؤمن بأن الماضى سيئ ولا بد من تدميره .

ولذلك فهى لا تؤمن بالتراث وترى أيضاً أن الحاضر يشع وكرهه ولا بد أن نعيش فيه والمستقبل حلم جنتين لا شكل له .

والحداثة أساساً : دعوة صهيونية ومن هنا يرى أغلب الباحثين أن الحداثة دعوة صهيونية وماركسية وإلحادية لأنها تركز على نفى الدين ، وأن الخطيئة عندها تتساوى مع التوبة .

وهناك شعراء لهم دور مشبوه فى الدعوة إلى هذه المفاهيم المسمومة على رأسهم ( أدونيس ) .

ولقد كان أول الداعين إلى الحداثة ( جبران خليل جبران ) ثم تبعه ( يوسف الخال ) وهم يرون أن مهمة الفن والأدب هو هدم القيم والدعوة إلى التحرر من الأخلاق والدين .

وهم يشنون الهجوم المتصل على الثوابت التي جاء بها الدين الحق ويدمرون كل الضوابط والقيم والأعراف المقررة في النظم والبلاغة ، وهدفهم واضح في محاربة اللغة العربية الفصحى كمدخل إلى حرب القرآن وعزل الأمة الإسلامية والعرب خاصة عن مستواها البياني وهم يدعون إلى ما يسمى المغامرة وإثارة المجهول وتجاوز الواحد والتعبير المستمر بما يتعارض مع قوانين الاجتماع وسنن الحياة نفسها .

وأخطر ما يدعون إليه فتح الآفاق أمام الإنسان لممارسة حريته دون قيد أو شرط .

وهم يدعون إلى الحملة التوراتية ( المستمدة من أسلوب التوراة ) على النحو الذي كان يكتب به ميخائيل نعيمة والجرأة على اللغة العربية لهدم أسلوب القرآن والهجوم على ثوابت الأخلاق ويقول دعاة الحداثة ( إنها تمثل في رأى أصحابها تدمير القداسة ومقارفة الخطيئة وتقديس المدنس وتدنيس المقدس ) .

ولا ريب أن هذه المفاهيم كلها لا تجد قبولا في أفق الإسلام والفكر الإسلامي وهي عارض لا يلبث أن ينهار ويسقط وتبقى الأصالة ، وهي لا تزيد عن أن تكون وجهاً جديداً للرمزية والرومانسية والسريالية والعبثية وكلها بضاعة خاسرة ظن أعداء الإسلام والقرآن أنهم يستطيعون عن طريقها هدم أصالة القرآن والإسلام والبيان العربي .

### هزيمة الشعر الحر(١) :

ولقد كانت الدعوة إلى الشعر الحر من منطلقات السَّيِّح ضد تيار البيان العربي الأصيل وكان الشعراء المارون الذين سموا شعراء المهجر هم حملة هذا اللواء الأسود وكان هدفهم الحقيقي الهجوم على اللغة العربية والوزن والقافية ، وكانوا من دعاة الاستهانة بالقواعد والأصول اللغوية ، ولم يكتف ( نعيمة ) بالتمرد على اللغة بل هاجم عروضا الخليل بن أحمد واتهمه بأنه حول الشعر إلى نظم وامتدت مؤامرة الشعر الحر حتى أفسحت لها القوى الماركسية مجالا في الصحافة ، ولكنها سرعان ما كشفت عن هزيمتها لمعارضتها للفطرة وأصول البيان العربي وقد ثبت أن الشعر الغربي لا يلائم طبيعة

---

( ١ ) الشعر الحر : هو المنحرف من شروط الشعر العمودي ( الشعر العربي ) .

اللغة العربية ولا الذوق العربي لخلوه من عنصر القافية وخروجه على اللغة والأدوات العروضية المعهودة .

ولقد كان العرب والمسلمون دائماً على وصية بالتحرز من التقليد لدعوات تختلف مع الوجدان الحقيقي المرتبط بتقاليدنا الفنية المألوفة ، وهى فى الحقيقة لا ترمى إلى تحديث فكرنا وإنما ترمى إلى تخريب ونسخ صورة شعرنا المشرقة .

يقول الأستاذ إبراهيم صبرى : إن الشعر العمودى أحق باستلهاام التراث من الشعر الحر بحكم انتماء الأول إلى الأصالة ، أما هم فيرجعون إلى غير المألوف وغير السليم من التراث ، إنهم يختارون مناطق معينة من التراث تتعارض مع القيم الأصيلة لأمتنا العربية والإسلامية .

ولا ريب أن الشعر العمودى باق ما بقيت اللغة العربية الأصيلة ، وهو لا يتراجع ولا ينحسر فإن انحسر عنه الضوء الإسلامى فذلك لأن الذين يسيطرون عليه للأسف هم أعداء الشعر العمودى .

#### الميثولوجيا : دعوة مسمومة :

وكما رفض الإسلام الغموض فى مجال الشعر كذلك فهو يرفض إحياء الأساطير وخاصة الأساطير الشعبية التى اتجه فريق من الباحثين لإضافتها إلى السيرة النبوية - كما يقول الدكتور محمد رجب البيومى - تلك هى الغاية التى اتجه إليها المستشرقون بدراسة الأساطير الشعبية لتصبح تاريخاً فيما بعد .

وقد امتد العدوان إلى سيرة الرسول ﷺ فأحاطها بركام كثيف ليحجب ضوءها الساطع وعندما دافع بعض الباحثين عن تنقية السيرة النبوية من هذه الأساطير ، دافع عن الاتجاه المنحرف الدكتور طه حسين فقال : وأى بأس على المسلمين أن يسمعو أن الجن والإنس والحيوان والنجوم تابشرت بمولد النبى ﷺ .

وقد عارض هذا الاتجاه الدكتور محمد حسين هيكى مؤلف كتاب حياة محمد فكتب :

إن ما ذكره طه حسين ليس حقاً ، أن نعى بإسرائيليات سَطَرَتْ لإفساد العقول وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة (١) إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبهه الكريم ﷺ .

( ١ ) الريبة : الشك .



وقد وصفت هذه الأحداث فى تواريخ الأديان السابقة ( بالميولوجيا ) أى الخرافة والأساطير ، فنادى المصلحون بضرورة محوها وستكون هذه الأساطير أداة طعن فى الإسلام حين ينهض من الخصوم من لا يفرق بين الواقع والخيال وكأنها حقائق يعتنقها المسلمون ، إن الغرب دعا إلى دراسة الأدب الشعبى لحاجة فى نفوسهم فسرنا وراءهم سيراً حثيثاً حتى تجرؤوا على تاريخ نبي الإسلام ﷺ .

#### الفلكلور خطر شديد الخطر :

وكذلك حرص النفوذ الاستعماري إلى وضع أساس ما يسمى ( الفلكلور ) كوسيلة لإحياء اللهجات المحلية وإحلالها بدلا من اللغة الفصحى .

يقول الدكتور محمد محمد حسين : إن هذه الدراسة ( دراسة الفلكلور ) قصد بها التعمق فى دراسة الاستعمار لسكان المناطق التى سيطروا عليها للتوصل إلى أمثل الطرق لاستغلالهم واستدامة عيوديتهم ، ثم امتدت إلى المجتمعات البشرية على مختلف المستويات واستخدمت فى توجيه كثير من الفنون كالرقص والموسيقى والأناشيد من جهة قومية بحيث يتميز كل بلد عن غيره ( وبذلك تزول الوحدة الجامعة التى أقامها الإسلام ) ولا ريب أن تغذية هذا التيار وتنمية هذا الاتجاه لا تساعد على تدعيم الوحدة الإسلامية التى لا يصح تغييرها ، بل هى على العكس من ذلك تماماً تساعد على تفتيت الجامعة الإسلامية والجامعة العربية بما تحييه من نغرات عنصرية وطائفية كانت تجتمع على الإسلام وقيمه ولا عقيدة سواه .

ولقد انفصل هذا الاتجاه بالدعوة إلى إحياء اللهجات العامية لتحل محل العربية الفصحى زاعمين أن إهمال هذا اللون من الفنون يقلل من العناية بالطبقات الفقيرة الكادحة . وقد نشط دعاة اللهجات العامية للتحمس لهذا الاتجاه ومساندته لأنهم وجدوا فيه متنفساً لدعوتهم ولما كان الفن فى صورته الكاملة وسيلة من وسائل السمو فوق الواقع المؤسف وقد جمع خواطر العوام فهذا لا يصلح إلا ليلهو به أمثالهم من العوام . ولا ينبغي أن يكون من أهدافنا التسفل بالأذواق المهذبة بل العكس تهذيب الأذواق الخشنة البدائية .

ولقد كان هذا التهذيب من أبرز آثار الإسلام فى البدو ، فقد شملت آدابه مختلف نواحي الحياة الفردية والاجتماعية وقد تغلغل آدابه إلى أدق المعاملات فى معاشر الرجل

لزوجته وامتدت إلى أخفى الشئون فى خلوة المرء لقضاء حاجته ، فالذين يدعون إلى ( الأدب الشعبى ) من منطلق ترويج العامية بزعم أنها لغة حية وأن الفصحى لغة ميتة مهجورة ، ينسون أن الأدب بطبعه متعة عقلية وروحية وهو بهذا الاعتبار ليس هوية شعبية ، وليست المشكلة مشكلة الألفاظ ولكنها مشكلة الأفكار والأخيلة التى يحتاج فى تذوقها إلى مستوى ثقافى معين فمهما تعمل على تيسير الألفاظ وجعلها فى متناول عامة الناس فلن يستطيعوا إلا فهم ما يلائم عقولهم وثقافتهم من الآداب السطحية التى لا تعبر عن أغوار الحقائق وأعماقها .

وبالجملة فإن الفلكلور ( الأدب الشعبى ) لا يتميز بلغته فحسب ، بل يتميز أولاً وقبل كل شئ بسطحية التفكير وبساطته التى تلائم السذج من البدائيين ولكنها لا تشبع حاجة المثقفين وطلاب المعرفة من أصحاب الفكر الرفيع والمزاج الصافى الصقيل .

ومن هنا يتبين أن تشجيع ما يسمى بالأدب الشعبى ينطوى على ضرر بالغ من ناحيتين :

**أولاهما :** هى تميز كل جماعة بطابع خاص يتعصب له مما لا يعين على تدعيم الوحدة المرجوة .

**ثانيهما :** إنه يعين على تقطيع ما بين الأمة من وشائج<sup>(١)</sup> فيصبحون لا يفهم بعضهم عن بعض ، فالمسلمون والعرب لا يجتمعون على فهم شئ مما يذاع فى مختلف أجهزة البث إلا ما يذاع منه بالفصحى .

« وضرر آخر أنه يدعو إلى التسفل الفنى بدل أن يأخذ الأدواق إلى الأسمى والأفضل » ، أ هـ .

وبعد فنحن فى حاجة ضرورية إلى إقامة وعى إسلامى قوى يقف إزاء زيف الفكر الغربى ، وذلك بالكشف عن الأخطاء وتصحيح المفاهيم وأسلمة المناهج وتحرير القيم وإقامة منهج التأصيل الإسلامى .

١ - إقامة قواعد أساسية تتناول الكليات وترك الجزئيات .

٢ - تكامل القيم الإسلامية فى كيان جامع .

٣ - توازن بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

---

( ١ ) وشائج : روابط .

٤ - انفتاح على الفكر العالمى والبشرى مع المحافظة على الأساس الإسلامى الأصيل .

٥ - جمع الإسلام بين الأخلاق وربطها بالسلوك وبين العلم وربطه بالمعرفة .

#### لحق : الترابط الجذرى بين التبشير والاستشراق :

١ - يجب أن يكون أماننا ذلك الترابط الجذرى بين التبشير والاستشراق ، بل لقد تبين اليوم من دراسة عدد من المستشرقين أنهم فى حقيقتهم مبشرين خلعوا لباس الكنيسة وارتدوا لباس العلم ليتمكنوا من الإمعان فى خداع الناس عن هويتهم الأصلية . وقد حرصوا على أن يقولوا إن الإسلام دين بشرى ملفق من الديانتين اليهودية والمسيحية .

وتعمل قوى التبشير فى مجالات ثلاث : هى المدرسة والمستشفى والمجأ ، وتحاول أن تجتذب المرضى والفقراء وإن كثيرين من المسلمين فى مناطق متعددة من إفريقيا وآسيا يتعرضون تحت تأثير الفقر والحاجة إلى الخضوع لضغوط الكنيسة ، ومن هنا فإن هناك ظاهرة إغراء بعض المسلمين بالعودة إلى المسيحية نتيجة لعجز المسلمين عن حمايتهم ومعاونتهم ولما تفرضه بعض الدول من توزيع المعونات التى تصلها فى قضية التصحر والمجاعة إلى غير المسلمين وحرمان المناطق الآهلة بالمسلمين إغراء لهم بالتخلي عن الإسلام . وقد نقح المستشرقون قولهم فى سبيل تثبيت وجودهم فى بلاد الإسلام أن يخضع المسلمون للقومية والاشتراكية حتى يضعوهم ، فى صراع دائم مستمر .

٢ - لقد وجد المستشرقون فى كتاب الأغاني كنزاً من السموم حول أخبار أبى نواس ووالبه وحماد ومطيع بن إياس والحسين الضحاك وبنار ومن دار فى فلكنهم ما يدل على السقوط الشائن والانحدار المقيت وقد حاولوا أن يجعلوا هذه الصور الفردية المضللة علامة على مجتمع المسلمين وصورة له بحيث يحجب الصور السليمة المليئة بالإيمان والنور ، ولقد بذر طه حسين شكوكه فى نفوس غافلة لم تقف على أرض صلبة من البحث العلمى والتمحيص ونشر ذلك فى صحف يومية فأحدث زلزلة لم تهدف إلى تمحيص حق .

٣ - يجب التركيز على التحول الخطير الذى تحول إليه الأدب العربى من سماحة وطابع الأسلوب القرآنى النبوى إلى أسلوب الوثنية الفارسية ( حدث ذلك فى العصر العباسى خلال مرحلة ترجمة الفلسفة اليونانية وظهور المقلدين من العجم حيث ظهر أسلوباً لكتابة

الإنشاء هو بالصناعة الأدبية والوشى والتطريز أشبه منه بالبيان العربى السلس وكلام العرب الأولين المرسل الجارى مع الطبع وغلب عليهم السجع والبديع وغلوا فى ذلك غلوا أذهب بهاء اللغة ورواءها .

وتزعم هؤلاء الصابى والفضل بن العميد والصاحب بن عباد وأبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمزانى وخضع العالم الإسلامى لنفوذهم وهذا ما حرض المستشرقين على أن يتصدروا دراسات الأدب العربى .

وجاء المؤرخون واعتبروهم أئمة البلاغة ( راجع كتابنا معالم الأدب العربى المعاصر ) .  
٤ - إن مفهوم الحداثة فى كثير من الآداب الغربية يعنى العودة للجذور والارتداد للمنابع الأصلية ولكنها عندنا تعنى التدمير .

إن دعوى عربية الحداثة دعوى زائفة لأنها لا تزيد عن أن تنقل لنا مفاهيم الحداثة الغربية ، بل مفاهيم حداثة معينة هى حداثة التغريب ، إن قصيدة النثر هى جنس مختلف عن القصيدة وعن النثر .

وهى تقوم على الغموض : الذى يتمثل فى الرفض لقيود التغييرات الفنية التى عرفتها اللغة العربية خلال خمسة عشر قرناً .

الرفض بكل أنواعه : الميتافيزيقى والخلقى كما اتفق عليه المجتمع ولما ساد فيه قرونا عدة .

يقول الدكتور شكرى عياد : إن الرسالة التى تريد أن توصلها إلينا الحداثة هى أن الكلام كله عبث والحياة خالية من المعنى وهذا هو المرض الخبيث المستشرى بالفعل فى كثير من الكتابات التى تسمى حداثة ومنشأ هذا المرض الغرب حيث تطورت الحضارة إلى أن وصلت إلى درجة الشك فى جميع القيم حتى فى معنى كلمة ( قيمة ) ذاتها وآخر هذه القيم وأقدمها هى قيمة الحقيقة التى أعلن ( دريدا ) زعيم التفكيكيين أنها شىء غير موجود .

إن هناك كثيراً من الممارسات الرديئة تتخفى تحت أسماء محترمة وكثير ممن يسمون أنفسهم حداثيين يتسترون بالفوضى الفكرية والانفعالية واللغوية التى يتخطون بها .

\*\*\*\*\*

## الباب السابع الفن وتدمير القيمة

تكشفت فى السنوات الأخيرة لعبة ( الفن الحديث ) كأداة تدمير للحضارة والتراث  
تحرّكها المصالح الصهيونية والماسونية .

وفى كتاب ( لعبة الفن الحديث بين الصهيونية والماسونية وأمريكا ) للدكتورة زينب  
عبد العزيز تكشف الباحثة عن الدور الحقيقى لأهداف هذه المهزلة وتتناولها باعتبارها  
( ظاهرة ) بالنسبة للحضارة الإنسانية والمجتمع المعاصر ، ذلك لأن تطوره أخذ بالفعل شكل  
( ظاهرة ) تتضافر فيها العديد من التيارات الفكرية والاجتماعية : ظاهرة شديدة الارتباط  
بالقطبين الأساسيين المحركين للمجتمع كله وهما : الاقتصاد والسياسة .

غير أن الصلة الاقتصادية ليست وليدة اليوم ، إلا أنها لم تتسع أبداً بهذا الشكل ولم  
تتخذ أبداً هذه الحدة كما حدث فى النصف الثانى من القرن العشرين ، فى هذه الفترة التى  
تعدى فيها تداخل الفن والمال ليخرج من دائرة الفنانين والتجارة ليتوغل فى كيان المجتمع  
ويمس قطاعات كبيرة من الجماهير حتى أنه عندما تسوء أحوال البورصة تسوء الأحوال  
الفنية ، وهذه حقيقة يقرها تجار الفن ومقتنو اللوحات .

يقول ريموند مولاند : لعل تعبير ( احتكار ) يعد أقل إزعاجاً حينما ندرك كيف كان  
الفن الحديث بمثابة ظاهرة ضرورية لضبط سير وتنظيم المشاعر الانفعالية والثقافية  
للمجتمعات التى أنتجته إذ أصبح الفن مجرد أداة تنظيم تخدم الأغراض السياسية  
والأيدولوجية وهو أمر ليس غريباً .

ففى كل الأزمنة والعصور كان الفن يقوم بدور ما فى المجتمع ، كما كانت له دائماً  
صلة ما بالسلطة الحاكمة ( مؤيداً أو معارضاً ) سواء أكانت السلطة دينية أم عسكرية  
أم مدنية .

ومنذ الحرب العالمية الثانية التى أدت إلى تحولات جذرية فى المجال الفنى وإلى تدفق  
سيل من الاتجاهات الغريبة المبتذلة .

ولاً أدل على مدى التخبط من محاولات الهدم الفنى من ذلك التباهى الغريب

لأسماء أكثر غرابة ومن يحاول فهم هذا التداخل الشديد التعقيد لمسميات الفن الحديث سيلحظ تلك الرغبة الجامحة في التدمير وذلك الطموح الذى لفت الأنظار اعتماداً على التخويف والتزييف ومن أمثلة ذلك :

فن الطبيعة ، الشراسية ، النفعية ، الطرحشية ، الجملة الآلية ، الفن النظرى ، البدائى ، الخام ، اللاشكلى ، الكهربائى المتدمر ذاتياً . . . إلخ .

أكثر من مائتى تصنيف للفن الحديث فى القائمة الكاملة لمسميات هذا السيل الفوار الشبيه بالفقاعات للمذاهب العابرة التى داهمت هذا العصر لتصيب قارئها بالغثيان ، إن هذه التسميات تنم عادة عن عمليات تزييف واسعة للواقع والكلمات والأفكار والأساليب لإخفاء اللعبة المستترة التى كانت تتم خفية حتى عن معظم الذين ساهموا فيها أو انساقوا إليها بحسن نية .

ومن ذلك أن الأسماء التى عرفت فى أفق عالمنا العربى : اردأ الأسماء تظهر الآن على أفلام ومسلسلات ، وهناك مسابقات الجمال وغيرها ، جوائز الفن ومهرجان كان ، وهناك أجهزة الغش وأساليب التدمير التى تتلفع بالفلسفة النيتشارية ومافيا اليهودية والماسونية وكيف تتحرك اللغة باسم الفن الحديث .

وإذا كانت لعبة الفن الحديث تصدر عن الغرب فإنها تهدف إلى تدمير المجتمع الإسلامى أساساً .

ولقد كان الفن فى أول أمره فى بلاد العرب والإسلام يرمى إلى أن تكون مدرسة إصلاحية ولكنه عندما سيطرت القوى الاستعمارية على الفن أصبح سلاحاً خطيراً يهدف إلى تدمير المجتمعات .

وإذا نظرنا اليوم إلى ساحة الفن لوجدنا أن الأفلام السينمائية والمسرح والصحافة اليوم كلها تخضع للذوق الغالب من الطبقة المسيطرة فى المجتمع وهى طبقة أصحاب الدخول الطفيلية ومن هنا فإن الفكر أو الفكر الذى تقدمه يخضع لذوق مفروض وطابع محدود ، ومن هنا فإن سيطرته من شأنها أن تفسد القيم الأساسية التى يعرفها المجتمع الذى أنشأه الدين والقائم على البذل والسماحة والرحمة وهى القيم التى دعانا إليها الإسلام ، إن هناك نوعاً من الصراع والتسابق نحو الحصول على الثروات والمتع المادية والجنسية دون النظر إلى مصادرها إن كانت حلالاً أو حراماً .

ولا ريب أن النفوذ الأجنبي يطمح عن طريق الفن أن يهدم قوى المقاومة فى الأمم التى تسيطر عليها أفلامه السينمائية وفنونه المختلفة .

ولقد كان المسرح العربى تابعاً للفن الغربى ولم يستطع أن يحرر نفسه بل خضع خضوعاً ما يزال ممتداً من أول إنشائه إلى اليوم .

يقول الدكتور أحمد عبد الرحمن : كان من أفحش ما اقترفه المسرح العربى العلمانى التبرج بالنساء فى التمثيل والمتاجرة بأجسادهن ، والدراما فى أوربا نفسها قدمت أعمالاً كل أبطالها من الرجال أما المسرح العربى فقد أصر على التبرج بالنساء فى التمثيل ووجد رائدات لذلك فى نساء اليهود والنصارى مثل حنينه وليبية ومائللى ونزهة وكاترين وأستير ولونا ومارى سماط ومارى صوفان ، وبذلك ثبت للمسلمين أنه غريب وثقافة أجنبية لا تحترم قيم الأمة المسلمة ، بل تعتمد على انتهاكها وورثت الفنون الدرامية الغربية كل جرائم التغريب وعلى الأخص العداء المتصل لقيم العفة والشرف والنظافة الجنسية .

وكان المسرح العربى ضد فضائل العفة الجنسية وأداة لنشر الفجور والفسق عن طريق التيار اليهودى المارونى العلمانى المعادى للإسلام وهو المسيطر على عالم المسرح وعالم السينما والتلفاز بحكم الوراثة ، وكانت الدراما الغربية قائمة على التفكك الأسرى والتحلل الأخلاقى أو القيم الهدامة والأفكار السامة .

وقد أخذ المسرح يعرض مشكلات أبناء السفاح والزنا والمحارم والشذوذ الجنىسى ، وكان عدد أكبر من المسرحيات الناجمة عن ذلك زائفة كتبت لمحاولة إشباع نهم الناس الجنىسى وسار كثيرون على هذا الدرب الذى خلط بين الفن والبيغاء وانتهى بتحويل الدراما إلى ماخور وهذا ما تابعه يعقوب صنوع والموارنة الشوام وعملوا على تقديمه للأمة المسلمة .

وكان فرويد هو أول من وضع أساس الدراما السيكلوجى وطبقها الغربيون فى الحياة وفى تصوراتهم الدرامى ولم تعد العفة الجنسية قبل الزواج أو الإخلاص للزوج من صفات البطلة فى أى مسرحية ، وكان الأدب الغربى قد دعا عن طريق أوسكار وايلد وفولبير إلى تحرير الأدب والفن من أحكام القيم الأخلاقية ليباح للأديب والفنان الدعوة إلى أى شئ وترويج أى شئ ابتداء من الزنا واللواط وانتهااء بالمادية والإلحاد .

\* \* \* \*





## الباب الثامن

### الفرنكفونية : سيارفريزى جديلفرو اللغة العربية واحياء اللغات القديمة

تؤكد كل المصادر والموسوعات أن الفرنكفونية هي سياسة اللغات القديمة ، ثقافة تخفى وراءها مصالح إقتصادية ، ورغبة في الهيمنة على الشعوب المغلوبة .

يقول الدكتور عبد العلى الدغيدى : إن الفرنكفونية هي سياسة فرنسا اللغوية والثقافية التي تختفى وراءها مصالح إقتصادية ورغبة في الهيمنة على الشعوب وكيف انطلت هذه الخدعة الاقتصادية الخبيثة على الكثيرين حتى على بعض مثققي هذه الشعوب المغلوبة أنفسهم وإن الغرض ليس هو نشر اللغة أو الثقافة الفرنسية ولكن هو الوصول عن طريقهما إلى التحكم في عقول ومصير مستعمراتها ، ولذلك فالمسألة ليست مسألة لغة تطل بواسطتها على شعوب معينة على العالم الغربى وثقافته وحضارته ولكنها مسألة سياسة مخططة بخبت ومهارة وتستعمل طعماً لاصطياد الشعوب وإيقاعها فريسة الشركات الكبرى ومخالب الرأسمالية المتوحشة .

ويقول الدكتور لوى جان كالفى المعروف باهتماماته الخاصة بأوضاع الشعوب العالمية وقضايا اللغة والمجتمع والصراع اللغوى والمشراف على سلسلة اللغات والمجتمعات وقد عرف بالشجاعة التي أعلن بها رفضه لسياسة الاستعمار الفرنسى الجديد الرامية إلى طمس هويات الشعوب وإعلان الحرب الضروس على لغاتها وثقافتها وفضح خيوط الرأسمالية والمصالح الاقتصادية الواقعة من وراء ذلك .

يقول : ليس صدفة أن تكون بداية ظهور الفرنكفونية مباشرة بعد حركات استقلال المستعمرات الفرنسية ومن هنا كانت فكرة الفرنكفونية قد انطلقت سنة ١٩٦٤ على يد بعض رؤساء الدول الأفارقة ( سنجور وبورقيبه ) ثم ما لبثت فرنسا أن تلقتها ( رغم تردد الجنرال ديغول ) حيث قامت وكالة ضمت خمساً وعشرين دولة فرنكفونية فليس من قبيل الصدفة أن يكون تاريخ الفرنكفونية قد بدأ مباشرة بعد حركات الاستقلال الصورية التي عرفتها المستعمرات الفرنسية القديمة وأن نجد من بين عرابي الفرنكفونية أب الزنجية ( سنجور ) وباستثناء فرنسا فإن كل الدول ( الفرنكفونية ) تعيش فعلاً وضعية من الازدواجية اللغوية .

١ - ويقول دكتور المهدي المنجرة من كُتّاب المغرب : إن الفرنكفونية أداة لهيمنة حضارية ومحاربة قيم المسلمين ، نعم هناك هيمنة استعمارية وأنا أحترم جميع الحضارات ، واللغة الفرنسية هي جزء من التراث العالمي البشري ، ولكن مأخذى على فرنسا هي استعمالها بكيفية سياسية وتجارية مذلة لهذه الثقافة وكأنها فى سوق تشتري وتبيع بها . لماذا ؟ لأن فرنسا أصبحت تعيش مركب نقص حضري ، وأنا لا أرضى أن تستعمل اللغة الفرنسية بهدف تركيز الفرنكفونية والهيمنة الحضارية ومحاربة قيم أخرى ومحاولة استغلال إفريقيا والعالم العربى والعالم الإسلامى .

ما هو المبرر الذى يجعل بلدا مثل مصر تنتمى إلى الدائرة الفرنكفونية وهي لا تحتوى على أكثر من ٣٠ ألف أو ٤٠ ألف يتكلمون الفرنسية ، كما أنه أجريت دراسة أكدت أن أغلبية البلدان الفرنكفونية هي مسلمة عربية ، إنه لا يمكن استغلال الثقافة كوسيلة للهيمنة وشراء الناس بالفرنكفونية اليوم إذا أرادت ، فلا تعقد ندوة حول الفرنكفونية فهو سهل جداً ويحضرها أناس يلبسون آلات السمع والترجمة .

أنا أرفض لبلدى ولمنطقتى التبعية لفرنسا فى الميدان العلمى والتكنولوجى كما يكتب بالفرنسية من تخاليل علمية له أربعة عشر عاماً لأن أبرز العلماء الفرنسيين يكتبون بالإنجليزية .

هذه هي وضعيتنا فى العالم الإسلامى وخاصة فى منطقة المغرب العربى فيما يتعلق بالعملية ، بل أنا أقول أن هناك خيانة وسيحاكم التاريخ جزء من هذا الجيل الذى أصبح أداة لتمرير مؤامرة .

وهذا ليس له علاقة لا بدين ولا بإيمان ولا بإسلام أنا أسميهم المرتزقة ، فنحن لنا مرتزقة فى الثقافة وهذا يرهان على أنهم لم يفهموا شيئاً من هذه الحضارة .

إن هذه الحضارة الغربية خاصة بمنطقة معينة وإن نجاحها يرجع إلى تأصلها وتجذرها ( العلم ١٧ عشت ١٩٩٠ ) .

٢ - ويقول عبد الكريم الخطيبى : الفرنكفونية لا مستقبل لها فى بلادنا ولست كاتباً فرنكفونياً .

فالفرنكفونية مشروع واسع معقد وطموح وهو بالنسبة للبعض ( يوتوبيا ) فالعدد المحدد للفرنكفونيين ١٠٦ مليون ضعف الوزن الاقتصادى للعالم الفرنكفونى ، خلل فى المنتج الإجمالى الوطنى الخام بين كندا وفرنسا ، أربعون مدينة كندية تتخلى عن الفرنسية كلغة

للتعامل مع المواطنين رغم الجهود التي تبذلها باريس ويرى البعض أن اللغة الفرنسية قد تختفي كلفة ثانية في كندا مع بداية القرن الحادى والعشرين .  
وهكذا تواجه اللغة الفرنسية انحساراً مستمراً ومتواصلاً رغم الجهود التي تبذلها فرنسا ، وأن بعض الكتاب في المغرب يتبرعون من الفرنكفونية .

٣ - ويقول عبد القادر العللى : إنه في إطار الصراع الحضارى والأيدولوجى وبحث الدول العظمى عن مناطق النفوذ السياسى والتنمية الاقتصادية فقد ظهرت وجوه جديدة للاستعمار وتمثل بصفة خاصة في نشر لغة وثقافة القوة الاستعمارية للتأثير على التوجهات الفكرية والتطلعات المستقبلية للشعوب المستقلة وقد يبلغ الأمر إلى تحقيق استقلالها الكلى وفصلها عن جذورها التاريخية ومقوماتها الحضارية وأنسبتها الوطنية وجعلها مجرد ذيل يتبعها في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية ، وفرنسا باعتبارها إحدى الدول الاستعمارية الكبرى التي سارت على هذا النهج فقد تنبّهت في السنين الأخيرة إلى أن لغتها بدأت تفقد بعض المواقع وتقلص على الخريطة العالمية بسبب الانتشار المتزايد للحضارة الأمريكية ، ومن هنا كان إغراء الذين يكتبون باللغة الفرنسية حتى تخصص لهم الجوائز القيمة وتقيم على شرفهم حفلات التكريم مكافئة لهم في إسهامهم في نشر الثقافة الفرنسية وتدعيم لغتها وإغناء مكانها ، وهى محاولة ترمى إلى ربط هذه البلاد لعجلة الفرنسية إلى الأبد مما يجعل البعد الحقيقى للفرنكفونية هو إقامة وبناء فرنسا العظمى .

وإذا كان من حقها توسيع نفوذها السياسى والاقتصادى فنحن من حقنا بل من واجبنا أن نتصدى لكل ما يمكن أن يمس شعورنا أو يزيغ انتماءنا وأن نرفض كل شكل من أشكال التبعية وتحقيق استقلالنا اللغوى والثقافى كشرط أساسى لضمان الاستقلال الاقتصادى وحماية الاستقلال السياسى ، ولن يكون للحوار أى دلالة إذا كنا نفتقد مقوماتنا ونشعر بالنقص في مواجهة تفوق الطرف الآخر ، لقد دمر الاستعمار الفرنسى مدارس الجزائر عند قدومه وترك الأمية الفرنسية عند رحيله ، وقد ظلت فرنسا تعارض التعريب فى الأقطار العربية الأربعة بكل وسيلة وكان هاجس النفوذ الفرنسى تعطيل وإلغاء المدارس الإسلامية ونزع السلاح المعنوى والمادى للمواطنين الجزائريين .

٤ - ويقول الباحث المغربى الدكتور عبد الكريم غلاب رئيس تحرير جريدة العلم : اللغة فكر وليست وسيلة أو أداة وإذا الشعوب لم تعتز بالفكر بكل ما تحمله من رواسب الماضى وواقع الحاضر وآفاق المستقبل لا يمكن أن تنزل باللغة إلى مستوى الوسيلة ،

وبالتالى لا يمكن أن تأخذ به لغة أخرى غير لغتنا الأم التى ارتكزت عليها حضارتها ولو كوسيلة للاتصال والخطاب .

أما الدكتور مورييس ديرون : فيرى أن فرنسا زعيم عالم الفرنكفونية تعاني هبوطاً فى مستوى اللغة الفرنسية عندها ، وهذه الأزمة واقع قائم لا يفيدنا فى شيء إنكاره أو تجاهله ، ففى فرنسا تياران رئيسيان : الأول محافظ كلاسيكى يريد قوقعة اللغة الفرنسية وتحجيرها فى القوالب والقوانين اللغوية التى كانت سائدة فى القرون السابقة ، والثانى : تيار متحرر ينظر إلى اللغة الفرنسية ككائن حى قابل للتطور وللتأقلم بحسب مستجدات الحياة العصرية ، وهذا التيار يمارس تحرير اللغوى أحياناً بطريقة فيها الكثير من بذور الهدم والتشويه ، وقد ظهر أن هناك تزمناً مخيفاً فى مستوى الإملاء والنحو .

ويرى كثير من الباحثين أن أول من دعا إليها الجيب يورقية ( تونس ) وليوبولد سنجور ( السنغال ) وقال الكاتب الأمريكى إن الفرنكفونية تجرف معها مخلفات هيئة ثقافية .

وقد أصبحت اللغة الفرنسية هى الأسمنت الذى يؤلف من هذه الأقطار ، وعن طريقها استطاعت فرنسا محاصرة الثقافة الإسلامية فى المغرب بين أجزاء المجموعة فأغرت كتاباً مسلمين عرباً بالكتابة بالفرنسية ومنحتهم الجوائز مثل الظاهر بن جلون .

وكان الاستعمار معروفاً بنزعتة الاندماجية الرامية إلى إذابة شعوب هذه الأقطار مادياً وبالخصوص معنوياً وثقافياً .

وقد لعبت الازدواجية منهجاً جعل اللغة الفرنسية مسيطرة على الإدارة وشتى شئون الحياة العامة .

وبعد فما هى الفرنكفونية فى تعريف الثقافة المغربية العربية الإسلامية ، يقول الباحث : هى محاولة من فرنسا لاحتضان مجموعة من كتاب العرب فى المغرب يكتبون باللغة الفرنسية ، وهى محاولة مرفوضة على الصعيد الشعبى ولدى جزء عريض من الرأى العام الثقافى خاصة فى الشمال الإفريقى الذى تعمل شعوبه على وضع حد للازدواجية اللغوية التى لا تعدو أن تكون من بقايا العهد الاستعمارى الزائل .

ذلك أن اللغة الثانية التى تتعلمها الشعوب ينتظر منها أن تكون أداة تفاعل حضارى لا إنشائى ولا وسيلة لتشكيل شخصية وتكوين روحى وفق مقاسات معينة .

والذى كتبه الظاهر بن جلون وحصل من أجله على جائزة الجونكور لا يساهم فى التفاعل الحضارى المطلوب ولكنه يحقق الفرنكفونية وفق ما يريد لها الفرنسيون .

وبالجملة فإن الفرنكفونية : هى خطة فرنسية ترمى إلى احتواء البلاد الموالية لها ثقافياً وهى تركز فى ذلك على تونس والجزائر والمغرب ( ولا بأس أن يمتد نفوذها إلى بعض الأقطار العربية مثل إنشاء جامعة سنجور فى مصر ) .

ويعتبر القائمون على هذه الخطة أن عملية التعريب التى تجرى منذ سنوات طويلة فى الأقطار الثلاثة مؤامرة ضد فرنسا وثقافتها ، ومن عجيب أن وزيراً فرنسياً يوجه نداء للجزائريين للدفاع عن اللغة الفرنسية وأن الصحافة الفرنسية تشن حملة شنعاء ضد قرار التعريب الجزائرى وتشكك فى شرعية المجلس الشعبى الوطنى الجزائرى الذى أصدر هذا القرار .

وتتجاهل فرنسا حقائق الأمور ولا تزال تعامل هذه الأقطار على النحو الذى كانت تقوم به منذ خمسين عاماً غير مقدرة للتطور الذى أحدثته الحركات الوطنية التى قامت والتغيير الكبير الذى حدث ، وهى تقف موقفاً عصبياً أمام مقررات دولة الجزائر فى توجيهها نحو الإسلام ، وقد كان قانون تعميم استعمال اللغة العربية خطوة حاسمة فى هذا المجال حيث ألزم جميع الإدارات العمومية والهيئات والمؤسسات والجمعيات خاصة فى مجال التعليم والتربية والتكوين باعتماد اللغة العربية وحدها فى جميع الأعمال كما يستوجب أن يكون الإعلام الموجه للمواطن باللغة العربية .

ومن عجب أن الحكومة الفرنسية تحاول أن تثير بعض العناصر البربرية ضد هذا القرار ناسية أن البربر أنفسهم مسلمون وأن اللغة العربية هى لغة القرآن الذى يتلونه ويرتلونه فى صلواتهم .

وقد وصفت جريدة الشعب الجزائرية هذه الحملة بأنها عدوان مقصود ضد سيادة واستقلال الجزائر وأنها تدنّس صرخ فى الشقون الداخلية للبلد وأن هذا الموقف يؤكد نمو العقليات الاستعمارية الجديدة .

وهكذا تعمل الفرنكفونية على الحيلولة دون تعريب الجزائر وتدمر عروبتها وإسلامها من جانب التفسير الفرنكفونى من دعاة الفرنسيين ، وتشن الصحافة الفرنسية حملة شعواء ضد قرار التعريب وتشكك فى شرعية المجلس الشعبى الوطنى الجزائرى .

وهم يحددون ما قاله الجنرال ليوتى أول مقيم فرنسى فى الجزائر : أن العربية عامل من عوامل نشر الإسلام ، لأنهم يتعلمونها بواسطة القرآن وتجيء مكتبة الإسكندرية لتلقى محاذير كثيرة خوفاً من أن تكون جسراً لفلسفات بالية وما نشر عن أجنحة المكتبة يثير

شكوكا كثيرة فى أنهم يريدون نشر الثقافة السائدة فى شمال البحر الأبيض المتوسط ( اليونان والرومان واللاتينية فى فرنسا وأسبانيا ) .

ودوائر المعارف الأوروبية كلها مغلوبة وملبقة بالتعصب ، خاصة وأن ذلك جاء فى ذكرى مرور ثمانية قرون على إخراج الإسلام من الأندلس وتتركز أبعاد المشروع فى نقاط هامة أساسية :

أولاً : إحياء اللغات القديمة ، وفى مقدمتها الأمازيغية .

ثانياً : دراسة الفكر الإسلامى من خلال منهج غربي باستعمال مصطلحات عربية أساساً .

ثالثاً : دراسة الأدب العربي باللغات الفرنسية .

رابعاً : الحيلولة دون انتشار اللغة العربية وتعريب الدواوين .

خامساً : التركيز على أن الفرنسية هى لغة الدين الكاثوليكي .

سادساً : نشر اللغة الفرنسية خارج فرنسا .

سابعاً : تخليد ذكرى مرور مائتى سنة على الثورة الفرنسية .

### الأمازيغية فى الجزائر : مخطط تعريبى فرنسى

تشهد الجزائر الآن تصعيداً خطيراً فى هذا الشأن ولا سيما مع تدهور الوضع الأمنى بها وانحيار سلطة المؤسسة السياسية الرسمية وفى خلال ذلك ظهرت الحركة الثقافية البربرية ( الأمازيغية ) تطالب بالاعتراف باللغة البربرية وتدرسها فى المدارس .

وكان المفكر الألماني ( هرذر ١٧٤٢ - ١٨٠٣ ) قد درس علاقة اللغة بنفسية الأمة وشخصيتها فى أربعة كتب صدرت بين ( ١٧٨٤ - ١٧٩١ ) تحت عنوان : آراء لتكوين فلسفة تاريخ البشرية ، وقد أعلنت الحكومة أنه سيتم قريباً الاعتراف باللغة البربرية كلغة رسمية إلى جانب اللغة العربية وتدرسها ضمن المناهج الدراسية ، وتأتى الخطوة الثانية فى إحياء التراث الأمازيغى .

وفى المغرب حيث يمثل ( الأمازيغية ) ٤٥ ٪ من الشعب المغربى أشار جاك بيرك إلى أنه وجه اللوم إلى عبد الكريم غلاب رئيس تحرير جريدة العلم لأنه تقدم بمشروع يقضى

بتدريس اللغة الأمازيغية فى المدارس المغربية بطريقة إلزامية ، وكيف يجيد أبناء أفريقيا العربية منذ تأسيسها على تعلم اللغة الأمازيغية .

#### وأنة مشروع سيؤدى إلى انقسام الولاء :

وقال إن الحل الذى أراه هو نفس الحل الذى أراه بالنسبة لبعض اللهجات الفرنسية فى منطقة الباسك أو بريتاني إذ يمكن أن تكون هذه اللغات اختيارية لا إجبارية .

يقول جاك بيرك : إن هناك عوامل عديدة قد دفعت إلى هذا الاتجاه منها إخفاق الموجة التحررية المصبوغة بالعروبة فى الجزائر .

إذ لم تحدث الإيجابيات التى كانت متوقعة عقب الاستقلال ويكاد يكون الحصاد النهائى لها بعد ثلاثين عاماً من الاستقلال لا شئ ، وهو شئ محزن لأن الحكومات الوطنية فى الجزائر وبقية الدول العربية حديثة الاستقلال لم تحقق أى انتصار مثلما فعلت الحكومات الوطنية فى دول أوربا مثل فرنسا وإنجلترا وألمانيا كما حمست البربر للعودة إلى أحلامهم القديمة والمناداة بحقوق سياسية وثقافية خاصة .

قال أحد النواب : إنه من العار أن نرى اليوم اللغة العربية فى حاجة إلى نص قانونى لإعادة الاعتبار إليها فى أرضها ، إن اللغة العربية هى من صميم الهوية الوطنية .

#### الثورة الفرنسية

وتخليد ذكرى مرور مائتى سنة على اندلاع الثورة الفرنسية على إعلان حقوق الإنسان فى فرنسا سنة ١٧٨٩ لم يعبر عن الطبيعة العنصرية والعقلية الفرنسية فى مواجهة حقوق الشعوب فى الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية ، وقد يتوهم أن الإنسان الفرنسى متفوق على باقى سكان المعمورة وتعتبر أن الشعوب التى لم تثل نفس الحظ من المدنية وخاصة فى إفريقيا إنما وجدت لتلئب أغراضها وحاجاتها ، ويؤكد ذلك سياسة التوسع الاستعمارى التى انتهجتها فرنسا بعد ذلك خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث قامت فى إطار هذه السياسة باستعباد واضطهاد شعوب كثيرة ونهبت ثرواتها وجعلت البلدان المستعمرة أسواقاً لبيع منتجاتها وسلمها وقد حدث ذلك بعد مرور عشرات السنين على دستور مبادئ حقوق الإنسان كما جندت فرنسا الكثير من أبناء المغرب العربى ومن الشعوب الإفريقية

ودفعت بهم إلى رحى الحرب والامتنال من أجل حماية فرنسا وضمان سلامتها في مواجهة القوى الأوروبية .

لذلك عملت على استغلال الطاقات الشابة التي تتوفر في البلدان الإفريقية في بناء اقتصادها وتحقيق نهضتها فبدأت المعامل والمصانع والمناجم تتحرك بفضل السواعد الإفريقية .

وتعرض العمال غير الفرنسيين الذين يفتون زهرة عمرهم في خدمة فرنسا ويقومون بدور هام في تحمل الإهانة والممارسات العنصرية والدينية ، ودائماً تسود القلة العنصرية المختلفة فرنسا في ظل مختلف الألوان السياسية التي تتفاهم على الحكم ، مع دوام الاعتداءات الناتجة عن الحقد العنصري في المراحل التي يتولى فيها اليسار الحكم .

وهكذا قدم الأفارقة شبابهم هدية لفرنسا وكان مصيرهم القتل والاضطهاد . ثم جرى استلاب ثقافة الأفارقة وبهرتهم بحضارتها وأنستهم حدودهم وأصولهم فأصبحوا أداة طيعة في يديها .

وقد أصبحوا الآن ينوبون عنها في التبشير بلغة وثقافة وحضارة فرنسا لربط الشعوب الإفريقية بصفة نهائية بهذه الدولة التي لا يمكن أن تكون معروفة بالبشرة السمراء .

وأصبحت هذه البلدان مجرد سوق استهلاكية لمنتجاتها ، وهذه النخبة المدبرة من السكان تدين لها بالولاء الفكرى والثقافى وأخطر ما تقوم به فرنسا تجنيد طاقات كبيرة لإنجاح ما سمي بالفرنكفونية على الساحة الإفريقية ، فإن عملها هذا يتم على حساب شعوب هذه القارة في التحرر الفكرى وإحياء لغاتها ولهجاتها المحلية وحققها في التمسك بثقافتها وجذورها الحضارية ، حيث أن الفرنكفونية في عمقها ما هي إلا وسيلة تسليخ الإنسان الإفريقى عن هويته الأصلية وربطه الدائم بعجلة فرنسا العظمى ، وكل هذا التعارض من مبادئ حقوق الإنسان .

ويفرض على الأفارقة حضارة غريبة عنهم بدون اختيارهم ويمس حق الإنسان في التمسك بانتمائه القومى ويعرض عليه التبعية الدائمة لبلد يبنى مجده وتقدمه على حساب كرامة الآخرين ( عبد القادر العلمى ) .

\* \* \* \*



## الباب التاسع

### مؤامرة تدمير المجتمع الإسلامى (مؤتمر السكان)

كشف مؤتمر السكان الذى عقده الدول الغربية فى القاهرة عدة حقائق أساسية عن هدف الغرب فى تدمير المجتمع الإسلامى وقد ظهرت هذه الحقائق فى المقررات التى أعدها عتاة التغريبين والعلمانيين والذين يطمعون فى تدمير الوجود الإسلامى فى بلاد المسلمين ويتمثل ذلك فى عدة حقائق أساسية :

أولاً : فرض الإباحية والتحلل على المجتمعات الإسلامية تحت عناوين وأسماء خادعة ( فرويد وماركس ودوركايم ودارون ) .

ثانياً : فرض مفهوم الرجل الأبيض .

ثالثاً : فرض مفهوم الانفجار السكاني .

رابعاً : فرض مفهوم الربا على أنه أساس الاقتصاد .

خامساً : فرض مفهوم المعرفة القائم على العقل وحده .

سادساً : تدمير وحدة المسلمين .

سابعاً : القضاء على الثوابت التى قررها الإسلام وأهمها ثوابت الأخلاق .

ثامناً : تدمير الأسرة والنظام الاجتماعى وإقرار التفكك العائلى وقد تبين من وثيقة المؤتمر أن هدفها الأساسى هو الحد من النمو السكاني فى بلاد الإسلام والربط بين المساعدات الائتمانية وبرامج الحد من النمو السكاني مما يكون له آثاره السلبية على برامج التنمية المبعثرة أصلاً بالإضافة إلى أن هذا الربط يعد تدخلاً فى الشؤون الداخلية للدول النامية مما ينقص سيادتها ، مخالفًا بذلك ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولى ، وقد جاء هذا المشروع داخل إطار الأيديولوجية الأمريكية التى تقوم على المصالح دون النظر إلى الأخلاق أو الدين فهم ينظرون إلى العالم وكأنه ولايات لهم .

وبالجملة فإن الهدف فى الأساس : هو خفض نسل المسلمين وإشاعة روح الإباحية والتحلل والإجهاض والشذوذ الجنسى .

ومن هنا جاءت دعوة المؤتمر إلى احتضان الشواذ ومحاولة إيجاد وجود لهم وحقوق .  
وتتركز الدعوة إلى إقرار ثلاث محرمات قررت الأديان شجبها والحيلولة دون  
سيطرتها وهي :

الإجهاض وتحديد النسل وزواج الشواذ .

وقد وصف هذا التيار الخطير بأنه الاحتلال الثالث للدول الفقيرة والذي يأتي بعد  
الاحتلال الأول الذي سلب فيه الغرب ثروات هذه الدول والاحتلال الثاني وهو الغزو الثقافي  
وهذه المرة جاء الهدف واضحاً وهو :

وقف نمو سكان الدول الفقيرة وزيادة سكان الدولة الغنية .

وهكذا يمضى الغرب فى فرض نفوذه السياسى والاقتصادى على النحو الذى يحطم  
قوائم الإسلام وخاصة فى مجال الأسرة وإباحة الشذوذ والإجهاض ويرمى المؤتمر فى الأساس  
إلى تدمير الأسرة الإسلامية وتحطيم مهمة المرأة المسلمة وذلك بإباحة الحرية الجنسية للشباب  
 ورفع ولاية الآباء على الأبناء وتعليم الجنس للأطفال والمراهقين وإباحة البغاء للقوانين  
التي تحرمه وإنشاء الأسرة المحرمة على أنقاض الأسرة الطبيعية وفتح باب إباحة الإجهاض أمام  
المرأة وتحديد النسل تحت دعاوى ضيق الموارد وإقامة فكرة المساواة المطلقة بين الذكورة  
والأنوثة والدعوة إلى إلغاء الميراث .

وكل هذه العناصر تمثل تصوراً كاملاً للمنهج الإسلامى الربانى الذى يلتزم به  
المسلمون فى حياتهم ومجتمعهم والذي تحاول كل قوى التغريب والغزو الثقافى وولاءاتها  
الصهيونية والماسونية والشيوعية أن تعمل من أجلها من جماع معطيات فرويد وماركس  
ودوركايم وسارتر وكل دعوات الكبت والعقسد النفسية وهى مأخوذة أساساً من  
المخططات التلمودية .

وقد أصبح ( الحد من نمو العرب والمسلمين ) هدفاً خطيراً من أهداف الحضارة  
الغربية والصهيونية واستبداله بفتح أبواب الجنس والإباحية على مصاريعها<sup>(١)</sup> والدعوة إلى  
الإجهاض وإباحة الشذوذ والحرية الجنسية للمراهقين استمداداً من الجذور التى غرسها  
فرويد وسارتر ودوركايم فى الفكر العالمى منذ مائة عام من اعتبار ( الحرية الجنسية ) حلاً

( ١ ) مصاريعها : المراد إعطاء الفرصة كاملة .

لزيادة النسل وإباحة الزواج بين الرجال وهو ما أطلق عليه رسول الله ﷺ مستنكراً ( تكافل الرجال بالرجال ) وإعطاء المرأة حرية جسدها في الإجهاض والتنكر لكرامة الأسرة وضربها في الصميم وهو ما تطبقه الحضارة الغربية في مختلف أقطارها وتريد نقله إلى أفق الأمة الإسلامية عن طريق عبارات خادعة براقة مثل المساواة المطلقة بين الرجال والنساء ، وإباحة الخلوات الحرة ، والرقص المزدوج والتخلص من الحمل الكريه وأن لا يكون للأباء التدخل في حركة الحياة للفتى والفتاة ، وتحطيم الضوابط الطبيعية للعلاقات الداخلية .

والواقع أن الأمة الإسلامية قد أعلنت موقفها واضحاً من المحيط إلى المحيط بأنه لا مجال لوصاية حضارة على حضارة ولا سبيل إلى حوار الثقافات مع تقدير اختلاف القيم والشرائع والعقائد والمعتقدات ، وأن مجتمع الإسلام من بين المجتمعات الإنسانية العريقة التي اختارت لنفسها أنماطاً من الحياة أسهمت الأديان والشرائع السماوية في تشكيلها وتشكيل سلوكيات مجتمعاتها وقيمها وأخلاقها وهناك فارق عميق بينها وبين مجتمعات اختارت لنفسها طريقاً اختلفت فيه بنواميس وثقافات استلهمت منها قيماً ازدهرت في ظل تطورات اجتماعية اختلفت منطلقاتها وطرحت مفاهيم ليست بالضرورة مقبولة في مجتمعات أخرى كما قال عمرو موسى وإنتاجية تتناول منطلق الثقافات أو قيم المجتمعات ، فلا مجال لوصاية حضارة على حضارة ولا لفرض ثقافة على ثقافة فهو أمر لا سبيل إليه إلا أن نلجأ إلى الحوار المتكافئ القائم على القبول والاحترام المتبادل وعلى احترام التبادل والاختلاف .

ومع التأكيد القاطع بأن الأسرة بمفهومها المستقر الراسخ اجتماعياً ودينياً هي النواة الأساسية للمجتمع مع الالتزام بنصوص الشريعة الإسلامية والقانون في التعامل مع قضية الإجهاض التي لا نقرها ولم تقرها الوثيقة كوسيلة من وسائل تنظيم الأسرة .

ويجب أن يكون واضحاً أن المعادلة التي تقدم لنا هي معادلة مغلوطة بعيدة عن العدل والإنصاف فليس من المعقول حماية مصالح الشمال الغنى ضد أي نوع من التهديد بينما يحرم الجنوب الفقير من حقه في حصص الثروة وأن انعدام عدالة التوزيع للثروة والمواد الغذائية وتشريد الملايين بسبب المجاعة والحروب والكوارث الطبيعية هو أساس النظر للأمر كله ولقد وضع منذ وقت بعيد أن الدول الغنية تسعى إلى تخفيض الزيادة السكانية بالدول النامية لنهب ثرواتها .

وأن المحاولات تجرى نحو إذلال الدول العربية والإسلامية حتى لا تنازع الدول المتقدمة في توزيع الثروات الطبيعية وأن زيادة السكان في الشرق الأوسط تعنى زيادة استهلاك الموارد الطبيعية التي تعتمد عليها الدول الغربية .

وأن الأوروبيين والأمريكيين قاموا بقتل أبنائهم تجنباً للضغوط الاقتصادية التي تعرضوا لها في أعقاب الحرب العالمية الثانية وهم يقتلون الآن العجائز وكبار السن لأنهم لا يريدون تحمل نفقات عيشتهم .

هذا بالإضافة إلى الأسلحة الخفية التي تستخدمها الدول المتقدمة للحد من الإنجاب في دول العالم الثالث ( العالم الإسلامي ) مثل الأطعمة والسلع الاستهلاكية التي تؤدي إلى العقم لدى الرجال وقتل الأجنة في بطون الأمهات .

كذلك فإنها تشجع الأطفال من سن سبع سنوات على ممارسة الجنس والتعامل مع وسائل منع الحمل مما يؤثر على قدرتهم الجنسية والإنجابية مستقبلاً ولزيادة عمليات الإجهاض .

كما يجري تعليم الجنس للأطفال في الدول المتمسكة بأديانها ، والغرب ينقل إلينا الانحراف عن طريق تعلم الجنس بينما سمحت الشريعة الإسلامية والتقاليد الشرقية بالثقافة الجنسية في الإطار الإسلامي عن طريق الأم لابنتها والأب لأبنائه ، ويقرر الباحثون أن وثيقة مؤتمر السكان تضم ثمان مخالفات للشريعة الإسلامية .

- ١ - إغفال الدين وتجاهل القيم السماوية .
- ٢ - اعتبار الإنسان سلعة سوقية تخضع لقانون العرض والطلب .
- ٣ - الدعوة إلى إلغاء الميراث .
- ٤ - العمل على هدم الأسرة والاعتراف بالأسر التي تتكون خارج الإطار الشرعي .
- ٥ - رفع ولاية الآباء عن أبنائهم .
- ٦ - عدم فرض رقابة أخلاقية عليهم أو حماية المراهقين والمراهقات عند تعاملهم بالجنس .
- ٧ - رفع سن الحد الأدنى للزواج محاربة للزواج المبكر بين الجنسين .
- ٨ - إبادة الزنا وإلغاء القوانين التي تحرمه .

إن هذه الغزوة الجديدة التي نحاول أن نحتوى المجتمع الإسلامى كله تعيدنا إلى البحث عن الجذور فقد تأكد لنا أن بروتوكولات حكماء صهيون مرتبطة بفلسفات اليهود الثلاثة : دوركايم وفرويد وماركس وهى لم تكن مجرد أطروحات علمية كما حاول دعاة الصهيونية إثبات ذلك ، فقد استطاعت الصهيونية تحقيق كل أهدافها وها هى الآن تجنى ثمار ما زرعتهم وأعلى رأس ذلك تشجيع الإجهاض وتوثيق أصحاب الشذوذ الذين رفضهم المجتمع .

وأمامنا نص ما تقوله البروتوكولات : لقد خدعنا الجيل الناشئ من الأميين ( غير اليهود ) وجعلناه فاسداً معتقداً لما علمناه من مبادئ ونظريات معروف لدينا زيفها التام .

وبالطبع لن يتحقق ذلك إلا بنشر الوسائل التي تحول المجتمع من مجتمع طاهر نقى إلى مجتمع متعفن ، فهم أول من نشروا السينما والمسرح وروجوا لوسائل تنظيم الأسرة وهم الآن يروجون لنشر الشذوذ والإجهاض بحجة الحرية الشخصية ، فالأخلاق عندهم لا مكان لها .

ولقد قالوها صراحة : حينما نمكن لأنفسنا نكون سادة الأرض لن نسمح بقيام أى دين غير دين اليهودية وسنكون قد حطمنا كل العقائد للأديان الأخرى .

يؤكد الخبراء أن هناك محاولة لخداع الشعوب عن الحقائق لتنفيذ هدف مبيت يرمى إلى تدمير المجتمع الإسلامى ، وأخطر ذلك طعنهم فى التنمية والتعداد السكانى كوسيلة لحل مشكلة التضخم ، وعدم اعترافهم بأن هناك خللاً فى التوزيع يؤدي إلى هذا الوضع .

يقول الباحثون إن النصف الثانى من القرن العشرين شهد زيادة فى الموارد قدرت بخمسة أضعاف فى حين زاد السكان ضعفاً واحداً ، فالتنمية يمكنها أن تأخذ العديد من الأشكال الأخرى بعيداً عن تقليل السكان ، وهناك ٢٠ فى المائة من سكان العالم يسيطرون على ٨٠ فى المائة من الموارد و٨٠ فى المائة من السكان لا يحصلون على سوى ٢٠ فى المائة من الموارد .

ومن هنا يتضح أن الخلل فى التوزيع هو السبب وليس نقص الإمكانيات وهو ما يؤكد قول على بن أبى طالب ( رضى الله عنه ) :

( ما ضاع فقير إلا بما شبع به غنى ) .

إن مساحة ما فى المنطقة العربية ومواردها تكفى لإطعام أضعاف ما عليها من سكان ، وأمامنا تجربة الصين التى يعيش فيها ١,٥ مليار نسمة على مساحة ٩ ملايين كيلو متر . ولكن معدل التنمية بلغ ١٣ ٪ سنوياً ومن هنا فإن المشكل الاقتصادى فى القضية يحتاج إلى مناقشة .

يقول علماء الاقتصاد : إن إنتاج العالم من البروتين يكفى العالم كله ولكن توزيع استهلاك هذه الكمية مختل إلى درجة أن الدول الغنية وهى تشكل ٣٠ ٪ من مجموع سكان العالم يستهلكون ٧٠ فى المائة من بروتينات العالم بينما يستهلك باقى العالم وهو ٧٠ ٪ مابقى وهو ٣٠ ٪ فقط وهذه أتانبة دولية وظلم فيما يخص بالغذاء .

إن القهوة واللبن والقمح يلقى أحياناً فى البحر لكى لا يهدد سعرها فى السوق بينما هناك الملايين من الأطفال الذين لا يجدون الحليب .

كذلك فإنهم يرمون البطاطا والقمح للخنازير بينما يغنى الأطفال الكلمات وبذلك يتأكد أن أحد أسباب المشكلة هو ارتفاع مستوى التغذية فى مناطق وانخفاضها فى مناطق أخرى ، وعادة يكون هذا على حساب الدول الفقيرة ، إن كثيراً ما تأخذ البلاد الغنية الإنتاج الزراعى من تلك الدول لتعطيه طعاماً للماشية والدواجن ويحصل القحط والكلاب فى أمريكا على طعام أفضل مما يحصل عليه المواطن فى كثير من الدول النامية .

إن الدعوة إلى تقليص المسلمين تنطلق من مفهوم خاطئ وفلسفة مدمرة ، تعتبر أن زيادة عدد السكان هى السبب الرئيسى للفقير بينما نعتقد نحن وبصدق أن العكس هو الصحيح بمعنى أن الفقر هو السبب فى زيادة السكان ، وزيادة السكان ليست ضعفاً ولكنها قوة إذا أحسن استغلال البشر وتعليمهم إدارة حياتهم .

ذلك أن عدالة توزيع الغذاء هى الحل الحقيقى لمشكلة السكان فى العالم مع العلم بأن كل التقديرات الصحيحة تؤكد أنه من الممكن توفير الغذاء لسكان العالم بعد زيادتهم المحتملة .

إن الحل الحقيقى لمشكلة السكان فى العالم هى : عدالة توزيع الموارد ، وقد تقرر أنه على مستوى العالم كله ليس هناك عجز فى الموارد الغذائية ، وإذا ما تم توزيع عادل لها

سينال كل فرد فى هذه الدنيا طعامه ، ذلك أن سبع سكان العالم الآن يتناولون طعامهم أقل بكثير من حاجاتهم الطبيعية أى بما يعادل ٧٨٠ مليون إنسان يعانون من سوء التغذية .

والمعروف أن الغرب يسعى لتقليص عدد المسلمين لحساب اليهود ، وأن الدول الغنية تسعى لخفض الزيادة السكانية فى الدول النامية حيث أن ١٥ ٪ من السكان يحصلون على ٧٥ ٪ من الدخل العالمى .

إن الحد من أعداد المسلمين هو الهدف الحقيقى الذى تسعى إليه الصهيونية العالمية منذ أمد بعيد .

إن الدعوة المدعاة باسم ( الانفجار السكانى ) ليست إلا وهماً ، فإن الحقائق والأرقام تكذب ما يسمى انفجاراً سكانياً .

إن الدول الغنية تسعى لخفض الزيادة السكانية فى الدول النامية لنهب ثرواتها ، ومن هنا جاءت تلك الأسلحة الخفية التى تستخدمها الدول المتقدمة للحد من الإنجاب فى دول العالم الثالث ، وفى مقدمة هذه الأسلحة السلع الغذائية التى تؤدى إلى العقم لدى الرجال أو قتل الأجنة فى بطون الأمهات وصدق البابا يوحنا حين قال : إن الغرب يسعى إلى هدم الأسرة وإبادة الشذوذ والإجهاض .

### الإجهاض دعوة إلى الفساد وتفشى الرذيلة

كان من أخطر الدعوات المسمومة التى يرمى إليها مشروع هدم المجتمع الإسلامى وقد ظهرت بصورة خطيرة فى مؤتمر السكان ، وما تزال آثارها ممتدة ، ويمكن القول بأن الإجهاض أكبر أهداف المؤتمر .

ولقد حرم الإسلام الإجهاض ويعتبره عدواناً على نفس بشرية ، كما قرر العقوبة الشرعية على اقترافه ما لم تكن ضرورة معتبرة شرعاً كإنقاذ الأم الحامل من ضرر محقق يقرره الطبيب الصالح وليس أحداً غيره .

وقد أباح الشرائع السماوية الإجهاض فى حالتين فقط :

١ - إذا كان الجنين يمثل خطورة على حياة الأم .

وتتجمع أبحاث المفكرين المسلمين وغيرهم على أن إبادة الإجهاض بحجة تنظيم النسل هي دعوة إلى انتشار الفساد والرذيلة وحدوث كارثة أخلاقية اجتماعية قد تؤدي إلى هلاك البشرية .

والشرائع السماوية الثلاثة ترفض وبشدة إبادة الإجهاض ومع أن الغرب يعرف ذلك تماماً ولكن دوله تحاول الضغط على الدول المشاركة لتحرير صياغة لغوية قوية واضحة تؤكد على ضرورة العمل من أجل توفير سبل سهلة ومتاحة لوسائل الإجهاض .

ولكن ذلك لن يتحقق أبداً في أفق الإسلام والأمة الإسلامية لأن الإجهاض جريمة دينية وأخلاقية وإنهم يريدون إبادة الإجهاض حتى تزنى المرأة كما تريد وتحمل كما تريد وتتخلص من الحمل متى تريد .

هذا ما يريدون أن يحققوه في المجتمع المسلم تحت أسماء وعناوين مضللة مثل ( الأمومة الآمنة ) ، ( الرعاية الصحية الجنسية ) .

ولقد أعلنوا صراحة رعاية الزنا والشذوذ وما حرم الله تبارك وتعالى من الفواحش والإسلام يرفض الزنا ويرفض الشذوذ .

وعبارة ( ولاية المرأة على ما في بطنها إذا شاءت أن تبقيه أو تسقطه ) مرفوضة تماماً لأن فيها اعتداء على حق الإنسان في الحياة وتهدف إلى رفع سلطان الأسرة عن أولادها .

إنهم يهدفون إلى تخفيض عدد سكان الدول الإسلامية بضعف العدد المقترح إليه عام ٢٠٠٠ وبقية القرن القادم ، وهم من أجل ذلك يصدرون إلينا سلعاً غذائية تهدف إلى الإقلال من معدلات الخصوبة لدى الرجال المسلمين ، كما يعملون على الإقلال من أهمية الزواج في دعوة صريحة للقضاء على العلاقات الأسرية ، والمؤتمر في حملته سلاح جديد في يد إسرائيل وإذا كانت الدعوة إلى الإباحية الجنسية جواز مرور لإبقاء المسلمين في خانة الفقر والدخل المحدود بينما يسعد الآخرون بكل النزوات .

كذلك فإن إلغاء الأسرة عمل مشين والمجتمع المسلم يرفض انفصال الأبناء والفتيات عن الأسرة في سن المراهقة ، فالأسرة هي المعقل الأخير للدين وهي التي حافظت على الإسلام في جمهوريات آسيا الوسطى وتركيا .



وتحول هذه التجربة المرأة إلى سلعة في سوق الرقيق .  
ولقد وقف المسلمون موقفاً صامداً أمام مؤامرة مؤتمر السكان وأكد كثير من العلماء  
الذين شاركوا على عدة حقائق أساسية .  
أولاً : الإسلام يرفض الإجهاض .  
ثانياً : لا مجال لفرض علاقات خارج الزواج الشرعى .  
ثالثاً : احترام سيادة كل دولة وحقوقها فى وضع سياستها السكانية .  
رابعاً : رفض تنحية الدين عن حياة البشر .  
وقد كان هذا المؤتمر المشبوه فرصة لتحديد موقف الإسلام من الرجل والمرأة على  
هذا النحو :  
١ - إن الرجل هو الذى يقود الأسرة فى المجتمع الإسلامى وهو الذى يتحمل عبء  
الوفاء بمطالبها وحماية أفرادها من الفساد .  
٢ - إن الأب والأم هما الضمان الأول لتوجيه المراهقين من أبنائهما إلى استخدام  
الغرائز الجنسية الاستخدام الأمثل عن طريق الزواج والزواج فقط ، وليس هناك طريق آخر  
غيره من أجل حماية المجتمع من الأمراض الفتاكة .  
٣ - لا يقر الإسلام أى علاقة جنسية بغير طريق الزواج الشرعى بين الرجل والمرأة وأن  
هناك عقوبات صارمة وغليظة على الزنا واللواط ، ولو تم بالرضا بين الطرفين الرشدين ،  
ولا يسمح الإسلام بأشكال زواج أخرى أو يتمتع الأفراد غير المتزوجين بحياة جنسية مفتوحة  
أو تقديم خدمات تنظيم الأسرة لغير المتزوجين ، فإن تنظيم الأسرة يكون بين الزوجين  
الشرعيين فقط وفى حدود الضرورة الشرعية .  
٤ - لا يسمح الإسلام بإسقاط الحمل مطلقاً ولو نتج الجنين عن زنا أو اغتصاب ، إلا  
إذا كان هناك أسباب شرعية أو طبية .  
٥ - ليس هناك مساواة بين الذكر والأنثى فى حقوق الميراث كما يقول الله تبارك  
وتعالى فى كتابه الكريم :  
﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَى﴾ [ سورة النساء : الآية ١١ ] .

- ٦ - لا يوجد فى الإسلام بدائل عن الزواج المبكر بما قد يفهم من وثائق المؤتمر على أن هناك دعوة إلى تسهيل الدعارة .
- ٧ - الشريعة الإسلامية تقف موقفاً جليداً وقوياً ضد الانحلال الخلقي فضلاً عن الوقوع فيها حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ [ سورة الأنعام : الآية ١٥١ ] .

### ميراث المرأة فى الإسلام قمة العدالة

من بين ما يثيره مؤتمر السكان الدعوة إلى مساواة المرأة مع الرجل فى الميراث ، وهو ما يتنافى مع شريعة الإسلام ، فقد كفل الإسلام للمرأة حقوقها الكاملة حيث تؤكد النصوص الدينية على مساواتها مع الرجل .

كذلك فإن ما جاءت به الشريعة الإسلامية من أن نصيب المرأة فى الميراث هو نصف نصيب الرجل يعد قمة العدالة ، لأن الإسلام يحمل الرجل جميع الأعباء والتكاليف المتعلقة بالإنفاق على البيت والمرأة .

وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، فبالنسبة للملكية فقد أعطى المرأة حق الأهلية والملكية والتعامل التجارى وإدارة شئونها بنفسها .

كذلك فقد أعطاها حقها فى إبداء رأيها فى مجال المجتمع والسياسة ، كما أعطى الإسلام المرأة الحق فى ضرورة أن يخيّر زوجها إذا تزوج مرة أخرى وأن يأخذ رأيها فى ذلك .

كما حدد الإسلام جميع العلاقات الاجتماعية والجنسية داخل إطار الزواج الشرعى فقط وحرم جميع العلاقات خارج هذا الإطار .

أما أن الميراث للذكر فإنه مثل حظ الأنثيين ، فهو لا يعنى انتقاص أو انتهاك حقوق المرأة وإنما يعنى أن المرأة فى جميع مراحل حياتها مسئولة كاملة من الرجل سواء من والدها قبل الزواج أو زوجها بعد الزواج .

\* \* \* \*

## الباب العاشر

### سقوط مذهب الهداية والتبوير والعلمانية

#### الفكر الإسلامى القائم على التوحيد الخالص يرفضه تماماً

هو مذهب فلسفى عقدى تحاول العلمانية والتغريب فرضه على المسلمين فى هذه المرحلة وخداع المسلمين لاعتناقه ، وهو مذهب ينتهى بصاحبه إلى إسقاط العقيدة والتوحيد والوحى والغيب ويعارض المنهج الربانى الأصيل القائم على :

١ - الإيمان بالله الواحد الأحد بمفهوم الإحسان ( إن لم تكن تراه فإنه يراك ) والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره .

٢ - الإيمان بمفهوم الإسلام القائم على قاعدة الثوابت ( الأصول الثابتة ) والمتغيرات ( التى تقبل التغيير والاجتهاد ) .

٣ - الإيمان بالمسئولية الفردية والجزاء الأخرى .

٤ - الإيمان بأن القرآن الكريم والسنة النبوية هما « الميراث » .

أما ما يكتبه المفكرون المسلمون فهو التراث ، وهو الذى يمكن أن يوصف بأنه قديم وبأنه موضع الأخذ والرد ، لأنه من قول البشر ، أما القرآن والسنة فإنهما من عند الله تبارك وتعالى حسبما قال ﷺ : « لقد أوتيت هذا القرآن ومثله معه » .

٥ - الإيمان بتطبيق الشريعة الإسلامية على المسلم والمجتمع الإسلامى .

٦ - إقامة أخلاقية المجتمع والحياة وفق ثوابت الأخلاق ورفض مذهب نسبية الأخلاق الغربى الوافد .

هذا الفهم للإسلام : بمفهوم « إسلام الوجه لله تبارك وتعالى وإقامة منهج الله فى الحياة الدنيا بمفهوم السعى وتعمير الأرض وإقامة حدود الله » التى أقامها على المسلم والإنسان فى الأساس ، والتعامل الصحيح مع الأسرة والأبناء والزوجة والمجتمع كله وفق مفهوم العبودية الخالصة لله تبارك وتعالى .

أولئك : ﴿ الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾

[ سورة الفرقان : الآية ٦٣ ] .

هذا التسليم هو حقيقة موقف الإنسان من شريعة الله تبارك في بناء الفرد والجماعة وأداء حق العبادة والزكاة على أساس أن يكون كل ما في الدنيا من خير موجه إلى ثواب الآخرة ، وأن يكون منهج حياة المسلم قائماً على المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقي فتكون الأخلاق قاسماً مشتركاً للسياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية جميعاً .

وهذا التسليم لا يعنى الخضوع بالمعنى المهين الذى يصرون على ترديده وإنما تعنى أن يسلم الإنسان أمره لله بكل اطمئنان .

ومن هنا تتحدد وجوه الخلاف بين الإسلام ومفاهيم الفكر الغربى وتسقط دعاوى الذين يدعون إلى الإسلام المتطور على النسق الغربى والمتحرر للدرجة التى يصبح بها الإسلام لا شئ سوى ابتدالات أخلاقية ساقطة على النحو الذى دعا إليه سيد أحمد خان وعلى عبيد الرازق وضياء جاك ألب وعساف فايزى بما يحمل القول بفصل الدين عن الدولة وعن المجتمع .

ومما يسقط معه مقولة أن الإنسان يمكنه التقدم بدون الله تبارك وتعالى أو اعتبار أن التقدم المادى فى حياتنا المادية الدنيوية هو الهدف الأسمى للجنس البشرى .

ولقد كذبت الوقائع مقولات المبشرين والمستشرقين من أمثال ألفرد كانيول سميث الذى يقول : ( إن الإسلام بمضمونه الذى جاء به محمد ﷺ لا يصلح الآن لهذا العصر وأن الإسلام لابد وأن يقبل العلمانية والتحديث إذا أريد له البقاء فى المستقبل ) .

وفى أحدث ما كتب عن الإسلام فيما كتب « جاك بيرك » تجرى مثل هذه الدعاوى الباطلة على الأقلام كل هذا يرجع إلى فهم الإسلام على أنه دين عبادة لاهوتى مثل المسيحية .

إن نقطة الالتقاء والاختلاف بين الإسلام والفكر الغربى تتركز فى كلمة واحدة : هى تكامل الروح والمادة والقلب والعقل والدنيا والآخرة فى الإسلام وتفرقهما فى الفكر الغربى الذى يقسوم على أساس المادة والعقل والدنيا والتكر للألوهية والنبوة والوحى والغيب .

وفى ضوء هذا يختلف مفهوم الإنسان ومهمة الإنسان بين الإسلام والفكر الغربى حيث يقرر الإسلام : إسلام الوجه لله تبارك وتعالى بينما يقف الفكر الغربى موقف

الاستكبار والغلو والاعتزاز بالقوة المادية ونسيان مصدر هذه القوة على نحو يجعله يقرر أنه يستطيع أن يعمل كل شيء وأنه غير محتاج إلى القوة الإلهية .  
ومن هنا تأتى أكبر وجوه الخلاف حيث يتنكر الفكر الغربى لله تبارك وتعالى ويستعلى بالقدرة الذاتية فى الامتلاك والتصرف ويبدأ هذا الخلاف من نقطة أولية : هى الإيمان بالله تبارك وتعالى خالقاً ورازقاً ومسيطرأ ومالكاً وينتهى إلى تكامل مفهوم الإسلام وسيطرته على كل وجوه الحياة الإنسانية فى مختلف جوانبها ومعطياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية وليس كما يفهم الغرب ويعتقد بأن علاقة الإنسان بالله هى علاقة عبادة فحسب لا تنسحب على قبول منهج الله وتنفيذه فى مختلف جوانب الحياة .

\* \* \* \*

إن محاولات المستشرقين والمبشرين ودعاوهم الباطلة فى الغرض من شأن الإسلام أو القرآن كمصدر للنهضة والتقدم هى محاولات ظالمة وباطلة فقد أضاء الإسلام ومنهجيه وحضارته العالم أكثر من ألف عام متصلة كان الغرب خلالها يعيش فى العصور الوسطى .  
وهذه الدعاوى الجزئية إنما تصدر عن حقد وهوى وفهم مختلف فضلاً عن العداوة ومحاوله انتقاص الإسلام أو الاستعلاء المغرور بالظن بأن منهجهم الفكرى الانشطارى المستنكر للدين الربانى هو الذى أعطى نهضتهم هذا الوضع وهم يقتربون اليوم من مرحلة السقوط والانهيال الذى حدث من قبل لكل الحضارات المادية والوثنية كالحضارات الرومانية واليونانية والفارسية .

ونحن نعرف كم هى عميقة تلك الأزمة التى يواجهها الغرب من خلال أيديولوجياته البشرية ومناهجه المادية التى لم تتحقق حتى الآن وبعد هذه القرون مما لا يجعلها موضع الثقة خارج دائرة قومها فضلاً عن عجزها داخل تلك الدائرة فما يزال الغرب يشكو ويواجه الأزمات والصدمات التى ترجع فى أساسها إلى انشطارية الفكر الغربى وقيامه على مفهوم المادية والتحلل والعجز عن تكامل الفطرة الإنسانية الجامعة بين الروح والمادة والعقل والقلب فضلاً عن الاستعلاء الخطير باللون والعنصر وذلك العجز عن تحقيق مفاهيم الإخاء البشرى أو يمكن الأمم من إقامة مجتمعها أو تحقيق أهدافها فى التنمية أو استقلالية القرار .

ولقد كان المسلمون منذ اليوم الأول للسيطرة الغربية يعرفون أنهم يملكون أعظم المناهج وأكثرها عطاء وأصلحها للبشرية وأن مناهج الغرب لا تصلح للتطبيق في بلاد الإسلام الذي قدم للبشرية المنهج الرباني منذ خمسة عشر قرناً وأعطى الحضارة الحديثة أعظم معطياتها وهو المنهج التجريبي .

ولقد مضى الغرب ينكر فضل المسلمين ويحجب في مؤامرة صمت طويلة المدى حق المسلمين في الحصول على منجزات الحضارة العلمية ولكنه يجيء اليوم ليحاول محاولة أشد خطورة تتمثل في الحملة على الإسلام ومنهجه والادعاء بأنه مصدر تخلف المسلمين والدعوة الباطلة إلى أن يستسلم المسلمون لمنهج الغرب أو أن يقبلوا مفاهيمه التي تتعارض مع ركائز دينهم .

وهم لا يتوقفون عند ذلك بل يذهبون إلى أبعد مدى في محاولة خطيرة لتزييف الإسلام واختراقه والقضاء على مقوماته الأصيلة القائمة على التوحيد والغيب والتي تربط بين الروح والمادة والتي تؤمن بقاعدة الثوابت والمتغيرات .

ولن نجد هذه الدعوة سميعةً مهما ترددت ومهما حشدت لها الأسماء اللامعة من المستشرقين والمفكرين الغربيين والعلمانيين العرب فإنها مذاهب منهارة : العلمانية والحدأة والتنوير وكلها مذاهب مادية مضللة قد تروج يوماً وقد تخذع ساعة ولكنها لا تستطيع أن تثبت أو أن تدوم ، فإن صمام الأمان والحصانة التي شكلها الإسلام في الوجدان المسلم يحول دون الانحراف والتحليل .

ويجرى تنفيذ المخطط التغريبي في عدة مواقع خطيرة :

في الصحافة جملة وفي المسرح والمسلسلات وفي مجالات المرأة والحوادث والرياضة والفن جميعاً وهو يرمى أساساً إلى تدمير حاجز المناعة الأخلاقي في النفس المسلمة ، وهو جزء من مخطط أكبر منه يتصل بالتعليم والمناهج الدراسية العلمانية التي لا تعترف بمفهوم الإسلام أو مفهوم الدين جملة والتي تحطم علامات الضوء في تاريخ الأمة الإسلامية ، حيث تدعو إلى إقليمية خطيرة تستمد مفاهيمها ووجودها من تاريخ الوثنية قبل الإسلام كما يحدث في إحياء الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية وما يتصل بالزنجية وغيرها من مفاهيم قديمة صهرها الإسلام في بوتقة وأزال عنصريتها وأقام حاجزاً قوياً بين تلك العصور أطلق عليه المؤرخون وعلماء الأجناس عبارة ( الانقطاع الحضاري ) وبين عصر التوحيد الذي بدأ برسالة الإسلام وكتاب القرآن ونبوة محمد ﷺ رسالة خالدة باقية إلى آخر الدهر .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يمتد إلى أفق المجتمع حيث يطرح مسلسلات وروايات ودراما خطيرة أشد خطورة على الشباب المسلم الغض والفتاة المسلمة التي لم تبلغ الحلم في محاولة خطيرة لتدمير الجانب الخلقى والإيجابي في النفس المسلمة من خلال تقديم تصور خادع يجب الحذر منه .

ولعل المخطط التخريبي الذي تقوم عليه قوى كثيرة تكره العرب والمسلمين وفي مقدمتهم الصهيونية التي أعلنت عن ذلك منذ أكثر من مائة عام عندما أصدرت بروتوكولات صهيون وما تزال تنفذه بهدف تدمير الجويم ( الأميين ) من غير المسلمين .

ولا يتوقف هذا المذهب الفلسفى العقدى الذى تحاول العلمانية والتغريب فرضه على المسلمين ، عند هذا الحد بل إنه يمتد فى جناحيه العريضين فيشمل مذاهب الحداثة والبيئوية والتفكيكية بهدف أساسى لتدمير اللغة العربية بوصفها اللغة التى حملت أمانة القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرناً وحفظته من التزييف والاختلاف ، ولكنه ما تزال قوى من أسماء لامعة فى مجال الاستشراق والكتاب العرب الذى يعملون فى جامعات الغرب وغيرها تخوض فى هذه الأمور ولا تيأس من خداع بعض الذين لا يعرفون أبعاد المؤامرة بل إن عدداً من كتاب الغرب الذين كانوا فى وقت من الأوقات موضع ثقة وتقدير العرب والمسلمين من أمثال ( جاك بيرك ) الذى قدم فى الأخير بحثه الخطير عن القرآن الكريم منطلقاً من نقطة أساسية هى أن الإسلام لم يعد يصلح لهذا العصر وأن على المسلمين أن يدخلوا عليه تطويراً كثيراً حتى يتقبل الحضارة الغربية ويتردد هذا الكلام على ألسنة وأقلام كثير من غلاة التغريب ، ومن العجب أن يقال هذا الكلام للمسلمين بعد أن ظل الإسلام أكثر من ألف سنة يقود المدنية والحضارة العالمية وينشئ المذهب التجريبي ومذهب المعرفة ذى الجناحين .

وما تزال هذه القوى تحاول أن تخدع المسلمين الجدد فى الغرب عن طريق كتاب لهم أسماء لامعة فى مجال الاستشراق وقضايا العرب ومشاكلهم تتحدث عن القرآن فى منطق يسوق فيه الاتهامات والمغالطات وهو ما تسميه الدكتور زينب عبد العزيز أنه اختباء وراء اسمه اللامع ليوجه للإسلام أعتى طعنة بتحريف معانى القرآن الكريم عمداً .

إنه محاولة لتقديم القرآن بأسلوب مغلوطة للمسلمين الجدد الذين لا يقرؤون العربية ويثقون فى اسم لامع كاسم جاك بيرك .

تتركز الأفكار المسمومة التي حملها التغريب إلى أفق الإسلام والتي تشكل المذهب العقدي في عدة مخططات أهمها :

**أولاً :** فكرة تخطيم الثوابت وهذه يتحدث عنها دعاة الحداثة والبيئوية والتفكيكية وهي تتصل بالجملة على التراث وإحياء تراث الباطنية والقرامطة ورسائل إخوان الصفا والتصوف الفلسفي ( الحلول والاتحاد والاستشراق والعقول السبعة . . . إلخ ) ، وإحياء تراث الشعر الإباضي والوثنى .

**ثانياً :** فصل الدين عن الدولة والمجتمع .

والادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تناسب إلا بدو الجزيرة العربية في القرن السابع فقط .

**ثالثاً :** الدعوة إلى الاعتقاد بأن ما نفعله اليوم أفضل دائماً مما فعلناه بالأمس وهي دعوة مسمومة ترمي إلى إلغاء القديم والماضى والتاريخ والتراث .

وتركز أساساً على القرآن الكريم والسنة ، تحت هذا العنوان المضلل .

**رابعاً :** تخطيم فكرة الإنسان أكرم ما خلق الله تبارك وتعالى ومعاملته بمفهوم الحيوان الناطق وفق نظرية التطور لدارون .

**خامساً :** إحياء الفلسفة المادية اليونانية بدعوى أنها أساس ومصدر الفلسفة المادية الحديثة .

**سادساً :** فكرة التقدم المادية الخالصة ، التي تختلف مع فكرة التقدم الإسلامية الجامعة بين المادة والروح .

**سابعاً :** هدم فكرة الأخلاقية والأخلاق المرتبطة بالدين وتحويلها إلى فلسفة النسبية ، والادعاء بأن الأخلاق موضوع خاص بضمير المرء لا أكثر .

**ثامناً :** محاولة النيل من الأحكام الشرعية وما يسمونه العقوبات الوحشية مثل الرجم حتى الموت في حد الزنا وقطع اليد في حد السرقة والجلد العلني في حد الفسق وشرب الخمر .



وما يدعيه كثير من المستشرقين والعلمانيين من قسوة الأحكام الإسلامية وإعلاء شأن النظم القانونية الغربية الوضعية بدعوى أنها أرقى من الشريعة الإسلامية .

وقد كشفت المسلمة المتهتدة ( مريم جميلة ) دعوة تحديث الإسلام وتوصلت إلى مصدر هذه الدعوة المسمومة فقالت إنها مقتبسة من كتب حاخامات الإصلاح اليهودي الذين يرون أن ترك كافة الشرائع والأحكام والطقوس والعادات والعبادات الغربية على الحضارة الغربية الحديثة عمل ضروري لإحياء الدين نفسه ، فالحياة الروحانية الدينية في نظره لا يمكن أن تكون أصيلة ولا يمكن لها البقاء إلا بجعل الإسلام يتوافق مع روح الحضارة الغربية تماماً مثلما فعلت اليهودية الإصلاحية وتقول : لقد حاولت اليهودية الإصلاحية التوافق مع روح الحضارة الغربية هذه الحضارة الغربية علمانية حتى النخاع وعدائية لكافة القيم الروحانية وتجربة اليهودية الإصلاحية لم تحقق لهم شيئاً وما زال الفراغ الروحي قائماً .

وقد حاول المستشرق اليهودي ( عساف فايزي ) ترديد هذه المفاهيم في أفق الإسلام ، وقال : إن شريعة الإسلام وقانونه في تحريم لحم الخنزير وشرب الخمر والفائدة البنكية باعتبارها ( ربا ) لم تعد عملياً تتلاءم مع الحياة الحديثة الحاضرة .

وكان هذا جرياً مع الدعوة إلى المذهب المادى العلماني ، وفي سبيل كسب أنصار لها في البلاد الإسلامية ضمن مخطط مكون من ثلاثة عناصر :

١ - إلغاء المحرمات .

٢ - كسر قيود المحرمات .

٣ - الاندفاع في طريق الحرية المطلقة .

وقد تبين أن المسلمين لا يقبلون هذه الدعوة الإباحية الإلحادية وأن النواهي والمحرمات التي نص عليها القرآن ليست مجرد نزوة آلية أو عمل اعتباطي وإنما هي حدود شرعت لاستئصال الشر من جذوره ولسعادة الإنسان .

ولقد أعلن أكثر من باحث غربي منصف أن الإسلام استعصى على العلمنة ، وقال : إن الإسلام ثبت أنه في حالة استثنائية في مقاومة العلمنة فبرغم العلم الحديث والإعلام الغربي بكل إمكانياته استعصى الإسلام على العلمنة ولا يزال الإيمان الديني بالإسلام وفي

أهله أشد مما كان من مائة عام ، ومن ثم فإن الثقافة الإسلامية هي التحدى الأول والوحيد للثقافة الغربية ، وحضارتها هي حضارة : الشك واللاإرادة والتحلل .

ويقول نيكسون في كتابه الإسلام والعالم الإسلامى : « لقد بدأت المعركة حول الهوية ( وهى جوهر المعارك ) فالأمة التى تهزم فى معركة وتحتفظ بجوهرها وهويتها فإنها تسعى لامتلاك وسائل القوة لتحرير الأرض ، أما إذا فقدت هويتها فإنها تستسلم » .

وقال نيكسون : « إن أصحاب هذا التيار ينطلقون من الماضى ، ولكنهم لا يعيشون فيه ، بل ينظرون إلى المستقبل فهؤلاء ليسوا محافظين ، بل ثواراً ويرون الإسلام ديناً ودولة وتطبيق الشريعة الإسلامية هو هدفهم الوحيد لبعث الحضارة الإسلامية من جديد .

وبعد فإن دعوة التغريب التى تقول إن النص القرآنى والإسلامى فى حاجة إلى تجديد وتطوير كما فعل الغرب فى التوراة والإنجيل هى مقولة باطلة ، فلن يدعو الإسلام إلى إلغاء الثوابت ولكنه يدعو إلى الحركة فى دائرة المتغيرات ، ويجيء علم الاجتهاد فى الإسلام ليقرر العمل فى القضايا حيث تختلف الفتوى باختلاف العصر والظروف ، والإسلام فى هذا قد فتح الباب واسعاً أمام المتغيرات فى مرونة ويسر بما يتفق مع حاجة العصور والبيئات واختلافها وذلك دون المساس بالقيم الثوابت الأساسية ، وقد كان الفقه الإسلامى على مدى العصور قادراً على هذا العطاء وما يزال .

وكل هذا يقطع الطريق على مفاهيم العلمانيين والملاحدة فيما يسمونه ( إعادة تفسير الإسلام ) حيث أن الإسلام منهج ربانى مرن واسع الأفق قادر على العطاء وهو فى هذا يختلف عن الأديان الوضعية والأيدولوجيات التى سرعان ما تعجز عن العطاء مع اختلاف البيئات والأزمنة ، وقد كان لتكامل القيم فى الإسلام وتوازنها وربطها بين المادة والروح والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

\* \* \* \*

## خاتمة

### لحماية العقل المسلم من أصواء المناهج والثقافات الوافدة

بدأ الغزو الفكرى للأمة الإسلامية وعقيدتها وفكرها منذ اليوم الأول لسيطرة النفوذ الأجنبى على الوطن الإسلامى من منطلق فرض النفوذ الأجنبى على الحكم والسلطان وحجب أمرين أساسيين خطيرين هما :

الوحدة الإسلامية الجامعة ، والشرعية الإسلامية الخالدة ، وذلك ما أطلق عليه اسم ( التغريب ) أى سيطرة التبعية الوافدة على الوجود الأصيل وكان العمل الموجه هو « تحويل القضية من الحرب بالسلاح إلى الحرب بالكلمة » وكان هذا العمل يستتبع السيطرة على الصحافة والتعليم والقضاء ، ويؤدى فى نفس الوقت إلى خلق كيانات إقليمية أو عنصرية حيث بدأت الدعوة إلى إحياء العرف والدم والعنصر وإحياء التراث القديم والتاريخ السابق للإسلام وإقامة محافل كبيرة للفكر الوثنى قوامها التاريخ الفرعونى فى مصر مثلاً فى ( إيزيس وأزوريس وحورس ) وقائماً على إحياء وكشف القبور والتماثيل الفرعونية وما يتبعه من تطور الفكر المسيحى واليهودى ، كما بدأت الحديث عن الجوس والفارسية فى إيران وظهر الفكر الهندوسى فى الجزيرة الهندية كما ظهرت الدعوة إلى البوذية<sup>(١)</sup> والكنفشيوسية<sup>(٢)</sup> فى شرق آسيا وفى نفس الوقت جرى الفكر اليونانى وسيطر على الغرب كله ، وبقيت المسيحية كإطار للوثنية ، وظهرت الدعوة إلى إحياء تاريخ القرامطة والبابكية والمزدكية<sup>(٣)</sup> والباطنية فى محاولة ضخمة جامعة لمواجهة فكرة التوحيد ، كل هذا كان يرمى إلى هدف واحد هو محاصرة الإسلام .

وتمزيق الوحدة الفكرية الجامعة التى حققها الإسلام وتكوين ثقافات مختلفة ومتصارعة ، وكان النفوذ الأجنبى يعمل على احتضان هذه المجموعات المتفرقة لإقامة أنظمة

( ١ ) البوذية : نسبة إلى « بوذا » مؤسسها .

( ٢ ) الكنفشيوسية : نسبة إلى كنفشيوس ، حكيم الصين الأكبر الذى كان يدعو إلى هذا الدين الوضعى .

( ٣ ) المزدكية : دين وضعى منبثق عن المجوسية ، ويزيد أنه يدعو إلى الاشتراكية فى الأموال والنساء .

عازلة فى كل قطر على حدة حيث أخذت الأقطار ترتد إلى تاريخها قبل الإسلام ، وخاصة ما يتعلق منها بتراث الحضارات القديمة : الفرعونية والفينيقية والزنجية .

وكان أخطر ما عمل التغريب على تأسيسه هو دعم الفكر القومى تحت اسم ( العروبة ) ومن خلال مفهوم غربى وافد منفصل تماماً عن الإسلام ومفاهيمه على النحو الذى دعا إليه لطفى السيد حين تنكر للعروبة وللجامعة الإسلامية وركز على المصرية ( مصر للمصريين ) ، فلما برزت محاولة سيطرة الصهيونية على فلسطين ، وظهرت الدعوة إلى الوحدة العربية بعد سقوط الخلافة ، ظهرت الدعوة إلى القومية بمفهومها الوافد القائم على أرضية غربية تأخذ صورتها من الفكر القومى الأوربي الذى دعا إلى فصل البلقان عن الدولة العثمانية ، فجاءت مرحلة القومية مفرغة من المفهوم الأصل الجامع بين الوطنية والعروبة والجامعة للفكر الإسلامى ، وحدث مثل ذلك فى كل أقطار الإسلام ، ظهر الفكر الطوراني فى تركيا حيث أسقط الوحدة الجامعة بين الأتراك والعرب وأسقط الخلافة وظهر الفكر المجوسى الفارسى فى إيران والفكر الهندوسى فى الهند ، وتنقل المسلمون من التبعية للفكر الغربى ( بريطانيا ، وفرنسا ) إلى التبعية للفكر الماركسى ( روسيا الاشتراكية ) وفى كل هذه المراحل كانت الدعوة إلى التغريب تسقط سريعاً ولا تجد لها نصيراً إلا أصحاب التبعية العلمانية والمتغربين .

ذلك أن الإسلام لم يلبث أن استرد مقوماته وصحح مفاهيمه واستعلن عن جوهره الأصيل بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع ، وكانت هذه الدعوة بديلاً عن أشياء كثيرة ومصححة لمواقف كثيرة .

فقد كشف عن عجز الفكر الغربى ( الليبرالى ) عن العطاء فى إقامة المجتمع وتحرير الإرادة الإنسانية على النحو الذى رسمه لها الإسلام على أساس :  
( المسئولية الفردية والالتزام الأخلاقى ) .

وعندما جاء الفكر الماركسى ليأخذ مكان السيطرة سقط هو الآخر وعجز عن العطاء وكشف ذلك عن الفارق العميق بين المنهج الربانى الأصيل المرن الجامع القادر على العطاء فى مختلف البيئات والعصور وبين المنهج البشرى المادى الذى عجز عن العطاء فى بيئته أساساً وتبين أن مقولة الفكر الفرعونى أو الفينيقي أو الزنجي لها وضعها فى إطار الإسلام

الجامع وتبين أن الوطنية والقومية مرحلتان في إطار الوحدة الإسلامية .  
أما الفكر القديم الذي حاول النفوذ الأجنبي إحياءه فقد عجز تماماً عن العطاء فلم يكن من المستطاع إحياء الفكر الباطني أو الشعر الإباحي أو الفلسفة المادية واليونانية وعجزت القاديانية والبهائية التي تبنت هذه المفاهيم عن تحقيق وجود صحيح .  
كل هذا دعا الباحثين المسلمين إلى العمل على تقديم منهج لحماية العقل المسلم من احتواء المناهج والثقافات الرافدة قوامه ما يلي :

**أولاً : الكشف عن الفرق الضالة :** الشعبية ، الراوندية ، الزنج ، القرامطة ، الزنادقة ، البهائية ، القاديانية ، الأحمدية .

ودحض مقولة ( العدل والحرية ) التي تنسبها المذاهب الهدامة للقرامطة وغيرهم .  
ثانياً : تنقية علوم الفلسفة والمنطق والتاريخ في المدارس والجامعات من كل ما يتنافى مع العقيدة الإسلامية .

ثالثاً : التعرف على سنن الله تبارك وتعالى في الكون التي تصيب كل من ينحرف عن منهج الله ، وذلك أنه لما انحرف المسلمون أصابتهم السنة التي لا تتخلف حيث نزع الله تبارك وتعالى منهم التمكين والاستخلاف .

فإذا عادوا إلى الله قبل منهم وألهمهم الطريق الصحيح .

رابعاً : التماس منهج الإسلام الأصيل في العقائد قبل ظهور الخلاف وتفسيرها ليس وفق منهج علم الكلام أو التصوف الفلسفي وإنما وفق منهج النبوة الأولى .

خامساً : الكشف عن فساد مناهج الفلسفة المادية وتصحيح أخطاء الفلسفة اليونانية وفساد منهج أرسطو في علاقة الرق بالحضارات ولماذا رفض الغرب منهج أرسطو وصدره للمسلمين واستبدله بالمنهج العلمي الذي أنشأه المسلمون .

سادساً : تصحيح ما أضافته الشعوبية إلى التاريخ الإسلامي سواء في تفسيره وفق مذهب التفسير المادي أو إعادة كتابته .

سابعاً : الكشف عن أخطاء التصور الفلسفي الذي نقل إلى الفكر الإسلامي وخاصة ما قدمه الفارابي وابن سينا وابن رشد مما يختلف مع مفهوم التوحيد الخالص .

ثامنا : التعرف على المؤامرة الباطنية من خلال رسائل إخوان الصفا والقرامطة والبابكية والمزديكية .

تاسعا : نظرية الشك الفلسفي وإيقامها على مناهج الفكر الإسلامي .

عاشرا : الكشف عن فساد الفكر الباطني والتصوف الفلسفي ممثلاً في كتابات ابن الراوندي والحلاج وابن سبعين .

« رجب الفرد - ١٤١٦ هـ »

( القرن الخامس عشر الهجري )

\* \* \* \*

**المستدرج على الأبحاث**  
**أولاً : اكتشاف العقل الغربي بعد إسلامه**  
**عندما يضىء الإسلام قلوب أهل الغرب**  
( مراجعة لكتاب الإسلام الحل البديل للدكتور مراد هوفمان )

يعطى كتاب ( مراد هوفمان ) : [ الإسلام الحل البديل ] انطباعاً بأن الإسلام ما يزال قادراً على كسب عدد من ذوى الثقافة الغربية العالمية والمناصب الكبرى بالرغم من محدودية المصادر الغربية التى تمكن المثقف الطامح فى الوصول إلى الإسلام من تحقيق ذلك .

وحين يطالع المرء كتاب ( هوفمان ) مترجماً إلى اللغة العربية ويدقق فى المصادر والمراجع التى لجأ إليها يدهش حيث يرى تلك الثروة الضخمة من التراث المكتوب عن الإسلام مترجماً إلى اللغتين الفرنسية والألمانية وهما اللغتان اللتان قرأ بهما هذه المصادر . وهى مصادر تتعلق بترجمة القرآن نفسه أى ( ترجمة معانى القرآن ) وترجمة الحديث النبوى وعدد من أمهات الكتب الإسلامية .

أضف إلى ذلك قراءة هوفمان لكتابات عدد من الباحثين الغربيين الذين أسلموا : أمثال محمد أسد ، وجارودى ، ومن أنصفوا الإسلام وإن كانوا لم يسلموا : أمثال بوكاى وسجريد هونكه .

فضلاً عن عشرات من الكتب التى كتبها غربيون عن الإسلام ربما ، مستشرقين أو علماء ، هذا بالإضافة إلى عدد من المجلات الإسلامية والدوريات التى تصدر فى الغرب .

هذا بالإضافة إلى كتابات أحمد فون ديفر ( الألمانى المسلم ) الذى كتب عديداً من الأبحاث ، وهناك ترجمات فريدريش ريكتر لمعظم القرآن فى نظم شعرى وهو معنى بأن يقول أنه يوجد ٢٢ ترجمة ألمانية تامة للقرآن منها ترجمة واحدة قام بها مسلم سنى ألمانى مصرى هو ( محمد رسول ) .

هذا بالإضافة إلى كتب التفسير المترجمة ، وأهمها تفسير القرآن للطبرى ( أكسفورد - ١٩٨٧ ) وكتب الصحاح ( البخارى ومسلم ) ورسالة ابن تيمية فى أصول الإيمان

( باريس ١٩٨٦ ) ورسالة التوحيد للإمام محمد عبده ، ودراسات أخرى حول شخصية الرسول ﷺ ( مطبوعة في إكسفورد ونيويورك ) .

ويشير مراد هوفمان إلى أن الدكتور حميد الله قد أرفق بترجمته للقرآن الكريم قائمة من أربعين صفحة تختص على المترجمات التي صدرت في مختلف اللغات لمعاني القرآن الكريم .

كما يولي الاهتمام بترجمة محمد أسد ( ليوبولد فابس ) لمعاني القرآن ولم تفتحه مراجعة ما كتب في الغرب عن عيسى عليه السلام والسيدة مريم فيجعل في مقدمتها : كتاب ( عيسى نبي من أنبياء الله ) لمحمد عطاء الرحمن ( ١٩٨٣ - لندن ) ومقارنة بين عيسى في القرآن وعيسى في الأنجيل ، ودراسة عن مريم في القرآن ومحمد في الإنجيل ، ( دافيد - نيوتن ١٩٨٧ ) وكتاب « الإسلام وعيسى » للمسلم الألماني ( أحمد فون ديفو ١٨٩١ ) فضلاً عن ترجمة كتاب اللواء أحمد عبد الوهاب : حوار ومحاولات بين المسيحية والإسلام ( باريس ) .

والظاهرة الواضحة أن هذه الكتب جميعاً مترجمة إلى الفرنسية والألمانية في العقد الأخير ، بخلاف عشرات الكتب التي كتبت وترجمت منذ سنوات ، أمثال درابر ، وجوستاف لوبون ، وكارليل ، وكذلك يولي اهتمامه بمقدمة ابن خلدون : ( ترجمة فرانز روزنتال ) .

وما كتبه الدكتور أحمد عبد السلام من الطائفة القاديانية الأحمدية بباكستان وما كتبه موريس بوكاي ( مقارنة بين الإنجيل والقرآن والعلم الحديث ) كل هذا يعطى إحساساً قوياً وعميقاً بأن هناك في الغرب اليوم مصادر حية نابضة بالحياة قائمة على أساس العلم والفهم الصحيح للإسلام ، وموقفه من الأديان السابقة بحيث يمكن الاطمئنان إلى أن الطريق أصبح مفتوحاً اليوم أمام كل مثقف غربي يرغب في الوصول إلى الحقيقة ، سواء من خلال كتابات بعض الغربيين المنصفين أو من دخلوا في الإسلام فعلاً أمثال جارودي وبوكاي ومحمد أسد ومن سبقهم عبد الكريم جرمانوس وإتيان دينيه .

ويأتى مراد هوفمان اليوم من خلال الصحوة الإسلامية الصاعدة معلناً أنه ثمرة هذه الصحوة ، فيلقى بكل ثقله على فهم الإسلام وتقديمه بلغته الألمانية إلى المثقفين الغربيين الطامحين إلى معرفة الحق واعتناقه .



ويمكننا أن نقدم منظومة الإسلام بوصفها الحل البديل كما قدمها هوفمان إيماناً منه بأن أوروبا لن تستطيع أن تحقق وجودها إلا إذا كان الإسلام هو طريقها في الحياة .

### الحل البديل :

كان الإسلام إبان الصراع بين العالم الغربي والشيوعية يستطيع أن يعد نفسه الطريق الثالث المباين لهما ، أى أنه الخيار الحر المستقل عن كليهما يفهم العالم والتعامل معه عقائدياً ، أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه بديلاً لكلا النظامين وذلك لتوفير الحياة على وجه أفضل وتذليل مشكلاتها المستفحلة خاصة بعد أن عاد العالم من جديد ليصطرع ككتلتين اثنتين .

ولا يخفى على المتأمل البعيد الرؤية أن يرى الزحف الإسلامى فى القرن الحادى والعشرين مسيطراً ممكناً لانتشاره ديناً لأغلبية البشر ، أما كون هذا الزعم الذى تؤكدته مجريات الأمور حقيقة واقعة إن شاء الله فذلك ما يشير إليه عنوان الكتاب .

إن الإسلام لا يطرح نفسه بديلاً خياراً للمجتمعات الغربية الصناعية ، بل إنه بالفعل هو البديل الوحيد .

« إبنى اعتقد أن حركة تجديد الإسلام ستأتى فى القرن الحادى والعشرين من أوروبا » .

### القرآن :

« والقرآن ليس آخر الكتب المنزلة فحسب ، بل هو أهمها على الإطلاق وإن لم يكن هو الأصل الأوحد للإسلام » .

والمسلم يؤمن بأن القرآن كلمة الله وأنه ليس مخلوقاً من المخلوقات وأن الله ( تبارك وتعالى ) أوحاه إلى محمد ﷺ بلسان عربى مبين فى تلك الفترة الزمنية المحدودة ، وهو معجزة الإسلام الوحيدة والدليل القاطع والبرهان الساطع على نبوة محمد ﷺ ليس القرآن إذن كالعهد القديم أو الجديد حيث يقضى فيهما شخص ما حديثاً غير مباشر عن شخص أو شىء أو عن الله ( تبارك وتعالى ) ، أما القرآن فإن القاص فيه الذى يقص أحسن القصص هو الله مباشرة سبحانه ، يخبر الله فيه عمن يشاء أو عما يشاء ، كما يعلمنا أن ننزهه عن الجنس والنظير والشبيه فيخير عن نفسه بضمير الفرد المتكلم وضمير المتكلم الجمع وضمير الغائب الفرد لكى نظل واعين بمسألة تنزهه سبحانه عن التجسيد أو التشخيص وقد يشك

غير المسلم في موثوقية الوحي وأصالته ، لكنه لا يستطيع الشك في أصالة القرآن وموثوقيته وأصالة نصوصه فلقد تحداهم الله تبارك وتعالى كما تحدى غيرهم وكل المنكرين ، أن يثبتوا العكس فعجزوا مع ما هو متوافر لديهم من وسائل الدرس والنقد والمقارنة وبصر باللغة وعلومها .

ولا يزال هذا التحدى قائماً ، ولا يزال عجزهم بيناً ولو وقع الإنجيل فريسة لهم مرقوه كل ممزق ولم يسلموا له بالموثوقية أو الأصالة .

#### الخطبة الأولى :

إن الإسلام يرفض النظرة المسيحية للخطيئة الأولى لأنها منطلقة من مفهوم خاطيء حيث يحاسب أحد من الناس على خطأ إنسان آخر وهذا يناقض مبدأ قرآني رئيسي في الإسلام : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [ سورة فاطر : الآية ١٨ ]

بل إن الفرد ليس مسئولاً عن وزر الجماعة أو القبيلة المنتمى إليها ، وهذه التصورات تناقض ما يعرفه الإسلام عن ذات الله ( تبارك وتعالى ) الرحمن الرحيم الرؤوف الحكيم العدل .

إن الإسلام يرفض قاطعاً الحاجة الماسة إلى المخلص أو الخلاص بل إن الإسلام يعتبر الزعم الديني بأن المسيح هو الذي ضحى بنفسه لخلاص العالم تجريفاً وسباً وزندقة خاصة هذه الصيغة التي يرددتها القوم في حفلاتهم ويؤمنون بها ( بموته على الصليب ) ، حيث تجمعت كل آلام البشر تحمل الله ( جل جلاله ) لأجل نجاتهم من آلامهم .

إن مثل هذا السخف الديني ينسب إلى الله ( تبارك وتعالى ) أى أن الله ليس بقادر على إنقاذ خلقه وتخليصهم دون أن يخلق إلها ليفتديهم ويتحمل عنهم الآلام .

هذا التصور كسابقه يعارض تصور الإسلام للذات الإلهية حيث يصور القوم الله ( جل في علاه ) ضحية عادة الثائرين ضده والذين قالوا إنهم قتلوه وصلبوه .

من هذه الزاوية نرى مع ( باول سفارنر تاد ) أن رفض فكرة موت المسيح على الصليب على الإطلاق جزء من الاحتجاج على تسليم المسيحيين بقضية الصلب تسليمًا لا يشكون فيه ، إن الإسلام يرى أن اليهود ما صلبوا المسيح وما قتلوه وإنما شبه لهم ذلك ، لأن الله تبارك وتعالى رفعه إليه .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْفُاعِكِ إِلَىَّ ﴾ [سورة آل عمران : الآية ٥٥]

ولذلك فإن على الجانب المسيحي أن يكف عن الزعم قولاً وعملاً بأنه ( لا نجاه أو خلاصاً خارج الكنيسة ) وذلك كما يزعم الفاتيكان الثاني : أن السلطة للكنيسة الرومية الكاثوليكية .

هنا يحسن ألا يمثل القوم طالما أن الكنيسة الكاثوليكية متمسكة بمبدأ رئيسي لديها ( لا نبي إلا الأنبياء الذين تعترف الكنيسة بنبوتهم ) أي أنها قد ترتضى أن يكون الإسلام ديناً للخلاص ولكنها ترفض رفضاً تاماً أن تعترف بنبوته محمد ﷺ ، داعياً إلى الله على ذلك الصراط ، والواقع أن الفاتيكان قد وقع في تناقض يدفعه المنطق ويعوزه الصدق ، ذلك إذ قرر أن المسلمين يجب معاملتهم بالاحترام الكامل ولكنه أغضى عن عمد متجنباً الإشارة للقرآن والذي بلغ القرآن ﷺ وذلك بشكل مخجل مخز .

**نظام الحكم :**

يقول هوفمان : إن الإسلام يقدم نظاماً نموذجياً تمحى فيه الفواصل بين الدين والدولة في نظام حكم قائم على ( الديمقراطية ) .

بينما يقدم الغرب نظاماً يقصى الدين وسلطته عن نظام الحكم ، ولقد راح كل من النظامين يدافع عن موقفه مشهوراً في وجه صاحبه شعاراً يثبت به في المعركة ، فبينما يحلو للجانب الغربي المسيحي الاستئناس بالمقولة المنسوبة إلى المسيح في الإنجيل :

( اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ) ينادى المسلمون بأن الإسلام دين ودولة ، أما أن الإسلام دين ودولة فحقيقة يثبتها الإسلام وإن لم تكن هذه الصيغة قد وردت في القرآن حرفياً ، لكن القرآن يصور المسلم مخلوقاً بمبادئ خلقية دون تقييد بحيث ينبغي له أن يكون مواطناً حراً أو ينبغي عليه في الوقت نفسه أن يصدر في أقواله وأفعاله عن إيمان بالله ( تبارك وتعالى ) فيكون الله سبحانه محور حياته الرئيسي أولاً وآخر .

وبهذا يملأ الإسلام حياة الإنسان أو يحتويها بكافة نواحيها ، ويرى المسلمون أن النموذج الغربي ليس سوى أحلام يراها المتوهم بل إنه لا يخدع أحداً بها سوى نفسه فمن البديهي لدى المسلم استحالة وجود دولة أو نظام حاكم بدون عقيدة أو مذهب فكري معين

(أيديولوجية) يستند إليها حتى حيدة القيم وبالتالي العلمانية التي ترفض الدين إنما هي عقيدتان أو مذهبان فكريان في رؤيتهما الفلسفية للوجود .

ويؤدي الفصل التام بين الدين وبين الدولة إلى الفصام العقلي أو انفصام الشخصية للفرد لأنه لن يكون في وسع إنسان ولو مؤقتاً أداء الفروض الدينية كما ينبغي ، فالإنسان المؤمن حقاً يندر أن يقتنع بالانزواء في مكان ما حتى لا تصطدم به الأعين غير المؤمنة حيث يؤدي الصلاة المفروضة .

والواقع أن التحول الذي آلت إليه المسيحية الأوروبية في عالم أنظمة الحكم الدولية الحديثة قد سجل انتصار الجانب الديني في الإنسان وصاحب السلطة الذي يتخذ السلطة هدفاً أعلى له .

وكل ذلك ينخر في بنية الدولة - سواء في الغرب أو الشرق الأوربي - تيارات عميقة عاقبتها وخيمتها إذ أضفت هالات أسطورية أو دينية غيبية سرية على النظريات السياسية ، ويمكن تفسير تلك التيارات بأنها بدليل عن الجانب الروحي الميتافيزيقي المهمل .

هذه الأسباب جميعها تجعلنا نتفهم الحساسية المفرطة في رد فعل العالم الإسلامي إذا طالب أحد المسلمين بنبذ مبدأ الإسلام دين ودولة كما فعل الشيخ علي عبد الرازق الذي أوصى بنظام حكم ديني مستقل عن الدين ، ويعالج القرآن الكريم موضوع الدولة سابقاً به دانتى وكارليل وهيجل من مفهوم لبيئة أخلاقية لها مقوماتها الأصيلة تعنى الأمة ، فالأمة هي البيئة السليمة التي يتوافر فيها المناخ اللازم الذي يكفل ازدهار الإسلام .

وتعرض آيات القرآن عرضاً غير مباشر للملامح تبين معيار الحكم ، يمكن استخلاصها في ثلاثة عناصر :

١ - مبدأ القيادة الفردية حيث أن الخليفة ليس نائباً عن الله بالمعنى المعروف في المسيحية ، ولكنه خليفة الرسول ﷺ .

٢ - مبدأ الشورى .

٣ - مبدأ الإسلام ديناً رسمياً للدولة .

وأن يعطى الشورى التي أمر بها القرآن سلطة ملزمة بحيث يتحتم التزامها والنزول على حكمها لا أن تكون نصيحة أو توصية .

فالشورى بهذا المعنى الإيجابى إنما تنبع بلا ريب من طبيعة حقوق الأمة ومن مبدأ العدالة المطلقة الذى يلح القرآن فى الحرص على تطبيقها .

إن المصطلح الإسلامى ( دين ودولة ) ينطلق من نقطة معينة هى أن الحكم له دور وظيفى محدد تماماً كمنصب الإمام ، فكلاهما ملقى على عاتقه القيام بالالتزام بواجبات ومهام محددة وهى جميعها مستمدة من روح الإسلام وفكرة أخذ وعطاء ولكنها مع ذلك متباينة متعددة .

ولا يثير اهتمام الإسلاميين كثيراً عدم مجيء تلك الكلمة ( الثورة ) فى القرآن بينما وردت فى الإنجيل والعهد الجديد مراراً ، وأن القرآن أقرب إلى معالجة الأمة من منطلق آخر هو ضرورة حدوث التحول المستمر فى عالم المادة والفكر .

ولا يفهم أحد أن تركيز اليوم مثل للديمقراطية الإسلامية مع أنها ليست مثلاً للجمهورية العلمانية وقد وصفت بأنها دولة يعيش فيها مسلمون ولكنها ليست دولة إسلامية .

#### الاقتصاد :

قال : يلح الإسلام على مراعاة الجوانب الأخلاقية فى نظام المجتمع وفى مجال الاقتصاد والمعاملات التجارية بالذات .

وهو مهتم بالدرجة الأولى بالقيم الأخلاقية الاقتصادية لدى المؤمنين ( منتجين موزعين مستهلكين ) .

وينطلق القرآن من احترام الملكية الخاصة للمحتاج ، أى للأشياء ، ويدخل فى ذلك بشكل أساسى وسائل الإنتاج ، هذا النوع من الملكية لا يعتبر ملكية مطلقة كما هى من وجهة نظر القانون الدولى بل يفهم ذلك على أنه إستغلال اجتماعى مشروع ، فالملكية المطلقة فى الإسلام هى لله وحده ، وليس من حق فرد أو أفراد ملكية الثروات الطبيعية المشتركة فى عموم النفع ( مثل الهواء والماء والمرعى والكأ أو الغابات أو الثروات الطبيعية ) .

والمسلم ملزم بأن يسعى لكسب نفقات معيشته سعياً شريفاً وإسهامه فى العمل المنتج ويشمل هذه التجارة المستهدفة للربح فى إطار الأسعار الحرة التى تسمح بها السوق غير

الاحتكارية ، فالمضاربات والربح الذى يحققه بعض السماسرة وأمثالهم دون بذل جهد أو عمل حقيقى كل ذلك حرام فى الإسلام .

وينسحب ذلك على المضاربات فى البورصات والأسواق المالية والصفقات الآجلة وكذلك أرباح رأس المال .

وعلى الدولة أن تراقب الالتزام بقواعد التسعير لمنع الاحتكار والغش فى الكيل والميزان وكافة أنواع الجرائم الاقتصادية .

وينبغى على المسلم أن يتقى الشح والإسراف ، فهو مطالب بالاعتدال كذلك بصفته مستهلكاً ، فلا يكون زاهداً ، والإسلام لا يرضى أن ينسى نصيبه فى الدنيا .

إن تاريخ الاقتصاد يثبت أخطاء وفشل نظريات الاقتصاد المختلفة التى حسب الناس حين اضطرابها فى أول الأمر - أنها نظريات سديدة ، وينسحب ذلك على نظريات الاقتصاد الشعبى وما حفلت به تلك النظريات من أخطاء وما باءت به من فشل وذلك ابتداء من آدم سميث ثم مروراً بدافيد ديكارو وتوماس مالتوس وكارل ماركس وجون ماينزر كالميسس حتى باول صمويل سون .

إن حكمة الإسلام العظيمة تبدو فى ضمانه للمرونة اللازمة لإقامة الأنظمة الاقتصادية الحقيقية السديدة بعد وضعه للأسس والشروط والأطر<sup>(١)</sup> العامة التى تحوى هيكل الاقتصاد .

لقد بدأ علم الاقتصاد الإسلامى الحديث فى التخطيط لإقامة نظام اقتصادى إسلامى متميز ، ولكن النجاح المرتقب لم يتحقق إلا بصورة ضئيلة جداً ويرى المسلم ذلك النظام الاقتصادى المنشود بديلاً عن النظام الاقتصادى الرأسمالى الغربى الذى يؤله السيادة المزعومة للأفراد بديلاً عن النظام الشرقى الاشتراكى : نظام الخطط القصيرة والطويلة الذى تتخذ ملكية الدولة صنماً معبوداً .

ويرى ماكس فيبر وميلر وأرماك فى فهمهم للنظامين الرأسمالى والاشتراكى أنهما نظامان ماديان ولكن ليس غير دينيين إذ أن فكرة النظامين عقيدة أيديولوجية ذات نظام وقيم دينية غير سرية أى منافية للأخلاق القويمة .

ولقد صوب بعض الباحثين لنظام الاقتصاد الإسلامى سهام النقد إلى النظامين

(١) الأطر : جمع إطار ، وهو ما يحيط بالشئ .

الرأسمالي والاشتراكي ، حيث أشار إلى أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يجمع بين الفرد والدولة في علاقة متزنة متساوية أو منسجمة ، وأن الإسلام تمكن قبل ألف وأربعمائة سنة في المدينة المنورة من تحقيق قدر من العدالة الاجتماعية والاقتصادية أو حتى ما يطمح إليه ماركس أن يحلم بمثله .

إن قيام النظام الاقتصادي الإسلامي المثالي يحتم أو يشترط وجود الأمة الإسلامية المثالية مسبقاً .

يرى هوفمان : أن الأصوب الآن وضع نظام اقتصادي في الإطار الذي حدده القرآن الكريم : نظام إسلامي الجوهر مراعي للحاجات الاقتصادية والمعاملات الاقتصادية ، موافق من هذه الناحية للنظام الغربي ، هذه الموافقة للنظام الغربي ليست مطلقة ، إذ لابد للنظام الإسلامي أن يتجنب سيئات النظام الغربي ( يعني الأورام الخبيثة التي تضرب في هيكليهما ومنها السماح بما يضر ولا ينفع من مشروبات ومأكولات ومخدرات وسجائر وأمثالها والتي تدر أموالاً طائلة تحصلها الدولة في قالب ضرائب ) .

أيضاً فساد السوق الرأسمالية المنافي للأخلاق والربا المتمثل في الأرباح الباهظة غير المشروعة .

وهنا يختلف الاقتصاد الإسلامي عن سواه بمبدأ الاقتصاد الإسلامي ، لا يسمح بقيام الشركات المساهمة والشركات ذات المسؤولية المحددة كما لا يسمح بالربا ، وكلا الأمرين مرتبط بعضهما ببعض .

وقد حذر الإسلام من أمر الربا الذي حاربه القرآن ولم يكتف بذهمه فقط في سورة الروم ، أو كما في سورة آل عمران ، بل لقد حرمه تحريماً قاطعاً نصت عليه أواخر الآيات التي أنزلت على النبي ﷺ قبل اختياره الرفيق الأعلى فبلغها دون أدنى تأويل لها : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ .

[ سورة البقرة : الآية ٢٧٥ ] .

ويرى هوفمان أن كتابات بعض المسلمين لا تخلو من إغراق في الرومانسية المجافية للواقع الفعلي ، ذلك أن معرفتهم العميقة بالقرآن الكريم لا تحتم الإمام العميق بعلم الاقتصاد ، فالإقتصاد له قوانينه الخاصة وينبغي أن يستقر في أذهان علماء الاقتصاد المسلمين أن قيام النظام الاقتصادي الإسلامي المثالي يحتم أو يشترط وجود الأمة الإسلامية المثالية مسبقاً .

أما بالنسبة للموافقة للنظام الغربى فهى ليست مطلقة ، إذ لابد للنظام الاقتصادى الإسلامى أن يجتنب سيئات النظام الغربى .

#### العلم :

يقول : لقد أدى استعمار الغرب للعالم العربى إلى أن أخذت صفوة المجتمع فى تقليد الحضارة الغربية والأخذ بأطراف منها لكن النتيجة كانت مؤسفة فى جميع الأحوال ، لم يبلغ معظم الطلاب المسلمين فى تحصيل العلوم الغربية مستوى زملائهم الغربيين ، بل إنهم من ناحية أخرى فقدوا أصول حضارتهم الإسلامية ذاتها فصاروا موزعين بين حضارتين تمزقانهن كل ممزق أو تتجاذبهن فصاروا من المستهلكين للتكنولوجيا التى خيبت ظنهم لأنهم لم يتقنوها فلاموها .

ولا شك أن الدعوة إلى جعل العلم إسلامياً هى دعوة إيجابية حيث أنها لا تستهدف نبذ النمط الغربى جانباً وإنما تهدف إلى تحقيق التربية الإسلامية والإصلاح الجامعى .

والواقع أن المدارس والجامعات فى كافة الدول الإسلامية تعاني أدواء مستفحلة ، لأن التدريس فيها لا يزال خاضعاً خضوعاً كبيراً للتقليد دون انتقاد أو هو يقوم على التقليد الذى لا يسمح بالنقد .

إن العلوم لا يمكن أن تصبح إسلامية إلا إذا برزت على الصعيد العلمى إنجازات رفيعة المستوى للعلماء المسلمين الذين يؤمنون بالإسلام ويطبقونه فى أقوالهم وأفعالهم وإلا إذا قدر المجتمع هؤلاء العلماء حق قدرهم ، إن حلم توحيد العلم لا يمكن أن يغنى عن التخصص المطلوب فى مختلف فروع العلم .

ومجمل القول أن مصطلح العلم الإسلامى يقصد به العلم الذى تسيطر عليه الروح الإسلامية بممارسة علماء مسلمين له جرياً على القواعد المنهجية للعلم .

ويرى المسلمون أن العلوم فى المجتمعات الغربية تمارس وكأنها طقوس دينية مقدسة ، إن عبارة ( الإخلاص خارج العلم ) يمكن أن تكون اليوم عقيدة عالم الطبيعة الغربى المسيحي المؤمن بالعلوم إيماناً مطلقاً ، فهو مؤمن لا بالدين وإنما بالعلم ، إن تعريفه لمعنى



لفظ الجلالة ( الله ) سيصطدم في كل الأحوال بثغرات وعقبات ، أما تعريفه للإنسان فسينتهي إلى اعتباره آلة رخيصة مبتذلة وذلك بوصفه نمطاً اجتماعياً وخطراً محققاً في المسيرة التكنولوجية .

والواقع الحقيقي أن الدين يعتبر في عصر العلوم الطبيعية اليوم صورة متواترة للتخلف العقلي وعجز الإنسان عن حل مشكلاته أو التغلب عليها ، لقد أراد نيتشه أن يعدم الإله فباءت محاولته بالفشل ، وكان لزاماً أن يفشل ، أما علماء الطبيعة فقد تعمدوا قتل الإيمان به ، وقد كان لهم ما قصدوا إليه قصداً على أن العلوم الطبيعية التجريبية الوضعية هذه التي أقصت<sup>(١)</sup> الدين وزحمته لا تستطيع بحال أن تملأ مكانه الشاغر خاصة من حيث مغزى الدين وجدواه ووضعه للمعايير الخلقية ، إن العلوم الطبيعية في وادٍ والدين في وادٍ آخر ، فكلاهما يتعامل من موقعين بعيدين كما لو كانا على كوكبين مختلفين .

والواقع أن العلم أثقل الإنسان المعاصر في ميدان العقائد بالشكوك والريبة وأفقده الطمأنينة واليقين وأورثه التقديس الأعمى لرصد البيانات والأرقام وتسجيلها وخزنها ودفع به إلى أزمة مستمرة في البحث عن ذاته ، وعلى كل حال فإن العلم يمكنه بعقائده التقدمية أن يقدم نوعاً من الإيمان الأخرى بالحساب والعقاب على أساس علماني للمجتمع غير المسيحي .

ليس المسلمون وحدهم الفئة الوحيدة التي تستنكر هذا التطور غير السوي للعلوم الطبيعية باعتبارها بديلاً رديئاً عن الدين ، بل العكس صحيح .

وخلاصة القول : لقد غلبت المعرفة من جديد في إثباتها أن الدين وعلوم السياسة لا غناء لبعضها عن بعض وأن فكرة انقضاء أجل الدين كانت فكرة محلية محدودة الأفق ، ولقد أدى ذلك إلى اندحار الدارونية وزوال سيطرة سيمون فرويد وكارل ماركس والطبيعة القديمة ولا سيما أن المخ الإنسانى لم يستطع الكشف عن أسرار المخ ولسوف يصير علماء الطبيعة أشد تواضعاً يوماً بعد يوم ، بعد ما تبين لهم أن كل ما يطلق عليه لفظة قوانين الطبيعة ليس إلا تصوراً لقيم تقريبية وأن العالم ليس كما كان يظن أنه يعمل وفقاً لمفهوم العلية .

هذا العلم الذى يتحرر الآن من قيود الغرور ، لا يزال في نظر كثير من الأساتذة المسلمين ذا قيم محايدة ، لذا فلا بد من جعله ذا قيمة إسلامية .

(١) أقصت : أبعدت .

والمسلمون يأخذون على العلوم الطبيعية الحديثة أنها دون أى حق شرعى احتلت محل الدين وقامت مقامه ، وأنها عملت عملاً مشيناً .

هذه مجمل آراء الدكتور مراد هوفمان وهى تقدم تصوراً قريباً لمفهوم أهل السنة والجماعة وقد حاول هوفمان أن يقدم الإسلام كما عرفه السلف وكما بلغه الرسول ﷺ وعرفه الصحابة والباحثون المسلمون ، وقد أراد أن يقرب هذا المفهوم الأصيل للعقل الغربى المتعطش إلى أشواق الروح بعد أن حطمتها مطامع المادة وأهواؤها ، وفى بعض المواضع يختلف رأى الدكتور هوفمان عن المفهوم العام وذلك فى المجال المسموح به من الفروع والمتغيرات ، وهو أمر طبيعى ، ولكنه فى أغلب كتاباته يدافع عن المفهوم الأصيل وينقد الفكر الغربى وخاصة الرأسمالية والماركسية نقداً صريحاً واضحاً .

وموقفه من الدعوة الإسلامية ينطلق من تقدير صادق حيث يقول : ومنذ تأسست حركة الإخوان المسلمين المصرية ومبادئ الدعوة على يد حسن البنا صار العنصر الدينى أقرب إلى التغلب على غيره من العناصر وأنه من الخطأ الذى لا يغتفر أن يساء فهم وتقدير العنصر الدينى المتقد حماساً وحمية متمثلاً فى تلك الظاهرة الفذة ( الإخوان المسلمين ) . وفى مجال الربا يتحدث عن أن النص القرآنى المحرم للربا واضح وهو أصدق من التحايل الذى مكن له بعض الفقهاء المسلمين الذين أجازوا إعطاء القروض ذات الفوائد بطريق غير مباشر حيث يلجئون المقرض إلى عقد بيع وشراء صورى ليحلوا ما حرم الله ( تبارك وتعالى ) .

ولقد عرض هوفمان لموضوعات مثل الديمقراطية والشورى وبعض مواقف الشريعة الإسلامية والفلسفة والاستشراق ، ولكنه كان فى مجمله يقدم الإسلام للغرب كحل بديل لمشكلته معتقداً أن الغرب سوف لا يجد مناصاً<sup>(١)</sup> من اعتناق الإسلام للتحرر من متاعبه<sup>(٢)</sup> وأن أوروبا قد تقود حركة النهضة الإسلامية فى الغرب ، هذا وبالله التوفيق .

\* \* \* \*

( ١ ) مناص : مهرب .

( ٢ ) متاعبه : أى متاعب الغرب .

## المستدرك على الأبحاث

ثانيا : شهادة غربي على انهيار حضارة الغرب

من خلال كتابه الخطير : ( الإسلام : هو الحل البديل )

يتحدث الدكتور مراد هوفمان ( سفير ألمانيا في المغرب والذي اعتنق الإسلام منذ عشر سنوات ) عن الصحة الإسلامية الذي هو ثمرتها فيقول : « وفجأة وعلى غير المتوقع طرأ على التطور في كلا العالمين شرخ هائل أو انكسار جاد في الستينات والسبعينات من هذا القرن ، فالإسلام الذي زلزلته الكوارث الدامية والأزمات الطاغية لم يقض نحبه<sup>(١)</sup> ولم يفتر ، بل على العكس انطلق ذائراً بالحياة والنشاط أقوى ما تكون الحياة حتى بدأ البعض في الغرب يعتقد بأنه بدأ مرة أخرى ، أن يحسب للإسلام حساباً وأن يخشى بأسه ، أما المجتمعات الصناعية ، فقد أخذت الأزمات بخناقها ، حينذاك بدأ تطور العالمين العربي والإسلامي فجائياً غير متوقع ، أما اليوم فإننا مقتنعون أن هذا التطور كانت نتيجة حتمية .

إن علماء الاجتماع يسجلون أن النجاح الاقتصادي للدول الرأسمالية قد قوض القيم الخلقية أو نسفها نسفاً ، وبالتالي اجتثت<sup>(٢)</sup> قواه السلوك والمعاملات التي أبرزتها فلسفة ماكس فيبر الأخلاقية والتي عليها وبها يقوم النجاح الاقتصادي للرأسمالية .

هذه الآلية التي تنسف ذاتها بذاتها تلقائياً تشبه الخصال الحميدة مثل الخير والسلوك والحس المنضبط والصبر ، والإخاء والمرونة والشجاعة ، ففي مجتمعات الرفاهية المسرفة والوفرة الفائضة عن الحاجة ترى تلك الصفات الحميدة قد مسخت وشوهت أضعافاً مضاعفة ، أو نرى قيماً جديدة وأنماط سلوك مستحدثة تحل محلها لتتلاءم مع المجتمع الصناعي المادي بالفعل ، وهي إذ تطبق عموماً لا تستطيع أن تخدم أي مجتمع صناعي .

( ١ ) قضى نحبه : فرغ من عمله .

( ٢ ) اجتثت : أفلقت ، استأصلت .

( ٣ ) الإيثار : تقديم المسلم أخاه على نفسه في حظوظ الدنيا .

وهكذا يمكن أن تنقلب الفردية الانعزالية فتتحول إلى التراحم والإيثار<sup>(٣)</sup> والإخاء إلى السلوك الجمعي غير المنقفل والمتكتل في مجموعات ( شلل ) تؤم المراقص وحفلات موسيقى روك أندروك وتحول تقرير المصير إلى فوضى خلقية ( لا خلقية ) كما لمسنا ذلك في العبارات التي ترددت على ألسنة الداعيات إلى تحرير المرأة وحققها أن تفعل بجسدها ما تشاء مثل الإجهاض ( بطنى لى وحدى ) وتنقلب حركة الفكر من عدم التميز إلى إباحية مطلقة ، ويتحول التسامح والسماحة إلى حيدة القيم ، أو التعامل المشروع إلى جنون الاستهلاك والحرص على متاع الحياة الدنيا والمساواة إلى التسوية الأئمة التي لا تميز بين الخبيث والطيب والغث والسمين وبدلاً من تكافؤ الفرص ورفاهية الحس إلى الولولة الطائشة وتنقلب الحيطة والحذر إلى إحجام<sup>(١)</sup> .

ويؤكد مراد هوفمان : أن المذاهب المختلفة من قومية واشتراكية مما يتفق مع ما نادى به كمال أتانورك والمستغريون المعاصرون ، كل هذه المذاهب باءت بالفشل الذريع لعجزها وقصورها ، وعدم استطاعتها معالجة الأدواء المستشرية في البلاد الإسلامية التي سقطت في يد الاستعمار وحجبت عنها نظمها الإسلامية وشريعته وقيمتها وفرضت عليها القانون الوضعي والانحلال الاجتماعي .

ولكن سرعان ما جاءت الظاهرة الفذة : التي هي الإسلام حيث بدأت تتوالى منذ السبعينات حتى اليوم دون انقطاع ممثلة في الصحوة الإسلامية أو النهضة أو العودة إلى الأصول وعدم الفصل بين الدين والدنيا وفي بادية الأمر اعتقد البعض أو تمنى أن الأمر ليس إلا حركة اجتماعية تبدى احتجاجها قولاً وفعلاً ، والواقع أن هذه النظرة التي تريد أن ترى أن حركة إحياء الإسلام ليست إلا تعبيراً عن العجز التكنولوجي قد أثبتت خطأ وعجز المحللين والدسائسين الآخذين أو القائلين بها عن فهم العامل الديني الأصيل .

ويقول : ذلك أن الإسلام باعتباره ديناً ونظام حكم مشروعاً معتمداً لم يفقد قط وظيفته وهيئته حتى في تركيا نفسها ( إذا استثنينا الفئة المتشبهة بالغرب والثقافة واليد واللسان والزي ) بل إن الإسلام على حد تعبير ( أرنولد هونتجر ) لم يفقد أهميته مطلقاً وإن حجبتها غشاء شفاف رقيق لعملية التحديث أو التمدن العصري الحضارى .

( ١ ) إحجام : امتناع ونراجع .

وبالاختصار فإنه لا معنى من حدوث تلك الرزايا المنكرة إذا توازن أعمدة ثلاثة أو مبادئ أساسية ثلاثة : ( العقلانية - الحرية - الحب ) .  
هذه الأعراض المرضية المزمنة للتوظيف غير السوية أو التوظيف السيئ المشبوه ما تعرفه على مسرح الأحداث في كافة الدول الصناعية اليوم ، ويعرض هوفمان للخطر المحيط بالحضارة الغربية .

ويتحدث عن ضحايا ذلك المجتمع الصناعي وقيمة الجماد المزعومة ويقول : إنهم يتمتعون بكل ما يريدون من الاستقلال الذاتي والحياة المؤمنة من المهد إلى اللحد والحرية والإباحية الجنسية التي لا تعرف محظوراً أو محرماً والخدرات على اختلاف أنواعها وأوقات الفراغ وكافة الحقوق المدنية التي يحلم بها المرء .

ولكنهم على ذلك كله يخشون فراغاً هائلاً يملأ وجودهم الفعلى ويتوقون إلى الحنان والدفع البشري من قبل الجماعة التي يعيشون معها وإلى سلطة زعيم روحي .

وهنا نضع سؤالاً ملحاً خطراً :

ما هو مغزى الحياة والوجود ؟

وبمرور ظاهرة الانطلاقة الجديدة المحمومة للاتجاه الديني والتغلب هنا وهناك ولكنه عاجلاً أو آجلاً سوف يعثر في بحثه عن دين بديل كاف شاف بالظاهرة الفذة الإسلام المبعوث بعثاً جديداً لا سيما وأن الإسلام يرى أنه هو الصراط المستقيم بعيداً من المعسكر الغربي وأوهامه والمعسكر الشرقي المادى وأحلامه .

وهكذا يعترف الباحثون أخيراً أن ظاهرة تجلّي الإسلام في مجلى جديد يجب فهمها على أنها اقتحام جديد للسلطة الدينية والتشريعية للهيمنة على مجالات الحياة العامة .

وقد أكد هذا عنوان كتاب ( حيلزكل ) الذي سماه ( انتقام الله ) ومن الطبيعي المنطقي أن يرتبط هذا الاتجاه بفكرة الرفض المبدئي القاطع للتمدين أو التحديث كما يريده الغرب المسيحي ، إن العالم الإسلامى يرى في هجر الغرب للروحانيات والمثاليات وتعلقه الشديد بالماديات تشويهاً أو جدعاً<sup>(١)</sup> لكفاءة الإنسان ويرد هذا الاتجاه الغربى بمخطط إسلامى مضاد يفسر في ضوءه النهاية المحتومة للمركزية الأوروبية .

( ١ ) الجدع : قطع في الأذن .

وبعد انهيار النظام الشيوعي أصبح العالم وليس ثمة أى تناقض أو تعارض فى كون إحياء الإسلام يقدم للمسلم الذى يعانى وتتنوعه الشدائد والحن والكوابيس فى العالم الثالث يقدم الفرص للعودة الرشيدة إلى جذوره وأن يحقق له ذلك والمتمثل فى السلع الاستهلاكية التى لا طائل تحتها ، بدون هذا لن نكسب المعركة ، بل إن سلسلة الإهانات والإذلالات المتلاحقة للعرب والمسلمين وللوطن العربى الماثلة أمام العالم اليوم وبوجه خاص فى مأساة فلسطين ، قد مهدت الأرضية السياسية للتخلص من ذلك الخزى ، ولتحقيق انطلاقة أخلاقية دينية واعية ، أ . هـ .

هذه الصورة التى قدمها مراد هوفمان تؤكد عدة أشياء هامة وخطيرة : أهمها أن أوروبا أصبحت أملاً جديداً لأنبعاث الإسلام فقد تضاعفت أعداد المثقفين ذوى المكانة المرموقة فى عالم الفكر والمجتمع .

وهى توحى بأن الانطلاقة التى بدأت منذ قال برنارد شو فى الثلاثينات أن أوروبا تحمل الإسلام فى أعماقها وأنها قد تكشف عنه فى صورة أو أخرى يرتبط هذا بما كتبه المنصفون أمثال : درابر وجوستاف لوبون وكارليل وما جاء بعد ذلك من الذين أعلنوا إسلامهم صراحة ، عبد الكريم جرمانيوس ، إيتان دينيه ، محمد أسد ( ليوبولد فابيس ) دكتور بوكاي ، جارودى ، وأخيراً وليس آخراً هوفمان السفير الألمانى فى الجزائر الذى اعتنق الإسلام عام ١٩٨٠ وأن أول معرفته بالإسلام كانت فى الجزائر ( وهذه ظاهرة يجب التنبيه إليها ذلك أن كثيراً من الغربيين الذين أسلموا كانت لهم صلة بالمغرب العربى ، محمد أسد إيتان دينيه ، هوفمان .

كما أن كثيراً ممن كتبوا عن الإسلام وإن لم يسلموا عاشوا فى المغرب من ذلك جاك بيرك .

وتجد هوفمان فى كتاباته منجازاً إلى الذين درسوا الإسلام وأشادوا به وفى مقدمتهم دكتورة سجيريد هونكة مؤلفة كتاب ( شمس الله تشرق على الغرب ) الذى وزع منه الملايين فى الغرب ، وكذلك كتابها الجديد ( الله فوق ما يتصورون ) .

وأبرز ما يمثل كتاب هوفمان ( الإسلام هو الحل البديل ) ذلك الوضوح الجلى وفهمه الأصيل الجامع للإسلام من خلال مفهوم أهل السنة والجماعة كما عرفه السلف

وكما بلغه الرسول ﷺ وكما طبقه الخلفاء الراشدون دون انحراف نحو التصوف الفلسفى أو غيره بالرغم من إشارته إلى أن هذا التصوف أقرب إلى نفسية الغرب .

ولعل هذا الكتاب بإنصافه وسماحته ووسطيته جدير بأن يكسب للإسلام مثقفين جددًا حيث يعتبر نفسه ثمرة الصحوة الإسلامية ويتطلع إلى تقبل مفاهيمه فى بيعة المثقفين الغربيين المتعطشين إلى المعرفة وإلى الحق والذين يشعرون بالتطلع إلى أشواق الروح وإلى فهم الوحي والغيب والنبوة بعد أن انحرفت مفاهيم الاستشراق الغربى وعجز عن العطاء .

ولقد استطاع أن يستعرض عدداً من الأحكام الظالمة التى أذاعها الغرب والثى جاءت مبنية على سوء الفهم فأخذ يدحضها ويبين خطأها بالبرهان الصحيح .

وكذلك أشارت دكتورة ( أنا مارى شمل ) فى مقدمة الكتاب إلى ما أسمته الأحكام التى يلصقها الغرب بالإسلام وأنها تأتى من سوء فهمنا وخطأنا فى القياس المنطلق من معاييرنا الغربية وقيمنا وأن المرء عدو ما يجهل .

ويرى هوفمان أنه ينبغي على كل مثقف أوربى إدراك فضل العرب والإسلام على أوربا المسيحية خاصة بعد أن وزعت ملايين النسخ من كتاب الدكتور سيجريد هونكه .

وينتقد هوفمان تعقيب المستشرقين حين يطالبون أهل الإسلام بالانتقاص من تمسكهم بالأصالة والخصوصية الإسلامية بدعوى اللحاق بركب الحضارة العالمية .

إن كتابات هوفمان توحى بأن الغرب يستعد اليوم ليحمل لواء قيادة الدعوة إلى الإسلام وبإحصاء المصادر والمراجع التى رجع إليها هوفمان يتأكد أن فى أوربا الآن تراث ضخم من الإسلام السنى سواء من تفسير القرآن إلى صحاح السنة إلى الفقه ، وإلى كتابات أعلام الإسلام : الغزالى ، وابن تيمية ، والطبرى . . . إلخ .

ولعل أجمل ما يختتم به هذا البحث أن يقدم هوفمان موقف المسلم من الحضارة المعاصرة فيقول :

الحق أن الالتزام الخلقي يسود حياة المسلم أو المسلمة أو الوسط الإسلامى الحقيقى ، فأنت لا ترى المداعبات الجنسية وتبادل القبلات ونموها بين الرجال والنساء علناً ، كذلك يرفض الإسلام الأدب الداعر المكشوف وأفلام الجنس والصور العارية ولا تمارس المسلمة

( ١ ) اللقطاء : جمع لقيط وهو المولود المنبوذ .

أساساً أى علاقة جنسية قبل الزواج كما أن اللقطاء<sup>(١)</sup> والأطفال المولودين ولادة غير شرعية من الأشياء النادرة فى المجتمعات الإسلامية والأغلب الأعم أن الأبيكار لا تفض بكارتهن قبل الزواج ولن تجد فى أى دولة إسلامية الإعلانات التى تطالب أصحابها بتبادل العلاقات الجنسية بين الأزواج والزوجات فى مجموعات الجنس وشواطئ العراة والزواج اللوطى بين الرجل والرجل والسحاق بين المرأة والمرأة علناً ، ولن تجد المساكن المختلطة التى يعيش فيها الطلاب والطالبات معاً وتحت سقف واحد .

وفى هذا المجال يحرص الإسلام على التنبيه إلى دور الملابس أو الزى فى الحياة سواء للذكر أو للأنتى ، خاصة مسألة الحجاب أو النقاب هذه ، فالإسلام يرى أن من المنطقى عدم إثارة الأشياء إذا كانت غير مرغوبة .

وإذا كان هوفمان يكشف عن موقف الإسلام من الحضارة الغربية وكيف يعارضها ، فإنه يقدم لها صورة حقيقية من أعماق المجتمع الغربى تكفى لصد كل مسلم عن قبول هذه الحضارة .

وهكذا كشف هوفمان فى كتابه فساد المجتمع الغربى والحضارة الغربية ونقد الرأسمالية والشيوعية وكشف زيفهما ، وهنا يتأكد موقف الصحوة الإسلامية من مفاهيم الغرب فى المجتمع والحضارة ويتحطم ذلك الطابع المسموم من الانبهار ويكشف عن عجز هذه الحضارة عن عطاء الخير والرحمة والأخلاق والقيم ، وأنها هى نفسها حضارة الرومان واليونان فى صورة جديدة لم ترد شيئاً عن مفهومها القديم ( روما سادة ومن حولها عبيد ) هذا وبالله التوفيق .

\* \* \* \*



## المستدرك على الأبحاث

ثالثاً : سموم الشبهات فى كتب العلمانيين

### ( ١ ) الفتنة الكبرى

\* ما هى الوجهة الحقيقية لهدف طه حسين من الكتابة عن التاريخ

الإسلامى وشخصيات الصحابة ؟

\* ولماذا نفى عن ابن سبأ اليهودى تهمة الفتنة الكبرى ؟

\* طه حسين خالف العلم وحكم بلا دليل ولا دراسة !!

كان اقتحام الدكتور طه لمجال دراسات التاريخ الإسلامى ، بمثابة مرحلة جديدة فى حياته الفكرية ، وفى وجهته التغريبية .

وكان قد بدأ بكتابه ( على هامش السيرة ) ثم أحس - وأحس ذووه - بنجاح الخطوة الأولى ، فمضى فى الطريق مقتحمًا حياة الصحابة رضوان الله عليهم ، عن طريق الحديث عن الخلاف الذى بدأ فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فكتب الفتنة الكبرى فى جزأين .

وهنا نعرض للجزء الأول «على وبنوه» ، على أن تخصص حلقة خاصة - إن شاء الله - عن الجزء الثانى ( عثمان ) .

ثم تابع خطواته على هذا الطريق فكتب : ( الوعد الحق ، مرآة الإسلام ، الشيخان ) . غير أننا فى هذه الحلقة يجب أن نكشف عن هذه الوجهة وخلفياتها ، وأبرز ما يتصل بها هو تحقيق هدف من أهداف الصهيونية العالمية ، وهو : إنكار الدور الذى قام به ( عبد الله بن سبأ ) اليهودى اليمنى المعروف بابن السوداء ، والذى كان القائد الحقيقى للفتنة التى اضطرت<sup>(١)</sup> ضد سيدنا عثمان رضى الله عنه ، فى مختلف الأقطار ( مصر والشام والعراق ) .

( ١ ) اضطرت : اشتعلت .

وكان اليهود قد مهدوا لذلك في إسرائيل ، بطبع كتاب ( أنساب الأشراف ) وهو كتاب مريب وملفق للبلاذرى ، ضاعت منه أجزاء ، وقد بدءوا بطبع الجزء الخامس منه بإشراف مستشرق يهودى .

وقد جعل هذا مقدمة للدور الذى يقوم به الدكتور طه حسين بالاعتماد عليه ، فى إنكار وجود شخصية عبد الله بن سبأ ، والادعاء بأنها شخصية وهمية اخترعها المؤرخون المسلمون .

قال هذه المقالة البلهاء للدكتور طه حسين ، بينما توجد عشرات المراجع الموثقة ، التى تصك دعوته وتؤكد وجود من يسمى عبد الله بن سبأ .

هذه المراجع التى يعرض عنها طه حسين جميعاً ، ويتكىء على البلاذرى فى كتابه « المفلق » ففى جميع المراجع - ما عدا البلاذرى - يرد أمر ابن سبأ .

فى مقدمة ذلك الطبرى - الذى تجاهله طه حسين فى هذا الموقف تماماً - قال الطبرى :

كان ( عبد الله بن سبأ ) يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء ، فأسلم زمن عثمان - رضى الله عنه - ثم تنقل فى بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ، ثم الشام .

كما ذكره الشهرستانى فى الملل والنحل ، وابن حزم فى الفصل ، وعبد القادر البغدادى فى ( الفرق بين الفرق ) ، والإسفرائينى فى ( التبصير فى الدين ) وابن قتيبة فى ( تأويل مختلف الحديث ) وابن عبد ربه فى ( العقد الفريد ) .

وقد كشف هذا عن خطة المؤامرة التى جاءت فى الوقت الذى كانت فيه إسرائيل تستعد للسيطرة على فلسطين وكانت تمهد بذلك لفرض مفاهيم مختلفة ، بدأنها برسالة الدكتوراة التى قدمها اليهودى ( إسرائيل ولفنسون ) وأنفذها طه حسين من خلال مدرج الجامعة « جامعة فؤاد الأول - القاهرة فيما بعد » عن اليهود فى بلاد العرب ، وفيها محاولة للادعاء بأن اليهود هم الذين حضروا العرب فى شبه الجزيرة .

#### الدعوى ورد الدعوى :

بدأ طه حسين حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء « عبد الله بن سبأ » فذكر أن الرواة المتأمرين أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها ، وأنها لم ترد فى المصادر المهمة ، وأن

« ابن سعد » لم يذكرها ، وأن البلاذري لم يذكرها في ( أنساب الأشراف ) وهو فيما يرى الدكتور من أهم المصادر ، وأن الذى ذكرها هو الطبرى وأخذها عنه المؤرخون الذين جاءوا من بعده » .

ولكى ينفى الدكتور طه تهمة ( الفتنة الكبرى ) عن ابن سبأ اليهودى ، بدأ كتابه بدعوى عريضة هي : ( إن الفتنة عربية ، نشأت من تراحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة لهؤلاء الأغنياء ) .

وكرر هذه العبارات ( فتنة عربية ، وعامة عربية ) لتعلم ماذا يريد بهذا التكرار ، وما الذى يريد أن ينفيه من شركة أحد غير العرب فى دم عثمان رضى الله عنه .

حتى إذا اطمأن إلى توسيد الأرض ، بدأ يعرض القضية بعرض ما أسماه « قصة أكبر<sup>(١)</sup> » الرواة المتأخرون من شأنها ، وأسرفوا فيها ، حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان ( رضى الله عنه ) ولما أورد هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين » ، وهى قصة عبد الله بن سبأ .

ويقول : « إن كثيراً من الناس يضيف إليه ، كل ما ظهر من الفساد والاختلاف فى البلاد الإسلامية أيام عثمان ( رضى الله عنه ) ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده لإحكاماً ، فنظم فى الأمصار جماعات خفية ، تستتر بالكيد وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة ، حتى تهيأت له الأمور ، ووثبت على الخليفة ، فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام » .

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر معلقاً :

« فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور على أن يصف الفتنة بأنها ( عربية ) ، وبأن العامة الذين كانوا أشرار هذه الفتنة ، كانوا ( عامة عربية ) أى أنه ليس لهذا اليهودى الخبيث عبد الله بن سبأ يد فيها ، وأن ليس لليهود عمل فى تأريث ناراها ، وهذا تخريج بين جدلاً ، لا يخالفنا فيه أحد » .

ويمضى الدكتور طه فيقول :

« ويخيل لى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد ، يسرفون على أنفسهم

---

( ١ ) أكبر : عظيم .

وعلى التاريخ إسرافاً شديداً وأول ما نلاحظه أننا لا نجد لابن سبأ ذكراً في ( المصادر المهمة ) التي قصّت أمر الخلاف على عثمان رضى الله عنه ، وانتقاض الناس عليه .  
« فلم يذكره ( البلاذرى ) في ( أنساب الأشراف ) وهو فيما أرى ( أهم المصادر ) لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً وذكره الطبرى عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر » .

ثم هون من أمر ( عبد الله بن سبأ ) وقال : « إنه من الهوان بحيث كان يمكن أن يأخذه الولاة ويعاقبوه أو يبطشوا به » ، ثم يقول : « فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ولنكبر المسلمين فى صدر الإسلام ، عن أن يعذب بدنيهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء » ويقول : « هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ، ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغى أن يقام لها أمر التاريخ » .  
وهكذا يقطع الدكتور الرأى بجملة واحدة .

ثم عاد فأشار إلى قصة الكتاب - كتاب إلى والى مصر - الذى يقول الرواة : إن المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر ، فكروا راجعين ، ويرى أن هذه القصة ملفقة من أصلها .

وبواجه الدكتور طه قضية « الرواة المتأخرون » فىرى : « أن فيها إيهاماً شديداً متعمداً فيما يظهر » .

وقد كان الرد الذى تقصى خبيثته : أن الطبرى ليس من الرواة المتأخرين ، فقد ولد سنة ٢٢٥ هـ ومات ٣١٠ هـ فهو معاصر للبلاذرى ، ومن طبقة تلاميذ ( ابن سعد ) صاحب الطبقات ، وأن سيف بن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبرى والبلاذرى ، وهو فى مرتبة شيوخ ( ابن سعد ) ومات قبل ١٩٠ من الهجرة ، فلا يقال عنه ولا عن الطبرى أنهما من ( الرواة المتأخرين ) كما أراد الدكتور طه أن يوهم قارئه .

ويستطرد الأستاذ محمود محمد شاكر فيقول : « إن ذكر الدكتور ( المصادر المهمة ) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإن لم يكن كتاب الطبرى من المصادر المهمة ، فليت شعري ما هى المصادر المهمة التى بين أيدينا » .

كتاب ابن سعد ، وكتاب البلاذري : « وإن كان الدكتور طه يعلم أن : كتاب ابن سعد الذي بين أيدينا كتاب ناقص ، وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر .

والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر ( رضى الله عنه ) فى ٨٤ صفحة ، ولأبى بكر ( رضى الله عنه ) فى ٣٣ صفحة ، فلما جاء إلى عثمان ( رضى الله عنه ) « والأحداث فى خلافته هى ما يعلم الدكتور ويعلم الناس لم يكتب سوى ٢٢ صفحة ، ولما جاء إلى على بن أبى طالب ( كرم الله وجهه ) والأمر فى فترته أفدح ، لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة .

هذا على أن الكلام على طريقة ابن سعد فى تراجم الرجال شئ آخر ، غير كتابة التاريخ ، فإنه لم يذكر فى هذا الفصل إلا قليلاً جداً مما ينبغي أن يكتب ، لو أنه ألف كتابه فى التاريخ العام ، لا فى الترجمة للرجال وهذا شئ يعلمه الدكتور طه حق العلم ولا ريب .

وكانت حجة الدكتور فى نفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين : « أن البلاذري لم يذكره » ، وهو فيما يرى ( أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلاً ) .

ثم عاد فنفى أيضاً خبر الكتاب الذى جاء فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذري ذكره وأطال فيه وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره .

ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجة فى قضية ، ثم ينفى أيضاً خبراً آخر قد ذكره ولج فيه ؟؟

« بقى أمر آخر ، هل كان فى نص البلاذري قديماً ذكر عبد الله بن سبأ اليهودى ثم سقط ؟ أو أسقط عن الكتاب ؟ وهذا لا يتاح لى إلا إذا وقفت على نسخة قديمة وثيقة من كتاب ( أنساب الأشراف ) فإن النسخة التى بين أيدينا إنما طبعت فى أورشليم كما يسمونها وطبعها رجل من طغاة الصهيونية ، وقدم لها مقدمة لم تكتب لا بالعربية ولا بالإنجليزية وإنما بالعبرية » .

وقال وليأذن لنا الدكتور : أن نشك أكبر الشك فى ذمة اليهودى الصهيونى الذى طبع الكتاب فى مطابع الصهيونية فى أورشليم ، فقد رأينا من قبل رجلاً آخر أحاطه الدكتور يوماً

برعايته وعنايته واستقدمه إلى الجامعة المصرية وكان يسمى نفسه ( أبو ذؤيب ) : إسرائيل ولنفسون ( وهو الآن في فلسطين يجاهد في سبيل الصهيونية ) فألف كتاباً في تاريخ اليهود في بلاد العرب ، طبع في مصر ، وقدم له الدكتور مقدمة أثني فيها عليه ثناء بالغاً .  
« أفلا يجوز لنا على الأقل أن نشك في أن اليهودي الآخر طابع كتاب البلاذري يفعل مثل هذا » .

« هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة ، وبخاصة ما كان على غرار البلاذري ، قد ترك المؤلف فيه شيئاً في مكان ثم يذكره في مكان آخر ، وكان أولى أن يذكر في المكان الأول ، أفلا يجوز أن يكون البلاذري قد ذكره مثلاً في ترجمة ( عمار بن ياسر ) أو ( محمد بن أبي بكر ) أو ( محمد بن أبي حذيفة ) أو رجل ممن اشترك في الفتنة ؟ وهو يعلم أن الذي وجد من كتاب البلاذري قسم ضئيل جداً ، طبع منه في ألمانيا ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودي الصهيوني طبع جزء آخر ، هو الذي ترجم فيه عن عثمان في ١٩٣٦ ثم طبع جزء آخر في ١٩٣٨

قال الناشر في مقدمته المكتوبة بالعبرية :

« إن هناك حوادث جرت في عهد يزيد بن معاوية وهي وقعة كربلاء وموت الحسين - رضي الله عنه - ولم تذكر في ترجمة يزيد بل ذكرها في تراجم بني أبي طالب ، وذلك حسب ما اقتضاه نظام الكتاب ، وفقاً لتسلسل الأنساب » كما قال بنص كلامه .  
أفلا يجوز إذن أن يكون ( البلاذري ) قد أدمج أمر « عبد الله بن سبأ » في مكان آخر كما فعل فيما لاحظته وذكره اليهودي ؟ كل هذا جائز .  
ولكن الدكتور حين ينفي شيئاً لا يبالي أن يختار كل هذا ، ويغضى عنه ليقول فيه الرأي الذي يشتبهه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف » .

ثم كيف ينسى الدكتور أن من لم يرو خبراً ما ، ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة ، كالبلاذري والطبري ، بل لعل الطبري ، أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحصيلاً له ، وهو الذي روى عنه أنه قال لأصحابه : أنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى فيه الأعمار قبل تمامه ، فاختصره لهم في ثلاث آلاف ورقة .

ومن قرأ كتاب الطبرى فى تاريخه وتفسيره ، علم أن ( عزيمة هذا الرجل ) حق ، وأن الرجل كان متفرغاً للعلم لا يلفته عنه شىء قط ، ولا يدع شاردة ولا واردة إلا تقصاها وحققها ، ورأى فيها رأى الذى لا يكاد ينقض ، والفرق بينه وبين البلاذرى لا يخطؤه بصير بهذا العلم ، فليس من الحجة فى شىء أن يقال : ( فى عصرنا هذا ) أن البلاذرى لم يذكر هذا فيكون ذلك كافياً للرد ، على ما ذكره الطبرى ، وهذا شىء بين لا يحتاج إلى جدال كبير .

إذن : فالدكتور قد اشتط وركب مركباً لا يليق بمثله ، حين نفى خبر عبد الله بن سبأ ، وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى رأيت من تهافت أسلوبه العلمى .

وإذن فالدكتور قد خالف سنة العلم والعلماء فى نفى الأخبار وتكذيبها بلا حجة ، عن طريق أهل التمهيص ، بل حكم حكماً بلا دليل يسوقه عن أفضلية البلاذرى وتقديمه على الطبرى ، وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب ، وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها ، كما هو القول فى ابن سعد والبلاذرى معاً .

#### وهدفه أن الفتنة عربية :

وإذن فقد أراد الدكتور طه أن يقول إن ( الفتنة الكبرى ) التى أفضت إلى مقتل عثمان رضى الله عنه إنما كانت ( فتنة عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء ) ص ١٠٩ فمن أجل تحقيق هذه الكلمة الكبيرة ، ركب كل مركب فى تصوير الحياة الإسلامية بعد الفتوح ، بالصورة التى تنتهى به إلى هذا الغرض وحده دون سواه ، وهو الغنى والمال والسلطان ، وتزاحم الأغنياء على الغنى والمال والسلطان وحشد العامة العربية . . . إلخ .

ولكن الدكتور كشف عن هدف آخر حين جاء فى معرض هذه الفتنة فنفى خبر ( عبد الله بن سبأ ) اليهودى وخبر الكتاب الذى كتب فيه الأمر بقتل رءوس وفد مصر .

وهذا الهدف هو الذى ينفى عن اليهود الشرقة فى دم عثمان رضى الله عنه ، والتجريض على قتل الإمام ، فركب مركباً وعرأ خالف فيه أسلوب العلماء ، فى جرح الأخبار ، وكذب الرواة فى شىء بغير برهان ، وصدقهم فى شىء آخر بغير برهان أيضاً ،

وهو نفسه ينعى فى كتابه على « الذين يكذبون الأخبار التى نقلت إلينا ما كان من الناس من فتنه وخلاف ، فقال فى ص ١٧٢ :

( فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامى ) بيد أن الدكتور طه نفسه قد فعل ذلك ، فكذبهم حين روى الرواة ما لا يعجبه ، وحين روى ما يؤذيه ، وفعل ذلك أيضاً فصدقهم ، حين روى ما يروقه وحين روى ما يرضيه ، فإن الذين روى أخبار عبد الله بن سبأ اليهودى روى أخبار الكتاب بقتل وفد مصر فلم أخذ شيئاً بغير برهان ، ونفى أخاه بغير برهان ؟

والشئى البين هو أن الدكتور أراد كما قال ص ١٣٤ « أن يكبر المسلمين فى صدر الإسلام عن ( أن يعيب بدنيهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء . . إلخ ) وهذا قصد حسن ونية جميلة ، ولكن الحق أحسن منهما وأجمل ، وليس يجمل بنا ولا بالدكتور طه أن يغالط فى الحق لشيء يراه هو ، أو نراه نحن حسناً جميلاً ، والتاريخ لا يكتب بالتحكم وإنما يكتب بالرواية ثم بالاستدلال » أ . هـ .

هذه النقطة هى أخطر ما فى الكتاب وقد أحصى على الكتاب الاعتماد على أحاديث ضعيفة ، اعتبرها المؤلف أساساً لإقامة منهج البحث ، بالإضافة إلى المصدرين المضطربين « طبقات ابن سعد » لابن سعد ، و « أنساب الأشراف » للبلاذرى ، وكلاهما طبعهما أعداء العرب والإسلام أول ما طبع .

كما أخذ على المؤلف خلوها من المراجع ، بل إن طه حسين - وهو يذكر البلاذرى - لم يكن دقيقاً ، فلم يعرف بعضهم هل يقصد كتابه « الفتوح » أم كتابه « الأنساب » . كذلك فقد أخذ على المؤلف اعتماده على مراجع ليست أصيلة فى البحث بل هى ثانوية القيمة ، مع تركه الكتب الهامة فى هذا البحث ، ومنها شرح النهج لابن أبى الحديد ، وتاريخ ابن واضح اليعقوبى ، كما ذكر الأستاذ سعد محمد حسن فى نقده للكتاب .

مع ملاحظة أن كتاب ابن أبى الحديد لا يوثق به ، لأن مؤلفه على مذهب ابن سبأ .

#### ولاية على ( كرم الله وجهه ) ما هى ؟

وقد أخذ على طه حسين اعتماده حديث « مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ » على أنه يعنى خلافة على ، وقد أشار الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن الحافظ البيهقى عن فضيل



ابن مرزوق ، أن الحسن المثني بن الحسن السبط ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قيل له : ألم يقل رسول الله ﷺ : من كنت مولاه فعلى مولاه ، فقال بلى : ولكن والله لم يكن رسول الله ﷺ بذلك الإمارة والسلطان ، ولو أراد ذلك لأفصح لهم به ، فإن رسول الله ﷺ كان أنصح للمسلمين ، ولو كان الأمر كما قيل لقال : يا أيها الناس هذا ولي أمركم والقائم عليكم من بعدى فاسمعوا له وأطيعوا ، والله لئن كان الله ورسوله ﷺ اختار علياً لهذا الأمر ، وجعله القائم للمسلمين من بعده ، ثم ترك ( علي ) أمر الله ورسوله ﷺ لكان عليّ أول من ترك أمر الله ورسوله ﷺ .

ولذلك كان حقاً على الدكتور طه ألا يعتمد على هذا الحديث ، أو يلتزم الأمانة العلمية فيورد رأى أهل السنة فيه وقد قال فى حقه العلامة ابن حزم :

( أما من كنت مولاه فلا يصح من طريق الثقات أصلاً ) « الفصل فى الملل والنحل » ج ٤ ص ١٤٨ .

وقال العلامة ابن خلدون فى أحاديث الشيعة ( لا يعرفها جهابذة السنة ، ولا نقلة الشريعة ، وأكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة ، المقدمة ص ٩٦ طبعة بولاق ١٢٧٤ هـ ) وفى كتاب التمهيد للقاضى أبى بكر الباقلانى ، تمتة شيقة لهذا الموضوع .

وهكذا يتضح جلياً أن المؤلف لم يعن مع الأسف الشديد بدراسة موضوعه دراسة جيدة ( ونقول : أو ربما كان على غرض خفى فى نفسه يهدف إلى تحقيقه ) .

ويشير طه حسين إلى أبى ذر ( رضى الله عنه ) فيقول إنه نفى إلى « الرملة » والصحيح « الريزة » ويقول : ( ولم يطق عثمان رضى الله عنه نفسه معارضة أبى ذر فأخرجه من المدينة ) .

ويقول السيد محب الدين الخطيب رحمه الله ، الصواب فى أمر أبى ذر ما رواه ابن خلدون فى العبر ، أن أبا ذر هو الذى استأذن عثمان فى الخروج من المدينة إلى الريزة وقال : إن رسول الله ﷺ أمرنى أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلماً ، فأذن له ، ونزل الريزة وبنى بها مسجداً ، وأقطعه عثمان صرمة « عدد بين العشرة إلى العشرين » من الإبل ، وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً ، وكان يتعاهد المدينة ، وبين الريزة والمدينة أميال ، وقال ياقوت : وكانت من أجل منزل فى طريق مكة .

وقد حاول الدكتور طه فى دعوى عريضة ، أن يقول : بأن المؤرخين أعرضوا عن ذكر عبد الله بن سبأ لأنهم تبينوا أن أمره متكلف منحول قد اخترع بآخرة ، والمؤلف يرى أن خصوم الشيعة من أهل السنة وغيرهم ، من الذين وضعوا أمر ابن السوداء وتولوا كبره ، ليدخلوا فى أصل الشيعة عناصر يهودية ، إمعاناً فى الكيد لهم والنيل منهم على حد تعبيره . ويرى الباحثون الذين نقضوا كتاب « الفتنة الكبرى » وفى مقدمتهم السيد محب الدين الخطيب ، أن الدكتور طه قد جانب الصواب ، فأى كيد للشيعة فى وجود عناصر يهودية فى بعض فرقها وأهل السنة والشيعة جميعاً يلعنون ابن السوداء ويتبرمون منه ومن جماعته ، وأن ابن أبى الحديد شارح النهج قد أعلن ذلك ، وهو مؤرخ شيعى .

#### وأخرى يكذبها الثقات :

ويحاول الدكتور طه أن ينكر على المؤرخين ، تأليه ابن السوداء لعلى بن أبى طالب ، مع أن هذه حقيقة لا يدفعها شك ، رواها رجال أثبات من السنيين والشيعة وغيرهما ، منهم الشهرستاني فى الملل ، ابن حزم فى الفصل ، عبد القادر البغدادي فى الفرق بين الفرق ، الرسعنى فى مختصر الفرق ، الإسفرايينى فى التبصير فى الدين ، ابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث ، ابن قيم الجوزية فى الطرق الحكمية ، وغيرهم كثيرون ، أما دعوى الدكتور بأن خصوم الشيعة دسوا عليهم ابن سبأ ، فهى تدل على قلة اطلاعه على كتب الشيعة قديمها وحديثها ؟

#### ( ٢ ) طه حسين ومستقبل الثقافة :

أثار كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى أصدره الدكتور طه حسين ١٩٣٨ ضجة كبرى ومعارك متعددة فقد كان بمثابة « المنافستو الاستعماري » الذى يجب أن يطبق على مصر ، بعد أن انتهت الامتيازات .

فالدكتور طه ينذر فيه المصريين بأنهم التزموا أمام أوروبا أن يذهبوا مذهبها فى الحكم وأن يسيروا سيرتها فى الإدارة وأن يسلكوا طريقها فى التشريع ، ويهددهم بأنهم لا يستطيعون التراجع عن ذلك ، بعد أن وقّعوا معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات وفيها مواد صريحة قاطعة تفرض على المصريين هذه التبعية التى يسميها « السير سيرة الأوربيين فى الحكم ، والإدارة والتشريع » ، ويقول :

« فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحى النظم العتيقة ( ويقصد بالنظم العتيقة الشريعة الإسلامية ) لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ، ولوجدنا أمامنا عقبات لا تجتاز ولا تذلل » .

#### معالم الطريق :

وإذا سألنا عن الطريق الذى يرسمه لنا مستقبل الثقافة لوجدناه واضحاً فى عبارته التى تقول :

« إن سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع » .

هذا هو الأسلوب الذى يريد فرضه النفوذ الاستعماري عن طريق ( مانفيسستو طه حسين ) الذى قدمه أول الأمر إلى كبار المسئولين بعد توقيع المعاهدة عشية عودته من رحلة الصيف إلى فرنسا فى ذلك العام ، والمعروف أنه كان لفرنسا عدد كبير من مدارس الإرساليات فى مصر ، وأنها كانت حريصة على أن تستمر عملية التبشير التى تتم عن طريقها فى حماية النفوذ الإنجليزى الذى وافق على ذلك بعد إلغاء الامتيازات .

وترجع خطورة الكتاب إلى أن صاحبه كتبه وبناه على خطة واضحة فى الغرب وأنه ما لبث أن مكن من المنصب ، فولى منصب المستشار الفنى لوزارة المعارف على أثر ذلك مباشرة ، ثم منصب مدير الثقافة بها ، ثم عميداً لكلية الآداب من قبل ومن بعد ، ثم مديراً لجامعة الإسكندرية ، ثم وزيراً للمعارف على التوالى .

وقد مكنته هذه المناصب من عام ١٩٣٨ إلى ١٩٥٢ من تنفيذ برامجهِ وإرساء أسس هذه الخطة التى وضعها فى كتابه خلال أربعة عشر عاماً ، وبذلك تركز منهج التغريب فى جميع برامج التعليم فى الثانوى والجامعة على أساس الغزو الثقافى الذى أراد النفوذ الأجنبى به تعويض ما فقدته من الأرض بإلغاء الامتيازات الأجنبية وسيطرتها على الإرساليات التعليمية ، فقد انقلبت هذه المناهج من المدارس الأجنبية إلى المدارس المصرية بهدف القضاء على معالم الشخصية الإسلامية فى :

١ - أنظمة التعليم في الأزهر .

٢ - اعتبارات مصر الإسلامية .

٣ - مقومات الكيان الإسلامي .

٤ - أثر الإسلام في ثقافة مصر وتفكيرها فقد وقفت فرنسا ضد توقيع اتفاق مونتريو سنة ١٩٣٧ لإلغاء الامتيازات ما لم تتأكد من أن خطتها في التغريب في مصر ستظل محررة .

وفي هذه اللحظات الحاسمة أهدى طه حسين وشاحاً كبيراً من جامعة ليون التي تعلم فيها وعاد وهو يحمل معه أصول هذا الكتاب ، وبعد أن كانت المعركة تدار عن طريق آراء المستشرقين أمثال جب وماسينيون والمبشرين وغيرهم أمثال ولكوكس وزويمراً أصبح هناك من الكتاب العرب من يحمل لواء هذه الأفكار ويدعو إليها كمحاولة لتثبيت دعائم التجزئة وخلق ملامح مصطنعة لما يسمى بالفكر المصري المعاصر المنزع عن الفكر الإسلامي .

أولاً : الدعوة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها ، وقطع كل ما يربطها بتقديمتها وإسلامها .

ثانياً : الدعوة إلى إقامة الوطنية وشؤون الحكم على أساس مدني لا دخل فيه للدين أو بعبارة أصرح : دفع مصر إلى طريق ينتهي بها إلى أن تصبح حكومتها لا دينية .

ثالثاً : الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور ودفعها إلى طريق ينتهي باللغة الفصحى التي نزل بها القرآن إلى أن تصبح لغة دينية فحسب كالسريانية والقبطية واللاتينية واليونانية .

وتلك أكبر مغالطاته الفاضحة ، حين يريد أن يصور أن العقل المصري نشأ في أحضان الشعوب التي عاشت حول بحر الروم ، وأن علاقات مصر بالغرب أوثق من صلاتها بالشرق ، وتصويره للعرب بأنهم غزاة دخلاء لا يطمعن إليهم المصريون في الوقت الذي يصورهم فيه مطمئنين إلى الفتح اليوناني لا ينكرونه ولا يتمردون عليه ويحاول أن يقول بأن الإسلام لم يخرج بالمصري عن مصريته وأن مصر كانت دائماً جزءاً من أوروبا في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف ألوانها وفروعها ، ويحاول القول بأنه ليس بين

المصريين والأوروبيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج وأنه لا يخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيين .

ويدعى الدكتور طه أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول ، ويدعو إلى أن تكون الحكومة لا دينية وأن يقام التعليم على أساس مدنى خالص وأن يترك تعليم الدين للأسر ، ويتحدث عن الأزهر فيصوره أثراً من مخلفات العهود المتأخرة المنحطة وجل ما يضيقه في الأزهر هو فهمه الإسلامى للوطنية ، ويريد الدكتور أن يدخل في أدمغة أبنائه فهم الوطنية فهماً إقليمياً بمعناه الغربى الحديث ، وأن هذه الصورة العلمانية الغربية يجب أن تدخل الأزهر .

#### مناقشات الآراء والأخطاء البينة :

وقد ناقش هذه الأفكار كثيرون في مقدمتهم ساطع الحصرى وزكى مبارك والشيخ حسن البنا ومحمد محمد حسين وكشفوا عن الأخطاء الآتية :

أولاً : الفروق في الطبع والمزاج من الأمور المشاهدة بين جميع الأمم ، حتى بين الأمم الأوروبية نفسها ، التى تبدو للعيان وكأنها واحدة ، بين الإنجليزى والفرنسى والألماني والإيطالي ، فهل يعقل مع هذا ألا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوروبيين ومزاجهم بوجه من الوجوه ، ومن هنا فإن هناك فارقاً واسعاً وعميقاً بين العقلية المصرية والعقلية الأوروبية على أساس اختلاف الدين والعقيدة واللغة والأخلاق والعادات والتقاليد .

ثانياً : إنه لا علاقة مطلقاً بين مصر وبين الثقافات والحضارات التى تنشأ حول بحر الروم ، فمصر منذ وقت بعيد مرتبطة بالإسلام والعرب وكل قضاياها عربية إسلامية .

ثالثاً : أن تأثير وحدة الدين ووحدة اللغة في تكوين الدول قائم ، وقد تحقق في الماضى وفى العصر الحديث قيام الدول على أساس وحدة اللغة ووحدة الدين وليس معنى هذا أنها من خصائص القرون الوسطى ، بل إن وحدة اللغة هى من القوى الفعالة في تكوين الدول وتوجيه السياسات وكذلك وحدة الدين .

رابعاً : إن الكاتب لم يلتفت إلى أهم الفروق الموجودة بين الشرق والغرب وهى التى نشاهدها من وجهة نظم الأسرة وأوضاع المرأة والأوصاف النفسية - الخلقية والعقلية - التى تتبع تلك النظم والأوضاع .

وقال الدكتور زكي مبارك قلت يا دكتور أن عقلية مصر عقلية يونانية وفرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية في حين أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهي مؤمنة بالعقيدة الإسلامية ، والأمة التي تقضى ثلاثة عشر قرناً في ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة ذلك الدين ، إن الإسلام رج الشرق رجة أقوى وأعنف من الرجة التي أثارها الفيلسفة اليونانية .

في الحق أن المصريين في حياتهم الإسلامية شغلوا أنفسهم بعلوم اليونان ولكنك وقد جلست في صحن الأزهر كما جلست تعرف أن المصريين لم يتذوقوا تلك العلوم والأزهر لا يزال باقياً .

أنت تعرف فيما تعرف أن قضايا الفقه الإسلامي نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض ، فكان للشافعي مذهب في مصر ومذهب في العراق ، ويعنى ذلك أن العقليات تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظروف الزمان وظروف المكان ، والموجة الإسلامية التي طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين ، والتي قضت أن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد ، هذه الموجة الصائبة لا يمكن أن يقال أنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية ، ولكن ما هي تلك العقلية الإسلامية ؟ هي لون آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال .

وقال الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين : إن الثقافة الواجبة الرعاية في كل بلد متحضر هي الثقافة الشعبية العامة والثقافة المدرسية ذات السياسة المحددة والغرض الواضح ، ولذلك يجب إعطاء الثقافة المصرية طابعها الإسلامي المميز لها .

وإن مصر منذ دخولها الإسلام طائفة مختارة ، فقد كسبت مزاجاً خاصاً لا فكاك لها منه ، وقد ظلت مصر مدة أربعة عشر قرناً إسلامية التاريخ والمجتمع والثقافة ، إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز لتميل بمزاجها إلى الشيوع في جميع الثقافات الأخرى ، ولما كانت التربية الإسلامية على ضوء المنطق وضوء العلم الحديث تشتمل في جميع أحكامها ومنايعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة أصبح لزاماً أن تتخذ سياسة جديدة أساسها هذا المزاج الإسلامي ودعامتها هذه الروح الإسلامية .

والمزاج الإسلامى الفريد قابل لكل تطور ، يحتفل بالعلم ويقدسه ، فالصلاة الإسلامية فريضة واجبة وركن من أركان العبادات ، وهى لم تخرج عن النسق الكامل الذى جاء به الإسلام جملة وتفصيلاً فى تربية الجسد وتربية العقل وتربية الروح وهذه العناصر الثلاثة فى التربية - هى نفسها - ما يصفه العلماء بأنه التربية الكاملة .

والعقلية الإسلامية ذات طابع إسلامى من حيث المزاج والتصور لا فرق فى ذلك بين المتدينين من المصريين وغير المتدينين منهم ، إن مصر بتاريخها الإسلامى الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية ، ولعل تاريخها الحديث ونهضتها الحاضرة بين الأمم التى قامت على دعامة من فكرها الإسلامى وثقافتها الإسلامية خير دليل لمن يريدون الميل بها عن ينبوع الذى استمدت منه مئات السنين مادة قوتها وتماسكها وإشراقها الخاص بين دول الشرق والغرب .

ويدعو طه حسين إلى أن لا تقتصر الدراسات الأدبية فى مدارسنا على الأدب العربى ، بل يجب أن ندرس الآداب الأجنبية وأنها يجب أن تقدم فى لغتهم الوطنية .

ويقول الدكتور محمد محمد حسين : إن كلام المؤلف يلبس ثوب الوطنية والتعصب للغة القومية ، ولكن مقصده الحقيقى الذى يتفق مع مذهبه وهو نشر آداب الغرب وثقافته على أوسع نطاق ، فإن الدول الاستعمارية فى سبيل نشر ثقافتها تترجم وتؤلف باللغة العربية .

وفى جملة الرد على شبهات كتاب مستقبل الثقافة نقول :

أما الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور فإنه يهدف إلى إيجاد مسافات واسعة بين بيان القرآن الكريم وبيان اللغة العربية بما يؤدى بعد أجيال إلى أن يتصل القرآن عن الثقافة العامة ، ويقرأ بواسطة قاموس وتلك هى المؤامرة الخادعة التى يفرضها دعاة الأسلوب العصرى فى الكتابة وفى مقدمتهم طه حسين .

كذلك فإن الدكتور طه كان يدعو فى هذا الوقت الباكر إلى العلمانية وإلى القضاء على الشريعة الإسلامية بالقانون الوضعى وإلى القضاء على الوحدة الإسلامية بالدعوة إلى الإقليمية والقومية الغربية .

أما تقبل الحضارة الغربية خيرها وشرها وحلوها ومرها ، فإن ذلك يعنى أن ينصهر

المسلمون في الحضارة المعاصرة ، وبذلك يفقدون ميزتهم الخاصة ويصبحون شيئاً لا طابع له ، وبذلك يفقدون رسالتهم ومسئوليتهم وأمانتهم في حمل رسالة الإسلام وإقامة المجتمع الإسلامي وتبليغ الإسلام للعالمين .

### المسلمون لم يقبلوا الفلسفة اليونانية عندما

#### ترجمت ووقفوا لها بالمرصاد جيلاً بعد جيل :

أما دعواه بأن العقل المصرى هو عقل يونانى فإنها من مكر المستشرقين الذين يريدون أن يقولوا بأن المسلمين أخذوا منطق أرسطو في النهضة الأولى ، ومن هنا فلا مانع أن يأخذ المسلمون المعاصرون منطق الغرب الحديث ، علمانيته وإباحيته وماديته .

والحقيقة أن المسلمين لم يقبلوا الفلسفة اليونانية عندما ترجمت ، ورفضوها تماماً ووقفوا لها بالمرصاد جيلاً بعد جيل ، حتى جاء الإمام الغزالي فكشف زيفها ثم كانت طعنة ابن تيمية لها في كتابه عن الرد على منطق أرسطو ، وكانت مواقف الشافعى وابن حنبل كلها مواقف معروفة تؤكد رفض المسلمين للفلسفة اليونانية وكشف زيفها .

وتلك أكذوبة كبيرة من الاستشراق في دعواه العريضة ، بأن المسلمين قبلوا منطق أرسطو ، أو أن المعتزلة كانوا تلاميذ اليونان ، أو ما كان من زيف الفكر الباطنى ، الذى قدمه دعاة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، أمثال الحلاج ، فإن ذلك فكر مرفوض حاول طه حسين وأستاذة ماسينيون دعوة إحيائه بإعادة طبع رسائل إخوان الصفا أو إحياء كتبهم .

ونحن الآن نقف على نفس الثغرة التى وقف عليها هؤلاء الأبرار وقد أعلنت حركة اليقظة الإسلامية رفضها للتبعية للفكر الغربى بشقيه وزيفت مناهجه وكشفت عن سموه وأخطائه وعن تفرد المنهج الإسلامى بالتوحيد الخالص .

وقد كشفت الأبحاث زيف دعاوى طه حسين الذى كان عميلاً للتبشير ومدافعاً عن تبعية مصر للغرب ، فى التشريع والحكم ، بالإشارة إلى بند عن معاهدة مونترو .

ولقد تخطم هذا الاتجاه كله وطه حسين حتى وعاد طه حسين من جديد فى سنواته الأخيرة يحاول أن يتلاءم مع حركة اليقظة ولكن هيهات .



### ( ٣ ) عثمان وعلى وبنوه رضى الله عنهم :

صدر كتاب ( الفتنة الكبرى ) فى جزءين الأول عن عثمان ( رضى الله عنه ) ، والثانى عن ( على وبنيه رضى الله عنهم ) ، وقد استهدف الكتاب إحداث فتنة كبرى حقيقية فى مفاهيم الإسلام ، بإثارة التشكيك والدس ومغالطة الحقائق وإذاعة الروايات الباطلة .

ولقد كان هدف صدور كتاب الفتنة الكبرى واضحاً : وهو إثارة الشبهات حول صحة العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وقيام الحكومة الإسلامية .

فقد رأى الاستشراق أن يطرح أمام هذا « الأزهرى » صاحب الأسلوب الموسيقى الجميل ، شبهات معينة لإذاعتها ، ونصوصاً معينة لعرضها ، وتشكيكات معينة لتقديمها ، فى داخل عرض واسع مرن ، يقدم السموم فى إطار من العبارات البراقة ، والكلمات الرقيقة فتخفى على السذج والبسطاء غايتها .

ولقد كانت هناك مسائل أساسية أريد طرحها ، وإقناع القارئ المسلم بها ، من خلال هذه الكتب المتوالية - بالإضافة إلى الفتنة الكبرى - « مرآة الإسلام » ، والشيخان ، والوعد الحق » ، ولكنها برزت بصورة واضحة فى كتاب الفتنة الكبرى وهى :

أولاً : وهو العمل الهام الخطير ، الذى برز فى مختلف هذه الكتابات واستغرق أغلب الكتابات انتقاص الصحابة والتشنيع عليهم ، وإثارة الشبهات حولهم ، وتصويرهم بصورة السياسيين العصريين المحترفين .

ثانياً : انتقاص الشيخين أبى بكر وعمر ( رضى الله عنهما ) والافتراء على عائشة وظلم عثمان ، والافتراء على أصحاب بيعة الرضوان - عليهم رضوان الله أجمعين - .

ثالثاً : التشكيك فى نظام الحكم الإسلامى فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . رابعاً : التشكيك فى الدور الذى قام به عبد الله بن سبأ بالادعاء بأنه يهودى ضعيف ، لا يستطيع أن يحدث كل هذا الأثر ، أو التشكيك فى وجوده إطلاقاً .

\* \* \* \*

## أولاً : انتقاص الصحابة الكرام :

كان الهدف واضحاً من انتقاص طه حسين للصحابة الكرام ، وهو هدم هذا الصرح الإسلامي الذي تقوم عليه السنة والتاريخ وسير الغزوات والحياة الإسلامية ، في عصر الخلفاء الراشدين وما بعدهم ، وقد أطلق لسانه فيهم جميعاً - كما يقول الأستاذ النايف - يغمز بهم ويجرحهم في أمور ، ويكشف عنهم تلك الكرامة التي أمدتهم بها الإسلام والقرآن والرسول ﷺ .

قال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ [ سورة التوبة : الآية ١٠٠ ] .  
ويقول ﷺ : « لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي ، لَا تَسْبُوا أَصْحَابِي ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا أَدْرَكَ مَذَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ » روه مسلم .  
وقال رسول الله ﷺ : « أَصْحَابِي كَالنَّجْمِ بَأْيَهُمْ اقْتَدَيْتُمْ اهْتَدَيْتُمْ » .  
هذه الكرامة التي أمدتهم بها الإسلام ، أراد طه حسين أن يهدمها ، وأن يسخر منها ، وأن يفسدها بالذس والفتنة .

فهو يكتب عنهم مصوراً إياهم وقد عادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى ، ويحاول أن يصور معركة الجمل ، وكأنها معركة جاهلية بين بنى هاشم وبنى أمية ، ويتحامل على ( بنى أمية ) ، فيدعى أنهم من الطلقاء الذين دخلوا الإسلام ، وقد غلبوا على أمرهم ، ثم عادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى ، ويحكم بأن من الذين عادوا إلى جاهليتهم مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وعبد الله بن أبي السرح ، ومن الذين يحكمون أهواءهم ومصالحتهم في وضع قريب من الجاهلية : عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهم أجمعين .

وقد اتهم عمرأ بن العاص ، بأنه بدد خراج مصر ، وأنه كان يكره بيعة على كرم الله وجهه ، لأنه لا ينتظر من هذه البيعة منفعة ولا ولاية ولا مشاركة في الحكم ، ولهذا انضم إلى معاوية .

وكان ابنه ( عبد الله بن عمرو ) ، يرى أن أباه باع دينه بثمن قليل ، وقد وصف طه حسين عمرأ بن العاص مع معاوية رضى الله عنهما بقوله : « وهنا ظهر عمرو بن العاص ، الذي لم يكن أقل دهاء ، ولا أدنى مكرراً ولا أهون كيداً من معاوية » .

وتصل به دعواه وجرائه في الباطل أن يقول : أن مروان بن الحكم ، هو الذي قتل طلحة في موقعة الجمل ، مع أنهما كانا يحاربان في صف واحد .

ويصور معاوية ، وقد عاد إلى جاهليته في موقفه من أبي ذر ، فيقول : « وقد ضاق معاوية برجل عظيم الخطر من أصحاب النبي ﷺ ، هو أبو ذر ، ولم يستطع أن يبطش به لمكانه من رضى رسول الله ﷺ عنه ، وإشاره إياه ولسابته في الإسلام ، ولم يستطع أن يفتنه عن دينه بالمال .

#### ثانياً : انتقص الشيخين الكريمين :

١ - كذلك فقد حرص طه حسين على انتقاص الشيخين ( أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ) بالباطل ، ووصف عمر بن الخطاب في غير موضع بالبطش ، وقال إنه لم يمت حتى ملته قريش ، وانتقد أبا بكر في أنه حصر الخلافة في قريش ، وقال إن عمر كان يعارضه لذلك ، حتى قال : لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لولاه عمر عند وفاته ، وهو ليس من قريش .

٢ - سب الصحابة واحداً واحداً - رضوان الله عليهم - ولم يترك أحداً منهم دون أن يصنع له المقالب والاتهامات ، ثم وصفهم جميعاً بالنفاق .

قال : « وكان الذين يعودون منهم إلى المدينة يلقون عمر ، فيتكلمون التجميل بسيرته ، ويحتالون في ألا يظهر على دقائق أحدهم وحقائقه ، يلقونه مظهرين الشطف وغلظة الحياة وخشونة العيش ، ليرضى عنهم ويطمئن ، فإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو خلا بعضهم إلى بعض ، أخذوا بما ألقوا من لين الحياة ، وأشفقوا على عمر من حياته الخشنة تلك ، في كثير من الإكبار له والإعجاب به » ، ووصف ( عمرواً ) بأنه ماكر أهل الشام وداهيتهم ، وأن الأشعث بن قيس ، هو ماكر أهل العراق وداهيتهم .

٣ - الافتراء : وافترى على أصحاب بيعة الرضوان ، وفي مقدمتهم ( الزبير وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنهما ) ، فقد اتهمهما بالتنافس من غير وفاق ، وصور طلحة بن عبيد الله بصورة غير لائقة ، ووصفه بأنه كان يبحث عن الثراء من أى طريق ، وأن ذلك دفعه إلى مبايعة عثمان ، ثم كان من المؤلبيين عليه والمشاركين في حصاره ، وأنه بايع علياً ونكث البيعة .

هذا والزبير ، هو الذى قال عنه النبي ﷺ : « لكل نبي حواري وحواري الزبير » .

وطلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة .

٤ - افترى على السيدة عائشة ( رضى الله عنها ) ، افتراء واسعاً ، فقد تحدث طويلاً عن أنها كانت تخطب الناس وهي على جملها ، وتعرضهم على القتال ، فى خيال ودعاوى باطلة ، فهي لم تخرج إلى قتال .

وما يتصل بخبر ( الجواب ) ، قال الذهبى وابن حجر فى روايتها أنه مجهول فلم تصل عائشة ( الجواب ) ، ولا اضطر عبد الله بن الزبير أن يأتى بخمسين شاهداً ليشهدوا كذباً بأن المكان ليس ( الجواب ) .

ومن دسه الرخيص ، قوله أن السيدة عائشة ( رضى الله عنها ) كانت تنكر على ( على كرم الله وجهه ) ، أنه تزوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، ورزق منها الحسن والحسين ، فكان أباً للذرية الباقية للنبي ﷺ ، ولم يتح لها هى ، الولد من الرسول ﷺ ، مع أنه أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم ، أواخر أيام النبي ﷺ ، وقال : « إن هذا العقم كان يؤذيها فى نفسها بعض الشيء » .

وأمر آخر كانت تجده على سيدنا على ( رضى الله عنه ) فيما روى طه حسين كاذباً ، أنه تزوج أسماء الخنعمية بعد وفاة أبى بكر رحمه الله ، وأسماء هى أم محمد بن أبى بكر ، الذى نشأ فى حجر على ، فكانت تجد على على لهذا كله .

أى دس رخيص هذا وأى مقاييس تلك التى وضعها له المستشرقون ، وأما أهل السيرة فهم منه براء .

ولقد كان نصيب الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ( رضى الله عنه ) من تحامل الدكتور طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى ، كبيراً فقد بدأ هجومه عليه - كما يقول الدكتور إبراهيم شعوط - بعبارات لا يليق توجيهها لأى إنسان له منزلة مثل منزلة ابن عباس ( رضى الله عنهما ) فقد اتهمه بنهب أموال المسلمين فى البصرة ، كما اتهمه بالغدر لابن عمه على بن أبى طالب ( كرم الله وجهه ) ، وذكر أنه هرب الأموال المسروقة إلى مكة ، وفوق ذلك فإنه ذكر أن ابن عباس كان يتطلع إلى الانضمام لمعاوية ضد ابن عمه على رضى الله عنهم أجمعين .

ويقول طه حسين : إن المؤرخين تخرجوا من ذكر هذه الوقائع المدعاة وأن فى ذلك

ما يكشف نيات المؤلف وبسفه رأيه ، لأنه إذا كان رجال الحديث - وهم المصدر الموثوق في كل ما يروى عنهم - لم يذكروا شيئاً من ذلك، وكذلك كتب التراجم للمؤرخين الثقات، فمن أين جاءت هذه الأخبار للمؤرخين الذين اعتمد عليهم طه حسين ، فضرب بكلام المحدثين عرض الحائط ، وظل في تخطيطه هكذا حتى يصل إلى هدفه ، ليحط من مقام ابن عباس (رضي الله عنهما) الذي اعترف له - دون أن يشعر - بأن مكانته من النبي ﷺ ، ومكانته من الفقه والدين ، أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الإمام .

قال الدكتور شعوط : « إذا قرأنا ما يكتبه خصوم الإسلام ، من اليهود والمسيحيين والشيعيين ، نقرؤه بحذر ، والحذر أصل من أصول البحث التاريخي أما إذا كتب المسلمون عن الإسلام فإننا نكتفي بأن الكاتب مسلم ، وقد يكون المسلم هذا أشد خطراً على الإسلام من كل خصومه » .

ومتى نبت الشك في عقيدة المسلم ، وسبقت له جرأة على الأصول المقررة في الإسلام ، فإننا يجب أن نضعه فيما يسمى ( القائمة السوداء ) ، ونقرأ ما كتب بكل دقة وحذر .

إن قضيتنا هي جرأة الدكتور طه حسين على ما هو أعظم ، على تهجمه على مقام رسول الله ﷺ ، حيث جعل من نفسه قاضياً يصدر الأحكام على سيد الخلق ﷺ المعصوم من كل زلة ، ونحن هنا نجد الكاتب قد ترك أدلة البراءة كلها ، سواء منها الصريحة وغير الصريحة ، واعتمد اعتماداً كلياً على أدلة الاتهام مع ضعفها وفساد أسانيدھا .

### ثالثاً : التشكيك في نظام الحكم الإسلامي :

ولعل هذه هي غاية الغايات التي أراد أن يصل إليها الدكتور طه حسين ، حين قال : أنها تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ، وأنها لم تنته إلى غايتها ( ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلى غايتها ، لأنها أجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجرى فيه ، سبق هذا العصر سبقاً عظيماً ) .

ومن خبث عبارته قوله : ( حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبي بكر وعمر أن تنشئ

هذا النظام القديم ، فعات أبو بكر رحمه الله ، ولم يكذب التجربة ، وقتل عمر رحمه الله ، وقد خطا بالتجربة ولكنه لم يرض عنها ) .

ويقول : « إن الناس كانوا يعارضون حكم عمر ولكنهم يخشون سلطانهم ويخافون منه ، والثورة على عثمان دليل على فشل التجربة الإسلامية ، وأن الوقت لم يعد في مصلحة الحكم والخلافة الإسلامية » .

وهو يرد العدل والحرية والمساواة ( في عهد أبي بكر وعمر ) رضى الله عنهما ، إلى مواهب وشخصية الرجلين وليس إلى الإسلام ، ويرى أن جهودهما كانت محدودة .

ويزعم أن الحكم ( أيام الرسول ﷺ ) ليس سماوياً ، وأنه ليس بين الإسلام والنصرانية فرق في هذه الناحية .

ويقول : « كان الحكم أمراً من أمور الناس يقع فيه الخطأ والصواب ، يتاح للناس أن يعرفوا منه وينكروا وأن يرضوا عنه ويسخطوا عليه » ، فهل كان الناس حقاً يسخطون على رسول الله ﷺ !!

وهو يزعم أن الخلافة الراشدة كانت تجربة بشرية ، وليست تطبيقاً للإسلام ، ولا يكتفى إلا بتشبيه نظام الحكم الإسلامي بعد وفاة الرسول ﷺ بنظام الحكم الرومانى أيام الجمهورية .

ويرى أن العنصر الدينى فى النظام الإسلامى زال بعد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) ، ولم يعد له وجود بعد أصحاب رسول الله ﷺ ، وأن أصحاب رسول الله ﷺ اقتتلوا على الدنيا وتنافسوا وتقاتلوا عليها ، وادعى أن هناك أرستقراطية قامت ، قوامها القرب من الرسول ﷺ ، فأصبح الحكم إلى قريش وحدها دون الأنصار ، وأن استئثار قريش بالخلافة جرّ على المسلمين كثيراً من الفتن .

ويعتقد أن نظام الخلافة قد أخفق ، وأن تجربة الحكم الإسلامى انتهت بالفشل ، وأن ( علماً ) لم يحقق وحدة وإنما أخفق نظام الخلافة كله ، وأن هذه الدولة الجديدة التى كان يرجى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام ، لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها ، فيقوم فيها الحكم على مثل ما كان يقوم من قبل ، من الأثرة والاستعلاء ، ونظام الطبقات الذى تستندل فيه الكثرة الضخمة ، لا من شعب واحد ، بل من شعوب كثيرة لقلة قليلة من الناس .

والحقيقة غير ذلك تماماً ، فإن الإسلام قد استمر قائماً على مصالح المسلمين بالعدل والرحمة ، وظل حكام المسلمين يحكمون كتاب الله ، إلى أن جاء الاستعمار الغربى .

ويرى أن «الأوباش» الذين قتلوا عثمان لم يكونوا مخطئين ، فسياسة عثمان فى العزل والتولية لم تكن ملائمة للعهد الذى أعطاه ، وليس من شك فى أن الذين ضاقوا بهؤلاء العمال ، وثاروا عليهم ونقموا من عثمان توليتهم ، لم يكونوا مخطئين .

وهكذا نجدنا أمام مجموعة ضخمة من السموم والأكاذيب والافتراءات ، التى حشدها الاستشراق على لسان رجل مسلم اسماً ، ليحطموا به تلك الدعوة المنطلقة على ألسنة وأفلام دعاة اليقظة الإسلامية .

وقد تركزت الحملة على نظام «الحكم فى الإسلام» مما صح معه القول بأن كتاب «الفتنة الكبرى» ، إنما هو فتنة كبرى فى الفكر الإسلامى ، لما امتلأ به من التشكيك والفساد ومغالطة الحقائق ، وقد أراد طه حسين من هذا العمل - أو أريد له - إقناع المسلمين بأن الحياة الإسلامية لا وجود لها بعد وفاة الرسول ﷺ ، وإن طبقت فلأمر محدود لا يتجاوز حياة عمر ، فقد عمد إلى تلطيخ صورة الخلافة الوضاعة ، لكى يصرف أبصار الناس عنها ، على حد تعبير الأستاذ «محمد النايف» .

ولكن هل استطاع طه حسين أن يقدم سنداً علمياً أو تاريخياً لكل هذه الافتراءات ، فما هى مصادره فى دعواه ، الحقيقة أن مصدره هو هواه ، وما فطر عليه من غلو وتطرف فى الاعتماد على الروايات الضعيفة ، وعلى كتب الأدب لا روايات الحديث والسير .

#### إن طه حسين يريد أن يقول للمسلمين :

إن النظام الإسلامى قد عجز ، وإن الطريق الصحيح الذى تحقق وما زال مفتوحاً هو النظام العلمانى ، الذى يحل مشكلات الدنيا بالدنيا ، وهو يدعو مسلمى عصره إلى صرف النظر عن التفكير فى النظام الإسلامى وفى الخلافة وأن يبتطلوا السعى إليها ، وأن يرضوا بحكم الديمقراطية الغربية ( حل مسائل الدنيا بوسائل الدنيا ) .

ولكن الحق أكبر من طه حسين ، فقد زيفت الدراسات الإسلامية كل دعاواه

وكشفت الصحوة الإسلامية عن أن نظام الحكم في الإسلام هو الأعلى ، وأنه هو المنطلق الذى لا سبيل غيره لإقامة حياة المسلمين ومجتمعاتهم ، ولو كره الذين حرضوا طه حسين ، وفتحوا له أبواب الشهرة والمناصب والأوسمة ، وقد باء بهذه التبعية الذليلة ، « أن يكون خادماً للفكر الوثنى المادى » ، وأن يستغل هذا الأسلوب الجزل الذى أعطاه الله إياه ودراسته للقرآن ، ليكون حرباً على كلمة الله والقرآن .

وسيطل صحابة رسول الله ﷺ فى مكانهم العظيم الكريم ، وفى ذلك المستوى الذى لن يستطيع الناس أن يبلغوه .

وقد سخر منه كل قارئ مؤمن ، فما كان يستطيع طه حسين ، أن ينال من هذه الأسماء الكريمة مهما ذهب فى الدس والتزييف (١) .

\* \* \* \*

---

( ١ ) تناول هذه الكتب بالدراسة عدد من الباحثين ، فى مقدمتهم الأساتذة : غازى التوبة فى كتابه « الفكر الإسلامى » ، محمد النائف فى دراسته المطولة « دراسات فى السيرة » كما عرض لها الدكتور إبراهيم شعوط والدكتور محمد البهى ، والأستاذ محمد عمر توفيق فى كتابه الرد على « الشيخان » .



#### ( ٤ ) الشيخان ومرآة الإسلام والوعد الحق :

\* طه حسين اتخذ من الشيخين ستاراً ليعيث في تاريخ أمتنا الإسلامية ويطعن بالرواة الثقة وبالتاليين .

\* لم يستطع طه حسين أن يتخلى عن عاطفته نحو الملحدين والمتأمرين فدافع عنهم وعن قتلة عثمان « رضى الله عنه » ووضع نفسه مع رجال ابن سبأ .

يمضى الدكتور طه حسين فى كتبه هذه على نفس النمط الذى سار عليه فى كتاب الفتنة الكبرى وهى مجموعة أحقاد ووصايا تبشيرية واستشراقية موجهة ومدروسة ، يضعها فى قلب هذه الدراسات لإثارة الشكوك حول تاريخ الإسلام والخلافة وصحابة النبى ﷺ . وقد مهد لكتاب ( الشيخان ) بمقدمة خطيرة أعلن فيها مذهب الشك الفلسفى بوضوح .

فقد أعلن أنه يشك ( أعظم الشك ) فيما روى عن هذه الأحداث التى تناقلتها الكتب عن حياة أبى بكر وعمر ( رضى الله عنهما ) ، وهما الشيخان حيث يقول : « وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث ، وأكاد أقطع بأن ما كتب القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظميين ، وعن تاريخ العصر القصير الذى وليا فيه أمور المسلمين ، أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث التى كانت فى أيامها . وإن كان من الحق أن النبى ﷺ نفسه قد كذب الناس عليه ، وكان كثير من هذا الكذب مصدره الإكبار والتقديس ، فلا غرابة فى أن يكون إكبار صاحبيه العظميين وتقديسهما مصدران من مصادر الكذب عليهما أيضاً » .

ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول : « إن الذين رووا التاريخ الإسلامى هم المنتصرون وحدهم بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم ، وإنما نقلت إليهم أنباؤه نقلاً ، أقل ما يمكن أن يوصف به أنه لم يكن نقلاً دقيقاً ، وهم لم يسمعو أنباء هذا

الانتصار من المنهزمين من قريش والروم وأمم أخرى شاركتهم في الحرب وشاركتهم في الهزيمة ، فهم سمعوا صوتاً واحداً ، هو الصوت العربي ، وأيسر ما يجب على المؤرخ المحقق أن يسمع أو يقرأ ما تحدث به أو كتبه المنهزمون والمنصرون معاً . وهكذا تطوع طه حسين ( كما يقول الأستاذ محمد الناي في بحثه المستفيض عن السيرة ) للدفاع عن المنهزمين من علوج الرومان ، ليكون لسان حاله مطعوناً بعدالته ، محكوماً عليه بالكذب ، لا يعرف طعم الأمانة ، ويأبى الطريق الذي يوصله إلى الحقيقة . ومن المقدمة وحدها نعلم أن طه حسين اتخذ من الشيخين ( رضى الله عنهما ) ثقة وستاراً ، ليعبث في تاريخ أمتنا الإسلامية ويطعن بالرواة الثقة من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين وتابعي التابعين وينكر أحاديث متفقاً على صحتها . ويمضى طه حسين في كتابه على غرار ما ذهب إليه في المقدمة مشككاً بالرواية والراوى ويتكرر هذا الأسلوب في كل حادثة من الحوادث .

١ - الطعن في حادث السقيفة :

يقول : « ولست أطمئن إلى أكثر ما يرويه الرواة من نصوص الحوار الذى كان بين أبى بكر وصاحبيه من جهة ، وبين الأنصار ( أوسهم وخزرجهم )<sup>(١)</sup> من جهة أخرى .

٢ - الطعن في الحديث الذى روى عن العباس وعلى ( رضى الله عنهما ) ، من أن العباس عرف الموت فى وجه النبى - ﷺ - والغريب أن الطبرى يروى هذا الحديث من طريقين دون أن ينكر فيهما شيئاً .

هذا الحديث رواه أيضاً البخارى فى كتاب المغازى فى صحيحه ، ونقله ابن كثير فى البداية والنهاية ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده ، ولعل طه يعلم رواة هذا الحديث ولكنه أراد التشكيك .

٣ - تشكيكه فى استسقاء عمر بالعباس ( رضى الله عنهما ) مع أن الحديث رواه البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه ، أن عمر خرج يستسقى وخرج بالعباس يستسقى به ، ورواه ابن كثير فى البداية والنهاية ، وشيخ الإسلام ابن تيمية فى رسالة التوسل والوسيلة .

٤ - تشكيكه فى أن يكون عمر قد راجع أبا بكر ( رضى الله عنهما ) معترضاً على

( ١ ) الأوس والخزرج : قبيلتان من قبائل الأنصار .

حرب المرتدين ، مع أن مراجعة عمر لأبي بكر صحيحة رواها الجماعة في كتبهم ، سوى ابن ماجه ، أى رواها البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .  
وفى جميع هذ الحوادث التى ينكرها طه حسين لا يعتمد على سند علمى صحيح ، وإنما على عقله الذى وصفه فى بعض المواضع بالتناقض والضعف والاضطراب .

#### محاولة لنسف التاريخ :

ولأن طه حسين يعلم أن التشكيك برواة التاريخ الإسلامى الأعلام العدول ، محاولة لنسف التاريخ من أصله ، لأجل هذا فهو يناسبهم العداء ، ويصدر أى خبر لهم بقوله ( ويزعم الرواة ) وكلمة يزعم تقال للخبر المشكوك فيه .

وأخيراً يستخدم العصبية الجاهلية ، فإن أكثرهم موالى يكرهون العرب حسب زعمه دون أن يذكر أسماءهم ، ومعظم الرواة من غير العرب وفى مقدمتهم ناصر السنة الإمام البخارى .

بل إنه يصف هؤلاء الرواة بأن قلوبهم لم تبرأ من الضغن على العرب لأنهم فتحوا بلادهم .

ونحن نعلم أن الله تبارك وتعالى قد طهر قلوب العلماء الأبرار الذين صاغهم الإسلام فى بوتقته ، وأخرجهم من هذه العصبية وهذه العنصرية التى لم يعرفها المسلمون ، إلا حين أيقظها الشعوبيون بعد ذلك .

#### ٥ - ولوغة فى أعراض الصحابة :

وقد شارك طه حسين كثيراً من المستشرقين المتعصبين فى تجريح أصحاب رسول الله ﷺ ، فلمز<sup>(١)</sup> أبا هريرة ( رضى الله عنه ) ، وسعد بن أبى وقاص ( رضى الله عنه ) ، وتحامل على معاوية ( رضى الله عنه ) ، وأوغل فى عرض سيف الله خالد بن الوليد ، ووجد فى القصص التى اختلقها الوضعاء من أعداء الله عبر التاريخ الإسلامى ذريعة للطعن بأعظم قائد عرفته المعارك بعد رسول الله ﷺ .

ويذكر قتل خالد لمالك بن نويرة ، واستدعاء أبى بكر ( رضى الله عنه ) له ، ثم يعقب بأن : هذه الواقعة تبين ما أسماه (عنف خالد وإسرافه فى القتل) وأنها تظهر عن خلق آخر ، هو جبه للتزوج ، وخلق آخر معروف فى عشيرته من بنى مخزوم ، وهو العجب والخيلاء .

( ١ ) اللمز : العيب فى الناس والظعن فيهم .

وما زال يتناول على سيف الله خالد ( رضى الله عنه ) ، حتى جاء بأسطورة لم يشهدها تاريخ الفتوحات الإسلامية ، وقد ترفع المستشرقون عن نقلها ، وهي ادعاؤه أن خالداً قد أجرى ماء النهر بدمائهم ، وقد أثبت طه حسين هذه الرواية التي لا سند لها ، بينما أنكر الروايات الموثقة التي رواها البخارى ( رضى الله عنه ) .

وهو يهدف من ذلك إلى تصوير الفتوحات الإسلامية وقواد المسلمين بالهمجية ، ولم يثبت سائر الروايات التي اعتذر فيها عمر ( رضى الله عنه ) ، عن عزل خالد ( محمد النايف ، وغازى التوبة ) .

**ثانياً :** ولم يتوقف انتقاد طه حسين للشيوخين في كتابه هذا وحده ، ولكنه تعداه إلى كتبه الأخرى ، فقد وصف عمر بن الخطاب ( رضى الله عنه ) ، في غير موضع بالبطش ، وقال أنه لم يمت حتى ملته قريش . وانتقد أبا بكر ( رضى الله عنه ) ، في أنه حصر الخلافة في قريش وعمر كان يعارضه في ذلك !!

**ثالثاً :** افترى طه حسين على الصحابة وسبهم واحداً واحداً وصنع لهم مثالب ووصفهم بالنفاق ، وهدفه من ذلك إزالة الكرامة عن الصحابة ( رضوان الله عليهم ) وجعلهم في صف السياسيين المخترفين في هذا العصر ، ومن ذلك وصفه عمرو بن العاص ( رضى الله عنه ) بأنه ماكر أهل الشام ، ووصف الأشعث بن قيس بأنه ماكر أهل العراق ، ولا ريب أن الطعن على الصحابة ( رضوان الله عليهم ) يرمى إلى زلزلة الثقة بأهل الثقة . وهو في كل ذلك جرىء - إن صح التعبير - على القرآن والسنة والحديث ، ضعيف المصادر منتحل من كتب الأدب ، وعندما تقرر كتاب « الشيخان » في المعاهد المصرية ، كتب الغيورون يطلبون إلغاء تقريره ، وفي مقدمتهم الأستاذ عبد الحفيظ القرني الذي قال : إن هذا الكتاب عرض هذين الخليفتين العظيمين لموجة من الشك الذي حشى به كتابه ، فترك الشك في قلق وحيرة ، لا يدري أين يضع قدمه بين تلك الأمواج المتدفقة من عباراته ، مثل : أنا أشك ، زعموا ، يزعمون ، أنا غير واثق ، إلى غير ذلك مما يفتح الطريق واسعاً للتخيط والشك والضياع .

وكان الأستاذ محمد عمر توفيق ، قد ألف كتاباً عنوانه ( الشيخان ) رداً على كتاب طه حسين - في إبان حياته - وقال :

إن طه حسين يتجافى منهج أهل الحديث في اعتماده على أحاديث مشكوك فيها ،  
لإثارة الشبهات عامداً ، وقال : إن أسلوبه الخلاب خطير ، لأنه يخفى وجه الحق فلا يتنبه  
قراء كتابه فيضلون ، وأن الناس قد تخفى عليهم وجوه الخطأ والصواب في كتاب مثله ،  
وقد يغريهم اسم المؤلف بتصديق كل ما يقول ، وإن طه حسين خدع قراءه في أول كتابه  
بإظهار حبه للشيخين ، وشعوره بالتقصير في حقهما ، لأنه لم يشارك في الحديث عنهما  
من قبل .

وقال المؤلف : إن طه حسين قد شكك في القدماء والروايات الإسلامية القديمة ،  
ولكن لم يتجاوزها إلى المستشرقين - الذين هم عنده موضع الإجلال - دون أن يكون لديه  
ميزان دقيق في هذه الأحكام الجائرة .

ويعرض الأستاذ عبد العظيم الديب لنص مسموم من كتاب طه حسين : ( الشيخان )  
يقول : وكان حظ الكوفة من سواد العراق وما فتح من أرض الفرس أعظم من حظ البصرة ،  
وكان أهل البصرة يطعمون في أن يوسعوا رقعتهم ويكثروا من الفتوح ، لتتاح لهم من  
الغنائم وسعة الفىء ، إلى ما كانوا يؤمنون به من فضل الجهاد والغزو في سبيل الله .

حتى قال الأحنف بن قيس ذات يوم لعمر ( رضى الله عنهما ) :

إن عيشنا أضيق من عيش إخواننا بالكوفة ، وإننا لن نأمن الفرس ، وما زال الإلحاح  
حتى أذن عمر ، فاندفع أهل البصرة حتى بلغوا من الفتح ما أرادوا .

وهكذا يروى الخبر بصيغة الجزم والقطع ( حتى قال أحنف بن قيس ) ولا يكلف  
نفسه أن يأتي بصيغة تخفف من هذا التأكيد مثل ( روى ) ونحوها ثم انظر قوله ( أهل  
البصرة يطعمون في أن يوسعوا رقعتهم ويكثروا من الفتوح ليتاح لهم من الغنائم وسعة  
الفىء ) وانظر ( إن عيشنا أضيق من عيش إخواننا بالكوفة ) .

هذا الفهم وهذا التفسير لا يكون إلا من نقص الإدراك ، وبالتالي من نقص الاستجابة  
للأحداث ، ولو كان لدى طه حسين الإدراك الكامل السليم ، لأدرك الروح التي كانت  
تتحكم هؤلاء الأبطال ، ولعلم أن هذه الحكاية أولى بكل أدوات الشك التي بعثها في  
كتابه ، ولأدرك أن هؤلاء هم الذين تربوا في مدرسة محمد ﷺ وعوا قوله : « من قاتل

لتكون كلمة الله هي العليا فذلك في سبيل الله » فما بال القتال في سبيل الغنائم والمال الذي يبعد المجاهد عن سبيل الله .

ولو وعى - طه حسين - أبسط الحقائق النفسية ، لأدرك أن من يقا تل في سبيل الغنائم لا يدوم له النصر ، ذلك أنه يكون معلق القلب بما خلفه وراءه من مال ، وبما يغيته من أبدى عدوه ، ومثل ذلك لا يدوم له نصر وإن كسب المعركة أو أكثر .

ولعمري إذا كان المستأذن الأحنف بن قيس أحلم العرب ، وكان الآذن عمر بن الخطاب ( رضى الله عنهما ) الذى كان يكره الحرب ويتمنى أن لا يلجأ إليها ويكره عليها .

إذا كان الأمر كذلك ، فما يبقى للمسلمين والإسلام ، ولكن الدكتور عميد الأدب العربى ، المباهى دائماً بأنه ربيب الثقافة الغربية ، والمتبرك دائماً بالثقافة الإغريقية ، فانه أن يدرك وأن يستجيب لأحداث تاريخ الإسلام كما يجب أن يكون الإدراك والاستجابة .

وهكذا نجد أصولاً عامة مشتركة فى كل كتب طه حسين الإسلامية :

أولاً : ظلم عثمان واستنقاص الصحابة ( رضوان الله عليهم ) والافتراء على السيدة عائشة ( رضى الله عنها ) .

ثانياً : محاولة الغض من شأن الخلافة الإسلامية ، والقول بأن تجربتها فى أيام أبى بكر وعمر ( رضى الله عنهما ) قد انتهت إلى الفشل :

ثالثاً : متابعة المستشرقين فى شبهاتهم ، وإثارة جو من الانتقاص للسيرة والتاريخ الإسلامى .

رابعاً : تكذيب الروايات التى وردت فى صحيح البخارى وكتب السنة .

#### وفى كتاب الوعد الحق :

أولاً : يطيل الحديث فى كتابه ( الوعد الحق ) عن ظلم عثمان ( رضى الله عنه ) وطغيانه ، وأنه ما زال يضرب ابن مسعود ( رضى الله عنه ) حتى كسر ضلعه ، وأشبع عمار بن ياسر ( رضى الله عنه ) ضرباً ، حتى أصابه الفتق ، وغشى عليه ، وفاته صلوات الظهر والعصر والمغرب ( ص ١٧٠ ) .

والرواية على هذه الصورة لا صحة لها ، وأن خلافا عثمان مع ابن مسعود ( رضى الله عنهما ) على المصحف كان بدون ضرب والحق فى ذلك مع عثمان ( رضى الله عنه ) ، وخلافا عمار مع عثمان ( رضى الله عنهما ) لم يتجاوز العتاب ، كما يقول ابن عساكر فى تاريخه .

ثانيا : يؤمن بأن بنى أمية فى عهد عثمان حكموا حكماً جاهلياً بعيداً عن الإسلام ، وأن عثمان ( رضى الله عنه ) نكث عن بيعته لعبد الرحمن بن عوف ، وانحرف عن طريق صاحبيه .

وفى كتاب مرآة الإسلام :

يمضى طه حسين فى كتابه حتى الربع الأخير فيه ، دون أن يثير شبهة ، ثم تبدأ الشبهات وتتوالى ، وهذا أسلوب مآكر من أساليب الاستشراق ، وفى هذه الصفحات الأخيرة تتوالى عباراته الجارحة للصحابة ( رضوان الله عليهم ) وتكذيب الأحاديث الصحاح .

ويركز طه حسين فى هذا الكتاب على خصوم الإسلام الذين تأمروا عليه من أمثال الزنادقة فى عهد المهدي ، والحلاج ، فيدافع عنهم ويهاجم الخليفة المهدي فى صنيعه بالزنادقة ، ويصف قتل الحلاج بالغلو ، ويحاول أن يعمم هذا فيتحدث عن ابن رشد وابن حزم ، ويذكرى المعتزلة القائلين بخلق القرآن .

وقد تجاهل طه حسين أن الحلاج اتخذ بيتاً ليطوف الناس به ، بدلاً من أن يذهبوا إلى البيت الحرام فى مكة ، وأنه كان من دعاة الحلول - حلول الله جل وتعالى عن ذلك - فى البشر .

بل أنه يدافع عن قتلة عثمان ( رضى الله عنه ) ويرى أن الذين ثاروا عليه لم يكونوا مخطئين وبذلك يضع نفسه فى صف رجال عبد الله بن سبأ الذى شكك فيه فى كتاب الفتنة الكبرى .

بل أنه يذهب إلى أبعد من ذلك فى مغايطة المسلمين وتكذب الطريق الصحيح ، ويعتبر أن مؤامرة القرامطة والزنج ، ثورتان إسلاميتان تطلبان العدل والمساواة .

ولا ريب أن طه حسين كما يقول محمد النايف ، لا يستطيع أن يتخلى عن عاطفته نحو الملحدين ، كالسبئية والزنادقة والقرمطية وثورة الزنج ، ويحشر المرء مع من أحب .

## ( ٥ ) فلسفة ابن خلدون :

\* كثيرون كشفوا زيف طه حسين .

\* طه حسين لم يدرس مقدمة ابن خلدون ولم يلاحظ تطورات علم

الاجتماع وكان يتمسك برأى واحد من الآراء المتضاربة !

كان كتاب فلسفة ابن خلدون الاجتماعية بمثابة أطروحة الدكتور طه حسين ، التي تقدم بها إلى جامعة السربون ، بإشراف أساتذته المشرقين : دوركايم ، وليفي بريل ( اليهوديان ) وكازانوف ، وقد كتبها بالفرنسية وترجمها الأستاذ محمد عبد الله عنان ، وكانت أول صيغة من شرقى ، لانتقاص هذا العملاق الذى أشاد به علماء الشرق والغرب والذين أجمعت الآراء على أنه منشئ علوم التاريخ والاجتماع والاقتصاد بشهادة علماء الغرب أنفسهم ( قدم الرسالة للحصول على الدكتوراه عام ١٩١٧ م ) .

فماذا فعل الدكتور طه حسين ؟

أولاً : أنكر على ابن خلدون نظريته الاجتماعية ومن رأيه أن ابن خلدون لا يستحق

لقب « اجتماعى » .

ثانياً : شكك فى نشأة ابن خلدون ونسبه العربى .

ثالثاً : نقل آراء دوركايم المؤرخ اليهودى من أتباع النظرية الماركسية وجعلها

أساساً للبحث .

رابعاً : خلط بين المصادر ، ونسب إلى ابن خلدون اعتماده على كتب لم يتبينها .

خامساً : لم يفهم مسائل التاريخ الأساسية وزعم أنه جمع آراءه فى علم الاجتماع من

قضايا التاريخ ، ولم يلاحظ العالم الاجتماعى الواقعى .

سادساً : اتهمه بأن أسلوبه مضمحل جداً ، تكثر فيه العبارات المسجعة والاستعارات .

سابعاً : قال إن طريقة البحث التى لجأ إليها كانت محدودة وناقصة وأنه بقى جاهلاً

بطريقة استنتاج التاريخ من الآثار .



- ثامناً : ادعى أن هناك تناقضاً منطقياً في طريقته في البحث .  
تاسعاً : هاجم أهل المغرب في مقاومتهم للاستعمار الفرنسي .  
عاشراً : اعتمد على المستشرقين ، وجهل المنهج الإسلامي في مراجعة المصادر .

#### كشف الزيف :

وقد ظهرت أبحاث عديدة تكشف زيف طه حسين ، وفساد اتهاماته لعملاق التاريخ « ابن خلدون » في مقدمتهم : الدكتور علي عبد الواحد وافي ، والأستاذ ساطع الحصري ، والسيد محب الدين الخطيب رحمه الله ، والدكتور عمر فروخ .

أما أسلوب ابن خلدون ، فقد وصفه طه حسين بأنه كأسلوب معاصريه مضمحل جداً تكثر فيه العبارات المسجعة والاستعارات والمقامات التي يكثُر فيها التكلف ، وقال وافي : الحقيقة أن هذا الوصف لا يصدق إلا على خطة الكتاب التي لا تستغرق إلا بضعة صفحات ، وهي ليست في الحقيقة جزءاً من المقدمة بل هي ديباجة لكتاب العبر كله وقد تعمد ابن خلدون تعمداً أن يخرج فيها عن طريقته وبصوغها في هذا الأسلوب ، ذلك لأن افتتاحيات الكتب كانت تعد في عصره وسيلة لإظهار البراعة والتمكن من مفردات اللغة ، والقدرة على اللعب بالألفاظ والتراكيب فجاء في عصره في ذلك حتى لا يتهم بالضعف .

وبالنسبة لطريقة البحث التي اعتمدها ابن خلدون ، فقد وصفها طه حسين بأنها كانت محدودة وناقصة ، وقوله : أنه كان يزعم أن المعلومات التاريخية تأتي من الأخبار المكتوبة أو المروية وحدها ، وأنه بقي جاهلاً لطريقة استنتاج التاريخ من الآثار ، قال الدكتور وافي : إن عدم توصل ابن خلدون إلى طريقة معرفة التاريخ من الآثار المادية لا تجرد عمله من صبغته العلمية بوجه من الوجوه ، وإن الأمر الذي يترتب علينا في هذا الصدد ليس أن نبحت فيما إذا كان ابن خلدون قد عرف طرائق البحث في التاريخ أم لم يعرفها ، بل هو أن نبحت فيما إذا كان قد سار على طريقة علمية في الساحة التي لاحظها ، والوسائل التي اهتدى إليها .

وفي مواجهة قول طه حسين عن ابن خلدون ( بوجود تناقض منطقي في طريقته ) يقول الدكتور وافي : لو صح وجود هذا التناقض ، لنفي عن عمل ابن خلدون كل صفة علمية بطبيعة الحال ، غير أن ما يزعم الدكتور في هذا الصدد ، لا ينطبق على آراء

ابن خلدون بوجه من الوجوه ، كما أنه يخالف الحقائق التاريخية والاجتماعية أيضا من كل الوجوه .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافي : يدعى الدكتور طه بأن ابن خلدون يرى أن الوسيلة لدرس المجتمع البشرى هي ملاحظة الوقائع التاريخية ، غير أن ابن خلدون لم يقل أبداً : أن وسيلة دراسة علم العمران المذكورة ، هي درس علم العمران ، مع ملاحظة الوقائع التاريخية بل أنه قال بصراحة تامة إن الوسيلة المذكورة هي درس المجتمعات الحالية والوقائع المشهورة .

لهذا السبب نحن نرى أن طه حسين عندما ادعى بأن ابن خلدون يستند في علم العمران إلى التاريخ قد عزا إليه رأيا لم يقل به أبداً ، وخطة لم يسلكها قطعا ، كما أنه قد تباعد عن الحقيقة تباعداً كلياً عندما توصل من ذلك إلى القول بأن ابن خلدون دخل في مأزق فكري ، ووقع في شباك دور باطل غير منطقي . . ونحن نعتقد بأن رأى ابن خلدون في هذه القصة ، يدل بعكس ذلك على عبقرية فذة ، لأن الرأى المذكور يرفعه إلى مصاف علماء التاريخ والاجتماع الحديثين مباشرة .

ذلك لأن علاقة التاريخ بعلم الاجتماع من المسائل التي اهتم بها العلماء والمفكرون اهتماماً شديداً منذ أوائل القرن الحاضر .

أليس من الغريب أن يعتبر الدكتور طه محاولة ابن خلدون للاستفادة من علم العمران بالتاريخ محاولة فاشلة تنطوي على الدور الباطل والضلال المبين .

ألا يحق لنا أن نقول أن رأى ابن خلدون في وجوب الاستفادة من علم العمران في التاريخ كان من العبقرية ، بعكس ما ذهب إليه طه حسين تماما ؟ إننا نعتقد أن ابن خلدون دل في هذه القضية على بصيرة فائقة وعبقرية خارقة ، إذ ابتدع طريقة جديدة في درس التاريخ وتفسيره ، طريقة لم يقدر أهميتها علماء الغرب ومفكروه إلا بعد مرور مدة تقرب من ستة قرون منذ ابتداع ابن خلدون لها .

ويتحدث الدكتور عبد الواحد وافي عن أن أطروحة طه حسين عن فلسفة ابن خلدون تتميز بأمرين هما :

أولاً : عدم التعمق في درس المقدمة درساً حيادياً .

ثانياً : عدم ملاحظة تطورات علم الاجتماع ملاحظة شاملة وقال : « يظهر أن

الدكتور طه كان يتمسك برأى واحد من الآراء المتضاربة التي قال بها علماء الاجتماع من غير أن يلاحظ أن ذلك الرأي قد يكون مخالفاً لآراء جماعات أخرى من علماء الاجتماع الحديثين ، ومن غير أن يلاحظ أن استحقاق ابن خلدون لقب « العالم الاجتماعي » لا يتبع موافقته أو عدم موافقته للمذهب واحد من مذاهب علم الاجتماع الحديث .

#### مراجع ابن خلدون :

ارتاب طه حسين في رسالته في أن يكون ابن خلدون قد درس في صباه جميع الكتب التي ذكرها ، ويذهب إلى أنه ربما كان لا يعرف من بعض هذه الكتب إلا أسماءها وأنه ذكرها بقصد التمدح والتفاخر .

ويؤكد شكه هذا بما ذكره ابن خلدون عن كتابين منهما وهما مختصر ابن الحاجب في فقه الإمام مالك وكتاب الأغاني ، فيقول في صدد الكتاب الأول : يذكر ابن خلدون أن مختصر ابن الحاجب كان من بين الكتب التي درسها في تونس ويعدده ضمن كتب الفقه المالكي ، مع أن مختصر ابن الحاجب ليس كتاب فقه بل هو كتاب في أصول الفقه وهو مؤلف جم الانتشار ولا يزال يدرس في الأزهر حتى يومنا هذا .

وقال في صدد كتاب الأغاني الشهير ، فإنه في ترجمته يزعم أنه استظهر جزءاً منه ومن ثم فإننا نعتقد أن ابن خلدون لم يعرف منه سوى الاسم .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافي : والحقيقة أن جميع الكتب التي ذكرها ابن خلدون قد أتيح له دراستها دراسة عميقة ، بدليل ما ذكره في الباب السادس في مقدمته ، عن مسائل كل كتاب منها ، ومناهجه وخلاصة آراء مؤلفه وتاريخ تأليفه ، ومدى انتشاره على أنها ليست من الكثرة بحيث لا يتسع لها وقت طالب تفرغ للدراسة تفرغاً كاملاً زهاء خمسة عشر عاماً حتى لو كان طالباً عادياً ، بل طالباً عبقرياً من طراز ابن خلدون .

#### مختصر ابن الحاجب في الفقه وليس في الأصول :

وليس بصحيح ما ذكره طه حسين في صدد مختصر ابن الحاجب ، فالحقيقة أن لابن الحاجب مختصراً مشهوراً في فقه الإمام مالك يسمى المختصر الفقهى أو الفرعى ، وقد عني بشرحه كثير من المغاربة ، وهذا الكتاب هو الذي عناه ابن خلدون ووطن طه حسين عدم وجوده ، أما ما يسمى بالمختصر من مؤلفات ابن الحاجب في أصول الفقه ، وهو الذي

تحدث عنه طه حسين فهو عبارة عن مختصرين اثنين لا مختصر واحد لكتاب الأحكام للآمدي ، ويسمى أوسعهما المختصر الكبير ، واشتهر أصغرهما باسم المختصر أو المختصر الصغير .

والعجيب أن يتهم مثل ابن خلدون وقد كان إماماً في الفقه وقاضى قضاة المالكية في أرقى بلد إسلامي في هذا العهد ، وهو مصر ، وقد تولى تدريس الفقه المالكي في المغرب وفي مصر وفي الأزهر نفسه ، والعجيب أن يتهم رجل هذا شأنه بأنه يجهل ما ألف في هذا المذهب ، وبأنه يتباهى بأنه درس في هذا المذهب مختصراً لا وجود له ، والحقيقة أن ابن خلدون قد قرأ ( كتاب الأغاني ) وحفظ كثيراً من أشعاره بدليل ما نقل من نصوص هذا الكتاب في مقدمته وفي كتاب العبر ، وقد كان الكتاب في مكتبة الناصر الأموي بالأندلس ، هذا إلى أن ابن خلدون قد نقل من كتاب الأغاني في تاريخه العبر عدة نصوص ، ولم يرد في كلام ابن خلدون ما نسبته إليه طه حسين من استحالة الحصول على نسخة من كتاب الأغاني في عصره .

ولعل الدكتور طه قد اعتمد في ذلك على ترجمة فرنسية غير صحيحة للمستشرق روسلان لعبارة وردت في مقدمة ابن خلدون عن كتاب الأغاني وهي قوله ( ولا يعدل بكتاب الأغاني في ذلك في فنون شعر العرب وتاريخهم وأيامهم ، كتاب فيما نعلمه وهو « أى كتاب الأغاني » الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها ) .

فلم يفهم روسلان المترجم الفرنسي معنى عبارة « فأنى له بها » فترجمها إلى « كيف يمكن الحصول على هذا الكتاب » .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافي : إن طه حسين في مستهل حياته العلمية لم يكن علم الاجتماع من فروع تخصصه فخفيت عليه عظمة ابن خلدون وأصالته بحوثه ، ولم يوفق في دراسة معظم النواحي التي عرض لها في الرسالة ، وقد تصدى للرد عليه بشيء من التفصيل ، ساطع الحصري بمقالات جمعها في كتابه : « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » .

يقول ساطع الحصري : مما يؤسف له كل الأسف أن الدكتور طه حسين كان قد كتب هذه الأطروحة المذكورة ، عندما كان حديث عهد بدراسة علم الاجتماع ، فلم يكن

قد أحاط علماً بنظريات علم الاجتماع وتاريخه الإحاطة الكاملة ، ويظهر أنه كان مدفوعاً في الوقت نفسه بروح انتقاد عنيفة حملته على نقد العلماء الغربيين الذين قد بهرتهم « طرافة ابن خلدون » حسب تعبيره وجعلتهم يرون فيه فيلسوفاً حديثاً .

وقد اعتقد جماعة منهم أن ابن خلدون كان أول من أراد أن يجعل من التاريخ علماً ، غير أن الدكتور اندفع في الاعتراض عليهم صائحاً : ابن خلدون لم يفكر في ذلك مطلقاً وقال عن تلقيه بالعالم الاجتماعي : إن ذلك يكون مبالغة كبيرة .

وقد اعترض طه حسين على جماعة العلماء الذين قالوا : إن ابن خلدون سبق المذاهب الحديثة التي ترمى إلى جعل التاريخ علماً لا فناً أدبياً ، وزعم أن طريقة ابن خلدون في التاريخ خاطئة من أساسها .

إن العلماء الذين قالوا : إن ابن خلدون أراد أن يجعل من التاريخ علماً ، بنوا قولهم هذا على ما شاهدوه في المقدمة من الملاحظات والمحاولات التي استهدفت اكتشاف تلك القوانين ، وبيان تلك العلل والأسباب ، لا على معنى واحد من معاني كلمة واحدة ، فمما لا مجال لشك فيه أن « المقدمة » كانت محاولة صريحة لبحث الوقائع التاريخية بحثاً علمياً ، مهما كان حظ المحاولة من النجاح والإصابة ، وهذا يبرز تماماً قول القائلين بأن ابن خلدون كان أول من حاول جعل التاريخ علماً .

وقد أجمعت الأبحاث التي ردت على مفتريات طه حسين نحو ابن خلدون ، بأن عميد الأدب درس ابن خلدون في ضوء نظرية دوركايم المادية التي كانت أساس منهج المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي ترى أن ( اتحاد الجماعة مصدر لعلم الاجتماع ، لا الفرد ) وتقول هذ النظرية بالجبر التاريخي .

والمعروف أن دوركايم كان أستاذ طه حسين في السربون ، والمشرف على رسالته وأنه توفي قبل أن تناقش الرسالة وضاع على الدكتور طه ذلك الاتجاه التبعية المسف ، الذي مضى إليه في اعتناق آراء الكاتب اليهودي ، وأنكر - وهو العربي المسلم - فضل رجل يفخر به كل عربي مسلم ، بل ولقد وجد من علماء الغرب غاية التقدير والإنصاف فأى سبة لظه حسين أكبر من أنه يُلطخ وجه عظيم من عظماء أمتنا في محفل غربي حاقد ، وينتقصه ثم يشاء الله أن لا يبلغ غايته في نفاق الأستاذ المشرف اليهودي .

ولقد كان الحق على ابن خلدون راجعاً إلى أن منهجه استمد من القرآن الكريم وليس من أى مصدر آخر .

ويقرر الدكتور محمد غلاب في مقاله بمجلة النهضة الفكرية ٢٦ أكتوبر ١٩٣١ أن طه حسين تحامل على ابن خلدون ونفى عنه صفة الاجتماعي من أجل إرضاء أعضاء لجنة الامتحان ، الذين كانوا يرون أن ابن خلدون لا يستحق لقب اجتماعي ، فاندفع وراءهم اتقاء شرهم أو قسوتهم ، وقد أشار الباحثون إلى أنه نقل آراء دوركايم عن ابن خلدون واعتبرها أساساً للبحث ودوركايم مؤرخ يهودي من أتباع النظرية الماركسية ورأيه في ابن خلدون مشوب بالتعصب .

وقد اعترف الباحثون الغربيون المنصفون بسبق « ابن خلدون » للفلاسفة الغربيين في وضع أسس الاجتماع والاقتصاد السياسي ، أمثال آدم سميث وأوغست كونت ، وبينهما أربعة قرون كاملة .

وقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس استمده من القرآن الكريم ، وقرر أن الظواهر العمرانية في تراثها وتواليها تحكمها قوانين ، وكانت وسيلته في الدراسة الاستقراء والقياس ، ومن هذه المقدمة بدأت بذور الفكر الاقتصادي مما عده الباحثون من بعد نقطة بدء للمدرسة العلمية في الاقتصاد ، وقد أكد المنصفون من الباحثين أن آراءه لم تكن مجرد جمع لمعارف متنوعة ولكنها جاءت كعمل منظم ومرتب ينطبق عليه لفظ العلم في معناه الدقيق ، وقال سميث في كتابه Ibn Kaldoun, Historian Sociologist and Philosopher إنه مما يطلق عليه لفظ Wissensheft وليس مجرد لفظ wissen وأن البحوث الحديثة وإن كانت تستند إلى وسائل بحث أنجع ، إلا أنها في شكلها وموضوعها مماثلة لبحوثه .

وقال استفانو كولوزيو الإيطالي : إن هذا المؤرخ العربي العظيم اكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيديران ، وماركس ، وباكونين بعدة قرون ، وأن ما يعزوه من شأن كبير إلى دور العمل والأجرة والملكية يجعله إماماً لاقتصادى هذا العصر .

ويقول أرنولد توينبي الفيلسوف والمؤرخ البريطاني : إن ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام قد أدرك وأنشأ « فلسفة التاريخ » وهي بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أى عقل بشرى في أى زمان ومكان .

ويقول سارتون في كتابه مدخل العلم : إنه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل في تفكيره إلى اصطلاح ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخي .

وفى القاهرة حيث عاش ابن خلدون ودفن ، عقد أضخم مؤتمر لابن خلدون عام ١٩٦٢ جمعت أبحاثه فى مجلد ضخـم بلغ ٨٠٠ صفحة يمكن أن يقدم لطلـه حسين وأسائـدة التغريب .

وقال الدكتور عمر فروخ :

إنه من دواعى الأسف أن يعرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون أنفسهم ولكن الذى يؤسف له حقاً أن يقوم بعض الشرقيين بحطون من قدر ابن خلدون بعد أن جهد الغربيون كل جهد فى نشر فضائله وإظهارها .

ويشير الدكتور غلاب إلى ملاحظة أخرى : هى أن الدكتور طه فى رسالته عن ابن خلدون يرمى عرب إفريقيا الشمالية بالهمجية والتوحش ، ويستدل على هذه الدعوى بأن الفرنسيين عانوا مشقة شديدة فى سبيل إخضاعهم ، ويزعم أن ابن خلدون حظى فى إسناده هذا العصيان من جانب عرب المغرب إلى العزة والإباء ، ويقول : بل إن الفرنسيين قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة فى مراكش فى سبيل بسط حضارتهم .

ويعلق السيد محب الدين الخطيب على أخطاء طه حسين فى مصادر ابن خلدون فيقول : إن طه حسين لم يسمع باسم كتاب مختصر ابن الحاجب ومن ثم يجب أن يكون ابن خلدون كاذباً ، أنه لو كان صادقاً لعرف ما عرفه طه حسين من أن مختصر ابن الحاجب فى الأصول لا فى الفروع ، أرأيت كيف اكتشف طه حسين أن ابن خلدون جاهل كذاب ؟

ولكن طه حسين كان سيء الحظ فى هذا أيضاً كدأبه<sup>(١)</sup> فى كل ضربات معوله<sup>(٢)</sup>، التى ينحى بها على جدار الإسلام وسور الحضارة العربية التى لا تموت ، وكأنى أسمع صغار التلاميذ من أتباع مالك بن أنس سواء كانوا فى جامع الزيتونة أو فى الجامع الأزهر ، ينادون طه حسين فيقولون له : على رسلك يا أستاذ فإن لابن الحاجب مختصرين ، وقد سمعت بأحدهما وغاب الآخر فى جملة ما غاب عنك وهو كثير ، لقد بلغ مختصر ابن الحاجب الفرعى من الشهرة المكان الذى لا يجهل حتى من صغار التلاميذ ، ولو كان هذا

( ١ ) كدأبه : كطريقته .

( ٢ ) المعول : الفأس .

الدكتور الجريء متمرنًا على طريق التحقيق ومستأنسًا بأساليب البحث المأمونة العواقب ، لتأني كثيرًا قبل أن يهجم تلك الهجمة الخائبة المخزية على طود عظيم في الإسلام كابن خلدون ، ولدفعته السليقة العلمية إلى مراجعة ( كشف الظنون ) على الأقل وهو من الكتب التي يجب أن تكون دائماً تحت اليد ، ليرى ما جاء في مختصر ابن الحاجب ، لأن الهجوم بلا سلاح على مثل هذا البطل الكبير ليس من الحيلة في شيء .

ويقول الدكتور شحاته سغفان : إن عدم اعتراف طه حسين بابن خلدون في مقدمته مؤسساً لعلم الاجتماع مبالغه جسيمة ، وإن كان هذا رأى طه حسين في ابن خلدون فإن كثيراً من علماء الاجتماع في مصر ودارسيه لا يؤيدونه ، بل يعتقدون أن ابن خلدون كان أول عالم من علماء الاجتماع .

وقال جورج سارطون : أسمى عصر سبق العصور الحديثة في العالم كله : عصر ابن خلدون .

## ( ٦ ) كتاب الإسلام وأصول الحكم

### حاشية على عبد الرازق على متن مرجليوث

كانت القوى الأجنبية قد تأمرت على إسقاط الخلافة الإسلامية في دورة طويلة تكاثفت فيها الصهيونية والغرب الاستعماري وجماعة الاتحاديين الذي أسقطوا السلطان عبد الحميد واستولوا على الحكم في الدولة العثمانية تمهيداً لتسليم فلسطين إلى الصهيونية العالمية ، وجاء دور مصطفى كمال أتاتورك بعد انتهاء الحرب العالمية التي دخلتها الدولة العثمانية وهزمت فيها ، وكان لسقوط الخلافة رنة أسي وتطلع ضخم إلى هذا الحدث الذي أصبح من بعد عهداً من عهود حركة اليقظة الإسلامية بإعادة الخلافة .

في هذا الجو المضطرب - الذي انحل فيه عقد الجامعة الإسلامية وبرزت دعوات الإقليمية والقومية وتمزق العالم الإسلامي إلى قوى محلية - صدر كتاب الشيخ على عبد الرازق ( الإسلام وأصول الحكم ) الذي كان بمثابة صيحة تغريبية جائرة تحاول أن تقضي على مفهوم الإسلام الجامع ديناً ودولة بإثارة شبهة مأكرة لثيمة خادعة هي القول بأن الإسلام دين عبادي وأن الرسول ﷺ لم يكن في ذات الوقت حاكماً أقام دولة .



وقد صدر الكتاب فى مجال معارضة الخلافة الإسلامية لأسباب سياسية كانت بريطانيا والنفوذ الأجنبى توازرها وكانت تعمل دون عودة هذا النظام الإسلامى الجامع ، ولكن الخطر الحقيقى من وراء كتاب الشيخ على عبد الرازق كان هو : هدم مفهوم الإسلام بوصفه ديناً ودولة ونظام مجتمع ومنهج حكم جامع .

**\* الاتحاديون تلاميذ الماسونيين وقد تربوا فى محافلهم واعتنقوا شعارهم ومناهجهم وقاموا بدور مسموم هو فتح باب فلسطين لليهود :**

ولقد اهتزت دوائر الأزهر والعالم الإسلامى لهذا الكتيب المزور وأعلنت هيئة كبار العلماء فساد المنهج الذى قام عليه ، وأن المؤلف قد أخطأ خطأ بالغاً حين جعل الشريعة الإسلامية روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا ، مع أن الدين الإسلامى على ما جاء به النبى ﷺ من عقائد وعبادات ومعاملات هى لإصلاح أمور الدنيا والآخرة ، وأن كتاب الله تعالى وسنة رسوله يشتملان على أحكام كثيرة فى أمور الدنيا وأحكام كثيرة فى أمور الآخرة .

**كما أشار حكم هيئة كبار علماء الأزهر إلى أن المؤلف :**

**أولاً :** زعم أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبى ﷺ كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين ولا لإبلاغ الدعوة إلى الفاتحين .

**ثانياً :** زعم أن نظام الحكم فى عهد النبى ﷺ كان موضع غموض وإبهام أو نقص موجب للحيرة .

**ثالثاً :** زعم أن مهمة النبى ﷺ كانت بلاغاً للشريعة مجرداً من الحكم والتنفيذ .

**رابعاً :** أنكر إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام وعلى أنه لا بد للأمة من يقوم بأمرها فى الدين والدنيا .

**خامساً :** أنكر أن القضاء وظيفة شرعية وقال إن الذين ذهبوا إلى أن القضاء وظيفة شرعية جعلوه متفرعاً من الخلافة .

**سادساً :** زعم أن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده ( رضى الله عنهم ) كانت لا دينية ، وهذه جرأة لا دينية .

صدر كتاب الإسلام وأصول الحكم عام ١٩٢٥ سابقا لكتاب الشعر الجاهلي لظه حسين ، وقد كشفت الأيام من بعد كيف أن هذا الكتاب من تأليف المستشرق اليهودى مرجليوث المقيم فى لندن وأنه أهده لعلى عبد الرازق عندما زارها دارساً .

وقد ظل هذا السر محجوباً إلى وقت قريب حين كشف عنه الدكتور ضياء الدين الرئيس فى كتابه ( الإسلام والخلافة فى العصر الحديث ) الذى صدر عام ١٩٧٢ تقريباً ، وكان المظنون خلال أكثر من خمسين عاماً أنه من تأليف الشيخ عبد الرازق ، وقد عد هو وكتاب طه حسين عن الشعر الجاهلي من الأسس التغريبية التى اعتبرها الشيوعيون والعلمانيون مرجعاً لخطتهم وأهدافهم فى هدم مفهوم الإسلام فى السياسة وفى الأدب ، وقد قوبل الكتاب عند صدوره بمعارضة شديدة وألفت كتب كثيرة فى الرد عليه وكتبت فصول عديدة فى الصحف ومن ذلك كتاب الفاضل بن عاشور ، ومحمد بخيت ورشيد رضا وكثيرون .

ولقد كان كتاب ( الإسلام وأصول الحكم ) لعنة على الشيخ على عبد الرازق فقد أصاب حياته بالظلام والغربة ولاحقته لعنته مدى حياته حتى أنه عندما أراد الماركسيون إقناعه بإعادة طبعه قال لهم : إن هذا الكتاب أثار عليه متاعب كبيرة ، ومع ذلك فإن بعض الماركسيين أعاد طبعه وقدم له رغبة منهم فى تأكيد مفهوم فاسد لا يقره الإسلام ، ويتخذ الكتاب الماركسيون - المعارضون لمفهوم الإسلام بوصفه ديناً ودولة - من هذا الكتاب خطة عمل توالى بث سمومها فى الصحف والمؤلفات والمؤتمرات ، ويتولى كبر ذلك أمثال ومحمد أحمد خلف الله وحسن حنفى وعبد الله العروى ، وسيكون هذا الكتاب لعنة عليهم كما كان لعنة على على عبد الرازق ، فمات الكتاب قبل أن يموت صاحبه ، وانطوت صفحته وهو حى .

ومع الأسف فقد كان صدور مثل هذا الكتاب مما تلقفه المستشرقون ليثيروا دعوى عريضة بأن فى الإسلام مذهبين : أحدهما أن الإسلام دين ودولة والآخر يقول أن الإسلام دين روحى ويضعون على عبد الرازق على رأس الفريق الذى يقول هذا القول ، والواقع أن الإسلام ليس فيه غير رأى واحد ، وهو الرأى الأول ، وأن ما ذهب إليه على عبد الرازق عام ١٩٢٥ ، لم يكن من الإسلام فى شىء ، ولم يكن على عبد الرازق إماماً مجتهداً ، وإنما

كان قاضيا شرعياً تلقتته قوى التغريب فاصطنعته تحت اسم « التجديد » حيث دعى إلى لندن لحضور حلقات الاستشراق التي تروج للأفكار المعارضة لحقيقة الإسلام وهدم مقوماته ، وأهدى هذا الكتاب الذى وضع عليه اسمه مترجماً إلى اللغة العربية وطلب إليه أن يضيف إلى مادته بعض النصوص العربية التى يستطيع اقتباسها من كتب الأدب .

أما الكتاب نفسه فكان من تأليف قزم من أقزام الاستشراق وداعية من دعاة الصهيونية واليهودية العالمية هو المستشرق مرجليوث الذى تقضى الصدق أن يكون هو نفسه صاحب الأصل الذى نقل عنه طه حسين بحثه عن الشعر الجاهلى والذى أطلق عليه محمود محمد شاكر ( حاشية طه حسين على بحث مرجليوث ) ويمكن أن يطلق الآن اسم : ( حاشية على عبد الرازق على بحث مرجليوث ) وقد كشف هذه الحقيقة الدكتور ضياء الدين الرئيس فى بحثه القيم « الإسلام والخلافة فى العصر الحديث » .

أعداء الأمة يحاربونها فلماذا الأبناء ؟ :

وهكذا نجد أن السموم المثارة فى أفق الفكر الإسلامى توضع أساساً من رجال التغريب ثم تختار لها أسماء عربية لتحمل لواءها وتذيعها إيماناً بأن الاسم العربى أكبر تأثيراً وأبعد أثراً فى خداع الجماهير ولقد طالما تحدث التغريبون عن كتاب ( الشعر الجاهلى ) و( الإسلام وأصول الحكم ) على أنهما دعامتان للنهضة « التغريبية فى الفكر الحديث » .

**\* الأسلوب الذى كتب به الكتاب أسلوب غريب ليس مألوفاً فى الكتب العربية :**

ومع أن حركة اليقظة الإسلامية واجهت كتاب على عبد الرازق المنحول وفندت فساد وجهته وأخطائه فإن قوى التغريب ما تزال تعيد نشره وطبعه مع مقدمات إضافية يكتبها شعوبيون يخدعون الناس بألقابهم وأسمائهم ، وهم يجدون فى هذه المرحلة التى يرتفع فيها صوت تطبيق الشريعة الإسلامية والدعوة إلى الوحدة الإسلامية مناسبة لنفث السموم مرة أخرى ولن يجديهم ذلك نفعاً ، فإن كلمة الحق سوف تملأ وتنتشر وتدحض باطل المضللين مهما تجمعوا له وقدموه فى صفحات براقة مزخرفة وأساليب خادعة كاذبة .

إن أول من كشف حقيقة الكتاب هو الشيخ محمد بخيت الذى رد على الشيخ على عبد الرازق فى كتابه « حقيقة الإسلام وأصول الحكم » ، وهو واحد من الكتب التى

صدرت فى الرد عليه حيث قال : « لقد علمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له منه إلا وضع اسمه عليه فقط ، فهو منسوب إليه فقط ليضعه واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار وألبسوه ثوب الخزي إلى يوم القيامة .

وقد علق على عبد الرزاق على هذا المعنى بأن هذا الكتاب كان شؤما عليه ، وقد ألصق به كثيرا من المتاعب والشبهات ، والحقيقة أنه بعد أن طرده الأزهريون من هيئة العلماء ظل منقيا ومهجورا وعاش بقية حياته منقطعا عن الحياة العامة بالرغم من أن محاولات جرت لإسقاط الحكم وضمه إلى مجمع اللغة العربية وجعله وزيرا ، فقد كان الكتاب أشد شؤما على حياته من كل ما ألم به .

ومن هذا الخيط الرفيع الذى ألقاه الشيخ محمد بخيت بدأت محاولة الدكتور ضياء الدين الرئيس فاستطاع أن يصل إلى الحقيقة وهى أن كاتب الكتاب هو المستشرق مرجليوث اليهودى الأصل ، وهو أول من شن الهجوم على الخلافة لأن بلاده « بريطانيا » كانت فى حرب مع دولة الخلافة ، وقد أعلن الخليفة العثمانى الجهاد الدينى ضدها ، والنصوص فى الكتاب قاطعة بأنه كان موجها ضد الخلافة العثمانية فإنه يذكر بالاسم « السلطان محمد الخامس » الخليفة فى ذلك الوقت الذى كان يسكن فى « قصر يلدز » وهناك نص على « جماعة الاتحاد والترقى » وهى التى كانت تحكم تركيا : أى دولة الخلافة طوال أعوام الحرب العالمية الأولى .

ويقول الدكتور الرئيس : إن الاتحاديين تلاميذ الماسونيين وقد تربوا فى محافلهم واعتنقوا شعارهم ومفاهيمهم وقاموا بدور مسموم وهو فتح باب فلسطين أمام اليهود المهاجرين ، وكان السلطان عبد الحميد قد رفض عروضهم ، وكانوا هم ( أى الاتحاديين ) أداة الصهيونية العالمية فى إسقاط هذا السلطان الشهير ، ورجح الدكتور الرئيس أن مرجليوث اليهودى الذى كان أستاذا للغة العربية فى جامعة إكسفورد ببريطانيا هو كاتب الكتاب ، لأن آراء الكتاب هى آراؤه التى كتبها من قبل عن الدولة الإسلامية ، وفندها الدكتور الرئيس فى كتابه : « النظريات السياسية فى الإسلام » وأثبت خطأها وبطلانها بالأدلة العلمية ، وهو يكتب عن الإسلام بنزعة حققد شديد ، ويتسم أسلوبه بالمغالطات والمعلومات المضللة والقدرة على التمويه ، كما يتصف بالالتواء ، وهذه الصفات كلها تظهر فى هذا الكتاب المنسوب إلى الشيخ على عبد الرزاق .

ومعروف أن الشيخ ذهب إلى بريطانيا وأقام فيها عامين فلا بد أنه كان متصلا بالمستر مرجليوث ، أو تتلمذ عليه ، وكذلك توماس أرنولد الذى يشير إليه الشيخ ويصفه بالعلامة فقد ألف كتابا عن الخلافة بشكل عام والعثمانية بوجه خاص ، وقد نقدناه .

يقول الدكتور الرئيس فى كتابه : « النظريات السياسية الإسلامية » :

والقصة تتلخص فى أنه إبان الحرب العالمية الأولى والحرب دائرة بين الخليفة العثمانى وبريطانيا أعلن الخليفة الجهاد الدينى ضد بريطانيا ودعا المسلمين أن يهبوا ليحاربوها ، أو يقاوموها ، وكانت بريطانيا تخشى غضب المسلمين الهندو بالذات ، أو ثورتهم عليها ، فى هذه الفترة كلفت المخابرات البريطانية أحد المستشرقين الإنجليز أن يضع كتابا يهاجم فيه الخلافة وعلاقتها بالإسلام ويشوه تاريخها ليهدم وجودها ومقامها ونفوذها بين المسلمين وقد استخدمت السلطات البريطانية هذا الكتاب فى الهند وفى غيرها ، وبعد أن انتهت الحرب كان الشيخ عبد الرزاق قد اطلع على هذا الكتاب أو عثر عليه ، هذا إن لم يفترض أن هذا كان باتفاق بينه وبين هذا المستشرق الذى اتصل به حينما كان فى إنجلترا أو فى بعض الجهات البريطانية التى كانت تعمل فى الخفاء للقضاء على فكرة الخلافة ، أو التى تخارب الإسلام ، فأخذ الكتاب فترجمه إلى اللغة العربية أو أصلح لغته إن كان بالعربية ، وأضاف بعض الأشعار والآيات القرآنية التى يبدو أنها لم تكن فى أصل الكتاب وبعض الهوامش وال فقرات ، وأخرجها للناس على أنه من تأليفه ظنا منه أنه يكسبه شهرة ، ويظهره باحثا علميا ، ومتفلسفا ذا نظريات جديدة ، غير مدرك ما فى آرائه أو فى ثنياه من خطورة ، ولا يستغرب هذا لأنه لم يدرك أن إنكار القضاء الشرعى هو إنكار لوظيفته نفسها وعمله ، وإلغاء لوجوده وكانت هذه البدعة السائدة فى ذلك الوقت بين كتاب ( السياسة ) جريدة من أسموا أنفسهم « حزب الأحرار الدستوريين » وهذا هو الذى فهمه الأستاذ الجليل أمين الرافعى فكتب فى جريدة الأخبار أنه لم يستغرب أن يقدم الشيخ على عبد الرزاق على إصدار هذا الكتاب لما عرفه عنه من الضعف فى تحصيل العلوم ، والإلحاد فى العقيدة ، ثم قال : هذا إلى أنه انغمز منذ سنتين فى بيئة ليس لها من أسباب الظهور سوى الافتئات على الدين وتقمص أثواب الفلاسفة والملحدين ، وصار خليقا باسم « الأستاذ المحقق » والعلامة الكبير .

ولم يعرف الأستاذ أمين الرافعى أن المؤلف الحقيقى ربما كان غير الشيخ على

عبد الرازق ، ولكن كلامه يكاد يكون إثباتا لذلك وهناك قرائن أخرى أوردها الدكتور الرئيس .

#### أدلة الانتحال :

أولاً : ذكر اسم كتاب مترجم عن التركية طبعة ١٩٢٤ بينما هناك فقرة تنص على أن تاريخ التأليف قبل عام ١٩١٨ وأنها ذكرت اسم السلطان محمد الخامس وقيل في الهامش إنه كتب في عهده وأقرب تفسير لذلك أن الكتاب ليس من تأليف شخص واحد .

ثانياً : يتحدث المؤلف عن المسلمين كأنه أجنبي عنهم وهم منفصلون عنه ، فيذكرهم بضمير الغائب ولا يقول ( عندنا ) أو ( العرب ) أو نحو ذلك كما يقول المسلم ذلك .

ثالثاً : يكرر الشيخ عبد الرازق ( عيسى وقيصر مرتين ) ويكرر هذه الجملة التي يسميها الكلمة البالغة ( د ع ما لقيصر لقيصر وما لله الله ) مع أن مسلماً صحيح الإسلام لا يمكن أن يؤمن بهذا التعبير ، إذ أن قيصر وما لقيصر لله رب العالمين .

رابعاً : يتعاطف مع المرتدين الذين خرجوا على الإسلام وشنوا الحرب على المسلمين فيدافع عنهم في نفس الوقت الذي يحمل على أبي بكر الصديق المسلم الأول بعد رسول الله ﷺ فينكر خلافته ويقول أن محاربته لهؤلاء المرتدين لم تكن حرباً من أجل الدين ، ولكن كانت نزاعاً في ملوكية ملك ولأنهم رفضوا أن ينضموا لوحدة أبي بكر وما هي وحدة أبي بكر يا عدو أبي بكر والإسلام ؟

أليست هي وحدة المسلمين ، ويقول « حكومة أبي بكر » أليست هي حكومة الإسلام والمسلمين ، ويتكلم عن أبي بكر هكذا بغير احترام أو تجميل ، كأنه رجل عادى أو كما يتكلم العدو .

هل هذا هو أسلوب المسلم ، فضلاً عن الشيخ في الكلام عن الصحابة وعن أفضل الناس وأحبههم إلى رسول الله ﷺ وخير من دافعوا عن الإسلام وجاهدوا في سبيل الله عز وجل .

خامساً : إن الأسلوب الذي كتب به الكتاب أسلوب غريب ، ليس مألوفاً في الكتب العربية ، فهو أسلوب مناورات ومراوغة ويتصف بالالتواء واللف والدوران ، فهو يوجه الطعنة أو يلقي الشبهة ثم يعود فيتظاهر بأنه ينكرها ولا يوافق عليها ويفلت منها ثم ينتقل ليقذف

شبهة أو طعنة أخرى على طريقة ( اضرب واهرب ) وحين يهاجم يصوغ عباراته في غموض وهذا يدل على أسلوب رجل سياسى متمرن فى المحاوره والخدعة ، وهو أشبه بالأسلوب الأفرنجى ، وأسلوب الدعايات السياسية أو الدينية التبشيرية وليس هذا أبدا أسلوب العربى الصريح ، فضلا عن أسلوب أحد الشيوخ المتعلمين فى الأزهر وهذا مما يغلب رأى بأنه كتاب مترجم .

**سادساً :** لم يعرف عن الشيخ على عبد الرازق - من قبل - أنه كان كاتباً تمارس فى الكتابة وممرن على التأليف فكيف بهذا الأسلوب ويعتمد الطعن فى الإسلام وتاريخه وعظماء رجاله ، ولم يعرف للشيخ كتاب أو مقالات قبل هذا الكتاب ( أى فى السياسة والتاريخ ) بل ما كتب من قبل كان ( كتيباً ) فى اللغة أو فى علم البيان ، وهذا كل إنتاجه فى أربعة عشر عاماً بعد تخرجه من الأزهر ، ثم بعد أن كتب هذا الكتاب ظل أربعين عاماً لم يكتب كتاباً آخر فى نفس موضوعه أو مثله ولم يحاول أو لم يستطع حتى أن يدافع عن نفسه ويرد على خصومه وكتاب آخر .

**سابعاً :** هناك من القرائن والأدلة العديدة ما يدعو العقل إلى أن يرجح صحة الخبر الذى رواه فضيلة المفتى الشيخ محمد بخيت ، نقلاً عن كثيرين من أصحاب الشيخ على عبد الرازق المترددين عليه من أن مؤلف الكتاب شخص آخر من غير المسلمين ، وقد غلبنا نحن أنه أحد المستشرقين ، ولكننا نقيّد هذا الخبر بأن الشيخ قد أضاف بعض فقرات وتعليقات ، وأنه هو الذى أورد الآيات من القرآن ، والظاهر أنها محشورة حشراً مجموعات فى كل مكان ، وأبيات الشعر التى استشهد بها ، كما كتب المقدمة التى زعم فيها أنه بدأ البحث فى تاريخ القضاء منذ ١٩١٥ وذلك ليغطي المقارنة الظاهرة بين وضع الكتاب ووقت صدوره ، فإنه من غير المعقول أن يستغرق تأليف كتيب لا يزيد عن مائة صفحة عشر سنوات .

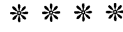
وفى مثل هذه المسائل بالذات فإن هذه الحالة أسهل ، لأن النقل أو الترجمة من كتيب مجهول ، أو كانت المسألة بتصريح أو اتفاق لخدمة غرضين فالطرف الأول يريد نشر آرائه لغايات سياسية ودينية ، والطرف الثانى له مأرب سياسى ولكن الدافع الذاتى أنه يريد الشهرة أو الظهور أو الغرور ، ( وقد انتفعنا فى هذا البحث بدراسة الدكتور الرئيس وبحث مجلة المجتمع الكويتية وكتاب المعارك الأدبية ) .

### قاعدة أساسية يصعب هدمها :

الحقيقة أن كتاب « الإسلام وأصول الحكم » من الأعمال التغريبية والاستشراقية الخطيرة التي أريد بها هدم القاعدة الأساسية للإسلام وهي قاعدة أن الإسلام دين ودولة في محاولة لتنصير الإسلام وجعله مشابهاً للنصرانية التي هي بمثابة دين قائم على الوصايا وليس له تشريع ، لأن تشريعه في اليهودية ، وهذه القضية هي مفتاح الغزو الفكري الذي واجه به النفوذ الاستعماري بلاد المسلمين من أجل هدم هذه القاعدة وحصر الإسلام في المساجد وفي الصلاة والصوم وفرض الأيدلوجيات الغربية في مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية ، ومن شأن هذا فتح الطريق أمام القانون الوضعي وكسر الحدود التي وضعها الإسلام والقضاء على محرمات الإسلام : الربا ، والزنا ، والسرقه ، والاختلاس ، والميسر ، وإباحتها وجعلها في نظر الناس مشروعة ، ومن وراء ذلك إمبراطورية الربا التي ترمي إلى تحطيم الضوابط والحدود ، وذلك للسيطرة على الاقتصاد الإسلامي وهدم المجتمع الإسلامي وإذاعة روح التحلل والترف وتغليب مفهوم المجتمع الاستهلاكي القائم على الشهوات واللذات والإباحيات وهدم قاعدة « أخلاقية المجتمع وهدم مفهوم المسؤولية الفردية للإنسان والتزامه الأخلاقي في بناء المجتمع الرباني في الأرض » .

وهكذا نصل إلى أن هذا العمل كان من المؤامرات الخطيرة والتي ما تزال تتخذ سورا يقذف منها الإسلام على أيدي خصومه والراغبين في هدم شرعته .

وبالجملة ، فإن كتاب الشيخ على عبد الرازق أحدث شرخاً استغله خصوم الشريعة اعتماداً على أن كاتبه رجل من الأزهر ومن علماء الإسلام ، وليس الأمر كذلك في الحقيقة وإنما هي المؤامرة الشعبية الضخمة التي قام بها التبشير والاستشراق لاحتواء أمثال على عبد الرازق وطه حسين وهي مؤامرة مآلها الهزيمة والفشل بإذن الله (١) .



(١) ظهر في الأخير أن الشيخ عبد الرازق يدعى أن الذي كتب نصوص كتاب الخلافة هو الدكتور طه حسين وأنه وافق عليها .



## ( ٧ ) نظرية ديكارت ومنهج الشك الفلسفى :

### فى كتاب الأدب الجاهلى

\* الحكمة التى علموها طه حسين ليناطح الفكر الإسلامى هى :

أسلوب الشك مصدر الشهرة وإحداثى الدوى وقد استعمل هذه النظرية لإنكار كل حقيقى ويقينى وقطعى .

إن ( منهج الشك الفلسفى ) هو الأطروحة الكبرى للدكتور طه حسين فى حياته كلها ، وهو الهدية المسمومة التى حملها إياه المستشرقون الصهيونيون ، والمبشرون الذين تلقفوه فى معهد الدراسات الشرقية ، الذى كانوا يصوغون فيه أتباعهم إلى البلاد العربية . ونحن إذا أردنا أن ندرس حياة طه حسين ، فإن ( مفتاح حياته ) هو هذه الحكمة التى علموها إياها ، ثم تركوه يناطح الفكر الإسلامى ، وهى : ( أسلوب الشك هو مصدر الشهرة وإحداثى الدوى ) .

وقد كان طه حسين يتطلع إلى هذا الهدف منذ مطالع شبابه ، لظروف حياته وعاهته ، ومن ثم أستهل بها حياته فى الجامعة ، حين وكل إليه تدريس الأدب العربى ، وذلك بالشك فى الشعر الجاهلى ، ومتابعة المستشرقين ، فى القول بأنه منحول .

لقد ادعى طه حسين أنه يستخدم ( منهج ديكارت ) ليغايظ الأزهريين ، حين قال لهم إنهم لا يعرفون هذا المنهج .

وقد تصدى له الأستاذ محمد أحمد الغمراوى خريج كمبريدج ، وقال له : إن ما قدمه ليس هو منهج ديكارت .

بل إن الأستاذ الخضيرى ترجم كتاب ديكارت ( مقال عن المنهج ) ، ليؤكد أن ما قدمه طه حسين ، ليس هو منهج ديكارت .

وقد طبعت هذا الكتاب المطبعة السلفية لصاحبها محب الدين الخطيب رحمه الله عام ١٩٣٠ ، لتبين فساد اقتباس طه حسين .

ولقد اضطهد عميد الأدب ، الأستاذ الخضيرى وطرده من الجامعة ، وتابعه ومنعه أن يدخل هيئة التدريس فى كلية الآداب وحرّمها عليه ، حين أطلقها لكل ناعق - على حد تعبير الدكتور نجيب البهيتى - .

وقد تبين من بعد ، أن ديكرت قرأ ترجمة كتاب ( المنقذ من الضلال ) للإمام الغزالى ، وأشار على نسخته الخاصة الموجودة فى مكتبته المهداة إلى السربون على الهامش أمام عبارة الغزالى عن ( اتخاذ الشك طريقا إلى اليقين ) .

ولكن طه حسين استعمل هذه النظرية لشيء آخر ، لإنكار كل قطعى وحقيقى ويقينى ، ولقطع الطريق على القيم الجامعة المتكاملة ، ولفصل الأدب عن الفكر ، ولأن يترك الباحث المسلم ، دينه وقوميته ، عندما يبحث فى أى أمر من الأمور ، وهذا غاية فى الخطأ والتمويه وفساد الرأى .

وقد عالج هذه القضية الأستاذ الغمراوى فى كتابه ( النقد التحليلى للأدب الجاهلى ) فقال :

١ - إنه تذرّع بما سماه القاعدة الأساسية لمذهب ديكرت ، لينطلق به إلى الانسلاخ من كل قديم فى هذه اللغة التى هو أستاذ لأدائها ، وليتخذ ذريعة يرمى وراءها هذه اللغة وما اتصل بها ، حتى إذا قيل له لم فعلت ما فعلت ، وهل يفعل هذا عاقل ، قال فعله قبلى ديكرت .

٢ - لقد خلط الدكتور طه بين الشك وبين المخرج من الشك ، فجعل الشك القاعدة الأساسية للمنهج الذى ابتغى ديكرت أن يتخلص به من الشك ، والذى أدى به فى بعض ميادين البحث إلى نتائج عظيمة .

٣ - ليس صحيحا ما ذكره الدكتور من أن القاعدة الأساسية لمنهج الشك عند ديكرت ، أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما ، وهذا قطعاً ليس من قواعد منهج ديكرت .

٤ - الواقع أن كلا من ديكرت ويسكال ، مسبوق إلى ما عرف باسمه من قواعد . النظر ، سبقهما الغزالى على الأقل وقد سبقهما قبل ذلك بقرون - كما تشهد بذلك كتبه - مثل كتاب ( محك النظر ) و ( معيار العلم ) .

والغرب معذور حين ينسب بعض تلك القواعد إلى ديكارت ، وبعضها إلى باسكال ، فهما أول من أظهراه عليها ، ولكن ما عذر الدكتور طه حين ينسب إلى ديكارت منهجا سبقه إليه الغزالي ، ألأن الدكتور كان يجهل مذهب الغزالي في النظر ، أم لأن الغرب نسب وهو للغرب تابع ؟ .

٥ - ليس هذا الذي زعمه طه حسين ، من وجوب تجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل ، مما قال ديكارت ، فإن الذي قاله ديكارت ، هو أنه يجب علينا ألا نقول عن شيء أنه حق ، إلا إذا قام البرهان على أنه كذلك .

وشتان بين هذا المعنى ، وبين المعنى الذي زعم الدكتور من وجوب التجرد من كل ما قبيل في موضوع البحث من قبل ، إذ من الجائز أن يكون ما قبيل قد قام البرهان على صحته .

ثم بدهى أن تلك القاعدة من معناها أن يتولى كل إنسان إثبات كل شيء لنفسه بنفسه ، كما تقتضيه القاعدة الأساسية التي زعمها الدكتور ، لأن ذلك سخف لا ينتج عنه إلا التأخر والخطأ والفوضى .

الجهل بديكارت صار منهجا :

هذا التصور ، يشهد على صاحب الأدب الجاهلي ، بما لا يمكن أن يسمى إلا جهلا بديكارت ، وافتراء عليه ، كما أنه افترى على علماء العربية المتقدمين .

٦ - على أن فلسفة ديكارت ، قد يكون لها الفضل في الحكم بين طه حسين وبين بقية علماء الأدب العربي ، وفي الشعر الجاهلي وغير الشعر الجاهلي ، ذلك لأن من قواعدها أو حقائقها التي وصل إليها ديكارت نفسه ، أن ما وجد في الدين واضحا جليا ، فهو حق يجب أن يسلم به تسليما ، والدكتور طه لا ينكر أن القرون قد مرت على العالم العربي وأن الأجيال قد تابعت فيه ، والشعر الجاهلي قائم في الأذهان واضحا جليا ، منسوبا إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين ، فالشعر والشعراء والنسبة حتى إذن ، يحكم بذلك القدماء وأنصار القدماء ، ولو كان كل باحث حديث يهمل نتائج أبحاث غيره ويستقبل بحثه خلوا من كل ما قبيل ، فيما يتعلق به المعنى الذي يقول صاحب الكتاب ، إن ديكارت يعنيه ، لوقف العلم عن التقدم ، بل لما كان هناك علم منظم محدود .

## ماذا يحدث لو عم الشك ؟

تصور أن كل باحث فى علم الطبيعة أو الكيمياء مثلا - شك فى كل ما عده من العلماء ، شك كما شك الدكتور ، فى أمانة القادرين ، وفى مقدرة الأمتاء ، وشك طبعاً فى النتائج التى وصلوا إليها ، وأنه أخذ بمنهج ديكارت ذلك ، وطفق يعيد تلك الأبحاث من جديد !

قل لى هل يتسع عمره لهذه الأبحاث كلها أو أغلبها ، وهى قد استنفذت أعمار الأجيال من قبله ، أم هل يستطيع كل متشكك أن يعيد الصعب من أبحاث من عده من العلماء .

إن التفرغ لفرع ما ، من علم ، يكسب المتفرغ مقدرة خاصة ، فى ذلك الفرع ، غير المقدرة الخاصة التى يكتسبها شخص آخر تفرغ لفرع آخر فى نفس العلم ، فهل من الممكن أن تنشأ تلك المقدرات الخاصة فى كل بحث شكاكاً حين يريد ؟! أم هل من الممكن أن يجتمع كلها لإنسان واحد ، طبيعياً كان أم كيمائياً أم لغوياً ؟!

من أجل ذلك كان منهج ديكارت كما فهمه وطبقه ( طه حسين ) ، منهجاً غير علمى ، يفرق بين المجهود العلمى ، ويدخل الفوضى فى العلم ، ويؤدى فى النهاية إلى زوال جهد العلماء طالما يتناوله الجهلاء بالتحريف ، ولكن العلم لا يأخذ برأى طه حسين والعلماء فى علومهم وأبحاثهم يأخذون بغيره .

وهكذا يبرأ العلم من المنهج الذى نسبته طه حسين إلى ديكارت .

ولم تكن عظمة ديكارت راجعة إلى أنه شك ، ولكن إلى أنه تطلب مخرجاً من الشك ، واهتدى إلى طريقة فى البحث خرج بها إلى بحبوحة اليقين ، ثم ترجع إلى أنه حقق تلك الطريقة ، فأثمرت فى الرياضة ولم تثمر معه فى الفلسفة والطبيعة إلا قليلاً مما يأخذ به العلم اليوم .

ولقد عقد صاحب الكتاب - ( فى الأدب الجاهلى ) - فصلاً عن منهج ديكارت ، وعجز لأمر ما عن أن يبينه فيه ، وذكر فى ذلك الفصل شيئاً سماه ( القاعدة الأساسية لمنهج ديكارت ) ، ليتذرع به إلى الانسلاخ من كل قديم ، فضلاً عن أن ( طريقة ديكارت ، وليس منهج ديكارت ) ، كان مما أخرجه فى الشباب ، صدى لذلك الشك الذى استحوز

عليه فى الشعر ، ومن ثم فشكه شك الفتى الغرير ، لا العالم الخير ، ومن الظلم أن يحتج به ، أو أن نشدد فى محاسبة صاحبه .

ولكن الدكتور طه ، خلط بين الشك وبين المخرج من الشك ، فجعل الشك القاعدة الأساسية للمنهج الذى ابتغى ديكارت أن يتخلص به من الشك ، والذى أداه فى بعض ميادين البحث إلى نتائج عظيمة ، وفى بعض الميادين الأخرى إلى نتائج بعيدة عن العظمة ، لأنها بعيدة عن الصحة .

وبالجملة فقد أكد الدكتور محمد أحمد الغمراوى - وما ترجمه الأستاذ الخضيرى من كتابات ديكارت ( مقال عن المنهج ) - فساد ما عرضه طه حسين من قوله أن القاعدة الأساسية هى أن يتجرد الباحث من كل شئ يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلوا تاما ، إنما قال ديكارت ، ألا يقبل قط شيئا على أنه حق من غير أن يكون على بينة من أنه كذلك ، أى أن يتجنب العجلة والهوى ، وفارق بين المعنيين .

ونحن نسأل : هل استطاع طه حسين فى بحثه هذا - أو أى بحث آخر - أن يتجرد من كل شئ كان يعلمه من قبل ، حين تحدث عن الشعر الجاهلى أو على هامش السيرة .

أو مستقبل الثقافة ؟ بالعكس ، لقد فرض طه حسين فروضا تغريبية وشعوبية ، وضعها أمامه ثم بحث فى النصوص ، حتى وجد منها ما حسب أنه يؤكد فكرته ، فتمققها وتجاهل حقائق غيرها تدحضها ، ومزق بعض النصوص ، فأخذ منها ما يؤيد فرضه وترك الباقي .

وإن طه حسين كان فى كل عمله يقوم على العجلة والهوى ، وأنه كان حريصا على إثارة الشكوك والشبهات حول جميع النصوص والوقائع التى صادفته فى جميع كتبه ، ذلك لأنه سار فى هذا على منهج التلمودية الذى عرفته كتابات فرويد ودوركايم ، وهى أن يسأل ويثير الشك ، ثم يترك من يتحدث إليه فى حيرة ، فلا يهديه إلى شئ من اليقين ، لأن الهدف هو خلق هذا الجو من « الشك » الذى كان مصدر الفكر التغريبى كله ، وقاعدة العمل التى قام به الاستشراق والتبشير فى العالم الإسلامى .

وقد أشار الأستاذ محمد طاهر نور ، رئيس النيابة الذى حقق مع الدكتور طه حسين ، إلى هذا العمل الخطير فقال : إن الخطأ حيث يبدأ بافتراض يتخيله ، ثم ينتهى بأن يرتب

عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة ، كما فعل في أمر الاختلاف بين لغة حمير<sup>(١)</sup> ولغة عدنان ، وفي مسألة إبراهيم وإسماعيل ، وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة ، فقد بدأ بقوله : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلا عن إثبات هذه القصة » إلى هنا أظهر « الشك » بعدم قيام الدليل التاريخي في نظره ، كما تتطلبه الطرق الحديثة ، ثم انتهى بأن قرر في كثير من الصراحة :

« أمر هذه القصة إذن واضح ، فهي حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب ديني » فما هو الدليل الذي انتقل به من الشك إلى اليقين ؟ هل دليله هو قوله « نحن مضطرون إلى أن نرى هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وأن أقدم عصر يمكن أن يكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمالي البلاد العربية ؟

المؤلف يرى ، أن ظهور الإسلام قد اقتضى أن يثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصارى ، وأن القرابة المادية بين العرب واليهود ، لازمة لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية ، فاستغلها لهذا الغرض فهل له أن يبين الحيلة لتوثيق الصلة بين الإسلام والنصرانية ؟

إن الأستاذ ( أي طه حسين ) ليعجز حقا عن تقديم هذا البيان ، وكل ما استند إليه من الأدلة قوله : ( ليس يبعد أن يكون ) ، أو ( فما الذي يمنع ) ، أو ( ونحن نعتقد ) ، أو ( وإذن فتستطيع أن تقول ) .

فالأستاذ المؤلف في بحثه ، إذا رأى إنكار شيء يقول : لا دليل من الأدلة التي تتطلبها الطرق الحديثة للبحث ، وإذا رأى تقرير أمر لا يدل عليه بغير الأدلة للبحث التي أحصيناها له ، وكفى بقوله حجة .

وسئل عن أصل هذه المسألة - أي تلفيق القصة - وهل هي من استنتاجه ؟ أو نقلها ؟ فقال : هذا فرض فرضته أنا دون أن أطلع عليه في كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب ، أن شيئا من هذا الفرض يوجد في بعض كتب المبشرين . أ . هـ .

( ١ ) حمير : قبيلة من قبائل العرب .

وهكذا نجد أن البحث كما أثبتته النيابة العامة هو « إشاعة الشك » وإقامته على الفروض ، ثم لا يلبث أن يعتبر هذه الفروض حقائق تبنى عليها أكاذيب أخرى . ويقول الأستاذ محمود محمد شاكر : « إن اتكاء طه حسين على ديكرات اتكاء فيه كثير من المغالطة ، بل فيه إرادة التهويل بذكر ديكرات الفيلسوف ، مع أن الدكتور فى محاضراته ليس من منهج ديكرات فى شىء . وقد صارحته بهذا فى حينه ، وقلت له أن ما يقوله عن المنهج وعن الشك غامض ، وأنه مخالف لما يقوله ديكرات ، وأن تطبيق منهجه هذا قائم على التسليم تسليمًا لم يداخله الشك بروايات فى الكتب هى فى ذاتها محفوفة بالشك ، فانتهرنى الدكتور طه وأسكتنى .

وقال الدكتور نجيب البهبيتى : لم يعرض ديكرات التاريخ على منهجه ، فأبى طه حسين إلا أن يعرض الشعر الجاهلى والتاريخ على ما دعى له بمنهج ديكرات ، فنزل بالهدف من الشك الغزالى إلى دون ما نزل إليه ديكرات ، وناحله بمنهج الغزالى ، وكان اصطناع الغزالى الشك طريقًا فكريًا يهدف إلى الإنتهاء منه إلى الإيمان بالله ، وقد اتخذ ديكرات شك الغزالى فى بيعته التى كانت لا تزال تعيش على الأساطير ، وتتداوى ببقايا رفات القديسين ، وتستسلم للتثليث باسم التوحيد .

وننتهى من كل هذا ، إلى أن ( منهج الشك ) ، الذى حمّله طه حسين ، ليس هو منهج الغزالى الذى اصطنع منهج الشك البصير ، ولا منهج ديكرات ، الذى قصد به الخروج من دائرة الأساطير ، وإنما هو منهج زائف يراد به إثارة الشبهات فى وجه كل حقيقة علمية دينية يقينية ، وإثارة كل عوامل القلق والاضطراب فى نفوس الشباب المسلم ، لينكر قيمه الأساسية .

ومن هنا فقد كان كل كتاب التغريب وما زالوا ، يعلنون إعجابهم بمذهب الشك الذى قدمه طه حسين لأنه أفسد العقول والقلوب ، وقضى على اليقين والإيمان فى قلوب رخوة ، فى فترة لم يكن فيها غذاء روحى وثقافى كاف لمقاومة الشبهات والشكوك المثارة ، أما اليوم فإن الأمر يختلف تمامًا والحمد لله .

\* \* \* \*

## (٨) نظرية القومية العربية الوافدة :

صدر لساطع الحصرى كتاب يمثل أيديولوجيته فى القومية والقومية العربية تحت عنوان ( أبحاث مختارة فى القومية العربية ) يمثل خلاصة مؤلفاته التى تتجاوز العشرين مؤلفا كتبها منذ ١٩٢٣ - ١٩٦٣ خلال أربعين عاما وهى تصور تطور تفكيره فى قضية العروبة وعلاقتها بالإسلام ومضاهاتها بمفهوم القوميات الأوربية وقد تصاعدت كتاباته فى فترة تعالى فيها مد القوميات فى البلاد العربية والإسلامية .

والقومية « أطروحة غربية » فى الأساس ظهرت على أثر تمزق وحدة المجتمع الأوربى النصرانى ، حين ظهرت دعوة لوثر وكلفن تحت اسم « البروتستانتية » وكانت وراءها قوى تهدف إلى تدمير النظام النصرانى الاجتماعى الذى كان يقوم فى أوربا فى مواجهة ( الجيتو ) اليهودى والقوانين التى أصدرتها الكنيسة لعزل اليهود وتمييزهم ومنعهم من السيطرة على المراكز الأساسية الكبرى فى المجتمع الأوربى ، ومنذ بدأت حركة البروتستانتية بدأت معها رياح القومية التى ترمى إلى إعلاء شأن الوطن والقوم وإحلالها محل الدين وذلك لإخفاء الفرق بين النصرانى واليهودى وهو ما سعت إليه اليهودية من خلال ما أطلق عليه عصر التنوير وجماعة الموسوعة ( روسو وديديو ) ومن قبلهم فولتير والتى حققت غايتها بالثورة الفرنسية ومن ثم تداعت الصبغة الدينية النصرانية وعلت الصبغة القومية وقفز اليهود إلى مناصب القيادة الفكرية والأدبية فى المجتمع الغربى ثم إلى مناصب السيادة فى البرلمانات الأوربية .

وقد تحدث ساطع الحصرى ، كثيرا عن ظهور القوميات فى أوربا وتأثر بالنزعة القومية الأوربية ، التى واجهت الوحدة النصرانية الكبرى ، التى كانت تحجبهم عن امتلاك النفوذ والسيطرة فى المجتمع الأوربى والتى وضعت عددا من القوانين والتقاليد للفصل بينهم وبين النصرانى فى أمور الزواج والتعامل والتى حجبته فى ( الجيتو ) ومن ثم كانت القومية فى أوربا معارضة للدين أى النصرانية وعاملا لهزيمة نفوذها السياسى كما كانت القومية الألمانية والخروج عن الكاثوليكية عاملا من عوامل المقاومة لسيطرة الإمبراطورية الرومانية بعد أن ارتبطت الكنائس البروتستانتية بالقوميات .



وهذا الذى حدث فى الغرب النصرانى مختلف تماما عن العرب والإسلام ، وهذا هو ما تأثر به ساطع الحصرى وأقام عليه نظريته الوافدة فى القوميات العربية التى سرعان ما تهاوت وسقطت لأنها لم تعتمد على الأصالة الحقيقية فى فهم العلاقة بين النصرانية والقومية من ناحية وبين الإسلام والمسلمين من ناحية أخرى .

ولذا أردنا أن نواجه نظرية ساطع الحصرى وجدنا أن أخطر دعائياتها تتهاوى أمام مفهوم الإسلام الحقيقى بوصفه ديناً جامعاً بين العقيدة ومنهج الحياة ، وأكبر أخطاء ساطع الحصرى ومن يتبعه حتى اليوم من دعاة القومية بمفهومها الوافد هو فهم الإسلام على أنه دين لاهوتى يقيم العلاقة بين الله تبارك وتعالى ، وبين الإنسان فحسب على حسب ما تقوم عليه النصرانية هذا هو الفارق الكبير العميق الذى ينسف النظرية نسفاً ويقضى عليها من الجذور ، فإذا عدنا نسأل عن مفهوم الإسلام فى مفاهيم ساطع الحصرى وجدناه يعتمد النظرية النصرانية أى الغربية فى فهم الدين ، كما شرحتها ونشرتها قواميس اللغة الفرنسية والإنجليزية والألمانية وهو فهم خاطئ لا يمكن الباحث المنصف من فهم العلاقة بين الإسلام وأتباعه فهما كاملاً ، ومن شأنه أن يخفى عنه أبعاد القضية ، فالعلاقة بين الإسلام والعرب تختلف عن العلاقة بين الأديان والقوميات ، ذلك أن الإسلام هو الذى نزل فى العرب ولم يكن للعرب قبل الإسلام كيان موحد أو جامع ، وإنما كان العرب حملة الرسالة للعالمين ، ولذلك كانت قاعدته المساواة بين الناس جميعاً والأفضلية بالتقوى وذلك وفق الآية الكريمة من القرآن ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ [ سورة الحجرات : الآيات ١٣ ] ، فالإسلام هو الذى وضع العرب فى الأفق العالمى وحماهم من عصبية الجاهلية والأحقاد القبلية حين وكل إليهم حمل رسالته إلى الآفاق .

ويعترف ساطع الحصرى بأن اللغة العربية هى التى حفظت ما يطلق عليه اسم العروبة من التشتت والزوال ولو صدق لقال إنه القرآن الكريم .

ولا ريب أن النظرة العلمانية إلى الإسلام ، المأخوذة من تجارب البلقان والوحدة الألمانية والإيطالية وتطبيقات الاتحاديين فى تركيا الذين عملوا على انتزاع بلادهم من الإسلام إلى القومية الطورانية ، كل هذا هو الذى دعا ساطع الحصرى إلى أن يفهم الإسلام على أنه دين لاهوتى .

ومن ذلك عباراته التي يرددتها دائما ( ترك الأمور السياسية خارج نطاق الأبحاث الدينية ) وهي عبارة كنسية فإن الإسلام دين وسياسة لم ينفكا ولم ينفصلا .  
ومن أكبر المؤثرات التي شكلت فكر ساطع الحصري هو نشأته في محيط الاتحاديين الذين تربوا في المحافل الماسونية والمعروف أن الدعوة إلى القومية العربية بدأت أول أمرها في معاهد الإرساليات التبشيرية بهدف فصل العرب عن الدولة العثمانية ومع أن ساطع الحصري عربى من اليمن ، إلا أنه يصدر عن كراهية عميقة للإسلام ، هي نفس كراهية الاتحاديين له لأنه تربى في أحضانهم .

وقد كان هدف فصل العرب عن الدولة العثمانية إسقاط الوحدة الإسلامية التي كان إسقاطها أكبر أهداف النفوذ الأجنبى والصهيونية ، ولذلك عمل على إحلال تيارين متصارعين بدلا منه وهما القومية والإقليمية حتى تتفكك دولة الخلافة الجامعة والدولة العثمانية كانت واقعة في مشاكل كثيرة من ضعف ومن زحف أوروبا نحوها ومن وثوق بعض الخلفاء بغير المسلمين ، ولكن الحل لم يكن فى إسقاطها وهدمها ، ومن هنا نشأت الدعوة إلى ما أطلق عليه الخلافة العربية ، وهي ليست من الإسلام فى شئ ، تلك التى حمل لواءها الكواكيبى والحلبى وشجع النفوذ الأجنبى كل دعوة تعمل على تمزيق الجبهة الإسلامية .

ولا ريب أن موقف ساطع الحصري من الدولة العثمانية يلقى ظللا كثيفة ، على تفسيرات التاريخ العثماني وموقفه من الخلافة ومن الوحدة الإسلامية ومن علاقات الدولة العثمانية مع العرب ، كل هذا يخضع لعقيدة ساطع الحصري كواحد من الاتحاديين الذين نشئوا فى المحافل الماسونية وتأثروا بمفهوم القومية المفرغ من الدين ، والفارق العميق بين مفهوم الدين ومفهوم الإسلام .

#### لغة ألف مليون مسلم :

من أخطاء ساطع الحصري المترتبة على ذلك عجزه عن فهم الإسلام ، بوصفه ديننا عالميا وأن المسلمين أمة واحدة .

كذلك فإنه يخطئ خطأ واضحا فى عجزه عن فهم ماهية اللغة العربية ، التى هى لغة ألف ومائتى مليون مسلم ، فى ثقافتهم وعباداتهم وأصول تفكيرهم ، وعجزه عن فهم ماهية

التاريخ الذى هو تاريخ الإسلام ، والذى لا يمكن فصله إلى تاريخ عربى وتاريخ فارسى وتاريخ تركى ، أو تاريخ إقليمى لكل بلد على حدة ، وعجزه عن فهم أن الفكر وليس اللغة هو أساس وحدة الأمة ، ويعجز ساطع الحصرى عن فهم الفارق بين اللغة اللاتينية التى تمزقت إلى لهجات فرنسية وألمانية وغيرها ، وبين اللغة العربية التى حفظها القرآن الكريم ، فالفارق بين اللاتينية والعربية واضح فبالرغم من أن اللغة اللاتينية حملت الإنجيل ، إلا أنها تفرقت إلى لهجات ، أما الإسلام فلم يحدث أن قامت الصراعات والحروب بين أهل مذاهبه ، وأن الإسلام حين ظهرت فيه المذاهب لم يتمزق إلى فرق تعتبر كل منها ديناً خاصاً ، كما يرى الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس ، بل كانت هى طبيعة الإسلام فى إثراء التشريع بتنوع الاجتهاد ابتغاء التيسير ورفع الحرج .

وحين انشطرت الإمبراطورية الرومانية ، إلى غربية وشرقية ذهب كل شطر منها بمذهب خاص وارتبط بلغة خاصة .

ونتيجة لرأيه فى الدولة العثمانية شكك فى خلافة آل عثمان وأنكر فضلهم فى حماية العالم الإسلامى خلال أربعمئة عام ، ونقل آراء مبتسرة ، ومن ذلك قوله : ( إن الأحداث التى توالى من إقدام الأتراك على إلغاء الخلافة قد قضت على فكرة الخلافة الإسلامية القضاء المبرم وأبعدتها عن نطاق التفكير السياسى فى جميع البلاد الإسلامية ) ، وما كان لساطع الحصرى أن يقرر ما لا يعلم من أنه عناصر أصيلة فى برامج جميع الهيئات الإسلامية فضلاً عما ووجهت به الفكرة من كتابات على كل مستوى وفى مقدمتها أطروحة الدكتوراه لعبد الرزاق السنهورى فى باريس عن عصبة الأمم الإسلامية ، وما عقد بعد ذلك من مؤتمرات وما قام من مؤسسات للتضامن الإسلامى ، وأن الإمامة واجب شرعى يجب على المسلمين إقامته بانتخاب خليفة يجتمعون تحت رايته وإلا أئتموا جميعاً .

#### لا تاريخ للعرب إلا الإسلام :

ولقد غاب عن ساطع الحصرى أنه لا تاريخ للعرب إلا تاريخ الإسلام وأنه ليس للعرب تاريخ منفصل عن الأمة الإسلامية ، وإن اللغة العربية هى لسان الإسلام عن طريق قرآنه وسنته للمسلمين جميعاً وليس للعرب وحدهم وأنه لولا القرآن الكريم لتمزقت اللغة العربية إلى عاميات كما تمزقت اللغات الأوربية .

ولقد دافع ساطع الحصرى عن نظريته بحماس عجيب ولكنه لم يكن قادراً على استيعاب الإسلام ولكننا لا ننسى لساطع الحصرى أنه حاجج دعاة الأقليات والذين هاجموا ٣٤٩ .

تاريخ العرب ووصفوه بالسخافات والجهالات ، أمثال سلامة موسى ، وحسين مؤنس ، وأمين الخولى ، وطه حسين ، والذين هاجمو مفاهيم طه حسين الفرعونية ودعوته إلى تعليم اللغات اللاتينية واليونانية ، وهاجم سعد زغلول فى قوله عن العرب أنهم أصفار .  
واليوم وقد تجاوز الفكر الإسلامى هذه المرحلة ، فإنه يجب أن يكون واضحاً أمام شبابنا المسلم أن هذه التجربة لا يمكن أن تعود ، وأن اليقظة الإسلامية اليوم تتحرك فى اتجاه الوحدة والصحة الإسلامية الشاملة بإذن الله تعالى ، عاجلاً أو آجلاً .

## ( ٩ ) تاريخ آداب اللغة العربية :

- \* هذا الكتاب مؤلفه مارونى تريبى فى مدارس اليسوعيين هو جرجى زيدان .  
قال الشيخ السكندرى : الأمور التى تؤخذ على الكتاب كثيرة .  
أولاً : الخطأ فى الحكم الفنى ، أى تقرير غير الحقيقة العلمية سواء أكان ذلك بقصد من المؤلف أم بغير قصد .  
ثانياً : الخطأ فى الاستنتاج ، وهو ما يعذر فيه المؤلف لأنه اجتهد من عند نفسه .  
ثالثاً : الدعوى بغير دليل ، وهو ما يقرره المؤلف من غير دليل عليه ، وقد يكون فى ذاته صحيحاً ولكن سوقه ساذجاً يفتح مجالاً للشك .  
رابعاً : الخطأ فى النقل وهو آت من تصرف المؤلف فى عبارات المؤلفين بقصد اختصارها ، أو من تسرعه فى الجمع ، وقلة مراجعة الأصول .  
خامساً : قلة تحرى الحقيقة بمراجعة الكتب المعتمدة والتواريخ الصادقة ، ووزن كل عبارة بميزان العقل والإنصاف وقياس الأمور بأشياءها ، بل كثيراً ما تروج عند المؤلف أقوال الخصوم فى خصوصهم ، وأقوال الكتب الموضوعة لأخبار المجان ، أو لذكر عجائب الأمور وغرائبها .  
سادساً : تناقض بعض أقوال الكتاب .  
سابعاً : الاختصار فى كثير من التراجم والمباحث ، وإهمال ما ليس من شأنه أن يهمل .

ثامناً : إدخال ما ليس من موضوع الفن فيه ، لغير مناسبة أو لمناسبة ضعيفة جدا .  
تاسعاً : الاستدلال بجزئية واحدة على الأمر الكلى ، وهو كثير الحصول فى جميع كتب المؤلف وفى أكثر استنتاجاته ودعاواه .  
عاشراً : تقليد المستشرقين فى مزاعمهم أو نقلها من غير تمحيص .  
حادى عشر : اضطراب المباحث وصعوبة استخراج فائدة منها لاختلال عبارتها ، أو لعدم صفاء الموضوع للمؤلف .  
ثانى عشر : اضطراب التقسيم والتبويب ، إما بذكر المباحث فى غير موضعها ، وإما بعد رجال عصر فى عداد رجال عصر آخر .  
ثالث عشر : التحريف واللحن وهما كثيرا الشيوخ فى جميع كتب المؤلف .  
رابع عشر : تهافت المؤلف على تطبيق قانون النشوء والارتقاء حتى على الأمور التى فيها تدن وانحطاط لا نشوء ولا ارتقاء .  
أولاً : الخطأ فى الحكم الفنى :

١ - قول المؤلف ( وكان أبو حنيفة لا يحب العرب ولا العربية حتى أنه لم يكن يحسن الإعراب ولا يبالى به ) .  
وقد عزا هذه العبارة إلى ( ابن خلكان - وفيات الأعيان - ج ٢ ) فالذى يثق بالمؤلف يصدق عبارته هذه ، بعد أن تبرأ من تبعثها ونسبها إلى مؤرخ عظيم ، ولكنه إذا راجع ابن خلكان فى هذه الصفحة ، بل إذا قرأ ترجمة أبى حنيفة من أولها إلى آخرها لم يشم منها رائحة هذه الألفاظ بل المعانى .  
٢ - فقول المؤلف ( وكان أئمة الفقه فى المدينة ، فأراد المنصور تصغير أمر العرب وإعظام أمر الفرس لأنهم أنصارهم - أى العباسيين - فكان من جملة مساعيه فى ذلك تحويل أنظار المسلمين عن الحرمين ، فبنى بناء سماه القبة الخضراء محجا للناس ( كذا ) وقطع المسيرة عن المدينة ، وفقهه المدينة يومئذ الإمام مالك الشهير فاستفتاه أهلها فى أمر المنصور ، فأفتى بخلع بيعته فخلعوها ، وبايعوا محمد بن عبد الله من آل على .. إلخ .  
ومن عبارته يفهم أن جمهرة أئمة الفقه كانت بالمدينة فقط ، وأن المنصور كان يكره

العرب كراهية حملته أن يرتد عن الإسلام ويحاول صرف المسلمين عن تولية وجوههم شطر قبيلتهم ، وأنه قطع الميرة عن المدينة ، وأن أهل المدينة استفتوا مالكا في خلع المنصور فأفتاهم .

وكل هذه اللوازم باطلة فلم تكن جمهرة الفقه بالمدينة بل كانت في كل الأقطار ، ثم كيف يكره المنصور العرب هذه الكراهية وهو عربي ، وابن عم النبي ﷺ ، وخليفته في أمته وشريعته .

أما عن الثالث فينا فيه ما تقدم ، واعتذار المنصور بعد ذلك لمالك عما وقع ، كذلك فإن المنصور لم يقطع عن أهل المدينة إلا بعد مبايعتهم محمد بن عبد الله .

ومن خطئه في الحكم عده طاهر بن الحسين - فاتح بغداد وقاتل الأمين - في عداد المنشئين كتاب الرسائل ، مع أن هذا الاسم لا ينطبق عند علماء الأدب إلا على الكاتب في ديوان الرسائل ، ولم نجد فيه طاهر بن الحسين منشأً قط .

ومن الخطأ في الحكم زعم المؤلف أن علم الكلام ومذهب الاعتزال نشأ في العصر الثاني من حكم بني العباس أي بعد عام ١٣٢ هـ مع أن المشهور في التاريخ أنه لما كثرت الزنادقة والملاحدة في زمن المهدي ، أوعز إلى العلماء أن يحاجوهم بالأدلة العقلية ويدون ذلك في الكتب ففعلوا وسموا المتكلمين .

ومن الخطأ في الحكم جعله أبا منصور عبد الملك الثعالبي صاحب يتيمة الدهر ، هو صاحب التفسير الكبير المعروف بتفسير الثعلبي ، والثعلبي هو الإمام الحجة الثبت ( أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي ) فهو شخص آخر غير أبي منصور الثعالبي .

ومن أخطائه قوله أن القصائد طالت في العصر الثالث من حكم بني العباس وطول القصائد لم يختص في عصر دون عصر ، وقوله : إن العرب لم يدركوا شأن اليونان والفرس في تطويل القصائد ، فإن المؤلف لم يفتن إلى الفرق بين الشعر العربي والأعجمي ، فإن الشعر العربي تنظم القصيدة فيه من بحر واحد وقافية واحدة وراو واحد ، وشعر الأمم الأعجمية ليس له قافية .

ومن الخطأ في الاستنتاج ، زعم المؤلف أن التصوف لم ينشأ إلا في العصر الثالث ،

أى بعد ٣٢٤ هـ وينعى على ابن خلدون وغيره ممن يرى أن اشتقاقه من الصوف ، ويرى أن اشتقاقه من كلمة سوفيا اليونانية ( بمعنى الحكمة ) .

وأقول إن طريقة القوم قد اشتهرت بهذا الاسم قبل شيوع ترجمة الكتب اليونانية وانتشار الفلسفة .

ومن خطأ الاستنتاج واضطراب الكلام واختلاطه ، الفصل الذى كتبه المؤلف عن السيرة النبوية ، فقد جعل سيرة ابن إسحاق وابن هشام واحدة ، وابن هشام لم يكن راوياً ، والحقيقة أن سيرة ابن إسحاق سيرة كبيرة مستقلة عن سيرة ابن هشام ، وهى التى يطلعن فى شعرها ولم يتفق على صحتها وأن ابن هشام لم يكن هو الراوى لهذه السيرة بل لخص سيرته النبوية عن سيرة ابن إسحاق وغيرها من كتب المغازى .

#### ثانيا : دعاوى المؤلف :

ومن دعاوى المؤلف بغير دليل دعواه أن ابن قتيبة أول من تجرأ على النقد الأدبى فألف فى أكثر فنون الأدب المعروفة .

فإن أراد المؤلف أنه أول من كتب فى نقد الشعر ، فليس بصحيح إذ سبقه إلى ذلك كثير : منهم محمد بن سلام الجمحى ، فى كتابه طبقات فحول الشعراء ، وقبله ألف أبو عبيدة كتاب نقائض جرير والفرزدق .

ومن دعاوى المؤلف قوله : إن الشعر فى العصر الأول من بنى العباس قد بطل استعماله فى العصبية ، كما بطل استناد الخلفاء للشعراء بسبب انتصارهم لفريق على فريق .

والحقيقة أن الشعر بقى يستعمل فى العصبية طوال العصر العباسى الأول وبعض العصر الثانى ، بل لقد فتح الخلفاء العباسيون فى العصبية باباً شراً من عصبية القبائل ، وهو تفضيل العباسيين على الطالبيين .

ومن دعاوى المؤلف : قوله : ولم يكن للشاعر العربى بد من الرحلة إلى بلاد العرب لاقتباس أساليبهم « فليقل لنا المؤلف ما هى رحلات أبى نواس ومسلم والحسين بن الضحاك ومطيع بن إياس وحمام عمجد وأبان اللاحقى إلى بادية العرب .

إن الرحلة إلى بلاد العرب كانت خاصة بالعلماء ورواة الأدب واللغة أمثال الخليل والأصمعى وأبى عبيدة والكسائى .

ومن دعاوى المؤلف أن ابن المقفع كان يعرف اليونانية جيدا ، ولم نر فى كتب الأدب والتاريخ من ذكر هذا .

ومن دعاوى المؤلف فى الكلام على طريقة أبى الحسن الأشعرى فى علم الكلام ، أن الناس عولوا على رأيه لما فيه من التسوية بين الآراء ، فكيف يعقل أن مذهباً يسوى بين آراء كل الطوائف ، وفيهم من يناقض مذهب مذهب الآخر ، وغاية الأمر أنه اعتدل بين مذهبي المعتزلة والسلفية من أهل السنة .

ومن دعاوى المؤلف عن المتوكل الخليفة العباسى أنه أهلك جماعة من العلماء ، وحط مراتبهم وعادى العلم وأهله .

فمن أين للمؤلف هذا الكلام وكل هذه الغارة على المتوكل من جرّاء أنه رفع الفتنة بخلق القرآن ، ونهى الناس عن الجدل فيها بعد أن أنهكت دينهم وأخلاقهم وأنه أمر أهل الذمة بلبس شارات تميز زيهم وأنه صادر بختيشوع الطيب وبعض الكتاب لخيانة ظهرت له منهم .

ومن دعاوى المؤلف أن الإنشاء فى العصر الثالث العباسى قد صار له طريقة خاصة سماها ( كلاسيك ) أخذاً من اصطلاح الإفريخ ، ثم أخذ يسرد شروطاً للإنشاء المدرسى ، والمتتبع لها يجد أن أكثرها لا يختص بعصر دون عصر ، وأن أغلبها أمور طبيعية وعادية فى كل زمان .

ومن دعاوى المؤلف زعمه أن العرب نقلت محاضراتها عن اليونان ، وما نقله المؤلف من تعريف المحاضرات إنما يؤكد أنها فن عربى بحث كان يطلق قديماً على عدة علوم من أنواع التاريخ والأخبار والنوادر والشعر ومنه كامل المبرد وآمال القالى وكثير من كتب الجاحظ وأبى حنيفة الدينورى .

ومن دعاوى المؤلف أن كتب ( السيرافى ) لم يصلنا منها شئ وعد منها كتاب النحويين البصريين ، والكتاب فى دار الكتب المصرية فى نسخة قديمة وأظنها من كتب الشنقيطى .

\* \* \* \*



### ثالثاً : الخطأ فى النقل :

أخطأ المؤلف فى نقل عبارات المؤلفين إما بتصرفه تصرفاً أفسد معناها ، وإما بتحريف الكلم وإما بنقلها من نسخة محرفة من غير تمحيص ، وهو كثير .  
ومنها خطؤه فى تسمية اسم رجل واحد على مسميين ( أحمد بن يوسف بن صبيح ) فقال أحمد بن يوسف وزير المأمون ، وابن صبيح .

ومن نقصير المؤلف فى توضيح ما نقله عن السيوطى ، ناقلاً عن كتاب العين ومختصر الزبيدى ، إحصاء المستعمل من الألفاظ العربية والمهملة منها ، فاستخرج المؤلف من كتاب الزبيدى إحصاء المستعمل من الألفاظ العربية ٥٦٢٠ لفظاً مع أن كتاب القاموس ( وهو ليس إلا قطرة من بحر اللغة العربية ) يشتمل على ستين ألف مادة ، متوسط ما فى كل منها من المزيد والمشارك عشرون كلمة على الأقل ، أى نحو مائتى ألف كلمة فكيف ولسان العرب ، به ثمانون ألف مادة متوسط ما فى كل منها ثلاثون كلمة على الأقل .

### رابعاً : عدم تحرى الحقيقة والصواب :

اعتاد المؤلف أن ينقل إلى كتبه ما يعتقده بذاته ، أو ما يكون ذائعاً على ألسنة عامة القراء والوراقين من غير تمحيص لحقيقتها ، ولكن على كل من تعرض لتدوين التاريخ فى السياسة أو الأدب ألا يكتفى برواية كتاب واحد أو كتابين ، أو بما يذاع على ألسنة الناس بل يجب عليه تحقيق الخبر وتمحيصه والأخذ بالرواية القريبة من العقل .

ومن ذلك نقله عبارة ابن خلكان عن أن الأمين جمع بين سيبويه والكسائى فى مجلس للمناظرة وأن الكسائى زعم أن العرب تقول كنت أظن الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها ، والمشهور أن المناظرة جرت فى مجلس يحيى بن خالد البرمكى .  
ومن ذلك أنه لم يتحرى الحقيقة والصواب فى تعداد كتب الواقدى .

### خامساً : التناقض :

ناقض المؤلف نفسه فى كثير من مواضع كتابه :

فمن ذلك ما ذكره عن ابن الرومى والمتنبى وما شكك من نسبة كتاب العين إلى الخليل ، وناقض المؤلف نفسه فى نشأة علم الجغرافيا فى العصر العباسى الثانى .  
ومن تناقض المؤلف قوله نشأ علم الجغرافيا فى هذا العصر ( العصر الثانى العباسى )

بعد نقل علوم القدماء إلى العربية وفي جملتها كتاب بطليموس ، وعليه معولهم في تقويم البلدان .

على أن المسلمين بدءوا بوضع الجغرافيا قبل اطلاعهم على هذا الكتاب ، لأسباب غير التي دعت اليونان إلى وضعها إلخ .

وهذا تناقض من المؤلف إذ ذكر الجغرافية أولا بمعنى الجغرافيا الرياضية ، وأعادها ثانيا باسم الجغرافيا التخطيطية ، التي كانت تسمى علم المسالك والممالك ، والمعروف أن العرب اشتغلوا بالجغرافية اليونانية قبل العصر الثاني ، والمأمون وعلماءه ممن صحح أغلاط بطليموس وغيره ، وفي محيط الأرض وقطرها ومقياس الدرجة الأرضية .

ومن تناقض المؤلف وتخييره قوله في أبي العتاهية : قد نظم في كل أبواب الشعر وامتناز منها بالزهد ، ويؤخذ من سيرة حياته أنه كان مترددا متقلبا على أن امتناع أبي العتاهية عن قول الغزل بعد أن أمره به الرشيد يخالف هذه القاعدة .

والرأي أن هذه العلل لو صدقت على كل شاعر يتكسب بالشعر لتبرمت<sup>(١)</sup> الدنيا بكثرة المحرورين والموسسين .

#### سادساً : الاختصار فيما يجب الإطناب فيه :

ومن أعجب أمور المؤلف أنه يعلم ، ويعلم أن الناس تعلم ، أنه يؤلف كتابه في آداب اللغة العربية لا آداب اللغة اليونانية القديمة ولا الفارسية ولا اللغات الأوروبية ، ثم نراه إذا خاض في ذكر بحث من مباحث الآداب العربية أو عدد النبغاء أو ذكر ترجمة شاعر أو كاتب ، اقتصر على ذكر نتف قليلة أو اقتصر على العدد القليل من مشهورى النبغاء واختصر تراجمهم مكتفيا بذكر ما لا يلزم الناقد الأديب وبذكر الكتب التي يراجعها من شاء التوسع .

وأشار إلى تقصير المؤلف بإهماله ذكر الجرمي من نحاة العصر الثاني مع ترجمته لابن ولاء وأبي جعفر النحاس ، وإهماله ذكر الأوزان والقوافي التي طرأت على الشعر في جميع العصور التي ذكرها كالمواليا والدوبيت ، وتخصيصه اثني عشر صفحة من كتابه لموضوع

( ١ ) تبرمت : شمت .

أجنى عن موضوع آداب اللغة العربية بالمرّة ، وهو آداب اللغة اليونانية وأطوارها وتراجم فلاسفة اليونان .

ومن ذلك إسهاب المؤلف فى شرح الأدب والإنشاء عند الإفريخ وذكره لبعض قصص الإفريخ الخرافية .

ومن التطويل المخل بالنظام وضع الكلام فى مبحث تأثير القرآن الكريم فى اللغة العربية فى هذا الجزء ومن حقه أن يدرج فى الجزء الأول ، ومن التطويل تكرار الكلام فى موضعين أو ثلاثة لغير موجب مثل وصف التهلك والخلاعة عند الشعراء .

#### **سابعاً : الاستدلال بحادثة جزئية على أمر كلى :**

اعتاد المؤلف فى كتبه أن يستنتج من حادثة جزئية أمراً كلياً وهذه الخصلة من أكثر ما ينعه عليه النقاد وقد عمل بها فى كتابه هذا غير مرة ( وقدم الباحث فى ذلك نماذج متعدّدة ) .

#### **ثامناً : تقليد مستعربى الفرنجة حتى فى الخطأ :**

للمصنف ولع بنقل ما يكتبه المستعربون عن العرب وآدابهم ولو خالف الواقع ، ومن ذلك نقله فصولاً برمتها مشوبة بالخطأ من كتاب نيكلسن الإنجليزى وبروكلمان الألمانى ، مثل مقالة الشعر فى العصر الأول وغيرها .

#### **تاسعاً : اضطراب التبويب والتقسيم :**

من ذلك أن وضع ما يصلح أن يذكر من آداب الفرنجة فى آداب العرب ، وما ينبغي أن يجعل فى عصور ظهور الإسلام جعله فى عصر بنى العباس ، ومن يجب أن يترجم له فى عصر معين أو فى طائفة بعينها ترجم له فى عصر غير عصره أو طائفة غير طائفته ، بحيث تضطرب المباحث وتتداخل العصور .

من ذلك ذكره أن الخلاف بين النحويين الكوفيين والبصريين حصل فى العصر الثانى وما بعده من عصور الدولة العباسية ، والحقيقة أنه حصل فى العصر الأول .

ومن ذلك تأخير الكلام عن نشأة علم الفرائض إلى العصر الثالث مع أنه قديم دون منذ دون الفقه فى العصر الأول .

#### **عاشراً : تهافت المؤلف :**

للمؤلف تهافت وولع بالشئ لا يؤبه له ، أو بالأمر يناسب مقاماً خاصاً فيقحمه فى كل مقام ، كما فعل هذا فى كتابه فى مواضع شتى .

من ذلك حالة النشوء والارتقاء يقيس بها كل أمر حتى خرج به القياس إلى عكس ما يراد بها وذكر أن اضطراب الخلافة الإسلامية وانحلالها إلى إمارات وممالك صغيرة متنافسة متشاكسة من دواعي النشوء والارتقاء في حين يعده المؤرخون من دواعي الانقراض والفناء .

#### حادى عشر : اللحن والأغلاط اللغوية :

لا تكاد تمر بالقارئ صفحة إلا وهى مشتملة على خطأ لفظي ، إما فى النحو أو الصرف أو اللغة ، وإذا كانت هذه الأغلاط تعد بالعشرات بل بالمئات فإننا لا نستطيع تعدادها .

وفى النهاية يختم الشيخ السكندرى رحمه الله نقده ختاماً مؤدباً <sup>(١)</sup> حيث يقول :  
والنتيجة أن الكتاب على ما فيه من مواضع النقد لا يخلو من منافع فى موضوعه وغير موضوعه وهى عبارة مؤدبة تعنى أن المؤلف لم يكن منضبط المنهاج فكان كلامه أحياناً يخرج عن موضوع الكتاب .

#### ( ١٠ ) روايات جورجى زيدان لا روايات الإسلام :

##### \* جورجى زيدان حاول إفساد مفهوم الشخصية والبطولة :

إن إعادة النظر فى كتابات جورجى زيدان تكشف بوضوح أنه يمثل اتجاه الاستشراق والتبشير والتغريب ، حاملاً شبهاته وسمومه ، وعاملاً على غرسها فى أبحاث التاريخ الإسلامى ، وقد كانت هذه الكتابات مجهولة المصدر ، حتى ترجمت دائرة المعارف الإسلامية ، التى كتبها متعصبو المستشرقين ، وتبين أنها تضاهيها من حيث وحدة المصدر .  
ثم جاء بعد ذلك طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولى وغيرهم ، فأدخلوا التاريخ الإسلامى فى مراحل جديدة أشد خطورة ، ثم جاءت بعد ذلك محاولات التفسير المادى للتاريخ الإسلامى التى حمل لواءها عبد الرحمن الشرقاوى وغيره .

(١) هذا البحث نشره الشيخ أحمد السكندرى فى مجلة المنار المجلدين ١٥ ، ١٦ ( ١٩١٢ - ١٩١٣ ) وهو عن الجزء الثانى من تاريخ آداب اللغة العربية تأليف جورجى زيدان .

أما المجال الذى استطاع جورجى زيدان أن يث في سمومه ، فهو مجال القصص ، فقد ألف عددا من القصص تحت اسم روايات الإسلام ، دس فيها كثيرا من الدسائس والمؤامرات والأهواء ، وحاول إفساد مفهوم الشخصية والبطولة الإسلامية حيث أساء إساءة بالغة إلى الأعلام من أمثال صلاح الدين الأيوبي ، وهارون الرشيد ، والسلطان عبد الحميد ، وعبد الرحمن الناصر ، وعبد الرحمن الغافقي ، وأحمد بن طولون ، والأمين ، والمأمون ، وعبد الرحمن الداخل ، وشجرة الدر . . . إلخ . وما زالت هذه الروايات تظهر بين وقت وآخر مطبوعة طباعة فاخرة ، لتخدع الشباب بذلك الأسلوب القصصى ، وقد أقام جورجى زيدان تصوره على أساس خطير .

**أولا :** تصويره للخلفاء والصحابة والتابعين بصورة الوصوليين الذين يريدون الوصول إلى الحكم بأية وسيلة ، ولو كان على حساب الدين والخلق القويم ، مع تحريجهم واتهام بعضهم بالحق وتدبير المؤامرات .

**ثانيا :** تزييف النصوص التى نقلها عن المؤرخين القدامى ، وحولها عن هدفها ، تحويلا أراد به السخرية والاستخفاف بالمسلمين ، وبنى عليها قصصا غرامية باطلة .

**ثالثا :** استهدف من حشد العلاقات الغرامية ذات المواقف الميئة ، داخل روايات تاريخ الإسلام ، إثارة غريزة الشباب وتحريك شهوة المراهقين ، مستغلا ثقافة الكثيرين منهم ، وجهلهم بالغاية التى يرمى إليها فى رواياته ، مع الاستشهاد بالأبيات الشعرية المكشوفة الساقطة ، التى تحرك الغرائز الدنيا .

**رابعا :** تبين من البحث الذى قدمه عالم أزهرى ، درس باستفاضة روايات جورجى زيدان ، أن معظم الأحداث التاريخية فى رواياته قد حرفت وبنيت على أساس فاسد ، فقد ظل جورجى زيدان ، على حد تعبير الباحث ، ينقب وينقر ويجهد نفسه فى مزج الحق بالباطل ، وتقديمه فى أسلوب براق جذاب ، معتمدا على فن أدبى ذى أثر بالغ ، وذلك هو فن القصة والرواية ، حيث لم يكن حريصا على تحرى الحقائق التاريخية قدر حرصه على الحبكة القصصية وخلق الحوادث المثيرة خلقا ، وقد عمل جاهدا على طمس التاريخ الإسلامى وتشويه معالنه ، بغية تنفير أبناء العرب والمسلمين من ماضى آبائهم المجيد .

**خامسا :** من أخطر شبهاته أنه قال ببشرية القرآن وشك فى مصادر العربية الأولى ،

ومدح بنى العباس لأنهم أنزلوا العرب منزلة الكلب ( على حد قوله ) ونسب إحراق مكتبة الإسكندرية إلى عمر بن الخطاب ( رضى الله عنه ) .

وقد طبع اللبنانيون ودار الهلال في مصر روايات جرجى زيدان مزدانة بالصور الملونة والألوان الصارخة بقصد استهواء الشباب وحثهم على قراءة هذه الكتب ، التي لا تعطيهم إلا صورة مشوهة لتاريخ أمتهم ، وأخباراً ملفقة بغية التشكيك في ذلك التاريخ .

**سادساً :** أعطى نفسه الحرية المطلقة في تفسير أحداث التاريخ في معظم رواياته ، استناداً إلى ما يسمى موقف الأديب من التاريخ ، وكانت تفسيراته متعسفة متكلفة ، تخفى محاولة لإثارة مشاعر السخط في نفوس المسلمين .

**سابعاً :** تفسيره لتصرفات هارون الرشيد مع أخته العباسة وجعفر البرمكي وما أثر حولهما من أخبار ، بما لا يتفق مع ما عرف عن الرشيد من أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً ، بل وبما لا يتفق مع أيسر قواعد التفكير والمنطق السليم ، وفي رواية ( أرمانوسة المصرية ) - والتي تحكى قصة فتح عمرو بن العاص لمصر حاول أن يقول : إن الحب بين أرمانوسة وأركاديبوس قائد حصن الروم ، هو السبب في هزيمة الروم وانتصار المسلمين ، واتهم المسلمين بأنهم دخلوا البيوت ينيهبون ويسلبون عندما فتحوا بلبيس ، وهو مناقض تماماً لما أورده المؤرخون المنصفون من المسلمين وغير المسلمين .

**ثامناً :** في رواية « فتاة غسان » والتي تحكى فتوح الشام وبدء ظهور الإسلام ، أورد شبهة بأن النبي محمد ﷺ أخذ تعاليمه من الرهبان ، وتأثر بتوجيهات الراهب بحيرا ، واتسمت كتابته بالسخرية والاستخفاف بوثائق العهد النبوى ، ووصف حادثة شق صدر النبي ﷺ بالغرابة ، وادعى أن هناك خصومة بين خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح ( رضى الله عنهما ) ، وأخذ مصادره في هذا من كتب المستشرقين .

**تاسعاً :** في رواية ( عذراء قريش ) - والتي تناولت عصر الخلفاء الراشدين ، أقام منطقته على تجريخ الصحابة ( رضى الله عنه ) واتهام بعضهم بالحقْد وتدبير المؤامرات ، واتهم السيدة عائشة ( رضى الله عنها ) بالميل إلى سفك الدماء والنزوع إلى الشر !! ووصف الخليفة عثمان ( رضى الله عنه ) بأنه رجل إمعة وذليل ومستسلم لابن عمه ،

وافترى على ( على بن أبي طالب كرم الله وجهه ) وفسر الفتنة تفسيراً مغرضاً واتهم علياً ( رضى الله عنه ) بالتهاون فى المطالبة بدم عثمان .

عاشراً : وفى رواية « العباسية » التى تحكى قصة نكبة البرامكة - اتهم الرشيد بالاستهتار والجور والاستبداد والظلم - وقدم تفسيراً خاطئاً ومغرضاً لقتل بنى برمك ، وشوه شخصية العباسية أخت الرشيد .

الحادى عشر : فى رواية ( شارل وعبد الرحمن ) - التى تحكى جزءاً من عصر الولاة بالأندلس - زعم بأن القواد وأمرأء الجند من المسلمين كانوا مشغولين بحب فتيات النصرارى ، وقد فتنوا بجمالهن ، وأن هذا الحب قد صرفهم عن أمر الفتح ، فتركوا جنودهم فى ساحة القتال وادعى أنهم كانوا يهتمون بالغنائم أكثر من اهتمامهم بما عداها ، وجرى على تصوير حروب الإسلام على أنها حروب غنائم .

الثانى عشر : أجرى على لسان أبى مسلم الخراسانى من الافتراء ، ما قال من أن « العرب كانوا يحتقرون غير العرب ، ويسومونهم سوء العذاب ، ثم يفتخرون عليهم بالنبوة » وطمس معالم التاريخ الإسلامى فى هذه الرواية بالدس والافتراء ، وقدم صوراً باهرة للكنيسة وروهبانها ، وأشاد بالأديرة والرهبان حيث جعلها ملجأ للضعفاء وملاذ التائهين والخائفين .

وفى رواية الأمين والمأمون ، كان واضح التحامل على العرب ، واصفا إياهم بالاستبداد وسوء التصرف مع الأجناس الأخرى ، التى تربطهم رابطة الإسلام قبل كل شىء .

الثالث عشر : فى رواية « فتاة القيروان » - التى تحكى الفاطميين ومن عاصرهم - حاول التشكيك فى أنساب الكثيرين من حكام المسلمين ، وكذلك عمد إلى التشكيك فى نسب « المعز لدين الله » واعتمد فى قصصه الغرامية على الخيال ، إذ لا يوجد ذكر لكل هذه المواقف فى جميع كتب التاريخ ، خاصة حاكم سلجماسة الأمير حمدون ، بل إن صاحب سلجماسة فى كتب التاريخ يختلف تماماً عما جاء فى رواية زيدان ، مما يؤكد ميل زيدان إلى التزوير والتحريف .

بل إن صاحب سلجماسة هو محمد بن داسول ، وليس الأمير حمدون ، ولم يقل ابن الأثير أن له بنتاً شغلت القائد جوهر فخطبها لابنه ، وقد أعطى زيدان لليهود فى روايته دوراً

إيجابيا ، وجعلهم أصحاب الفضل الأول فى إزالة الدولة الإخشيدية ، وإقامة دولة الفاطميين مقامها وربما يكون قد أصاب فى النقطة الأخيرة .

**الرابع عشر :** فى رواية صلاح الدين تليفق وتزوير وإفساد للتاريخ ، فقد ذهب إلى أن الخليفة العاضد لما ضعف أمره ، استدعى صلاح الدين وأوصاه بأهله خيرا ، وأن صلاح الدين نقض هذا العهد بعد سويغات ، وحاصر قصر الخليفة وأخذ كل ما فيه ومن فيه . ولا ذكر فى كتب التاريخ لتلك الوصية والإشارة فى كتب التاريخ إلى سيرة الملك هذه .

وهذه الوصية التى ذكرها ( زيدان ) لم ترد فى الكامل لابن الأثير ولا غيره فهى ملفقة مزورة ، كذلك فقد زيف زيدان النصوص التى نقلها من ابن الأثير ، وحولها تحويلا أراد به السخرية والاستخفاف بالمسلمين وبنى عليها قصصا غرامية باطلة .

ولم يعن المؤلف بالتصوير الحي لشخصية صلاح الدين ، ولم يسجل مواقفه الحاسمة ، وصرف الشباب عن الحديث عن الدور المهم الذى قام به صلاح الدين ، بالحديث عن مكائد الحشاشين - الإسماعيلية - وتهديدهم لصلاح الدين ، واعتمد على روايات طائفة الحشاشين ، تلك الجماعة الضالة المنحرفة ، وحاول أن ينسب إلى صلاح الدين قصصا غرامية كاذبة .

**الخامس عشر :** وفى رواية ( شجرة الدر ) التى تحكى أحداث نهاية العصر الأيوبي وبداية المماليك فى مصر - حاول أن يصور نساء السلطان الصالح نجم الدين أيوب بصورة النساء اللاتى يتاجرن بأعراضهن ، فى سبيل الحصول على ما يتطلعن إليه ، وليس معه أى دليل من التاريخ وهذه الدعاوى التى أوردها حول شجرة الدر تختلف عن الحقائق فى الكتب التى أرخت لهذه الفترة من أمثال النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطوط والآثار للمقرئى وصبح الأعشى للقلقشندي .

#### **التلاعب بالمراجع :**

**السادس عشر :** وخلاصة ما يصل إليه البحث حول روايات جرجى زيدان :

١ - تحوير مواقف الشخصيات التاريخية .

٢ - إثارة الشكوك حول البطولات الإسلامية .



٣ - تعتمد إغفال الحوادث التاريخية المهمة .

٤ - إضفاء حالات مثالية عن الأديرة والرهبان ودور النصارى واليهود في التاريخ الإسلامى .

٥ - التلاعب بالمصادر والمراجع .

#### رأى مجلة الموسوعات :

قالت مجلة الموسوعات ( ١٨٩٩ ) لم يلتزم جرجى زيدان بتمحيص الحوادث التاريخية ، فاختلق شخوصا ونسب إلى بعض الشخصيات الإسلامية البارزة ما ليس فيها ، مما أثار جمهور المسلمين .

فعدراء قريش ( أسماء ) بطللة الرواية لا وجود لها ، إلا فى ذهن المؤلف ، وقد يكون له بعض العذر التأليفى كقصاص ، ولكن الباطل أنه نسب لمحمد بن أبى بكر ، المعروف عنه الزهد عشق هذه العدراء ، بل إن صاحب الهلال بنى على هذا الباطل باطلا ، فاختلق سببا من عنده ليس له أسانيد تاريخية ، فى تفسير بعض الأحداث ، وزعم أن عشق محمد ابن أبى بكر ( كان سببا ) فى ازدياد هياجه على عثمان ( رضى الله عنه ) ونسب إلى الحسين بن على ( رضى الله عنهما ) عشقه لهذه العدراء الوهمية ، وغيره محمد بن أبى بكر منه .

وادعى أن الإمام عليا ( رضى الله عنه ) أعجب بعدراء قريش عندما أدخلت فى زى رجل ، مع أن الدين كان يحث على عدم تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، وقد عرف عن على ( كرم الله وجهه ) تمسكه بالدين مما ينفى عنه أنه يعجب بمثل هذا .

وقد أقر ( جرجى زيدان ) بخطئه فى هذه الوقائع ( هلال مايو ١٨٩٩ ) وحاول أن يدافع عن نفسه ولكن دفاع الطائر الذى وقع فى شبكة الصياد .

ونقول : ( إن المجلة انطوت وبقيت القصة فى أيدي القراء ، يعاد طبعها دون التفات إلى هذه الملاحظات ) ، وقد أرسل العلامة رفيق العظم إلى جرجى زيدان ( مايو ١٨٩٩ ) يؤاخذة على إغفاله الاعتبارات التاريخية ويستنكر تأليف التاريخ الإسلامى برمته فى قالب قصصى .

وهذه الملاحظة قد تكررت من الناقدين ، وقد انتقدوه فى شأن هذه القصص وما أورد

فيها من أخباره الكاذبة ، وثانيا نسب العشق والغرام إلى رجال سلفنا الكرام ، وقد أشارت جريدة المؤيد إلى ذلك في التعليق على قصة ( الحجاج بن يوسف ) فقالت : الحوادث الغرامية لم تسند إلى أحد من رجال السلف العظام والأئمة الذين يجلون عن هذه الانحرافات ، هذا فضلا عن الأخطاء في الأمور التاريخية المشهورة .

## ( ١١ ) الفن القصصى فى القرآن الكريم :

\* منهج المسلمين هو منهج العلم والعقل .

\* أخطر من يحكم فى مسألة الجاهل بتفاصيلها .

يقول الأستاذ أحمد الشايب ، فى دراسة عن حياته العلمية ( ١٩١٣ - ١٩٧٠ ) : أشير فى إيجاز إلى هذه المعركة العلمية التى دارت فى كلية الآداب ، عام ١٩٤٧ م حول مشروع رسالة ( الفن القصصى فى القرآن الكريم ) ، تقدم به طالب يدعى محمد أحمد خلف الله ، بإشراف الأستاذ الشيخ أمين الخولى ، وتأييده والدفاع عنه .

وقد قام هذا المشروع على أساس أن محمداً - ﷺ - مؤلف القرآن ، وأن القرآن فى قصصه لم يتحر الصدق ، وأنه كان يغير ويبدل فى القصص نزولا على ظروفه الخاصة ، التى كانت تحيط بالدعوة الإسلامية ، وأن محمداً - ﷺ - فى القصص القرآنى الكريم كان يخلق من الحوادث ما لم يقع ، ويصوره على أنه الواقع التاريخى ، إلى نحو ذلك مما لم يستند إلى برهان علمى ، وإنما كان مجارة للمبشرين .

وقد شغلت هذه المسألة الجهات الجامعية والأزهرية والبرلمانية ، والصحافة ومجلس الدولة ، وقد رفض أحمد الشايب هذا المشروع إذ كان معينا لفحصه ، وبرأيه أخذت كل الهيئات المذكورة وقد أبعد أصحابه عن الجامعة .

هذا هو ملخص كتاب ( الفن القصصى فى القرآن ) الذى يقول كاتبه بالنص فى الرسالة ، والتى تمثل الخطوط العامة لرسالته « إن القصص القرآنى لم يراع الحقيقة التاريخية » وأن المقصود منه عرض فنى ، فلسفى ملزمين بتصديق حقائق هذا القصص ، وإنما نقدر فيه « الغاية الفنية » وأن القصص مستمدة من مصادر أخرى غير عربية ، كالتوراة والأدب اليونانى والأدب الفارسى ، وأن فيه أساطير لا أساس لها .

ويقول تقرير الفاحصين للرسالة من أساتذة الجامعة والأزهر ( الشيخ عبد الوهاب خلاف ، والدكتور زكى حسن ، والدكتور الشرقاوى ) .

إن أساس هذه الرسالة أن القصص فى القرآن عمل فنى ، خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار ، من غير التزام الصدق التاريخى والواقعة ، وهذا صريح وواضح من جملة مواضع فى الرسالة : وقد أيدته الكاتب بما استشهد به من الأمثلة .

ففى ( ص ٢٦ سطر ١٠ ) قرر : أن القرآن : « أنطق اليهود بما لم ينطقوا به » ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح ﴾ [ سورة النساء : الآية ١٥٧ ] وص ٢٦ قرر كاتب الرسالة عن قوله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ﴾ الآية [ سورة المائدة : الآية ١١٦ ] ، أن هذا القول وهذا الحوار تصوير لموقف لم يحدث بعد ، بل لعله لن يحدث ، وفى ص ٨٩ قرر الكاتب أن قصة موسى عليه السلام فى سورة الكهف لم تعتمد على أصل فى واقع الحياة وفى هذا مخالفة ظاهرة لقوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ [ سورة الكهف : ١٣ ] ولقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ﴾ [ سورة يوسف : الآية ١١١ ] وقد واجه هذه الشبهات سبعة من العلماء بالكشف عن زيفها وفسادها .

#### أولا : رأى الشيخ عبد المتعال الصعيدى :

صاحب هذه الرسالة لم يكن له أن يظفر إلى الكتابة عن موضوع القرآن ، وهو يجهل تعريف التناقض فى المنطق ، ويبنى على جهله به حكما خطيرا فى قصة إبراهيم عليه السلام ، وهو يدل على مستوى صاحب الرسالة فى العلم ، وعلى أنه جرى فى رسالته على هذا المنوال فقلد نفسه فى بحر لا يحسن السباحة فيه ، ولم يخض فيه فحول العلماء وأكابر الحكماء ، من الطبرى إلى الزمخشري إلى الرازى ، وإلى أمثالهم فى علمهم وحكمتهم .

وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين : أن صاحب الرسالة يرى أن القصة فى التاريخ لا تلتزم الصدق التاريخى وإنما تتجه كما يتجه الأدب إلى تصوير الحادثة ، تصويرا فنيا ، بدليل التناقض فى رواية الخير الواحد ، مثل : أن البشرى كانت لإبراهيم أو لامرأته ، فدعوى هذا التناقض ، تدل على أن صاحب هذه الرسالة لا يعرف تعريف ( التناقض ) ، وعلى أنه سار

فى رسالته بهذا العلم الذى لا يزال فى طور الطفولة ، فضل الصواب وخطب خطب عشواء ، والقرآن أجل من أن يتناول بمثل هذا العلم العاجز ، وأخطر من أن يحكم فى مسائله من لا يزال يجهل تعريف التناقض .

ولقد قال الله تعالى فى البشرى بهذا الغلام ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ [ سورة هود : الآية ٧١ ] ، وفى هذه الآية كانت البشرى لسارة امرأة إبراهيم عليه السلام ، ثم إن الله تعالى قال فى هذه البشرى : ﴿ قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليكم ﴾ [ سورة الحجر : الآية ٥٣ ] . وقال : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ [ سورة الصافات : الآية ١٠١ ] ، وكانت البشرى فى الآيتين لإبراهيم عليه السلام ، فهل تبشیر سارة مرة بهذا الغلام ، وتبشیر إبراهيم مرة به من التناقض الذى يصح أن تضرب به قصة إبراهيم مثلا ، للقصة التى لا يلتزم فيها الصدق التاريخى .

اللهم لا . . لأن التناقض اختلاف قضيتين فى الإيجاب والسلب ، اختلافا يلزم لذاته من صدق إحدى القضيتين كذب الأخرى ، فلا بد فيه من الاختلاف فى الإيجاب والسلب ، ولا بد فيه من الاتحاد فى الموضوع والمحمول وقبدهما .

ليس فى هذه القصة اختلاف فى قضية البشرى من جهة الإيجاب والسلب ، فلا يكون التناقض الذى يلزم فيه صدق إحدى القضيتين وكذب الأخرى .

وإنما الذى كان أن كلا من إبراهيم وامرأته يبشّر بهذا الغلام ، وقد تكررت هذه القصة فى هذه السور فذكرت فى بعضها بشرى إبراهيم به ، وذكرت فى بعضها بشرى امرأته به ، تنوعا فى الأسلوب وتصريفا فى القصة لمقامات تقتضى التنوع وتستدعى ذلك التعريف .

صاحب الرسالة لا يفرق بين القصص الذى نص القرآن على وقوعها ، وبين الأمثال التى يجوز فيها الوقوع وعدمه ، وهى أمثال لا أساطير وقد ورد كثير منها فى القرآن أيضا ، ولكن صاحب الرسالة لم يرزق قوة التمييز بينها ، فخطب فيها خطب عشواء ، وسقط سقوط من يتناول ما فوق طاقته .

لقد ذكر الله تبارك وتعالى قصة مريم فى سورة آل عمران ثم قال فيما ذكره منها : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم

وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴿ [سورة آل عمران : الآية ٤٤ ] وهذا نص قاطع على وقوع هذه القصة .

وذكر قصة نوح في سورة هود ، ثم ختمها بقوله تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ [سورة هود : الآية ٤٩] ، فجعل تلك الأنباء وهي من الغيب من دلائل نبوته ﷺ ولا يصح الاستدلال بها على نبوته إلا إذا كانت صحيحة .

وذكر قصة يوسف في سورة يوسف ثم ختمها بقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ [سورة يوسف : الآية ١٠٢] ، وهذا نص قاطع على وقوع القصة ، وهكذا اعتبر هذه القصص من قصص الأنبياء ونحوها أمثالا قرآنية .

وهناك أمثال يضربها الله تعالى للناس كقوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ [سورة النحل : الآية ٧٥] .

فهذا مثل لا يلزم أن يكون واقعا وكذلك ما أشبهه في أمثال القرآن ، وقد فات صاحب الرسالة الفرق بين هذين الأسلوبين ، فأساء إلى نفسه وأساء إلى عمله .

**ثانيا : رأى الأستاذ أحمد أمين في الرسالة :**

هذه الرسالة ليست عادية بل رسالة خطيرة ، أساسها : أن القصص القرآني عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار ، من غير التزام لصدق التاريخ والواقع ، وأن محمد ﷺ فنان ، وبهذا المعنى يرى المؤلف أن القصة في القرآن لا تلزم الصدق التاريخي ، وأنها تتجه كما يتجه الأدب في تصوير الحادثة تصويرا فنيا ، بدليل التناقض في رواية الخبر الواحد .

١ - مثل أن البشرى بالغلام كانت لإبراهيم وامرأته .

٢ - القصة مخلوقة مثل : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت ﴾ الآية .

٣ - والإجابة عن الأسئلة التي كان يوجهها المشركون للنبي ﷺ ليست تاريخية ولا واقعة ، وإنما هي لتصوير واقع نفسه عن أحداث مضت في القدم سواء أكان ذلك الواقع النفسى متفقا مع الحق والواقع أم مخالفا له .

- ٤ - وربما كانت مسألة الجن ، التي تصور رأى الجاهلية في تسمع الجن لأخبار السماء ميدانا من الميدان القصصى ، والقرآن يقرر أن الجن تعلم بعض الشيء ، ثم لما تقدم الزمن قرر القرآن أنهم لا يعلمون شيئا ، والمفسرون يخطئون حين يأخذون الأمر مأخذ الجد .
- ٥ - الأنبياء أبطال « ولدوا في البيئة وتأدبوا بأدابها وخالطوا الأهل والعشيرة وقلدهم في كل ما يقال ويفعل ، وآمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا بما تدين به من رأى وعبدوا ما تعبد من آلهة » .
- ٦ - تصوير أخلاق الأمم كبنى إسرائيل ليس بضرورى أن يكون واقعا ، بل يصح أن يكون تصويرا فنيا يلاحظ الواقع النفسى أكثر من صدق القضايا .
- ٧ - القصة هى العمل الأدبى الذى يكون نتيجة تخيل القاص لحوادث وقعت من بطل لا وجود له أو لبطل له وجود ولكن الحوادث التى ألمت به لم تقع أصلا ، أو وقعت ولكنها نظمت على أساس فنى ، إذ قدم بعضها وأخر بعضها ، أو حذف بعضها وأضيف إلى الباقي بعض آخر أو بولغ فى تصويرها ، إلى حد يخرج بالشخصية التاريخية عن أن تكون حقيقية إلى ما يجعلها فى عداد الأشخاص الخيالية ، وهذا قصدنا من الدراسة القرآنية .
- ٨ - أخطأ الأقدمون فى عد القصص تاريخاً .
- ٩ - منهجه هو معالجة القصة من حيث هى أدب ، ويعنى بذلك خلق الصور والابتكار والاختراع .
- ١٠ - لذلك لا مانع من اختلاف تصوير الشخصية الواحدة فى القرآن .
- ١١ - لعل قصة موسى فى سورة الكهف لم تعتمد على أصل من واقع الحياة ، بل ابتدعت على غير أساس من التاريخ .
- ١٢ - القرآن عمد إلى بعض التاريخ الشعبى للعرب ، وأهل الكتاب ، ونشره نشرًا يدعم غرضه كقصة ذى القرنين !!!؟
- ١٣ - قصة إبليس من نوع الخلق الفنى الذى يتشبه فيه القرآن بالواقع .
- ١٤ - عناصر القصة هى العناصر الفنية والأدبية ، التى اتخذ منها الفنان مادته

التركيبية والتي أعمل فيها خياله وسلط عقله ونالها بالتغيير والتبديل ، حيث أصبحت وكأنها مادة جديدة بما بث فيها من روحه وكذلك القصص فى القرآن والبحث عن المصادر فى القصص القرآنى على هذا الأساس .

١٥ - يجب ألا يزعمنا هذا لأنه الواقع العملى فى حياة كل الفنون والآداب .

١٦ - إن القرآن كان يغير من العناصر لجعلها ملائمة للبيئة ولطبيعة الدعوة .

١٧ - وما تمسك به الباحثون من المستشرقين ليس سببه جهل محمد ﷺ بالتاريخ ، بل قد يكون ذلك من عمل الفنان ، الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ، ولا الحرص على الصدق العقلى ، وإنما ينتج عمله ويمرر صورته بما يملك من الموهبة والقدرة على الابتكار والاختراع والتغيير والتبديل .

١٨ - ومن هذا القبيل خلق صور الجن والملائكة .

١٩ - تدرج القصص فى القرآن كما يتدرج أدب كل أديب ، فالأدباء يلتمسون المتعة واللذة فى كل أمر فنى يعرض لهم ، ثم يتقدمون خطوة فيتبعون الاستمتاع واللذة بالمحاولات التى تقوم على التقليد والمحاكاة ، ثم يكون التخلّف شيئاً فنيئاً ، والدخول فى ميدان التجارب الخاصة ومظاهر ذلك النسخ والتدرج بالتشريع .

### ثالثاً : رأى الأستاذ عبد الفتاح بدوى :

يدعى المؤلف أن الأستاذ محمد عبده قال : إن القرآن الكريم ليس كتاباً أنزل للتاريخ وضبط الوقائع وترتيب الحوادث التاريخية بعضها على بعض ، ولكنه بالإجماع يستخدم التاريخ ويقص من هذا التاريخ حقائق واقعة ثابتة ، مرتباً بعضها ترتيباً لا استنتاج فيه ، كما يستنتج المؤرخ ، ولكن ترتيب الحق والواقع وينزل بذلك الواقع المرتب ترتيب الحقائق لهداية الناس وإرشادهم إلى الخير والفلاح .

فالقرآن يخالف كتب التاريخ فى أمور ، ويوافقها فى أمور ، فالمؤرخ قد يرى من واجبه أن يتتبع تفاصيل الواقعة من الأسماء والزمان والمكان والأحداث ، وتفصيلاتها ، لأن هذا كله قد يعينه على استنتاج الحكم التاريخى الذى يحكم به على الواقعة ، أو يشبع به صم العواطف فقد لا يعنيه بعض هذا ، لأنه لا يستنتج الأحكام التاريخية ، ولكنه الفيصل فيها .

إنه يرتب المقدمات ترتيباً يقينياً ، لا شك فيه ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ [ سورة النحل : الآية ١١٢ ] .

فالقرآن مصدر من مصادر التاريخ وليس كتاباً من كتب التاريخ .

يقول المؤلف : ( على أن هذه المسألة قديمة ، ومن أجلها عد الأصوليون القصص القرآني من المتشابه ، ولقد نتج عن ذلك طريقتان : طريقة السلف وطريقة الخلف ، أما الأولون فيذهبون إلى أن كل ما ورد في القصص القرآني من أحداث قد وقع ، وأما الآخرون فلا يلتزمون هذا وعلى طريقتهم جرى الأستاذ الإمام ) .

وهذا الذي يقوله المؤلف : جرأة أخرى على الأصوليين ، وتقول مفترى على الإمام محمد عبده ، فلسنا نعرف أحداً من الأصوليين ولا أحداً من المسلمين يعتبر القصص القرآني متشابهاً ، ولا نعرف أحداً من الأصوليين ولا المسلمين لا يلتزم بما ورد في القرآن من القصص ، وإنما هي أحداث وقعت وحوادث هي خلاصة الحقيقة التي وقعت في سوانح الأزمان ، يسوقها القرآن عبرة وهدى للعالمين ، ولابد لنا المؤلف على أصولي لا يقول هذا ، أو عن مسلم لا يقول هذا .

وكلام المؤلف افتراء على الأستاذ الإمام يكذبه قول الإمام ومنهجه الذي اختطه لنفسه في صراحة لا شبهة فيها ولا اختلاط .

#### قال الإمام :

إذا جاء في نصوص الكتاب والسنة شيء يناقض ظاهر التنزيه ( لله تعالى ) فللمسلمين فيه طريقتان : إحداهما طريقة السلف ، وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل ، كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [ سورة الشورى : الآية ١١ ] وقوله عز وجل : ﴿ سبحانه ربك رب العزة عما يصفون ﴾ [ سورة الصافات : الآية ١٨٠ ] وتفويض الأمر إلى الله في فهم حقيقة ذلك ، مع العلم بأن الله يعلمنا بمضمون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا .

والثانية : طريقة الخلف وهي التأويل : يقولون إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل ، فلا يخرج شيء منها عن المعقول ، فإذا جزم العقل بشيء ، وورد في النقل



خلافه يكون الحكم القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ، ولا بد من معنى موافق يحمل عليه ، فينبغي طلبه بالتأويل .

وقال الإمام : وإنما على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض ، فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته ، وعالم الغيب ، وأنا نسير في فهم الآيات على كلتا الطريقتين .  
فالأستاذ الإمام لم يقل أن القصص من المتشابه ، ولم يقل بذلك مسلم قبله ولا بعده .  
التهمة الأولى الموجهة إلى الباحث : أنه يجهل المقررات المنطقية التي تجمع عليها العقول .

التهمة الثانية : أنه جهل المنهج الذي يدرس عليه القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم يدرس على منهجين :

#### المنهج الأول :

منهج الباطنية وهم فرقة من الملاحدة يعطلون ألفاظ القرآن عن مدلولاتها ، ويسلكون بها سبلا تخيلية وهمية ، توصلوا بذلك إلى تعطيل الشريعة الثراء ، فهم يدعون للألفاظ أو للجمل مراداً عاماً لا يبنى على أسس علمية ، وهؤلاء كفار ، والجرى على طريقتهم كفر وجهالة لأن مذهبهم هذا مجرد دعاوى لا تبنى على شيء من العلم ، فهم يقولون مثلاً في تفسير قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [سورة البقرة : الآية ٤٣] استقيموا لله وطهروا أنفسكم بالأخلاق الحسنة ، وكونوا خاضعين ، وليست هناك صلاة شرعية ولا زكاة شرعية ولا سجود ولا ركوع .

#### المنهج الثاني :

منهج المسلمين ، وهو منهج العلم والعقل الذي تقوم عليه نواحي الحياة كلها ، وليس القرآن وحده ، ذلك أن الكلام يجب أن يكون لألفاظه مدلولات حقيقية تنصرف إليها تلك الألفاظ ولا يعدل عنها إلا إذا وجدت قرينة تمنع من إرادة المدلولات الحقيقية .

فأما ترك تلك المدلولات الحقيقية ، مع عدم وجود تلك القرينة ، التي تمنع من إرادة الحقيقة فإنما هو في غير طريق القرآن خبل وجهالة .

وإذا ادعى شيء من ذلك في مقام القرآن فهو خيالة وجهالة وزندقة ، يخرج بها صاحبها من عداد المسلمين ، لأنها تعطيل لكلام الله تعالى الذي أنزل لهداية البشر

أجمعين ، ومن المسلمين من يقف عند هذا الحد لا يتعداه ، بل يحمل الكلام على الحقيقة ما أمكنه ذلك ، ثم على المجاز الذى تدل عليه القرينة عند وجودها ، ولا يقولون إن القرآن يشير من وراء هذه الحقيقة أو هذا المجاز إلى شئ من باب الإشارة والإيماء ، لأن هذه الإشارة وهذا الإيماء ، لا تدل الألفاظ عليه .

والباطنية لا يعتبرون لله ( جل جلاله ) ذاتا ، ولا الملائكة موجودات ، ولا الجنة شيئا ، ولا إبليس حقيقة ، وإنما يقولون فى ذلك كله ما يقوله المؤلف من أن القرآن فى ذلك لم يتشبه بالواقع .

ولقد حاولت أن ألتمس بعض المعاذير ولو أوهاما فى التورط فيما تورط فيه ، فمنعنى سلوكه وحالت بينى وبين ذلك خلائقه ، ذلك أننى وجدته مدلسا فى النقل ، خائنا للأمانة العلمية ، فهو يكذب فى النقل أو يتر المتقول ولا يتمه ، بل يخفى منه ما يبين المراد منه ، تمويهها للحقيقة وإلباسا على الناس .

ومن ذلك ما نقله عن الرازى « محرفا » فى رسالته ، فالفخر الرازى ليس فيه شئ مطلقا لا من قريب ولا من بعيد مما نسبته إليه المؤلف فرية واختلاقا ، ولعل عند المؤلف أو الذى كان يشرف معه على رسالته ، نسخ خطية خاصة من كتاب الفخر الرازى ، عملت لهما فقط ، وخط لهما فيها ما يشاءان ، ما هذا يا أستاذ وما هذه الخيانة فى العلم .

كما أورد الأستاذ عبد الفتاح بدوى مثالا للبتير فى النقل ، نقل منه المؤلف أيضا من الفخر الرازى ولم يتمه فجاء الناقد بالجزء الباقى ، وهو يغير مفهوم ما أخذه تغييرا كاملا ، ثم قال : وكلام الرازى صريح فى أن القرآن لا يذكر القصة لأنه كتاب تاريخ ، بل يذكرها لما فى ذكرها من الفوائد التى ذكرها .

وكلام الفخر الرازى صريح فى أن القرآن لم يحرف فى القصص ولم يغير وكان ذلك دليلا على أنه بوحى من الله ، أما دعوى المؤلف فهى أن القصص القرآنى لا يثبت بالواقع ، وإذن لابد له من التدليس فى النقل ، ليوهم القارئ أن للكلام الذى يقوله المؤلف أصلا فى كلام السابقين .

وبذلك صارت صفات المؤلف ثلاث : ( الجهل والكذب والخيانة ) .

\*\*\*\*

## (١٢) كتاب الفن القصصى :

\* صاحب الكتاب يعتبر القرآن فنيًا يخضع لمعايير البشر الفنية ،  
ومعايير البشر الفنية لا تتقيد بالصدق ، أما القرآن فهو صادق لأنه  
كلام الله .

كان لصدور هذا الكتاب عام ١٩٤٧ ضجة كبرى ، وقد تناوله الكثيرون بالنقد ،  
وعارضه كثير من العلماء ، وكشفوا زيفه .

وقد قدمنا فى الحلقة الأولى آراء الأساتذة عبد المتعال الصعيدى ، أحمد أمين ، عبد  
الفتاح بدوى حول الكتاب .

ونقدم فى هذه الحلقة آراء الأساتذة محمد أحمد الغمراوى ، أحمد الشايب ، محب  
الدين الخطيب ، محمود شلتوت .

ومما يذكر أنه حدث إشكال فى إقرار إجازة الدكتوراه له ، وقرر مجلس الجامعة ضرورة  
أن يثبت فى مقدمة الكتاب عند طبعه هذا الإشكال ، الذى يوحى باعتراض هذا المجلس ،  
وقد صدرت الطبعة الأولى متضمنة ذلك ثم رفعت فى الطبعات التالية :

### رابعاً : الأستاذ محمد أحمد الغمراوى :

كل من تعود البحث العلمى وعرف ما فى القرآن الكريم واطلع على كتاب الفن  
القصصى لا يشك فى أنه بعيد كل البعد عن التفكير العلمى ، لما فيه من خبط وخلط  
كثير ، جرى فيه صاحبه خلف قساوسة المستشرقين أمثال روديل ومرجليوث حتى بلغ به  
الأمر أنه لم يدرك ما هنالك من تناقض ، بين نسبة القرآن إلى الحق تبارك وتعالى ، والحكم  
على قصص القرآن الكريم : إن أكثره غير صحيح .

وإذا كان البعض لا يرى فى هذا الحكم كفراً ولا شبه كفر فلعله يرى على الأقل أنه  
تفكير يودى إلى جواز الجهل والكذب على الله ( جل شأنه ) وهو تفكير لا يمكن بوجه  
من الوجوه ، أن يمت إلى التفكير الصحيح .

إنه تفكير لا يستقيم إلا على فرض أن القرآن من عند محمد ﷺ لا من عند الله ، كما يقول قساوسة المستشرقين .

#### خامساً : الأستاذ أحمد الشايب :

إن مشروع الرسالة حين تقدم إلى كلية الآداب سنة ١٩٤٧ رفضت لجنة الفحص تقديمه للمناقشة وأسقطته لأسباب دينية خلقية ، ويكفى أن أشير بغاية الإيجاز إلى أن الرسالة تقيس القصص القرآني بمقاييس ليست وثيقة ولا مقرر ، فإن خالف القرآن تلك المقاييس كان عند أصحابها كذبا وافتراءً على التاريخ ، أو كان نوعاً من ذلك الفن الأدبي الذي لا يلتزم بالواقع التاريخي ولا الصدق العقلي ، وإنما يخضع في تأليفه لهذه الحرية الفنية ، التي يخضع لها كل فنان موهوب .

وتطبيقاً لهذه القاعدة صار القرآن الكريم ( في رأى صاحب الرسالة ) : يتقول على اليهود وينطقهم بما لم ينطقوا به ، ويتقول أمورا لن تحدث ، ويقرر أمرا خرافيا أو أسطوريا ، ثم يعود فيقرر نقيضه ، ويغير الواقع ويبدل ، ويزيد وينقص بحكم هذه الحرية الفنية .

وهكذا كانت صورة موسى ، في سورة الكهف ليس لها أصل تاريخي أو أسطوري ، والإجابة على الأسئلة التي كان يوجهها المشركون للنبي ﷺ ليست تاريخية ولا واقعية .

وقصة إبليس مع آدم من الخلق الفني ، الذي لم يتثبت فيه القرآن بالواقع ، ومصادر القصص القرآني هي : التوراة والإنجيل والأفاصيص الشعبية ، وما امتزج بها من عناصر فارسية وإسرائيلية .

وأن ما تمسك به المستشرقون ، على أنه من أخطاء محمد ﷺ الناجمة عن جهله بالتاريخ ليس بذى بال .

ذلك لأن المسألة تعلل بأكثر من سبب ، فقد يكون ذلك من عمل الفنان الذي لا يعنيه الواقع التاريخي ولا الحرص على العقلي ، وإنما ينتج عمله ويبرر صوره ويوحى بما يشاء بقدرته على الابتكار والاختراع والتغيير والتبديل ، ثم يدعى - صاحب الرسالة - كذبا وجهلا ، على أمثال الزمخشري والفخر الرازي ومحمد عبده ، أنهم قالوا بما يؤيد هذا الهراء الجاهلي الضال .

ثم يطلب السيد عبد الرزاق السنهوري - وزير المعارف حينذاك - إلى الشيخ محمود

شلتوت رحمه الله ، فحص هذه الرسالة ، وكتابة تقرير عنها ، فإذا بهذا التقرير يدمغها بالكفر والجهل والفساد لأنها قامت على أسس فاسدة وأنها غارقة في تكذيب القرآن ، وأن كاتبها افتري على العلماء ، وأنه جاهل لا يفهم النصوص وختم تقريره : بأن تظهر الجامعة من هذه الدراسة التي تنافي الحرية العلمية وتنتهى إلى الفوضى ، وتهدم الأصول الإسلامية في هذا البلد الإسلامى .

كما أفتى أكثر من مائة عالم أزهري في طائفة كثيرة من نصوص هذه الرسالة بأنها مكفرة يخرج بها صاحبها عن الدين الإسلامى .

ثم نسأل : هل هذه الصورة المطبوعة الآن هي مطابقة لذلك الأصل الذى قدم إلى لجنة الفحص بكلية الآداب عام ١٩٤٧ ، والواقع أن هذه الصورة المطبوعة ليست مطابقة لذلك الأصل أولا ، ثم هي صورة لا تزال جاهلة ضالة فاسدة ثانيا .

أما ( أولا ) فأين هي هذه القصة المنشورة ، ما قيل في الأصل عن مصادر القرآن ، وأين ما قيل عن قصة موسى في سورة الكهف وما قيل مما يفيد أن محمدا ﷺ فنان هذا القرآن وصاحبه وأما أنه من عمل الذى لا يعنيه الواقع التاريخي والصدق العقلى وإنما يغير ويبدل ويزيد ويخترع لأنه فنان موهوب ، وكيف حرفت عبارة تدل على أن القرآن ينشئ بالواقع في قصة إبليس وآدم ، وكيف اضطرب الأمر أمام الأسطورة والأساطير ، بعدما قال الأقدمون إن الأساطير كذب وبهتان لم ينزل به وحى ، إلى غير ذلك مما يثبت التزوير والتضليل .

أما ( ثانيا ) ، فلا يزال القرآن - في هذه الصورة المنشورة - يتقول على اليهود ويتقول ما لم يحدث ويحكى غير الواقع .

وحين يقول القرآن الكريم ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ﴾ [ يوسف : ١١١ ] تتوقف هذه الصورة المنشورة أمام هذا النص الحاسم ، الذى يقطع بأن قصص الرسل غير كاذب ولا مفترى .

ونقول : ولا يصح لمعترض أن يعترض على أن فى الأفاصيص القرآنية مخالفة للحق والواقع ، أو مخالفات التاريخ - إلى غير ذلك - ما هو آخذ بأفاقها .

وأحب أن أشير هنا إلى أن ما ورد في هذه الصورة المطبوعة عن قول الله تعالى عن اليهود ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ يقول كاتب الرسالة بالحرف الواحد « فليس من شك أن اليهود ينكرون رسالة عيسى ومن أجل ذلك قتلوه فهم لم يقولوا هذا القول ، وإنما أنطقهم القرآن ويدعى أن عبارة ( رسول الله ) إما أنها من قول اليهود سخرية وإما من قول الله تعالى بيانا للواقع وإكبارا لعيسى عليه السلام ، وهذا ما أراده صاحب الكشف وإن لم يفهمه أصحاب الرسالة ( خلف الله وأمين الخولى ) .

ومن الخير لهم أن يرجعوا إلى ( الكشف ) في هذه الآية ليعرفوا أن الزمخشري يقول في بيان ذلك : قاله على وجه الاستهزاء كقول فرعون ﴿إن رسولكم الذى أرسل إليكم رجونا﴾ ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح فى الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه به ، وتعظيما لما أرادوا بمثله كقوله : ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم \* الذى جعل لكم الأرض مهذا﴾ [ سورة الزخرف : الآية ٩ ، ١٠ ] وواضح أن صاحب الكشف يريد أن الله يضع الذكر الحسن ، على أنه من قوله تعالى ، لا على أنه من قول اليهود ، يفعل ذلك أثناء حكاية قصصهم ومجادلتهم ، وإذا أرادوا زيادة الإيضاح فليرجعوا إلى ما قاله الزمخشري نفسه فى تفسير هذه الآية ﴿ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ من سورة الزخرف لعلمهم يعلمون من هذه المقايسة ما يريد صاحب الكشف أن يقوله فى تفسير آية النساء .

كذلك يقولون - وهم على سبيل الدفاع عن الرسالة - على الأستاذ محمد عبده : إنه يجرى على طريقة الخلف ، إزاء القول فى القصص القرآنى ، فيكذبهم الشيخ محمد عبده نفسه ، حيث يقول ( وأنا على طريقة السلف فى وجوب التسليم والتفويض ) وذلك بصدد القول فى قصة الخليفة .

وتقولوا على الشيخ محمد عبده أنه قال : إن القرآن لا يلتزم حدود التاريخ ، وذلك فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ [ سورة البقرة : الآية ٢٤٣ ] الآية ولكن الشيخ محمد عبده لم يقل ذلك ولم يعلنه فى الرواق العباسى كما ادعوا عليه ، فليرجعوا إلى تفسير المنار لعلمهم يعلمون ما قاله بل لعلمهم يفهمون ما قبل ذلك .

وفى ذلك قول الشيخ شلتوت : إن القصص القرآنى من المتشابه بهذا المعنى الذى

يجرى فيه التأويل والتفويض ، أما موقفهم من الفخر الرازى فقد سبق أن بينه الشيخ عبد الفتاح بدوى ، وبيناه فى الحلقة السابقة .

#### سادساً : السيد محب الدين الخطيب<sup>(١)</sup> :

فيما ذهب إليه المؤلف فى هذه الرسالة تلميح بتكذيب النبى ﷺ فى أن القرآن موحى به إليه من الله عز وجل ، وزعم أنه من تأليف محمد ﷺ وأن ما فيه من القصص عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار ، من غير التزام بصدق التاريخ .

« والواقع أن محمدا ﷺ فنان بهذا المعنى ، وأن الأنبياء أبطال ولدوا فى البيئة وتأدبوا بأدبها ، وخالطوا الأهل والعشيرة وقلدوهم فى كل ما يقال ويفعل ، وأمنوا بما تؤمن به البيئة من عقيدة ودانوا بما تدين به من رأي وعبدو ما تعبد من إله » هذا ما ذهب إليه المؤلف وهو كذب .

كما زعم أن القرآن متناقض ، فكان يقرر أولاً أن الجن تعلم بعض الشئ ثم لما تقدم الزمن قرر أنهم لا يعلمون شيئاً ، وأن قصة موسى فى سورة الكهف لم تعتمد على أصل من واقع الحياة ، بل ابتدعت على غير أساس من التاريخ .

ويمن محمد أحمد خلف الله على الإسلام ، بأنه دافع عنه بقوله : إن ما تمسك به الباحثون من المستشرقين ، ليس سببه جهل محمد ﷺ بالتاريخ بل قد يكون ذلك من عمل الفنان الذى لا يعنيه الواقع التاريخى ولا الحرص على الصدق العقلى ، والواقع أن هذا الكلام فرية لا تقل عن خلط المستشرقين .

#### سابعاً : الشيخ محمود شلتوت :

هذه الرسالة تقيس القصص القرآنى بمقاييس ليست دقيقة ولا مقرر ، فإن خالف القرآن تلك المقاييس كان عند أصحابها كذباً وافتراء على التاريخ ، أو كان نوعاً من ذلك الفن الأدبى الذى لا يلتزم الواقع التاريخى ولا الصدق العقلى ، وإنما يخضع فى تأليفه لهذه الحرية الفنية التى يخضع لها كل فنان موهوب ، وطبقاً لهذه القاعدة ، صار القرآن فى هذه الرسالة يتقول على اليهود وينطقهم بما لم ينطقوا به ، ويتقول أموراً لن نتحدث ،

(١) نشرت تفصيلات هذه القضية فى مجلات الرسالة والأزهر والفتح عام ١٩٤٧ كما تبادل السيد محب الدين الخطيب وأمين الخولى الحوار حول هذا الموضوع ، محب الدين الخطيب فى جريدة الإخوان المسلمون ، وأمين الخولى فى أنهار اليوم ، وعندما أقر أمين الخولى بموافقته على كل ما جاء بالرسالة ، أجابه محب الدين الخطيب ، وألقى بنفسه وصاحبه فى النار ، المجلة .

ويقرر أمراً خرافياً أو أسطورياً ثم يعود فيقرر نقيضه ويغير الواقع ويبدل ويزيد وينقص بحكم هذه الحرية الفنية .

وهكذا كانت قصة موسى في سورة الكهف ليس لها أساس تاريخي ، ولا أسطوري ، والإجابة عن الأسئلة التي يوجهها المشركون للنبي ﷺ ليست تاريخية ولا واقعية .

وقصة إبليس مع آدم من الخلق الفني الذي لم يتثبت فيه القرآن بالواقع ، ومصادر القصص القرآني هي التوراة والإنجيل والأقاصيص الشعبية ، وما امتزج بها من عناصر فارسية وإسرائيلية ، وأن ما تمسك به المستشرقون على أنه من أخطاء محمد الناجمة عن جهله بالتاريخ ليس بذى بال ، والادعاء على الزمخشري والفخر الرازي ومحمد عبده أنهم قالوا بما يؤيد هذا الهراء .

### ( ١٣ ) كتاب جبران خليل جبران :

\* أسلوب جبران : إباحي . . إقليمي . . فوضوي . . ملحد . . منطرف . .

\* الكتابات المهجرية قائمة على الإباحية والتشكيك والتحلل .

\* المدارس المهجرية الشمالية ثمرة للإرساليات التبشيرية .

استشرى هذا اللون من الكتابات المهجرية وعرف بأدب الظلال والرموز والأضواء وخزت محاولات ضخمة لإذاعته وإعلاء أمره ، لأنه يقوم على ( الجملة التوراتية ) وذلك في مواجهة ( الجملة القرآنية ) التي كان يحمل لواءها مصطفى لطفى المنفلوطي ومصطفى صادق الرافعي ، كما كان في مضمونه قائماً على الإباحية والتحلل والتشكيك في العقائد والنبوات ، ظهر ذلك في كتابات جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني .

ولقد اعتمد الأدب المهجري على عناصر ستة :

أولاً : الحملة العنيفة على اللغة والدين ومقومات المجتمع الإسلامي .

ثانياً : استمد المهجريون ، أسلوبهم في الشعر والكتابة النثرية ، من مذهب ويتمان واستمدوا مفاهيمهم من نيتشه ومذهب وحدة الوجود واللاأدرية .



ثالثاً : الثورة على الألوهية والإفراط في الإباحية وإدخالها مرحلة التصوف ومهاجمة القيم الأخلاقية في الحب والزواج .

رابعاً : حاولوا تغيير قيم الأدب العربي بإدخال أسلوب جديد مستغرب يصادم مفاهيم البلاغة ويعلى عليها صيغة التوراة والمجاز الغربي .

خامساً : تغلبت عندهم النظرة العالمية المغرقة في الأممية والتبعية على النزعة الوطنية المناضلة في سبيل الحرية والقوة .

سادساً : الإسراف في الجانب الرومانسي المليء بالظلال والحالم المفهوم الرمزي المغرق في العاطفة والخيال المضاد لطابع النفس العربية المسلمة .

ويمكن القول بأن المدرسة المهجرية الشمالية ، كانت ثمرة من ثمار الإرساليات التبشيرية ، التي وردت لبنان وسيطرت على وجود التعليم والثقافة فيه ، ثم كان لهذه الثمار اتصالها بالمدارس الغربية وخاصة مدرسة بوسطن التي اتخذها المهجريون مقراً لهم ، وهي من قديم مقر الإرساليات التبشيرية في الولايات المتحدة ، فلما صدرت عن أدبها الجديد تلقفته أيدى دعاة الغزو الثقافي وعملت على إذاعته والدعوة إليه بوصفه لوناً جديداً من ألوان الأدب العربي المتسم بالعنصرية والجرأة على القيم وذلك في مواجهة المدرسة العربية الإسلامية .

ولعل أصدق ما يمثله الأدب المهجري ما كتبه ( جبران خليل جبران ) نفسه عام ١٩١٩ بعد أربعة عشر عاماً من بدء كتاباته عام ١٩٠٥ قال في خطاب له إلى ( إميل زيدان ) : إن فكري لم يثمر غير الحصرم وشبكتي ما برحت مغمورة بالماء ) ومن الحق أن أسلوب جبران قد بهر كثيراً من الشباب وسرى سرعان النار في الهشيم ، ولكن سرعان ما انطفأ وفقد أثره ، وذلك لمصادمته للنفس العربية الإسلامية ، ومعارضته لمنهجها ، وتضاربه مع مزاجها النفسي والاجتماعي ، ذلك أن جبران كان إقليمياً مغرقاً في الإقليمية إباحياً مسرفاً في الإباحية ، وقد حاول في الكثير من نبراته محاكاة ( مزامير داود ) ونشيد سليمان وسفر أيوب ومراثي أرميا ، وتخيلات أشعيا ، حيث كان أسلوب التوراة هو المثال الأدبي الأول الذي تأثر به ، فقد حفلت كتاباته بمجموعة من الصور والتعبيرات التي استقهاها من الأسفار ، فهو يقدم أشباه الجمل والظروف والأحوال ، ثم يمزج ذلك بعين وافد هو أسلوب ( ولت وبتمان ) الشاعر الأمريكي .

كما أشار كثير من مترجمي سيرته إلى أنه بعد حرمان الكنيسة له وهو في العشرين من عمره ، على أثر قصيدته التي هاجم فيها الأديان ، اندفع في طريق إحياء أمجاد فينيقية وحضارة الكلدانيين ، وقد أشار في خطاب له من بوسطن عام ١٩٢٠ إلى صديقه نخلة إلى هذا المعنى فقال :

إن القوم في سوريا يدعونني كافرا والأدياء في مصر ينتقدونني قائلين : هذا عدو الشرائع القديمة والروابط القديمة والتقاليد القديمة وهؤلاء الكتاب يأنخله يقولون الحقيقة ، لأنني بعد استفسار نفسي وجدتني تكره الشرائع .

بل لقد صور جبران مفاهيمه وانحرافات في مقال مطول استهله على هذا النحو : « هو متطرف بمبادئه حتى الجنون » .

« هو خيالي يكتب ليفسد أخلاق الناشئة » .

« لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء جبران في الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مباني الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيما وسكانه شياطين » .

« قهرا عما في أسلوبه في الكتابة من الجمال فهو من أعداء الإنسانية » .

« هو فوضوي كافر ملحد ، ونحن ننصح لسكان هذا الجيل المبارك بأن يبنذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء في نفوسهم » .

« وقد قرأنا له الأجنحة المتكسرة ، فوجدناها سماء في الدسم » .

« هذا ما يقوله الناس عنى وهم مصيبون فأنا متطرف حتى الجنون ، أميل إلى الهدم ميلى إلى البناء ، وفي قلبي كره لما يقدره الناس ، وحب لما يأبونه ولو كان بإمكانى استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة ، أما قول بعضهم أن كتاباتى ( سم فى دسم ) فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف ، فالحقيقة العارية هى أننى لا أمزج السم بالدسم ، بل أسكبه صرفا غير أنى أسكبه فى كؤوس نظيفة شفافة .

أما الذين يعتذرون عنى أمام أنفسهم قائلين : هو خيالي يسبح مرفرفا بين الغيوم ، فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة ، منصرفين عما فى داخلها من الشراب الذى يدعونه ( سما ) لأن معدهم الضعيفة لا تهضمه ، قد تدل هذه المواطأة على الوقاحة

الخشنة ، ولكن ليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها ، إن الوقاحة تظهر نفسها بنفسها ، أما الخيانة فتتردى ملابس فصلت لغيرها ١٠ هـ.

هذه الاعترافات الجبرانية تكشف بوضوح عن طابع غريب عن الأدب العربي وقيمه ومزاجه النفسى واتمائه الإسلامى ، هو طابع دخيل مسرف فى التحدى والتشويه وهو ليس فى الأغلب طابع النفس المنحرفة التى حملها جبران ولكنه طابع الغزو الثقافى الذى يدفع جبران ويرسم من وراء ذلك أهدافا وغايات .

ومع ذلك فقد سقط ( أدب جبران ) ولم يحقق النتائج التى عول عليها دعاء التغريب .

وإذا رجعنا إلى حياة جبران نفسه ، وجدنا تفسيراً واضحاً لاتجاهاته الأدبية ، وقد عرض لهذه الحياة أصدق أصدقائه - ميخائيل نعيمة - فى كتابه عنه ، كما أفاض فى ذلك كل الذين أرخوا لحياته ، فقد كان أبوه ميلاً إلى حياة اللهو والشراب ، سكيراً مرحاً ، وكانت أمه مريضة وأخواته كن مرضى بنفس المرض الخبيث ، وأنه بدأ حياته بقراءات بسيطة فحفظ ( مزامير داود ) ولم يستطع قواعد اللغة العربية من صرف ونحو ، ثم قصد إلى بوسطن ١٨٩٥ دفعا لشقاء العيش وضيق ذات اليد مع أخيه وأختيه ( بطرس ومريانا وسلطانة ) حيث تعلم اللغة الإنجليزية واحتضنته الأيدي المتطلعة إلى المشاركة الأغرار ، ولم يكن يعرف من العربية إلا حروف الهجاء ، ولم يلبث أن عاد إلى بيروت للتزود من اللغة ، قال جبران: « فأنا لا أعرف من لغة أجدادى إلا ألفها وباءها ، ولا أعرف من بلادى غير مسقط رأسى ، ومن الضرورى لى أن أدخل مدرسة فى بيروت لأتعلم لغتى على الأقل » ، ثم توجه جبران إلى الأساطير والميثولوجيا ، وكانت التوراة فى ترجمتها العربية هى المكون الأول لأسلوبه الكتابى ، وكانت التوراة قد ترجمت باللغة العامية ، فلما التزم بها المهجريون لم يستطيعوا إعطاء الأسلوب العربى حقه من البلاغة ، ومن أجل قصورهم هذا هاجموا الأسلوب البليغ وماتت الأم وسلطانة و بطرس بنفس الداء ، وبقيت مريانا تخطط الشيايب لتطعمه ، وكان جبران مريضاً فقد تراحمت عليه الأمراض وحملت رسائله صراخاً عالياً منذ وقت مبكر فى حسابه بما داهمه من الأمراض ، القلب يسارع فى الوجيب ، تسمم فى المعدة ، داء النقرس ، الأنفاس تنفتق بها الرئتان ومثل هذه الشخصية بتلك الوراثة

والتكوين الاجتماعي ، هي شخصية مهزوزة مريضة عقليا ، واجتماعيا ، وجسديا ، ولا تصلح بتكوينها ولا بعقائدها لأن تأخذ مكان الصدارة أو التوجيه فيه ، وإنما هو الغرور الذي صور له عندما كتب كتابه ( النبي ) أنه هو النبي نفسه وقد استنكر ميخائيل نعيمة ، أن يصور جبران نفسه نبيا ولو تحت نقاب من التمويه الفني ، وليس يسع أحداً إلا أن يستكثر هذا الشطط ، غير أن حياة جبران تفسره وتجعله غير مستغرب من مثله وإن كان في ذاته مما يستهين على حشد تعبير المازني الذي يقول : « إن جبران كان يشعر في سريره بنقص ويتمرد عليه » .

ومن اهتزاز شخصية جبران ، أنه كان يدعى أنه حاز شهادة الامتياز من كلية الفنون الفرنسية وسمى عضواً في جمعية الفنون الفرنسية ، ونال عضوية الشرف في جمعية المصورين الإنجليزية ، بينما لم ينل شيئا من كل هذا ، ويرى ناقدوه أنه يناقض نفسه في الإعلان بهذه الأكاذيب ، بينما يدعى أنه يكره التقاليد التي يحرص عليها الناس ، فإذا هو أشد منهم تهالكا ولما فتن بالفيلسوف ( نيتشه ) ظهر هذا الافتتان في كتابه ( النبي ) ، الذي قلد فيه أسلوب نيتشه في كتابه ( هكذا تكلم زرادشت ) وقد بلغ أثر نيتشه في نفسه أنه صار يخجل من أن يكون مسقط رأسه بلدة صغيرة ( بشرى ) في بلد صغير ( لبنان ) ، وكان يقول إن مثله يجب أن يكون قد ولد في بلد عظيم كالهند مثلاً ، ولذلك فإنه عندما طلب إليه ( نسيب عريضة ) بعض معلومات عن حياته لنشرها في مجلة ( الفنون ) قال إنه ولد في « بومباي » بالهند .

ويجمع الكتاب على أن أثر نيتشه في أدبه كان بعيد السوء ، وأن كتاب نيتشه ( هكذا تكلم زرادشت ) ، قد أعطى جبران تلك المفاهيم المنحرفة التي أذاعها ، وزرادشت مؤسس المجوسية ، يقول نعيمة : وما عرف جبران ( نيتشه ) حتى كاد ينسى كل من عرفهم قبله من كبار الكتاب والشعراء ، وعلى قدر ما كان يطيب له أن يختلي به ، كان يلذ له في البدء أن يحدث غيره عنه وأن يهدي أصحابه ومعارفه إليه ، حتى أنه قال ، إن كتاب ( هكذا تكلم زرادشت ) في نظري أعظم ما عرفته كل العصور ، وما استأنس جبران بزرادشت ونيتشه حتى أحس بوحدة أقصى من ذي قبل تكتنفه أينما سار وبغربة تفصله عن ماضيه إلى حد أنه صار يخجل أمام نفسه من كل ما كتبه وصوره في ذلك الحين .

وأشار نعيمة إلى أنه افتتح عهده الجديد بمقال أطلق عليه اسم ( حفر القبور ) جرى

فيها على نهج الزرادشتية ، وبدا جبران المتقمص في جسد رجل يحب العزم والقوة ، لقد سكر جبران بزادشت وسكر أكثر من ذلك بما قاله فازداد به شهرة في العالم العربي .

وأخطر ما دعا إليه نزعة جبران المهجرية الوافدة على الأدب العربي محاولة تحويل ( الجنس ) إلى نوع من القداسة وتحويل الشهوة إلى صوفية ، فقد قام أدب جبران زعيم المدرسة على ثلاث دعائم : ( لذة الجسد ، الحب الشهواني ، المرأة العارية ) وقد تأثر في ذلك على حد قول النقاد بمزامير داود والحياة في باريس ، ومن ثم أعلن سخريته بكل القيم والمثل ، ودعا إلى الاستسلام لسلطان الغريزة والعاطفة الجنسية ، وقد راجع كثير من الأدباء آثار جبران ، وأجمعوا على أنه يتميز بعدم الاكتراث<sup>(١)</sup> للأخلاق في بحثه عن لذة الجسد والخروج عن قواعد الدين ، وقال عنه الأب الزغبى ، إنه يهدم صرح الديانة المسيحية وينبذ جميع الأديان ، وإنه كثير الآلهة ، ولكن ليس ( الله ) بينها ، وأنه يدين بمذهب عبودية العقل والآراء للشهوة الحيوانية ، وأنه هادم للسلطة المدنية والسلطة الدينية والأسرة ، وأنه دعا في كل كتاباته إلى ( الحب المحرم ، والعشق السرى ، والفحش ) .

يقول : أجل جبران ينادى بحلاوة المرأة العارية ولذة طعمها ، وما هذا سوى الشهوة الجسدية المتجسمة ، ويصرح بأن الجنة قائمة بهذا الحب ، وإنه يدعو إلى إحياء الغرائز ، وتغليب الحب الجنسي ، ويرى الباحثون أن هذا الأدب لا يستأهل الخلود لعدم ترفعه عن الاستسلام للشهوة المحرمة .

ويقول الأب الزغبى ، إن جبران مصور الأجسام العارية وكاتب الشهوة المطلقة من كل قيد ، ولا عبرة عنده بالعقل ولا بالواجب حتى يصطدم الهوى بذلك الواجب ، وليس في موسيقى الأدب الجبراني سوى طبول تدوى عن فرع أصواتها وتذيع ضجة البلاغة اللفظية ، والكلام الطنان الذى يؤثر بالأذن تأثيراً قوياً ويصل بالإنسان إلى عالم الدوخة والاندهال ، ولا وجود فيه للأنغام العميقة المركبة من كثرة النفسانيات المتشاحنة حيث تبرز واحدة من هذه النفسانيات وتتغلب على غيرها تغلباً أخلاقياً فهو معجب بالزوجة التى تركت زوجها ، واتبعت قلب حبيبها ، طروب بالاتصال الجنسي ، شغوف بالمرأة المستسلمة ، إلى خادمتها المفترى ، هذا جبران الذى يسكب السم الأخلاقى فى كؤوس نظيفة شفاقة على حد تعبيره ،

( ١ ) الاكتراث : الاهتمام .

إن معظم كتاب الغرب فى موضوع الميول القلبية والشهوة الإنسانية وتكريسها لم يبلغوا من الفساد الأخلاقى والإباحية ما بلغه الأدب الجبرائى فهو قد حول مزامير التوراة من دعاة الفضيلة إلى دعاة الرذيلة ، وفى كتاب ( النسي ) يصور نفسه على أنه المصطفى المختار الحبيب .

ولقد حاول الجبرانيون شن حملة عاصفة على المنفلوطى فى حقد وشراسة لأنه هدم الأسلوب المهجرى وأسقط جبران ، ومن ذلك ما يسوقه مارون عبود فى كتابه ( جدد وقدماء ) من هجوم على المنفلوطى ونسب مارون عبود وغيره ، أن المنفلوطى حين أشرق قد كسف شموسا كثيرة ودخل تحت جناحه كثير من الذين أعجبههم بريق جبران الخاطف من الذين انفضوا عنه حين اكتشفوا معارضته للنفس العربية الإسلامية ومضاداته للمزاج الإسلامى .

## (١٤) نقد لكتاب النشر الفنى

### فى القرن الرابع الهجرى :

\* المؤلف تعرض فى كتابه للدين بما لا يقره عقل ولا خلق .

فى كتاب « النشر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » للدكتور زكى مبارك أخطاء خطيرة فى دراسته للقرآن الكريم تناولها الدكتور محمد أحمد الغمراوى بالبحث فى فصول مطولة متعددة نشرتها الرسالة المصرية فى مجلد عام ١٩٤٤ م ونحاول عرضها هنا بإيجاز .

تضمن البحث شبهات ثلاث تخالف ما يعرف من الدين بالضرورة .

أولا : دعوته إلى نقد القرآن .

ثانيا : إنكاره إعجاز القرآن .

ثالثا : أنه يكاد يصرح بأن القرآن من كلام البشر .

رابعا : أن الأديان كلها نبت البيئة ومن وضع الأنبياء .

قال الدكتور محمد أحمد الغمراوى : إن زكى مبارك يحاول إبطال حكمة الله فى جعل كتابه الذى أنزله على آخر أنبيائه ورسله معجزة أدبية ، وهى محاربة لله من غير شك ، ويحاول زكى مبارك إبطال تلك الحكمة عن طريقين :

أولاً : طريق نظرى فى الدعوة إلى إنكار ( إعجاز القرآن ) ليبطل عند صغار العقول أمثاله : إن القرآن من عند الله .

ثانياً : طريق عملى هو العمل على جعل الأدب إباحيا شهوانيا بعد أن جعله الله فى القرآن وبالقرآن إصلاحيا ربانيا ، وزكى مبارك فى هذا تابع مقلد فقبله كان أبو نواس وأمثال أبى نواس من الذين صرفوا الأدب عن الوجهة التى شرعها الله للناس فى الأدب بالقرآن فجعلوا الأدب للغواية بعد أن كان للهداية وجعلوه للشيطان بعد أن كان لله ، ومثله كان ابن الراوندى وغيره من أهل الأهواء .

يتعرض الدكتور زكى مبارك فى كتابه النشر الفنى للدين بما لا يمكن أن يقره عليه عقل ولا دين وبما يخالف الكتاب والسنة والإجماع عند المسلمين يتعرض لجزئية من الجزئيات يجوز فيها الخلاف بل للأصول التى يقوم الدين بقيامها وينهدم بانهدامها كأصل « إعجاز القرآن » وأن القرآن كتاب الله لا كتاب محمد بن عبد الله ﷺ فنجدته فى أول فصل من فصول الكتاب يعيب على علماء العربية أنهم حين تعرضوا لنقد القرآن لم يذكروا إلا المحاسن .

وفى هذا خرج على علماء العربية وعلى الإجماع ، إذ أن النقد عنده أن يقف الباحث أمام الأثر الأدبي موقف الممتحن للمحاسن والعيوب ، وهذا صحيح ولكن فى نقد كلام الناس لا كلام الله ، ولو كان القرآن كلام بشر لكان أثرا أدبيا لصاحبه ، أما وهو كلام الله خالق البشر أنزله سبحانه معجزة لرسوله ﷺ وتحدى به كل شاك فيه من العرب وغير العرب ، بل تحدى به الجن والإنس على اختلاف العصور ، فكيف يمكن أن يقف الناقد أمامه إلا كما يقف العالم أمام آية من آيات الله فى الأرض أو فى السماء ؟

إن العهد الذى كان ينظر فيه فى القرآن نظرة تطلب العيوب قد مر بالفعل ، مر إلى غير رجعة ، والذين نظروا فى القرآن تلك النظرة التى يدعو إليها الدكتور زكى مبارك كانوا أقدر منه ألف مرة على إدراك أى عيب لو وجدوه ، وأبصر بنقد الكلام لأنهم كانوا أهل العربية الفصحى .

افترض الدكتور زكى مبارك أن القرآن أثر جاهلى وزعم أن للعرب فى الجاهلية نهضة علمية وأدبية وسياسية وأخلاقية واجتماعية كان الإسلام تاجا لها ، أى أن الإسلام نتيجة وتماثلا لتلك النهضة لا سببا لها .

يقول فى تعليل ذلك : لأنه لا يمكن لرجل فرد مثل النبى محمد ﷺ أن ينقل أمة  
كأمة من الظلمات إلى النور ومن العبودية إلى السيادة القاهرة ، كل

هذا لا يمكن أن يقع دون أن تكون تلك الأمة قد استعدت فى أعماقها وفى ضمائرها وفى  
عقولها بحيث استطاع رجل واحد أن يكون منها ( أمة متحدة ) وكانت قبائل متفرقة وأن  
ينظم علومها وآدابها بحيث تستطيع أن تفرض سيادتها وتجارها وعلومها على أجزاء مهمة  
من آسيا وإفريقيا وأوروبا فى زمن وجيز ، ولو كان يكفى أن يكون الإنسان ( نبيا ) ليفعل ما  
فعله النبى محمد ﷺ لما رأينا أنبياء أخفقوا ولم يصلوا لأن أمهم لم تكن صالحة  
للبحث والنهوض .

فزكى مبارك يحاول أن يرد نهضة العرب بعد الإسلام لا إلى رسالة الإسلام ونبوة  
محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من قرآن وحكمة ، ولكن إلى علوم وآداب وتجار كانت عند  
العرب ، وأن كل ما فعله النبى هو أن نظمها حتى استطاع أهلها أن يسودوا فى القارات  
الثلاث فى زمن وجيز .

وتاريخ نشأة العلوم والآداب فى الأمة العربية بعد الإسلام معروف ، كما أن مقاومة  
العرب للنبى ﷺ ودعوته ومحاربتهم له ولها معروفة ، ولكن الرجل ينكر التاريخ ويفترى  
تاريخا آخر ويزعم زعما لا يجوز ولا يستقيم فى منطق أو تفكير إلا إذا كان القرآن كلام  
النبى ، كلام محمد العربى ﷺ لا كلام الله سبحانه ، عندئذ فقط يعقل أن يكون العرب  
على ما وصف زكى مبارك من نهضة وعلم وأدب ، لأن القرآن أكثر من نهضة وعلم  
وأدب ، ولا يعقل إن كان كلام بشر أن يأتى به صاحبه فى أمة جاهلة كالتى أجمع على  
وجودها قبل الإسلام مؤرخو اللغة العربية من شريقين ومستشرقين ومؤرخى الإسلام .

ويلتحق بزعمه الذى زعم لعرب الجاهلية من نهضة علمية ، سياسية ، اجتماعية ،  
زعمه أن نشأة علوم العربية كالنحو والبلاغة والعروض قديمة ، أى أنها نشأت قبل الإسلام  
لا بعده وهو يبنى هذا الزعم أيضا على ما افترض من أن القرآن أثر جاهلى .

\*\*\*



## زكى مبارك حاول أن يصف القرآن الكريم بكل ما لا يصدق وأنه من كلام العرب !!

افتراض أن القرآن من كلام عربى من العرب :

حاول زكى مبارك أن يصف القرآن بكل ما لا يصدق إلا على نتاج البيئة ، يقول :  
فمن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذى أولعوا بالجرى فيه وهو عصر الدولة  
العباسية وأن يجعلوا ميدان النضال ( عصر النبوة ) نفسه وأن يحدثونا ما هى الصلات الأدبية  
والاجتماعية التى وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت نثرهم تلك القوة وذلك الزخرف  
اللذين تراهما مجسمين فى القرآن ؟ هنالك نعرف بالبحث : أكان القرآن صورة عبقرية  
أم تقليدية .

فهذا شك لا يقبل شكاً ولا يحتمل تأويلاً فى أن صاحب الكتاب يرى القرآن من  
كلام العرب ، تأثر بما تأثروا به أو يصح أن يكونوا تأثروا به من صلات أدبية واجتماعية  
أنتهم من الخارج ، وأن ما امتلأ به فى زعمه من « الزخرف والصنعة المحكمة ، ليس طبيعياً  
ولكنه مكتسب مجلوب من الخارج » .

وقوله : « هنالك نعرف بالبحث أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية ، والتقليد هنا  
ليس هو تقليد عربى لعربى ولكن تقليد عربى لأعجمى لأن الصلات الخارجية التى يسأل  
عنها هى صلات بين العرب ومن حولهم من الأعاجم فتشكيكه فى العبقرية وتجويزه التقليد  
على القرآن قاطع فى أنه لا يرى القرآن من كلام واهب العبقرية وفاطر الإنسان ، ولكن من  
كلام بشر مشكوك حتى فى عبقريته .

ويقول زكى مبارك « والقرآن نثر جاهلى والسجع فيه يجرى على طريقة جاهلية ، حين  
يخاطب القلب والوجدان ، ولا ينكر متعنت أن القرآن وضع للصلوات والدعوات ومواقف  
الغناء والخوف والرجاء سوراً مسجوعة تماثل ما كان يرتله المتدينون من النصارى واليهود  
والوثنيين ، ولا تنس أن الوثنية كانت ديناً يؤمن به أهله فى طاعة وخشوع وكانت لهم  
طقوس فى هياكلهم وكانت تلك الطقوس تؤدى على نحو قريب مما يفعل أهل الكتاب من  
النصارى واليهود » .

وهذا الكلام لا يحتاج إلى تعليق في أنه يضع القرآن في صف كتب الوثنيين وأهل الكتاب ويجرى المقارنة بينها وبينه ويقول : والقرآن وضع لأهله صلوات وترنيمات تقرب في صيغها الفنية مما كان لأهل الكتاب من صلوات وترنيمات والفرق بين الملتين يرجع إلى المعاني ويكاد ينعدم فيما يتعلق بالصور والأشكال ، ذلك بأن الديانات الثلاث ، الإسلام والنصرانية واليهودية ترجع إلى مهد واحد هو الجزيرة العربية ، فاللون الديني واحد وصورة الأداء تكاد تكون واحدة .

وهكذا صرح صاحب « النثر الفني » القارىء بذات نفسه ، لا عن القرآن فقط وتقليده حتى الوثنيين في الصورة والشكل ولكن عن الأديان الثلاثة كيف أنها كانت نبت البيئة ، نبت الجزيرة العربية ، والرجل يقول هذا وقد وضع بين أيدي الناس « المفتاح » إلى مذهبه في القرآن والدين .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : إن الخصومة بينه وبين زكي مبارك ليس منشؤها ما يعتقد الدكتور ولكن ما يعلن ويدعو إليه ، فاعتقاده ودينه أمر بينه وبين ربه ، أما ما يعلن ويكتب فأمر بينه وبين الناس ، وهو حر فيما يرى ويفكر وفيما يعتقد ، ما اقتصر ذلك على ذات نفسه أو ظل سرًا بينه وبين خلصائه والله تعالى سيجازيه به ، ولكنه يفقد تلك الحرية في اللحظة التي يحاول أن يتخذ من الأدب وسيلة لبث آرائه ومعتقداته بين الناس ، إنه في تلك اللحظة يصطدم بما يعتقد الناس إذا كان ما يعتقد يخالف ما يعتقدون خصوصًا إذا كان ما يعتقدون هو الحق وما يدعو إليه هو الباطل .

لقد تركنا للدكتور كل هذه السنين يبديء ويعيد في الأخلاق وغير الأخلاق مما يتصل بالدين اتصالاً وثيقاً من غير أن نتعرض له ، إلا مرتين .

**الأولى :** حين ختم كلمة له في نعيم الجنة بذلك الدعاء الماجن ( اشغلني عنك يا رباه بأطياب الجنة فإن نظري لا يقوى على نور وجهك الوهاج ) .

**والثانية :** حين كتب يقول : ( أعوذ برب الفلق من خير ما خلق ) وقد وقع الرجل على حيلة أخذها من صديقه الشيطان هو أن يسمى المسميات ضد أسمائها ليدخل على بعض النفوس عن طريق الإيحاء فستر الإنسان جسمه بالثياب رياء واعوجاج في الضمير ، والدعوة إلى تعريته دعوة إلى الحياة ، احتضان الفتاة للفتى هو مثال الفرح النبيل ، وهجوم

الفتنة على الفتى طاعة لغريزة كريمة ، وانتهاج الجمال هو فى ذاته شكران لواهـب الجمال ، فتراه مثلاً يقول لك : ( وانتفع الصوفية بسماحة الإسلام وهو دين يأبى أن يكون بين المسلم وربه وسيط فقررروا أنهم أرفع من الأنبياء وهذا كفر بظاهر القول ولكنه فى الجوهر غاية الإيمان ) .

فانظر كيف رتب على المعنى أن الصوفية يضعون أنفسهم فوق مرتبة النبوة لأنهم أعرف بالله وأرعى له من الأنبياء ، وباطنه أنه ليس بهم ولا بك إذا ارتقت مثلهم إلى الأنبياء حاجة وإلا كان بينك وبين الله وسطاء فتلك هى فى رأى زكى مبارك سماحة الإسلام وبها انتفع الصوفية فلا الإسلام يحترم سماحة حمقاء كالتى نسبها إليه زكى مبارك ولا الصوفية بلغ بهم الغرور أن يرو أنفسهم فوق الأنبياء . أ . هـ .

#### ( ١٥ ) أرسطو لم يكن معلماً للمسلمين :

\* المسلمون قاوموا ونقدوا فكر اليونان ومنهج أرسطو .

\* الفلسفة الإسلامية موجودة فى كتب المتكلمين والفقهائ .

كان الأستاذ أحمد لطفى السيد ( أستاذ الجيل ) كما يسمونه هو أول من ترجم فلسفة أرسطو بترجمة كتاب ( الأخلاق ) إلى العربية عن الترجمة الفرنسية التى قام بها من اليونانية ( بارتلمى سانهلير ) كمنطلق لتيار جديد أراد به ( التغريب ) إدخال الفكر الفلسفى اليونانى إلى الأدب العربى الحديث من طريق شخصية لامعة مثل أرسطوطاليس .

وكانت تلك خطة خطيرة غاية الخطورة : ذلك أن العرب والمسلمين فى العصر العباسى عندما ترجموا الفلسفة اليونانية رفضوا أرسطو وهاجموه وكشفوا زيف منهجه وانشؤوا المنهج العلمى التجريبى الذى تبناه ( روجر بيكون ) وكان أول خطوات الغرب نحو التجريب بعد التبعية لعصر التأمل الذى كان سمة ( الفكر الإغريقى ) .

وهكذا نجد أن الغرب أخذ من المسلمين المنهج التجريبى فى أول عصر النهضة ، ثم جاء فأعطى المسلمين منهج أرسطو فى أول عصر النهضة العربية على يد لطفى السيد ، وطه حسين وغيرهما ومن ذلك ما أورده لطفى السيد فى مقدمة ترجمة كتاب ( الأخلاق )

يقول : مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصودا على كتب أرسطو فإن فلسفة أرسطو هي التي غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها ، والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئا آخر غير فلسفة أرسطو طاليس طبع بالطابع العربى وسميت الفلسفة العربية وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين طيبة إلى حد أن الجامعات الأوروبية فى العصور الأخيرة من القرون الوسطى كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار أنها فلسفة المشائين : أى فلسفة أرسطو .

هذا ما أورده لطفى السيد وقد علق عليه الدكتور صروف محرر المقتطف ( يناير ١٩٢٥ ) فقال : إن ما قاله الأستاذ ( يعنى لطفى السيد ) يؤيده الكتاب الأوربيون الباحثون فى الفلسفة العربية ، إن ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة فهو فكر يونانى منظم عبر عنه بلغة سامية وحوار بالمؤثرات الشرقية وأدخل بين أهل الإسلام بمؤازرة واسعة الصدر من حلفائهم وبقي حيا برعاية جماعة من المفكرين الذين لم يخشوا من المجاهرة بأرائهم على أن أمتهم أساءت بهم الظن وردد ما ذكره لطفى السيد مما يراه سببا فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين إلى فلسفة أرسطو .

#### ثم قال :

وكما أن النهضة الأوربية الحديثة عمدت إلى درس فلسفة أرسطو من نصوصها الأصلية فكانت مفتاحا للتفكير العصري الذى أخرج كثيرا من المواهب الفلسفية الحديثة فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو لا سيما أنها أشد المذاهب اثلافا مع طباعنا والطريق الأقرب إلى نقل العلم إلى بلادنا وتأقلمه فيها ، رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية ، وقال :

إن فلسفة ( المعلم الأول ) خالدة ما حدها وطن ولا أخنى عليها زمن فقد بنت عليها كل مدينة صروح مجدها العلمى حتى مدينتنا الجديدة .

هذا هو الاتجاه الذى بدأ به لطفى السيد عمله مديرا للجامعة المصرية ١٩٢٥ الخولة من الجامعة الأهلية ، وقد جىء به وبتلاميذه وأتباعه بوصفه أستاذ الجيل رئيسا لها وفتح الباب لطله حسين وغيره فى الدعوة إلى الإغريق وأرسطو ومذهب علم الأصنام اليونانى .

والسؤال هو : هل حقا كان لطفى السيد - أستاذ الجيل - صادقا فيما قال وفيما دعا

إليه العرب والمسلمين ، من اتخاذ أرسطو منطلقا إلى النهضة الجديدة ، وقد مضت كتاباته وكتابات طه حسين وغيره من بعده دعوة ملحة إلى هذا الطريق أم أن الأمر كان فيه شبهة وخدعة ، وهل كان حقا ( أرسطو ) هو منطلق الحضارة الغربية في عصر النهضة وما بعدها ، أم أن أول عمل قامت به النهضة هو نقض أرسطو وتزييفه والحملة على منهجه واعتبار منهجه هو عامل التجميد الذي عاش فيه الغرب معتقلا قرونا حتى جاء نور الفجر مع منهج التجريب الإسلامي الذي أطلق الطاقات إلى عصر العلم الحديث ، ندع هذا للباحثين ، لقد كان علماء المسلمين : انطلاقا ١٠٠ - ١١ - ١٢ .

التجريبى الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم بشهادة داربر وبروفولت وجوستاف لوبون فى القديم وهونكه وغيرهم فى العصر الحديث ومن أهم الكتب فى هذا الشأن كتاب هونكه ( شمس الله تشرق على الغرب ) وكتاب ( أوربا ولدت فى آسيا ) .

إذن فلم يكن لطفى السيد صادقا فى دعواه ولم يكن عميد الأدب العربى طه حسين أمينا حين نقل إلينا هذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدوا أرسطو أولا ( فى القرن الرابع الهجرى ) ثم جاء الأوروبيون فنقدوه ورفضوه فى القرن ( الخامس عشر الميلادى ) واستعملوا أسلوب المسلمين فى نقده ، والتمسوا منهج المسلمين الذى دفعهم إلى ذروة الحضارة والعلم والتكنولوجيا الآن .

إذن فلماذا هذا التعارض : يسأل عن هذا الاستشراق والاستعمار ، ذلك بأنهم على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : نقلوا المسلمين إلى أرسطو ونقلوا أنفسهم إلى منهج المسلمين ( جابر وابن الهيثم والبيرونى ) .

ذلك أن أرسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية ويحرمهم من ثمرات منهج التجريب الذى أنشؤوه ونماه الغرب .

وهكذا نجد أن هذا المنطلق على يد لطفى السيد وطه حسين وجماعة من أتباعهما يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضعوا لمنهج اليونان وأرسطو فى القديم ولما كان الفكر الحديث هو ثمرة فكرة اليونان فإن تبعية المسلمين والعرب له لا تعد شيئا غريبا ولا جديدا ، لأنهم كانوا تابعين لليونان من قبل فلا عجب أن يتبعوا ما جددته أحفاد اليونان .

لم يكن أستاذ الجيل صادقا إذن ولم يكن الدكتور طه حسين منصفاً فى هذا ، فإن المسلمين لم يقبلوا أرسطو ولم يعتنقوا فكر اليونان ، وإنما العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم

قواموه ونقدوه وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن وتصدى كثيرون منهم لهذا وفي مقدمتهم الأئمة الشافعي وابن حنبل والغزالي وابن تيمية .

وإذا كان الخلاف مازال واسعا حول ما كتبه الفارابي وابن سينا وهل هو فلسفة إسلامية أو متابعة للمثاليين اليونان من المثاليين المسلمين ، فإن رجلا كريما قد ولي قسم الفلسفة في كلية الآداب هو الشيخ مصطفى عبد الرزاق قد فصل في هذا الأمر على نحو ... خلافا ، دراسات الجامعة نفسها ، بالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة

صحيح ، رس - - - - - المتكلمين والفقهاء ،

كلية الآداب حين قال : إنما نلتبس الفلسفة الإسلامية في سبب ... وإن الإمام الشافعي واضع علم أصول الفقه هو أول الفلاسفة في الإسلام وأن مقامه في العربية هو بمثابة أرسطو في اليونانية وبذلك نشأت مدرسة الأصالة في مجال الفلسفة وامتدت من بعد واتسعت وكان من أتباعها الخضيرى وأبو ريده وعلى سامى النشار ، ومنذ ذلك الوقت ، وقد صدر كتاب ( تمهيد في تاريخ الفلسفة الإسلامية ) عام ١٩٤٧ - وقد كان منهجه قد تقرر قبل ذلك بوقت طويل - فقد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية وبرزت مدرسة الأصالة فيها ، وهو ما يزال عسيرا في مجال الأدب والنقد الأدبي ، فإن التبعية لمذاهب النقد الغربي الوافد مازالت قوية .

وقد أثبتت مدرسة الأصالة في الفلسفة الإسلامية ( مصطفى عبد الرزاق - أبو ريده - والنشار ) أن المنطق الأرسطوطاليسى هو منهج الحضارة والفكر اليوناني لم تقبل في المدارس العقلية ، وأن المنهج التجريبي الإسلامى هو الذى عرفته أوروبا في مطلع حضارتها الحديثة لمباينته للحضارة اليونانية ، وأن اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين يفسر روح الحضارة الإسلامية ، فالحضارة الإسلامية حضارة عملية تجريبية تتجه إلى تحقيق الفعل الإنسانى في ضوء نظرية حية ملموسة كذلك ، فقد كشفت الأبحاث المتعددة عن اضطراب خطير في المراجع التى اعتمد عليها الفارابي وباعتراف الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا : « إن الفكر الذى نقل إلى المسلمين من اليونان والإغريق لم يكن صحيح الأصول ، بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والنساطرة المترجمين وعقائدهم وكانت تهدف إلى خدمة مفاهيم دينية ، ومن هنا كان فسادها فى أن تعطى الفكر الإسلامى شيئا » .

ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة اليونانية ومذهب أرسطو بالذات قد بدأت منذ أن تمت الترجمة وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الأول ، ذلك أن الفكر الإسلامى

كان قد تم تشكيله قبل الترجمة على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والأخلاق ، ومن الربط بين الوحي والعقل ، ولذلك فإنه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانية أو ينصهر فيها ، خاصة وهي فلسفة مجتمع وثني قام على العبودية وإعلاء الشهوات وعبادة الجسد ، فضلا عن محاذير الترجمة من فساد وانتحال وتحريف نصوص ، وإن كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليهم اسم المشائين قاموا بمحاولة شاقة وعسيرة لإدخال الفلسفة اليونانية في إطار الإسلام ولكن المحاولة فشلت تماما .

وكانت وقفة الإمام الغزالي في وجه الفلسفة اليونانية وقفة صارمة ردت السهم إلى صدور أصحابه ، فقد كشف عن الفرق بين الفلسفة الرياضية والطبيعية وبين الفلسفة الإلهية ورفض الأخيرة لأنها متعارضة مع التوحيد وأعلن أن الكلام في الطبيعيات برهاني أما في الإلهيات فهو تخميني عندما يعتمد على آراء الناس وتفكيرهم المنفلت من الوحي . وفي الفلسفة الإلهية عارض الغزالي القضايا الكبرى الثلاث التي تقرها الفلسفة اليونانية وتختلف مع مفهوم الإسلام :

- ١ - عارض ما يقولون به من قدم العالم .
  - ٢ - وعارض زعمهم أن الله ( جل وعلا ) لا يحيط علما بالجزئيات .
  - ٣ - وعارض إنكارهم البعث .
- وهاجم الفلاسفة الذين جحدوا الصانع وزعموا أن العالم قديم كالدهرية والزنادقة ، والذين قالوا أن النفس تموت ولا تعود ومن أنكروا الآخرة .
- ويقول الدكتور النشار : إن المنطق الأرسطوطاليسي قد نقل إلى العالم الإسلامي وأثر فقط في المدرسة المشائية الإسلامية وبقيت المدارس الأخرى المنبثقة عن النظام الإسلامي بعيدة كل البعد عنه ، تحاربه وتجاهده ، وكانت قد وضعت منطقا مختلفا تمام الاختلاف في روحه وجزئياته .

وقد وصل علماؤنا في مجال البحث عن منهج أرسطو إلى حقيقة أساسية : هي أن منطق أرسطو يعبر تعبيراً دقيقاً عن المجتمع اليوناني العبودي المنقسم إلى سادة يتأملون وعبيد يعملون ، السادة هم الصورة والعبيد هم المادة ، ولكن المجتمع الإسلامي يختلف عن المجتمع اليوناني اختلافا كبيرا فدولته تقوم على الأخوة والمساواة وتنطلق من نقطة النظرة في السموات والأرض والعمل والكسب والسعي والتجريب .

ومن هنا اختلف منهج المجتمع الإسلامى عن مجتمع اليونان من جملة جوانب : أهمها التوحيد وإلغاء العبودية والممارسة فى مجال العلم وبذلك بدا ذلك التعارض الواضح العميق بين مجتمع ومجتمع وفكر وفكر .

خرج الفكر الإسلامى من النظرة الأرسطية التى ترى أن العلم لا يكون إلا بالكلى أما العلم الجزئى فليس علما ، فتقدم الفكر الإسلامى فحطم هذه القاعدة ، وبدأ النزعة التجريبية من الجزئيات وبذلك خرج المفكرون المسلمون عن المفهوم الأرسطى للحد والتعريف ، واستطاع رجال الأصول والفقه أن يقيموا نظرة جديدة للتعريف تقوم على أساس الواقع ، وأدى ذلك الخروج عن حدود القياس الأرسطى إلى الحصول على نتائج عملية وأصبح طابع الفكر العلمى الإسلامى هو « طابع التجريب » ونقد المفكرون المسلمون قياس أرسطو وقال عنه ابن خلدون أنه قياس ذهنى ، أما المسلمون فقد عرفوا ما لم يعرفه اليونان وخطوا أخطر خطوة فى تاريخ البشرية وهى بناء قاعدة العلم الحديث نفسه : تلك هى التوحيد بين التأمل والممارسة العملية وأولى المسلمون اهتمامهم بالرابطة العلية بين الأشياء وعلى هذه الرابطة بين الأشياء قامت التجارب ، وعلى هذه الرابطة العلية ( البحث عن العلة ) أقام البيرونى والرازى وجابر بن حيان وابن سينا تجاربهم العلمية ، وفى نفس الوقت قام المنهج العلمى فى الفكر حيث فسر ابن خلدون حركة التاريخ وتطور العلاقة البشرية .

وبهذه النظرة المتطورة للكون والإنسان اختلف الفكر الإسلامى اختلافا كبيرا عن الفكر اليونانى المترجم وتناقض معه فى مختلف فروع الثقافة من علم وأصول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة إلى الإنسان ، ولم يكن هذا الاختلاف عابرا أو طارئا وإنما كان نتيجة طبيعية لاختلاف التكوين الاجتماعى للدولة الإسلامية عن الحضارة اليونانية ، وبذلك ظهر الفكر الإسلامى فى جوهره فكرا تجريبيا يتجاوز منطق أرسطو وأطل على التجربة العلمية رابطا بين التأمل النظرى والممارسة العملية ، وخرج بذلك على الفلسفتين الأرسطية والأفلاطونية .

وقد صور كثير من الباحثين أثر منهج أرسطو فوصفه الدكتور محمود قاسم بأنه كان منهجا عقيما وأنه ضلل كثيرا من مفكرى العرب ثم وقف حائلا دون ازدهار الحضارة العربية ويرجع عقمه إلى أنه كان خلوا من الخيال وأنه كان أكثر اهتماما بالقضايا العامة المجردة منه لدراسة التفاصيل والجزئيات ، يستدل على صدق دعوانا بتاريخ النهضة الأوربية



فإنها لم تتحرر من الجمود الذى فرضه عليها منهج اليونان إلا بعد أن عرفت مناهج العرب ( المسلمين ) فى العلم والفلسفة ولنا أن نستشهد برينان نفسه ذلك أنه يصف ( روجر بيكون ) بأنه الأمير الحقيقى للفكر الأوربى فى القرن الثالث ، ويجب أن نعلم كيف جاءته إمارة الفكر ، إذ ليس فى هذا المجال خلق من العدم ومن اليسير أن نكتشف سر أصالته إذا نحن بينا أنه أول من نادى بمهاجمة المنهج الأرسطوطاليسى فى أوربا ودعا إلى اصطناع نهج العرب المسلمين فهو يأخذ على معاصريه بأنهم يصبون لعنائهم على الرياضة مع إنه من الممكن أن يبرهن بالرياضة على كل ما هو ضرورى لفهم الطبيعة ولولا الرياضة لاستحال علينا أن نعرف أشياء هذا العالم معرفة صحيحة تعود علينا بالنفع فى الأمور الإنسانية والأمور الدينية أيضا ، كذلك يأخذ عليهم الانصراف عن استخدام الملاحظات والتجارب مع أن الطبيعة لا تكشف أسرارها إلا بدراسة الأمور الجزئية حتى تصعد بنا إلى القوانين الكلية . وهكذا انتصر المنهج الإسلامى على المنهج الأرسطى وحطمه فى عقر داره بعد أن حطمه فى مجال الفكر الإسلامى نفسه .

فإذا أردنا أن نبين فكر أرسطو وجدناه يقول بالنظام العبودى اليونانى ويرى أن ( نظام الرق ) هو أصلح نظام للبشرية وأن العبد إذا تحرر من عبوديته فهو عبد الأمير إذا استعبد فهو أمير ، ومفهومه عن الله تبارك وتعالى ناقص وضال .

\* \* \* \*

## (١٦) الفارابي وابن سينا والرد على ما جاء فى كتابات طه حسين والعقاد وعاطف العراقي وغيرهم :

\* ماذا وراء محاولات إعادة الحياة لأفكار الفارابي وابن سينا ؟ .

\* نظرية الفيض :

\* كشف علماء المسلمين عن زيفها وبعدها عن الإسلام .

هناك محاولات كثيرة تعمل على أن تعيد الحياة لأفكار الفارابي وابن سينا الفلسفية مرة أخرى بعد أن هزمت وكشف فسادها ، منذ معركة التصحيح والأصالة الإسلامية التى قامت فى القرون الثالث والرابع والخامس الهجرى بعد ترجمة الفلسفة اليونانية واستشراء مفاهيمها المسمومة واتجاه بعض هؤلاء الفلاسفة إلى أن يكونوا امتداداً لها بمحاولات التأويل ولى أعناق النصوص لربطها بالإسلام على اختلاف ( الأرجانون ) أو المنهج الفكرى لحضارة ومجتمع الإسلام القائم على التوحيد ، وحضارة ومجتمع اليونان القائم على علم الأصنام ، وقد شارك فى دحض هذه المحاولات كبار علماء المسلمين : الشافعى وابن حنبل وابن تيمية والغزالي وابن حزم وابن القيم وكثيرون .

وهناك اليوم كتابات جديدة عن الفارابي وابن سينا كتبها كثيرون منهم العقاد ، وعمر فروخ ، وعاطف العراقي فى محاولة لإعطاء هذين الفيلسوفين أبعاداً جديدة فى تاريخ الفكر الإسلامى بتجاوز الحقيقة مع تجاهل ما ووجهت به مترجمات الفلسفة اليونانية إلى الإسلام من مقاومة ودحض وكشف عن أخطائها وذلك قد جرى ضمن خطة التغريب القائمة على بعث التراث اليونانى والوثنى والباطنى القديم .

وفى المقدمة نقول وبكل الصدق والإخلاص ونحن نتحدث فى إطار المنهج الإسلامى الأمين لإلقاء النظرة على هذه الفلسفات المتجددة اليوم : أننا نفرق بين رجلين : الفارابي العالم فى مجال العلوم التجريبية وابن سينا الطبيب والباحث التجريبى فإن هذه الكتابات لكليهما هى موضع تقدير جميع المسلمين ، أما كتاباتهما عن الفلسفة فهذه هى موضع

النظر والنقد والمراجعة لأنها تتصل بالعقائد والمفاهيم الإسلامية القائمة على التوحيد الخالص .

فى مدخل البحث عن هذه الفلسفات المترجمة من اليونانية نجد المحاذير الآتية :

**أولاً :** لقد تبين بالدليل الأكيد أن ما ترجمه النساطرة من الفلسفة اليونانية لم يكن صحيحاً ، ولكنه كان مدخولاً ، كان فيه هوى إقحام المفاهيم النصرانية ومن ثم اضطربت مفاهيم الفلسفة اليونانية فوق اضطرابها الأصيل .

**ثانياً :** إن هذا الخلط فى المترجمات بين أرسطو وأفلاطون أدى إلى فساد المفاهيم التى تقدم بها هؤلاء الفلاسفة ، فالمعروف أن أفلاطون كان مثالياً فى نظرائه وأن أرسطو كان مادياً ، ومن هنا فإن الكتب التى ترجمت ترجمة زائفة باسم أحدهما وهى ليست له كان من نتيجتها أن ما قرر بشأنها كان خطأ وكانت أكبر محاولة خاطئة هى محاولة ضم فلسفة أرسطو وأفلاطون تحت لواء المفاهيم الإسلامية .

**ثالثاً :** أن مترجمات الفلسفة هى التى أفسدت الفكر الإسلامى وأثرت فى الفكر المعتزلى من ناحية ، كما أسهمت لمن اندس على التصوف - والتصوف الحق هو الإسلام - فخرقوا فيه أفكاراً مسمومة خبيثة ، خرج منها فريق من الصوفية عن الإسلام ، كما أبعدت المعتزلة عن جادة الصواب ، وهى التى كانت مصدراً لمفاهيم الباطنية وإحياء المجوسية الفارسية ومحاولة وسم الأدب العربى والفقه الإسلامى والتاريخ الإسلامى بأنه قام على أساس المترجمات اليونانية ولم يكن ذلك صحيحاً على إطلاقه .

كان الفارابى متابعاً للفكر الإغريقى بخلفية واضحة هى التبعية الباطنية ولقد رفض العلماء المسلمون نظرية ( المدينة الفاضلة ) وأعلن ( ابن خلدون ) أنه لم يعقلها ، ومن الملاحظ أن الانتقادات الهامة للفارابى تظهر واضحة فى كتب الفقهاء المالكية فى شمال إفريقيا وتظهر فى ( الاعتصام ) للشاطبى وتظهر فى ( ذخيرة الأحكام ) لابن فرجويه الذى رفض فكرة السياسة العقلية التى تسود فكرة المدينة الفاضلة عن الفارابى ، ولا شك أن الاتجاه السلفى من قبل عند ابن تيمية وعند ابن القيم فى كتبهما السياسية قد سبقت مدرسة المغرب المالكية فى هذا العمل ، وكذلك انتقده ( ابن الأزرق ) شمس الدين محمد على فى كتابه ( بدائع السلك فى طبائع الملك ) المتوفى ٨٩٦هـ .

والمعروف الآن أن الفارابي ذهب في سنن الخمسين إلى بغداد حيث درس على ( يوحنا ابن جلال ) من قبائل التركمان ، درس تراث ( جندسابور ) وحران وقرو والرهبان الذين انتقلوا إلى بغداد ، وهو بذلك أول رجال المدرسة الإسكندرية ، أو شيخ الأفلاطونية الحديثة في العالم الإسلامي ، وكان أفلاطوني المذهب على رأى سقراط وأفلاطون .

ولقد كانت ( جند سابور ) حيث عاش صابئة الحرائية هي الملهمة الكبرى للكندی ، كما كان لهم أثر في الرازي ( محمد بن أبي بكر ) - وهو غير الرازي المفسر - .

هؤلاء الصابئة الحرائية كانوا فرقة أفلاطون أساسا ، وهم الذين يؤمنون بالدين اليوناني القديم ، فروا إلى فارس بعد تنصير الملوك وأنشأوا مدينة فاضلة احتذاها نظريا ( الفارابي ) وطبقها عمليا ( حمدان قرمط ) الصابئي الحرائي ونفذها أناس في مدينة ( هجر ) وهم الذين سرقوا الحجر الأسود وانتهكوا حرمة المسلمين وقتلوا الحجيج ، وصابئة الحرائيين مشغولون بعلم الكيمياء وعلم الصنعة يزاولون السحر والتنجيم ، وحران هي موطن ( الفارابي ) الأول فيها كل خصائص الفارابي وإخوان الصفا ومدرستها الإشراقية والفارسية عن السهروردي متأثرة بنظرية الفارابي في الفيض .

فلسفة ابن سينا :

أما ابن سينا فهو كبير مقلدي أرسطو والمتمم لفلسفة المشائين الذين هم شيعة أرسطو قرأ الإسلام من خلال نظرية يونانية وجرى على طريقة أرسطو في كتابه ( الشفاء ) .

وقد أخذ ابن سينا آراء الفارابي ووسعها وشرحها وفصل القول فيها ، وكتابه ( الإشارات والتنبيهات ) فيه عبارات كثيرة لا يعرفها أهل السنة مثل قولهم ( اتصال بالعالم العلوي هو عشق وشوق مستعران ) أو أن الوسيلة لإدراك السعادة هي الدراسة والبحث والنظر والتأمل أما الأعمال البدنية ( كالصلاة ) فهي في المرتبة الثانية ، وابن سينا أميل من أستاذه الفارابي إلى زائفي متصوفة القرن أمثال الحلاج كما يتحدث عن الاتحاد المزعوم بين الخالق والمخلوق .

وتقارب ابن سينا والفارابي يوحى بالمصدر والحلقة التي ظهرت فيما بعد على أيدي الباحثين وهي الاتصال بالباطنية ، ويضاف إليها من ناحية (ابن ماجه وابن طفيل وابن رشد) في المغرب فابن طفيل في روايته ( حى ابن يقظان ) يحاول أن يثبت أن القوى

الإنسانية وحدها تستطيع الاتصال بالله بدون النبوة والفلاسفة المتابعون للفلسفة اليونانية أو الباطنية يرون ذلك ، ولا ريب أن هذه المعاني مخالفة للتوحيد الخالص ولمفهوم أهل السنة والجماعة .

وقد تكتشف هذه الحقائق لعلماء المسلمين منذ وقت باكر وإن كانت قد خفيت على كتّابنا العصريين أو حاولوا تجاهلها فقد أشار إلى هذه المؤامرة الخطيرة ابن القيم في كتابه ( إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان ) ج ٢ ص ٣٦٢ ، قال : لقد قرب ابن سينا مذهب سلفه الملاحدة من دين الإسلام بجهده ، وغاية ما أمكنه أن يقربه من أقوال الجهمية الغالية في التجهّم وفي مقدمتهم أرسطو ، ويشير إلى تخليط ابن سينا في محاولة تقريب هذه المذاهب من الشرائع .

فأرسطو لم يثبت صانعا للعالم البتة ، فالرجل - ابن سينا - معطل مشترك جاحد للنبوات - والمعاد ، لا مبدأ عنده ولا معاد ، ولا رسول ، ولا كتاب .

وكان أفلاطون يقول إن للعالم صانعا مبدعا أزليا ، وقد حكى أرسطو عنه ذلك وخالفه فزعم أنه قديم أى العالم وتبعه على ذلك ملاحدة الفلاسفة حتى انتهت النبوة إلى ( ابن سينا ) فرام بجهده تقريب هذا الرأى من قول أهل الملة .

قال ابن سينا : « أنا وأبى من أهل دعوة الحاكم فكلانا من القرامطة ( الباطنية ) الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد ولا رب ولا خالق ولا رسول مبعوث » وكان هؤلاء الزنادقة يبشرون بالرفض ويبطنون الإلحاد الخوض ، وينتسبون إلى أهل بيت الرسول لا يحرمون حراما ولا يحلون حلالا وفي زمنهم ولخواصهم وضعت رسائل ( إخوان الصفا ) وهم لا يعرفون الملائكة ولا يؤمنون بهم ، ( انتهى ما قاله ابن القيم ) .

أما ( الشهرستاني ) فقد صارع ابن سينا في كتابه ( المصارعة ) فأبطل قوله بقديم العالم وإنكار المعاد ( البعث ) فقام له نصير الإلحاد ونقضه بكتاب سماه ( مصارعة المصارعة ) قال فيه إن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض في ستة أيام وأنه لا يعلم شيئا وأنه لا يفعل شيئا بقدرته واختياره ولا يبعث من فى القبور .

ويقول ابن القيم لقد درجت الملاحدة على مفاهيم أرسطو ( المعلم الأول ) الباطلة حتى انتهت نوبتهم إلى معلمهم الثانى ( أبو النصر الفارابى ) الذى توسع فى صناعة

المنطق وبسطها وشرح فلسفة أرسطو وهذبيها وبالغ في ذلك وكان على طريقة سلفه في الكفر بالله تعالى سبحانه وتعالى عما يقولون ، وهو عندهم - كما قرره أفضل متأخريهم ولسانهم وقدوتهم الذي يقدمونه على الرسل ( أبو علي بن سينا ) - هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق ، وليس له عندهم صفة ثبوتية تقوم به ولا يفعل شيئا باختياره ألبتة ، ولا يعلم شيئا عن الوجود أصلا ، ولا يعلم عدد الأفلاك ولا شيئا من المغيبات ، ولا له كلام يقوم به ولا صفة ( تعالى الله عما يقولون علواً عظيما ) عن ( إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان ) .

هذا هو أرسطو والفارابي وابن سينا الذي حشدت له قوافل التغريب أقلامها وأولته اهتماما زاد عن اهتمامهم بأعظم العظماء ، فكتب عنه طه حسين ولفظي السيد وإبراهيم مذكور وغيرهم بالإضافة إلى من ذكرنا ، وأولته المدرسة العلمانية اهتماما كبيرا ، بينما حملت حملة ضارية على الغزالي وابن تيمية ، بل لقد بلغ الفجور ببعض التغريبيين أن يقول : ( إن ابن سينا مؤمن بدين الإسلام عن حمية واقتناع ، وأنه ليس تابعا لأفلاطون ) والحقيقة أننا في أمر الفارابي وابن سينا والرازي نستفيد من جوانب الطبيب والعالم ، أما الفيلسوف فهي مضطربة اضطرابا شديدا ولا نأخذ بها بل نكشف عن زيفها .

ولقد أثبتت الوثائق أن ابن سينا والفارابي كانا على طريق الباطنية وإخوان الصفا ، وأن ابن سينا أودع كتاباته تلك الأسرار والرموز التي يعرفها أصحاب المخططات السرية لقلب الإسلام .

وبالرغم من أن ابن سينا حاول الدفاع عن نفسه ونفى تهمة اتصاله بالمؤامرة الباطنية فإن وقائع حياته تكشف هذا الانتماء ، كما تؤكد المصادر الإسماعيلية على باطنيته ، وقد تأثر بفلسفة المعتزلة التي انكمشت على نفسها شرقى فارس بصورة خاصة إثر الضربة التي تلقتها على يد المتوكل .

ويتحدث الأستاذ إبراهيم الخال عن باطنية ابن سينا فيشير إلى أنه أضاف إلى الفلسفة نظرية الأفلوطنية التي ورثها من الفارابي وإخوان الصفا ويقول : إن فلسفة ابن سينا ، كانت ثمرة شجرة غرسها مؤسس الدعوة الإسماعيلية في أرض يونانية ، ويفصل القول في هذا الصدد فيقول : إن الذي يظهر من سيرة ابن سينا ( ٣٧٠ - ٤٢٨ ) أنه رجل دين وسياسة

كما كان فيلسوفا في عصر كانت فيه السياسة والدين وجهين متلازمين للدولة والحكم ،  
تولى الوزارة لبعض الأمراء البويهيين وكان هؤلاء زيدية ، وتعرض للسجن والقتل غير مرة ،  
لأسباب سياسية ، وأصبح طبيبا وندما لعلاء الدولة الذى اتهم بالزندقة لملازمته إياه ، وكان  
الناس فى أصفهان ينظرون إلى ابن سينا كزنديق ، لحياة اللهو التى كان يحياها ، فقد كان  
من أصحاب الكأس والطاس ، وكان ينزع فى حياته الشخصية نزعة أبيقورية مغرقة فى اللذة  
والحس والشهوة وقد وصفه ابن خلكان فى أيام حياته الأخيرة بالإفراط فى الشهوات  
والأكل ، ولقد كان ابن سينا من أكبر أعداء السلطان محمود الغزنوى وكان الغزنويون  
أعداء الاعتزال والباطنية والفلسفة الإلهية ، ولو كان السلطان عثر عليه فى ( الرى ) لقتله  
على وجه التحقيق ، وقد هرب ابن سينا من الرى قبل وصول السلطان وكان دائم الهروب  
من كل أرض تمتد إليها يد الغزنويين وكان الغزنويون موالين للدولة العباسية ومستودين من  
دار الخلافة ، وكان ابن سينا بذلك من أعداء الدولة العباسية ، ولم يكن ابن سينا من  
الشيعة الاثنى عشرية إذ كان والده باطنيا إسماعيليا ، كما أن البيت الذى نشأ فيه كان  
مفتوحا للدعاة الإسماعيليين ، أى لرسل الفاطميين الذين يحكمون مصر ويطمحون إلى  
حكم الشرق الإسلامى وكان ولاء ابن سينا للفاطميين الإسماعيليين شرا ، وكان ابن سينا  
قد وجه منذ مطالع صباه وجهة إسماعيلية باطنية صرفة عندما دفعه أبوه إلى دراسة  
الرياضيات والفلسفة ، وكان ذلك بوجه عقائدى من أبيه ومن القاعدة الأساسية للعقيدة  
الإسماعيلية ، وقد ورث ابن سينا ( نظرية الفيض ) من الفارابى ومن إخوان الصفا وهى  
تعود بالأصل إلى أفلاطون ومدرسة الإسكندرية ، وخلاصتها عن ابن سينا : « إن الله –  
تبارك وتعالى جل وعلا عما يقولون – عقل محض وأنه يعقل ذاته ، دائم التأمل فيها ، ولما  
كان التعقل هو علة الوجود فقد فاض عن الله بالضرورة موجود واحد هو العقل الأول وعنه  
فاض ثان . . إلى العقل العاشر وهو العقل الفعال الذى فاض عنه عالمنا الأرضى الذى  
نعيش فيه ) .

والنظرية زائفة وفاسدة وقد كشف علماء المسلمين عن زيفها واضطرابها وبعدها تماما  
عن مفهوم الإسلام وقد ذكر الفارابى مع أسماء الدعاة الإسماعيلية ، ويرى ابن سينا أن الله  
يعلم الكليات دون الجزئيات وأنه إذا علم الجزئيات فإنه يعلمها بمعانيها وليس بأعيانها

وشخصوها وهذا يخالف مفهوم الإسلام الصحيح ومنطق القرآن نفسه ﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ [ سورة الأنعام : الآية ٥٩ ] .

وغاية القول أن ابن سينا كشف فى نهاية كتابه ( الإرشادات والتنبيهات ) عن هويته التى أخفاها كثيرا عن الناس فى أبحاثه محاولاً أن يصور نفسه بصورة العالم المتخصص فهو يسجل فى الوصية التى يوصى بها أتباعه روحاً باطنية واضحة ويقدم منهجاً باطنياً صريحاً شبيهاً بمنهج إخوان الصفا والفلسفة الإسماعيلية ويوصى أتباعه ألا يذيعوا أسرار الحكمة الشرقية إلا لمن يثقون بنقاء سريرتهم ، وطلب من خلائه أن يقرءوه فى حلقة مغلقة وأن يدرسوا الحالة النفسية لمن يريدون ضمهم إلى مذهبهم مع أخذ العهد على المريدين أن يسلكوا مسلكتهم مع الذين سيوكل إليهم فيما بعد مهمة جذبهم إلى هذا المذهب السرى الباطن ، وهذه الوصايا تشبه وصايا الباطنية ، وقد تحدث الدكتور محمود قاسم عن ابن سينا فى بحث مطول وكشف القناع عن حقيقته فقال إنه حرص على تأويل النصوص الدينية تأويلاً باطنياً حتى يجعلها على وفاق مع فلسفته الخاصة ، وهى فلسفة إشراقية فى المقام الأول ، وأنه خصص أمسياته للسمر والشراب والسماع وطلب المتعة ، وكان مسرفاً على نفسه فلم يعن بعلاج المرض الذى أصابه ولم يتحفظ فى شرابه وطعامه فمات فى السابعة والخمسين وقال إن نظريته فى الفيض مأخوذة مما أورده بطليموس عن العقول كما تأثر فى قصيدة النفس بآراء أفلاطون .

كذلك فقد ذكر الباحثون أن الفارابى ، فسر النبوة فى كتابه ( المدينة الفاضلة ) على أساس تعاليم الباطنية .

وبعد فهذا ما أردت أن أوجهه إلى شباب الإسلام المثقف الذى تقع فى يده دراسات كتاب كبار ، وأسماء لامعة عن الفارابى وابن سينا فيخدعون بها ولا يعرفون ما وراء الصورة البراقة التى يقدمها هؤلاء ، ولقد كتبت فى السنوات الأخيرة ، مقالات كثيرة عن الفارابى وابن سينا فى المجالات الإسلامية بالذات كلها خلط وزيف وافتراء ، ولكن هذه هى الحقيقة خالصة لوجه الله تعالى ، والله من وراء القصد .

\*\*\*



## (١٧) مقدمة فى فقه اللغة العربية للدكتور لويس عوض :

\* محاولات لويس عوض حلقة جديدة من حلقات الحرب المعلنة ضد اللغة العربية الفصحى .

\* وليس له دليل علمى أو تاريخى أو حتى مجرد افتراض يؤيده فى دعواه الباطلة .

ما تزال المؤامرة على ( الفصحى لغة القرآن ) مستمرة منذ قدم النفوذ الأجنبى إلى العالم الإسلامى وحاول السيطرة عليه ، ومنذ ذلك الوقت ما تزال المعاول تضرب فى جدار اللغة العربية بهدف إدخال ( الفصحى ) إلى المتاحف كما دخلت اللغات اليونانية واللاتينية والسريانية والفرعونية وعشرات من اللغات ، ولكن هيهات فإن اللغة العربية الفصحى خالدة باقية لأنها تحمل على جناحيها آيات القرآن الكريم التى لا تزول .

والمؤامرة فى هذه المرة تلبس ثوب البحث العلمى وتحاول أن تعتمد على بعض النصوص التى وردت فى كتابات الباحثين المسلمين فى فترة من الفترات التى غلبت فيها الفلسفة اليونانية وتأثر بها بعض العلماء أو بعض الشعراء على النحو الذى نراه فى كتابات المعتزلة عن قضية ( خلق القرآن ) على النحو الذى كتبه القاضى عبد الجبار أو من تأثر بالمفاهيم اليونانية الفلسفية من الشعراء أمثال أبى العلاء المعرى ، وحتى هذه النصوص التى حشدها الدكتور لويس عوض لم يؤت القدرة على فهمها كما أراد أصحابها ، وكان قد أعدها للاستشهاد بها - أو أعدت له - بفكر مسبق واضح لتوجيهها وجهة تتناسب مع الطعن على القصيدة واللغة .

ونحن نعرف أن قضية الفلسفة اليونانية وترجمتها إلى اللغة العربية وتأثيراتها ليست قضية مستقلة ، وإنما هى موجة من موجات هذا الفكر ، وقد واجهها العلماء المسلمون بالرد الواضح الحاسم الذى زيف هذه الآثار التى بثتها بعض أقلام الفلاسفة أو الكتّاب أو الشعراء .

وقد كان واضحاً وضوحاً لا شك فيه : أن علوم فقه اللغة والنحو والتاريخ قد نشأت

طبيعية وترعرعت وتكامل مفهومها الإسلامى قبل ترجمة الآثار اليونانية ، وهى علوم إسلامية أصيلة ، لم تتأثر بالفكر اليونانى وإنما الذى تأثر به هو علم الكلام والبلاغة وهى تأثيرات لم تستمر كثيرا ، فإن المحاولات التى قام بها بعض الباحثين للتأثير بها على المضامين الإسلامية الأصيلة قد لفظتها اللغة والآداب العربية كما يلفظ الكيان القوى أى جسم غريب يحاول اختراقه ، ولذلك فإنه سرعان ما ارتفعت ( صيحة الأصالة ) التى حررت الفكر الإسلامى كله من هذه التأثيرات وبرز مفهوم السنة الجامعة الذى استصفى وصهر فى أعماقه كل إيجابيات فرق المعتزلة والشيعة والخوارج ، ولم تبق هذه الكتابات إلا بمثابة وثائق تاريخية ، ولكن التغريب والاستشراق يحاولان إعادة هذه القضايا الجزئية خارجة عن إطارها فى الحركة العامة بين الفلسفات اليونانية وبين أصالة الإسلام التى ردت كل ما يتعارض مع التوحيد الخالص ، وقضية ( خلق القرآن ) هى إحدى القضايا التى جرت حولها أبحاث كثيرة وانتهى رأى فيها إلى مفهوم أهل السنة وهو أن كلام الله غير مخلوق ، ومن هنا فإن كتابات أمثال القاضى عبد الجبار التى جعلها لويس عوض شعاره فى دعاواه الباطلة ليست مقبولة تماما فى نظر الدارسين الإسلاميين لأنها ارتبطت بالتبعية للفكر اليونانى .

ومن هنا فإن هذه المحاولة التى يقدمها الدكتور لويس عوض فى كتابه : ( مقدمة فى فقه اللغة العربية ) ليست إلا حلقة جديدة من حلقات الحرب المعلنة المتصلة ضد اللغة العربية الفصحى التى يقودها التغريب والغزو الفكرى والاستشراق والتبشير والتى كان الدكتور لويس عوض من أكبر خدامها منذ ظهر ديوانه ( بلوتولاند ) الذى طبعه عام ١٩٤٧ ، أعلن فيه الحرب على الفصحى وما يتصل بذلك من دعوته إلى العامية وكسر عمود الشعر ، وكان قد دعا من قبل أن استخدام العامية سيؤدى بعد قرنين إلى ترجمة القرآن إلى العامية ، وقد أراد الدكتور لويس عوض فى كتابه الجديد : الدخول إلى هذا الموضوع بأسلوب جديد ، ومن ذلك جمع دعاوى زائفة منها دعواه الباطلة بأن العرب لم يكونوا إلا قوما من القوقاز هاجروا إلى الجزيرة العربية وقد ادعى هذه الدعوى المعارضة لطبائع الأشياء وختلف صور الهجرات التى تؤكد أنها تخرج دائما من الأرض الجافة إلى الأرض الخصبة ، معارضا الحقيقة الواضحة من أن الجزيرة العربية هى التى كانت منطلقا لهجرات كثيرة منها إلى خارجها ، ولكن الدكتور لويس عوض يعارض كل نواميس الكون

والحضارة من أجل أن يصل إلى غرض خبيث بعيد المدى ، هو الادعاء بأن اللغة العربية ليست إلا فرعاً من فروع الشجرة التي خرجت منها المجموعة الهندية الأوروبية وأن هناك من الأدلة ما يشير إلى وجود علاقة بين العربية من ناحية وبين القوطية والجرمانية القديمة .

وبدلاً من أن يقال : إن اللغة العربية قد دخلت إليها عشرات أو مئات الكلمات من اللغات الأجنبية يجيء الدكتور لويس عوض ليعلن هذا الرأي الخطير الذي لم يقدم له أى دليل علمي أو تاريخي أو حتى مجرد افتراض افترضه باحث قبله فهو يحاول إلقاء هذه الشبهة على نحو غريب لم يعهده البحث من العلماء الذين يقدمون بين يدي أبحاثهم الوثائق والأسانيد ويقول في جرأة غريبة :

ولقد انتهيت من أبحاثي إلى أن اللغة العربية هي إحدى فروع الشجرة التي خرجت منها اللغات الهندية والأوروبية .

ثم يصل بعد ذلك إلى أن اللغات اليونانية تعتبر فرعاً من هذه الشجرة ، واللغات العامية فرعاً آخر ، فيقول :

فالأمر إذن لا يتجاوز أن يكون مجرد اقتباس اللغة العربية لمئات الألفاظ أو آلاف الألفاظ من اللغات الهندية الأوروبية المحيطة بها كالـيونانية واللاتينية والهندية وأكثرها من ألفاظ الحضارة كما كان يظن بعض فقهاء اللغة ، لأن اللغة العربية كغيرها من اللغات السامية ليست في صلبها وسمتها الأصلية إلا تطورا طبيعياً من نفس الجذور التي خرجت منها السنسكريتية وإيرانية الزند واليونانية واللاتينية والمجموعة التيونونية وأن ما نجده من أسماء الأعداد والحيوانات والنباتات مشتركة في الجذور يشتبه في أن هذا التواتر ليس نتيجة للتأثير والتأثر وإنما هو نتيجة لوحدة في الأصول .

ولا ريب أن هذه النظرية باطلة تماماً ومرفوضة أساساً ، لأنها لا تقوم عليها أى دليل علمي ولا سند واضح وأنها ليست سوى فرضية تخيطها كلمات الاحتمال المغرض الذي يطوى من ورائه غرضاً مبيتاً وهدماً مقصوداً لا يخرج عن الخط الذي سار عليه الدكتور منذ مطالع حياته .

ولقد ترددت محاولات الدكتور لويس عوض بين انتقاص اللغة العربية والغض من قدرها أو محاكاتها إلى فهم علم اللغات الغربية الذي وضع تحت ضوء تطور اللغات الأوروبية بعد انفصالها عن اللاتينية وتحولها من لهجات محلية إلى لغات ، هذه الظاهرة التي تختلف

فيها عن اللغة العربية التي حماها القرآن من التحول إلى لغة تاريخية كما تطمح أهواء الاستشراق وكما جرت المحاولات المتعددة لإعلاء العاميات العربية بهدف القضاء عليها دون جدوى ، وأن محاولة إخضاع اللغة العربية لعلم اللغات الأوروبية هي محاولة فاسدة ومضللة . وإذا كان الدكتور لويس عوض يحاول أن يغض من شأن العرب واللغة العربية لأنها من نتاج الألف الأولى قبل الميلاد وقد سبقتها أم وحضارات كأشور وبابل والبطلمية ويونان ومملكة سبأ ومعين وفينيقيا فأين هي الآن هذه كلها من العرب الذين خلد ملكهم باللغة العربية التي اتخذها القرآن الكريم أداة له ؟ وهي اللغة التي لم يقل العرب - قبل الإسلام - يوما أنها مقدسة وإنما كرمها نزول القرآن بها وأعطاهها هذه الميزة التي تعلو بها وتختلف عن اللغات التي نزلت بها التوراة ( العبرانية ) والإنجيل ( الآرامية ) وهي لغات انطوت وانتهت بالرغم من محاولة إحياء الصهيونية لغة جديدة عبرية تختلف عن لغة التوراة الأولى .

والدكتور لويس عوض يعرف كيف سيطرت اللغة العربية بفضل حملها رسالة القرآن على اللغات المختلفة التي كانت تعيش في هذه المنطقة كالأرامية والقبطية وغيرها وكيف قطع القرآن الامتداد التاريخي في هذه المنطقة بين ألف سنة من حكم الرومان والفرارغة وبين ظهور الإسلام ، وكيف انتهت وثنية فارس والهند والرومان عن هذه المنطقة العربية ، هذا الانقطاع التاريخي الذي تحدث عنه المؤرخون المنصفون من غير ذوى الأغراض والأهواء .

والدكتور لويس عوض يعرف أن هذه « السامية » المدعاة هي زيف من الزيف وأنها ليست حقيقة تاريخية ، وإنما هي من مبتكرات أحد المتزلفين إلى اليهود حتى تنسب إليها أمجاد التاريخ العربي القديم وتسلب من أصحابه الحقيقيين وخاصة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وأبناءه وأحفاده وإضافة ذلك كله إلى مصدر غامض ليس له سند علمي وإن كان يستمد مصدره الأساسي من التوراة التي كتبها اليهود بأيدي الأخبار وليست التوراة الحقيقية المنزلة على سيدنا موسى عليه السلام وذلك بهدف إشراك اليهود مع العرب في هذه الأمجاد بينما لا يوجد لليهود أى اتصال بإنشاء هذه الحضارة .

ذلك أن ( الإبراهيمية الحنيفية ) هي أم هذه الحضارة الحقيقية ولما كان مطمح اليهود هو طمس هذه الحقيقة فقد ابتكر ( شلوسر ) هذه الدعوى السامية اعتمادا على ما جاء في التوراة المخرفة بأيدي الأخبار في بابل ، بينما لم يرد هذا المصطلح مطلقا في كتابات العرب

والمسلمين على مدى التاريخ ، وهذا ( شلوسر ) الذى اتكأ عليه الدكتور لويس عوض فى دعاواه هو موضع الشبهة نتيجة لهذه الخطة الواضحة الهدف .

وقد برز هذا المعنى فى ظل تقسيم مستحدث ظهر فى أوروبا فى إبان استعلاء نزعة العنصرية الأوروبية التى قسمت العالم إلى ساميين وآريين لتضع العرب والمسلمين فى قائمة موازية للجنس الأرى غير أن المحاولة التى رمت إلى ترويج مصطلح ( السامية ) فى دراسات اللغة فى الجامعات إنما كانت ترمى إلى حجب الإبراهيمية الحنيفية الأم الحقيقية للعرب والعربية وهى محاولة مأكرة خطيرة تهدف إلى نسبة أمجاد التاريخ الإسلامى إلى اسم قديم لا يعرف التاريخ له مصدرا واضحا أو صحيحا .

وقد عرف الغربيون اليوم وبأكثر من دليل علمى أن التوراة التى فى أيدي الناس اليوم هى توراة مكتوبة بأيدي الأحيار ، وقد تطور الفكر الاستشراقى مرحلة أخرى هى التى يقدمها لنا اليوم الدكتور لويس عوض بدعواه أن اللغة العربية فرع من شجرة واحدة مع اللغات اليونانية .

تتركز دعوى لويس عوض على : أن العرب بصفة خاصة والساميين بصفة عامة منذ فجر التاريخ كانوا يقطنون مكانا آخر غير الجزيرة العربية وأن الجزيرة العربية لم تكن مهدهم الأول بل قدموا إليها من مكان آخر ، وهو مكان مشترك نزل فيه الساميون والآريون جميعا ، وأنه لا يوجد جنس يسمى بالساميين إلا فى إطار الشجرة العامة الهندية الأوروبية ويضيف إلى ذلك قوله : إن السكان العرب لم يهاجروا من داخل شبه الجزيرة ، بل على العكس كانت الهجرة من خارج الجزيرة إلى داخلها .

وهذه مغالطة واضحة وإدعاء باطل لاهدف له إلا الغرض من شأن مكانة اللغة العربية والقول بأنها واحدة من اللغات التى نزلت بها الكتب المقدسة من ناحية ، وأن ما يقال عن إعجاز القرآن لا يعدو أن يكون فى صرف الله قلوب العرب عن محاولة الإتيان بمثله وهو ما يقول به فريق من المعتزلة وقد كذبه الأصوليون المسلمون .

وقد التقط الدكتور لويس عوض بعض العبارات من كتب فقه اللغة ليثير بها الشبهات حول إعجاز القرآن ، وهاجم الدكتور لويس عوض ما أسماه تطرف الإحساس بشرف اللغة العربية وعلوها على غيرها من اللغات بعد نزول القرآن بها .

ويسوق الدكتور عبد الغفار حامد تسعة أدلة علمية يثبت بها أن اللغة العربية ذات طريقة خاصة تختلف في جوهرها عن اللغات الهندية الأوروبية التي يزعم لويس عوض أن العربية جزء منها أو نتاج للتفاعل معها وتتلخص الأدلة التي ساقها في بيان طريقة التعبير في العربية ، الجملة في العربية نوعان : إسمية وفعلية ففي الأسمية يوضع المسند إليه ( المبتدأ ) في الصدر وتكون بقية الجملة مسندا يخبرنا بشيء من ذلك المسند إليه - المبتدأ أو الخبر - ولا توجد رابطة بينهما من فعل مساعد أو غيره Tobe كما هو الحال في مجموعة اللغات الهندية الأوروبية ، وهذا الاختلاف الجوهرى يعد دليلا على تهافت رأى الدكتور لويس .

كذلك يحاول أن يتخذ من القول بقدم القرآن سلما يصل فيه إلى تأثر المسلمين بالنصارى الذين قالوا بقدم الكلمة في زعمهم ، والدكتور لويس يلجأ في هذا إلى طريقة المشبهة والمجسمة الذين تناسوا قول الله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [ سورة الشورى : الآية ١١ ] ولهذا وقع الدكتور في خطأ يسره له وسهله في نظره إيمانه بالثالوث المزعوم وبأن الله ولدا سبحانه وتعالى ، وفي الإسلام كلام الله النفسى قديم ليس بمخلوق أما حروف القرآن وكلماته المنطوقة فهي حادثة .

ويزعم الدكتور لويس أن الخوارج والشيعة والمعتزلة كلها كانت ثورات مضادة لشرف قريش وسيادتها ، وكان الهدف منها إسقاط قريش من هذه المنزلة ، وبالتالي ينسحب هذا على العرب من وراء ذلك كله على لغتهم وهذا كلام ساقط ، فالأمر ليس كما زعم ، ولا يتورع الدكتور عن اتهام العلماء العرب بالتعصب بل والتطرف في العصبية وهو ما لم يقيم عليه دليل ، اللهم إلا إذا كان الحق قد أضيف إلى قوائم الأدلة العلمية ويكشف الدكتور لويس عوض عن حقيقة نوابه فيقول :

إن نظرية التعصب للغة العربية بما يجعلها لا تقبل الألفاظ الدخيلة هو السبب في دخول العربية في مأزق شطرها إلى لغتين ، لغة الكتاب المقدسة ولغة الكلام الدارجة ولو أننا أخذنا بمبدأ التعريب والامتصاص والتمثيل اللغوى السائد في جميع اللغات لتغيرت حال معاجمتنا ولجرت قوانين الصيرورة على النحو العربى والصرف العربى بما يقرب اللغة الفصحى من اللغة العامية .

نعم هذا ما يريده لويس عوض للعربية لغة القرآن : يريد لها الفناء بالانصهار مع الزمن

في غيرها ليصير القرآن أبعد عن التأثير في حياة المؤمن ، وهذا شبيه بما عرف من أن اليازجي كان قد شرع في تصحيح لغة الإنجيل مما يشوبها من ركاسة إلا أنهم أشاروا عليه بالكف عن ذلك حتى لا يكون فيه تدعيم للعبارة القرآنية أو لغة القرآن ، ويأتى لويس عوض هنا ليهدم العبارة القرآنية بالمكر والدهاء فهو يتمنى أن يرى اللغة العملاقة التي صرعت غيرها صريعة قلمه الواهى ولكن أنى له ولأمثاله .

ونقلاً عن الدكتور محمد عبد الرحمن عوض : وفى الحقيقة أن علماء العرب لم يكونوا متعصبين وكانوا فى دراستهم موضوعيين إلى أبعد الحدود فلا مجال لما يقوله لويس عوض وغيره مما لا يقوم عليه دليل صحيح وبرهان ناضج .

وتشير وجهة الدكتور لويس إلى هدف خفى يرمى إليه ، هو هدم التوحيد فى الإسلام وأن أمر الربط بين الألفاظ العربية وألفاظ اللغات الأخرى لا يمكن أن يتم على تلك الصورة التى حاولها لويس عوض بين كلمتى ( خمت ) و ( صمد ) لا ينبغى أن يتم على تلك الصورة التى تخرج من نطاق المقارنات المبنية على علم الأصوات الحديثة وهى محاولة عرجاء بل عمياء ، إذ لم يحاول صاحبها أن يرجع إلى الأصول اللغوية الشرعية بل ساق الشبهة بلا دليل .

ولا ريب أن الربط بين كلمة خمت المصرية وصمد العربية فى محاولة ليقول أن الصمدية تعنى الثالوث أو الثلاثة وقد حاول الدكتور لويس بجرأة وحقد غربيين أن يجعل كلمة ( صمد ) الإسلامية تساوى كلمة ( خمت ) المصرية التى تعنى ( ثلاثة ) ومحاولة الدكتور فى الربط بين كلمة خمت المصرية وصمد العربية حيث لا يوجد بينهما أى تشابه هى وسيلة من وسائل المستشرقين فى الاستنتاج بما يخالف الأسس العلمية من أجل إثارة الأهواء والأحقاد والظعن على القرآن الكريم فضلاً عما يصل بذلك إلى تشكيك فى وحدانية الله الخالصة من شوائب الشرك ولم يقدم لويس عوض أى دليل للارتباط بين الكلمتين إلا محاولات ضالة لإغراق القارئ فى متاهات ، وليس فى التشابه بين الكلمتين ما يدعو إلى أن يكون مدلولهما واحداً ، ذلك أن الربط بين حرف الخاء الحلقى وحرف الصاد الصفيرى لا يعنى إلا العبث والإفساد المقصود كما يقول الدكتور إبراهيم عوضين .

\* \* \* \*

## (١٨) الأغاني وألف ليلة وليلة :

\* الأغاني كتاب شعوبى مؤلفه عدو للإسلام .

\* ألف ليلة حدب - لقط ليس له مؤلف !!

ركز التغريب والغزو الثقافى على كتابى ( الأغاني وألف ليلة ) تركيزا شديدا ، بهدف رفعهما إلى مرتبة المراجع الأساسية التى يعتمد عليها فى تصوير المجتمع الإسلامى مع تجاهل عيوب الكتابين التى تحول دون اعتمادها فى المصادر الموثوق بها ، أما الأول فكانته شعوبى عدو للإسلام وأما الثانى فهو كتاب ( لقط ) ليس له مؤلف !

أما كتاب الأغاني فهو موسوعة فى بضع وعشرين مجلدا وضعها ( أبو الفرج الأصفهاني ) ليسامر بها الأمراء والفارغين من المترفين فى أسفار الليل ولم يقصد بها إلى العلم أو التاريخ ، وكان الأصفهاني فى ذات نفسه إنسانا رافضا لمجتمع المسلمين والعرب وله ولاء بالمولد والكفر جميعا إلى خصوم المسلمين والباطنية والرافضة وغيرهم ، ولم يكن عمله هذا إلا نوعا من الحرب العنيفة التى شنتها الشعوبية على الإسلام والمسلمين ، رغبة فى هدم فكرهم كوسيلة إلى هدم مجتمعهم .

ولقد حرص التغريب وأصحاب نظرية النقد الأدبى الغربى الوافدة على إلقاء الأضواء الساطعة على هذا ( الكتاب وإحيائه ) واعتباره مرجعا فى الدراسات الأدبية ، ومصدرا لتصوير المجتمع الإسلامى ، وكان الدكتور طه حسين جزاء الله بما هو أهله من أبرز من دعوا إلى ذلك وألحوا عليه فقد عمد إلى « الأغاني » نفسها فأصدر اعتمادا على قصصها أحكاما على مجتمع المسلمين وتاريخهم أراد بها المساهمة فى عملية التغريب الضخمة والتى كانت تجرى فى الثلاثينات من هذا القرن .

### الأصفهاني . . . شعوبى :

على أن أقل مواجهة لسيرة الأصفهاني تكشف عن أنه كان من الشعوبيين وقد عرف بالتحايل والإغراق وأثبت كثير من الباحثين والمؤرخين أنه لم يكن مؤرخا ، وأكدوا أن كتابه



لا يصلح لأن يكون مادة تاريخ ، وإنما هو جماع لقصص وجدها في الكتب والأسواق وأراد بها أن يسجل للأغاني والمغنين ، وهو جانب واحد من حياة المجتمع الإسلامي الحافل بالجوانب السياسية والاجتماعية والفقهية والصوفية .

وقد شهد عليه الكثير من معاصريه ومؤرخيه بالانحراف ودمغه المؤرخ الیوسفی بشهادة هی فی نظر العلماء كمصدر موثوق به إذ قال :

« إن أبا الفرج أكذب الناس ، لأنه كان يدخل سوق الوراقین وهی عدة من الدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري منها شیئا كثيرا من الصحف ويحملها إلى بيته ، ثم تكون رواياته كلها منها » .

وذكر عنه صاحب معجم الأدباء (ج ٥ ص ١٥٣) قوله : - ( كان شأنه في معاقره الخمر ، وحب الغلمان ، ووصف النساء شأن الشعراء والأدباء الذين كانوا في عصره أو قبله ، حيث يقدم دقاهين الخمارين ، وجلهم من النصارى واليهود والصابئين والمجوس ، وقد عرف بمعاقرته للخمر ولم تكن له عناية بتنظيف جسمه وثيابه ) .

وقال عنه الصابى فی كتابه الذى ألفه فی أخبار الوزير المهلبى : ( وكان أبو الفرج الأصفهاني وسخا قدرا لم يغسل له ثوبا منذ فصله إلى أن قطعه ، وكان الناس يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ، ويصدون عن مجالسته ومعاشرته على كل صعب من أمره ، لأنه كان وسخا على نفسه وثوبه ونعله ) .

وحكى القاضي أبو على المحسنى التنوخى فی كتابه ( نشوار المحاضرة ) أن أبا الفرج كان أکولا نهما ، وكان إذا أطال الطعام وثقل على معدته تناول خمسة دراهم فلغلا مدقوقا فلا تؤذیه ولا تدمع له عيناه ، وبعد ساعة أو ساعتين يقصد ، أى يعرق .

ولست أدري كيف يصلح مثل هذا الكتاب مرجعا فی نظر الباحثين ، أو يمكن أن يؤتمن على رأى أو قول ، ولقد عودتنا مناهج الفكر الإسلامى أن ننظر إلى كتابه فإن وجدناه أمينا كريما موضع تقدير الناس بالصدق والحق قبلنا منه وإلا رفضنا ما يقدمه ، ولو كان صادقا فی بعضه .

وقد أشار الدكتور زكى مبارك فی كتابه ( النشر الفنى فی القرن الرابع الهجرى ) إلى مكانة الأصفهاني وكتابته الأغاني فی بحث مطول تحتزى منه : ( وشهرة الأصفهاني

وكتابه مستفيضة وإنما أريد هنا أن أنص على ناحيتين فى الأصفهاني وكتابه لم أجد من تنبه لهما من الباحثين ، ولهاتين الناحيتين أهمية عظيمة فى فهم الحياة الأدبية وسيكون لهما أثر عظيم فى دعوة المؤلفين إلى الاحتياط حين يرجعون إلى كتاب الأغاني يلتمسون الشواهد فى الأدب والتاريخ .

الناحية الأولى : خاصة بالأصفهاني ، تلك الناحية هى خلقه الشخصى ، فقد كان الأصفهاني مسرفاً أشنع الإسراف فى الملذات والشهوات ، وقد كان لهذا الجانب فى تكوينه الخلقى أثر ظاهر فى كتابه ، فإن كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون ، وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة فى أخلاقهم الشخصية ويهمل الجوانب الجدية إهمالاً ظاهراً يدل على أنه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجد والزمانة والتجمل والاعتدال ، وهذه الناحية من الأصفهاني أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه ، ونظرة فيما كتبه جرجى زيدان فى كتابه ( تاريخ آداب اللغة العربية ) وما كتبه الدكتور طه حسين فى ( حديث الأربعماء ) تكفى للاقتناع بأن الاعتماد على كتاب الأغاني جر هذين الباحثين إلى الحط من أخلاق الجماهير فى عصر الدولة العباسية وحملها على الحكم بأن ذلك العصر كان عصر فسق وشك ومجون .

ولا شك أن إكثار الأصفهاني من تتبع سقطات الشعراء وتلمس هفوات الكتاب جعل فى كتابه جواً مشبعاً بأوزار الإثم والغواية وأذاع فى الناس فكرة خاطئة هى اقتران العبقريّة بالنزق والطيش ، أما الناحية الثانية : هى خاصة بكتاب الأغاني : تلك الناحية هى نظم ذلك الكتاب ففى مقدمته عبارات صريحة فى الدلالة على أن مؤلفه قصر اهتمامه أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق ، فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ ، وأريد بذلك أن المؤلف أراد أن يقدم لأهل عصره أكبر مجموعة تغذى بها الأندية ومجامع السمر ، ومواطن اللهو وأنه ليحدثنا فى المقدمة بأنه أتى فى كل فصل من كتابه بفقرة إذا تأملها فارعها لم يزل منتقلاً بها من فائدة إلى مثلها ، ومتصرفاً فيها بين جد وهزل ، وأخبرنا بعد ذلك بأنه اهتم بالغناء الذى عرف له قصة تستفاد وحديثاً يستحسن وعلل ذلك بقوله : « إذ ليس لكل الأغاني خبر تعرفه » .

وقال زكى مبارك : والخطر كل الخطر أن يطمئن الباحثون إلى أن لروايات الأغاني

قيمة تاريخية ، وأن ينوا على أساسها ما يثيرون من حقائق التاريخ ، ولا سيما أن صاحب الأغاني يصارحنا بأن « في طباع البشر الانتقال من شيء إلى شيء ومن معهود إلى مستجد » .

ولقد كان من أخطر أعمال التغريب هو توجيه الباحثين إلى اتخاذ كتاب الأغاني ، مصدرا لدراسة المجتمع الإسلامي بينما قصر عند جانب واحد هو جانب اللهو ، ولم يتعرض للجوانب الأخرى الجادة في المجتمع وهي متعددة ومن هنا يوحى حين الاعتماد عليه كمصدر أن الحياة الإسلامية في القرن الثاني الهجري كانت لهواً وهو ما صرح به طه حسين ورده الكثيرون وكشفوا زيفه .

كذلك اعتمد المستشرق لامنس على كتاب الأغاني في (كتابه تاريخ بنى أمية) ، وكذلك ما أورده المستشرق فلهوزن في كتابه ( الدولة العربية وسقوطها ) بل إن بعض من نقدوا زكي مبارك من دعاة التغريب لما اعتبروه جرأة على مصادرهم أمثال ( صاحب الأغاني ) قرروا فيه ما قرروا ، يقول جبرائيل جبور رئيس الدائرة العربية في جامعة بيروت الأمريكية ( أريد أن أذهب إلى أبعد من هذا فأزعم أن في الأغاني كثيراً من الأخبار الملفقة التي ربما تكون قد جازت على أبي الفرج فأوردها ) .

ويحاول جبور عبد النور أن يدافع عن الأصفهاني فيسأل : « أمن الضروري إن كان المؤرخ فاسقاً أو مسرفاً يتبع الإسراف في الملذات والشهوات ، أن لا يكون مؤرخاً وألا يكون صادقاً فيما يروي أو يقول أو يكتب » .

ونحن نقول له نعم : في فكرنا الإسلامي فإن لم يكن في الفكر الغربي كذلك فهذا أمر آخر ، إن فكرنا الإسلامي وضع قواعد البحث والنقد والعلم على أساس الارتباط الجذري بين علم الباحث وشخصيته ، فإن كان منحرفاً في حياته مضطرباً في شخصيته بعيداً عن الأخلاق والدين فنحن نرفضه مصدراً علمياً ولا نقبل له شهادة ، والأصفهاني بشهادة الجميع من أنصاره وخصومه على السواء مهذور الرأي ساقط الشهادة ، وأن فسقه الشخصي قد أدخل كثيراً من هواه على ما أورده فضلاً عن انحرافه الفكري والعقائدي والاجتماعي مما يفسد آراءه إفساداً ، بالإضافة إلى أن كتاب الأغاني ليس مرجعاً علمياً ولكنه من كتب التسلية والسمر التي كتبت لتزجية فراغ بعض المترفين ، ومن هنا فإنه لا يصلح أساساً كمصدر للعلم أو مرجعاً للبحث في الأدب والتاريخ .

أما كتاب ألف ليلة وليلة فهو كتاب ملفق ولقبط ولا مؤلف له وقد جمع فى عصور مختلفة وأغلب ما فيه مما يصور البيئات الاجتماعية قبل الإسلام ، فى فارس والهند وبلاد الوثنية ، ومن هنا كانت خطورة المحاولات المتعددة التى جرت وتجرى لاعتبار القصص الذى يضمه ممثلاً لحياة المسلمين بصفة عامة بينما تكشف أقل مراجعة لمصادر ألف ليلة عن أنه تراث إيراني هندی سابق للإسلام ، وأنه لا يمثل بحال صورة المجتمع الإسلامى العربى أو مفاهيم الفكر الإسلامى .

وقد حكى المؤرخ الكبير المسعودى المتوفى ٩٥٦ م ( القرن الثالث الهجرى ) فى كتابه : ( مروج الذهب ) عن وجود كتاب قديم بالفارسية أو بالفهلوية يحكى عن ملك وعن بنت وزيره ( شهرزاد ) وخادمتهما ( دين زاد ) وقد أشار إليه ابن النديم مؤلف الفهرست المتوفى ٩٠٥ هـ مجملاً ، وقال إنه كتاب الحماقة والسيئات ، كما أشار إليه المؤرخ القرطبى وقد كانت كل إشارات المؤرخين المسلمين إليه إشارات تحمل طابع الرفض والامتناع ، والنص على أنه مصدر ساقط فى أنظار العلماء والباحثين على حد عبارة ( دكتور سنيتى كمار جترجى ) فى مجلة ثقافى الهند ( يناير ١٩٦٣ ) .

ومعنى هذا أن لكتاب ألف ليلة وليلة أصلاً كان سابقاً للإسلام وأن مصدره أساطير هندية وفارسية وقد ظل العرب يتناقلونه بعد ترجمته كوسيلة من وسائل الترف ويضيفون إليه حكايات جديدة ، كما أضيفت إليه فى العهود المختلفة ، وآخرها عهد دولة المماليك مسامرات أهل بغداد والقاهرة ، ومن هنا ترى خطر الاستعانة به كمصدر لدراسة المجتمع الإسلامى ، بل على حد اتجاه بعض المستشرقين ودعاة التغريب من اعتباره مصدراً وحيداً فى رسم صورة زائفة .

ومما يذكر أن أول من أبدى اهتماماً لإزاء ألف ليلة وليلة ، هو جاسوس إنجليزى مغامر يدعى ( ريتشارد بيرتون ) عام ١٨٨٣ وهو واحد من أولئك الذين كانوا يتخفون فى زيارتهم للبلاد العربية ويلبسون العباءة العربية أمثال لورنس وفيلبي وكان يطلق على نفسه فى دمشق ( الحاج عبد الله ) والمعروف أنه تصرف فى النقل على النحو الذى يخدم أهدافه .

ومن الحق أن يقال أنه مهما تكن صورة الحياة التى ترسمها ألف ليلة فهى ليست قطعاً صورة المرأة العربية أو المسلمة ، فقد غير الإسلام نظرة المرأة إلى الحياة كما غير واقعها تماماً فلم تكن فى مفهومه ولا فى مجتمعه الأصيل أداة جنس أو مصدر غايات حسية

( كما يصورها الزنادقة رواة هذا الكتاب ) وكما كانت فى مفهوم المجتمع الوثنى أو الجاهلى ، وحتى بعد أن اضطربت الحياة فى المجتمع الإسلامى فقد ظل هناك فارق واضح وحاضر كبير بين من كانوا يسمونها ( الغانية ) وبين صاحبة الدين ذات الصون والعفاف .

وقد حوى كتاب ألف ليلة صورا مشوهة عن المجتمع العربى الإسلامى يزيد فى زيفها أن قصصه كانت تمثل أما مختلفة وعصورا متباينة وأن الجانب الأكبر منه كان موجودا قبل الإسلام ، وقد أضاف المترجمون الغربيون بالقصد العمد القائم على التعصب والخصومة ، أضافوا إلى بشاعة الصورة التى يحملها الكتاب إضافات زادت فسادا ، فقد أشار ( غلان ) المستشرق الفرنسى الذى ترجم ألف ليلة لأول مرة عام ١٧٠٤ م بأنه « فرغ » الكتاب ليلائم ذوق قارئه ، وأنه ركز على صور الرفاهية والترف وأنه عمد إلى رسم ما أسماه « صورة الشرق الحيوانى » فأى جريمة هذه .

وكان أن استقى من هذه الترجمة مستشرق آخر هو ( لين ) أرضية كتابه ( شمائل المصريين المحدثين ) المليء بالزيف والفساد ، وكذلك ألف كثيرون عن المجتمع الإسلامى دراسات اعتمادا على هذه الصورة المضللة ، وقال ريتشارد بيرثون ( الإنجليزى ) فى مقدمة ترجمته لألف ليلة : أنه إنما يتعرف مواطنوه بما فيه الكفاية على طباع المسلمين وعاداتهم وأخلاقهم ليكون لديهم الحنكة الضرورية لحكم المسلمين الواقعيين ضمن إمبراطوريتهم .

وقد أخطأ هذا المستشرق فى تقديم هذه الصورة للمستعمرين لأنها زائفة ، لا تمثل حقيقة المجتمع الإسلامى ولا النفس العربية الإسلامية من قريب أو بعيد ، هذه النفس التى بناها القرآن الكريم والسنة المشرفة بالكرامة والغيرة على العرض والسمو فوق الفحشاء ، وكذلك أخطأ المستعمرون فى الاعتماد عليها كأساس لمعرفة أخلاق المجتمع الإسلامى المختلف عن ذلك اختلافا كبيرا .

وقد قامت معاهد الإرساليات ومطابع الشيوعيين فى بيروت بالاحتفال بهذا الكتاب اللقيط ، وطبعوه بالألوان وجعلوه ميسرا فى أيدي الناس كما فعلت دار الهلال فى مصر فى العهد السابق .

وقد اتكأ أكثر من مستشرق على كتاب ألف ليلة بهدف استخراج صورة لما أسماه ( الحب فى الشرق ) مستنتجا إياها من خلال القصص الذى اختلقه الرواة الذى لا يمثل

الواقع العربي والإسلامي وجاء التغريبيون الجدد أمثال ( توفيق الحكيم وطه حسين ) فكتبوا عن شهر زاد مزيدا من القصص الخيالي رغبة في صرف الناس عن واقع الحياة إلى خيالات وأوهام . وبعد فليحذر شبابنا المسلم الاعتماد على هذه المراجع الزائفة .

### (١٩) فجر الإسلام :

\* الفكر الاستشراقي يفتن الأستاذ فيضمنه مؤلفاته دون إسناد لأصحابه حتى ينسب إليه . . ويفوت على القراء كما فات على الأزهر وعلمائه نصف قرن من الزمان .

إن كتابي ( فجر الإسلام ) و ( ضحى الإسلام ) للأستاذ أحمد أمين ( عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية ) ١٩٤٠ م ، من أشهر الكتب الحديثة المؤلفة في تاريخ العلم والثقافة في عصور الإسلام الأولى .

ومع أن المؤلف معروف لدى الأوساط العلمية بغزارة العلم ودقة البحث وحب التأليف ، فقد وقعت له في هذين الكتابين أخطاء ، لا أحب أن أصفها ، حتى لا أنهم بالمبالغة ، وحسبي أن أقول : إنها مما لا يجوز السكوت عليها بحال من الأحوال .

ولما رأيت أن السكوت عن تلك الأخطاء والتحريفات جناية في حق الدين والعلم ، فقد أسرعت بكتابة هذا البحث ، في نقد فصل واحد من كتاب فجر الإسلام وهو فصل « الحديث » . . وسيرى القارئ أن الأستاذ أحمد أمين :

**أولا :** تأثر إلى درجة كبيرة ببحوث المستشرقين وكتاباتهم في علم الحديث .

**ثانيا :** تأثر بآراء رءوس المعتزلة وطوائف الشيعة ممن يتشيع لبعض صحابة رسول الله ﷺ دون غيرهم .

**ثالثا :** استنتج من عنده بعض آراء ليس لها أساس علمي ولا مستند تاريخي صحيح .

**رابعا :** لم يلتزم الأمانة ولا الدقة فيما نقله من النصوص والآثار .

**خامسا :** لم يعتمد في تاريخ الحديث على كتب علوم الحديث ، بل اعتمد على

كتب الأصول ، وخاصة كتاب ( مسلم الثبوت ) وشرحه ، ومن هنا أورد كثيرا من الأحاديث ، منها ما لم يعثر له على أصل في كتب السنة ، ومنها ما جاء بأسلوب مغاير لما في تلك الكتب .

وقد كان يستطيع الرجوع في معرفة هذه النصوص إلى مراجعها الحقيقية ، لولا أنه يسعى إلى غرض معين فهو يتصيد الأدلة من هنا وهناك من غير تحقيق ولا تدقيق .

وللأستاذ أحمد أمين أسلوب خاص في بث آرائه التي يخالف بها الجمهور ، متبعا فيها بعض ذوى الأهواء من المسلمين أو ذوى الأغراض من المستشرقين ، ومن خصائص هذا الأسلوب أنه يأتي بالفكرة فلا يلقيها إليك في كتابه دفعة واحدة ، ولا يظهرها لك على أنها رأى لمبتدع أو لمستشرق ، ولكنه يوزع شيئا منها هنا وشيئا هناك ، متلفا في الأسلوب ، متظاهرا بالبحث والتحقيق ، ولا ينسى أن يستند في خلال ذلك إلى نص مخرف أو حديث ضعيف أو رأى هزيل ، أو ينسب إلى العلماء قولاً لم يقلوه ، وإلى بعض المذاهب آراء لم يذهبوا إليها ، فلا يكاد ينتهي من بحثه حتى يكون قد أحكم بث الفكرة في ثنايا كتابه من غير إزعاج للقارئ ولا استفزاز لشعوره .

وبهذا الأسلوب استطاع الأستاذ أن ينجو مما لحق بزملائه من سخط الجمهور ، حتى ينال ثقتهم بإخلاصه وتجرده للحق والعلم .

وكم كان الأستاذ أحمد أمين بارعا في التشكيك في أحاديث السنة ، مما يدل دلالة قوية على أنه يشك فيها جملة - كما يقول كثير من المستشرقين - و بما قال من قبل بعض رؤساء المعتزلة والفرق الضالة والمبتدعة .

وما يؤكد هذه الدلالة أن أحد المنتسبين إلى الإسلام في مصر ، ممن تلقوا علومهم في جامعات روسيا الشيوعية ( يقصد : إسماعيل أدهم أحمد ) قام منذ سنين بوضع رسالة عن تاريخ السنة ، انتهى به البحث فيها إلى أن هذه الأحاديث التي بين أيدينا ، مشكوك في صحتها على العموم ، ومن مزاعمه أن ما ذهب إليه قد وافقه عليه : فلان وفلان ، والأستاذ أحمد أمين بكتاب أرسله إليه .

وانتظرنا من الأستاذ أن يكذب هذا الاتهام الفظيع الذي نسب إليه تلميذ الشيوعيين فلم يفعل ، بل قرأنا له في بعض المجلات الأسبوعية ما يفيد تأله مما حصل لصاحبه ، وعد ذلك

محاربة لحرية الرأى ، وحجر عثرة فى سبيل البحوث العلمية الخالية من كل  
تغصب وهوى !!

قال أحمد أمين : ويظهر أن الوضع فى الأحاديث حدث فى عهد الرسول ﷺ  
فحديث : « من كذب على عامدا متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » يغلب على الظن أنه  
إنما قيل لحادثة زور فيها على رسول الله ﷺ . ا . هـ .

ويقول الأستاذ مصطفى السباعى : إن هذا الذى استظهره أحمد أمين لا سند له فى  
التاريخ ، ولا فى سبب الحديث المذكور ، أما التاريخ فقاطع بأنه لم يقع فى حياة الرسول  
ﷺ أن أحدا من الناس زور عليه كلاما ، ورواه على أنه حديث من أحاديثه عليه الصلاة  
والسلام ، ولو وقع مثل هذا لتوافر الصحابة على نقله لشناعته وفظاعته ، كيف وقد كان  
حرصهم شديدا على أن ينقلوا لنا كل ما يتصل به ﷺ .

أما الحديث المذكور فقد اتفقت الكتب والسنة على أن الرسول ﷺ إنما قاله حين  
أمرهم بتبليغ حديثه إلى من بعدهم ، وظاهر من الروايات أن النبى ﷺ قد علم أن الإسلام  
سينتشر ، سيدخل فيه أقوام من أجناس مختلفة فيه بصورة قاطعة حث على وجوب التحرى  
فى الحديث عنه ، وتجنب الكذب عليه بما لم يقله .

وليس فى هذه الروايات إشارة قط إلى أن هذا الحديث قيل لوقوع تزوير على  
الرسول ﷺ .

قال أحمد أمين : وحسبك دليلا على مقدار الوضع ، أن أحاديث التفسير التى ذكر  
عن أحمد بن حنبل أنه قال : لم يصح عنده منها شيء ، قد جمع فيها آلاف الحديث ،  
وأن البخارى وكتابه يشمل على سبعة آلاف حديث ، منها نحو ثلاثة آلاف مكررة ، قالوا  
إنه اختارها وصحت عنده من ستمائة ألف حديث كانت متداولة فى عصره ، أ . هـ .

ويقول الأستاذ مصطفى السباعى : إن كثرة الوضع فى الحديث مما لا ينكره أحد ،  
ولكنه عندما أراد أن يستدل على مقدار الوضع فاستشهد بشيئين : أحاديث التفسير  
وأحاديث البخارى ، وظاهر عبارته فى أحاديث التفسير أنه يشك فيها كلها ، إذ ينقل عن  
الإمام أحمد أنه قال : ( لم يصح منها شيء ) ، مع أنهم قد جمعوا فيها آلاف الأحاديث .

والإمام أحمد لا تخفى مكانته فى السنة ، فإذا قال فى أحاديث التفسير ( لم يصح



منها شيء) كان ما روى فيها مشكوكا بصحته إن لم يحكم عليه بالوضع ، أليست هذه نتيجة منطقية لكلام الأستاذ !!

أما أحاديث التفسير فلا يخفى على كل من طالع كتب السنة أنها أثبتت شيئا منها بطرق صحيحة لا غبار عليها ، وما من كتاب في السنة إلا وقد أفرد فيه مؤلفه بابا خاصا لما ورد في التفسير عن الرسول ﷺ أو الصحابة أو التابعين .

وقد اشترط علماء التفسير على من يفسر كتاب الله عز وجل أن يعتمد فيه على ما نقل عن النبي ﷺ في ذلك .

وقد جعلوا التفسير بين منقول وغير منقول ، وأوجبوا على المفسر أن يرجع إلى الأول ويعرفه ، فلو لم يصح منه شيء ، بل لو لم يصح منه شيء كثير ، لما فعلوا ذلك .

أما ما نقله عن الإمام أحمد ، فهو يشير بذلك إلى ما روى عنه من قوله « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي » والكلام في هذه العبارة من وجوه :

أولاً : أن في النفس من صحتها شيئا ، فإن الإمام أحمد نفسه قد ذكر في مسنده أحاديث كثيرة في التفسير ، فكيف يعقل أن يخرج هذه الأحاديث ، ويثبتها عن خيرة شيوخه في مسنده ، ثم يحكم بأنه لم يصح في التفسير شيء ؟؟

وأیضا فمقتضى هذه العبارة : أن يكون كل ما روى عن أخبار العرب ، ومغازي المسلمين مكذوبا من أصله ، وليس هناك من يقول بهذا .

ثانياً : إن نفي الصحة لا يستلزم الوضع ، والضعف ، وقد عرف عن الإمام أحمد خاصة نفي الصحة عن أحاديث وهي مقبولة ، وقالوا في تأويل ذلك أن هذا اصطلاح خاص به .

ثالثاً : أن الإمام أحمد لم يقل أنه لم يصح في أحاديث التفسير شيء ، وإنما قال : « ثلاثة ليس لها أصل » ولا يخفى ما بين العبارتين من فرق ، إذ يحتمل أن يكون مراده نفي أن يكون للتفسير كتاب مأثور ، ولا يلزم فيه نفي صحة شيء من أحاديث التفسير .

رابعاً : يحتمل أن يكون مراد الإمام أحمد هو أن ما صح من التفسير قليل بالنسبة لما لم يصح .

ونتقل إلى أحاديث البخارى وقد زعم الأستاذ أحمد أمين أنهم قالوا : إن البخارى اختار أحاديث كتابه وصحت عنده من ستمائة ألف حديث ، ولا أدري من قال هذا القول !!

أما علماء الحديث ورجال المصطلح ، فقد ذكروا أن البخارى لم يجمع فى كتابه كل ما صح عنه ، فإذا كان العلماء يقررون أن البخارى لم يخرج كل ما صح عنه ، يكون ما نقله الأستاذ أحمد أمين عنهم نقلا غير صحيح .

#### التشكيك فى الصحابة :

وحاول الأستاذ أحمد أمين التشكيك فى عدل الصحابة فقال : الذى جرى عليه العمل من أكثر نقاد الحديث - وخاصة المتأخرين منهم - على أنهم عدلوا كل صحابى ولم يرموا أحدا منهم بكذب ولا وضع وإنما جرحوا من بعدهم .

ويقول الأستاذ مصطفى السباعى : مما اتفق عليه التابعون ومن بعدهم من جماهير المسلمين ونقاد الحديث قاطبة : ( تعديل الصحابة ) وتنزيههم عن الكذب والوضع ، هذا هو الواقع والمعروف فى هذه المسألة .

ولكن المؤلف لقرض فى نفسه - سبق التنبيه إليه - يريد أن يشكك فى هذه الحقيقة فزعم أولا أن ( أكثر ) النقاد عدلوا الصحابة ، مع أن النقاد قاطبة عدلوهم لم يشذ فى ذلك أحد .

وزعم ثانيا : أن قليلا منهم من أجرى على الصحابة ما أجرى على غيرهم ، مع أن هؤلاء الذين تكلموا فى الصحابة ليسوا من نقاد الحديث ، ولكنهم من ذوى الأهواء والفرق المعروفة عند المسلمين بالتعصب لبعض الصحابة على البعض الآخر .

وزعم المؤلف ثالثا : أن هذا التعديل كان من أكثر نقاد الحديث ، وخاصة المتأخرين منهم ، مع أنه لم يؤثر عن أحد من المتقدمين من أهل العلم - من التابعين فما بعدهم - أنه طعن فى صحابى أو ترك الحديث عنه ، أو وضعه فى ميزان الجرح والتعديل .

ثلاثة مزاعم يأتى بعضها إثر بعض ، ليس من ورائها إلا تهوين القول بعدالة الصحابة على الإطلاق ، وتجريء ذوى الأهواء فى حقهم ، إذا روى عن أولئك الأصحاب ما يخالف أهواءهم ، مع أن أصحاب رسول الله ﷺ هم حماة الدين ونقلة السنة وأمناء الشريعة .

ولم يكتف المؤلف بهذا ، بل زاد على ذلك زعما آخر تأكيدا لما رمى إليه ، ونقيرها له  
فى نفس القارىء ، حيث قال بعد ما تقدم :  
ويظهر أن الصحابة أنفسهم فى زمنهم كان يضع بعضهم بعضا موضع النقد وينزلون  
بعضهم منزلة أسمى من بعض ..

وحاصل كلامه فى هذا الموضوع أن الصحابة كان يشكك بعضهم فى صدق بعض ،  
ويضع بعضهم بعضا موضع النقد ، وما ذكره أحمد أمين من أن الصحابة كان بعضهم  
يضع بعضا موضع النقد ، مع أن كل ما كان يقع من الصحابة من رد بعضهم على  
بعض ، إنما هو نقاش علمى محض مبنى على اختلاف أنظارهم وتفاوت مراتبهم فى  
الاستنباط أو الاجتهاد ، أو على نسيان أحدهم حديثا وتذكر الآخر له ، وليس ذلك ناشئا  
عن شك أو ريبة أو تكذيب واحد لآخر .

#### توجيه المطاعن إلى أبى هريرة :

ويقول الأستاذ مصطفى السباعى : إن الأستاذ أحمد أمين كان لبقا فى توجيه المطاعن  
نحو ( أبى هريرة ) - رضى الله عنه - ومجاراة المستشرقين والنظام ومن شايعه من المعتزلة فى  
التحامل على هذا الصحابى الجليل ، فقد وزع طعونه فى مواضع متفرقة من بحثه ، وكان  
حديثه عنه حديث محترس متلطف ، يحاذر أن يجهر بما يعتقد فى حقه من سوء .

ولكن أسلوب الأستاذ وتحريفه لبعض الحقائق فى تاريخ أبى هريرة ، وحرصه على  
التشكيك فى صدقه وتصديق الصحابة له ، كل ذلك قد تم على سريرة الأستاذ ، وأزاح  
الستار عن خبيثة نفسه ، قال رحمته الله : « من أسر سريرة ألبسه الله رداءها » .

ومن الإنصاف أن نقول : إن الأستاذ أحمد أمين لم يكن أول من أساء الظن بهذا  
الصحابى الجليل ، ولا أول من حرف تاريخه ، بل هو مقلد لأسانذته من المستشرقين ،  
المتعصبين الذين دأبوا على تشويه الحقائق .

وعندما ترجم أحمد أمين لأبى هريرة ( رضى الله عنه ) : اقتصر على ذكر نسبه  
وأصله وتاريخ إسلامه وأشار إلى ما روى من دعاية أبى هريرة ومزاحه .

وكان من حق الأمانة العلمية عليه : أن يذكر لنا مكانته بين الصحابة والتابعين وأئمة  
الحديث ، وثناءهم عليه وإقرارهم له جميعا بالحفظ والضبط والصدق .

ولكن الأستاذ أحمد أمين لم يفعل شيئاً من هذا ، بل تعرض لأمر يسيء ظاهرها لأبى هريرة ( رضى الله عنه ) جد الإساءة فكانت محاولة مستورة للطعن فيه تمشياً مع جولد زيهر وأضرابه من المستشرقين .

وقد اقتصر المؤلف على ذكر الشك في حفظ أبى هريرة من بعض الصحابة ، دون أن يذكر لنا إقرار جمهورهم بحفظه وتبنيته ، ودون أن يذكر لنا أهل العلم عليه من التابعين فمن بعدهم ، واعترافهم له بأنه أحفظ صحابة رسول الله ﷺ وأرواهم للحديث ، وهذا دليل واضح على أنه لم يقصد بمقالاته إلا الطعن الخفى في صدقه والتشكيك القوى في أحاديثه ومروياته وقد اعتمد المؤلف على دائرة المعارف الإسلامية في هذا الاتجاه .

#### ويقول الأستاذ مصطفى السباعي :

إذا تذكرت أن الأستاذ أحمد أمين تابع جولد زيهر ( اليهودى ) في تجريح أبى هريرة - رضى الله عنه - واتهامه ، علمت السر في توخى الأستاذ لهذه المسألة هنا ، وتتبع خطوات جولد زيهر ، ثم رأيت إلى أى حد يكون التلاعب بالحقائق في سبيل الأهواء .

ماذا يضر أبى هريرة أن ينحله الواضعون أحاديث كثيرة ، ثم كيف الكذب عليه داعياً للشك في أحاديثه كلها ، لو أن العلماء لم يميزوا الثابت عنه من المنتحل ، لكان هناك عذر في التشكيك بأحاديثه كلها ، أما وإن أئمة الأحاديث ميزوا الصحيح من الموضوع وبينوا ما ثبت عن أبى هريرة - رضى الله عنه - مما لم يثبت ، بطرق هى غاية في الدقة والتحرى ، فلا عذر لأحد أن يتشكك أو يشكك في أحاديثه جملة ، إلا أن يكون صاحب هوى وغرض يلتمس لنشر هواه كل طريق ملتو معوج .

ولعل القارىء أدرك من كل ما كتبنا ، أن الأستاذ أحمد أمين تابع المستشرقين المتعصبين في التحامل على ذلك الصحابى الجليل ومنزلته في الحديث .

والأستاذ مغرم جداً بمحاكاة المستشرقين ونقل أقوالهم ، ومن ذلك قول زكى مبارك عنه :

إن أحمد أمين لا يهتم أن يرد الحقوق إلى أربابها إلا في موطن واحد ، هو الموطن الذى يقول فيه : إنه استأنس بآراء المستشرقين ليقال أنه يطلع على أقوال المستشرقين .

والغرض الأول من نشر هذا البحث هو لفت أنظار الباحثين وخاصة علماء الأزهر

الشريف إلى ما فى كتاب ( فجر الإسلام ) ، و ( ضحاه ) من أخطاء يعتبر السكوت عليها بعد الإحاطة بها جناية فى نظر الدين والعلم ، وحتى لا ينصحوا تلاميذهم باتخاذ هذا الكتاب وغيره مرجعا أساسيا<sup>(١)</sup> .

## (٢٠) تاريخ التمدن الإسلامى :

\* جورجى زيدان ، زيف الوقائع والمراجع وذم العرب وروى الإسرائيليات والروايات غير الصحيحة .

\* حريق مكتبة الإسكندرية حدث غير صحيح .

يقول العلامة « شبللى النعمانى » المصلح الشهير مؤسس جمعية ندوة العلماء فى لكهنؤ بالهند ( نشر النقد فى مجلة المنار والتي كان يصدرها الشيخ رشيد رضا رحمه الله على حلقات ، المجلد ١٥ « ١٣٣٠ هـ - ١٩١٢ م » ) :

« إن الدهر دار العجائب ، ومن إحدى عجائبه أن رجلا من رجال العصر ( جرجى زيدان صاحب الهلال ) يؤلف فى تاريخ تمدن الإسلام كتابا يرتكب فيه تحريف الكلم ، وتمويه الباطل وقلب الحكاية والخيانة فى النقل وتعتمد الكذب ، ما يفوق الحد ويتجاوز النهاية » .

وينشر هذا الكتاب فى مصر وهى غرة البلاد وقبة الإسلام ومغرس<sup>(٢)</sup> العلوم ثم يزداد انتشارا فى بلاد العرب والعجم ، مع هذا كله فلا يتفطن أحد لدسائسه .

ولم يكن ليجتريء على مثل هذه الفضيعة فى مبتدأ الأمر ، ولكنه تدرج إلى ذلك شيئا فشيئا ، فإنه أصدر الجزء الأول من هذا الكتاب ، وذكر فيه مثالب العرب دسيسة يتطلع بها على إحساس الأمة وعواطفها ، ولما لم يتنبه لذلك أحد ، ولم ينبض لأحد عرق ، ووجد

( ١ ) لخصنا هذا عن بحث للمرحوم الدكتور مصطفى السباعى نشره عام ١٩٤٠ / ١٩٤١ فى مجلة الفتح تحت عنوان ( تحريف الحقائق الإسلامية ) فى كتاب ( فجر الإسلام ) وقد كان مقدمة لإعداد أطروحته عن الدكتوراة عن « السنة ومكانتها فى الإسلام » .

( ٢ ) مغرس : اسم مكان ، أى المكان الذى تفرس فيه العلوم ( كناية عن كثرة العلوم ) .

الجو صافيا ، أرخى العنان وتمادى فى الغى ، وأسرف فى النكاية على العرب عموما ، وخلفاء بنى أمية خصوصا .

إن الغاية التى توخاها المؤلف ليست إلا تحقير الأمة العربية وإبداء مساوئها ، ولكن لما كان يخاف ثورة الفتنة ، غير مجرى القول وليس الباطل بالحق .

بيان ذلك أنه جعل لعصر الإسلام ثلاثة أدوار : دور الخلفاء الراشدين ، ودور بنى أمية ، ودور بنى العباس ، فمدح الدور الأول ، وكذلك الثالث ولما غر الناس بمدحه الخلفاء الراشدين ، وهم سادتنا وقدوتنا فى الدين ، ومدحه لبنى العباس وهم أبناء عم النبي ﷺ وبهم فخرنا فى ثبت التمدن وأبهة الملك ، ورأى أن ( بنى أمية ) ليست لهم وجهة دينية فلا ناصر لهم ، ولا مدافع عنهم ، تفرغ لهم وحمل عليهم حملة شنعاء ، فما ترك سيرة إلا وعزاها إليهم وما حلى حسنة إلا وابتهزها منهم .

ثم لو كان هذا لأجل أنهم من آل مروان أو لكونهم من سلالة أمية لكننا فى غنى عن الذب عنهم والحماية لهم ، ولكن ذنبهم أنهم « العرب » على صرافتهم ما شابتهم العجمة مطلقا ، وقد حصر الباحث أخطاءه فى عدد من الأصول العامة .

#### أولاً : عصبية العرب على العجم :

أطال المؤلف فى إثبات هذه الدعوى ، وقال إن العرب يعاملونهم معاملة العبيد ، فى عديد من المواضع ( العنوان العام فى الجزء الرابع صفحة ٥٨ ) .

واعلم أن للمؤلف فى إنفاق باطله أطوار شتى :

منها تعمد الكذب ، ومنها تعميمه لواقعة جزئية ، ومنها الخيانة فى النقل وتحريف الكلم عن مواضعه ، ومنها الاستشهاد بمصادر غير موثوقة ، مثل كتب المحاضرات والفكاهات ، وغير خاف على من له إلمام بتاريخ الفرس والعرب ، أن الفرس كانت قبل الإسلام تحتقر العرب وتزدرئهم ، ولما أرسل رسول الله ﷺ كتابه إلى كسرى العجم ، أشعأز وقال : عبدى يكتب لى ؟ وكتب يزدجرد إلى سعد بن أبى وقاص فآخ القادسية أن العرب على شرب ألبان الإبل وأكل الضب بلغ بهم الحال إلى أن تمنوا دولة العجم فأف لك أيها الدهر الدائر .

ثم لما شرف الله العرب بالإسلام ، انتصفت العرب من العجم ، واستنكفوا من سيادتهم

عليهم وجاءت الشريعة الإسلامية ماحية لكل فخر ونخوة ، فقال رسول الله ﷺ في خطبته الأخيرة في حجة الوداع :

« أن لا فضل للعربي على العجمي ولا للعجمي على العربي ، كلكم أبناء آدم » حينئذ ارتفع التمايز وتساوى الناس ، ولكن مع ذلك بقيت في بعض الناس من كلا الطرفين حزازات كامنة في صدورهم ، كانت سببا لحدوث حزين متكاملين يسمى أحدهما .

الشعوبية : وهي التي تحتقر العرب وترميهم بكل معيبة ، والثاني : المتعصبون للعرب وقد عقد ابن عبد ربه في كتابه ( العقد الفريد ) بابا في حجج كل من الطرفين وصدر هذه الأقوال بقوله ( قال أصحاب العصبية من العرب ) وأنت تعلم أن هذه العصبية ليست كل العرب ولا أكثرها ولا عشر معشارها ، فهؤلاء شذمة مغمورون في الناس ، ولكن المؤلف ما اقتنع بذلك ، بل ربما نسب قول رجل معين معلوم الاسم إلى العرب عامة .

وقد مضى جرجي زيدان في دعواه متابعا كتابات المستشرقين في اتهام العرب بانتقاص الموالى فقال : إنهم منعوهم من المناصب الدينية المهمة ( الجزء الرابع ص ٦ ) .

فقال الشيخ النعماني : إن البلاد التي كانت عواصم الأقاليم وقواعدها في عصر بني أمية ، كان كل أئمتها من الموالى ففي مكة عطاء وفي اليمن طاووس ، وفي الشام مكحول ، وفي مصر يزيد بن أبي حبيب ، وفي خراسان ضحاك بن مزاحم ، وفي البصرة الحسن البصري ، وكل هؤلاء كانوا من الموالى ، ومع كونهم أعجاما وكونهم أولاد الإماء ، كانوا سادة الناس وقادتهم ، تدعن لهم العرب ويحترمهم خلفاء بني أمية وولاة الأمور .

وقد عالج هذه النقطة بما عرض مطولا بما يؤكد أن الموالى كانوا في أيام بني أمية بأعلى محل من الشرف والمكانة وأن كل ما أورده جرجي زيدان وسابقوه من المستشرقين افتئات ظاهر ويجن وظلم .

استند جرجي زيدان على نص حاول فيه الادعاء بأن عمال بني أمية كانوا يفرضون نوعا من الجور والشدّة ، يقول : وإذا أتى أحدهم بالدراهم ليؤديها في خراجها يقطع الجابي<sup>(١)</sup> منها طائفة ويقول : هذا رواجها وصرفها واستند في هذا على كتاب الخراج لأبي يوسف .

( ١ ) الجابي : جامع الخراج .

### ويقول الشيخ النعماني :

أيها المؤلف الفاضل : أليس لك وازع من نفسك ؟ أليس لك رادع من ديانتك ؟  
أنتجروا على مثل هذا الكذب الظاهر ، المين الفاحش جهرة ، فإن أبا يوسف ما تكلم في شأن  
عمال بني أمية ببنت شفة ، وإنما ذكر عمال هارون الرشيد وإساءتهم العمل في  
جباية الخراج .

وكتاب الخراج لأبي يوسف بين أيدينا ، وأن ما استند إليه عن عمال هارون الرشيد ،  
فكيف يأخذ المؤلف أقواله وينقلها من حيث أنها هي الطرق التي كان عمال بني أمية  
يجمعون الأموال بها .

### ثانيا : مساوئ بني أمية :

ويقول الشيخ النعماني : إن موضوع الكتاب ليس إلا بيان تمدن الإسلام ؟ فأى  
متعلق في ذلك لإبداء مساوئ بني أمية .

ولعلك تقول لا بد من تاريخ تمدن الإسلام من بيان منهج السياسة ، وأنها هل كانت  
مؤسسة على الاستبداد والجور أو العدل والصفحة ، فجر ذلك إلى كشف عوار بني أمية  
عرضا ، أناشدك الله أما كان لأحد منهم مائة تذكر ومنقبة تنقل ، وسياسة تنفع البلاد ،  
وعدل يعم الناس ، نعم إن خلفاء بني أمية لا يوزنون بالخلفاء الراشدين ، وليس هذا عارا  
عليهم ، ولا فيه حط لمنزلتهم فإن إدراك شأو الراشدين والحقوق بهم أمر خارج على طوق  
البشر ، وليس فيه مطمع لأحد ، ولا موضع رجاء مجتهد .

ولكن التوازن والتطاول بين الأموية والعباسية ، وإنما هم ملوك فيهم المحسن والمسيء  
والعادل والجائر بل الذي أعدلهم سيرة وأوفاهم ذمة لا يخلو من عثرات لا تقال وهنات  
لا تذكر .

فلو لزم المؤلف جادة الصوب ، ووفى لكل أحد قسطه وأعطى كل ذي حق حقه ،  
لاستراح واسترحنا ، ولكنه مال إلى واحد فأطرى في مدحه ( العباسي ) ونال من الآخر  
فأسرف في تهجينه وذمه ( الأموي ) .



ثم إنه لم يفارق في مدحه وذمه عمود الكتاب أى ذم العرب والخط من شأنهم فإنه ذم  
بنى أمية لأنهم العرب ، ومدح العباسيين لا لأنهم العرب ، ولا لأنهم من سلالة بنى هاشم  
أو من أقرباء النبي ﷺ بل لأمر واحد : لأن دولتهم دولة أعجمية .

### ثالثا : حريق خزانة الإسكندرية :

عقد المؤلف بابا لإثبات أن حريق خزانة الإسكندرية كان بأمر عمر بن الخطاب ،  
وأطال وأطنب في ذلك واستدل عليه بستة دلائل ( الجزء الثالث ) أهمها رغبة العرب في  
صدر الإسلام في محو كل كتاب غير القرآن .

وقد كشف الشيخ النعماني أن هذا غير صحيح ، وأن المسلمين نظروا في كل  
الكتب ، ونقلوا في تفاسيرهم روايات مختلفة ، فيها الغث والسمين مما نقل إليها من  
الاديان الأخرى ، فلو كان أهل القرون الأولى يبغضون ما سوى القرآن ويمحون ما كان قبله  
من العلم - كما يدعى المؤلف - فمن روى الإسرائيليات وأقاصيص التلمود والتوراة وحشاها  
في التفسير ؟

ثانيا : أورد ما جاء في تاريخ مختصر الدول لأبى الفرج ثم نقل رواية الإحراق برمتها  
وأطال في إثبات أن أبا الفرج ليس بأول من روى هذه الرواية ، بل ذكرها عبد اللطيف  
البغدادى عرضا في ذكره عمود السوارى وذكرها القفطى في تاريخ الحكماء .

ولا ننازع المؤلف في أن أبا الفرج مسبوق في ذكره هذه الرواية بالقفطى والبغدادى ،  
ولكن ماذا ينفعه ذلك ، فإن البغدادى وهو أقدمهما من أهل القرن السادس للهجرة ، قد  
ذكر الرواية من غير إسناد ومن غير إحالة على كتاب .

ويقول : لقد تعود المؤلف من صباه قبول مختلفات أهل الكتاب وأوهامهم وسبب ذلك  
أنه يزن التاريخ الإسلامى بميزان غير ميزاننا ، ولذلك يصفى إلى كل صوت ويستمع لكل  
قائل ، ولكل فن أصول وقواعد ، وما لم تكن الرواية مطابقة لهذه الأصول اليقينية لا  
يلتفت إليها أصلا .

ومنها أن الناقل للرواية لابد أن يكون شهد الواقعة ، فإن لم يشهد فليبين سند الرواية  
ومصدرها ، حتى تصل الرواية إلى من شهدتها بنفسه .

ومنها أن يكون رجال السند معروفين بصدقهم وديانتهم ، وأنت تعلم أن البغدادي والقفطى من رجال القرن السادس والسابع ، فأى عبارة برواية تتعلق بالقرن الأول يذكرانها من غير سند ولا رواية ولا إحالة إلى كتاب .

أما كتب القدماء الموثوق بها ، فليس لهذه الرواية فيها أثر ولا عين وهذا تاريخ الطبرى واليعقوبى والمعارف لابن قتيبة ، والأخبار الطوال للدينورى ، وفتوح البلدان للبلاذرى والتاريخ الصغير للبخارى وثقة ابن حبان والطبقات لابن سعد ، قد تصفحناها وكررنا النظر فيها ، ومع أن فتح الإسكندرية مذكور فيها بقضها وقضيضها فليس لحريق الخزانة ذكر .

والحاصل أن محققى أهل أوربا قضوا بأن الواقعة غير ثابتة أصلا ، منهم ( جيبون ) المؤرخ الشهير الإنجليزى و ( دريبر ) الأمريكانى و ( سيديو ) الفرنسى ، ( كارليل ) الألمانى والمعلم ( رينان ) الفرنسى وعمدتهم فى إنكار ذلك أمران :

**الأول :** أن الواقعة ليس لها عين ولا أثر فى كتب التاريخ الموثوق بها كالطبرى وابن الأثير والبلاذرى وغيرها مما ذكرنا .

**والثانى :** أن الخزانة كانت قد ضاعت قبل الإسلام ، أثبتوا ذلك بدلائل لا يمكن إنكارها .

#### **رابعاً : الضغوط على أهل الذمة :**

ادعى المؤلف أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كتب عهداً لنصارى الشام ، وذكر نصه منقولاً عن سراج الملوك للطرطوشى واعترف بأن فيه ضغطاً على النصارى ، ثم اعتذر لعمر بأن نصارى الشام كانوا يميلون إلى قيصر الروم ، وكانوا من بطانته يتجسسون له فلذلك احتيج إلى الشدة بهم والتضييق عليهم .

يقول الشيخ النعمانى : كل من له أدنى مسكة فى التاريخ يعرف أن الطرطوشى ليس من رجال التاريخ ، وكتابه كتاب أدب وسياسة ، وهو من رجال القرن السادس ، وإنما المعول على المصادر القديمة الموثوق بها : كتاريخ الطبرى والبلاذرى واليعقوبى وابن الأثير وغيرها ، وهذا ما كان يخفى على المؤلف ولكن لأجل هوى فى نفسه

أعرض عن كل هذا ، وتشبث برواية واهية تخالف الروايات الصحيحة المذكورة بإسنادها ورجالها ، وقدم الشيخ النعماني رواية القاضي ( أبي يوسف ) في كتابه الخراج ، وهي تكشف عن اعتراف أهل الذمة بوفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم . وقد أشار السيد ( رشيد رضا ) - رحمه الله - في دراسة له عن جرجي زيدان (١) « صاحب الهلال » بعد وفاته ، كشف فيها وجه هذا الشعوبي ، فقال :

إنه ظهر بعد الانقلاب العثماني ( ١٩٠٩ ) نزعة جديدة ، هي إحياء المذهب الشعوبية ، ذلك أنه زار الأستانة ولقى فيها بعض زعماء الاتحاد والترقي ثم عاد متشبعاً بالنهضة التركية الزائفة ، مستنكراً عدم مجارة العرب لإخوانهم الترك في الانضمام على خطة الاتحاديين التي ترمي إلى تترك العناصر وإدغام العرب في الترك .

وقد كتب في الهلال ما يشعر بهذه النزعة من مطاعن في العرب ، أودعها بعد ذلك في كتاب تاريخ التمدن الإسلامي ، وفطن لها أخيراً من لم يكن يحفل بها ، وزادهم التفاتاً إليها ترجمة جريدة ( أقدام ) التركية لتاريخ التمدن الإسلامي ونشره بالتتابع ، وهذا ما حفز الشيخ شبلي النعماني إلى الرد عليه ودحض شبهاته .

وكان الأب لامنس (٢) اليسوعي قدوته في نقد العرب وبنى أمية ، كما كان سوفان فلهوزن دليلاً في الحديث عن ما أسماه الحملة على الموالي ، وهو من أكبر متعصبين المستشرقين ، ولجرجي زيدان سموم أخرى في كتابه عن أدب العرب موعظنا بها ، حلقة قادمة : إن شاء الله .

\*\*\*

---

( ١ ) ديانة المؤلف جرجي زيدان وهو من سلالة المارون تبيح له الكذب أو ما هو أكثر من ذلك .  
( ٢ ) أنشأ الأب لامنس (معقلا) للاستشراق المستعرب الحاقداً ، على هيئة دير يعتزل فيه الرهبان الدارسون ، وما زال هذا المعقل في أطراف حي الدراسة خلف أسوار القاهرة العتيقة فهل يتنبه لهذا الأثر وعلماءه والغيورون على الإسلام وثقافته ؟

## (٢١) رسائل إخوان الصفا مؤامرة على الإسلام :

صدرت هذه الرسائل إبان القرن الرابع الهجرى ، وكانت ثمرة لترجمة الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية ودخول مفاهيمها إلى الفكر الإسلامى فى تلك الجولة الضخمة من تحديات فلسفة الإغريق والفرس والهنود وغيرهم القائمة على مفاهيم الوثنية وعلم الأصنام .

وهى ٥٢ رسالة مقسمة إلى أربعة أقسام : الرياضيات والطبيعيات والعقليات والإلهيات ، طبعت فى القاهرة أول مرة ١٨٨٧ ثم جدها الدكتور طه حسين ١٩٢٩ تقريبا من بين الأعمال التى خطط لها من أجل إشاعة هذا الفكر الشعبى .

وتعد رسائل إخوان الصفا إحدى ثمار الحركة الباطنية للجماعة السرية التى مزجت الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية لتخرج للناس مذهباً جديداً يمزج إلهيات اليونان ونظريات أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس وغيرهم بالعقيدة الإسلامية فى خليط مضطرب فاسد .

وقد أنتج هؤلاء العشرة ( رسائل إخوان الصفا وعلان الوفا ) التى أذاعوها بعد أن كتموا أسماءهم واستتروا وراء تلك الرموز الخفية التى وضعوها هنا وهناك من فصول كتاباتهم ، واستهدفوا منها وضع برنامج للعمل السرى الذى يستهدف القضاء على الإسلام ودولته وتأسيس دولة أخرى على أنقاض الدولة الإسلامية تضم العقائد الوثنية والمجوسية والإباحية التى نسقوها فى جماع ركाम الفكر الزائف الممتد من فارس إلى الهند إلى اليونان والذى اختلطت فيه « الهلينية الإغريقية » بـ « الغنوصية الشرقية » .

وصفهم ( أبو حيان التوحيدي ) فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » بأنهم ( عصابة تألفت بالعشرة وتصادقت بالصدقة فوضعوا مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتماعية وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، ووضعوا رسالة ( ٥١ رسالة ) فى جميع أجزاء الفلسفة علمياً وعملياً وأفردوا لها فهرساً

وسموها ( رسائل إخوان الصفا ) وكتبوا فيها أسماءهم وبنوها فى الوراقين ووهبوا للناس وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية والحروف المحتملة والطرق الموهمة .

#### محتويات الرسائل :

وتشتمل على الطبيعيات والرياضيات والإلهيات والعقليات يعوزها التعمق والنظام ويظهر فيها الإغراق فى الخيال والاعتماد على الأفكار اليونانية من غير فحص ولا انتقاد ، وبحث فى كل علم من غير إشباع وإقناع ، فهي مبثوثة فى كل قيد بلا إشباع ولا كفاية ، ينكرون فيها البعث بالأجساد ويفسرون الآخرة والجنة والنار خلافا لما تواتر عند المسلمين وفهم من النصوص الدينية القطعية ، وينكرون الشياطين على الصورة التى يفهمها معظم المسلمين ويقولون : هى النفوس الشريرة الهائمة فى فلك القمر مع أخواتها من النفوس التى جهلت ذواتها فى الحياة الدنيا ، ويفسرون الكفر والعذاب تفسيرا باطنيا فلسفيا ، ويشتمل على كثير من الآراء الخيالية وبعضها ملفق من اليونان وبعضها وليد الأذهان وبعضها تراث الكهان كآسرار الأعداد والتنجيم والفأل والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطولع النجوم وتأثيرها ، وموسيقى الأفلاك ونغماتها وتشتمل كذلك على عقيدة الروح والإمام المستور والتقية ، وفيها إعداد النفوس والقول بدولة جديدة تقوم على أهل البيت ، وإحطار بانتهاء الدولة العباسية وزوالها ، وبالاختصار فهي مجموعة غريبة من الحكم والديانة والشعوذة والكهانة السياسية ، وتقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية والإلهية ونظرياتها وأوهامها وتنهار بانتهيارها وليست لها أهمية كبيرة ، ولولا الاضطراب الفكرى الذى كاد يسود العالم فى القرن الرابع والخامس وإجلال كل ما يظهر من الصنعة الفلسفية لما نالت هذا الاهتمام .

#### مؤامرة خطيرة :

وهكذا نرى بوضوح أن الرسائل كانت مقدمة لتحويل الفرقة الباطنية ، إلى مؤامرة خطيرة لتدمير الدولة الإسلامية والفكرة الإسلامية معها ، أو كما قال أحد الباحثين ، محاولة لوضع نظام جديد خلقى إلهى علمى يحل محل الشريعة الإسلامية التى يعتقد إخوان الصفا أنها بشكلها الحالى قد أصبحت عتيقة لا تؤدى رسالتها ، وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقا تاما فلم تنتج نظاما علميا ولم تنشئ مجتمعا جديداً يقوم على أساسها ،

وأصبحت فى مدة قريبة من الآثار التاريخية التى لا تأثير لها فى الحياة ولا محل لها إلا فى المتاحف والمكتبات .

ويرى الدكتور عبد اللطيف محمد العبد فى بحثه التحليلى : إن إخوان الصفا وخلان الوفا يضعون السم فى العسل لخدمة أهدافهم ، وأن هذه الرسائل كانت سجلات لمخالفهم السرية وأنها تمثل المذهب الباطنى الإسماعيلى فى دور الستر ، لما تقوم عليه من تأويلات باطنية عديدة ، ولقد كان للمذهب الأفلاطونى المحدث تأثير بالغ فى هذه الرسائل فلم يختلف إخوان الصفا عن أفلوطين فى القول بأن العالم وحدة حية متكاملة نابضة بروح سارية فى كل أجزائه ( وهو ما يسمى مذهب وحدة الوجود الذى ينكره الإسلام إنكارا شديدا ويعارضه معارضة تامة ) .

كذلك فهم فى أبحاثهم عن الإنسان ( صديقا وفيلسوبا ونبيا ورسولا ) يطبقون تعاليمهم الباطنية وينفثون سمومهم الهدامة .

وهم فى مفهومهم للإمام يعارضون مفهوم الإسلام الصحيح ، حين يرون أن الإمام ( إلهى الذات ) وأنه معصوم ، بينما لا يقر الإسلام عصمة إلا للرسول عليهم الصلاة والسلام وآخرهم محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ ، وبذلك فقد كانت هذه الرسائل هدايا للمفاهيم الإسلامية الأساسية وهدما للنسبة وحربا للإسلام وطعنا فى الصحابة ، وقد استغل الباطنية ( غلاة التشيع ) فى نشر دعوتهم كما استغلوا ( التصوف الفلسفى ) وتستروا وراء أهل البيت والصوفية .

وكانت دعوتهم إلى وحدة الأديان وإلغاء التعصب لدين ما علامة على انحرافهم وخروجهم على مفهوم الإسلام الأصيل ، كذلك فقد كان أشد آرائهم فسادا هو قولهم إن الخاصة لا حاجة لهم إلى الشرائع ، ودعوتهم إلى إسقاط التكليف والتحلل من الفرائض ، وقولهم أن الشرائع للعامة وحدهم ، ولا ريب فى أن ما سموه علم الباطن ، إنما يعنى أن الرسول ﷺ كنتم شيئا من الوحي عن عامة الناس وحاشا لله أن يكتم ﷺ شيئا .

#### إخوان الصفا والإسماعيلية :

ويقول أديب عباسى ( الرسالة المصرية ١٩٣٤ ) معلقا إن أول ما يلحظ من أوجه الشبه بين الإسماعيلية وإخوان الصفا هو الأسلوب الذى جروا عليه فى نشر دعوتهم والدعاية

لمذهبيهم ، وهو أسلوب الإسماعيلية المعهود ( أسلوب التدرج فى بث الفكرة والتلطف فى عرضها على الناس ) ومن أبواب التشابه بين الجماعتين اتفاقهما اتفاقا كليا فى مذهب الحلول فهو فى رسائل إخوان الصفا كما فى تعاليم الإسماعيلية ( المحور ) الذى تدور حوله هذه الرسائل والتعاليم .

ووجه آخر : هو تفسير القرآن تفسيرا مغايرا لما يدل عليه ظاهر اللفظ وهذا هو الأسلوب الباطن ، ووجه ثالث : هو التشيع لآل البيت والدعوة إلى الإمام المنتظر أو المهدي ، ونرى أن المعنى فى كلام إخوان الصفا للفاطميين ، وقرائن الأحوال يدل على أن لهم به الصلة .

ويقول المستشرق ماكدونالد : إنه مما يثبت علاقة إخوان الصفا بالإسماعيلية ومن تفرع منهم وجود قسم من رسائلهم فى كتب الحشاشين المقدسة ، وقد ألقى بعض الباحثين أضيواء أخرى على موقف إخوان الصفا تشير إلى أن المثل الأعلى فى رسائلهم ليس مثالا أعلى إسلاميا ( وإنما هو عبراني فى مخبره مسيحي فى منهجه ، يوناني فى علمه ) مجلة الرسالة الإسلامية العراقية ١٩٧٢

وأخطر ما يدمغهم هو أنهم لم يقفوا عند عقيدة واحدة وإنما من كل دين وعلم وفلسفة ومذهب دون إطار ثابت هو فى حد ذاته دليل على مؤامراتهم ضد الإسلام ، وكونهم لم يعلنوا أسماءهم على أنهم دعاة لا علماء ، كل هذا يكشف أن لهم غاية سياسية يخفونها كالوصول إلى الحكم أو القضاء على الدولة القائمة ، ولذلك فهم يكثرون من ذكر رموز وإشارات معينة لها تفسيرها الخاص ، وهذه الظاهرة واضحة فى كتابات ابن سينا الذى يستعمل الرموز والإشارات .

ولا شك أن عرضهم للإسلام مخلوطا بالفلسفة اليونانية هو فى حد ذاته خروج عن مفهوم الإسلام الصحيح ولو كانوا علماء حقا لما أخفوا أسماءهم ، ولما عرفت أسماؤهم تبين أنهم لا يملكون أى قدر من الشهرة فى مجال العلم الصحيح وأنهم جماعة من المتأمرين على الإسلام .

وقد ذكر السيد محب الدين الخطيب ( الفتح م ١٨ - ١٢٦٧ هـ ) عن أغاخان فى كتابه ( نور مبين جبل متين ) أن مؤلف الصفا من أئمة الإسماعيلية وهو أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق .

ويقول الدكتور حسين الهمزاني أحد دعاة الإسماعيلية البهرة : إن الإسماعيلية يرون القرآن كتاب العامة ورسائل إخوان الصفا كتاب الأئمة .

ولقد كان من أبرز أعمال التغريب والغزو الثقافي في العصر الحديث ، ممثلا في الاستشراق والتبشير ، إعادة طبع وإحياء رسائل إخوان الصفا من جديد بعد أن دفت وماتت وكشف زيفها منذ أكثر من ألف سنة ، فقامت المطبعة الكاثوليكية في بيروت بإعادة طبع هذه الرسائل ، ثم جاء الدكتور طه حسين من أوروبا ١٩٢٩ ليعيد طبع رسائل إخوان الصفا ويقدم لها ، وليس هذا عيبا في ذاته إذا ما روعي فيه أصول البحث العلمي ووضعت هذه الرسائل في موضعها الحقيقي من حيث أن جماعة إخوان الصفا ظهرت في القرن الرابع الهجري في البصرة على هيئة جماعة سرية من الباطنية والمجوس والزنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية وقد كان هدفهم من كتابة هذه الرسائل وضع مخطط لتقويض المجتمع الإسلامي ، ولو أن الدكتور طه كشف عن هذا الهدف لكان صادقا في النصح لقومه ، ولكن الدكتور طه كذب على الناس وادعى أن إخوان الصفا قوم مجددون مصلحون ، قدموا للمجتمع الإسلامي الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية لإنشاء ثقافات جديدة وهي الثقافة التي يجب على الرجل المستنير أن يظفر بها ( على حد تعبيره ) .

وهذا خداع طه حسين بقومه وهو يعلم في أعماق نفسه أنه بذلك إنما يعمل على هدم القيم الإسلامية بإعادة هذه الرسائل كجزء من مخطط التغريب والغزو الثقافي .

وينضم إليه زميله زكي مبارك ليقول : « من الذي يصدق أن رسائل إخوان الصفا هي أعظم ذخيرة أدبية وفلسفية » هكذا علمهم المستشرقون .

أما المطبعة الكاثوليكية فهي تقول : إن من أسباب عظمة هذه الرسائل أن كتب عنها طه حسين وجبور والدسوقي وصليب والهمزاني والعوا وماسينيون ، ولكن هؤلاء جميعا لم يكونوا في درجة واحدة من الإعجاب برسائل إخوان الصفا ، وفيهم من كشف علاقة إخوان الصفا بالمؤامرة الباطنية .

ولقد كان حقا على هؤلاء جميعا أن يكتشفوا حقيقة رسائل إخوان الصفا بالنسبة لمفهوم الإسلام الأصيل ، وأن هذه الرسائل تعارض هذا المفهوم في عدة أصول أساسية .  
أولا : إنكار البعث بالأجساد .



ثانياً : تفسير الجنة والنار والآخرة تفسيراً مخالفاً لما تواتر عند المسلمين .

ثالثاً : تفسير الكفر والعذاب تفسيراً باطنياً معنوياً .

رابعاً : فساد نظريتهم القائلة بأن النبوة يمكن أن تكتسب عن طريق الرياضة وصفاء القلب .

خامساً : فساد قولهم بأن من ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف واستراح من أعبائه .

ومن أشد فساد عملهم ومحاولتهم صهر الأديان والعقائد كلها في صورة زائفة ، ومن ذلك قولهم : الرجل الكامل يكون فارسي النسب ، عربي الدين ، عراقي الأدب ، عبراني المخبر ، مسيحي المنهج ، شامي النسك ، يوناني العلم ، هندي البصيرة ، صوفي السيرة ملكي الأخلاق .

وهذا يعني خلط القيم والأيمان والعقائد في جماع زائف ضال وهي دعوة اليهودية التلمودية التي حاولت على مدى العصور أن تكيّد للإسلام ، وهي دعوة تجددت في العصر الحديث حيث نرى دعاة التغريب يقولون بالتقاء الأديان والثقافات في وحدة الثقافة العالمية ، التي تستمد أصولها من الفكر التلمودي الذي احتوى الفكر الغربي والحضارة الأُمّية .

ولا يبعد هذا عما يقوله إخوان الصفا في رسائلهم حين يقولون :

« ينبغي لإخواننا ألا يعادوا علما من العلوم أو يهجروا كتابا من الكتب ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم كلها » أما مفهومنا الإسلامي الأصيل ، فإن الإسلام له ذاتيته الخاصة وأصائله المقررة التي تجعله نسيج وحده مستمداً من طوابعه وحدها ، ولا يقبل الانصهار في الفكر البشري أو الأُمّية والعالمية القائمة على الوثنية والمادية .

وقد وصف أبو حيان التوحيدى رسائلهم بأنها مبثوثة في كل فن بلا إشباع ولا كفاية وهي خرافات وكنائيات وتلفيقات وتلزيقات حملتها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً وتبهرها طويلاً ثم ردها على وقال :

تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجروا ، وهاموا وماوردوا ، وغنوا وما أطربوا ، ونسجوا

فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا ، طنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، طنوا أنهم يمكنهم أن يدرسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمجسطى والمقادير وأثار الطبيعة والموسيقى التي هي معرفة النغم والإيقاعات والفقرات والأوزان والمنطق ، الذى هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات فى الشريعة وأن يضموا الشريعة للفلسفة وهذا مرام دونه حدود وقد توفر على هذا - قبل هؤلاء - قوم كانوا أحد أنبياء ، وأعظم أقدارا - وأرفع أخطارا ، وأوسع قوى وأوثق عرى فلم يتم لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أملوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ولطخات ناضجة وألقاب موحشة وعواقب مخزية وأوزار مثقلة .

ويقول أبو سليمان المنطقى بعد ذلك :

وكما لم نجد فى هذه الأمة من يفرع إلى أصحاب الفلسفة فى شىء من دينها فكذلك أمة عيسى عليه السلام وهى النصارى وكذلك المجوس ، ومما يزيدك وضوحا وبريك عجباً أن الأمة اختلفت آرائها ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافا فيها وفرقا كالمرجئة والمعتزلة والخوارج فما فرغت طائفة من هذه الطوائف إلى الفلسفة ولا حققت مقالاتها بشواهدهم وشهاداتهم ولا اشتغلت بطريقتهم ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها ، وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا فى الأحكام من الحلال والحرام ، منذ أيام البذر الأول إلى يومنا هذا لم نجدهم تظاهروا الفلسفة فاستنصروهم ، وقالوا لهم أعينونا بما عندهم أو اشهدوا لنا علينا بما قبلكم .

وهكذا نجد بعد هذه المراجعة الواسعة لرسائل إخوان الصفا أن هذا العمل قد وجد من علماء المسلمين معرفة واعية لهدفه وكشفا لزيغه على مدى الأجيال بما أسقطه فى نظر المثقفين ، حتى جاء دعاة التغريب وتلاميذ المستشرقين فجددوه فى هذا العصر وادعوا أنه علم وفهم وثقافة وما هو إلا سموم عرفها أهل الأصالة الإسلامية ، وضلال كشفوا عنه وأبانوا فسادهم وكان خليقا بأهل عصرنا أن يعرفوا هذا فلا يترددوا فى خطر النظر أو المتابعة لهذه الأعمال الضالة المضلة .

\* \* \* \*

## (٢٢) حديث الأربعاء لطله حسين :

يمثل كتاب حديث الأربعاء مجموعة مقالات نشرها <sup>(١)</sup> الدكتور طه حسين فى جريدة السياسة عام ١٩٢٤ تناول فيها عددا من الشعراء الإباحيين الغزليين أمثال أبى نواس وبشار ووالبة والخلع ومن إليهم .

وقد حاول الدكتور طه فى جماع هذه المقالات أن يفرض فرضا باطلا زائفا ، قوامه أن القرن الثانى للهجرة كان عصر شك واستهتار ومجون ، اعتمادا على وجود هؤلاء الشعراء فيه ، وأن هؤلاء الشعراء يمثلون عصرهم بأقوى وأعمق مما يمثلته الفقهاء والعلماء والزهاد ، وقد اعتمد فى ذلك على كتاب الأغاني الذى ليس مرجعا صحيحا يمثل العصر ، لأن صاحبه حدد هدفه ، وهو الحديث عن الأغاني ولا يجوز أن يحكم على المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى من قراءة كتاب الأغاني الذى ألف لأخبار المجان والشعران .

لماذا ؟؟

وقد عمد طه حسين فى هذا الكتاب إلى إشاعة الفاحشة إذ تكتمل فيه الرذيلة بأشع مظاهرها ، على حد تعبير الدكتور عبد الحميد سعيد - رحمه الله - <sup>(٢)</sup> ، ويظهر فيه تسفيه الرجل بما يشرحه بعناية خاصة وإطباب من قصص المجون والفجور بأسلوب جذاب وبطريقة خلابة تؤثر فى الناشئ المسكين ، وتزين له سبيل الفساد وتحبب له الانغماس فى الشهوات بعد أن شوه له الدين وتعاليمه ، ومثله أمامه تمثيلا لا يرغب فيه وأعطاء صورة مشوهة منفردة عمن قاموا بالدعوة إليه ، ولم يترك مسبة إلا نسبها إليهم فقد طعن فى الخلفاء والعلماء من عظماء الأمة الإسلامية يومئذ ، وشوه تاريخ الإسلام بحيث لم ينبج من مطاعنه إنسان ، ولم

( ١ ) أعاد الدكتور طه ترتيب هذه المقالات فقدم فى الجزء الأول فى الطبعة الأخيرة مقالات أخرى نشرها عن الأدب الجاهلى فى جريدة الجهاد ( يناير ١٩٣٥ ) وما بعدها وآخر مقالاته الخاصة بشعراء الغزل إلى الجزء الثانى وأبقى على المقدمة التى كتبها سنة ١٩٢٤ للفصول التى أخرها إلى الجزء الثانى وقد استهدف من ذلك إزالة بعض آثار الطبعة الأولى من النفوس ، وقد كانت هذه الفصول هى الأساس فيما وجه إليه من نقد ومعارضة لآرائه الإباحية .

( ٢ ) الدكتور عبد الحميد سعيد رحمه الله كان عضوا بمجلس النواب المصرى فى العشرينات وبداية الثلاثينات ، كما كان رئيسا عاما لجمعيات الشبان المسلمين فى مصر حتى توفاه الله ، المجلة .

يخص بثنائه فى عصر الدولة العباسية الزاهر إلا هؤلاء الشذاز من أهل المجون والفحش حيث جعلهم مرآة ذلك العصر ، أما أولئك المصلحون من أهل الفضل والرأى ، الذين أقاموا صروح المدنية فى العالم ، ورفعوا أعلام الفضيلة وأقاموا معالمها فى سائر الأنحاء ، فلم يذكرهم بخير بل خلع عليهم من المساوىء أو الشتائم والسباب ما أثبت التاريخ أنهم بريئون منه ، وما لا يصدق فىهم إنسان حتى ولو كان من أعداء الدين الألداء .

إن عظمة التاريخ الإسلامى فى عصوره الزاهرة لا ينكرها إلا جاحد فى قلبه غل على الإسلام ، فطه حسين آلى على نفسه أن يشكك فيما يكاد يبصره من عظماء التاريخ الإسلامى المكتوب ، وأما الموضوع من أخباره الشاذة المطعون فيها فإنه يبحث عنه فى كل بؤرة وينتقطه .

هذا هو رأيه فى العصور الزاهرة للإسلام التى نفخر بها كل الفخار ، إن هذا الكتاب - حديث الأربعاء - ليموج بالأمثلة ، أمثلة الفسق والفجور والتهتك والاستهتار ويدعو إليها ويحرض عليها ، وأن ما ذكره من قصص أبى نواس وجماعته لينفر منه ذلك الأدب الذى يدعى أنه يحترمه ويحميه فقد جاء فى ذلك المخالفة للأداب والحض على الفجور والفسق ما يهدم الجبال الراسيات ، ويقوض أركان الفضيلة ويهدم صرح الأدب .

ومن أمثلة ذلك قوله :

كان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون وقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعيشون فى هذا كما يعيشون فى غيره ، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الفجر ( بضم الفاء ) ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها ، ولعلمهم أقاموا الصلاة فى مثل هذه الحال يوماً وأمهم أحد الندماء فغلط وهو يقرأ : « قل هو الله أحد » فاستحالت الصلاة من خشوع لله إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل ، إلى أن قال : وإذا أردنا مثلاً يختصر هذا العصر ويشخصه فهذا المثال هو أبو نواس الذى نتخذ من درسه سبيلاً إلى درس العصر كله .

وقد عد مجاهرة أبى نواس بالمعصية ضرباً من الصدق ، وعدم الجهر بالمعاصى نوعاً من الكذب لأنه إخفاء للواقع .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى : إن طه حسين لم يجد فى الأدب القديم ما يستحق أن يبعث وينشر إلا أخبار المجان الذين ابتلى بهم الأدب العربى كما ابتلى الأدب

الفرنسي بأمثال أوسكار وايلد وجان كوكنو ، نعتى أبا نواس ووالبة والخليع ومن إليهم ، ممن نشر طه حسين أخبارهم فى « حديث الأربعاء » ومن الغريب أن تلك الأخبار الأجنبية والأشعار الماجنة قد عرضها صاحب الكتاب فى ثوب البحث الأدبى باسم التجديد ، كأن البحث والتجديد فى الأدب ستار تخارب الفضيلة من ورائه ووسيلة للدخول إلى النفوس بما لم يكن أولاً لتلك الوسيلة تداخل عليها .

وصاحب الكتاب قد دل بكتاباتة على أنه ممن يرى إخلاء الفن من قيود الفضيلة ، فلا يكون هناك على الفنان حرج فى أن يصور الرذيلة كيف يشاء بريشته أو قلمه ما دام يصورها كما هى ، وهو مذهب تنزه عنه من أهل كل فن عظماءهم وحاربه من أهل كل عصر زعماء الإصلاح فيه أمثال : كارليل ورسكن وماتيو أرنولد .

وإن العربية وأدائها إنما قاما حول جماع المكارم ومنيع الحياة والنور : القرآن والحديث وكنا نحس دائماً أن ما فى كتب « المحاضرات » كالأغاني والعقد التى استغل صاحب الكتاب والأدباء جانيها المجونى ، كنا دائماً نحس أن ما فيها من التطرف بهجر القول غريب عن روح هذه اللغة بعد الإسلام ، تحقيق ألا يلحق بأدبها ، ولعلنا لو تتبعنا تاريخها من هذه الوجهة نجد روح الطهارة يغلب عليها فى كل عصر يكون أهله أقرب منه إلى القرآن ، وروح التمجيد والتهافت تغلب من كل عصر على أكثرهم مجانية للدين وأبعدهم عن القرآن ، هذا شئ لا غرابة فيه فى لغة مدينة للقرآن بما لها من وجود وبما كان لها من قوة وبيان وإعجاز .

#### كتاب الأغاني :

وقال الدكتور زكى مبارك : إن الدكتور طه حسين وجرجى زيدان قد أساءا فهم العصر العباسى ، وأنهما زلا فى الخطأ حين وصفاه بأنه عصر إلحاد ومجون ، وأنهما فى حكمهما قد قلدا الأصفهاني الذى لم يرسم للعصر العباسى إلا لوحة خلق معدنها من الكذب والتمويه وصيغت مبادئها من الضلال والبهتان .

وكما أن شهوة الاطلاع كانت فى نفسه لاكتشاف الجوانب السيئة من حياة الشعراء والكتاب فقد خلفت فى كتابه جوا من المجون ، وقال : إن الدكتور طه حسين يستقى آراءه فى العصر العباسى من شيئين :

الأول : كتاب الأغاني و « الثانى » : شعر الماجنين من الشعراء .

أما شعر الأغاني فصاحبه يحدثنا في المقدمة بأنه قصد في كتابه اللهو والتسلية قبل أن يقصد العلم والتاريخ ، أما شعر الماجنين وحياتهم فلا ينهضان دليلاً على فساد عقيدة العصر العباسي وأخلاقه .

والدكتور يناقض نفسه حين يقول : « وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتههم ، وإن كانت الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة » .

وقال الشيخ محمد عرفة : لقد توصلت إلى حكمك العام على العصر الثاني باستقراء حال طائفة من الأدباء والشعراء والمترفين ، فرأيت فيهم الشاك والماجن فأخذت العصر بجريرة هؤلاء وحكمت بأن العصر : عصر شك ومجون وأن تصبح طائفة ووجدانها على صفة لا يعطى منطقياً على عصرهم جميعاً بأن فيه تلك الصفة ، ولو كان ذلك الاستقراء القليل منتجاً لذلك الحكم العام ، لخرجنا بحكمين متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور ، فإننا إذا تتبعنا سيرة الفقهاء والمحدثين والزهاد في هذا العصر ، وجدناهم على مرتبة عظيمة من اليقين والورع والاحتشام ففيهم الحسن البصري وعمرو بن عبيد ومحمد بن إدريس الشافعي ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومالك بن دينار وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأي ورابعة العدوية وابن سيرين والشعبي .

وما منهم إلا من ملك نفسه وكان أنفع الناس للناس وسيرتهم في العلم والزهد والتقوى يعرفها من عنى بدرس حياتهم .

فطائفة الفقهاء والمحدثين مؤمنون متحشمون وطائفة الشعراء والأدباء فيهم شك واستهتار ، فإذا أردنا أن نحكم على العصر فسيبنا أن نتعرف طائفة الفقهاء والزهاد والمحدثين وهم يمثلون عصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه ، أما طائفة الشعراء ؟ فإن القارئ للأغاني يخيل إليه من كثرة ما يذكره من مجون هؤلاء أنهم في جو يسيل فسقا وإلحادا ، ولكن لو تذكر أن صاحبه إنما عنى بتاريخ طائفة فقط ، هم الشعراء والمغنون وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر لحمى نفسه من التورط في الحكم ، وإن هناك عوامل خاصة جعلت كثيراً من الشعراء المستهترين ماجنين ، ونقرأ فيما نقرأ أن هؤلاء الشعراء كانوا يرون أنفسهم غرباء بتخلفهم عن ذلك العصر وأنهم شذاذ فيه وكانوا يسعون بما لديهم من قوة لمحو القالة عنهم .

\* \* \*

حاول الدكتور طه حسين أن يثير نظرية خبيثة بادعائه أن الأدب العربي يجب أن يدرس لذاته لا أن يدرس لغيره من فقه أو شرع ، وأن اتصال اللغة بالقرآن والدين يجعلها مقدسة مبتذلة في آن واحد ، مقدسة لأنها لغة القرآن والدين ، ومبتذلة لأنها لا تدرس في نفسها ولأن درسها إضافي .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : « إنه في هذا مخطيء محيل ، وإن الفريق الذى يصفه أنه يقدسها هو نفس الفريق الذى يدرسها كوسيلة للدين ، والتفقه فيه ، وتقديسه إياها يصونها من الابتذال عنده ، ويعلم أن الذين يدرسونها ممن لا يشتغلون بالدين هى عندهم غاية لا وسيلة كجمهور الأدباء ، فليس هناك من هؤلاء أيضا من يبتذلها إذن . وكيف يتصور أن التوصل بشيء إلى غرض ما هو من دواعي ابتذال ذلك الشيء ، فريق يدرسها لذاتها وهو فريق المشتغلين بالأدب وواضح أن هؤلاء لا يبتذلونها وفريق يدرسها وسيلة إلى شيء آخر يرضاه ويكرهه ، واتصالها بذلك الشيء الآخر يفيض عليها من الإكبار الذى يحيط به ويحول بينه وبين الابتذال كما هو مقتضى القانون النفسى ، قانون الاهتمام interest الذى غفل عنه صاحب الكتاب ، فليس هناك إذن خطر يتهدد الأدب من هذه الناحية ناحية الابتذال ، أما ناحية الإكبار والتقديس كما يسميه ، فقد زعم أنها تحول بين اللغة وبين البحث العلمى الصحيح ، وتقديسها بهذا المعنى لم يقل به أحد غيره لأن الذين يفيضون عليها من التقديس لاتصالها بالقرآن والحديث ، لم يخطر لهم على بال أن يحظروا على أحد التفقه فيها عن أى طريق من طرق البحث الصحيح ، بل هم يرون مثل هذا التفقه ضروريا لهم وفرضا على فريق منهم ، والإسلام نفسه يفسح للبحث الصحيح كل طريق ، فليس على صاحب الكتاب من حرج فى أن يسلك فى تحليل اللغة مناهج البحث العلمى أو الأدبى الصحيح ، ولكن عليه أن يحسنها قبل أن يسلكها ، أما أن يدعى أنه محسن إياها وهو غير محسن أو أن يأتى إلى أقدم ما يقدس الناس من دين أو قرآن أو تورا فيعرض لذلك كله بالوهم والفرس ، فسيجد دائما من يؤاخذ به على ذلك فى العلم وفى الدين .

والقيود التى فى القانون لم يرد بها تضيق حرية البحث ، وإنما أريد بها صيانة الدين أن يجترىء عليه مجترىء أو يفسده على الناس مفسد ، وليس هناك غير صاحب الكتاب وشيعته من يظن أن كرامة الدين تنافى حرية الأدب أو حرية العلم ، وما نظن صاحب

الكتاب يتألم للأدب والعلم ولكن لنفسه ، وإلا فقد اعترف نفسه أن العلم ذاته قد يكون من أبغض الأشياء إذا أكره عليه ، وذلك قوله : « من ذا الذى يستطيع أن يكلّفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشرا بالإسلام أو هادما للإلحاد » .

هل إذا كانت دراسة الأدب لهدم الإلحاد تقييد للأدب ، فهل دراسته لهدم الإسلام تخير للأدب ؟ ليدع صاحب الكتاب نصرة الإسلام إذا شاء ولكن ليدع معها أيضا نصرة الإلحاد يسلم له الأدب .

أما استناده فى تحرير الأدب العربى من سلطان الدين إلى ملاءمة حاجات العصر العلمية والفنية فهو نوع من الكلام المبهم ، وفى رأى أن حاجة العصر هى أشد ما تكون إلى أدب شرقى نقى من أقذار وسموم الإباحية ، إلى أدب يكون عوناً للشرق عامة ولمصر خاصة على نهضة خلقية قوية تأخذ بعناصر هذه النهضة ، هذه اللغة التى أنهضها الدين وعاشت بالقرآن ثلاثة عشر قرناً لا تستطيع الآن أن تقطع ما بينها وبين الدين والقرآن من غير أن تقتل نفسها أو يقتلها أهلها وتصبح مكتوباً عليها الرق والذل لكل ما لا يمت إليها بمودة أو رحم ، وحاجة الشرق بل حاجة أى شعب إلى لغة يصبح أديها باباً يدخل على الشعب منه العدو ، وكأسا يتجرع الناس بها السموم .

#### يقول الدكتور طه حسين :

لتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علماً من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط ، وإنما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شئ إلى تذوق الجمال الفنى فيما يؤثر من الكلام ، ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى ، لو كان يريد بهذا الكلام ظاهره لما كان بينه وبين أحد من رجال العربية خلاف ، ولكن علمنا بالنزعة التى ينزع إليها صاحب الكتاب فيما كتب وفيما يكتب ، تجعلنا نخشى أن يكون أراد بهذا الكلام غير ظاهره وأنه قد رمى إلى غرض آخر هو تحرير الأدب من قيود الأخلاق فلا يكون هناك تخرج خلقى من معنى خسيس ما دام هذا المعنى يورده صاحبه فى شكل فنى يتذوقه ويلذه ، نتيجة لضعف أثر الأخلاق الفاضلة فى نفسه .

ولكن الأدب ينبغى ألا يستقل قط عن الأخلاق استقلالاً يجعله لا يبالى بأوافق رذائلها أو يخالف فضائلها ، فإن الله قد خلق الإنسان وحدة متماسكة لا أوصالاً مفصولة ، وإذا



كان الخلق الكريم والعاطفة النبيلة والدين الصحيح ضروريا للإنسان فلن يكون لمن يهمله رقى الإنسان بد من محاربة كل ما يضعف ذلك فيه ، فنا كان أو غير فن ، أدبا كان أو تمثيلا أو تصويرا أو ما تشاء أن تسمى من الفنون ، وليس يخالطنا شك بعد ما قرأنا لصاحب الكتاب فى حديث الأربعاء وغيره أنه ليس بالرجل الذى يهدى هذ الأمة إلى أدب خاص بها ، يحتفظ بجميع عناصر القوة فيها ويتخلص من جميع عناصر الضعف ، فإن هذا التخلص بعد ذلك الاحتفاظ هو ميدان تقدم ذلك الأدب الخاص الذى نريده لهذه الأمة وهو معراج ترقيه .

وهكذا نجد أن فى كل كتاب من كتبه غاية مبيتة لهدم قيم هذه الأمة .

وقد واجه العلامة المؤرخ الكبير ( رفيق العظم ) هذا الاتجاه الذى ابتدعه طه حسين ، وكشف عن زيفه وأبان أن مثل كتاب الأغاني لا يصلح كمرجع من مراجع التاريخ ، وأن ما ينسب إلى الرشيد والمأمون من الاستمتاع بالذائد أو المتاع يجب أن يحتاط فى تقديره ، وعنده أن الحقائق التاريخية - لا سيما فى تاريخ الإسلام - تشبه الدر بين أشواك ، يحتاج من يريد استخراجها من تلك الأشواك إلى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشوك ويرى أن كتب القصاصيين التى اعتمد عليها طه حسين فى كتابة حديث الأربعاء قد حفلت بأخبار كاذبة نسبتها شيع العباسيين إلى خلفاء بنى أمية وأخبار نسبتها شيع آل على إلى خلفاء بنى العباس ، وهى من أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك كانوا فى مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الحياة والملك ، وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة إلى المنزلة التى أنزلهم إليها الوضعاوع ويدوم لهم طويلا ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة فى التاريخ .

وعنده « أننا لو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخبارا صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التى نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد » .

وأشار العلامة (رفيق العظم) إلى ظاهرة القصص والقصص الذى استشرى فى المجتمعات الإسلامية ، والتى كانت تشغل الناس فى العصور المختلفة ، وكيف أن واضعيها وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية .

أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع ، إذ من المعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ ، ومن هنا أخذ الأذكىاء في وضع قصص تخكى في المجتمعات فيلهو بها العامة فكان منها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب ، ومنها المطول المجموع في كتب على حدة ، ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار ، وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها ، تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك ، فكان منها الغث والسمين ومنها الملفق والقريب من الصحة ، وقد غالى بعض الإخباريين في إيراد أخبار المجنون والتهتك والانغماس في الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العيب بالأخلاق والتجرد من معنى الأدب الذي أخذ به الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم من أطراح رداء الحشمة والمروعة .

هذا هو الحصاد الضخم الزائف الذي اعتمد عليه أمثال طه حسين<sup>(١)</sup> وغيره في محاولة رسم صورة للعصر الأموي ووصفه بأنه عصر الشك والمجون ، وهو في تقدير ( رفيق العظم ) إنما هو تلفيق قصص يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وإما سد نهجات العامة إلى أمثال هذه القصص المخزية والروايات الملفقة . وهكذا نجد أن طه حسين يتميز بدعوته إلى أمرين .

إلى الشك وإلى الإباحية وأنه يعتمد في ذلك على مصادر تافهة لا قيمة علمية لها أساساً في إذاعة مذهبه وترويجه لدعوته التغريبية الضالة .

\* \* \* \*

---

( ١ ) وطه حسين في هذا يناقض نفسه في مناهجه الأدبية ، التي أملت عليه إنكار الشعر الجاهلي في كتابه المعروف ، بدعوى أن الرواة قد وضعوها ، فلما جاء حديث الأرباء ، ورواة الأخبار هم الرواة لم يتغيروا ، صاروا ليسوا وضاعاً فجعياً لمناهجه « المجلة » .

## (٢٣) حفريات الكشوف الأثرية وألواح الطين تؤكد صدق

### نصوص القرآن وتدحض دعاوى مزيفى النصوص :

﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم﴾ [ سورة فصلت : الآية ٥٣ ] .

﴿ يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ﴾ [ سورة الأنعام : الآية ٩١ ] .

﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾

[ سورة البقرة : الآية ٧٩ ] .

فى كل يوم يكشف العلم آفاقا جديدة تضىء الطريق إلى الله تبارك وتعالى وفى كل يوم تكشف الحفريات جديدا من باطن الأرض يؤكد حقائق القرآن ويدحض دعاوى ما كتبه الأخبار والرهبان بأيديهم ليقيموا دعاوى باطلة ، ومع توالى السنوات تطرح الحفريات الأثرية حقائق كثيرة ، تؤيد ما جاء به القرآن الكريم وتكشف زيف ما كتبه فى بابل ، وفى أكثر من موقع فى جزيرة العرب وامتدادها إلى الشام ومصر ، هذه الأحداث الكبرى أصابت عادا وثمود وقوم لوط وما تزال آثارها باقية عبرة للأجيال المتوالية وتصديقاً للقرآن وهى تحت أقدام العرب خلال رحلاتهم إلى الشام وإلى اليمن .

لذلك كانت عبارة القرآن دقيقة وواعية حين قال سبحانه وتعالى : ﴿ يمشون فى

مساكنهم ﴾ [ السجدة ٢٦ ] وفى السنوات الأخيرة تكتشف حقائق كثيرة .

وكانوا قد أنكروا قصة عاد وثمود ، وظنوا أن هذه القبائل لم يكن لها وجود تاريخى لأنها لم تذكر فى أخبار العهد القديم فتبين أنها مذكورة فى تاريخ بطليموس ، وأن عاد إرم هى ( عاد راميت ) اليونانية وأن أخبارها كما أشار الأستاذ العقاد محفورة على آثار هيكل مدين التى عثر عليها المؤرخ التشيكى موزيل ، ويقول الأستاذ عبد الحميد السحار ، لقد حدد بطليموس فى أطلسه موقع عاد وثمود وكشفت الحفريات عن مدائن صالح وعثر على بعض الخطوط الثمودية فى ثمود وفى الطائف كذلك ، فإن الدكتور أولبرايست استطاع أن يكشف موقع قرىتى سدوم وعمورة وثلاث مدن أخرى وهى التى كان يقيم بها قوم لوط ودمرها عليهم الله تبارك وتعالى ، وقد اختلف المؤرخون حول قصة سدوم وعمورة وحول موقعها حتى جاء الدكتور أولبرايست فاكتشف هذه المنطقة المجاورة للبحر الميت وقد مر عليها

أربعة آلاف سنة ، وتثبت الحفريات التي أجراها علماء الآثار أن تلك القصة حقيقية بكل تفاصيلها ، فقد قام الدكتور ( أولبرايط ) بمباحث واسعة النطاق في وادي الأردن وعلى سواحل البحر الميت وهما المكانان اللذان يظن أن ( سدوم وعمورة ) والمدن الثلاث الأخرى كانت فيها ، وانتهى البحث إلى أن الحادثة ليست خرافة ولا رمزية بل هي تاريخية بكل تفاصيلها ، وخلاصة القصة أنه حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد انحدر إبراهيم الخليل من بلاد النهرين إلى فلسطين ومعه أهل بيته وابن أخيه لوط وأهل لوط ، وقد اختار لوط دائرة الأردن إلى الوادي الذي كانت فيه سدوم وعمورة وأقام بسدوم ، واختار إبراهيم المرتفعات التي في الشمال وضرب خيامه في موقع يقال له ( بلوطات معرا ) .

ويقول الدكتور أولبرايط : إن أحداثا كثيرة وقعت فأزالت مدن طراودة وبابل وبعليك وكطاجة وبومباي وتدمر وغيرها ولكن هذه الأحداث لم تمنح أى أثر من هذه الآثار محوا تماما بل لا يزال لكل منها آثار تدل عليها وعلى ما كان لها من المجد والعظمة ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾ [ سورة القمر : الآية ١١ ] ، وأن سنن الله في الأمم والحضارات الذي كشفه القرآن الكريم يصور كيف أنه ما من أمة بغت أو أفسدت أو خرجت على أمر الله وحدوده ، إلا دمرت ثم تركت منها بقايا لتكون عبرة للأجيال التالية . وهكذا كشفت الحفريات عن قصة سدوم وعمورة وجاء الكشف الأثرى ليؤكد ما أورده القرآن .

﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها ﴾

[ سورة الفرقان : الآية ٤٠ ] .

**مخطوطات كهف قمران تثبت أن المسيح نبي وليس إلها أو ابن الإله :**

وكان من أخطر هذه الأحداث ذلك الكشف الأثرى الكبير الذي وقع عام ١٩٤٧ على شاطئ البحر الميت عندما عثر أحد البدو حينما ضلت عنزته فذهب يبحث عنها فاهتدى في أحد الكهوف على تلك الجرار الحجرية الغربية التي تشتمل على مخطوطات دينية أذهلت العالم النصراني بأسره ، وقد أطلق عليها كنسوف البحر الميت أو ( خربة قمران ) التي تقع جنوب مدينة ( أريحا ) بثمانية أميال وقد عرف من بعد أن هذه الكتابات مما لا يقدر بثمن لأنها ألقت الضوء على مرحلة خطيرة من تاريخ النصرانية

وتاريخ السيد المسيح نفسه ، والتي كتب بعضها قبل مولد السيد المسيح بسنين طويلة وقد أسرعت بعثات الجامعات والفاتيكان إلى الحصول على هذه الملفات أو أجزاء منها وأنفقت الحكومة الأردنية خمسة عشر ألف دينار في سنة واحدة لشراء هذه المخطوطات الأثرية القيمة وقد أجريت فحوص دقيقة على هذه المخطوطات من قبل مؤتمر للمستشرقين عقد في باريس أثبتت أنها وثائق حقيقية لا زيف ولا تلاعب وقد وصفها واحد من أعظم علماء الآثار من المتخصصين في آثار التوراة وهو الدكتور ألبرايث من الولايات المتحدة بقوله : إنها أعظم اكتشاف للمخطوطات في العصر الحديث وأفضل تاريخ يمكن أن تكون كتبت فيه وهو خلال مائة سنة قبل الميلاد ( بالحساب التقديرى المعروف الآن ) .

وقد تبين كما يقول الدكتور صبحي الدجاني : إن هذه الملفات كتبت بأيدى كتبة فى دير الأسينيين الذى ما زالت خرائبه وأطلاله ويقاياها بادية للعيان إلى يومنا هذا على مقربة من الكهف الذى اكتشفت فيه أول مجموعة من هذه الملفات .

هؤلاء الأسينيون كانوا طائفة يعتقدون أنهم ورثة عهد النبوة وكانت ما عندهم من ملفات فى الكهوف عندما فروا ليأمنوا شر الاضطهاد الرومانى الذى كان واقعا عليهم فى ذلك الحين ويقول العلماء إن المسيح عليه السلام ربما يكون واحدا من هؤلاء الأسينيين وإنه كان متأثرا إلى حد بعيد بطقوسهم وعقائدهم وكان الأسينيون يعتبرون ثروتهم حصنة مشتركة بينهم ، وأنهم يعتقدون بخلود الروح وتحدث نصوصهم عن واحد منهم يعلو عليهم كثيرا ويسمونه ( السيد الأكبر ) المدهون بالزيت أو المسيح الذى اختاره الله تبارك وتعالى وتحدث وثائق الأسينيين الذين كانوا يقومون فى الدير على مقربة من البحر الميت أنهم كانوا يشعرون بتسام روحى له شكر موجه إلى الله تبارك وتعالى الواحد الأحد .

وتتحدث الوثائق عن حياة هذا السيد بما يشبه حياة السيد المسيح وقد استقرت فى الأذهان فكرة مؤداها أن هذا السيد أو المعلم كان ينزل عليه وحى الله ، ويقول ( ج . ل . تيتشر ) أحد أساتذة كمبردج إن أحد المراجع الأساسية فى ملفات البحر الأسود أن معلم البر والتقوى الذى يتحدث عنه الأسينيون هو نفسه يسوع المسيح ولا أحد غيره ، ويقول جون كلارك صاحب بحث ضاف عن الوثائق إنه من الممكن أن المسيح قد عاش قبل مائة سنة من التاريخ الذى أجمع الناس عليه حتى الآن وأن فى ذلك جوابا مقنعا للذين طالما

أعربوا عن شكوكهم فى الأدلة التاريخية الواردة عن مولد السيد المسيح لأنها قليلة ومليئة بالمتناقضات .

هذا وقد تجددت الدعوة فى الغرب إلى النظر فى نصوص العهد القديم التى لا تتفق مع الحقائق التى قدمتها هذه المكتشفات .

كذلك فإن بعثة دولية للآثار اكتشفت فى منطقة مناجم الملك سليمان بصحراء النقب : أن المصريين عاشوا فى هذه المنطقة منذ ٣٢٧١ عاما وبناء على هذا صرح البروفيسور بينور وتبرج أحد علماء الآثار بأن هذا الكشف يتطلب إعادة النظر فى العهد القديم ولم تمض على ذلك إلا سنوات قلائل حتى ظهر القس النصرانى ( بابك ) الذى نشرت صورته مجلة تايم الأمريكية على غلافها فى ( ١١ نوفمبر ١٩٦٦ ) مع بحث مطول تحت عنوان ( انقلاب أو ثورة ) أجراها القس بابك الذى أعلن أن السيد المسيح نبي وليس إلها ولا ابن الإله ، ويبدو أنه اعتمد فى بحثه على الوثائق التى ظهرت فى مغارة قمران بدليل أنه قصد بعد ذلك إلى هذه المنطقة فأقام بها فترة منقبا وباحثا حتى قضى نحيه وقد ألفت زوجته كتاباً معروفاً عن تجربته هذه .

وهكذا نجد من عشرات الوقائع والحفريات الأثرية أنها تصادق القرآن الكريم ، هذه الحفريات التى جرت فى هذه المنطقة الممتدة من بابل إلى الشام إلى مصر إلى الجزيرة العربية وخاصة منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وحيث انتشرت ذريته إسماعيل وإسحاق ، وقد كشفت هذ الحفريات كثيرا من أخطاء تلك الكتب القديمة التى كتبت فى الأغلب وفق هوى خاص وفى محاولة خاصة لإعطاء جماعة معينة وضعا خاصا من أحداث التاريخ .

كما ظهرت جماعة الأرويسيين فى العرب الذين أعلنوا أن السيد المسيح هو نبي الله ، ورسوله وأنه لم يقتل ولم يصلب ولكن رفعه الله إليه وأنه حمل لواء الدعوة إلى توحيد الله ولم يدع الألوهية وأنه برىء من التثليث ، وكان القرآن قبل أربعة عشر قرنا قد فصل فى هذه القضية وأنكر ما يسمى بالخطيئة الأصلية التى قالوا : إن عيسى جاء ليكفر عنها وهى ما نسب إلى آدم عليه السلام ، وقد أبان القرآن الكريم أن آدم أخطأ ثم تاب الله عليه وأنه ليس من شأن خطيئة أى إنسان أن تصيب إنسانا آخر ، كما كشفت الأبحاث التى أجريت

على مومياء فرعون الموجودة بالمتحف المصرى وجود كسور ورضوض فى مناطق كثيرة من جسمه دلت على أنه مات غريقاً وذلك مصداق قوله تعالى ﴿فاليوم نتجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾ [سورة يونس : الآية ٩٢] كذلك كشف القرآن عن زيف النظرية التى وضعها التلموديون بالادعاء بأن البشرية كانت وثنية ثم وحدت ، فالقرآن يؤكد أن البشرية كانت موحدة منذ يومها الأول وأن العهود المختلفة واجهت رسالات الأنبياء بالتوحيد وموجات الوثنية .

واليوم وقد جاءت كشوف الباحثين وعلماء الآثار والنباتات القديمة وعلم السلالات وأصول الشعوب جميعها مؤكدة لحقائق القرآن ، ناقضة ومزيفة لما ورد فى بعض الكتب القديمة ، فقد أثبت البحث العلمى أن ما جاء فى القرآن لم يكن يعرفه أحد فى فترة نزوله ولذلك فإنه لابد أن يكون من مصدر أعلى من الرسول الذى بلغه للناس .  
وهنا منطلق البحث كيف يمكن أن تظل التوراة مصدرا للبحوث بعد أن ثبت فسادها وزيف العلم التجريبي والكشوف الأثرية ما أورده من نظريات عن بدء الخليقة وعن تاريخ الأمم ، وقد تبين أن ما جاء بها أشتات من تراث الأمم القديمة وأساطيرها .  
ولقد آن الأوان لأن يعلن علماء المسلمين فى مؤتمر عالمى يوم الحج الأكبر : أن القرآن وحده هو المصدر الأساسى للتاريخ القديم ومنطلق البحث للعلوم التجريبية والعلوم الإنسانية جميعا .

## (٢٤) العقيدة والشريعة فى الإسلام تأليف

### المستشرق اليهودى جولد زيهر :

يمثل المستشرق اليهودى جولد زيهر أكبر حملة حاقدة على الإسلام ، ممثلة فى الهجوم على السنة النبوية والافتراء عليها فى مجموعة كتبه وقد لخصها فى كتابه ( العقيدة والشريعة فى الإسلام ) الذى استطاع الدكتور طه حسين عندما كان مشرفا على الدار اليهودية فى القاهرة ١٩٤٦ - دار الكاتب المصرى لليهودى هرارى وشركاه - استطاع إغراء هؤلاء العلماء الثلاثة بترجمة الكتاب وقد قاموا بالترجمة وإن لم يقوموا بتصحيح هذه الأخطاء أو دفع هذه السموم إلا بقدر يسير من التعليق فى الهامش ، وقد تناول هذه الأفكار

ثلاثة من علمائنا : هم الدكتور مصطفى السباعي في كتابه ( السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ) والشيخ محمد الغزالي في كتابه ( دفاع عن الشريعة ) والدكتورة بنت الشاطئ في كتابها ( الإسرائيليات والغزو الفكري ) .

ولما كان الدكتور مصطفى السباعي هو أسبقهم إلى هذا فقد آثرنا تقديم ملخص دراسته ، التي شملت كل ما وجه إلى السنة في كتابه هذا وفي كتابه الآخر دراسات إسلامية ، وملخص الاتهامات كما أوردها جولد زيهر كما يلي :

**أولاً :** أن القسم الأكبر من الحديث ليس صحيحاً ، أنه وثيقة الإسلام في عهده الأول ، ولكنه أثر من آثار جهود المسلمين في عصر النضوج ، وأنه لما وقعت الخصومة بين الأمويين والعلماء الأتقياء أخذ هؤلاء يشتغلون بجمع الحديث والسنة ، ونظراً لأن ما وقع في أيديهم لم يكن ليسعفهم في تحقيق أغراضهم فقد أخذوا يخترعون من عندهم أحاديث رأوها مرغوباً فيها ولا تتنافى والروح الإسلامية ، كذلك فإن الحكومة إذا ما أرادت أن تعمم رأياً أو تسكت هؤلاء الاتقياء أتت أيضاً بالحديث الموافق لوجهات نظرها فكانت تعمل ما يعملها خصوصاً .

**ثانياً :** اتهم جولد زيهر الإمام الزهري بأنه أعان الأمويين على وضع أحاديث تؤيد وجهة نظره في منع الناس من الحج أيام فتنة ابن الزبير وتوجيههم إلى قبة الصخرة في المسجد الأقصى بدلاً عن الكعبة ، وأن الزهري كان صديقاً لعبد الملك بن مروان ، وكان يتردد عليه ، وأن الأحاديث التي وردت في فضائل بيت المقدس مروية عن طريق الزهري فقط .

**ثالثاً :** روى جولد زيهر ، أن الزهري قال : لقد أكرهنا هؤلاء الأمراء على أن تكتب ( أحاديث ) .

يقول الدكتور مصطفى السباعي : لست أدري كيف يجرؤ جولد زيهر على القول بأن القسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة للتطور الديني والسياسي والاجتماعي للإسلام في القرنين الأول والثاني ، مع أن النقول الثابتة تكذبه ، ومع أن رسول الله ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد وضع الأسس الكاملة لبنين الإسلام الشامخ ، بما أنزل الله عليه في كتابه ، وبما سنه عليه الصلاة والسلام من سنن وشرائع وقوانين شاملة وافية ، حتى قال ﷺ قبيل وفاته : « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما : كتاب الله



وستنتي « وقال : « لقد تركتكم على الحنيفة السمحة ليلها كنهارها » .  
ومن المعلوم أن من أواخر ما نزل على النبي ﷺ من كتاب الله تبارك وتعالى : ﴿ اليوم  
أكملت لكم دينكم وأنتم على نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [ سورة المائدة :  
الآية ٣ ] ، وذلك يعنى : كمال الإسلام وتمامه .

فما توفي رسول الله ﷺ ، إلا وقد كان الإسلام ناضجا تاما لا طفلا يافعا كما يدعى  
هذا المستشرق ، نعم ، لقد كان من آثار الفتوحات الإسلامية أن واجه المشرعين المسلمين  
جزئيات وحوادث لم ينص على بعضها فى القرآن والسنة ، فاعملوا آراءهم فيها قياسا  
واستنباطا حتى وضعوا لها الأحكام وهم فى ذلك لم يخرجوا عن دائرة الإسلام وتعاليمه ،  
على أن الباحث المنصف يجد أن المسلمين فى مختلف بقاع الأرض التى وصلوا إليها ،  
كانوا يتعبدون عبادة واحدة ويتعاملون بأحكام واحدة ، و يقيمون أسس أسرهم ويوتهم على  
أساس واحد ، ولو كان الحديث أو القسم الأكبر منه نتيجة للتطور الدينى فى القرنين  
الأولين للزم حتما ألا تتحد عبادة المسلم فى شمال إفريقيا مع عبادة المسلم فى جنوب  
الصين ، إذ أن البيئة فى كل منهما مختلفة تمام الاختلاف .

أما قيام المذاهب بعد القرن الأول وتعددتها فذلك بلا شك أثر للكتاب والسنة والمدارس  
الصحابية فى فهم كتاب الله والسنة ، أما الكتاب فقد كان محفوظا متواترا بينهم ، وأما  
السنة فلا ترى قولا لإمام من أئمة المذاهب فى القرنين الثانى والثالث إلا وقد سبقه إليه  
صحابى أو تابعى وذلك قبل أن يتطور الدين - كما زعم هذا المستشرق - تطورا بالغ الأثر ،  
وفى هذا ما يقضى على الشبهة من أساسها .

#### نظرية باطلة :

ثانياً : يقيم جولد زيهير أساس نظريته على مدى الخلاف الذى زعم أنه كان قائما بين  
الأمويين والعلماء الانقياء وقد حرص على أن يصور لنا الأمويين جماعة دينيين ليس لهم  
هم إلا الفتح والاستعمار وأنهم كانوا فى حياتهم العادية جاهليين لا ينتمون إلى تعاليم  
الإسلام وأدابه بصلة ، وهذا افتراء على الواقع والتاريخ ، ومن المسلم به أن ما بين أيدينا من  
نصوص تاريخ العصر الأموى ، إنما وضعت فى العصر العباسى ، وقد كان عصرا مشيعا  
بالعداوة لبنى أمية ولعبت الشائعات التى أثارها صنائع العباسيين عن الأمويين وخلفائهم دورا

خطيرا في التاريخ ، إذ احتلت مكانتها في الكتب وغدت حقائق ، في نظر كثير من الناس ، وهي لا تعدو أن تكون أخبارا تناقلتها الألسنة دون تحقيق وهي من وضع صنائع العباسيين وغلاة الشيعة والروافض ، فلا يصح الاعتماد عليها بدون تمحيص على كتب الأخبار والتاريخ فيما يتعلق بالأمويين .

ومع ذلك فإننا نجد نصوصا كثيرة تكذب ما رمى به هذا المستشرق خلفاء بني أمية من انحراف عن الإسلام وتحد لأحكامه ، فابن سعد يروى لنا في طبقاته عن نسلك عبد الملك وتقواه قبل الخلافة ما جعل الناس يلقبونه بحمامة المسجد ، ولما جاء الناس لمبايعته كان يتلو القرآن على مصباح ضئيل ، وقيل مثل ذلك عن الوليد بن عبد الملك الذي نشأت في عصره أكثر المساجد المعروفة ، وقال مثل ذلك في بقية الخلفاء ما عدا يزيد بن معاوية ، فلقد كان على ما يظهر منحرفا بعض الانحراف ، ومن مفتريات صنائع العباسيين ، ما رموا به الوليد الذي افتروا عليه أنه رمى كتاب الله ومزقه ، والتاريخ يذكر بكثير من الإعجاب فتوحات الأمويين ، حتى أن رقعة الإسلام في العصر العباسي لم تزد كثيرا عما كانت عليه في العصر الأموي ، وكان أمراء الأمويين على رأس الجيوش الغازية في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر شريعته فلماذا يعاديه ( العلماء ) ؟ ولماذا يتهمون هؤلاء بأنهم لم يكونوا يفهمون الإسلام ؟

فما أقامه المستشرق من نظرية الوضع في الحديث بناء على اشتداد العداء بين الأمويين والعلماء الأتقياء ، لا أساس له من الصحة ، نعم ، لقد كان العداء بينهم وبين زعماء الخوارج والعلويين قويا مستحكما ، ولكن هؤلاء غير العلماء الذين نهضوا لجمع الحديث ، وتدوينه وروايته ونقده ، مثل سعيد بن المسيب ، وأبي بكر بن عبد الرحمن ، وعبيد الله بن عتبة ، وسالم مولى عبد الله بن عمر ، ونافع مولى ابن عمر ، وسليمان بن يسار ، وعلقمة والحسن البصري ، إلخ ، فهؤلاء لم يصطدموا مع الأمويين في معارك ، ولا أثر عنهم أنهم تصدوا لخصومة الأمويين .

وقصارى القول أن هذا المستشرق إن عنى بالعلماء الذين وقعت الخصومة بينهم وبين الأمويين أنهم هم زعماء الخوارج والعلويين ، فنعم ، ولكن هذا لا علاقة له بالعلماء الذين دأبوا على نشر السنة وحفظها وتنقيتها ، وإن أراد بهم أمثال عطاء ونافع وسعيد والحسن والزهرى ومكحول وقتادة ، فكذب وافتراء يرده التاريخ ويأباه كل الإباء .

### هل كان علماء المدينة وضاعين ؟

كذلك فإن رأيه باطل في أن علماء المدينة هم الذين بدءوا بحركة الوضع ليقاوموا الأمويين ، وإذا كان علماء المدينة فعلوا ذلك كما يزعم ، فهل كانوا هم كل علماء المسلمين في هذا العصر ؟

ألم يكن في مكة ودمشق والكوفة والبصرة ومصر وأمصار الإسلام الأخرى صحابة وعلماء أيضا ، فهل شارك هؤلاء علماء المدينة في الوضع وكيف تم ذلك ؟ وأين هذا المؤتمر الذي ضمهم حتى اتخذوا فيه قرار الوضع ؟ وإن كانوا لم يشاركوا علماء المدينة في ذلك فكيف سكتوا عنهم ؟ وكيف نقلوا حديثهم ؟ وأين هو في التاريخ إنكارهم على هؤلاء العلماء ؟ بل إنا لنجد على عكس ذلك أن علماء الأمصار جميعا يعترفون بأن حديث الحجاز أصح حديث وأقواه .

لقد تتبع علماءنا الوضعاء في الحديث ورموهم بالزندقة والفسوق ، فلم يعجب هذا المستشرق هذا الوصف فأطلق عليهم ( العلماء الأتقياء ) ثم زاد على ذلك أن مقررهم كان في المدينة وما كان في المدينة حقا إلا كل عالم وتقى ، ولكن بالمعنى الذي يفهمه المسلمون من العلم والتقوى وهو الاجتهاد في دين الله ، والصدق في شريعته ومحاربة الكذابين الوضعاء لا بالمعنى الذي يفهمه هذا المستشرق ، وهو الدس في حديث رسول الله ﷺ والافتراء عليه .

### هل تدخلت الدولة الأموية في وضع الحديث ؟

وهذه دعوى مدسوسة لا وجود لها إلا في خيال كاتبها فما روى لنا التاريخ أن الحكومة الأموية وضعت الأحاديث لتعمم بها رأيا من آرائها ، ونحن نسأله أين هي تلك الأحاديث التي وضعتها الحكومة ؟ إن علماءنا اعتادوا ألا ينقلوا حديثا إلا بسنده ، وما هي أسانيد الأحاديث الصحيحة محفوظة في كتب السنة ، ولا نجد في حديث واحد من آلافها الكثيرة في سننه عبد الملك أو يزيد أو الوليد ، أو أحد عمالهم كالحجاج وخالد القسري ، فأين ضاع ذلك في زوايا التاريخ لو كان له وجود ؟

\*\*\*

### اتهامات حول الإمام الزهري :

ولقد كان من أكبر مؤامرات هذا اليهودي المستشرق اتهامه لأكبر إمام من أئمة السنة في عصره ، الإمام الزهري ، بل على أول من دون السنة من التابعين ، لنرى ما فيها من خبيث ولؤم ودس وتحريف ، وأنها خطة مبيتة من هذا المستشرق أن يهاجم أركان السنة واحدا بعد آخر ، فلقد هاجم أكبر صحابي يروي الحديث عن رسول الله ﷺ وهو أبو هريرة رضى الله عنه ، حتى إذا فرغ من تهديمه جاء ليهدم ركن السنة في عصر التابعين .

ولقد كان الزهري عالما عملاقا ، له مكانته في العلم ، ولم يتهم أحد من العلماء الزهري لا في دينه ولا أمانته ولا صدقه في الحديث قبل هذا المستشرق اليهودي المتعصب جولد زيهير .

يزعم جولد زيهير أن عبد الملك بنى قبة الصخرة ليحول بين أهل الشام والعراق ، وبين الحج إلى الكعبة ، وأنه أراد أن يلبس عمله هذا ثوبا دينيا ، فوضع له صديقه الزهري حديث : « لا تشد الرحال إلا لثلاث » . . . إلخ ، ولكن المؤرخين الثقات مجمعون على أن الذي بنى قبة الصخرة ، هو الوليد بن عبد الملك ، وليس عبد الملك نفسه ، ( ذكر ذلك ابن عساکر والطبري وابن الأثير ، وابن خلدون ، وابن كثير ، وغيرهم ) ولا توجد رواية واحدة تنسب بناءها إلى عبد الملك ، ولو كان بناؤها كما يزعم جولد زيهير لتكون بمثابة الكعبة ، أو بدلا من الكعبة ، لكان ذلك حادثا من أعظم الحوادث التي لا يعقل أن يمر عليها المؤرخون مر الكرام ، كذلك فإن نص الحادثة كما ساقها جولد زيهير باطل كل البطلان ، لأن بناء شيء ليُشجج الناس إليه كفر صريح ، فكيف يقدم عبد الملك عليه وهو الذي يلقب بحمامة المسجد لكثرة عبادته .

والأهم من ذلك فيما يدحض هذه الدعوى الباطلة أن الزهري ولد سنة إحدى وخمسين أو ثمانية وخمسين ، ومقتل عبد الله بن الزبير كان سنة ثلاثة وسبعين ، فيكون عمر الزهري حينذاك على الرواية الأولى اثنين وعشرين عاما ، وعلى الثانية خمسة عشر عاما ، فهل من المعقول أن يكون الزهري في تلك السن ذائع الصيت عند الأمة الإسلامية بحيث تتلقى منه بالقبول ، حديثا موضوعا يدعوا فيه للحج إلى القبة بدلا من الكعبة .

كذلك فإن نصوص التاريخ قاطعة بأن الزهري في عهد ابن الزبير لم يكن يعرف عبد

الملك ولا رآه ، فالذهبي يذكر لنا أن الزهرى وفد أول مرة على عبد الملك فى حدود سنة ثمانين ، وابن عساكر روى أن ذلك كان سنة اثنتين وثمانين ، فمعرفة الزهرى لعبد الملك لأول مرة إنما كانت بعد مقتل ابن الزبير ببضع سنوات ، وقد كان يومئذ شابا بحيث امتحنه عبد الملك ثم نصحه أن يطلب العلم فى دور الأنصار ، فكيف يصح الزعم بأن الزهرى أجاب رغبة صديقه عبد الملك فوضع له حديث بيت المقدس ليحج الناس إلى القبة فى عهد ابن الزبير .

أما حديث ( لا تشد الرحال ) فقد روته الكتب الستة كلها ، وهو مروى عن طرق مختلفة غير طريق الزهرى ، فالزهرى لم ينفرد برواية الحديث كما يزعم ( جولد زيهير ) بل شاركه فيه غيره .

زعم جولد زيهير أن الزهرى اعترف اعترافا خطيرا فى قوله ( إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة أحاديث ) وإن ذلك يفهم منه استعداد الزهرى لأن يكسو رغبات الحكومة باسمه المعترف به عند الأمة الإسلامية ، ولقد كان الزهرى أبعد الناس عن الرضوخ إلى أهواء الحاكمين ، أما هذا النص الذى نقله ( جولد زيهير ) ففيه تحريف بسيط يقلب المعنى رأسا على عقب ، وأصله كما فى ابن عساكر وابن سعد ، أن الزهرى كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس ، ويظهر أنه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم ولا يعتمدوا على الكتب ، فلما طلب منه هشام وأصر على أن يملأ على ولده ليمتحن حفظه وأملأ عليه أربعمئة حديث ، خرج من عند هشام وقال بأعلى صوته .

أيها الناس ، إنا كنا منعناكم أمرا قد بذلناه الآن لهؤلاء ، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث .

هذا هو النص التاريخى لقول الزهرى ، فانظر كم الفرق بين أن يكون قول الزهرى كما روى - جولد زيهير - أكرهونا على كتابة أحاديث ، وبين أن يكون قوله كما رواه المؤرخون :

#### **أكرهونا على كتابة الأحاديث :**

ثم انظر إلى هذه الأمانة العلمية فى حذف ( أل ) من الأحاديث فقلبت الفضيلة رذيلة حيث كان النص الأصلى يدل على أمانة الزهرى وإخلاصه فى نشر العمل ، فلم يرض أن

يبدل للأمرء ما منعه عن عامة الناس إلا أن يبذله للناس جميعا ، فإذا أمانة هذا المستشرق  
تجعله ينسب للزهرى أنه وضع للأمرء ( أحاديث ) أكرهوه عليها ، فأين هذا من ذاك ؟  
نقول ( وهذا هو الاستشراق فى فكره ولؤمه ) .

### (٢٥) أشعار عمر الخيام :

استطارت شهرة العالم الفلكى الإسلامى عمر الخيام فجأة ، بعد أن كان واحدا من  
العلماء المسلمين فى مجال الكشوف الجغرافية ، ورصد الكواكب ، فأصبح شاعرا خطيرا  
فى مجال الدعوة إلى الخمر والإباحية والانطلاق ، وذلك عندما نشر ( فيتزجرالد ) الشاعر  
الإنجليزى مجموعة من الشعر الفارسى الملقق عام ١٥٨٩ نسيها إلى الخيام وقد جند الشاعر  
الإنجليزى ( فيتزجرالد ) عشرات من أساتذة الأدب فى الجامعات الإنجليزية وفى مقدمتهم  
( أ . ج . آربرى ) لهذه المؤامرة الخبيثة .

ومنذ ذلك الوقت وقد حرصت القوى التغريبية على ترجمتها إلى اللغة العربية ، فسلط  
عليها عدد كبير من الشعراء العرب الذين ترجموها ، وفى مقدمتهم البستاني والزهاوى  
ورامى والصافى النجفى والسباعى وأبو شادى ومحمد الهاشمى .

وأولتها الصحف اهتماما كبيرا ، وقد تبع ذلك اهتمام بالغ وتركيز أشد خطورة على  
اسم « الخيام » دفعا لهذا التيار الجديد وتعميقا له ، فصدرت طوابع البريد فى مختلف أنحاء  
أوربا باسمه وصورته ، وأنشأت الأندية الليلية الصاخبة تحت لوائه ، وكتبوا اسمه على أطراف  
البطاقات ، ( كارت بوستال ) تعظيما وتكريما لقصائد التحلل والمجون المنسوبة إليه .

### كشف الزيف :

وقد كان لهذا التيار أثره فى التعريف من جديد بالخيام فى نظر الشرقيين ( عربا  
ومسلمين ) بوصفه شاعرا ماجنا عريدا يدعو إلى اللذة ، وقد استمر ذلك زمنا طويلا ، قبل  
أن تكشف الدراسات الأصيلة ، والأبحاث العلمية الخالصة من الزيف عن كذب هذه  
الدعوى العريضة وفسادها ، وتبين أن الخيام لم يكن هو قائل كل هذا الشعر الذى نسب  
إليه ، ولم يكن هو فى حياته إنسانا خليعا ولا داعية إلى إباحية .

### فيتزجرالد هل زيف ؟

إن المراجعات الدقيقة التى أجريت منذ اللحظة الأولى كشفت عن أن ( فيتزجرالد )

حين وصلته المخطوطات الفارسية والهندية لم تكن بالوضوح الذى يركزها كلها حول عمر الخيام .

وإن هناك أخطاء بالغة فى الترجمة ، كذلك فإن هناك إشارة واضحة إلى أنه استوحى هذه النصوص ولم يترجمها ، كذلك فإن الدكتور ( ميلار ) نشر مقالا فى جريدة المورنج بوست قال فيها : إن شخصية عمر الخيام محاطة بغلالة من غموض وإبهام ، وقد نسجت حوله أساطير غامضة تدعو إلى الشك فى وجوده ، وجاء ببراهين أنكر فيها نسبة هذا الشعر إلى عمر الخيام .

وأشار الأستاذ ( همايون ) فى مقال له ترجم فى مجلة الثقافة ١٤ مارس ١٩٣٩ إلى الشك فى نسبة هذا الشعر إلى عمر الخيام ، وأن عددا كثيرا من قصائده منسوب إلى شعراء آخرين وكثير منهم أقدم عهدا من عمر الخيام ، وهنا تبدو ( دهشة ) المراجعين لهذا التركيز على عمر الخيام ، بينما هناك من شعراء إيران أمثال : حافظ وسعدى والطار من لم تنهيا لهم مثل هذه الفرصة .

وبدت الشكوك تتردد حول اتجاه هذه الرباعيات الخمسمائة المنسوبة إلى عمر الخيام وما تحمله من دعوة إلى التغزل بالخمير وحث الناس على تعاطيها والقول بأنها الدواء الناجح لآلام النفس ، بينما تكشف حياة عمر الخيام عن شخصية رجل مسلم عميق الإيمان بالله ، منصرف بكليته إلى العلوم الفلكية .

ومنذ ذلك الوقت الباكر كانت الإرهاصات كلها تشير بالشك ، وأصبح الاتهام حول هذه الرباعيات واضحا ، بل إن واحدا من مترجمي هذه الرباعيات وهو أحمد حامد الصراف كتب تحت عنوان ( هل كان عمر الخيام سكيما ) مقالا فى مجلة المقتطف ١٩٢٥ حاول من خلاله أن يصل إلى مفهوم باطنى زائف يختلف عن مفهوم الإسلام فى موضوع العقاب والجزاء والمغفرة ، والإرادة الجبرية مما تحمله فلسفات الغنوصية القديمة ، ولكنه كان شاكا فى نسبة هذا الشعر إلى الخيام .

كذلك أشار لطفى جمعة ( البلاغ ٨ مايو ) إلى أنه لم يهتد أحد بعد إلى العدد الصحيح لتلك الرباعيات ولم يتأكد أحد من صحة ما هو منسوب منها كذبا إلى الخيام ، وقد استمر إلقاء الضوء على هذه الظاهرة سنوات طويلة لم يتوقف .

وقد أشار دكتور محمد موسى هندواى فى محاضرة له ألقاها فى مارس ١٩٢٨ إلى أن

الرابعيات تحتوى على كثير من الاختلاف والانتحال ، مما يجعل ( الخيام ) أكبر مفترى عليه فى تاريخ الأدب .

ذلك العالم الرياضى العاقل المفلسف الحكيم المالك كل مشاعره ، خاصة فى الرابعة التى تدعو إلى احتساء الخمر وتمجيد الكأس إلى جوار رباعية أخرى فيها الاعتراف بالإله الواحد وفى الالتجاء إليه ، فكيف تستقيم النزوة الطائشة بجوار الحكمة السديدة .

إن الذين اتهموا أسرفوا فى الاتهام حتى حاكموا الخيام عن رباعيات لم تثبت نسبتها إليه ، فضلا عن التزيد فيما نشره .

وقد أشار إلى ما أورده ( عبد الحق فاضل ) فى بحثه عن الخيام قوله : ومن الحق على أن أنه إلى أمر هو أنى لست على يقين من أن هذه الرباعيات التى تقرأ هى رباعيات الخيام حقا ، فما من إنسان يسمعه أن يجزم بأن معشار تلك الرباعيات التى تعد بالآلوف والتى تكتظ بها النسخ المختلفة هى للخيام حقا .

وقال الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده فى بحث مستفيض عن الخيام إن هذا العالم الفلكى الذى اشترك فى إصلاح التقويم الفارسى ، وفى بناء المرصد للسلطان ملكشاه ، والذى ترجع شهرته الكبرى عند المؤرخين المعاصرين إلى علو قدمه فى الرياضيات وفى كثير من فروع العلم .

لذا نجد تلميذه نظامى يضعه فى القسم الخاص بالمنجمين والفلكيين ، لا فى القسم الخاص بالشعراء ، ويضعه البيهقى المؤرخ المعاصر للخيام والذى عرفه شخصيا بأنه الدستور الفيلسوف حجة الحق .

وهذان المؤرخان لا يذكرا شيئا يدل على أنه شاعر ، فضلا أن ينسبا إليه شيئا من الرباعيات المنشورة التى تحمل اسمه .

ولكن بعد أن انقضى على وفاة الخيام أكثر من قرنين ، أخذت تظهر مجموعات الرباعيات التى تنسب إليه ، وأخذ حجمها يتزايد مع الزمن ، وإن كان لم يذكر له قبل ذلك رباعيات ذات محتوى شكى إلحادى .

وإذا صرفنا النظر عما فى مجموعات الرباعيات التى ليس لدينا ما يثبت نسبها للخيام إثباتا يقينياً ، لأن كثيرا منها كما بين ذلك تشوكوفسكى فى بحث نقدى له عام ١٨٩٨



حيث ينسب بحجة أقدم أو أحسن أو مساوية إلى شعراء آخرين ، فإن ما فى المراجع غير المباشرة ، من رباعيات تنسب للخيام تدعو إلى الاعتقاد بأن له رباعيات من التى أضيفت إليه فيما بعد .

وهكذا تعددت الكتابات فى رد نسبة هذا الشعر إلى الخيام حتى تصل إلى البحث الذى قال ( الكلمة الحاسمة ) فى هذا الاتهام وهو كتاب كشف اللثام عن رباعيات الخيام للسيد أبو النصر مبشر الطرازى الحسنى الذى يقول إنه لم تكن للخيام رباعيات تزيد على عدة رباعيات ، يقال إنه أنشأها ترفيها لنفسه ، وقد زاد عليها المغرضون رباعيات كثيرة ، وضعوها أو أخذوها من هنا وهناك ، ونسبوا إليها ، هذه الرباعيات المتنكرة المخزية ليست من نظم عمر الخيام ، لأنها لا تتفق ومكانته العلمية .

ويعجب السيد الطرازى ( رحمه الله ) كيف يعرف عمر الخيام لا عن طريق مكانته العلمية الحقة ، وإنما عن طريق رباعيات مزعومة ، عبروا عنها برباعيات الخيام ووصفوها بأنها فلسفة الخيام ، فمنهم من قال إنه ( أبيقورى النزعة والميول ) ، ومنهم من سماه وابلد الشرق ( نسبة إلى أوسكار وابلد الكاتب الجانح ) ومنهم من ذهب إلى أنه معرى المذهب ، ومنهم من رأى أنه يباحى وأنه مستهزئ بأحكام الدين .

كما طعن فيه البعض بأنه ( دهرى ) وزعم البعض أنه تناسخى وطن بعض أنه باطنى ، ولا أدرى أو تشاؤمى ، وجيرى وادعى آخر أنه ناثر على كل شىء ، على الدين وعلى الأخلاق وعلى العقل أيضا .

وليس لهم دليل على ذلك إلا تلك الرباعيات التى نسبت إلى شخصه ، وظنوا أنها من الحكيم عمر الخيام النيسابورى ومقولاته وآثاره .

ولقد كان عليهم أن يعرفوا الحكيم النيسابورى تحت ضوء الفحص العلمى الصحيح ، والنقد التاريخى الموثوق معتمدين على آثاره ومقولاته .

ويصل السيد الطرازى إلى القول بانتحال تلك الرباعيات بدلائل كثيرة ولا سيما التناقض بين معانيها واتجاهاتها ويعجب أن يعرب عمر الخيام فى ضوء رباعيات مترجمة على يد شاعر إنجليزى هو ( إدوارد فيتزجيرالد ) تلك الترجمة التى قام بها عام ١٨٥٦ ونشرها فى الغرب على أوسع نطاق ، وقد انساق المسلمون وراء تلك الفلسفة المزعومة

والخداعة ، وتأثروا بما فيها من المعانى المثيرة والاتجاهات المغرية والتحليلات الباطلة .  
وكشف الباحث ما وراء هذه من هدف حين قال : إن أوائل الغربيين الذين اهتموا  
بالرباعيات إنما كانت تدفعهم فكرة استعمارية معتمدين فى ذلك على محض مصادفة  
ساقها القدر وقد خدمهم المستشرق فيتزجيرالد الذى تلقى الإشارة من قبل السادة الإنجليز .  
ويقول دكتور محمد موسى هنداوى : أنا مع الطرازى فى أن الاستعمار لا يترك وسيلة  
إلا استخدمها ولا سلاحا إلا استعمله .

ويقول الطرازى : « وإن الأغراض المقنعة وراء هذا هى إشاعة روح فن الرباعيات عن  
طريق شعر منسوب إلى مسلم ورباعيات مسكرة خليعة فيها دعوة صريحة وصارخة إلى تناول  
الصهباء ومجالسة الغادة الحسناء وإمرار الحياة بالعطالة والجمود والكسل والخمول والحرية  
المطلقة التى لا قيود فيها وفى ذلك مهاجمة واضحة لتعاليم الدين الإسلامى الحنيف » .

ويقول : إن الذين قاموا بذلك هم خواص الغربيين الماهرين ممن لهم علاقة بالتبشير  
المسيحى ومنهم المستشرق النمساوى هافر يرغستل الذى ترجم ٢٥ رباعية منها وكلها  
تخالف تعاليم الإسلام وتخدش مقدساته وذلك فى كتاب ( تاريخ الدولة العثمانية ) .

ولقد وجدوا فى هذه الرباعيات بغيتهم المنشودة فى الطعن على الدين الإسلامى ،  
والاستهزاء بتعاليمه المقدسة ، ولا سيما الجرأة على رسول الله ﷺ مستندين فى ذلك إلى  
مقولات - ولو موضوعة - منسوبة إلى رجل عظيم من عظماء الشرق وعالم من علماء  
الإسلام ، كما كسبوا مبالغ باهظة عن طريق بيع ترجماتهم وكتبهم فى الشرق والغرب  
ويقول الأستاذ الطرازى : كان فيتزجيرالد الشاعر الماهر الإنجليزى قد تلقى الإشارة من قبل  
بعض ساسة الإنجليز ، فقدم إلى المستعمر المحتال خدمة مشكورة ، ولكن تحت ستار  
الخدمة للأدب الغربى ، وذلك بترجمة تلك الرباعيات إلى النظم الإنجليزى ، وحذا حذوه  
( زوكوفسكى ) المستشرق الروسى وقد تفرد فيتزجيرالد بميزة خاصة ، فقد صور الرباعيات  
المستنكرة المخزية الخليعة بصورة خلابة ، وضمنها فى كلمات إنجليزية منظومة جذابة ،  
بحيث تخلب قلوب أهل الشرق ، ولا سيما الشباب الناشئ ورجال المستقبل ، وتكسب  
اهتمامهم نحوها من حيث طلاوتها اللفظية أولا ، والشهوات والنزعات النفسية ، ثانيا .  
وقد خدع فيتزجيرالد الشرق والشرقيين بهذه الخدعة السياسية فى ثوب ثقافى أدبى ،

ونجح معه الإنجليز بدهائهم المعروف فى السياسة الاستعمارية فى نشر هذه السموم الفتاكة بين أبناء الشرق عامة ، وخاصة أبناء مستعمرة الهند ، وجارتها إيران تحت ستار الأدب ودعاهم جميعا إلى تناول الخمر ومغازلة الحسان وملازمة السرور والغناء ومجانبة السعى والعمل ، وحثهم على الإباحية والزندقة بدعوى الحرية المطلقة ، الأمر الذى دفع الشرق إلى ما دفعه من التأخر وجعله مستعدا لقبول تدخل المستعمر فى شئونه الاقتصادية أولا ، والسياسية ثانيا ، ومما أدى إلى تأخر طائفة من الشرقيين ، وفساد أخلاقهم ، وابتعادهم عن كسب العلوم والفنون .

وقد تمكنوا ونجحوا فى تنفيذ خدعتهم فى صفوف أبناء الشرق ، ودفعوهم إلى التقدير والإعجاب بتلك الترجمة الخادعة للرباعيات حيث سارعوا إلى ترجمتها إلى العربية والأوردية .

ولقد حاولت الرباعيات أن تحيى بذكاء ورقة تعاليم الباطنية وأتباع حسن الصباح من إباحية شرب الخمر وجميع الملذات ، وإنكار النبوات والمعجزات ، والقول بقدم العالم وبإبطال القول بالمعاد والنشر من القبور ، وكون الجنة هى نعيم الدنيا ، ووصايا أخرى ترمى إلى هدم الشرائع وتثبيت دعائم الإلحاد .

ويؤكد الأستاذ الطرازى أنه ليس هناك أى سند تاريخى أو دليل علمى موثوق يثبت صدور تلك الرباعيات ، ولا سيما المستنكرة الخليعة منها ، عن الحكيم عمر الخيام النيسابورى ، وأن هذه الرباعيات التى نسبوها إليه جمعوها من هنا وهناك وطبعوها فى الشرق والغرب .

ولو كان للخيام رباعيات مثل هذه الرباعيات - ولا سيما المستنكرة الخليعة الخمرية - لما سكت عن روايتها المؤرخون الأقدمون ، حيث لا توجد نسخة مدونة لرباعيات الخيام ، إلا ما دون بعد مرور ثلاثة قرون ونصف قرن من وفاته ، وهى النسخ المعروفة بنسخة بودليان المحفوظة فى أوكسفورد ، وهم لا يعرفون مصدر هذه النسخة التى أخذ منها صاحبها ، الأمر الذى يدل على أنها موضوعة (١) .

( ١ ) كانت البداية ثمانين رباعية ، جرت وراءها الكثير حتى صارت خمسمائة . . المجلة .

ويلخص الأستاذ عبد اللطيف الجوهري معلقاً على كتاب الشيخ الطرازى أهم الخطوط العامة :

**أولاً :** انخداع الشرقيين ولا سيما الخياميين المتطرفين ، رجاء تخليصهم مما سموه ( فلسفة الخيام ) التى دفعت بهم إلى حضيض الأهواء والأوهام وساقطتهم نحو الفساد والانحلال ، ورمت بهم فى مسالك الجهل والضلال ، مع التنبيه على لعبة أعداء الإسلام ورجال الاستعمار وما لهم من دور خفى دقيق فى هذا المضمار .

**ثانياً :** لم يشر أحد من أصحاب التراجم إلى أن الخيام عرف بأنه يقرض الشعر حتى الإشارات الضعيفة التى وردت ، تدل على أنه إن كان له شعر فلا يمكن بحال أن ينحدر إلى مستوى الرباعيات الخارجة ، والتى تنسب إليه بلا حجة واضحة ، وهو من هو ، الحكيم الذى يجالس الخلفاء وينتج الرسائل فى التوحيد والفقه والرياضيات .

**ثالثاً :** رأى الغربيون أن معانى تلك الرباعيات وأهدافها متفقة مع أهواء الغرب فى شرب الخمر ومصاحبة الغانيات وإمرار الحياة بحرية مطلقة مزعومة ، ووجد المختصون بشئون التبشير النصرانى فى الغرب فى هذه الرباعيات بغيتهم المنشودة ، فى الطعن على الدين الإسلامى والاستهزاء بتعاليمه القدسية ، ولا سيما الجراءة على الرسول ﷺ وجدوا بغيتهم عن طريق عظيم شرقى مسلم<sup>(١)</sup> .

## (٢٦) دارون ونظرية التطور :

كانت نظرية دارون من أولى السموم التى طرحها الفكر الغربى الوافد فى أفق الفكر الإسلامى ، لقد جاءت مع الرياح الصفراء التى هبت على بلاد المسلمين بعد الاحتلال البريطانى لمصر ومع مقدم جماعة خريجي الإرساليات التبشيرية ، صروف ونمر ومكاريوس أصحاب المقطم والمقتطف ، ومعهم الدكتور شيلى شمىل الذى كانت مهمته الدعوة لنظرية دارون والذى ترجم أشد الكتب الغربية تطرفاً فى فهم هذا المذهب - كتاب « بيختر » الذى يعد من أشد المتطرفين فى المذهب المادى الملحد .

( ١ ) لقد طبعت هذه الرباعيات مزينة بالصور الرمزية أو المباشرة لعدد من الفنانين وأخرجت فى ثياب طباعة فاخرة وباهرة . . . المجلة .

وهكذا كان شبلى شميل رائد هذه المدرسة التى سار فى طريقها فرح أنطون ، وإسماعيل مظهر وسلامة موسى ، مع اختلاف فى الفرعيات ومحاولة امتصاص سخط المسلمين ، حتى أصحاب المقتطف حملة رسالة التغريب وأعداء اللغة العربية والقيم الإسلامية الأساسية ، كانوا يظهرون الخلاف معه ، وذلك أنه درس الطب ولم يدرس العلوم الطبيعية ، ولكنه بعد أن سافر إلى أوروبا وقع الحادث الذى غير حياته كلها ، فقد التقى هناك بأحد علماء المادية ، ذلك الذى استطاع أن يدفعه فى عنف نحو ذلك الطريق الذى جرى فيه ليصادم عقائد الأمة وإن كان خلافه فى الأساس قائما مع معتقداته فى مجال الفكر النصرانى الغربى .

لقد لقي أحد علماء المادية الذى قال له كلمة هدمت معتقداته هدمًا ، لقد كانت حملة شبلى شميل على النظم الاجتماعية والقيم والدين المنزل أساسا ولم يكن مذهب دارون ودراسته إلا مداخل إلى هذه الحملة المادية التى كان يراد بها أن تحتاح الإسلام أساسا ، وتقيم فلسفة الاجتماع على القوانين الطبيعية ، ولقد واجه السيد جمال الدين الأفغانى هذا المذهب عندما نشره الاستعمار البريطانى فى الهند وفى مصر بكتابه ( الرد على الدهريين ) وتناول الرد على شميل كثيرون فى مصر والبلاد العربية فى مقدمتهم العلامة فريد وجدى الذى وهب حياته لمهاجمة الفلسفة المادية وكشف زيفها .

ولقد حاول إسماعيل مظهر أن يقدم منهج النشوء والارتقاء على أنه ليس معارضا للأديان فى محاولة أخرى لتقبله بين الجماهير ولكنه فشل ، كذلك فقد عرض سلامة موسى نظرية التطور ولم تلق رواجًا وقابلها الناس بمزيد من الشك وعدم الثقة ، فقد كانت تخالف مفهوم خلق الإنسان الذى جاء به القرآن الكريم واضحا حين أعلن أن الإنسان خلق مستقلا تمام الاستقلال عن الأنواع الأخرى .

#### الاستعمار ونظرية دارون :

ولقد فرضت القوى الاستعمارية ( نظرية التطور ) ومفاهيم دارون على دراسات العلوم الطبيعية فى أغلب بلاد العالم الإسلامى ، وأحدثت آثارا بعيدة من الشكوك والازدواج بينها وبين مفاهيم الإسلام عن قصة الخلق ، وقد تعالت الصيحات فى الغرب تطالب بإسقاط

هذه النظرية من مناهج الدراسة ، وفى الغرب رفعت القضايا فى المحاكم للفصل فى هذا الأمر .

\* \* \* \*

#### الدارونية ونظرية التطور :

أولاً : ليس الخطر الحقيقى فى نظرية ( دارون ) ذلك أن دارون نفسه أعلن أنه على غير يقين من دعواه عن الصلة بين القرد والإنسان ، وقد قال فى صراحة تامة : إن هناك حلقة مفقودة لم يصل إليها ، ولكن الخطر فى علماء الفلسفة المادية الذين يصدر عن مفاهيم التسلمود والذين يطمعون فى إسقاط صفة الإنسانية عن البشرية وإحلال صفة « الحيوانية » عليها ، فهم الذين حملوا هذه الأفكار ووسعوها ودفعوها دفعا وفرضوها على علوم الاجتماع والنفس والأخلاق والدين والأدب ، كمنطلق للصهيونية اليهودية الراضية فى تدمير المجتمعات الإنسانية بنشر دعوى المادية والحيوانية وغيرها ، ومن هنا اصطنعت فكرة ( التطور المطلق ) الذى يعارض طبيعة الحياة ومفهوم الفطرة ومقررات الدين الحق ، ومن الجائز أن يكون ( دارون ) لم يكن يدرى مدى الخطورة من وراء قوله بأن الأجناس كلها من أصل واحد ، وأن الإنسان من أصل حيوانى ، فإنه قد فتح بابا خطيرا من الشبهة النقطة أعداء الإنسان ، وساروا به للدعوة إلى « حيوانية الإنسان » الذى كرمه الله تبارك وتعالى وفضله على كثير من خلقه ، ولم ينتبه دارون إلى مفهوم الدين الحق الذى أعلن كرامة الإنسان واستخلافه فى الأرض ، ولقد كان لنظرية التطور وتحولها من نظرية بيولوجية إلى نظرية اجتماعية أبعد الأثر فى ضرب القيم الثابت ومنها العقيدة والشرعية والأخلاق .

ثالثاً : إن دارون لم يفهم العلاقة بين الطبيعة والإنسان ولقصور نظريته وقلة أدلته أكبر من شأن التنارع ( تنارع البقاء ) وقد حال هذا بينه وبين رؤية ( التعاون ) بين الحيوان والنبات الذى هو أوسع وأكبر من التنارع .

ويرى العلماء أن ( دارون ) أخطأ خطأ فادحا عندما زعم أن تنارع البقاء هو كل شئ ، أو يكاد يكون كذلك ، فقد تبين للعلماء أن التعاون فى الطبيعة أكثر من التنارع بل لا يكاد يكون هناك تنارع فى عالم الحيوان بالمعنى البشرى الذى نفهمه لهذه الكلمة .

**ثالثاً :** فساد نظرية الانتخاب الطبيعي التي جاء بها دارون ، فقد أعلن العلماء في الأخير : أن هذا التفسير الذي تقدمه نظرية التطور والارتقاء قد اهتزت أساماته من جذورها ، وقد انفتح الباب أمام نظرية جديدة تفسر اختلاف أجناس المخلوقات .

ويقول جين روستند ( عضو الأكاديمية الفرنسية للعلوم وعميد علماء البيولوجيا الفرنسية ) إن نظرية التطور التقليدية بمعناها الحرفي قد غدت الآن شيئا ماضيا ، وأنه لا يجوز تفسير التطور بمثل هذه التعبيرات السطحية التافهة كاصطفاء الطبيعة للجنس الأصح مجرد أن علماء البيولوجيا قد أحققوا حتى الوقت الحاضر في إثبات ما إذا كان بالمستطاع التأثير على تغيير الأجناس أو التحكم به أو خلقه عن طريق العملية نفسها .

**رابعاً :** راجع العلماء مفهوم التطور المطلق الذي أضفى على نظرية التطور فائتيما أن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير وإنما الذي تغير هو الصور ، فنزعة الطعام لا تزال ثابتة وإنما الذي تغير هو صور الطعام وكذلك فيما يتعلق بنزعة اللباس والقتال واتخاذ السكن ، وبرهنوا على أن التطور ليس قانونا أخلاقيا وليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه فإن التطور قانون اجتماعي يتحرك في إطار الثوابت ولا يقتضى مطلقا تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة والتطور غير التطوير ، والتطور ليس كله تقدما والجديد ليس الأصح دوما ، وهم بذلك قد زيفوا زعم ( سبنسر ) بأن التطور الاجتماعي تطور حتمي لا شعوري .

**خامساً :** كشف الباحثون أن الدارونية قد استغلت في محيط السياسة مما أدى إلى إيجاد جو مضطرب أطلت منه مذاهب العنصرية ، فقد كان قول دارون بأن العناصر الضعيفة يجب أن تموت أو تستأصل مما استغلته حركة الاستعمار العالمي كنظرية لتطبيقها على البلاد المحتلة .

**سادساً :** اتخذت نظرية التولد الذاتي ( التي قال بها دارون ولا مارك وارنست هيكل ) منطلقا إلى الإلحاد وجعلها البعض سندا في إنكار العقيدة الدينية ، واتخذت منها فلسفة ضالة لنفي الخالق وإعطاء المادة صفة القادر على كل شيء ، ومن ثم دعا هيكل إلى ( تأليه الطبيعة ) وإنكار وجود الله تبارك وتعالى والقول بوحدة الوجود .

**سابعاً :** اتخذت فكرة التطور وسيلة للقضاء على الأديان والقوانين وذاتية الأمم ، باعتبار أن كل شيء بدا ناقصا شائها يثير السخرية والاحتقار ثم تطور ، فلا قداسة إذن لديه ، ولا

وطنية ولا قانون ولا مقدس من المقدسات وبدا كأنما أخرجت النظرية لخدمة رجال الاستعمار والسياسة أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء ، فقد تركت آثار الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب ، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره في مخططات الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها ، وظهرت من خلال ذلك نظرية التمييز العنصري والاستعلاء باللون ، وفكرة الشعوب المختارة ( الألمان واليهود ) كما صيغت من خلال ذلك نظرية القوة عند ( نيتشه ) ومن ذهب مذهبه من علماء الجerman ، وبها انتفع دعاة الأرستقراطية فوجدوا فيها سلاحهم فأعلنوا أنفسهم بأنهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الأجداد سادة البشر ومالكي العروش وصانعي التاريخ ، وتلقفها معلنوا الحرب على الأديان فأخذوا يضربون بها جدار الدين ويعلمون من شأن العلم عليه .

ثامنا : أكد العلماء أن التطور قانون اجتماعي وليس قانونا أخلاقيا وأنه يتحرك في دائرة الثوابت ولكنه لا يقتضى مطلقا تفضيل الطور الأخير على الطور السابق له ، فليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه ، لأن التطور في الحياة قد يكون ارتقاء وقد يكون تراجعا وانتكاسا .

تبيين من عبارة بروتوكولات صهيون « إن دارون ليس يهوديا ، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها في تخطيط الدين ، لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لأرائهم ، يتبين من هذه العبارة الهدف من ترويج نظرية دارون ، ولما كان كل باطل لا يستمر ولا بد أن تخترقه عوامل الفساد فقد تكشف اليوم وبعد مائة سنة فساد نظرية دارون ، وقد أعلن العلماء أنها أسطورة قد انهارت ، كذلك فقد أثبتت الحفريات التي ظهرت في مختلف البقاع ، أن الإنسان خلق خلقا مستقلا وأنه لم ينحدر من فصيلة القرد ، وقد عارض العلماء البيولوجيون افتراض أن الخليقة كلها من أصل واحد وأن الإنسان فرع من فصيلة الحيوان في أرقى درجاته وهو القرد ، وعرف أن قوى كبرى كانت وراء ترويج ذلك ، وقد جاء العلماء اليوم ليعلموا في صراحة ، تامة أنه لا علاقة للإنسان بالقرد ولا تجانس بينهما .

#### أولا : البحث العلمى أسقط النظرية :

١ - قال جال بيغوتو رئيس المجمع العلمى الفرنسى : لقد وقف هذا العالم نصف قرن تقريبا على دراسة أصل الإنسان واستطاع أن يؤكد أخيرا أن الإنسان ليست له علاقة



تجانس بالقرود ، وأن النظرية التي تقول بذلك مفتقرة إلى البرهان الحاسم ، وأن هذه المشابهات بين القرد والإنسان غير كافية للجزم بوجود أصل مشترك للإنسان والقرد .

#### ثانيا : الحفريات أسقطت النظرية :

٢ - الدكتور رونالد جونسون : أستاذ علم الأجناس البشرية يقول : إن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بنسبة ٩٩,٩٪ من الدقة إن الإنسان سار منتصباً على قدميه منذ بداية تاريخه الإنساني منذ ثلاثة ملايين سنة ، أعلن ذلك في مؤتمر صحفى ( ١٩٧٤ ) وهو يمسك في يديه بخمس قطع من العظام يرجع تاريخها إلى ثلاثة ملايين سنة عثر عليها في أواخر عام ١٩٧٣ في أثيوبيا ، وقد ظهر الإنسان كائناً فريداً في نوعه وسط دنيا من الوحوش الكاسرة ، وأن هذه العظام قد سدت الثغرة التي ظل العلماء يتحدثون عنها تحت اسم ( الحلقة المفقودة ) وأن ما وصل إليه الدكتور رونالد جونسون كان خاتمة حفريات كثيرة تمت خلال سنوات ١٩٦٩ وما بعدها في كينيا وواى أفا في الحبشة ومن أهم ما تقرر أن الجماجم فريدة في نوعها تتميز بسعة الدماغ مما جعل العلماء يخرجون بانطباع عام وهو أن الإنسان لم ينحدر من سلالة مشتركة تطورت مع الوقت إنما كانت له سلالته الخاصة المستقلة .

٣ - الدكتور بير بيرسون الأخصائى فى علم الوراثة ( جامعة إكسفورد ) أصدر بالاشتراك مع ثلاثة من زملائه قانوناً اشتهر باسم « قانون القرد » حظروا فيه على المدارس والجامعات أن تدرس المذهب الداروينى - مذهب النشوء والارتقاء - وذلك لبطلان النظرية التي كانت تقول : إن الإنسان هو الحلقة الأخيرة من تطور انطلق من أول أنواع القرد .

وبالجملة فقد أصبح العلماء الآن عن طريق الكشف الأثرية وتقريرات العلم التجريبي - لا الفلسفة - متأكدين مما جاء به الدين الحق وجاء به الإسلام من أن الإنسان خلق مستقلاً وأنه سيد المخلوقات وصدق الله العظيم : ﴿ سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [ سورة فصلت : الآية ٥٣ ] .

ومع ذلك فإن البحث لم يتوقف لتأكيد فساد نظرية دارون ففي السنوات الأخيرة رويت تجربة العالم ( ليكى ) مدير المتحف الوطنى فى كينيا التي استمرت ثمانية وعشرين عاماً قبل أن يصل إلى اكتشافه العام وكان أول اكتشافاته عام ١٩٥٩ عندما عثر على جمجمة

وبقايا عظام متحجرة في شمال كينيا لها صفات تختلف كثيرا عن صفات القردة ثم اكتشف بعد ذلك مجموعة لإنسان أسماه ( هوموهابلسي ) أى الرجل البدوى ومن عام ٦٠ - ١٩٦٤ اكتشف مجموعة من المخلوقات في جبل كينيا ، وهى تتميز بأصابع سبابة تشبه أصابع الإنسان وحجم مخه أكبر ثم اكتشف ( ليكي ) مجموعة وعظاما هزت الأوساط العلمية ، إذ بعد قياس عمرها الجيولوجى بواسطة أجهزة الإشعاع الذرية وجد أنها ترجع إلى مليون وستمائة سنة تقريبا وأهم ما يميزها هو حجم المخ ، فقد وجد أنه حوالى ٨٠ سنتيمترا أى ضعف حجم مخ القرد الجنوبي ويزيد عليه مليون سنة .

ثم أذاع العلماء بعد ذلك ما يلى :

أولا : أنه لا يوجد دليل علمى واحد من ألف على أن الإنسان من سلالات القردة ، وأن الإنسان منذ عشرة ملايين سنة يعيش منفردا وبعبدا جدا .

ثانيا : إن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع استقلالا تاما فمناها الحيوان الذى يمشى على أربع ومنها الزواحف التى تمشى على بطنها .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء ﴾ [ سورة النور : الآية ٤٥ ] .

ثالثا : أعلن العلماء ظهور الكشف العلمى الذى هدم نظرية التطور هدماً وهو اكتشاف وحدات الوراثة التى أثبتت استحالة تطور الكائن الحى وتحوله من نوع إلى آخر ، فقد ثبت أن هناك عوامل وراثية كامنة فى خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه وتحتّم أن يظل فى دائرة النوع الذى نشأ فيه فلا يخرج قط من نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد وكل ما يمكن أن يقع حسب نظريات الوراثة هو الارتقاء فى حدود النوع نفسه دون الانتقال إلى نوع آخر

هذا الكشف العلمى هو الذى أعدم نظرية دارون وأقبرها وقضى عليها .

\*\*\*

## (٢٧) اليهود فى جزيرة العرب : بقلم / إسرائيل ولفنسون

لقد ظلت هذه الشبهة قائمة منذ أصدر الدكتور إسرائيل ولفنسون « أبو ذئيب » كتابه « اليهود فى جزيرة العرب » عام ١٩٢٧ بمقدمة ضافية من الدكتور طه حسين وكان الكتاب عبارة عن أطروحة تقدم بها الباحث اليهودى إلى كلية الآداب تحت إشراف عميد الأدب الذى قدمها بتقديم باهر قال فيه :

الموضوع فى نفسه قيم جليل الخطر ، بعيد الأثر جدا فى التاريخ الأدبى السياسى والدينى للأمة العربية ، فليس من شك أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا فى الحياة العقلية الأدبية للجاهليين من أهل الحجاز وليس من شك فى أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود ، وفى أنها قد استحالَت من الحاجة والمحاولة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود فى بلاد العرب قبل الإسلام معروفا على وجهه إنما هى طائفة من الأخبار والأحاديث يروىها القصاص .

ثم يقول عميد الأدب مشيرا إلى « أبو ذئيب » كنت أرى فيه عناية خاصة بكل ما يتصل باليهود فى عهود السيطرة اليونانية والرومانية على العالم القديم فرأيت أن أوجه بحثه هذه الوجهة وأشجعه على المضى فيها بعد أن حصل على الليسانس فى الأدب من الجامعة القديمة ليكتب عن تاريخ اليهود فى بلاد العرب قبل الإسلام وإبان ظهوره .

وقد وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، وفق إلى عرض مباحث الشرق حول هذا الموضوع فى اللغة العربية .

ويقول طه حسين : فإذا كان عالمنا الشاب قد وفق إلى الخير فى هذا الكتاب الذى قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه الذى أقدمه أنا الآن إلى القراء سعيديا مغتبطا<sup>(١)</sup> فتوفيقه مضاعف ، ذلك لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن

( ١ ) مغتبطا : متمنيا نعمة الغير بدون ذهابها .

قد حققت من قبل ، وفق إلى أن ييسط تاريخ اليهود فى البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره بسطا علميا أدبيا لذيذا ممتعا فى كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة .

وقد كان هذا العمل من طه حسين خطوة أخرى فى خطة واسعة كانت قد سبقتها محاضراته التى نشرها فى صحيفة الجامعة المصرية ١٩٣٥ وتحدث فيها عما أسماه أثر اليهود لا فى الحياة العربية فقط ، بل فى الحياة الأدبية أيضا .

وهذه المحاضرة التى فتح بها الباب أمام هذه الدسيسة التى اتسعت فيما بعد ولقد كان كتاب إسرائيل ولفنسون محاولة لاستقطاب العرب والمصريين فى هذا الوقت إلى أكذوبة اتسع نطاقها من بعد ، هى أن بين اليهود والعرب رابطة العمومة ، وأن هناك قرابة بين اللغة العربية واللغة العبرية ، فى محاولة لتوسيد الخطوات نحو تقبل العرب للكيان الصهيونى الذى بدأ فى فلسطين إذ ذاك ، وإذا كان طه حسين قد أنكر وجود سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ووصلهما إلى أرض الحجاز بالرغم من إشارة القرآن الكريم إلى هذا وإشارة التوراة أيضا ، فإن هذا كان مقدمة لخطوات أخرى لصالح هذا الهدف الكبير .

لقد كانت محاضرة الدكتور طه حسين فى الجامعة المصرية « وسجلت فى العدد الأول من السنة الثالثة ١٩٣٥ » حلقة من سلسلة محاضرات تحدث فيها عن اليهود وما ادعى أن لهم من أثر فعال لا فى الحياة العربية فقط بل فى الحياة الأدبية أيضا ويستطرد ويقول : وبعد ذلك كله يمكننا أن نخلص إلى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود :

**أولا :** أن اليهود أثروا فى الأدب العربى أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود .

**ثانيا :** أن اليهود قالوا كثيرا من الشعر فى الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب .

**ثالثا :** أن اليهود انتحلوا شعرا لإثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب .

وفى ضوء هذه الأفكار أعد إسرائيل ولفنسون رسالة ، فماذا يرى فيها الدكتور فؤاد حسنين الباحث المتخصص فى دراسات التوراة والكتب المقدسة يقول : إن هذا البحث حلقة

من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التي كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيوني تحت إشراف « مارتن بوبر » تدعو إلى نشرها ، وما نقله إسرائيل ولفنسون في رسالته من آراء كان القصد منه إطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء في المصادر الأجنبية التي يجهلها القارئ العام في الشرق .

يقول الباحث ويقره المشرف في رسالته :

لم يظهر شيء من النبوغ والعبقرية في يهود العرب مطلقا ولم تشتهر بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقى الفكرى ، وإن كان اليهود بوجه عام أرقى وأقرب إلى المدنية من بقية العرب ، هذا مما لا يشك فيه أحد من مؤرخى العرب وعلماء الإفرنج !!

وليس الأمر كما يعتقد المشرف أو يريد أن يعتقد فهذه الرسالة التي أشرف عليها مشحونة بالأخطاء التي لا تصدر من طالب مبتدىء في البحث وهي صدى لهذه الآراء التي كثيرا ما ردها في الجامعة فضلا عن أن المراجع العبرية لا تمت إلى البحث بصلة ، والسيد المشرف ( أى الدكتور طه حسين ) لا يعرف العبرية وأخذ بالنتائج التي ينسبها الباحث إلى هذه المراجع العبرية دون التحقق منها ودون الاستفادة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية كانت تقتضى غير هذا ، إن البحث العلمى يجب ألا يصبغ بصبغة القومية المتعصبة كما لا يتخذ وسيلة من وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادى الرخيص ويجب أن يسمو عن كل هذا وينظر إليه كقضية عالمية ، والحقيقة التي يجب أن يؤمن بها الجميع أن الباحث لن يخلط بين المثل العليا التي ينشدها وبين الحقيقة ، وبخاصة إذا علمنا أن ما جاءنا من اليونان أو ما يعرفه أولئك الأوروبيون أو أتباعهم عن اليونانية لا يكاد يتعدى المسائل السطحية خلاف الحال مع الشرق العربى وحضارته وما انحدر لنا منها ، فالشرق العربى هو مركز الموجات الثقافية العارمة التي أدت إلى هذه الأحداث التاريخية العالمية والتي غيرت وجه الوجود فنقلته من البدائية إلى الإنسانية ومن الأنانية إلى الإيثار ، فالعرب المسلمون لا اليونان أو اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود إلى حياة أفضل مكنته من الاستفادة من نواميس الكون ، فأطلق العربى الأفكار من عقالها وحررها من جمود المعبد اليهودى والكنيسة النصرانية ، فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر هؤلاء التلمود وتعاليمه كما انكمش سلطان الكنيسة وتوارت وراء البخور وقد مهد هذا

التطور بدوره إلى ظهور حركة الإصلاح الدينى وبعث النهضة العلمية ومما عاون العرب على الاضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الإنسانية التى أزالوا الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يكتفوا اللون من أن يكون عاملا من عوامل التفرقة والتمييز العنصرى والخط من القيم الإنسانية .

والتاريخ اليهودى يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم فى فلسطين أو فزعا من اضطهاد اليونان والرومان ، فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلا وسهلا .

فهذه القبائل اليهودية التى كانت تنزل يثرب وخيبر ووادى القرى ، وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التى مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العبرية وتجويدها حتى أصبح من المؤلفون لدى اليهود أن يعبر عن أفكاره وشعوره فى لغة ركيكة هى خليط من العبرية والكلدانية واليونانية فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية فما كان هؤلاء اليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر ، فغير نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة أن العربى معجب بلغته معنى بها نثرا وشعرا حريص على المحافظة عليها فصيحة نقية ، ومن ثم أخذ اليهود من جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير ، فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادى القرى وغيرهم إلى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ، ويتأدبون بأدب عربى ويتطبعون بطباع عربية ، ولم يقع أثر العرب والعربية فى اليهود عند اللغة وآدابها بل تعدى العربية الأدبية إلى عربية القرآن الكريم ، ومن ثم حاول اليهود الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقا صحيحا فدفعهم هذا إلى التفكير فى إعجام أسفارهم وإعرايها مقلدين العرب وناقلين عنهم أ . هـ .

وهكذا يتكشف فساد النظرية التى حمل لواءها الدكتور طه حسين وظل يذيعها طيلة حياته ، وهى جماع كلام منسق حاول اليهود إذاعته فى هذه المرحلة ، وكلفوه به ، وخاصة فى سنوات ١٩٤٤ وما بعدها « إيان حشد المهاجرين اليهود فى فلسطين » والمراجع لجريدة الشمس التى كان يصدرها اليهودى « سعد يعقوب المالكى فى القاهرة » يجد فصولا مطولة حول تصور كاذب لدور اليهود فى الجزيرة العربية والأدب العربى وتدهش حين ترى أن الدكتور طه حسين أخذ يردد هذه العبارات ويعيد إلقاءها فى مدارس اليهود ،

وخاصة المدارس الإسرائيلية بالإسكندرية فيقول : حسبما نقلت جريدة الشمس ٢ يناير ١٩٤٤ « العرب قبل الإسلام تأثروا بثقافة اليهود الدينية وفضائلهم ثم عنهم أخذوا فلسفتهم في أن الحياة وسيلة لا غاية كما أن اليهود المستقرون في بلاد النصارى قد عاونوا أبناء عمومهم العرب على الفتح بعد الإسلام وأنهم كانوا عنصرا أساسيا في فتح بلاد الأندلس ومساعدة طارق بن زياد ضد القوط .

ويقول : ولولا هذا التعاون الوثيق لما كانت هذه الإمبراطورية العربية الضخمة وإليهم يرجع الفضل في نقل ثقافة العرب إلى أوروبا وفي جعل الأدب العربي أدبا عالميا . وهذه كلها أكاذيب مضللة كان الدكتور طه حسين يمهدها لقيام الكيان الصهيوني وله في ذلك مشاركات أخرى معروفة .

ولو كان الدكتور طه منصفاً لصور الموقف على حقيقته على ما يقول الأصفهاني مثلا : لما ظهرت الروم على بني إسرائيل جميعا في الشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وغيرهم هاربين إلى الحجاز وأن اليهود دخلوا بلاد العرب عن طريق القوافل وكانت تجارتهم الأساسية الخمور والربا وقد تفشى شرب الخمر في بلاد العرب بفضل اليهود كما ذكر اليعقوبي عن شيوع هذه المفاسد بوجه عام في البدو والحضر .

ويقرر الباحثون أن اليهود لم يكن لهم كيان حقيقى في جزيرة العرب فقد كانوا مهاجرة هاربة بعد خراب الهيكل وليس لوجود اليهود في الحجاز تاريخ مضبوط بالتحقيق ، وغاية ما علم أنهم التجوا مرارا في عصور مختلفة ، وآخرها في زمن يختصر ملك بابل بعد أن غزاهم في أورشليم ( ٦٠٦ ق . م ) فسبى زرايعهم وهدم المدينة المقدسة وخرب الهيكل ففر منهم خلق كثير إلى « يثرب » استوطنوها ومارسوا فيها عقائدهم وطقوسهم وتجارة الربا كما مارسوا الوقعة والفتنة بين القبيلتين الكبيرتين ( الأوس والخزرج ) .

ثم تكررت هذه النكبة على اليهود مرتين في عهد الرومان ( ١٦١ ) قبل الميلاد في عهد الملك أنتجويس فأفحش فيهم بالقتل والنهب وكانت عقائدهم متناقضة ، فمن القول بالقدر إلى القول بالجبر ، ومن التشبيه إلى التنزيه ومن القول بالرجعة إلى إنكارها ، والغالب على عقائدهم التشبيه فهم يجعلون الله « جل في علاه » صورة تكلم الناس مشافهة وتنزل

إلى الأرض وليس فى الديانة اليهودية اسم علم لله تبارك وتعالى وغاية ما عندهم كلمة « ألوهيم » وهى كما لا يخفى اسم جمع ، أما التوراة فقد ذكرت « ابيه ويهوه » وكما تشير كتب التاريخ القديم : إن اليهود فى بلاد العرب لم يكونوا مشهورين بالمعارف بل كانوا مشهورين بالحفاظة على أساطير دينهم وأكثرهم كانوا يجهلون اللغة العبرية التى دونت بها كتبهم وتفاسيرهم فكانوا يتناقلون عقائدهم بما يتلقونه من الأفواه من القصص والروايات بلا نقد ولا تمحيص ولذلك ألبست عليهم الخرافات التى كانت من أساطير الأديان الأخرى القديمة المعبر عنها بالإسرائيليات وبضاعتهم لم تكن إلا نظريات مقتبسة من تعاليم شتى تمسك بها اليهود من تأثير القرون فأكسبتهم الأناية والاحتكار للهداية الإلهية .

وهكذا نجد أن هذه الدعاوى الباطلة فى محاولة رسم « دور » كاذب لليهود فى تمدين جزيرة العرب قبل الإسلام هى محاولة باطلة ، ذلك أن اليهود لم يكن لديهم إلا مجموعة من الأساطير والخرافات التى جمعوها من ركام طفولة الفكر البشرى بعد أن رفع كتابهم ، وكانت هجرة بابل هى التى أثارت فى نفوسهم التطلع إلى « نأر » فى وجه العالم كله يرمى بتجنيد الباطل كله وراء دعوى كاذبة هى الحق المزعوم لهم فى فلسطين بناء على تفسيرات مضللة لنصوص صريحة عن وعد الله تبارك وتعالى لإبراهيم والصالحين من ذريته ، هذا الوعد الذى تحقق فى الرسالة الخاتمة الإسلام .

وبهذه المحاولات فى الشعر الجاهلى ومحاضراته فى الجامعة وفى المرحلة الثالثة حكم الدكتور طه على نفسه بأنه يدافع دائما عن قضايا فاسدة : ويسير وراء أهواء الماسونية التلمودية الصهيونية التى انتهت به بإنشاء مجلة الكاتب المصرى استكمالاً لهذا الدور « والله يقول الحق وهو يهذى السبيل » .

( انتهى )

\* \* \* \*



## تعريف بالمؤلف

كانت حياة هادئة ناعمة لولا أن واجهها التحدى فحولها إلى حياة ذات أغوار .

أمران أساسيان هما اللذان شكلا هذه الحياة ، وأدخلا إليها الالتزام والخطر والعمل على تجاوز الأحداث .

أولهما : ذلك الكتاب الذى أصدره خمسة من المستشرقين حول الإسلام ، والذى أثار فيه رائدهم ( هاملتون جب ) تلك القضية الخطيرة ، قضية ذلك العمل الذى مضى سنوات حتى وصل إلى المرحلة التى يمكن أن تستعلن فيه الخطة التى قام بها الاستشراق من أجل ( احتواء الإسلام ) ليكون ديناً عبادياً منحصراً فى الصلاة والعقائد ، منفصلاً تماماً عن قضايا المجتمع والسياسة والاقتصاد وهو ما قدمه المستشرقون الخمسة للأقطار الإسلامية من المغرب إلى أندونيسيا ، وما هو الحد الذى وصل إليه العمل ، وما هى الخطة التى ستحقق إتمام هذه ( المؤامرة / الجريمة ) ( هذه الدراسة أطلق عليها بعد ترجمتها إلى العربية : وجهة الإسلام ) .

وذلك هو التحدى الذى أذهلنى ودفعنى إلى معرفة أبعاد هذا الخطر ، وما هى القضية كلها أساساً ، وما هو الدور الذى يمكن لكتاب الإسلام أن يقوموا به فى سبيل تحطيم هذه الخطة وتدمير وجهتها .

غير أن هذا العمل الذى شغلنى قد سدّ على كل منافذ حياتى ، وقد اعترتنى غيرة محجومة لكى أعمل مع العاملين فى اقتحام هذه المؤامرة . ولكن كيف أعمل وأنا لا أملك إلا ثقافة متواضعة يسيرة فكان لابد أن أعرف كيف أعمل فى مواجهة هذا التحدى .

هذه هى القضية التى شغلتنى تماماً حتى لم يعد لدى أى مجال لعمل آخر ، وأحسست بالأمانة والمسئولية والخطر الزاحف على أمة الإسلام .

وبدأت أعيد النظر في كل مقومات الفكر الإسلامي وخططه وتاريخه وتاريخ هذه الأمة وما واجهته من حروب وتحديات وأخذت أنطلق من نقطة البدء وهي القرآن الكريم والإسلام وسنة الرسول ﷺ وسيرته .

ثانيهما : كان موضوعاً لكاتب مسلم أعرفه تحت عنوان : ( كيف صححت إسلامي ) فقد كشف لي عن أن الإسلام ليس ديناً عبادياً وإنما هو منهج حياة ونظام مجتمع كامل والعقيدة والعبادة جزء منه ولكنها ليست هو كله .

وقد تبين لي أن مفهوم الدين عند أغلب المسلمين هو هذا المفهوم القاصر الذي عمل النفوذ الغربي والاستشراق والتبشير على إذاعته ونشره في محاولة لقصر الإسلام على الصلاة والمسجد ، وفصل كل قضايا الاقتصاد والاجتماع والسياسة والتربية عنه .

وتلك هي الأطروحة الخطيرة التي عمل النفوذ الغربي على ترويجها ، والتي بدأت منذ نهاية الحروب الصليبية عندما دعا القديس لويس إلى ما يسمى ( حرب الكلمة ) وذلك بتزييف مفهوم الإسلام وتحويله إلى دين لاهوتي مشابه لبعض الأديان المخرفة والبشرية .

ومنذ ذلك اليوم الذي بدأ النفوذ السياسي الغربي يسيطر على بلاد الإسلام وقد تشكلت هذه ( الخطة / المؤامرة ) التي حشد الاستشراق لها خمسة من كبار رجاله هم : ( هاملتون جب وزملانه ) لدراسة ما أطلق عليه : ( Whather Aslam ) : وجهة الإسلام ، وذلك في سبيل تثبيت قواعد الاقتصاد خارج الإسلام والتربية والسياسة جميعاً ، وكان لها إعلاناً لمفهوم العلمانية والفلسفة المادية .

ومنذ ذلك اليوم الموافق لعام ١٩٤٠ تقريباً وقد أخذت أبحث عن هذه المخططات : ( الاستشراق والتبشير والغزو الثقافي ) والتغريب والدخول في قضية كبرى هي : « تصحيح المفاهيم » وأمضيت عشر سنوات كاملة بين أضياف دار الكتب ودورياته ، فقد كان ضرورياً أن أعرف جذور العملية ممثلة في الصحافة التي كانت تعيش ذلك العصر منذ الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ وإلى ذلك اليوم .

كانت أعمالى قائمة أساساً على التعرف بعظمة الإسلام وتاريخه وتراثه وتقديم صورة الأمة الإسلامية فى محال عظمة تاريخها وأمجادها .  
وهذا باب اقتضى منى البحث عن تلك الصور الرائعة التى تمثلت فى كتاب :

- ١ - الشرق فى فجر النهضة .
- ٢ - الإسلام تاريخ وحضارة .
- ٣ - صور مضينة من التراث .
- ٤ - نوايغ الإسلام .

( هذ الجزء يمثل أعلام الفكر الإسلامى منذ العصر الأول ) .  
وامتد هذا العمل إلى الأعلام وتراجم الأعلام ، وقد قطعت فى إعدادها شوطاً طويلاً ممثلاً فى دراسة شبيهة كاملة عن أعلام الإسلام فى الأمة الإسلامية منها فى العصر الحديث ، تحت عنوان ( أعلام القرن الرابع عشر الهجرى ) فى أربع مجلدات هى :

- ١ - أعلام الدعوة والفكر .
- ٢ - تراجم الأعلام المعاصر .
- ٣ - أعلام وأصحاب أقلام .

أما المجلد الرابع : ( أعيان البيان واللغة ) فإنه جاهز ومعد من خلال بعض كتب التراجم الفرعية .  
ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل قد أعددت دراسات موسعة لبعض الأعلام :

- ١ - حسن البنا .
- ٢ - عبد العزيز جاديش .
- ٣ - عبد العزيز النعالى .
- ٤ - فريد وجدى .

- ٥ - أحمد زكى باشا شيخ العروبة .

ولم يتوقف العمل في التراجع عند هذا الحد فقد أصدرت في الأخير:  
( مصابيح التراث والعصر ) ، وما يزال في الجعبة الكثير مما نسأل الله تبارك  
وتعالى لنا القدرة على إنجازه ، وكان هذا العمل ضرورياً في مواجهة الحملة  
الخطيرة على التراث الإسلامي وأعلام الإسلام والتاريخ والثقافة الإسلامية يعطى  
المسلم ثقة عميقة في سلامة المنهج وعظمة العطاء الإسلامي الأصيل .

ولكن لم يكن ميدان التراجع وحده هو الذى يحتاج إلى خدمة واسعة ،  
بل كان الإسلام نفسه بوصفه : ( أغرودة الحياة ونور الوجود ) كله ، والعطاء  
الربانى الكبير الذى انتشر سناه في الأرض كلها وعطر الأرجاء وتلك كانت  
مهمة خطيرة ما تزال نعمل لها مع إخواننا الصادقين ، ولم نصل بعد إلى مرحلة  
ترضى عنها قلوب المؤمنين .

والحقيقة أننى توجهت إلى هذه المسئولية المنوعة الواسعة الممتدة في  
أعماق تاريخ الإسلام إلى يوم أن ظهرت فرق الباطنية والتصوف الفلسفى  
والخلول والاتحاد ، وما تزال تتجدد على أيدي المستشرقين والمبشرين ودعاة  
العلمانية والتنوير والتغريب ، توجهت إليها بصدر رحب ، وإيمان صادق ،  
وعزيمة قوية ، ومازلت أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل لى من عافيته سلاحاً  
لإتمام المشروع وقد جعلت عملى كله حسبة لله تبارك وتعالى وبيعة له ووددت لو  
أننى توضأت دائماً قبل أن أكتب وأعيش على طهارة الصلاة لامطمع لى ولا  
غاية إلا بتبليغ رسالة ربى .

\* \* \*

ولقد كانت أخطر التحديات في هذا المجال هو : تصحيح المفاهيم  
والكشف عن الشبهات التى قد وضعت بخداع ومكر بين النصوص والتعرف  
على مخططات التبشير والاستشراق والتغريب .

وهذا هو العمل الذى بذلت فيه كل ما أمكن من أجل الكشف عنه .  
وكان من الضروري لذلك دراسة الحروب الصليبية وحملات الفرنجة  
على المشرق والمغرب ودعوة لويس مما سماه حرب الكلمة .

وكان لابد أصلاً من جمع المعارك الأدبية والمساجلات التي دارت بين العلمانيين خصوم الإسلام وبين رجال الإسلام وتقصى السوم المدفونة فى مجالات الفكر الإسلامى الزاخرة ، واللى بدأت فى العصر الحديث من خلال إحياء تراث علم الأصنام الذى أشاعه المشاءون الذين احتضنوا الفكر اليونانى ، والفكر الغنوصى وخاصة تلك الجماعة التى هاجرت إلى المشرق : إلى فارس ، واللى احتضنها المأمون وجماعة المعتزلة ودعاة خلق القرآن ، وهم المسيحيون الذين كان يقودهم ( حنين بن إسحق ) ويعمل فى مكر خطير لإدخال مفاهيم المسيحية الغربية على الفلسفة اليونانية ، ويكتب رقاعة على ورق غليظ ، لأنه كان يحصل على مكافئته بوزن هذا الورق بالذهب .

لقد كانت تجربة الفلسفة اليونانية فى اقتحام الفكر الإسلامى خطيرة واحتوت الكثيرين وأثارت جواً مظلماً من الشبهات حتى تصدى لها أعلام الإسلام الأئمة : أحمد بن حنبل ، والغزالي ، وابن تيمية ، وعشرات غيرهم .

حتى سقطت فكرة التصوف الفلسفى وغيرها ، وسقطت الفلسفة اليونانية ، وكان الغزالي هو الذى حطم هذا التيار ، وما يزال دعاة التغريب والغزو الثقافى من أمثال ( عاطف العراقى ) يحملون عليه وينقمون منه ، وكان مرافقه الإمام ابن تيمية وإنشاء كتابه : ( عن المنطق ) خاتمة عاد الفكر الإسلامى بعدها إلى الحق ، فلما جاء النفوذ الأجنبى يحمل لواء ( حرب الكلمة ) بدأت المعركة من منطلق إحياء تراث الفلسفة اليونانية المادية وفرضها على الجامعات هى واللغة اليونانية على يد الدكتور طه حسين الذى أحيى تراث شعر الغلطة والإباحة وأدخله كلية الآداب .

\* \* \*

## ملخص ترجمة حياة المؤلف

من مواليد عام ١٩١٧ بمدينة ديروط حيث كانت تقيم أسرته ، ومنها اتجه إلى الالتحاق بالعمل ببنك مصر خلال عشر سنين ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الصحافة ، وفي خلال هذه الفترة كان قد درس في مجال التعليم التجارى والصحافى واتصل بعدد من الجامعات المصرية والأجنبية غير أنه كان حريصاً على أن يعمل في الصحافة الإسلامية ، وقد تحقق ذلك من عام ١٩٤٦ حيث كتب فصلاً عن الدعوة الإسلامية والتاريخ الإسلامى فى مختلف المجالات الإسلامية . كما اشترك فى عدد من المؤتمرات الإسلامية التى عقدت فى الرياض - الجزائر - المغرب - جاكارتا - مكة المكرمة - الأردن - الخرطوم .

وقد دعى إلى الزيارة والمحاضرة فى جامعات الإمام محمد بن سعود وجامعة العين بالإمارات ، والجمع اللغوى بالأردن . ومنذ بدأ عمله فى مجال الصحافة فقد رسم مخططاً يرمى إلى تقديم خطة كاملة لمقاومة التغريب والغزو الثقافى ثم اتجه بعد ذلك إلى العمل فى مجال أسلمة العلوم والمناهج وتأسيس الفكر الإسلامى وبناء البدائل وهى ما يواصل عمله اليوم بها . هذا وبالله التوفيق .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١٤٠٨٥ / ١٩٩٦

دار النشر للطباعة والنشر  
٢ - شارع فضائل شبرا القنطرة  
الرقم البريدى - ١١٢٣١